حقيقة الإيمان

١-٢

طبعة مزيدة ومحققة ومخرجة الأحاديث

تأليف
أبو حفص
أ.د. عمر بن عبد العزيز قرشي
كلية الدعوة الإسلامية - جامعة الأزهر

دار الهدى

حقيقة الإيمان

الجزء الأول

طبعة مزيدة ومحققة ومخرجة الأحاديث
على كتب العلامة الشيخ الألبانى

تأليف
أبو حفص
أ . د . عمر بن عبد العزيز قريشى
كلية الدعوة الإسلامية
جامعة الأزهر

دار الهدى

الطبعة الخامسة

مزيدة ومنقحة

رقم الإيداع بدار الكتب

٩٤/٥٣٦٥

دار الهدى

نشـــر . توزيـــع

٢٣٢ ش الملك فيصل - التعاون - الهرم ت : ٣٣٨٣٧٧٧٠ - ٠١١ ٢٦٨٢٦٨٣

حقوق الطبع محفوظة للناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد...

فإنه لما كانت العقيدة الإسلامية من الأهمية بمكان، فهى كمنزلة الأساس من البيت، كما هى بمنزلة الرأس من الجسد، ولما كان الكثير من كتب العقيدة كتب بأسلوب يتلائم مع عصره الذى كُتب فيه والذى لا يتناسب مع مستوى طالب العلم فى عصرنا، لهذا فقد استخرت الله تعالى فى تيسير مادة العقيدة لطلاب العلم والدعاة إلى الله تعالى، بجمعها وتحقيقها والتركيز على أهم ما فيها بما يتناسب مع عقيدة السلف الصالح، بعيداً عن السفسطة والفلسفة والجدل وعلم الكلام.

فكان هذا الكتاب «حقيقة الإيمان» تناولت فى الجزء الأول منه معنى الإيمان وصلته بالإسلام، وماهية العقيدة الإسلامية، ومعنى الشهادتين، وحول الركيزة الأولى من ركائز الإيمان. ألا وهى «الإيمان بالله» وما يرتبط بذلك من قضية الوجود، والتوحيد، والكمال، وما يتفرع عن هذه القضايا الرئيسية التى هى جوهر كلمة التوحيد، وما أثير من شبهات حول الوجود، والتوحيد، والكمال.

وذلك بأسلوب ميسور يفهمه الكبير والصغير، والمتعلم والعامى، حتى ينصهر الجميع فى بوتقة الإيمان، ويصل إلى حقيقة الإيمان، ويستظل الكل تحت مظلة التوحيد، وحتى تتمكن العقيدة من القلوب، ولعلها تأخذ بيد الجميع إلى فهم العقيدة الإسلامية، كما جاءت فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة بفهم السلف الصالح، هذا والجزء الثانى اشتمل على بقية ركائز الإيمان.

وإذا كان «حقيقة الإيمان» مشتملاً على ركائز الإيمان، ومبينًا لمعالم العقيدة الصحيحة، فقد أتبعته بكتابين، بينت فيها لونين من الزيغ عن العقيدة الصحيحة، مال أحدهما إلى الإفراط والتعصب، فكان كتاب «شبهات التكفير» ومال الآخر إلى التفريط والتسيب، فكان كتاب «شبهات التصوف».

ولقد حاولت بفضل الله تعالى أن أخرج هذه السلسلة فى العقيدة، لنضع النقاط على الحروف، ونتبين الحق من الباطل، والإيمان من الكفر، بمنطق وسطية الإسلام بعيدًا عن الإفراط والتفريط من أجل أن تتحد الأمة على كلمة سواء، ومن أجل توحيد الكلمة على كلمة التوحيد، وعلى هذا الأساس المتين نضع اللبنات ونبنى البناء على طريق الدعوة والنصر للإسلام والعزة للمسلمين.

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾[1].

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[2].

سائلاً الله تبارك وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يغفر الزلات ويتجاوز عن السيئات، إنه سبحانه مجيب الدعوات.

كتبه

أبو حفص

عمر بن عبد العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبينا محمد، سيد المخلوقات، وعلى آله وصحبه ما دامت السموات.

أما بعد...

فبعد نفاذ الطبعة الأولى والثانية من كتاب «حقيقة الإيمان» ومع رغبة الكثيرين من طلبة العلم فى إعادة طباعته، وشدة احتياجهم إليه، وهم يدرسونه فى المساجد أو المعاهد، ويجدون فيه ضالتهم المنشودة، مع سهولته ويسريته، سيما لكثير من طلبة العلم المبتدئين، وهو يقرب لهم قضية الإيمان، ومسائل التوحيد، وييسر لهم فهم ما بعده من كتب العقيدة، وبناء على هذا أو ذاك، فقد استعنت بالله تعالى على إعادة طبع الكتاب مرة أخرى، وقد راعيت فيه تصويب الأخطاء المطبعية السابقة، كما أضفت إليه مبحثًا عن عقيدة السلف الصالح فى الأسماء والصفات، وذلك لما رأيت أن الكلام المجمل فى الطبعة السابقة لم يف بالمقصود، وكثر التساؤل عن عقيدة السلف الصالح، أو طلب الوضوح والتوضيح، وقد كان بفضل الله تعالى، حتى جاء الكتاب على هذه الصورة بحمد الله.

فنسأل الله تعالى أن يعم به النفع، وأن ينشره فى العالمين، وأن يجعله فى ميزان حسناتنا، وأن يرزقنا الإخلاص فى القول والعمل، إنه ولى ذلك والقادر عليه.

المؤلف

عمر بن عبد العزيز قريشى

تقريظ

لكتاب حقيقة الإيمان

نظمه الشيخ / أحمد بن محمد محمود بن أحمد يور الربانى الموريتانى

يا من يريد حقيقة الإيمان   راجع كتاب «حقيقة الإيمان»

راجعه تلف عقيدة القرآن فى   طياته وعقيدة العدنانى

راجعه تلف عقيدة قد بسطت   وتعهدت بالشرح والتبيان

نبذت إلى أهل الكلام كلامهم   ورمت به فى سلة النسيان

قطعت لسان المنطقى فلم يعد   للمنطقى من منطق بلسان

وأزالت الأدران والشبه التى   يوحى بها الشيطان للإنسان

فرعى الإله بنان شيخ حررت   ذاك الكتاب وحاطها بأمان

يا طالب العلم الصحيح اهنأ بما   أسدى إليك الشيخ من إحسان

قد ضمن الجزءين علمًا وافرًا   لله ما قد ضمه الجزءان

فاهنأ أبا حفص بما قدمته   وإليك ألف بشارة وتهانى

مقدمات في العقيدة

(أ) ما معنى العقيدة؟

العقيدة: لغة من العقدة، وهى الرباط الوثيق والعقيدة اصطلاحًا: هى مجموعة من قضايا الحق البديهية المسلمة بالعقل والسمع والفطرة، يعقد عليها الإنسان قلبه ويثنى عليها صدره جازمًا بصحتها، قاطعًا بوجوبها وثبوتها، لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبدًا.

(ب) ما محتوى العقيدة؟

تحتوى العقيدة على اعتقاد الإنسان بوجود خالقه وعلمه به وقدرته عليه أو لقائه بعد موته ونهاية حياته ومجازاته إياه على كسبه الاختيارى وعلمه غير الإضطرارى وكاعتقاده بوجوب طاعته فيما بلغه من أوامره ونواهيه عن طريق كتبه ورسله طاعة تزكو بها نفسه، وتتهذب بها مشاعره، وتكمل بها أخلاقه، وتنتظم بها علاقته بين الخلق والحياة.

وكاعتقاده بغنى ربه تعالى، وافتقاره إليه فى كل شأنه حتى فى أنفاسه التى يرددها. فبالله تعالى حياته، وعليه وحده توكله واعتماده، إذ هو محط رجائه إذا طمع، ومأمن خوفه إذا خاف، بحبه يحب، وببغضه يبغض.

هو مولاه الذى لا مولى له غيره، ومعبوده الذى لا معبود له سواه، لا يرى ربوبية غيره، ولا يعتقد ألوهية سواه.

إنها تشتمل - بإيجاز - على الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره.

إنها تتلخص فى كلمة التوحيد - أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، قولاً وفقهًا واعتقادًا، وعملاً بأركانها، وشروطها، وواجباتها، ومعناها ثم تتفرع منها بقية قضايا العقيدة.

(ج) ما حاجة الإنسان إلى العقيدة؟

دعوى استغناء الإنسان عن العقيدة دعوى باطلة يكذبها الواقع، ويبطلها تاريخ

البشرية الطويل، إذ واقع البشرية شاهد على أن الإنسان حيثما كان وفى أى ظروف وجد، وعلى اختلاف أحواله وتباين ظروفه لا يخلو من عقيدة أبدًا.

وسواء كانت العقيدة حقًا أو باطلاً، صحيحة أو فاسدة، حتى أولئك الذين يدعون اليوم أن العلم قد أغنى عن العقيدة وعن التدين، وأن الإنسان فى عصر الذرة وغزو الفضاء لم يصبح فى حاجة إلى الإيمان بالله تعالى، وبالغوا فى الكفر والإنكار، وقالوا: إن الإنسان فى الظروف الصعبة التى كان يعيشها والمخاوف التى تنتابه من كل ما حوله من مظاهر الكون إذ هو يخاف المرض ويخاف الفقر ويخاف الرعد والبرق والفيضان والسيول والعواصف والزلازل وحتى الحيوانات، اضطر لأجل ذلك إلى الإيمان بقوة غيبية ذات قدرة لا تعجز، وسلطان لا يغلب أو يقهر. سماها إلها يفزع إليها عند الشدائد ويتقرب إليه بالعبادات ليدفع عنه الشرور ويقيه من المهالك، لهذا قالوا: إن الإنسان هو الذى خلق الإله، وليس الإله هو الذى خلق الإنسان، وهو قول مضحك، وجهل فاضح، وكفر صريح، وكذب ممقوت، ومغالطة مكشوفة، وسخف عقول لا حد له.

إن الإنسان دائمًا فى حاجة إلى الإيمان والتدين والعقيدة، وإن الدين ضرورة من ضرورات حياته، وحاجة من حاجات نفسه، فلا غنى له عن الإيمان بربه وعن عبادته بحال من الأحوال، ومن هنا لم تخل أمة وجدت على وجه الأرض ـ ومنذ عهد الإنسان بالحياة ـ من عقيدة ودين، ومصداق ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[1].

والمراد بالنذير: نبى أو رسول أو عالم وارث لعلم النبوة، ينذر تلك الأمة عاقبة الكفر بالله وبكتبه ورسله وشرائعه، ويحذرها من نتائج الشرك بربها والمعصية له ولرسله وما يتبع ذلك من انحراف السلوك بالظلم والشر والفساد.

ولقد قال "بازماك" ـ المؤرخ الإغريقى مقرراً هذه الحقيقة التى ذكرها القرآن الكريم: «قد وجدت فى التاريخ مدن بلا حصون ولا قصور وبلا سدود ولا قناطر، ولكن لم توجد مدن بلا معابد» ومن هنا تتجلى ضرورة الدين للإنسان،

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٤.

لأنه منذ وجد على هذه الأرض وهو فى حاجة ماسة وملحة أيضًا إلى قوانين ضابطة تعدل من غرائزه وتنظم سلوكه وتحدد اتجاهاته وتهيئه للكمال الذى خلق مستعدًا له فى كلتا حياتيه. الأولى هذه يقضيها قصيرة على هذه الأرض، والثانية التى تتم له فى عالم غير هذا العالم الأرضى الهابط، وإنما فى عالم الطهر والصفاء فى الملكوت الأعلى، كما أخبر بذلك ربه بواسطة كتبه التى أنزلها، وأنبيائه الذين أرسلهم.

ولا يستطيع أحد أن يضع له هذه القوانين غير الله الذى خلقه وعلمه وكمله. والإنسان بفطرته يشعر بضعفه وحاجته إلى ربه فى إعانته وتوفيقه ورعايته وحفظه، ولذا فهو يطلب التعرف إلى ربه والتعرف إليه بما يجب من أنواع القرب وضروب الطاعات والعبادات، والإنسان بمواهبه وأفكاره ومشاعره وأحاسيسه يطلب دائمًا المزيد من السمو والرفعة فى ذلك حتى لا يريد أن يقف عند حد أبدًا. فهو إذًا فى أحواله هذه التى ذكرها مفتقر إلى تشريع دينى إلهى يلائم فطرته وينظم له علاقته فيما بينه وبين أفراده الذين لا يستغنى عن التعاون معهم لتوفير أسباب حياته وبقائها صالحة فى هذا الوجود من مطعم ومشرب وملبس ومسكن ومركب، ويمده بعلوم ومعارف عن ربه ولقائه وعن كيفية عبادته ودعائه وذكره والتقرب إليه بفعل طاعته وإتيان محابه، وترك مكارهه واجتناب مساخطه، كما يمده بفيض علمى عن الحياة والكون يعرف به حقيقة الوجود وعلة الكون والحياة، وأسباب السمو والكمال والهبوط والنقصان، والتى تطرأ له فى حياته الأولى والآخرة.

وبناء على كل ما تقدم فضرورة الإنسان إلى دين إلهى صحيح أشد من ضرورته إلى العناصر الأولية لحفظ حياته من ماء وغذاء وهواء، ولا ينكر هذا أو يجادل فيه إلا معاند مكابر لا يؤبه لعناده ولا يلتفت إلى جداله.

كما أن دعوى أن العقل فى إمكانه الاستقلال بهداية الإنسان إلى ما يصلحه ويسعده دعوى باطلة ساقطة لا وزن لها ولا واقع، وذلك لأننا رأينا الكثير من الأمم والشعوب لما فقدت هداية الوحى الإلهى لم تغن عنها هداية العقول شيئًا فضلت وهلكت كما قال الله فى القرآن: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم

مِن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[١].

وذلك لأن العقول لا تهدى إلى معرفة كل ما ينفع الإنسان فى حياته ليأخذ به، ولا إلى معرفة كل ما يضير الإنسان فى حياتيه كلتيهما ليتجنبه وينجو مما يضره إلا فى ضوء الشرع الإلهى ونور وحيه لأن العقول لا تعدو كونها آلة إدراك كحاسة العين التى هى آله إبصار، والعين قطعًا لا تبصر مهما كانت سليمة وقوية إلا فى الضوء والنور، ولا يمكنها أن ترى وتبصر فى الظلام أبدًا وفى حال من الأحوال. والعقل مثل العين سواء بسواء كما أن العين لا تبصر إلا فى الضوء والنور فإن العقل لا يدرك إلا على ضوء الشرع الإلهى ونور وحيه تعالى إلى أنبيائه ورسله. ومن رأى غير هذا فإنه يغالط نفسه ويكابر فى شىء فيه من الخطأ والضلال والمكابرة ما فيه لكونه من المحسوس المشاهد.

كما أن دعوى الاكتفاء بالعلم عن الوحى الإلهى الذى تمثله الشرائع الإلهية الصحيحة السليمة من التحريف. والزيادة والنقص والتبديل كالدين الإسلامى مثلاً دعوى باطلة قطعًا، ومن وجهين أيضًا:-

الأول: أن ما عند الناس من بعض العلوم والمعارف والفنون والأخلاق والآداب إنما هو بدون شك مأخوذ من الوحى الإلهى إما بالنص اللفظى، أو بالاستنباط، وإنما نسب إلى بعض الأشخاص مغالطة وتضليلاً لا غير.

الثانى: أن العلم المادى مقصور على نفع الإنسان فى الجانب المادى منه وهو الجسم ومتطلباته، وأما الجانب الروحى - وهو الأهم قطعًا - فإن العلم المادى لم يخدمه فى شىء ولم يقدم له أى نفع البتة، لأنه لم يكن روحيًا مجانسًا للروح فيقدم له ما هو فى حاجة إليه.

إن العلوم الإنسانية الخالية من الوحى الإلهى لم تعدُ الكشف عن بعض الظواهر الكونية المادية فقط. كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[٢]

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٢٦

(٢) سورة الروم الآية ٧

فكيف إذا تستطيع أن تقدم أى خدمة للروح وهى لم تكسر حجاب المادة بعد، ولم تعرف أى سر عن حقائق الكون وعلله.

إن العلم المادى قد يصل بالإنسان إلى غـذاء البدن ـ لأنه من طين ـ ولا سبيل له إلى غذاء الروح لأنها من أمر الله. فلا غذاء لها إلا بوحى الله وشرعه.

وإن العلم المادى قـد يبلغ مداه عن الدنيـا لأنها مـشاهدة، ولا سبـيل له إلى الآخرة لأنهـا غيب، والعلم المادى يبلغ ذروته فى المادة ولا سبـيل له إلى ما وراء المادة إلا عن طريق الوحى، وشىء آخر: أليست العلوم المادية قد بلغت الذروة فى الكمال بعد أن قطـعت شوطًا بعيدًا فى التطور والشـمول فى كل المجالات. ومع هذا الكمال فإن البشرية فى شقاء دائم، ولم تَخطُ يومًا ما خطوة إلا إلى شقاء آخر أكبر. والواقع يشهـد وهو خير شاهد. ولذا فإنه لا مناص من الاعتراف بالحـقيقة والتـسليم بها، وهـى أن الدين الحق ضرورى للإنسـان لا غنى له عنه بحـال من الأحوال وأن كـمال الإنسـان وسعادته مـتوقفـان عليه توقف المعلول عـلى علته، والسبب على سببه، وليعلم أخيراً أن الدين الذى نعنى ضـرورته للإنسان لتوقف سعادته وكماله عليه فى الدنيـا والآخرة إنما هو الدين الصحيح. الدين الذى شرعه الله وصحت نسـبته إليه تعـالى. أما الأديان الباطلة المفتـراه كالبوذية والمجـوسية، والمحرفة المبدلة كاليـهودية والنصرانية، فإنها ـ وإن سميت أديانـًا ـ فإنها خالية من الوحى الإلهى الذى يمثل فيها شرعًا إلهيًا مـتكاملاً يقدم للإنسان كل ما يحتاج إليه لإصلاح جسمه وروحه، وإسعاده فى الدنيا والآخرة.

والدليل الواضح لذلك أن أوربا المتدينة بالنصـرانية لم تتقدم حـضاريًا إلا بعد التمرد والكفر بالدين الذى كانت تعيش عليه زمنًا طويلاً وهو يكبلها ويقيدها حتى قام رجـال منها وحـاربوه وخرجوا عن قـيوده وكـفروا بشرائعـه، وبذلك تم لهم الانعتاق من الضلال، والانطلاق من الباطل.

وإن بحثت البشرية الراشدة العاقلة عن دين إلهى صحيح سليم، فإنها واجدته قطعًا ـ وبدون شك ـ فى الإسلام دين الـبشرية العام. الذى تضمنه كـتابه «القرآن الكريم». الذى لم ينقص منه حرف منذ أن نـزل ولم يزد فيه آخر ولم تحـرف فيه كلمة عن موضعها منه، ولم تخرج عبارة عن مدلولها قط. بالرغم من مرور ألف

وأربعمائة سنة عليه - بل يزيد - إن الدين الإسلامى هو الدين الكفيل بإنقاذ البشرية اليوم والخروج بها من محنتها المادية العاتية. التى سلبتها - أو كادت - كل معانى الآدمية الكريمة، والإنسانية الفاضلة حتى صيرت الإنسان آلة لا فهم لها ولا ذوق ولا تقدير لها ولا إحترام.

فإلى الإسلام يا عقلاء الناس. فإنه الدواء لدائكم، والهداية لكم من ضلالتكم، فأقبلوا عليه عقيدة وحكمًا ونظامًا، فإنه ينجيكم ويسعدكم.

«جربوا فإن التجربة أكبر برهان»(١).

فما هو الإسلام؟(٢).

(د) ما معنى الإسلام؟

والإسلام لغة الاستسلام والانقياد. والإسلام فى الشرع إظهار الخضوع وإظهار الشريعة، والتزام ما أتى به النبى ﷺ، وبذلك يحقن الدم ويستدفع المكروه، وما أحسن ما اختصر «ثعلب» - من علماء اللغة - ذلك فقال: الإسلام باللسان، والإيمان بالقلب.

ويقال: فلان مسلم أى هو المستسلم لأمر الله، وهو المخلص لله العبادة، من قولهم: سلم الشىء لفلان أى خلصه، وسلم له الشىء، أى خلصه له، وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»(٣) قال الأزهرى: فمعناه أنه دخل فى باب السلامة حتى يسلم المؤمنون من بوائقه، وفى الحديث: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»(٤) وقوله تعالى: ﴿**يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا**﴾(٥). فسره «ثعلب» فقال: كل نبى بعث بالإسلام، غير أن الشرائع تختلف. وقوله عز وجل: ﴿**وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**﴾(٦). أراد مخلصين

---

(١) كتاب: عقيدة المؤمن ص ١٩ : ٣١ بتصرف

(٢) انظر المبحث القادم

(٣) متفق عليه (البخارى ١٠ ، ومسلم ٤٠).

(٤) أخرجه البخارى ٢٤٤٢ .

(٥) سورة المائدة الآية: ٤٤

(٦) سورة البقرة الآية: ١٢٨

لك، فعداه باللام إذ كان فى معناه. وقوله عز وجل: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾(١). قال عنى به الإسلام وشرائعه كلها، والسلم والإسلام والانقياد والاستسلام، وأسلم أى دخل فى الإسلام، وأسلم أمره لله أى دخل فى السلم وهو الاستسلام وأسلم من الإسلام، وأسلمه أى خذله(٢).

والإسلام هو دين الله تعالى، كما قال فى كتابه الكريم: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾(٣).

ومن ثم أرسل به جميع أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام - من آدم عليه السلام، حتى كانت الرسالة الخاتمة على يد النبى محمد ﷺ.

وقد أكد القرآن هذا المعنى وأشار إليه بذكر نماذج له:

فأول الرسل نوح عليه السلام - وقد قال الله عز وجل عنه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٤).

وأبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام قال عنه القرآن أيضًا: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٥).

وقال عنه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٠٨
(٢) لسان العرب جـ٣ ص٢٠٧٧ - ٢٠٨١ بتصرف
(٣) سورة آل عمران الآية: ١٩
(٤) سورة يونس الآية: ٧١، ٧٢
(٥) سورة البقرة الآية: ١٣٠ - ١٣١
(٦) سورة آل عمران الآية: ٦٧

وتحدث عنه مع ابنه الأكبر إسماعيل، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(١).

وعن بقية أبنائه فقال: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(٢).

وعن الحفيد يوسف ـ الكريم ـ عليه السلام، قال تعالى: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(٣).

وعن الكليم موسى عليه السلام ـ فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾(٤).

وقال عن أتباعه فى مواجهة فرعون بعد إيمانهم: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾(٥).

وقال عن سليمان عليه السلام ـ وهو يدعو إلى الإسلام: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٢٧ ، ١٢٨

(٢) سورة البقرة الآية: ١٣٢ ، ١٣٣

(٣) سورة يوسف الآية: ١٠١

(٤) سورة يونس الآية: ٨٤

(٥) سورة الأعراف الآية: ١٢٦

(٦) سورة النمل الآية: ٣٠، ٣١

فلما أسلمت ملكة سبأ قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١).

وهذا سيدنا عيسى عليه السلام، كان مسلمًا ودعا إلى الإسلام فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٢).

كما قال عنهم أيضًا: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾(٣).

وعن أنبياء بني إسرائيل قال تعالى في معرض الحديث عن التوراة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾(٤).

كما قال عن جميع الأنبياء مجملاً: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٥).

ثم تحدث القرآن عن خاتم الأنبياء والرسل. فجعله أولهم وإن كان آخرهم زمانًا فقال عنه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(٦).

به تمت النعمة واكتمل الدين الذي رضيه الله لخلقه، فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾(٧).

---

(١) سورة النمل الآية: ٤٤

(٢) سورة آل عمران الآية ٥١، ٥٢

(٣) سورة المائدة الآية ١١١

(٤) سورة المائدة الآية: ٤٤

(٥) سورة البقرة الآية: ١٣٦

(٦) سورة الأنعام الآية: ١٦٢، ١٦٣

(٧) سورة المائدة الآية: ٣

فكانت الرسالات السابقة تمهيداً للرسالة الخاتمة، اتحدت معها فى العقيدة والأصول: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾(٢).

وإن اختلفت الشرائع والمناهج لاختلاف الأزمنة والأمكنة والمدارك والعقول، وذلك لحكمة العليم الخبير: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾(٣).

ولذلك فالدين هو الإسلام، لا بديل عنه ولا مفر منه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(٤).

وهذا الدين (الإسلام) هو الفطرة كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾(٥).

وقوله ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»(٦).

وهو النور من رب العالمين كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٧).

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ٢٥

(٢) سورة الشورى الآية: ١٣

(٣) سورة المائدة الآية: ٤٨

(٤) سورة آل عمران الآية: ٨٥

(٥) سورة الروم الآية: ٣٠

(٦) متفق عليه (البخارى ٦٥٩٧ ، ومسلم ٢٦٥٨).

(٧) سورة البقرة الآية: ٢٥٧ .

ولذا كتب الله له الخلود والبقاء وإن رغم أنف الأعداء قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⁽٨⁾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[١].

وبعد، فلقد عرف الإسلام ببنائه الشامخ وصرحه العظيم فى شمولية تامة وكمال واف جميل، هذا ونستطيع أن نشبه الإسلام بالبيت، وكل بيت له أساس، وأعمدة، وبناء، ومؤيدات.

فأساس الإسلام وقاعدته تتمثل فى عقيدته وتتلخص فى كلمة التوحيد (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله). ثم تأتى أعمدته الأربع والتى تمثل الزوايا والأركان متمثلة فى:

الصلاة ـ الزكاة ـ الصوم ـ الحج. ويطلق على هذه الخمس أركان الإسلام وقد بين ﷺ أن الإسلام قد بنى عليها فى حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً»[٢].

فهذه أهم ما فى البيت ينبى عليها ـ لا فيها ـ ثم يأتى المهم وما دونه بعدها، ولئن أجاب ﷺ عن الإسلام بهذه الخمس ـ فى حديث جبريل فإنما يعنى أهم ما فيه وما يبنى عليه. كقوله ﷺ «الحج عرفه»[٣] وليس الحج هو الوقوف بعرفات فقط. ثم يأتى دور البناء فما هى اللبنات التى يتكون منها؟.

إنها حياة كاملة سطرها القرآن: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة الصف الآية: ٨، ٩.

(٢) متفق عليه (البخارى ٨ - ومسلم ١٦).

(٣) أخرجه الخمسة (أحمد ١٨٧٩٦ .والنسائى ٣٠١٦ . والترمذى ٨٨٩ . وأبو داود ١٩٤٩ . وابن ماجه ٣٠١٥)، وقال الألباني في صحيح الجامع (٣١٧٢) : صحيح.

(٤) سورة الأنعام الآية: ٣٨

وعاشها النبى محمد ﷺ وبينها: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١).

سواء كانت حياة دينية أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو عسكرية أو تربوية أو تعليمية أو أخلاقية. فهى تشمل نظم الحياة.

ومع ذلك لم يكتمل البيت ولا يصلح للسكنى، حتى تكون له مؤيدات كالباب والنافذة والسقف تكون بمثابة تمامه وكماله.

فالباب: هو الأمر بالمعروف ،منه يدعو الناس للدخول فى هذا البيت.

والنافذة: هى النهى عن المنكر، به يطرد السيئات والذنوب كما يطرد الذباب، ويدفع الحر والقر.

والسقف: هو الجهاد فى سبيل الله، فهو ذروة سنام الإسلام وأعلى ما فيه، وبه يحفظ البيت من السرقة والسطو عليه. فلا يذل أهل البيت، إذ بدون هذا السقف يغير اللصوص على البيت فيسرقون المتاع، ثم يهدمون البنيان، ويقوضون الأركان. حتى لايبقى من البيت إلا أطلال وأعمدة متهدمة فقدت رونقها وجمالها وحكمتها، وقاعدة فى باطن الأرض لا فائدة لها فوق الأرض، لو أراد الأعداء نزعها لفعلوا، ولكنهم تركوها لأن أصحاب البيت يمدون أيديهم للصوص الذين سرقوهم يأخذون منهم الغذاء وينتظرون الدواء ويشترون منهم السلاح الذى به سيحاربونهم بعد. فتأمل!!

فهذا حال إسلامنا، وذلك حال المسلمين.

---

١) سورة النحل الآية ٤٤

الفصل الأول
مفاهيم يجب الوقوف عندها

مفهوم الإيمان والكفر:

* قضية الإيمان والكفر: هى أخطر القضايا الإنسانية عامة لأنها تتصل بعلاقة الإنسان بربه التى هى أهم العلاقات التى يرتبط بها الإنسان مع غيره. والأساس الذى يقوم عليه الإيمان والكفر هو الاعتقاد بوجود الله وبوحدانيته التى لا يشاركه فيها أحد، وعلى أساس هذا الاعتقاد تكون العقائد الأخرى.

يقول الله فى المهمة المشتركة التى أرسل من أجلها الرسل: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾[١].

ويقول تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾[٢].

وإذا كانت الأمم أو الدول أو الجماعات تقوم أكثر ما تقوم على مجموعة العقائد والأفكار، وعلى ضوئها تكون الصلة بينها قربا أو بعدا، اتفاقا أو اختلافا، سلمًا أو حربًا. فإن هذا يبرز أهمية العقيدة ودور الإيمان فى هذا المجال.

ومن أجل هذا لابد أن يكون الحديث عن الإيمان والكفر حديثًا دقيقًا يعتمد على الأدلة والمنطق الصحيح وعلى وضوح الرؤية لكل مظهر من مظاهر القول والعمل الذي يتصل بالعقيدة بوجه عام.

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ٢٥

(٢) سورة النحل الآية ٣٦

حقيقة الإيمان

تضافرت عبارات أهل السنة والجماعة فى الدلالة على أن الإيمان: قول وعمل، وأنه يزيد وينقص.

يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى فى كتاب الإيمان «وهو قول وعمل، يزيد وينقص، قال الله تعالى: ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ (١). ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ (٢) ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾(٣) ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾(٤) وقال أيضا: «لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحداً منهم يختلف فى أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص.

قال سفيان الثورى: «والإيمان قول وعمل ونية، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية».

وقال أبو زرعة وأبو حاتم الرازيان: «أدركنا العلماء فى جميع الأمصار حجازا وعراقا وشاما ويمنا فكان من مذهبهم: الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص».

يقول الحافظ ابن حجر: «وقد أطنب ابن أبى حاتم، واللالكائى فى نقل ذلك المعنى بالأسانيد عن جمع كثير من الصحابة، والتابعين وكل من يدور عليه الإجماع من الصحابة والتابعين،(٥) ومما تقدم يتبين لنا أن حقيقة الإيمان تقوم على دعامتين:

إحداهما: أن الإيمان قول وعمل. والأخرى: أنه يزيد وينقص.

فما معنى قولهم: الإيمان قول وعمل:

القول المطلق والعمل المطلق فى كلام السلف يتناول قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، أى يتضمن: التزام الباطن والظاهر ومن هذا يتبين أن

---

(١) سورة الفتح: ٤ (٢) سورة مريم: ٧٦ (٣) سورة محمد: ١٧ (٤) سورة المدثر: ٣١
(٥) فتح الباري ١/ ٦٧ -٦٩ وأصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ١/ ١٥١ - ١٧٦ بتصرف

شروط صحة الإيمان هى:

التزام الباطن: وهو قول القلب وعمله، فقوله هو التصديق، وعمله هو الحب والخوف والرجاء والانقياد والتسليم.

التزام الظاهر: وهو الإقرار وعمل الجوارح.

وفيما يلى تفصيل هذين الشرطين:

* التزام الباطن: والتزام الباطن هو الذى يفرق به بين المؤمن و المنافق، فالمؤمن يجمع إلى التزامه بالدين ظاهراً التزام به باطنا، بينما المنافق تحقق فيه التزام الظاهر وتخلف عنه التزام الباطن.

والتزام الباطن يتحقق بأمرين: الأول: تصديق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند الله.

الثانى: عمل القلب مثل الإخلاص والحب والانقياد والتسليم لحكم الله.

فالتزام الباطن لا يكون إلا بتحقق هذين الأمرين كليهما، فلا يكفى مجرد اعتقاد صدق المخبر دون الانقياد له، ولو كان مجرد اعتقاد الصدق يتحقق به الإيمان لكان إبليس مؤمنا.

يقول القسطلانى فى تعريف الإيمان: وهو لغة التصديق، وهو كما قال التفتازانى: إذعان لحكم المخبر وقوله، فليس حقيقة التصديق أن يقع فى القلب نسبة التصديق إلى الخبر أو المخبر من غير إذعان وقبول، بل هو إذعان وقبول لذلك بحيث يقع عليه اسم التسليم.(١)

وقد ضل فى هذه المسألة بعض الطوائف، فقصروا الإيمان على التصديق دون الإنقياد، وهذا من أبطل الباطل لمخالفته لصريح القرآن والسنة.

من أدلة ذلك: قول الله تعالى فى أهل الكتاب ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** ﴾(٢) فقد أخبر الله تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون نبوة محمد ﷺ وصدق رسالته، كما يعرف أحدهم ولده، وقد روي أن عمر بن

---

(١) إرشاد الساري ١/ ٨٢

(٢) سورة البقرة : ١٤٦

الخطاب رضى الله عنه قال لعبد الله بن سلام - رضى الله عنه - «أكنت تعرف محمد ﷺ كما تعرف ابنك؟ فقال: نعم وأكثر، بعث الله أمينه فى سمائه إلى أمينه فى أرضه بنعته فعرفته، وابنى لا أدرى ما كان من أمه».

فهم مع هذا التحقق والتصديق لم يدخلوا فى دائرة الإيمان، لتخلف لازم التصديق وهو الانقياد والتسليم.

ومن الأدلة أيضا. قول الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[(1)] أى أن فرعون وقومه، لما جاءتهم آيات الله بينة واضحة ظاهرة، علموا فى أنفسهم، وتيقنوا أنها حق من عند الله، ولكن لما لم يقترن بهذا العلم والتصديق انقياد وتسليم، لم يرفع عنهم الوصم بالكفر.

ومما يدل على وجوب الانقياد والتسليم قول الله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[(2)]

فقد نفى الله تعالى فى هذه الآية - الإيمان عمن لم يتحاكم إلى شرع الله فيقبله ويرضى به، بحيث لا يجد فى نفسه حرجاً من ذلك، بل يسلم تسليما.

يقول ابن القيم: الرضى بالقضاء الدينى الشرعى واجب، وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان، فيجب على العبد أن يكون راضيا به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض[(3)].

وقال الله تعالى فى المشركين: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[(4)] أى أنهم لا يكذبونك فى نفس الأمر ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم.

ومنها ما رواه صفوان بن عسال قال: «قال يهودى لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبى، قال صاحبه: لا تقل نبى، لو سمعك كان له أربعة أعين، فأتيا رسول الله

---

(١) سورة النمل: ١٤ (٢) سورة النساء: ٦٥ (٣) مدارج السالكين ٢/ ١٩٢

(٤) سورة الأنعام: ٣٣

ﷺ فسألوه عن تسع آيات بينات، فقال لهم: لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا، ولا تزنوا. . . فقبلوا يديه، وقالوا: نشهد أنك نبى ، قال فما يمنعكم أن تتبعونى؟ قالوا: إن داود دعا بأن لا يزال من ذريته نبى، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود (١)

فهؤلاء النفر من يهود صدقوا الرسول ﷺ وشهدوا له بأنه نبى، ولكن لما لم يتحقق منهما اتباعه والتزام ما جاء به بقيا على كفرهما .

ومن ذلك أن أبا طالب الذى ظل عمره كله يحوط النبى ﷺ ويمنعه كان مصدقا برسالته ﷺ.

فكان يقول:

ولقد علمت بأن دين محمد — من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة — لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

ولكنه امتنع عن اتباعه خشية الملامة، فلما لم يقترن بتصديقه انقياد ولا تسليم لم يكن مؤمنا.

* التزام الظاهر: وهو قول اللسان، وعمل الجوارح، فقول اللسان هو الاقرار بالشهادتين، وعمل الجوارح هو فعل المأمورات وترك المحظورات، فمن لم يتكلم بالشهادتين مع القدرة لايثبت له اسم الإيمان ولا حكمه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وكذلك من ترك العمل بالكلية فلم يعمل أى طاعة ولم يترك أى معصية، فلا يثبت له من الإيمان لا اسمه ولا حكمه.

وحقيقة الالتزام الظاهر الذى هو شرط فى صحة الإيمان تتمثل فى أمرين.

أحدهما: ترك النواقض، وهى كل ما يعود على أصل الإيمان بالنقض من الأقوال والأفعال، وهى على ضربين: إما أن تكون ناقضة لأصل الإيمان بذاتها مثل إنكار الربوبية أو الطعن فيها أو الطعن فى أسماء الله وصفاته أو في ألوهيته

(١) أخرج أحمد ١٨١١٧ - والترمذى ٢٧٣٣ - والنسائى ٤٠٧٨ وغيرهم وقال الألبانى فى ضعيف الترمذى: ضعيف.

أو الطعن في الرسالة أو في صاحبها ﷺ أو الاستهزاء بالدين ، ونحو ذلك .

وإما أن تكون ناقضة لأصل الإيمان لأمر خارج عنها، مثل استحلال المحرمات، وذلك لأن فعل المحرمات ليس في ذاته ناقض ، وإنما صار ناقضًا لما اقترن به من استحلال .

والأخرى: قبول التكاليف، وعدم إنكار شيء منها لقوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً** ﴾[1] أى اقبلوا الإسلام بكليته وشموليته،مع مراعاة عدم ترك العمل مع القدرة على ذلك، لارتباط العمل بالإيمان ، فالأعمال بالجوارح تصديق عن الإيمان بالقلب واللسان، فمن لم يصدق الإيمان بعمله. مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وأشباه هذا، ورضي لنفسه بالمعرفة دون العمل لم يكن مؤمنا ، ولم تنفعه المعرفة والقول ، وكان تركه للعمل تكذيبا منه لإيمانه،وكان العمل بما ذكرنا تصديقا منه لإيمانه، فاعلم ذلك ، فهذا مذهب علماء المسلمين قديما وحديثًا ،فمن قال غير هذا فهو مرجيء خبيث، احذره على دينك ،

والدليل على ذلك قول الله تعالى ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾[2]

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية "إنه من المعلوم أن نفس العلم والتصديق بالله وما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى يوجب محبة القلب وتعظيمه وخشيته، وذلك يوجب إرادة طاعته وكراهية معصيته،والإرادة الجازمة مع القدرة تستلزم وجود ذلك المراد أو المقدور عليه منه، ولو بنظرة أو حركة رأس أو لفظة أو خطوة أو تحريك بدن " .

ويقول فى موضع آخر : ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمنًا إيمانًا ثابتا فى قلبه بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة ولايصوم من رمضان،ولايؤدى لله زكاة ولا يحج إلى بيته، فهذا ممتنع ولا يصدر هذا إلا مع نفاق في القلب وزندقة، لا مع إيمان صحيح ، ولهذا إنما

(١) سورة البقرة : ٢٠٧

(٢) سورة البينة : ٥

يصف سبحانه بالامتناع من السجود الكفار، كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾(١)

وقوله تعالى ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾(٢)

وقوله تعالى ﴿ فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾(٣)

وكذلك قوله تعالى ﴿ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾(٤)

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾(٥)

فوصفه بترك الصلاة كما وصفه بترك التصديق. ووصفه بالتكذيب والتولى، والمتولى هو العاصى الممتنع من الطاعة.(٦)

تلك شروط صحة الإيمان عند أهل السنة والجماعة، وقد ضلت في عدم اعتبارها طوائف من المرجئة وغيرهم وللعمل نظرة عند أهل السنة في ارتباطه بالإيمان، ليس على نحو ماذهبت إليه الخوارج والمرجئة.

وإليك المزيد من كلام أهل السنة والجماعة في قضية العمل بالنسبة للإيمان، قالوا: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، زيادته إذا أحسنت، ونقصانه إذا أسأت.

ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام، فإن تاب رجع إلى الإيمان، ولا يخرجه من الإسلام إلا الشرك بالله العظيم، أو برد فريضة من فرائض الله جاحداً لها فإن تركها تهاونًا بها وكسلا كان في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه.

---

(١) سورة القلم: ٤٢، ٤٣ (٢) سورة المرسلات ٤٦ - ٤٩ (٣) سورة الانشقاق: ٢٠ - ٢٣
(٤) سورة القيامة: ٣١-٣٢ (٥) سورة المدثر ٤٢ - ٤٧
(٦) مجموع الفتاوي ٧ / ٦١١ - ٦١٢ بتصرف، وأصول الإيمان عبد المنعم أمين بتصرف ص ٥٣ - ٦٠

وللإيمان أصل من نقص منه مثقال ذرة زال عنه اسم الإيمان ، ولكنه يزداد بعده إيمانا إلى إيمانه ، فإن نقصت الزيادة التى بعد الأصل كان كشجرة ناقصة الأغصان والأوراق والثمار . ومن زاد عـملا من الأعمال فقد زاد مـعها الإيمان ، لأن النبى ﷺ سماها شعب الإيمان .

ومن ضيع منها شعبـة نقص الإيمان ، وكان غيره أكمل منه إيمانا ولا يزول عنه اسم الإيمان حتى يزول الأصل ويعتقد أهل السنة أن المؤمن وإن أذنب ذنوبا كثيرة، صغائر وكبـائر فإنه لا يكفر بها ، وإن خرج من الدنيا غـير تائب منها ومات على التوحيـد والإخلاص، فإن أمره إلى الله عز وجل إن شـاء عفا عنه وأدخله الجنة يوم القيامة سالما غانما، غير مبـتلى بالنار ولا معاقب على ما ارتكبه واكتسبه ، ثم استصحبه إلى يوم القيامـة من الآثام والأوزار ، وإن شاء عاقبه وعذبه مدة بعذاب النار، وإذا عذبه لم يخلده فيها، بل أعتقه وأخرجه منها إلي نعيم دار القرار.

وللإيمـان فرائـض وشـرائع ، مـن استكملها فقـد اسـتكمـل الإيمـان، ومن لم يستكمـلها لم يستكمل الإيمان ، وأكـمل المؤمنين إيمانا أحسنهـم خلقا ، وترك الصلاة كفر ، ليس شئ من الأعـمال تركه كفر إلا الصلاة من تركـها كسلا وهو يعتقد وجوبها يكفر كفرا عـمليا لايخرجه من الملة ـ على تفصيل فى المسألة ـ وأما من ضيع الأعمال كلها . التى بعدها ،فهو مؤمن عاص ناقص الإيمان، لايكفر .

وأنه إذا عذب بالنار فى الآخرة، فإنه يخـرج منهـا برحمـة الله. ولا يخلد فيها إلا كافر أو مشرك أو منافق،وأنه يخـرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، مخلصا من قلبه، يوما ما، وكان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان . إلى أدنى أدنى أدنى من ذلك ، ثم من لا يعمل خيراً قط إلا شهادة الإسلام . وذلك بالجمع بين النصوص كلها .

واسم الإيمان يجمع الطاعات كلها فرضها ونفلها ، ولكنها على ثلاثة أقسام .

قسم يكفر بتركه ، وهو اعتقاد ما يجب اعتقاده والإقرار بما اعتقده .

وقسم يفسق بتركه أو يعص ولايكفـر به إذا لم يجحده،وهو مفروض الطاعات كالصـلاة والزكاة والصـيام والحج واجتناب المحـارم .وقسم يكون بتـركه مـخطئا للأفضل غير فاسق ولا كافر، وهو ما يكون من العبادات تطوعًا.

إن من ترك فروع الإيمان لا يكون كافراً حتى يترك أصل الإيمان وهو "الاعتقاد" ولا يلزم من زوال فروع الحقيقة التى هى ذات شعب وأجزاء زوال اسمها ، كالإنسان إذا قطعت يده ، أو الشجرة إذا قطع بعض فروعها كما أشرنا فالإيمان يبنى من أصوله ويكمل بفروعه كما أنه تقرر من مذهب أهل السنة والجماعة مادل عليه الكتاب والسنة ، أنهم لا يكفرون أحدا من أهل القبلة بذنب، ولا يخرجونه من الإسلام بعمل ، إذا كان فعلا منهيا عنه مثل الزنا والسرقة وشرب الخمر ، مالم يتضمن ترك الإيمان ، وأما إذا تضمن ترك ما أمر الله بالإيمان به مثل : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والبعث بعد الموت ، فإنه يكفر به ، وكذلك يكفر بعدم اعتقاد وجوب الواجبات الظاهرة المتواترة ، وعدم تحريم المحرمات الظاهرة المتواترة.

هذا والإسلام يتناول من أظهر الإسلام وليس معه شيء من الإيمان ، وهو المنافق المحض، ويتناول من أظهر الإسلام مع التصديق المجمل في الباطن ولكن لم يفعل الواجب كله لامن هذا ولا من هذا وهم الفساق يكون في أحدهم شعبة نفاق .

ويتناول من أتى بالإسلام الواجب وما يلزمه من الإيمان ولم يأت بتمام الإيمان الواجب، وهؤلاء ليسوا فساقًا "حيث لم يتركوا فريضة ظاهرة ولم يرتكبوا محرما ظاهراً ، ولكن تركوا من حقائق الإيمان الواجبة علما وعملا بالقلب يتبعه بعض الجوارح ما كانوا به مذمومين.

وهذا هو النفاق الذى كان يخافه السلف على نفوسهم ، فإن صاحبه قد يكون فيه شعبة نفاق. هذا وفى القرآن والسنة نفي للإيمان عمن لم يأت بالعمل في مواضع كثيرة، كما نفى فيها الإيمان عن المنافق. وأما العالم بقلبه مع المعاداة والمخالفة الظاهرة فهذا لم يسم قط مؤمنا.

فإذا قيل : الأعمال الواجبة من الإيمان ، فالإيمان الواجب متنوع ليس شيئا واحدا فى حق جميع الناس، وأهل السنة والحديث يقولون : جميع الأعمال الحسنة واجبها ومستحبها من الإيمان ، أى من الإيمان الكامل بالمستحبات ، وليست من الإيمان الواجب ، ويفرق بين الإيمان الواجب وبين الإيمان الكامل

بالمستحبات كما يقول الفقهاء : الغسل ينقسم إلى مجزئ وكامل ، فالمجزئ ما أتى فيه بالواجبات فقط ، والكامل ما أتى فيه بالمستحبات، ولفظ الكمال قد يراد به الكمال الواجب ، وقد يراد به الكمال المستحب .

وأهل السنة متفقون على أن الفساق الذين ليسوا منافقين معهم شئ من الإيمان يخرجون به من النار وهو الفارق بينهم وبين الكفار والمنافقين ، لكن إذا كان معه بعض الإيمان لم يلزم أن يدخل فى الاسم المطلق الممدوح ،كما نفاه صاحب الشرع فى سنته عن هؤلاء فى مثل قوله ﷺ : «لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن» (١) "لا يؤمن أحدكم حتي يحب لأخيه ما يحب لنفسه " (٢) "لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » (٣) وأقسم على ذلك مرات . ولما كان الإيمان شعبا فلا يلزم من زوال شعبة من شعبه زوال سائر الأجزاء.

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: " يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان"(٤) فأخبر أنه يتبعض ويبقى بعضه ، وأن ذاك من الإيمان ، فعلم أن بعض الإيمان يزول ويبقى بعضه .

كالحج فيه أجزاء ينقص الحج بزوالها عن كماله الواجب ، ولا يبطل كرمى الجمار والمبيت بمنى، ونحو ذلك وفيه أجزاء ينقص بزوالها من كماله المستحب كرفع الصوت بالإهلال والرمل والاضطباع فى الطواف الأول ، وما يبطل بتركه كالوقوف بعرفه وطواف الإفاضه. ومن هنا يعرف أن دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجاز ، وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا ولا خارجًا عن أصل مسمى الإيمان ،وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء.

وكلما كان توحيد العبد أعظم كانت مغفرة الله له أتم ، فمن لقيه لا يشرك به شيئا البتة غفر له ذنوبه كلها كائنة ما كانت ولم يعذب بها ، ولسنا نقول : إنه لايدخل النار أحد من أهل التوحيد ، بل كثير منهم يدخل بذنوبه ويعذب على

---

(١) متفق عليه أخرجه البخارى ٦٧٧٢ - ومسلم ٥٧

(٢) متفق عليه أخرجه البخارى ١٣ - ومسلم ٤٥

(٣) أخرجه البخارى (٦٠١٦).

(٤) أخرجه الترمذى ٢٥٩٨ ، وقال الألباني فى صحيح الجامع (٨٠٦٢): صحيح.

مقدار جرمه. ثم يخرج منها ولا تنافي بين الأمرين لمن أحاط علما.

وقول ربنا عن النار . " أعـدت للكافرين " لا ينافى إعـداد النار للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة.

وقول ربنا عن الجنة "أعدت للمتقين " " لا ينافى أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من الإيمان ولم يعمل خيرًا قط فإن قيل : وكيف يجتمع التصديق الجازم الذى لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار مع تخلف العمل؟

فالجواب : أن هذا له عـدة أسباب، منها ضعف العلم ونقـصان اليقين ، ومن ظن أن العلم لا يتـفاوت فقـوله من أفسد الأقـوال، وكذا ينضم إلي ذلك قـسوة الطبع ، وغلبـة الهوى، واستـيلاء الشهـوة ، وتسويل النفس وغـرور الشيطان ، واسـتبطـاء الوعد ، وطول الأمل ، ورقـدة الغـفلة ، وحب العـاجلة ، ورخص التأويل وإلف العوائد ، فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذى يمسك السماوات والأرض أن تزولا .

وبهذا الأسبـاب يتفاوت الناس فى الإيمان والأعمال حـتى ينتهى إلى أدنى مثقال ذرة في القلب.

ولا خلاف بين أهل السنة أن الله تعالى أراد من العباد القـول والعمل وأجمعوا على أنه لو صدق بقلبـه وأقر بلسانه ، وامـتنع عن العمل بجوارحـه أنه عاص لله ورسوله مستحق الوعيد.

وبعض أهل السنة يقـولون : إن الإيمان قـسمـان : أحدهمـا : إيمان بالله وهو الإقرار والتصـديق به. والثانى: إيمان لله وهو الطاعة والانقيـاد لأوامره . فنقيض الإيمـان الأول : الكفر. ونقيض الإيمـان الثانى: الفـسق ، وقد يسمى كفرا ولكن لا ينقل عن الملة. فمذهب أهل السنة والجماعـة أن الأعمال من الإيمان لكن تركها مفسق لا مكفر ، فلم يشددوا فيها كالخوارج، ولم يهونوا أمرها كالمرجئة، ثم هم - أي أهل السنة والجمـاعة - افتـرقوا فرقتين ، فـأكثر المحـدثين قال : إن الإيمان مركب من الأعمال، وأكثر الفقـهاء والمتكلمين مال إلي أن الأعمال غير داخلة فى الإيمان، مع اتفاقهم جمـيعًا على أن فاقد التصديق كافر ، وفـاقد العمل فاسق ،

فلم يبق الخلاف إلا فى التعبير ، فإن السلف وإن جعلوا الأعمال أجزاء لكن لا بحيث ينعدم الكل بانعدامها ، بل يبقى الإيمان مع انتفائها .

والإمام أبو حنيفة رحمه الله وإن لم يجعل الأعمال جزءاً من الإيمان ، لكنه اهتم بها وحرض عليها وجعلها أسبابا سارية فى نماء الإيمان ، فلم يهدرها هدر المرجئة ، لذلك كان خلافه مع السلف فى تعريف الإيمان لفظيا أو شكليا وأهل السنة مجمعون على أنه لابد من عمل القلب الذي هو محبته ورضاه وانقياده.

والقول بأن تارك جنس العمل الظاهر بالكلية كافر ، كلام محدث لم يقل به أحد من أهل العلم سلفا وخلفا. وقد سئل الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله- هذا السؤال : هل القول بأن الأعمال شرط لصحة الإيمان وقبول الإسلام قول الخوارج أم قول أهل السنة والجماعة؟ فأجاب - رحمه الله تعالى- فقال :

هذا القول فيه تفصيل ، فأهل السنة والجماعة يرون أن الأعمال مكملات للإيمان ، ومن تمام الإيمان .

لكن الصلاة فيها الخلاف المشهور بين العلماء .

ثم الإيمان أعماله كثيرة ، فمن أعمال الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وتاركها كافر كفرا أكبر ومن أعمال الإيمان السجود لله وعدم السجود لغيره ، فمن سجد لله فهذا إيمان ، ومن سجد لغيره من الأصنام وأصحاب القبور، صار شركا أكبر، وهكذا من اعتقد أنهم يشفعون بدعائه إياهم واستغاثته بهم ونذره لهم هذا شرك أكبر وهذه أعمال شركية.

أما الصوم والزكاة فهي من كمال الإيمان ، وهي أركان من أركان الإسلام ، وهكذا الحج ، لكن تركها لا ينافي الإيمان ، فلوترك الحج مع الاستطاعة يكون معصية ، أو لم يصم أو لم يزك فهذه كبائر الذنوب، وهكذا الزنا معصية لا يكفر بها لكن يكون ناقص الإيمان ، وهكذا شرب الخمر ، والغيبة والنميمة وعقوق الوالدين، فاعل ذلك لا يكون كافراً . بل يكون ناقص الإيمان . أو يكون مسلما عاصيا.

وسئل الشيخ صالح بن عثيمين - رحمه الله تعالى - هذا السؤال: تارك جنس العمل كافر ، تارك آحاد العمل ليس بكافر ، مارأيكم في ذلك ؟ فأجاب - رحمه الله - من قال هذه القاعدة؟

من قائلها : هل قالها محـمد رسول الله ﷺ إنه كلام لا معنى له ، نقول من كفـره الله ورسوله فـهو كـافر ومن لم يكفـره الله ورسوله فليس بكافـر هذا هو الصواب أما جنس العمل أو نوع العمل ، أو آحاد العمل فهذا كله طنطنة لا فائدة منها (١)

(١) راجع بتوسع كتاب : قراءة نقدية لكتاب ظاهرة الإرجاء ، د / ياسر برهامي

مفهوم الإيمان

ما معنى الإيمان؟

لتفهم مدلول كلمة ما وردت فى القرآن أو السنة لابد من معرفة لمدلولها العربى أولاً. ثم نتتبع استعمال الشارع لها فى أوضاعها المختلفة ولا يجوز بتاتًا أن نجعل عرف الناس فى زمان ما أو مكان ما، غير زمن التشريع حكمًا على اللفظ.

جاء فى لسان العرب: الإيمان ضد الكفر، وهو بمعنى التصديق، وضده التكذيب يقال آمن به قوم وكذب به قوم.

وحد «الزَجَاج» الإيمان فقال: الإيمان إظهار الخضوع والقبول للشريعة ولما أتى به النبى ﷺ واعتقاده وتصديقه بالقلب، فمن كان على هذه الصفة فهو مؤمن مسلم غير مرتاب ولا شاك، وهو الذى يرى أن أداء الفرائض واجب عليه لا يدخله فى ذلك ريب، وفى التنزيل العزيز: ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾[(١)] أى بمصدق.

والإيمان: التصديق.

وأما الإيمان فهو مصدر آمن يؤمن إيمانًا فهو مؤمن، واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم على أن الإيمان معناه التصديق قال الله تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(٢)].

قال : وهذا موضع يحتاج الناس إلى تفهيمه، وأين ينفصل المؤمن من المسلم، وأين يستويان؟

والإسلام إظهار الخضوع والقبول لما أتى به النبى ﷺ، وبه يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد تصديق القلب فذلك الإيمان الذى يقال للموصوف به مؤمن مسلم وهو المؤمن بالله ورسوله غير مرتاب ولا شاك وهو الذى يرى أن أداء الفرائض واجب عليه وأن الجهاد بنفسه وماله واجب عليه، لا يدخله فى ذلك

---

(١) سورة يوسف الآية: ١٧

(٢) سورة الحجرات: ١٤

ريب فهو المؤمن وهو المسلم حقًا كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[١].

فأما من أظهر قبول الشريعة واستسلم لدفع المكروه فهو فى الظاهر مسلم وباطنه غير مصدق فذلك الذى يقول أسلمت لأن الإيمان لابد من أن يكون صاحبه مصدقا، لأن قوله آمنت بالله، أو قال قائل آمنت بكذا أو كذا فمعناه صدقت.

فأخرج الله هؤلاء من الإيمان فقال: ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾.

أى لم تصدقوا، إنما أسلمتم تعوذا من القتل. فالمؤمن مبطن من التصديق مثل ما يظهر، والمسلم التام الإسلام مظهر للطاعة مؤمن بها، والمسلم الذى أظهر الإسلام تعوذا غير مؤمن فى الحقيقة إلا أن حكمه فى الظاهر حكم المسلمين... الخ[٢].

ويقول الحافظ ابن حجر: الإيمان لغة التصديق، وشرعا. تصديق الرسول فيما جاء به عن ربه. وهذا القدر متفق عليه ثم وقع الاختلاف: هل يشترط مع ذلك مزيد من جهة إبداء هذا التصديق باللسان المعبر عما فى القلب إذ التصديق من أفعال القلوب، أو من جهة العمل بما صدق به من ذلك كفعل المأمورات وترك المنهيات كما سيأتى إن شاء الله تعالى[٣].

إلى أن قال: والكلام هنا فى مقامين، أحدهما: كونه قولاً وعملاً. والثانى: كونه يزيد وينقص، فأما القول فالمراد به النطق بالشهادتين، وأما العمل فالمراد به ما هو أعم من عمل القلب والجوارح ليدخل الاعتقادات والعبادات. ومراد من أدخل ذلك فى تعريف الإيمان ومن نفاه إنما بالنظر إلى ما عند الله تعالى. فالسلف قالوا هو اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالأركان، ومن هنا نشأ لهم القول بالزيادة والنقص. كما سيأتى. والمرجئة قالوا: هو اعتقاد ونطق فقط، والكرامية قالوا: هو نطق فقط. والمعتزلة قالوا: هو العمل والنطق والاعتقاد.

(١) سورة الحجرات الآية: ١٥

(٢) لسان العرب جـ١ / ١٤١ ، ١٤٢

(٣) كتاب فتح البارى شرح صحيح البخارى جـ١ / ٩٢

وهذا كله - كما قلنا - بالنظر إلى ما عند الله تعالى. أما بالنظر إلى ما عندنا فالإيمان هو الإقرار فقط. فمن أقر أجريت عليه الأحكام فى الدنيا ولم يحكم عليه بكفر إلا إن اقترن به فعل يدل على كفره كالسجود للصنم فإن كان الفعل لا يدل على الكفر كالفسق، فمن أطلق عليه الإيمان فبالنظر إلى أنه فعل الكافر، ومن نفاه فبالنظر إلى الحقيقة. وأثبتت المعتزلة الواسطة فقالوا: الفاسق لا مؤمن ولا كافر.

وأما المقام الثانى: فذهب السلف إلى أن الإيمان يزيد وينقص. وأنكر ذلك أكثر المتكلمين وقالوا: من قَبِلَ ذلك كان شكا، بل قال بعضهم: إنه لا يقبل النقصان لأنه لو نقص لا يبقى إيمانًا ولكن يقبل الزيادة لقوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا** ﴾[1] ونحوها من الآيات.

قال الشيخ محيى الدين: والأظهر المختار أن التصديق يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة. ولهذا كان إيمان الصديق أقوى من إيمان غيره بحيث لا يعتريه الشبهة، ويؤيده أن كل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل حتى أنه يكون فى بعض الأحيان الإيمان أعظم يقينًا وإخلاصًا وتوكلاً منه فى بعضها، وكذلك التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها.

وهذا الذى نميل إليه فى هذا المقام.

بين الإيمان والإسلام

هل يسمى المؤمن مسلمًا، والمسلم مؤمنًا، وهل الإيمان والإسلام اسمان لمسمى واحد، ومعنى واحد أو لمسميين ومعنيين مختلفين؟

قال أبو محمد بن حزم: ذهب قوم إلى أن الإسلام والإيمان اسمان واقعان على معنيين، وأنه قد يكون مسلم غير مؤمن، واحتجوا بقول الله عز وجل: ﴿ **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾[2].

وبالحديث المأثور عن رسول الله ﷺ إذ قال له سعد: هل لك يا رسول فى فلان فإنه مؤمن، فقال له رسول الله ﷺ: «أو مسلم»[3] وبالحديث المأثور عن

(١) سورة الأنفال الآية: ٢ (٢) سورة الحجرات الآية: ١٤

(٣) متفق عليه (البخارى ٢٧ ، ومسلم ١٥٠).

رسول الله ﷺ إذ أتاه جبريل فى صورة فتى غير معروف العين، فسأله عن الإسلام فأجابه بأشياء فى جملتها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأعمال أخرى مذكورة فى ذلك الحديث.

وسأله عن الإيمان فأجابه بأشياء من جملتها أن تؤمن بالله وملائكته...(١) وبحديث لم يصح، «أن المرء يخرج عن الإيمان إلى الإسلام».

وذهب آخرون إلى أن الإيمان والإسلام لفظان مترادفان على معنى واحد، واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

وبقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٣).

قال أبو محمد: والذى نقول به - وبالله تعالى التوفيق - أن الإيمان أصله فى اللغة التصديق على الصفة التى ذكرنا قبل. ثم أوقعه الله عز وجل فى الشريعة على جميع الطاعات واجتناب المعاصى إذا قصد بكل ذلك من عمل أو ترك وجه الله عز وجل، وأن الإسلام أصله فى اللغة التبرؤ، تقول: أسلمت أمر كذا إلى فلان إذا تبرأت إليه فسمى المسلم مسلمًا لأنه تبرأ من كل شىء إلى الله عز وجل. ثم نقل الله تعالى اسم الإسلام أيضًا إلى جميع الطاعات، وأيضًا فإن التبرؤ إلى الله من كل شىء هو معنى التصديق لأنه لا يبرأ إلى الله تعالى من كل شىء حتى يصدق به فإذا أريد بالاسم المعنى الذى هو خلاف الكفر وخلاف الفسق فهو والإيمان شىء واحد كما قال تعالى: ﴿قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾(٤).

وقد يكون الإسلام أيضًا بمعنى الاستسلام أى أنه استسلم للملة خوف القتل وهو غير معتقد لها. فإذا أريد بالإسلام هذا المعنى فهو غير الإيمان وهو الذى أراد الله تعالى بقوله: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾(٥).

---

(١) متفق عليه (البخارى ٥٠، ومسلم ١٠).

(٢) سورة الذاريات الآية: (٣٥، ٣٦).

(٣،٤) سورة الحجرات الآية: ١٧.

(٥) سورة الحجرات الآية: ١٤.

وبهذا تتألف النصوص المذكورة من القرآن والسنن وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(١).

وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة»(٢) فهذا هو الإسلام الذى هو الإيمان فصح أن الإسلام لفظة مشتركة كما ذكرنا. ا.هـ.(٣).

ويوضح شيخ الإسلام "ابن تيمية" هذه المسألة فى كتابه "الإيمان".

فيقول: فى حديث جبريل جعل النبى ﷺ الدين ثلاث درجات: أعلاها الإحسان، وأوسطها الإيمان، ويليها الإسلام، فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مؤمن محسنًا، ولا كل مسلم مؤمنًا، كما سيأتى بيانه إن شاء الله فى سائر الأحاديث، ثم ذكر حديثًا جاء فيه: أى الإسلام أفضل؟ قال الإيمان، قال ما الإيمان؟ الحديث(٤) ثم ذكر بعد ذلك مجموعة من الأحاديث على هذا النمط. ومجموعة من الآيات ذكر فيها اسم الإيمان مفردًا ومقرونًا باسم الإسلام ومقرونًا بالأعمال الصالحة، ومقرونًا بملل سابقة. ثم قال: فالمقصود هذا العموم، والخصوص بالنسبة إلى ما فى الباطن والظاهر من الإيمان. وأما العموم بالنسبة إلى الملل فتلك مسألة أخرى. فلما ذكر الإيمان مع الإسلام جعل الإسلام هو الأعمال الظاهرة. الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج، وجعل الإيمان ما فى القلب من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. فإذا ذكر اسم الإيمان مجردًا دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة كقوله فى حديث الشُّعَب: «الإيمان بضع وسبعون درجة أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»(٥) وكذلك سائر الأحاديث التى يجعل فيها أعمال البر من الإيمان(٦).

وإذا ذكر اسم الإسلام مجردًا دخل فيه الإيمان ضمنًا.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٨٥.

(٢) متفق عليه (البخارى ٦٢/٣، ومسلم ١١١).

(٣) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج٣ ١٢٥، ١٢٦.

(٤) أخرجه أحمد ٦٨/١٧، وعبد بن حميد ٣٠١، وقال الألباني في ضعيف الترغيب ١٦٨٦: ضعيف، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(٥) متفق عليه (البخارى ٩، ومسلم ٣٥).

(٦) كتاب الإيمان ص٢-١١ باختصار.

فهما اسمان إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا، فعند اجتماعهما يكون معنى الإيمان هو التصديق الباطنى، ومعنى الإسلام هو الانقياد الظاهرى. أما عند تفرقهما وذكر أحدهما مفردًا فإنه يقوم مقام الآخر من حيث معناه ولكن أيهما يسبق الآخر؟ وأيهما أفضل من الآخر؟.

إن قلنا: إن الإيمان يسبق الإسلام فالآية تخالف ذلك: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾[١].

وإن قلنا: الإسلام يسبق الإيمان. فمعناه الامتثال الظاهرى بدون الانقياد القلبى فهو النفاق، لأنه إظهار الإسلام مع عدم التصديق القلبى.

فيفصل شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الأمر فيقول: لا تصح الطاعة من أحد إلا مع الإيمان فيمتنع أن يكون أحد فعل شيئًا من الإسلام إلا وهو مؤمن ولو كان ذلك أدنى الطاعات أو فعل واحدة منها وذلك لا يصح كله إلا مع الإيمان.

فلابد وأن يسبق الإيمان الإسلام فى صورته الأولى المتمثلة فى التصديق القلبى فيكون بمثابة الدخول على الطاعات والأعمال الصالحة والتشريعات الإسلامية فهذا يسمى "مطلق الإيمان" فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملاً قلبيًا وألزم الجسد بالقول الظاهر والعمل بأحكام الإسلام وصل إلى درجة "الإيمان المطلق" أو "الإيمان الحق"[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[٣].

فهذا هو الإيمان المطلق الذى نفاه الله عز وجل عن الأعراب، وإن كانوا مسلمين معهم من الإيمان ما يثابون عليه أى مطلق الإيمان، وهذا حال أكثر الداخلين فى الإسلام ابتداء، بل حال أكثر من لم يعرف حقائق الإيمان، إلى أن

(١) سورة الحجرات الآية: ١٤

(٢) كتاب الايمان: ١٥ ، ١٧٧ بمعناه

(٣) سورة الأنفال الآيات: (٢-٤)

يصل إلى حقيقة الإيمان باجتهاده على نفسه فى الطاعات ويقينه الذى لا يعتريه شك ولا ارتياب مع المجاهدة فى سبيل الله بالمال والنفس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[١].

وهذا الإيمان أى المطلق لا شك أنه أفضل من الإسلام وهو بين الإسلام والإحسان، وهذا هو الذى قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية «كل مؤمن مسلم، وكل محسن مؤمن، وليس كل مسلم مؤمنًا، ولا كل مؤمن محسنًا».

وهذا الإيمان هو الذى نفاه الله عز وجل عن الأعراب، ونفاه النبى ﷺ عن الرجل فى حديث سعد: هل لك يا رسول الله فى فلان فإنه مؤمن... الحديث[٢] واسم الإسلام يتناول أيضًا ما هو أصل الإيمان وهو التصديق ويتناول أصل الطاعات فإن ذلك كله استسلام.

قال: فخرج مما ذكرناه وحققناه أن الإسلام والإيمان يجتمعان ويفترقان أو أن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا.

قال: فهذا تحقيق واف بالتوفيق بين متفرقات النصوص الواردة فى الإيمان والإسلام التى طالما غلط فيها الخائضون وما حققناه من ذلك موافق لمذاهب جماهير العلماء من أهل الحديث وغيرهم[٣].

والله أعلم بالصواب ا.هـ.

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٥

(٢) متفق عليه تقدم ص٢٢

(٣) راجع كتاب «الإيمان» بتوسع

٢. مفهـوم الكفـر

الكفر فى اللغة معناه: السـتر والتغطية. فالعرب تسمى الليل كـافراً، لأنه يستر الأشياء ويـخفيها، وتـسمى الفلاح كافـراً، لأنه يغطي الحب فى التراب. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾[١] ومعنى الكفار هنا الزراع.

والكفـر فى الشـرع. نقيـض الإيمان، وهو إنكار شيء مما جـاء به النبى ﷺ ووصل إلينا بطـريق يقـينى قـاطع. ومن كـفر بشـيء مما يجب الإيمان به يسـمى كـافـراً[٢] والسبب فى تسمـية الخارج عن الإيمان كافراً أنه يرى أدلة التوحـيد وما يدعوه إلى الإيمان بربه عز وجل ثم يصر مسـتكبراً على باطله وكفره، وانظر كلام الله تعالى عن إمام الكافرين فى الأرض "فـرعون" الذى ترك الإيمان بالله جحوداً ونكراناً لا جهلاً، قال تعالى على لسان موسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾[٣].

أى لقد علمت يا فـرعون أن الله تبارك وتعالى خـالق السموات والأرض هو الذى أنزل ما شاهدته من الآيات كالعصا واليـد لتبصر أنت وقومك، وتعلموا أننى رسول من الله عـز وجل. وكذلك أخبر سبـحانه وتعالى عن قوم فـرعون، أنهم علموا الحق ولكنهم كذبوه وزاغـوا عنه، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[٤].

أى تيقنت أنفسـهم أن الآيات التى جاء بها موسى هى آيات الله حقـاً وصدقاً ولكنهم جـحـدوا أى انكروا وكـابروا وردوا الحق عن علم وبصـيرة وغـيـرها من الآيات[٥].

---

(١) سورة الحديد الآية: ٢٠

(٢) كتاب الكفر والمكفرات: ص٥

(٣) سورة الإسراء الآية: ١٠٢

(٤) سورة النمل الآية: ١٤

(٥) كتاب الحد الفاصل بين الإيمان والكفر ص ٦٨ ، ٦٩

* الكفر نوعان: كفر اعتقاد ، وكفر عمل.

والكفر فى لسان الشرع يطلق على معنين: أحدهما كـفر عقيدة، والآخر كفر عمل، فكفر العقيدة عـدم الإيمان بما يجب الإيمان به من وجود الله ووحدانيته وبما يجب له من صفات الكمال والجلال وبالعقائد الأخرى.

وكفر العمل كجحد المعروف وعدم شكره، ومنه قوله تعالى: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ** ﴾[1].

وقول النبى ﷺ فى الـنساء: «ورأيت النار فلم أر كاليـوم منظراً قط، ورأيت أكثر أهلهـا النساء، قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بكفـرهن "قيل" أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العـشير، ويكفرن الإحسـان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خـيراً قط[2] وأخطره جحـد نعمـة الله ، قال تعالى: ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾[3].

وكذلك قوله تعـالى - فى شأن سليمان عليه السلام لما أحـضر له عرش ملكة سـبأ - قـال: ﴿ **هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** ﴾[4].

وقال القاسمى فى تفـسيره حيثما وقع فى حديث من فـعل كذا فقد أشرك أو فقد كـفر، لا يراد به الكفر المخرج من الملة، والشرك الأكبـر المخرج عن الإسلام الذى تجرى عليه أحكام الردة والعياذ بالله تعالى[5].

وقد قال البخارى: باب كفران العشير، وكفر دون كفر.

وقال ابن القـيم رحمه الله تعالـى: الكفر نوعان: كفـر عمل، وكفر جـحود وعناد.

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ٩٤ .

(٢) أخرجه مسلم ٧٩ .

(٣) سورة إبراهيم الآية: ٧ .

(٤) سورة النمل الآية: ٤٠ .

(٥) كتاب بيان للناس من الأزهر الشريف ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

فكفر الجحود أن يكفر بما علم أن الرسول ﷺ جاء به من عند الله جحوداً وعناداً من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه، وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه.

وأما كفر العمل فينقسم إلى ما يضاد الإيمان وإلى ما لا يضاده.

فالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف وقتل النبى وسبه يضاد الإيمان.

وأما الحكم بغير ما أنزل الله، وترك الصلاة فهو من الكفر العملى قطعاً، ولا يمكن أن ينفى عنه اسم الكفر بعد أن أطلقه الله ورسوله عليه، فالحاكم بغير ما أنزل الله كافر، وتارك الصلاة كافر، بنص رسول الله ﷺ ولكن هو كفر عمل لا كفر اعتقاد. ومن الممتنع أن يسمى الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً، ويسمى رسول الله ﷺ تارك الصلاة كافراً، ولا يطلق عليهما اسم الكفر. وقد نفى رسول الله ﷺ الإيمان عن الزانى والسارق وشارب الخمر وعمن لا يأمن جاره بوائقه وإذا نفى عنه اسم الإيمان فهو كافر من جهة العمل وانتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد. وكذلك قوله ﷺ «لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[(١)] فهذا كفر عمل.

وكذلك قوله «من أتى كاهناً فصدقه، أو امرأة فى دبرها، فقد كفر بما أنزل على محمد»[(٢)] فهذا كفر عمل، وقوله «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما»[(٣)].

وقد سمى الله سبحانه وتعالى من عمل ببعض كتابه وترك العمل ببعضه مؤمناً بما عمل به وكافراً بما ترك العمل به. فقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ**

---

(١) متفق عليه (البخارى ١٢١، ومسلم ٦٥).

(٢) أخرجه أبو داود ٣٩٠٤، وأحمد ٩٥٣٢، وابن ماجه ٦٣٩، والنسائى فى الكبرى ٩٠١٧، والترمذى ١٣٥ وقال الألباني في صحيح الجامع (٥٩٤٢) : صحيح.

(٣) متفق عليه (البخارى ٦١٠٤، ومسلم ٦٠).

بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(١).

فأخبر سبحانه أنهم أقروا بميثاقه الذى أمرهم به والتزموه، وهذا يدل على تصديقهم به أنهم لا يقتل بعضهم بعضًا، ولا يخرج بعضهم بعضًا من ديارهم، ثم أخبر أنهم عصوا أمره، وقتل فريق منهم فريقًا. وأخرجوهم من ديارهم، فهذا كفرهم بما أخذ عليهم فى الكتاب، ثم أخبر أنهم يفدون من أسر من ذلك الفريق، وهذا إيمان منهم بما أخذ عليهم فى الكتاب فكانوا مؤمنين بما عملوا به من الميثاق كافرين بما تركوه منه، فالإيمان العملى يضاده الكفر العملى، والإيمان الاعتقادى يضاده الكفر الاعتقادى، وقد أعلن النبى ﷺ بما قلناه فى قوله فى الحديث الصحيح «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»(٢) ففرق بين سبابه وقتاله... وجعل أحدهما فسوقًا لا يكفر به، والآخر كفرًا، ومعلوم أنه إنما أراد الكفر العملى لا الاعتقادى. وهذا الكفر لا يخرجه من الدائرة الإسلامية والملة بالكلية، كما لا يخرج الزانى والسارق وشارب الخمر من الملة وإن زال عنه اسم الإيمان.

وهذا التفصيل هو قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب الله وبالإسلام والكفر ولوازمهما فلا تتلقى هذه المسائل إلا عنهم، فإن المتأخرين لم يفهموا مرادهم فانقسموا فريقين: فريقًا أخرجوا من الملة بالكبائر وقضوا على أصحابها بالخلود فى النار. وفريقًا جعلوهم مؤمنين كاملى الإيمان. فهؤلاء غلوا، وهؤلاء جفوا، وهدى الله أهل السنة للطريقة المثلى والقول الوسط الذى هو فى المذاهب كالإسلام فى الملل، فها هنا كفر دون كفر، ونفاق دون نفاق، وشرك دون شرك، وفسوق دون فسوق، وظلم دون ظلم.

قال سفيان بن عيينة، عن هشام، عن طاووس، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾(٣).

ليس هو بالكفر الذى يذهبون إليه، وعنه أيضًا قال: هو بهم كفر، وليس

(١) سورة البقرة الآية: ٨٤، ٨٥.
(٢) متفق عليه (البخارى ٤٨، ومسلم ٦٤).
(٣) سورة المائدة الآية: ٤٤

كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقال فى رواية أخرى عنه: كفر لا ينقل عن الملة. وقال طاووس: ليس بكفر ينقل عن الملة. وقال عطاء: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، وهذا الذى قاله عطاء بَيِّنٌ فى القرآن لمن فهمه. فإن الله سبحانه سمى الحاكم بغير ما أنزل كافراً، وسمى جاحد ما أنزله على رسول الله كافراً. وليس الكافران على حد سواء.

وسمى الكافر ظالمًا كما فى قوله تعالى: ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(١).

وسمى متعدى حدوده فى النكاح والطلاق والرجعة والخلع ظالمًا فقال: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾(٢).

وقال عن نبيه يونس: ـ كما جاء فى القرآن: ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(٣).

وقال صفيه آدم: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾(٤).

وقال كليمه موسى: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾(٥).

وليس هذا الظلم مثل ذلك الظلم.

ويسمى الكافر فاسقًا كما فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾(٦). ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴾(٧).

وهذا كثير فى القرآن، ويسمى المؤمن فاسقًا كما فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾(٨).

نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط. وليس الفاسق كالفاسق. وقال

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٤
(٢) سورة الطلاق الآية ١
(٣) سورة الأنبياء الآية: ٨٧
(٤) سورة الأعراف الآية: ٢٣
(٥) سورة القصص الآية: ١٦
(٦) سورة البقرة الآية: ٢٦ ، ٢٧
(٧) سورة البقرة الآية: ٩٩
(٨) سورة الحجرات الآية: ٦

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١).

وقال عن إبليس: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾(٢).

وقال: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾(٣).

وليس الفسوق كالفسوق.

فالكفر كفران، والظلم ظلمان، والفسق فسقان، وكذا... الجهل جهلان: جهل كفر، كما فى قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾(٤).

وجهل غير كفر كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾(٥).

كذلك الشرك شركان: شرك ينقل عن الملة وهو الشرك الأكبر، وشرك لا ينقل عن الملة وهو الشرك الأصغر، وهو شرك العمل كالرياء.

وقال تعالى فى الشرك الأكبر: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾(٦).

وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾(٧).

وقال فى شرك الرياء: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(٨).

---

(١) سورة النور الآية: ٤
(٢) سورة الكهف الآية: ٥٠
(٣) سورة البقرة الآية: ١٩٧
(٤) سورة الأعراف الآية: ١٩٩
(٥) سورة النساء الآية: ١٧
(٦) سورة المائدة الآية: ٧٢
(٧) سورة الحج الآية: ٣١
(٨) سورة الكهف الآية: ١١٠

ومن هذا الشرك الأصغر قوله ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك»[١] ومعلوم أن حلفه بغير الله لا يخرجه عن الملة ولا يوجب له حكم الكفار.

ومن هذا قوله ﷺ: «الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل»[٢] فانظر كيف انقسم الشرك والفسوق والظلم والجهل إلى ما هو كفر ينقل عن الملة، وإلى ما لا ينقل عنها.

وكذا النفاق نفاقان: نفاق اعتقاد، ونفاق عمل: فنفاق الاعتقاد هو الذى أنكره الله على المنافقين فى القرآن وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار. ونفاق العمل كقوله ﷺ فى الحديث الصحيح «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[٣] وفى الصحيح أيضًا: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا ائتمن خان[٤]» فهذا نفاق عمل قد يجتمع مع أصل الإيمان، ولكن إذا استحكم وكمل فقد ينسلخ صاحبه عن الإسلام بالكلية وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، فإن الإيمان ينهى المؤمن عن هذه الخلال، فإذا كملت فى العبد ولم يكن له ما ينهاه عن شىء فهذا لا يكون إلا منافقًا خالصًا... ا-هـ[٥].

• التكفير وخطورة الإسراع فيه

التكفير هو الحكم على الإنسان بالكفر، وهذا الحكم خطير لخطورة آثاره ولذلك نهى الإسلام عن التعجل به، وعن تقريره إلا بعد التأكد من وجود أسبابه تأكيدًا ليس فيه أدنى شبهة. ولأن يخطىء الإنسان فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة، والكافر إذا أفلت من عقوبة الدنيا فلن يفلت من عقوبة الآخرة. فينبغى

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٢٥١، وأحمد ٦٠٧٢، والترمذى ١٥٣٥ وغيرهم. وقال الترمذي: حديث حسن، وقال الألباني: في صحيح الجامع (٦٢٠٤): صحيح.

(٢) أخرجه أحمد ١٩٦٢٢ المصنف لابن أبى شيبة ٢٩٥٤٧ والطبرانى فى الأوسط ٣٤٧٩ وغيرهم. وقال الألباني في صحيح الترغيب: حسن لغيره.

(٣) متفق عليه (البخارى ٣٣، ومسلم ٥٩).

(٤) متفق عليه (البخارى ٣٤، ومسلم ٥٨).

(٥) كتاب الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ص٢٥ - ٢٨

أن يعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من ديـن الإسلام ودخوله فى الكفر لا يجوز لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقوم عليه إلا ببرهان واضح أوضح من شمس النهار فقد ثبت فى الأحاديث الصحيـحة أن «من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما»(١) وفى الصحيح «من دعا رجلاً بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه»(٢) أى رجع عليه.

ففى هذه الأحاديث وما شابهها أعظم زاجر عن الشروع فى التكفير، قال الله عز وجل: ﴿ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾(٣).

فلابد من شـرح الصـدر بالكفر ولا اعتـبار بما يقع من طوارق عقـائد الشرك ولا سيما مع الجهل بمخالفتها لطريقة الإسلام ولا اعتبار بصدور فعل كفرى لم يرد به فاعله قصد الكفر أو الخروج عن الإسلام إلى ملة الكفر.

وذلك أن الإيمان والكفر محلهما القلب ولا يطلع على ما فى القلوب غير الله سبحانه. وليست كل القرائن الظاهرة تدل على مـا فى القلب فأكثر دلالتها ظنية، والإسلام نهى عن اتبـاع الظن فى أكثر من نص فى القرآن والسنة، وطـلب الحجة والبرهان على الدعوى وبخـاصة فى العقائد، وتطبيـقًا لذلك نعى النبى ﷺ على "أسامة بن زيد" قتلـه الرجل الذى ألقى إليه السلام وأمر بالتبين، فقـال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾(٤).

فقد كرر فى الآية الأمـر بالتبيين لأهميته، ولم يقـبل الرسول ﷺ اعتذاراً من أسامة وقال له: «هلا شققت عن قلبه»(٥).

فينبغى أن يعلم أن الكـافـر الحقيقى قـد انعقـد قلبـه على الكفر واقتنع به ولا شبهة له كما قال تعالى: ﴿ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾(٦).

---

(١) متفق عليه (تقدم).
(٢) متفق عليه (البخارى ٦٠٤٥، ومسلم ٦١).
(٣) سورة النحل الآية: ١٠٦ .
(٤) سورة النساء الآية: ٩٤ .
(٥) متفق عليه (البخارى ٦٨٧٢، ومسلم ٩٦).
(٦) سورة النحل الآية: ١٠٦ .

أى اقتنع به واستراح له. فحتم على كل مسلم ألا يطلق كلمة الكفر إلا على من شرح به صدره، أوكان واضحًا بينا، كفرا بواحا عنده فيه من الله برهان، وقال القرطبى فى تفسيره لسورة الحجرات: وليس قوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[1] بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم، فكما أن الكافر لا يكون مؤمنًا إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون المؤمن كافراً من حيث لا يقصد الكفر ولا يختاره بالإجماع[2]. والذى ينبغى أن نؤصله هنا:[3] أن الحكم بالكفر على إنسان ما، حكم جد خطير، لما يترتب عليه من آثار هى غاية فى الخطر ومنها: أنه لا يحل لزوجته البقاء معه، أو يجب أن يفرق بينها وبينه، لأن المسلمة لا يصح أن تكون زوجة لكافر بالإجماع المتيقن.

إن أولاده لا يجوز أن يبقوا تحت سلطانه لأنه لا يؤمن عليهم ويخشى أن يؤثر عليهم بكفره ، وبخاصة أن عودهم لين ، وهم أمانة فى عنق المجتمع الإسلامى كله.

وأنه فقد حق الولاية والنصرة على المجتمع الإسلامى بعد أن مرق منه وخرج عليه بالكفر الصريح والردة البواح ، ولهذا يجب أن يقاطع ويفرض عليه حصار أدبى من المجتمع حتى يفيق لنفسه ويثوب إلى رشده ، وأنه يجب أن يحاكم أمام القضاء الإسلامى ، لينفذ فيه حكم المرتد بعد أن يستتيبه ويزيل من ذهنه الشبهات ويقيم عليه الحجة.

وأنه إذا مات لا تجرى عليه أحكام المسلمين فلا يغسل ولا يصلى عليه ولا يدفن فى مقابر المسلمين ولا يورث ، كما أنه لايرث إذا مات مورث له .

وأنه إذا مات على حاله من الكفر يستوجب لعنة الله وطرده من رحمته والخلود الأبدى فى نار جهنم . وهذا الأحكام الخطيرة توجب على من يتصدى للحكم بتكفير المسلم أن يتريث مرات ومرات قبل أن يقول ما يقول .

وإذًا فليحذر الواهمون الذين يوزعون الكفر على المسلمين من غير بينة ويتهمونهم بالخروج على الإيمان من غير دليل سيما بعد أن شهدوا شهادة الحق ونطقوا بكلمة التوحيد .

كما يجب التفرقة بين كفر النوع والشخص المعين

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : إن القول قد يكون كفرا فيطلق القول بتكفير صاحبه ويقال من قال كذا فهو كافر ، لكن الشخص المعين الذى قاله لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التى يكفر تاركها ، وهذا كما فى نصوص الوعيد فإن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾[1] .

فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق ، لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد ، فلا يشهد لمعين من أهل القبلة بالنار ، لجواز أن لا يلحقه لفوات شرط أو ثبوت مانع ، فقد لا يكون التحريم بلغه، وقد يتوب من فعل المحرم ، وقد تكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبة ذلك المحرم، وقد يبتلى بمصائب تُكفر، وقد يشفع فيه شفيع مطاع .

وهكذا الأقوال التى يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق وقد يكون عنده ولم تثبت عنده ، أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون عرضت له شبهات يعذره الله بها ، فمن كان من المؤمنين مجتهدا فى طلب الحق وأخطأ فيه فإن الله يغفر له خطأه كائنا ما كان ، فى المسائل النظرية أو العملية - وهذا الذى عليه أصحاب النبى ﷺ وجماهير أئمة الإسلام .

على تفصيل ستعرفه بعد - إن شاء الله عز وجل فى بابه (٢).

---

(١) سورة النساء الآية ١٠ .

(٢) راجع كتاب «شبهات التكفير»

بين الكفر والإيمان

الرجل يجتمع فيه كفر وإيمان:

قال ابن القيم رحمه الله: الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان، وهذا من أعظم أصول أهل السنة. وخالفهم فيه أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والقدرية، ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وعدم تخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل.

وقد دل عليه القرآن والسنة والفطرة وإجماع الصحابة، قال تعالى: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾[1].

فأثبت لهم إيمانًا به سبحانه مع الشرك. وقال تعالى: ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا** ﴾[2].

فأثبت لهم إسلامًا، وطاعة لله ورسوله مع نفى الإيمان عنهم وهو الإيمان المطلق الذى يستحق اسمه بمطلقه: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾[3].

وهؤلاء ليسوا منافقين فى أصح القولين، بل هم مسلمون بما معهم من طاعة الله ورسوله، وليسوا مؤمنين وإن كان معهم جزء من الإيمان أخرجهم من الكفار.

قال الإمام أحمد: من أتى هذه الأربعة أو مثلهن أو فوقهن - يريد الزنا والسرقة وشرب الخمر والانتهاب - فهو مسلم، ولا أسميه مؤمنًا، ومن أتى دون ذلك - يريد دون هذه الكبائر - سميته مؤمنًا ناقص الإيمان، قد دل على هذا قوله ﷺ: «فمن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق»[4] تدل على أنه يجتمع فى الرجل نفاق وإسلام، وكذلك الرياء شرك فإذا رآى الرجل فى شىء من عمله اجتمع فيه الشرك والإسلام، وإذا حكم بغير ما أنزل الله أو فعل ما سماه الرسول ﷺ كفرًا وهو ملتزم للإسلام وشرائعه فقد قام به كفر وإسلام. والمعاصى

---

(١) سورة يوسف الآية: ١٠٦ .
(٢) سورة الحجرات الآية: ١٤ .
(٣) سورة الحجرات الآية: ١٥ .
(٤) متفق عليه (تقدم).

شعب الكفر والطاعات شعب الإيمان» ا.هـ[١]. وقال رحمه الله: من كان فيه شعبة من الإيمان لا يصير بها مؤمنًا، ومن كان فيه شعبة من شعب الكفر لا يصير بها كافرًا، وإن كان ما قام به كفرًا، كما أنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به أن يسمى عالمًا، ولا من معرفة بعض مسائل الفقه والطب أن يسمى فقيهًا ولا طبيبًا.

ولا يمنع ذلك أن تسمى شعبة الإيمان إيمانًا، وشعبة النفاق نفاقًا، وشعبة الكفر كفرًا، وقد يطلق على الفعل كقوله «فمن تركها فقد كفر»[٢]، «ومن حلف بغير الله قد كفر»[٣] فمن صدر منه خلة من خلال الكفر فلا يستحق اسم كافر على الإطلاق، وكذا يقال لمن ارتكب محرمًا أنه فعل فسوقًا لا أنه فسق بذلك المحرم ولا يلزمه اسم فاسق إلا بغلبة ذلك عليه. وهكذا اسم الزانى والسارق والمنتهب لا يسمى مؤمنًا وإن كان معه إيمان كما أنه لا يسمى كافرًا وإن كان ما أتى به من خصال الكفر، إذ المعاصى كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان» ا.هـ[٤].

---

(١) كتاب الصلاة لابن القيم ص٢٨ ، ٢٩ .

(٢) أخرجه أحمد ٢٢٩٨٧، والنسائى ٤٦٣، والترمذى ٢٦٢١، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب وقال الألباني في صحيح الجامع (٤١٤٣) : صحيح.

(٣) أخرجه أحمد ٦٠٧٢، والترمذى ١٥٣٥، وأبو داود ٣٢٥١، والحاكم ٤٥ واللفظ له وصححه، وقال الترمذي: حديث حسن. وقال الألباني في صحيح الجامع (٦٢٠٤) : صحيح.

(٤) كتاب الصلاة لابن القيم ٢٩ ، ٣٠ .

كلمة التوحيد:

فضلها.

شروطها.

معناها.

نواقض الإيمان:

حكم تارك الصلاة

الكفر بالطاغوت.

فضل كلمة التوحيد

لا إله إلا الله . من أجلها خلق الله عز وجل الخلق: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[١] .

ومن أجلها أرسل الله عز وجل الرسل: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[٢] .

كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[٣] .

وهى قضية القضايا: والأساس الأول: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾[٤] .

كما قال: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾[٥] .

وهى حق الله على العباد، وفى الحديث، عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: كنت رديف النبى ﷺ على حمار، فقال لى: يا معاذ، أتدرى ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا. قلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا»[٦] وهذا من فضلها، وكفى به فضلاً، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[٧] .

---

(١) سورة الذاريات الآية: ٥٦ .
(٢) سورة النحل الآية: ٣٦ .
(٣) سورة الأنبياء الآية: ٢٥ .
(٤) سورة الإسراء الآية: ٢٣ .
(٥) سورة النساء الآية: ٣٦ .
(٦) متفق عليه (البخارى ٢٨٥٦، ومسلم ٣٠).
(٧) سورة النساء الآيات: ٤٨

وكتب الله عز وجل لهم بها الأمن، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

«بظلم» أى بشـرك. «أولئك لهم الأمن» وفى معناها: أى فى الآخرة، «وهم مهتدون» أى فى الدنيا. وقد جاء فى فضلها أنها السبيل إلى الجنة، فعن عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»[2] وأنها تُحرِمُ صاحبها على النار، كما فى حديث عتبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغى بذلك وجه الله»[3].

ومما ورد فى فضل كلمة التوحيد، عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: قال موسى: يا رب علمنى شيئًا أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله، قال: يارب كل عبادك يقولون هذا، قال: يا موسى، لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى، والأراضين السبع فى كفة، ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهن «لا إله إلا الله»[4].

وعن أنس رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى «يا ابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»[5] وعن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار»[6] وكل ذنب دون الشرك يهون، فعن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٨٢ .

(٢) متفق عليه (البخاري ٣٤٣٥ ، ومسلم ٢٨).

(٣) متفق عليه (البخاري ٤٢٥ ، ومسلم ٣٣).

(٤) أخرجه النسائى فى الكبرى ١٠٦٧٠، وأبو يعلى فى مسنده ١٣٩٣، وأبو نعيم فى الحلية وغيرهم وصحح الحافظ إسناده فى الفتح.

(٥) أخرجه الترمذى ٣٥٤٠، والضياء فى المختارة، وأبو نعيم فى الحلية وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (٤٣٣٨): صحيح.

(٦) أخرجه مسلم ٩٣ .

«أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر. وفى رواية لأبى ذر: وإن زنى وإن سرق رغم أنف أبى ذر، فكان أبو ذر يقول ذلك بعد تمام الحديث»[١] ا.هـ[٢].

وقال ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك، فيحجب عن الجنة»[٣] وقال ﷺ أيضًا «من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، حرم الله عليه النار»[٤] وفى هذا المعنى أحاديث كثيرة يطول ذكرها. وأحاديث هذا الباب نوعان:

أحدهما: ما فيه أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة ولم يحجب عنها وهذا ظاهر، فإن النار لا يخلد فيها أحد من أهل التوحيد الخالص وقد يدخل الجنة ولا يحجب عنها إذا طهر من ذنوبه بالنار.

وحديث أبى ذر الغفارى معناه: أن الزنى والسرقة لا يمنعان دخول الجنة مع التوحيد، وهذا حق لا مرية فيه وليس فيه أنه لا يعذب عليهما مع التوحيد.

والثانى: ما فيه أنه يحرم على النار، وقد حمله بعضهم على الخلود فيها أو على ما يخلد فيها أهلها، وهى ما عدا الدرك الأعلى، فإن الدرك الأعلى يدخله كثير من الموحدين من عصاة هذه الأمة بذنوبهم، ثم يخرجون بشفاعة الشافعين وبرحمة أرحم الراحمين.

وفى الصحيحين: أن الله تعالى يقول «وعزتى وجلالى وكبريائى وعظمتى لأخرجن منها ـ أى من النار ـ من قال لا إله إلا الله»[٥].

وقالت طائفة من العلماء: المراد من هذه الأحاديث أن «لا إله إلا الله» سبب

---

(١) متفق عليه (البخارى ١٢٣٧، ومسلم ٩٤).

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٣١ - ٤٦ بتصرف

(٣) اخرجه مسلم ٢٧ .

(٤) اخرجه مسلم ٢٩ .

(٥) متفق عليه (البخارى ٧٥١٠، ومسلم ١٩٣).

لدخول الجنة والنجاة من النار، أومقتضى لذلك ولكن المقتضى لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع وهذا قول الحسن ووهب بن منبه، وهو الأظهر. وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى، للفرزدق وهو يدفن امرأته «ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، منذ سبعين سنة، قال الحسن: نعم العدة، ولكن لـ «لا إله إلا الله» شروطًا، فإياك وقذف المحصنات. وقيل للحسن: إن أناسًا يقولون: من قال "لا إله إلا الله" دخل الجنة، فقال: «من قال لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة».

وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ قال: «بلى، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك»[(١)].

ولنا وقفة أخرى مع شروط كلمة التوحيد. .

هذا وفضائل «لا إله إلا الله» كثيرة وعظيمة، لا يمكن ها هنا استقصاؤها فهى كلمة التقوى، وهى كلمة الإخلاص وشهادة الحق، ودعوة الحق، وبراءة من الشرك، والنجاة من الأمر، ولأجلها خلق الخلق، ولأجلها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وهى من أفضل النعم، ولأجلها أعدت دار الثواب، ودار العقاب، ولأجلها أمرت الرسل بالجهاد، فمن قالها عصم ماله ودمه، ومن أباها فماله ودمه حلال، وهى مفتاح الجنة، ومفتاح دعوة الرسل، وبها كلم الله موسى كفاحًا، ومن كانت آخر كلامه دخل الجنة، وهى نجاة من النار، وهى توجب المغفرة، وهى أحسن الحسنات، وهى تمحو الذنوب والخطايا، وهى تجدد ما درس من الإيمان فى القلب وهى التى لا يعادلها شىء فى الوزن، فلو وزنت بالسموات والأرض لرجحت بهن، وكذلك ترجح فى صحائف الذنوب كما فى حديث السجلات والبطاقة. . . الخ ا.هـ[(٢)].

---

(١) تحقيق كلمة الإخلاص لابن رجب الحنبلى ص ٦ بتصرف

(٢) انظر بتوسع: كلمة الإخلاص ومجموعة التوحيد وغيرها.

شروط كلمة التوحيد

ولابد من الالتزام بشروط "لا إله إلا الله" وقد ذكر العلماء لها شروطًا سبعة لا تنفع صاحبها إلا باجتماع هذه الشروط فيه، وإليك شرحها:

ينبغى أن نعلم أنه: ليس المراد من هذا عد ألفاظها، فكم من عامى اجتمعت فيه والتزمها، ولو قيل له أعددها لم يحسن ذلك، وكم من حافظ لألفاظها يجرى فيها كالسهم، وتراه يقع كثيرًا فيما يناقضها. والتوفيق بيد الله.

وقد قال وهب بن منبه لمن سأله: أليس "لا إله إلا الله" مفتاح الجنة؟ قال: «بلى ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك»[(١)].

وأسنان هذا المفتاح هى شروط "لا إله إلا الله" الآتية:

الشرط الأول: العلم بمعناها المراد منها نفيًا وإثباتًا، المنافى للجهل بذلك قال تعالى: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[(٣)].

وعن عثمان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»[(٤)].

الشرط الثانى: اليقين المنافى للشك ـ ومعنى ذلك أن يكون قائلها مستيقنًا بمدلول هذه الكلمة يقينًا جازمًا، فإن الإيمان لا يغنى فيه إلا علم اليقين، لا علم الظن، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾[(٥)].

---

(١) أخرجه البخارى (كتاب الجنائز، باب فى الجنائز).

(٢) سورة محمد الآية: ١٩

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٨

(٤) أخرجه مسلم ٢٦.

(٥) سورة الحجرات الآية: ١٥

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة»(١).

الشرط الثالث: القبول ـ المنافى للرد ـ لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، وقد قص الله علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء مَنْ قَبِلها، وانتقامه ممن ردها وأباها.

الشرط الرابع: الانقياد لما دلت عليه، المنافى لترك ذلك، والمقصود بالانقياد هنا: انقياد القلب، وهو شىء زائد على مجرد المعرفة والتصديق كما قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾(٣).

وأما الانقياد بالجوارح وترك المعاصى، فهو شرط فى كمال الإيمان الواجب لا فى أصل الإيمان.

الشرط الخامس: الصدق المنافى للكذب، وهو أن يقولها صدقًا من قلبه ويواطىء قلبه لسانه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

وفى الحديث: قال ﷺ: «شفاعتى لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصًا يصدق لسانه قلبه»(٥).

الشرط السادس: الإخلاص ـ المنافى للرياء ـ وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك. قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾(٦) وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾(٧).

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧ — (٢) سورة الزمر الآية ٥٤

(٣) سورة النساء الآية: ١٢٥ — (٤) سورة البقرة الآية ٨

(٥) أخرجه أحمد ٥٦ ٨٠ ،وابن حبان فى صحيحه ٦٤٦٦،والحاكم ٢٣٣ وصحح إسناده ،ووافقه الذهبى، وقال الألباني في ضعيف الترغيب : منكر ، وصححه شعيب الأرنؤوط دون قوله « والذى نفس محمد بيده .. من تمام شفاعتى لهم».

(٦) سورة الزمر الاية:٣ . — (٧) سورة البينة الاية:٥

وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «أسعد الناس بشفاعتى من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»(١).

الشرط السابع: المحبة لهذه الكلمة، ولما اقتضته، ودلت عليه، ولأهلها العاملين بها، الملتزمين بشروطها، وبغض ما ناقض ذلك. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(٢).

وفى الحديث «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»(٣) ا.هـ(٤).

---

(١) أخرجه البخارى ٩٩ .
(٢) سورة البقرة الآية: ١٦٥
(٣) متفق عليه (البخارى ١٦، ومسلم ٤٣).
(٤) كتاب مجموعة التوحيد ص٣٠٧ - ص٣١٢ بتصرف

معنى كلمة التوحيد أو «الشهادتين»

«أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله»

"أشهد" فى اللغة تأتى على ثلاثة معان وقد استعملها القرآن بكل من المعانى الثلاثة فهى تأتى:

١ - بمعنى المشاهدة - أى الرؤية وهى قلبية أو بصرية أو علمية. وقد استعملها القرآن بهذا المعنى فقال: ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾(١).

والمعنى أن الإنسان يرى بقلبه أن كل شىء له آية تدل على أنه هو الواحد. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾(٢).

٢ - بمعنى الشهادة، وهى باللسان تكون إقرارًا واعترافًا، وقد قال الله عز وجل فى القرآن: ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾(٣).

فأنت تقول: شهدت لفلان، أو شهدت على فلان، فهو دور اللسان وقد يصدق الإنسان أو يكذب فى هذا الإقرار والاعتراف، والذى يحدد ماهية الأمر، صدقه أم كذبه، المعنى الثالث.

٣ - بمعنى الحلف واليقين، فكأنه يقول أقسم وأوقن، وقد استعملها القرآن بهذا المعنى كذلك، فقال تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾(٤).

---

(١) سورة المطففين الآية: ٢١

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٩٠ ، ١٩١

(٣) سورة الطلاق الآية: ٢

(٤) سورة المنافقون الآية: ١ ، ٢

فاعتبر كلمتهم «نشهد» يمينًا، وإن كذبوا فى ذلك، ولكن الله شهد له يقينًا وصدقًا وعلمًا، وكفى بالله شهيداً. وقال فقهاء الحنفية: من قال: أشهد، فقد حلف.

وفيما بين هذه المعانى ترابط تام فالإنسان يحلف إذا شهد، ويشهد إذا شاهد، وفى الحديث «على مثل الشمس فاشهد أو دع»[1] فهو يشاهد بقلبه، ثم يشهد بلسانه، ثم يوقن بذلك فيمتثل الأوامر وينتهى عن النواهى، ومن هنا قال العلماء: الشهادة: إقرار بالجَنَان ـ أى القلب ـ وتلفظ باللسان، وعمل بالأركان.

وعلى هذا فشهادة الإنسان أنه لا إله إلا الله لا تعتبر إلا باستجماع هذه المعانى، هذا فيما عند الله. أما عند الناس فإن مجرد النطق بها يحكم لصاحبها بالإسلام بناء على الظاهر. ولكنها لا تنفع عند الله إلا إذا أقر بقلبه وتلفظ بلسانه، ويأتى العمل بالأركان شرط صحة إقراراً به وتسليمًا له، وشرط كمال فيما أقر به، وهو ما عليه أهل السنة، ولذلك إذا أيقن الإنسان بقلبه ولم يقر بلسانه فلا ينفعه يقينه هذا إلا إذا أتبعه بإقرار اللسان، وإلا فهو كمن قال الله فيهم: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾[2].

أو كأهل الكتاب وهم يعرفون النبى وينكرونه، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

فلن تغنى عن هؤلاء معرفتهم، ولا عن أولئك يقينهم، حتى يتم ذلك بالإقرار والشهادة باللسان معلنة أمام الناس حتى يحكم لهم بالإسلام.

وأما الذى أقر بلسانه ولم يؤمن بقلبه، فالشهادة لا تنفعه كذلك، لأنه ـ فيما

(١) أخرجه الحاكم ٧٠٤٥، والبيهقى فى الشعب ١٠٩٧٤،وفى السنن ٢٠٣٦٦، وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه،وتعقبه الذهبى فى مختصره فقال: بل هو حديث واه فإن محمد بن سليمان ابن مشمول ضعفه غير واحد. وقال البيهقي: لم يرو من وجه يعتمد عليه.

(٢) سورة النمل الآية: ١٤

(٣) سورة البقرة الآية: ١٤٦

عند الله - يكون منافقـًا يظهر الإيمان ويبطن الكفر، وهذا أسوأ حـالاً عند الله عز وجل من الكفـار، لـذلك قـال تعـالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾(١).

وصفـاتهم كما بينها الله فى القرآن الكريم فى سـورة البقـرة والنساء والمائدة والتوبة على وجه الخصوص والتفصيل وفى غيرهم على وجه العموم والإجمال.

أما عندنا فنعامله معاملة المسلمين كما كان فعله ﷺ وأصـحابه معهم، ولأنه لنا الظاهر والله يتولى السرائر، هذا للعلم.

وأما الذى آمن بقلبـه وأقر بلسانه ولم يعـمل بالأركان، فهو إمـا أنه تارك لها غير مقر بهـا، أو جاحد لها أو مستهزء بهـا، أو كاره لشىء منها، أو مؤمن بشىء منهـا دون شىء أو منكر لمعلوم من الدين بالضـرورة، وأمثال هذا فـإنه لا تنفـعه شهـادته، ويكون حكمه بعـد إقامـة الحجـة عليه أنه كـفر بعد إيمانه، وارتـد بعد إسلامه.

وإما إنه تارك لها مع الإقرار بجـميعها والاعتراف بـها، إلا إنه انشغل عنها أو تكاسل فى أدائها لحدوث إسلامه، أو نشوئه فى البادية، أو جهله، أو عصيانه، أو نحو ذلك، فهو على الصحيح لا يكفر بترك شىء من هذا الاعتراف إلا فى شىء واحد هو ترك الصلاة كما فـهم من الآيات، وعلم من الأحاديث، وعليه الصحابة «إذ كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة» على تفصيل سنذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة النساء الآية: ١٤٥

نواقض الإيمان

ونعنى به أسباب الخروج من الإسلام بعد الدخول فيه، حسب القاعدة الجامعة التى اتفق عليها أهل السنة، ونختار فى التعبير عنها ما قاله الإمام الطحاوى - رحمه الله تعالى - فى العقيدة الطحاوية: «ونسمى أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ماداموا بما جاء به النبى ﷺ معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين.

. . . . ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله، ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته. ولا نأمن عليهم ولا نشهد لهم بالجنة، ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم ولا نقنطهم، والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة. . ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه. . » ولكن لا ينبغى أن يكون الأمر منحصراً فى الجحود فقط، وبيان هذه القاعدة أن الشارع الحكيم قد جعل الإيمان والإسلام مدخلاً وبابًا يدخل منه وهو - كما علمت - الإقرار والتصديق بالشهادتين، فمن ولج إلى الإسلام من هذا الباب فإنه لا يخرج منه إلا أن يصدر عنه قول أو عمل أو اعتقاد يناقض إقراره السابق وتصديقه بالشهادتين.

فما كان مناقضًا لمعنى "الشهادتين" أى مضادًا لتوحيد الله فى ربوبيته، وأسمائه وصفاته، وأفعاله، وتوحيده فى ألوهيته، وعدم توجه الإنسان بالعبادة له سبحانه، أو مكذبًا بشىء مما جاء به النبى محمد ﷺ من الشرائع، ومن أمور الغيب، أو غير ذلك، فهذا يكون مناقضًا لما أقر به واعترف به من الشهادتين، وتفصيل ذلك على النحو التالى:

* معلوم أن الكفر والشرك، والنفاق، والردة، هى نواقض الإسلام، بشتى صورها، ومختلف فروعها.

أولاً: الكفر:

ينبغى أن نُكَفِّرَ من يجاهرون بالكفر دون استحياء، ونكف عمن ظاهره

الإسلام. ومن الكفرة الذين يجب أن يدفعوا بالكفر بدون مواربة ولا استخفاء، الأصناف التالية:

(أ) الشيوعيون المصرون على الشيوعية، الذين يؤمنون بها فلسفة ونظام حياة، رغم مناقضتها الصريحة لعقيدة الإسلام وشريعته وقيمه، والذين يؤمنون بأن الدين - كل دين - أفيون الشعوب، ويعادون الأديان عامة، ويخصون الإسلام بمزيد من العداوة والنقمة، لأنه عقيدة ونظام وحضارة كاملة، فليس هناك "مسلم شيوعى" كما يزعم البعض!!، وذلك لاختلاف الإسلام عن الشيوعية فى كل شىء، أو على الأقل.. من رضى بنظام الشيوعية فى "الاقتصاد" فقد كرهه فى الإسلام وأنكره، وهذا وحده يكفى فى كفره، ومروقة من الإسلام...

(ب) العلمانيون: الذين يرفضون - جهرة - شرع الله، وينادون بأن الدولة يجب أن تنفصل عن الدين، وإذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أبوا وامتنعوا، وأكثر من ذلك أنهم يحاربون - أشد الحرب - من يدعون إلى تحكيم شريعة الله والعودة إلى الإسلام. هذا ومحاولة فصل الدين عن الدولة أقصر طريق إلى الكفر، وفيه إعلان الحرب على الله، وإنكار أكبر معالم الدين، وذلك كفر بواح، والعياذ بالله. «ورحم الله الإمام الكوثرى من علماء المسلمين، قال: إن محاولة فصل الدين عن الدولة كفر بواح صارخ».

(جـ) أصحاب النِحَل التى مرقت من الإسلام مروقًا ظاهرًا، مثل: الدروز، والنصيرية، والإسماعيلية، وأمثالهم من الفرق الباطنية، الذين قال عنهم الإمام الغزالى وغيره: «ظاهرهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض». وقال عنهم شيخ الإسلام "ابن تيمية": «إنهم أكفر من اليهود والنصارى» وذلك لإنكارهم قطعيات الإسلام وأساسياته، وما علم منه بالضرورة.

ومثلهم فى عصرنا "البهائية" التى هى دين جديد قائم برأسه، وكذلك "القاديانية" التى جاءت بنبوة بعد محمد ﷺ الذى ختم الله به النبيين.

ومعلوم أن الكفر الأكبر على أنواع خمسة هى:

(١) كفر التكذيب: وهو اعتقاد كذب الرسل، وهذا القسم قليل فى الكفار،

فإن الله تعالى أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات التى تدل على صدقهم ما أقام به الحجة، وأزال به المعذرة، قال تعالى ـ عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(١).

وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(٢).

(٢) كفر إباء واستكبار: مثل كفر إبليس، ومن هذا أيضًا، كفر من عرف الرسول ولم ينقد له إباءً واستكبارًا، وهو الغالب على كفر أعداء الرسل، كما قال تعالى عن فرعون وقومه إذ استكبروا عن اتباع الحق بقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾(٣).

ومنه، كفر أبى طالب، فإنه صَدَّقَ الرسول ﷺ ولم يشك فى صدقه، ولكن أخذته الحمية أن يرغب عن ملته، وخشى قومه.

(٣) كفر إعراض: مثل من يعرض عن الرسول ﷺ لا يسمعه، ولا يصدقه، ولا يكذبه، ولا يواليه، ولا يعاديه، ولا يصغى إلى ما جاء به البتة.

(٤) كفر الشك: حيث لا يجزم بصدقه، ولا بكذبه، بل يشك فى أمره، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر فى آيات صدق الرسول ﷺ جملة، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها، فإنه لا يبقى معه شك، لأنها مستلزمة للصدق.

(٥) كفر نفاق: وهو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوى بقلبه التكذيب، وهذا هو النفاق الأكبر.

---

(١) سورة النمل الآية: ١٤

(٢) سورة الأنعام الآية: ٣٣

(٣) سورة المؤمنون الآية: ٤٧

ثانيًا: الشرك الأكبر المخرج من الملة، الذى قال الله تعالى عنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(١).

وهو أربعة أنواع، وهى:

(١) شرك الدعاء، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾(٢).

(٢) شرك النية والإرادة والقصد، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٣).

(٣) شرك الطاعة، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾(٤).

وفى الحديث: عن عدى بن حاتم حين سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾(٥).

قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم؟ فقال: بلى، حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم(٦) قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما فى تفسيرها: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

(٤) شرك المحبة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾(٧).

---

(١) سورة النساء الآية: ١١٦

(٢) سورة العنكبوت الآية: ٦٥

(٣) سورة هود الآيات (١٥-١٦)

(٤، ٥) سورة التوبة الآية: ٣١

(٦) أخرجه الترمذى ٩٥-٣، والطبرانى فى الكبير ٢١٨، والبيهقى فى السنن ١٣٧ ٢٠، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف فى الحديث. وقال الألباني فى غاية المرام: حسن.

(٧) سورة البقرة الآية: ١٦٥

* فالشرك ـ عمومًا ـ فى عبادة الله وحده لا شريك له، أو جعل العبد بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة، فذلك من الكفر، وأيضًا. كل ما يضاد توحيد الربوبية، أو توحيد الألوهية، أو توحيد الذات، والأسماء والصفات، أو اشمئزاز القلب من توحيد الله وانبساطه لنوع من أنواع الشرك، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾(١).

وهذا الشرك مما يعذر فيه المسلم بالجهل قبل الحكم عليه بالكفر..

ثالثًا: النفاق: ومنه ما هو مخرج من الملة، وهذا هو النفاق الأكبر، وفيه يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والنفاق منه ما هو أكبر، ويكون صاحبه فى الدرك الأسفل من النار، كنفاق «عبد الله بن أبيّ» وغيره، بأن يظهر تكذيب الرسول، أو جحود بعض ما جاء به، أو بغضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ورسوله، وأما النفاق الأصغر المتمثل فى الرياء أو بعض صفات المنافقين كالكذب، وخلف الوعد، والخيانة، والفجور، فهذا ليس من جنس الكفر الذى يخرج عن الملة، وإن كان حرامًا.

رابعًا: الردة: وهى الكفر بعد الإيمان، فمن قال الكفر أو فعله أو رضى به مختاراً كفر وإن كان مع ذلك يبغض بقلبه، وبهذا قال علماء السنة والحديث، وذكروا ذلك فى كتبهم، فقالوا: إن المرتد هو الذى يكفر بعد إسلامه إما نطقًا، وإما فعلاً، وإما اعتقاداً، وقرروا أن من قال الكفر كفر وإن لم يعتقده ولم يعمل به إذا لم يكن مكرها أو جاهلاً أو ناسيًا أو مخطئًا وكذا بقية الأعذار المقررة شرعًا. وكذلك إذا فعل الكفر كفر وإن لم يعتقده ولا نطق به، وكذلك إذا شرح بالكفر صدراً، أى فتحه ووسعه، وإن لم ينطق بذلك ولم يعمل به، وهذا معلوم قطعًا من كتبهم ومن له ممارسة فى العلم فلابد أن يكون قد بلغه طائفة من ذلك.

---

(١) سورة الزمر الآية: ٤٥

- ولهذه الردة صور ومظاهر متنوعة ومتعددة، نذكر بعضًا منها:

(أ) من لم يكفر المشركين، أو شك فى كفرهم، أو صحح مذهبهم، كَفَرَ إجماعًا، وهذا معناه الرضى بالكفر، أو عدم الرضى بالإسلام، وكلاهما كفر، وهذا فيمن أجمع العلماء على كفره، وليس فيمن اختلف عليه.

فمن قال: صدقت - لمن أنكر الشهادتين. ومن قال: كذبت - لمن نطق بها، لا يشك أحد فى كفره، حتى وإن كان القول الأول مجاملة للقائل. وهنالك أساليب مختلفة من الأقوال والأعمال والأحوال لا تقل فى دلالتها - فى عرف الشارع، وفى عرف الناس، وعرف اللغة - عن قول: صدقت لمن كفر، أو كذبت لمن أسلم، فمن صدرت منه خرج من دين الإسلام، على تفصيل فى ذلك القول، والاحتياط فى الحكم.

(ب) من اعتقد أن غير هدى النبى ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكم الإسلام، فهذا كفر، فتنحية شريعة الله عن مجرى الحياة، واستيراد قوانين البشر القاصرة، ردة جديدة برزت فى القرون الأخيرة فى حياة المسلمين. قال تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾(١).

وقال: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾(٢) وهذا على وجه الإجمال.

(جـ) من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به كفر إجماعًا، والدليل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾(٣).

سواء أكانت تلك الكراهية نابعة من نفسه، ومن إملاء هواه، أم كانت تابعة للغير، موافقة لهواهم. كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾(٤).

فالله عز وجل جعلهم فى العاقبة سواء، وهو إحباط عملهم، وذلك حال

(١) سورة المائدة الآية: ٤٤ .
(٢) سورة المائدة الآية: ٥٠.
(٣) سورة محمد آية ٩ .
(٤) سورة محمد الآية: ٢٦

الكفار ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾(١).

وبغض ما أنزل الله عز وجل لا يعدو إلا أن يكون استهزاءً به، أو جحوداً له، وكلاهما كفر، فمن استهزأ بشيء من دين الله أو بثوابه أو عقابه، أو بالرسول أو بالقرآن أو بالمؤمنين بسبب إيمانهم ونحو ذلك، فهذا ضرب من الكفر، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾(٢).

ومن جحد شيئًا من الدين كان كمن جحد بالدين كله. قال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(٣).

وظهور الكراهية والغضب عند ذكر الله أو رسوله أو تلاوة كتابه. أو ذكر شيء من أمور الدين المعروفة، أو الدعوة إليه.

كل ذلك مظاهر للبغض أو الانكار أو الاستهزاء، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾(٤).

(د) مظاهرة المشركين، والولاء لهم، ومعاونتهم على المسلمين، لقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(٥).

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٦).

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٢٣
(٢) سورة التوبة الآية: ٦٥ ، ٦٦
(٣) سورة البقرة الآية: ٨٥
(٤) سورة الحج الآية: ٧٢
(٥) سورة المائدة الآية: ٥١
(٦) سورة المائدة الآية: ٥٧

فلابد أن يحدد المسلم موقفه من أعداء الله، وأعداء دينه، من الكفار والمشركين والمرتدين، ويتبين الحد الذى يجب أن يقف عنده المسلم ولا يتجاوزه من أجل الحفاظ على دينه وإيمانه فى معاملتهم وبناء العلاقات معهم، وهو الحد الذى لا يفهم من الوقوف عنده الموافقة على دينهم والرضى عن كفرهم، فإذا تخطى المسلم هذا الحد، ودخل فى طاعة الكفار وأظهر الموافقة على دينهم الباطل، وأعانهم عليه بالنصرة والمال، ووالاهم، وقطع الموالاة مع المسلمين، ورفع علاقته معهم على علاقته مع المسلمين، وضحى بالثانية من أجل الأولى، فقد صار منهم وارتد عن دينه وكان كافراً من أشد الناس عداوة لله تعالى ورسوله ﷺ، ولا يستثنى من ذلك إلا المكره، وهو الذى يقع تحت سلطان الكفار فيأمرونه بطاعتهم فى باطلهم، ويهددونه بالقتل أو يشرعون فى تعذيبه فيجوز له عندئذ فقط الموافقة باللسان مع طمأنينة القلب بالإيمان.

قال تعالى: ﴿**لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً**﴾(١).

والولاية فى لغة العرب تطلق على النصر والتأييد والإعانة، الدنو والقرب، وفلان ولى لفلان وموال أى مؤيد ناصر، والله ولى الذين آمنوا: ناصرهم ومؤيدهم ومعينهم. وأولياء الله الذين يقومون بنصره سبحانه وتعالى كما قال عز وجل: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾(٢).

وعلى هذا المعنى يكون اتخاذ أعداء الله أولياء يعنى اتخاذهم أنصاراً ومؤيدين مع التقرب إليهم، وإظهار الود لهم، واتباع أهوائهم، وطاعتهم فيما يأمرون ويشيرون به والركون إليهم ومداهنتهم ومجاملتهم على حساب الدين، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، ومعاونتهم على ظلمهم ونصرتهم، والتشبه بهم فى العقائد والعادات، والأخذ بقوانينهم ومناهجهم فى حكم الأمة وتربية أبنائها.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٢٨

(٢) سورة محمد الآية: ٧

والواجب على المسلم إعلانه عن الالتزام بالإسلام كله، وإعلان البراءة من الكافرين، وعدم إعانة الكافر على المسلم، أو اتخاذهم بطانة وحاشية، أو حبهم، ولكن يستثنى من البراءة هذه، ولا ينقض أصلها أمور منها:

اللين عند عرض الدعوة، أو حل الزواج بالكتابية، وأكل ذبيحة الكتابى، أو المجاملة والإحسان والدعاء لهم بالهداية، أو الإهداء لهم وقبول هداياهم، أو عيادة مرضاهم، والتعامل معهم بيعًا وشراءًا ومؤاجرة، أو التصدق عليهم والإحسان لهم مع مراعاة الضوابط الشرعية فى كل ما ذكر، ومجال تفصيله ليس فى هذا الموضع، وإنما هذه إشارات إلى معنى الولاء والبراء، الذى ساء البعض فهمه ومعناه.

وخلاصة هذا الأمر هو أن المسلمين أمة واحدة، يكون ولاء كل مسلم لها، وقلبه معها ويده ولسانه وسلاحه معها، ولا يجوز أن يصرف شيئًا من ذلك لأعداء الإسلام. فمن فعل فقد انتقل من معسكر الإسلام إلى معسكر الكفر شاء أم أبى . . .

(هـ) الاعتراض على التشريع، إذ هو اعتراض على واضعه ومنزله سبحانه وتعالى، وهذا كفر، فالتشريع حق الله وحده ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ**﴾[1] وأيضًا: ﴿**أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾[2].

ونفى الحكمة عن جزئية واحدة من تشريعه، أو الاعتراض على هذه الجزئية هو اعتراض على المشرع سبحانه، وهو كفر.

وقد فشى اليوم فى أوساط المسلمين ترديد شبه أعداء الإسلام، فنقلوا واعتقدوا ما بثوه من اعتراض على تشريع الله، حتى لا يكاد اليوم يخلو حكم شرعى من أحكام الإسلام إلا ونسمع الاعتراض عليه، وأظهر ذلك. . تعدد الزوجات، والطلاق، والرق، وحد السرقة، وحكم القصاص، وحد الزنا. . . إلخ.

(١) سورة يوسف الآية: ٤٠

(٢) سورة الأعراف الآية: ٥٤

وترديد من يشهد أن لا إله إلا الله، لمثل هذه الاعتراضات دون فهم ووعى لحكم ذلك أمر خطير، واعتقاد انتفاء الحكمة من هذه الشرائع والأحكام والحدود كفر بالله تبارك وتعالى، أو ما هو أشد من ذلك، كمن ينكر الشريعة جملة، ويرى أنها تساير نظام حياة الناس، ولا تناسب رقيهم وتطورهم المادى، فهؤلاء خارجون عن الإسلام، سواء أكانوا مسلمين قبلا، أو لم يسبق لهم إيمان وشهادة.

ولكن أرجو أن يعلم أن الاعتراض قد يصدر أحيانًا من مسلم يفاجئه الحكم ولا يرى الحكمة فيه مباشرة، ولا يخرج بهذا عن الإسلام إلا بعد أن يبين له الحكمة فلا يرجع إلى الله، ولا يفىء إلى أمره عز وجل، بل يظل مصراً على اعتراضه. وقد صدر عن سعد بن عبادة رضى الله عنه ـ عندما سمع قول الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً** ﴾[١] قوله: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال الرسول ﷺ: يا معشر الأنصار! ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟ فقالوا: يا رسول الله.. لا تلمه فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال سعد: والله يا رسول الله إنى لأعلم بأنها حق، وإنها من الله، ولكن قد تعجبت أنى لو وجدت لكاعًا قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه، ولا أحركه حتى أتى بأربعة شهداء، فوالله إنى لا آتى بهم حتى يقضى حاجته[٢]، ثم أنزل الله تبارك وتعالى بعد ذلك: ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾[٣] إلى قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ** ﴾[٤].

والشاهد فى سوق هذا الحديث أنه يحصل للمسلم أحيانًا الاستفسار فى صورة الاعتراض على حكم الله، ولا يكون هذا مخرجًا له عن الإسلام.

---

(١) سورة النور الآية: ٤ .

(٢) أخرجه أحمد ٢١٣١، والطيالسى ٢٦٦٧، وأبو يعلى فى مسنده ٢٧٤٠، وقال شعيب الأرنؤوط: حسن.

(٣، ٤) سورة النور الآية: ٦-١٠

وخلاصة الأمر: أن موقف المسلم من تشريع الله عز وجل هو الرضى والتسليم "سمعنا وأطعنا" هذا شعار المسلم دائمًا، ولا بأس أن يسأل عن الحكمة، ويتعلمها، لأن ظهور حكمة التشريع تزيد المؤمن إيمانًا، وتقوى صلته بربه جل وعلا، وشتان بين أن يكون هناك تلمس لحكمة التشريع، وبين أن يكون هناك اعتراض على حكمة التشريع.

(و) وهناك نواقض أخرى للإيمان:

كالسحر ومزاولته، أو تعلمه والرضى به.

أو اعتقاد البعض من الناس أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ، كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام.

أو ادعاء أن للقرآن ظاهراً وباطنًا، وأن باطنه يخالف الظاهر، وأن هذا الباطن مخصوص بالبعض دون البعض.

أو الإعراض عن دين الله، لا يتعلمه ولا يعمل به ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾[1].

أو الرضا بفشو المنكر وانتشاره، والعمل على ترويجه فى الأمة المسلمة.

أو من سبَّ الدين أو الملة، وقصد به الشريعة المطهرة والأحكام التى شرعها الله لعباده على لسان نبيه ﷺ.

أو عدم اعتراف الإنسان بأن كل نعمة هو فيها ظاهرة وباطنة، حسية ومعنوية هى من فضل الله، وأنها لولا الله ما كانت.

وإعطاء غير الله حق الأمر والنهى، وحق التحليل والتحريم، وحق التشريع، وحق الحاكمية، أو الحكم بغير ما أنزل الله، أو الإحتكام إلى غيره جل وعلا.

أو استحباب الحياة الدنيا على الآخرة، وجعل الدنيا هدف الإنسان الوحيد.

أو سوء الأدب مع رسول الله ﷺ برفع الصوت عليه، أو على سنته.

(١) سورة السجدة الآية: ٢٢

مكتفيًا بهذا القدر من ذكر نواقض الإيمان: إذ التفصيل والاستقصاء متعذر، ولكنها قواعد يدخل فيها غيرها، وتقاس عليها أمثلتها، معتذرًا عن بعض الاختصار فى كثير من المسائل التى ذكرتها، ومحيلاً القارىء إلى التوسع فى مظانها ومراجعها[١].

***

(١) راجع بتوسع ما يلى:-
- العقيدة الطحاوية
- ظاهرة الغلو فى التكفير للدكتور/ يوسف القرضاوى
- رسالة الولاء والبراء للدكتور/ محمد بن سالم القحطانى
- مجموعة التوحيد لابن تيمية وابن عبد الوهاب
- الإيمان ونواقضه، محمد نعيم ياسين
- الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، د/ عبد الرحمن عبد الخالق
- مدراج السالكين لابن القيم
- مجموعة الفتاوى لابن تيمية
- الإسلام للأستاذ/ سعيد حوى

حكم تارك الصلاة

لقد جاءت الأحاديث الصحاح تنفى الإسلام عن من ضيع الصلاة، كحديث «العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»(١) فدل على أنه لا يكتفى بالتلفظ بلا إله إلا الله.

ولكن يجب ألا نخلط فى الأحكام، وأن نفرق بين المُنكِر والتارك، فلا يجوز التسوية فى الحكم بين الجاحد والتارك، فالإنكار والجحود، أو الاستهزاء بأى فريضة فى الدين كفر ولا خلاف، أما الترك الكامل، فهذا لم يقل أحد بكفر صاحبه فى أى فريضة عدا الصلاة التى اختلفوا فى حكم من تركها تكاسلاً على نحو سنفصل القول فيه. يقول ابن القيم رحمه الله فى كتابه "الصلاة وحكم تاركها" لا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمدًا من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وأن إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النفس وأخذ الأموال، ومن إثم الزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وأنه متعرض لعقوبة الله وسخطه وخزيه فى الدنيا والآخرة.

ثم اختلفوا فى قتله وفى كيفية قتله وفى كفره: وقد أفتى أئمة السلف بعد أن اختلفوا فى كيفية قتله، هل سيكون بالسيف ضربًا أو نخسًا أو بالخشب، وقال البعض: يحبس، واختلفوا فى حكم استتابته قبل قتله، هل يستتاب أم لا ؟ على أقوال كثيرة، الراجح منها أنه يستتاب، فهذا قتل لترك واجب شرعت له الاستتابة فكانت واجبة كقتل الردة. واختلفوا هل يقتل تارك الصلاة حدًا أم كفرًا؟

ثم سرد أدلة الذين لا يكفرون تارك الصلاة، وهى أدلة من القوة بمكان، ثم أورد أدلة الذين قالوا بكفر تارك الصلاة من القرآن والسنة، وإجماع الصحابة، وحمل المانعون من التكفير هذه الأحاديث وما شاكلها، على كفر النعمة دون كفر الجحود.

---

(١) صحيح.. تقدم.

ثم قال: معرفة الصواب فى هذه المسألة مبنى على معرفة حقيقة الإيمان والكفر، ثم يصح النفى والإثبات بعد ذلك، فالكفر والإيمان متقابلان، إذا زال أحدهما خلفه الآخر.

ولما كان الإيمان أصلاً له شعب متعددة، وكل شعبة منها تسمى إيمانًا، فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصيام، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل والخشية من الله والإنابة إليه، حتى تنتهى هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق، فإنه شعبة من شعب الإيمان، وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة، ومنها ما لا يزول لزوالها كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، منها ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى ويكون إليها أقرب.

وكذلك الكفر ذو أصل وشُعَبْ، فكما أن شعب الإيمان إيمان، فشعب الكفر كفر، والحياء شعبة من الإيمان، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر، والصدق شُعْبَة من شُعَبِ الإيمان، والكذب شعبة من شعب الكفر، والصلاة والزكاة والحج والصيام من شُعَبْ الإيمان، وتركها من شعب الكفر، والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله من شعب الكفر، والمعاصى كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان.

ثم قال: الكفر نوعان: كفر عمل، وكفر جحود وعناد، فكفر الجحود أن يكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند الله جحوداً وعناداً من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه، وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه، وأما كفر العمل فينقسم إلى ما يضاد الإيمان وإلى ما لا يضاده، فالسجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، وقتل النبى وسبه، يضاد الإيمان.

وأما الحكم بغير ما أنزل الله، وترك الصلاة فهو من الكفر العملى قطعاً ولا يمكن أن ينفى عنه اسم الكفر بعد أن أطلقه الله ورسوله عليه، فالحاكم بغير ما أنزل الله كافر، وتارك الصلاة كافر، بنص حديث رسول الله ﷺ. ولكن هو كفر عمل، لا كفر اعتقاد.

ومن الممتنع أن يسمى الله سبحانه الحاكم بغير الله ما أنزل الله كافراً، ويسمى رسول الله ﷺ تارك الصلاة كافراً، ولا يطلق عليهما اسم الكفر.

وقد نفى رسول الله ﷺ الإيمان عن الزانى والسارق وشارب الخمر وعمن لا يأمن جاره بوائقه، وإذا نفى عنه اسم الإيمان فهو كافر من جهة العمل، وانتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد.

وهذا التفصيل هو قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب الله، وبالإسلام وبالكفر ولوازمهما، فلا تتلقى هذه المسائل إلا عنهم، فإن المتأخرين لم يفهموا مرادهم فانقسموا فريقين: فريقًا أخرجوا من الملة بالكبائر وقضوا على أصحابها بالخلود فى النار، حال أصحاب التكفير فى زماننا.

وفريقًا جعلوهم مؤمنين كاملى الإيمان، فهؤلاء غلوا، وهؤلاء جفوا.

وهدى الله أهل السنة للطريقة المثلى والقول الوسط، الذى هو فى المذاهب كالإسلام فى الملل - فهناك كفر دون كفر، ونفاق دون نفاق، وشرك دون شرك، وفسوق دون فسوق، وظلم دون ظلم.

فلا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد أن يسمى مؤمنًا، وإن كان ما قام به إيمانًا، ولا من قيام شعبة من شعب الكفر أن يسمى كافراً، وإن كان ما قام به كفراً.

كما إنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به أن يسمى عالمًا، ولا معرفة بعض مسائل الفقه والطب أن يسمى فقيهًا ولا طبيبًا.

والمقصود أن سلب الإيمان عن تارك الصلاة أولى من سلبه عن مرتكب الكبائر. وسلب اسم الإسلام عنه أولى من سلبه عمن لم يسلم المسلمون من لسانه ويده.

فلا يسمى تارك الصلاة مسلمًا ولا مؤمنًا وإن كان معه شعبة من شعب الإسلام والإيمان. نعم، يبقى أن يقال فهل ينفعه ما معه من الإيمان فى عدم الخلود فى النار؟ فيقال: ينفعه إن لم يكن المتروك شرطًا فى صحة الباقى واعتباره، وإن كان المتروك شرطًا فى اعتبار الباقى لم ينفعه، ولهذا لم ينفع الإيمان بالله

ووحدانيته، وأن لا إله إلا هو، من أنكر رسالة محمد ﷺ، ولا تنفع الصلاة من صلاها عمداً بغير وضوء، فشعب الإيمان قد يتعلق بعضها ببعض تعلق المشروط بشروطه، وقد لا يكون كذلك.

فبقى النظر فى الصلاة هل هى شرط لصحة الإيمان؟ هذا سر المسألة.

والأدلة التى ذكرناها وغيرها تدل على أنه لا يقبل من العبد شيء من أعماله إلا بفعل الصلاة فهى مفتاح ديوانه، ورأس مال ربحه، ومحال بقاء الربح بلا رأس مال، فإذا خسرها خسر أعماله كلها، وإن أتى بها صورة، وقد أشار إلى هذا بقوله. «فإن ضيعها فهو لما سواها أضيع».

وفى قوله «إن أول ما ينظر إلى الصلاة، فإن جازت له نظر فى سائر أعماله وإن لم تجز له لم ينظر فى شىء من أعماله بعد» ومن العجب أن يقع الشك فى كفر من أصر على تركها، ودعى إلى فعلها على رؤوس الملأ وهو يرى بارقة السيف على رأسه ويشد للقتل وقد عصبت عيناه، وقيل له: تصلى وإلا قتلناك، فيقول: اقتلونى ولا أصلى أبداً.

ومن لا يكفر تارك الصلاة يقول هذا مؤمن مسلم، يُغَسَّل ويصلى عليه ويدفن فى مقابر المسلمين، وبعضهم يقول إنه مؤمن كامل الإيمان، إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل، أفلا يستحى من هذا قوله من إنكار تكفير من شهد بكفره الكتاب والسنة واتفاق الصحابة. والله أعلم بالصواب[١].

(١) راجع بتوسع/ مبحث تارك الصلاة فى كتاب الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ص ٤-٣٠.

أن لا إله إلا الله

"أن" للتوكيد وهى فى النطق تدغم مع اللام حسب أحكام التلاوة.

"لا إله" هذا نفى فى اللغة، وكفر فى الشرع.

"إلا الله" استثناء يحمل معنى الإثبات فى اللغة، وهو إيمان فى الشرع.

فكلمة "لا إله إلا الله" اشتملت على كفر وإيمان، ولا يصح الإيمان إلا بعد الكفر. ولكن الكفر بماذا؟

إنه الكفر بكل رب باطل، وإله زائف، الكفر بكل طاغوت عبد من دون الله، وبكل عبادة لغير الله. فهذا يجب الكفر به ونفيه والتخلى عنه حتى يتسنى بعد ذلك الإيمان بالإله الواحد الحق، فهى - أى كلمة التوحيد - تخلية عن كل ما سوى الله، وتحلية بالإيمان بالله. قال تعالى: ﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[١].

يقول ابن كثير رحمه الله: أى من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو فقد استمسك بالعروة الوثقى، أى فقد ثبت فى أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم واستمسك بالدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة القوية التى لا تنفصم هى فى نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوى شديد، وقال مجاهد: العروة الوثقى يعنى الإيمان. وقال السدى: هو الإسلام. وقال سعيد بن جبير والضحاك: يعنى لا إله إلا الله. وعن أنس بن مالك: العروة الوثقى: القرآن. وعن سالم بن أبى الجعد قال هو الحب فى الله، والبغض فى الله، وكل هذه الأقوال صحيحة ولا تنافى بينها لأنها كلها تندرج تحت الدين والصراط المستقيم[٢].

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٦ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣١١ بتصرف.

"الله" لفظ الجلالة: علم على الذات المقدسة التى نؤمن بها، ونعمل لها، ومنها حياتنا، وإليها مصيرنا(١).

إذن كلمة التوحيد تقضى بخلع كل معبود سوى الله، ثم التحلي بالإيمان بالله «قل أسلمت وتخليت»(٢) فأى شيء نكفر به ونتخلى عنه؟ ثم أى شيء نؤمن به ونتحلى به. وما هى حقيقة الإيمان أو التوحيد؟

« لا إله إلا الله ـ لا رب إلا الله »

« لا إله إلا الله ـ لا معبود بحق إلا الله »

« لا إله إلا الله ـ لا كفء ولا نظير لله »

---

(١) عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ١٤ بتصرف

(٢) أخرجه أحمد ٤٩ ٠ ٢٠، والنسائى ٢٤٣٦، والحاكم ٨٧٧٤ وصححه، وقال الألباني فى الصحيحة (٣٦٩): حسن بلفظ «... تقول أسلمت وجهى إلى الله وتخليت...».

الكفر بالطاغوت

لقد اشتملت كلمة التوحيد فى جزئها الأول على الكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله، فما هو الطاغوت؟

الطاغوت فى اللغة: من الطغيان، وهو كل ما زاد عن الحد المقرر له، وكانت العرب تطلق اسم الطاغوت أيضًا على كل ما عبد من دون الله، يقول القرطبى: والطاغوت مؤنثة من طغا يطغو، إذا جاوز الحد بزيادة عليه، وقيل: أصل طاغوت فى اللغة مأخوذ من الطغيان يؤدى معناه من غير اشتقاق، . . قال الجوهرى: والطاغوت الكاهن، والشيطان، وكل رأس فى الضلال والجمع طواغيت، وعلى ذلك فإن الطاغوت قد يكون الوثن أو الصنم أو الشخص، وقد يكون ذات الشريعة الزائدة عن حد الله.

قال ابن القيم رحمه الله: «الطاغوت هو كل معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يتبعونه على غير هدى من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله».

فما الطاغوت الذى يجب الكفر به حتى يتحقق الإيمان؟

لقد ورد لفظ الطاغوت فى القرآن ثمانى مرات:

(١) ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[١] ومعناه الأصنام أو الشيطان.

(٢) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[٢] ومعناه الأصنام أو الشيطان أيضًا.

(٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ وهما صنمان لقريش.

(٤) ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾[٣] كثير الطغيان، وهو كعب بن الأشرف.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٦ .
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٥٧ .
(٣) سورة النساء الآية: ٥١ .
(٤) سورة النساء: ٦٠

(٥) ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾[١] وهو الشيطان.

(٦) ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾[٢] وهو بمعنى الشيطان.

(٧) ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[٣] بمعنى الأوثان.

(٨) ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾[٤] بمعنى الأوثان[٥].

ويظهر معنى الطاغوت فيما عبد من دون الله من أصنام ومخلوقات أخرى، إذا ذكر معه الإيمان وعبادة الله والكفر بالطاغوت، وهو يطلق على الباطل مطلقًا ممن يعقل أو لا يعقل..

فإذا عبد من دون الله، أو مع الله، فذلك كفر أو شرك، وإذا فتن به دون عبادة له كان عصيانًا وفسوقًا، كالذى يفتنه الشيطان أو السلطان أو المال أو المرأة أو الذهب أو غير ذلك، فتنة تلهيه عن الواجب وتغريه بالسوء، وقد يطلق عليه أنه يعبده، أى يحبه حبًا شديدًا، ويستجيب له ويطيعه طاعة العبد لسيده، ومنه حديث «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطى رضى، وإن لم يعط سخط»[٦].

والكفر بالطاغوت جحده وإنكاره، واجتناب الطاغوت عدم اتباعه أو الاعتقاد أن له طاعة واجبة، وألا نطيعه فعلاً، وأن نكذب بدعوته الخارجة عن حد الله[٧].

والكفر بالطاغوت يقتضى التخلى عن كل رب باطل، والكفر بكل إله زائف... ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[٨].

---

(١) سورة النساء الآية: ٧٦ .
(٢) سورة المائدة الآية: ٦٠ .
(٣) سورة النحل الآية: ٣٦ .
(٤) سورة الزمر الآية: ١٧ .
(٥) بيان للناس من الأزهر الشريف ص ١٧٦، ١٧٧ .
(٦) أخرجه البخارى ٢٨٨٧ .
(٧) دعاة لا قضاة ص ١٦١ - ١٦٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٣ ص ٢٨١
(٨) سورة يوسف الآية: ٣٩

لا إله إلا الله

هى قاعدة الدين، وأساس الإسلام. وهى التى يقوم عليها بناء العقيدة وترتكز عليها التكاليف والفرائض، وبها تصح العبادات وتستمد منها الحقوق والواجبات، القاعدة التى يجب أن تقوم أولاً قبل الدخول فى الأوامر والنواهى، وقبل الدخول فى التكاليف والفرائض، وقبل الدخول فى الأوضاع والنظام، أو الشرائع والأحكام. يجب ابتداء أن يعترف الناس بربوبية الله وحده لهم فى حياتهم، كما يعترفون بألوهيته وحده فى عقيدتهم.

لا يشركون معه أحداً فى ألوهيته، ولا يشركون معه أحداً فى ربوبيته، كذلك يعترفون له وحده بأنه المتصرف فى شئون هذا الكون فى عالم الأسباب والأقدار، ويعترفون له وحده بأنه المتصرف فى حسابهم وجزائهم يوم الدين، ويعترفون له وحده بأنه هو المتصرف فى شئون العباد فى عالم الحكم والشريعة كلها سواء[1].

اعتراف بهذا كله، وتوحيد خالص فى هذا كله، وبُعد عن شوائب الشرك فى هذا كله فى ربوبية، أو ألوهية، أو أسماء أو صفات أو ذات، فى حاكمية، أو فى تشريع، فى عبادة، أو فى عمل، الشرك هو جريمة الجرائم، وكبيرة الكبائر، وفاحشة الفواحش، وأول منهى عنه ومذموم فى كل دين ورسالة وكتاب.

إنها تنقية الضمير من أوشاب الشرك، وتنقية العقل من أوشاب الخرافة، وتنقية المجتمع من تقاليد الجاهلية، وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد.

إن الشرك فى صوره هو المحرم الأول، لأنه يجر إلى كل محرم، وهو المنكر الأول الذى يجب أن يحشد الإنكار كله له حتى يعترف الناس أنه لا إله إلا الله، ولا رب لهم إلا الله، ولا حاكم لهم إلا الله، ولا مشرع لهم إلا الله، كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر لغير الله.

ونأخذ هذا بشىء من التفصيل حسبما يستدعيه المقام بدون إطالة مملة أو وجازة مخلة فنقول ـ وبالله التوفيق ـ: من هذا الذى ينبغى أن يكون إلهًا مع الله؟ أو من

(١) اقتباسا من ظلال القرآن - سيد قطب

دون الله، أو شريكًا له، أو حتى معينًا له؟!!.

أهو الحجر، أو الشجر، أم النار، أو البقر؟

أهى الكواكب، أم الشمس، أم القمر، أهو النمرود، أو فرعون؟

أهو العزير أم عيسى أم غيرهم من الأنبياء؟

أهم الجن أم الملائكة أم من منهم؟

أمن هو؟ وما الذى يرشحه لهذا المنصب الخطير؟[1] لقد عبد الناس أربابًا من دون الله!!

وإننا لو استعرضنا جوانب التاريخ لرأينا أن من عُبِدَ من دون الله هو هؤلاء وأمثالهم؟ ولو استقرئنا جوانب التاريخ أيضًا لعرفنا أنه ما من واحد منهم أثبت شجاعته، وأظهر كبرياءه، وظل فى منصبه أو تمادى فى ألوهيته، واستقر على ربوبيته. بل سنرى كما يذكر لنا القرآن والتاريخ الصحيح، ماذا حدث لهؤلاء؟ وسنعرض لهذا بشىء من الإيجاز.

من يصلح من هؤلاء أن يكون إلهًا أو شريكًا مع الله؟

الصنم: ذلك الحجر الأصم الذى لا يسمع ولا يبصر، ولا ينفع ولا يضر، ينحت وقد يبال عليه ثم يعبد. فهل ذلك الحجر الذى هو قطعة من الأرض - بل الأرض كلها - تصلح لتكون إلهًا خالقًا رازقًا؟!!

أم ذلك الشجر؟ فهل من شجرة مهما تأصلت جذورها، أو طال ساقها، أو اخضرت أوراقها، أو أينعت ثمارها، أو طال أمدها، تصلح لتكون إلهًا مع الله، يدبر أحوال الخلق، ويصلح شئون المخلوقين؟!!

أم تلك النار؟ فهل من نار مهما كبرت واشتد لهيبها، واحمرت نارها، وطالت مدة بقائها، تصلح لتكون إلهًا يخلق ويرزق، أو يضر وينفع؟!!

أم تلك الأبقار؟ فهل من عجل مهما زاد لحمه وشحمه وكبرت قوته وتجمل لونه يصلح ليكون إلهًا؟ فما الذى يوضع فى أطباق الآكلين إذن؟!!

(١) اقتباسا من كتاب عقيدة المسلم» للشيخ الغزالى

أم تلك الكواكب أو الشمس أو القمر؟ أرأيت شيئًا يغيب ويظهر، ويتحرك ويسكن، ويذهب ويجيء، ويكبر ويصغر، ويتجزأ ويتحول، يصلح أن يكون إلهًا قادرًا حكيمًا؟!! ولهذا كله أشار القرآن فقال ربنا الرحمن: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾(١).

وفى سورة الأنعام نجد إبطال عبادة الأصنام والكواكب فقال تعالى عن الأصنام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

أصنام!! لم وكيف؟ هل استطاعت أن تدافع عن نفسها حتى تدافع عن غيرها ساعة أن حطمها وكسرها سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأين كانت عقول عبادها ساعة أن قالوا: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٣).

الآلهة التى تفعل أم التى يفعل بها؟ ثم لِمَ لَمْ تدافع عن نفسها ساعة أن قال سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾(٤) إلى غير ذلك.

وعن الكواكب أخبرنا ربنا أنه أبطل عبادتها على يد سيدنا إبراهيم، وقد أثبت ذلك لعباد الكواكب على سبيل التدرج بهم، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٩٥ .
(٢) سورة الأنعام الآية: ٧٤ .
(٣) سورة الأنبياء الآية: ٥٩ .
(٤) سورة الأنبياء الآية: ٦٣ .
(٥) سورة الأنعام الآية: ٧٦ - ٧٩ .

أم هو النمرود؟ فـهل يصلح أن يكون إلهًا؟ لقـد عُرف أن الإله قـادر مريد، فهل النمرود كذلك؟ لقـد عجز عن أمر بسيط من أمور المخلوقـات، فهل العاجز يصلح ليكون إلهًا؟! . قـال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾(١).

أم لعله فرعون موسى الذى قال: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾(٢).

وكذلك قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾(٣).

فها هو فرعون فى بيته لا يستطيع إنجاب الولد، لذلك قالت امرأة فرعون عن موسى: ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾(٤).

ولا يستطيع مجابهة زوجته ساعة أن قالت: ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(٥).

وها هو مع السحرة بعد أن توعدهم: ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾(٦).

وها هو فى حياته يدق عليـه إبليس باب بيتـه، فيـرد فرعـون متسألاً: من بالباب؟ فيقول له إبليس ـ فى سخرية واستهزاء ـ: تبًا لك، إله ولا تعلم من وراء الباب؟!

ثم ها هو فى نهايته، يجـرى ويلهث وراء موسى ومن آمن به إلى أن يدركه، فمـاذا كـانت النهـايـة؟ لقد غـرق، فهـل رأيـت من إله يغـرق؟ سبـحان اللـه!!

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٨
(٢) سورة القصص الآية: ٣٨
(٣) سورة النازعات الآية: ٢٤
(٤) سورة القصص الآية: ٩
(٥) سورة التحريم الآية: ١١
(٦) سورة طة الآية: ٧١ - ٧٣

قال تعالى: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾(١).

أم هو الجن، فما الذى يؤهله، وأى ميزة ترشحه، عرفناه مخلوقًا ككل المخلوقات إن لم يكن أقل. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾(٢).

كما قال: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾(٣).

أم هم الملائكة أو أحدهم، هم كذلك خلق من خلق الله، وإن علوا، قال تعالى: ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾(٤).

وكذلك قال الله: ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٥).

ورد ربنا عليهم فى كلمة واحد "أشهدوا خلقهم"؟ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾(٦).

أم هو العزير أو عيسى كما زعموا؟ وكما حكى الله فى كتابه عنهم فقال: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾(٧).

ثم نقول بالنسبة لعيسى عليه السلام: لِمَ كان عيسى بالذات ولدًا لله، ثم ما وجه الحاجة إليه؟ ثم ما الذى يرشحه ليكون ولدًا لله دون بقية الخلق؟

فلئن قالوا: إنما اختير عيسى بالذات لأنه خلق بدون أب، قلنا: ذلك له مثاله

(١) سورة يونس الآية: ٩٠- ٩٢
(٢) سورة الأنعام الآية: ١٠٠
(٣) سورة الأعراف الآية: ١٩١
(٤) سورة النساء الآية: ١٧٢
(٥) سورة الأنعام الآية: ١٠٠
(٦) سورة الزخرف الآية: ١٩
(٧) سورة التوبة الآية: ٣٠

فى الكون، وهو أمثلة على قدرة الله تعالى يخلق بسبب، وبدون سبب. فلئن كان عيسى خلق بدون أب، فحواء بدون أم. وآدم خلق بدون أب وأم، والملائكة كذلك، فما الميزة إذن؟ بل الميزة لغيره إذ أن آدم عليه السلام خلق بدون أب وأم، وسَوَّاه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وخلقه فى الملأ الأعلى، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، ولم يجر من مجرى البول ولم يكن طفلاً أو رضيعًا، ومع ذلك قال تعالى: ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾(١).

بل الملائكة فى الخلق أعلى درجة من هذا أو ذاك ومع ذلك: ﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾(٢).

ثم نقول ما وجه الحاجة إليه؟ آالله محتاج إليه فى شئونه وأعماله؟! سبحانه وحاشاه تعالى، هو الغنى عن العالمين. القائل: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾(٣).

أم أن الله يحتاجه كولى عهد له من بعده؟ سبحانه وتعالى حى دائم ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾(٤).

وكذلك قال سبحانه: ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ** ﴾(٥).

ثم نقول: ما الميزة التى امتاز بها عيسى عن الخلق جميعهم حتى يكون ابنًا لله؟ فقد عرفنا أن الابن فيه كثير من خصائص الأب، فابن الغنى يتضح عليه غنى أبيه، وابن الملك تتضح عليه علامات الإمارة، وأبناء الرؤساء والملوك، فما الذى امتاز به عيسى حتى يكون ابنًا لملك الملوك، والغنى عن العالمين؟ لقد عرفنا عنه كما حدثنا القرآن أنه كان بشرًا كبقية البشر، وأنه لم يتميز عنهم فى شىء حتى فيما يراه الإنسان خسيسة فى نفسه وهو: البول والغائط".

فلقد رأينا أن عيسى عليه السلام يأكل ويشرب، ويبول ويتغوط، وينام

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٥٩
(٢) سورة النساء الآية: ١٧٢
(٣) سورة فاطر الآية: ١٥
(٤) سورة القصص الآية: ١٧٢
(٥) سورة الفرقان الآية: ٥٨

ويستيقظ، ويولد ويموت، فهل من كان كذلك يصلح أن يكون إلهًا أو ابنًا للإله؟ والقرآن يحكى ذلك فى مشاهد فيقول: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾(١).

وقال سبحانه أيضًا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(٢).

وكذلك قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٣).

كما قال سبحانه: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾(٤).

ويقول جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾(٥).

ولذلك نقول: إنه لمن المستحيل أن يوجد فى الكون إلهان، وكيف يكون؟ ونوضح ذلك بأسلوب آخر، فنقول: إذا أراد الإله الأول أن يحى "عمر" مثلاً، وأراد الآخر أن يميته، فالأمر واحد من ثلاثة: إما أنه لا تنفذ إرادة هذا ولا ذاك، فيكون كل منهما عاجزًا، والعاجز لا يصلح إلهًا، أو أنه تنفذ كلمة وإرادة كل منهما، فيصبح "عمر" حيًا وميتًا فى آن واحد، واجتماع النقيضين مستحيل، وإما أن تنفذ كلمة وإرادة أحدهما، ويعجز الآخر أمامه فيكون صاحب الإرادة والقدرة هو الإله الحق، والآخر عاجز فلا يصلح. ومن هنا كان قانون الله فى قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٦).

(١) سورة المائدة الآية: ١٧
(٢) سورة المائدة الآية: ٧٢
(٣) سورة الزخرف الآية: ٥٩
(٤) سورة المائدة الآية: ٧٥
(٥) سورة المائدة الآية: ١١٦
(٦) سورة الأنبياء الآية: ٢٢

وبالرؤية والواقع لم تفسد السموات والأرض فدل ذلك على وحدانية الخالق، وكذلك قوله: ﴿ما اتَّخَذَ اللَّهُ من ولَدٍ ومَا كَانَ معهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّه عمَّا يصفُونَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لأَبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾(٢).

فدل ذلك على أنه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾(٣).

وكذلك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(٤).

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ٩١

(٢) سورة الإسراء الآية: ٤٢، ٤٣

(٣) سورة محمد الآية: ١٩

(٤) سورة الإخلاص بكاملها

الإيمان بالله:

- وجود الله.
- توحيد الله.
- كمال الله.

[illegible] السموات والأرض [illegible]

[illegible] ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق [illegible]

[illegible] سبحان الله عما يصفون﴾[1]

[illegible] قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش [illegible]

[illegible] وتعالى عما يقولون علوا كبيرا﴾[2]

[illegible] ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾[3]

[illegible] ﴿قل هو الله أحد (1) الله الصمد (2) لم يلد ولم يولد (3) ولم يكن له كفوا أحد﴾[4]

وجُود الله:

- أسباب الإلحاد.
- أدلة الوجود العقلية.
- أدلة الوجود الشرعية.

هذا، وبعد أن عرفنا أن كلمة التوحيد تقتضى التخلى عن الشركاء والأرباب الزائفة. فى نصفها الأول "لا إله" ومعناه الكفر بالطاغوت، فإنها تقتضى كذلك ـ التحلى بالإيمان بالله، فى نصفها الثانى "إلا الله" وهذا الإيمان بالله، لابد له من أمور أساسية لا يتحقق إلا بها، وهى "وجود الله عز وجل، وتوحيده، وكماله".

أولاً: ماذا عن قضية وجود الله تعالى؟

نقول ـ وبالله التوفيق: وجود الله تعالى من البداهات التى يدركها الإنسان بفطرته، ويهتدى إليها بطبيعته وليس من مسائل العلوم المعقدة، ولا من حقائق التفكير العويصة. ولولا أن شدة الظهور قد تلد الخفاء. واقتراب المسافة جداً قد يعطل الرؤية ما اختلف على ذلك مؤمن ولا ملحد ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[١].

هذا وقد جاءت الرسل لتصحيح فكرة الناس عن الألوهية، لا لإثبات وجودها، فإنهم ـ أى الناس ـ وإن عرفوا الله بطبيعتهم، إلا أنهم أخطأوا فى الإشراك به والفهم عنه[٢] قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٣].

وقال الإمام الغزالى فى "الإحياء": اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى، وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام، وأسهلها على العقول، ولكن ترى الأمر بالضد من ذلك، فلابد من بيان السبب فيه، وعلة هذا القصور.

ذلك، وما تقصر عن فهمه عقولنا له سببان، أحدهما: خفاؤه فى نفسه وغموضه، وذلك لا يخفى مثاله، وثانيهما: ما يتناهى وضوحه.

إن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره، ولكن لشدة ظهوره، فإن بصره ضعيف، يبهره نور الشمس إذا أشرقت، فتكون قوة

(١) سورة إبراهيم الآية: ١٠
(٢) عقيدة المسلم للغزالى ص١٤، ١٥ بتصرف
(٣) سورة الأنبياء الآية: ٢٥

ظهوره مع ضعف بصره سبب لامتناع إبصاره، فـلا يرى شيئًا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره.

فكذلك عقولنا ضعيفة وجمـال الحضرة الإلهية فى نهاية الإشراق والاستنارة، وفى غاية الاستغـراق والشمول . . . حتى لم تشذ عن ظهـوره ذرة من ملكوت السموات والأرض.

فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى عن البصائر بظهوره. ولا يتعجب من اختفـاء ذلك بسبب الظهور، فإن الأشياء تستبان بأضدادها، وما عم وجوده حتى إنه لا ضد له، يعسر إدراكه. ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض، ما كـان أيسر جحوده لو أنه دائم البقاء. وما أكثر الكافرين به. لكن لنور الشمس حالاً أخرى . . فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض ويحدث فى الأرض، ويزول عند غيبة الشمس. فعرفنا وجود النور بعـدمه، وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد. هذا مع أن النور أظهر المحسوسات، إذ به تدرك المحسوسات إذ هو ظاهر فى نفسه، وهو مظهر لغيره، انظر كيف تصور استبهام أمره بسبب ظهوره لولا جريان ضده؟.

فالله تعالى هو أظهـر الأمور، وبه ظهرت الأشياء كلهـا، ولو كان له عدم أو غيـبة أو تغـير لانهـدمت السمـوات والأرض، وبطل الملك والملكوت، ولأدركت بذلك التفرقـة بين الحالين. ولو كان بعض الأشيـاء موجوداً به، وبعضهـا موجوداً بغيره، لأدركت التفرقة بين الشيئين فى الدلالة.

ولكن دلالته عـامة فى الأشيـاء على نسق واحد، ووجـوده دائم فى الأحوال يستحيل خلافه ـ فـلا جرم أنه أورثت شدة الظهـور الخفاء، فهـذا هو السبب فى قصور الأفهام[1].

وينكر ضوء الشمس من ليس ذا بصر   وينكر صوت الرعد من به صمم

فهل إذا أنكر الأعمى ضوء الشـمس دل ذلك على عدم وجـودها؟ وهل إذا أنكر الأصم صوت الرعد دل ذلك على عدم حدوثه؟!!! لا، وألف لا. وهل كل ما لا يرى ينكر؟

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى

لقد أنكر الملاحدة قديمًا وحديثًا وجود الله عز وجل لعدم رؤيتهم له، وهل كل شيء فى الوجود نراه؟

إننا نؤمن بوجود الروح وندرك أننا أحياء، ولسنا نرى الروح أو نعلم ماهيتها. فإننا إذا رأينا إنسانًا يكتب أو يخيط - مثلاً - كان كونه حيًا عندنا، من أظهر الموجودات، فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للكتابة أو الخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة، وإن كنا لا نرى بأعيننا حياته وقدرته وإرادته إلا بحركته، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها إلا شاهد واحد وهو ما أحسسنا به من حركة يده.

فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور فى الوجود شيء - داخل فى نفوسنا وخارجها - إلا وهو شاهد عليه، وعلى عظمته وجلاله.؟!

إذ كل ذرة فينا - نحن البشر - تنادى بلسان حالها، أنه ليس وجودها من نفسها ولا حركتها بذاتها، وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها، ويشهد بذلك كل جزء فينا، وكل شيء فى الكون حولنا.

فماذا يقول المرء فى وجود الله الذى لا تحصى أدلته لكثرتها، وماذا يقول فى أوصافه التى يشهد كل شيء بعظمتها؟

إن وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته، يشهد له - بالضرورة - كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة.

* كما أننا نؤمن بوجود العقل، وندرك أننا عقلاء، ومع ذلك لا نرى العقل ولا نعرف ماهيته، والذى يطلب منا أن ننكر كل ما لا نراه، ولا يقع تحت حس الحواس الخمس، عليه أن يعلن أمام الجميع أنه مجنون، وساعتها لا نصدقه ولا نسمع منه، لأنه رفع عنه التكليف.

ومما يستأنس به أن مدرسًا ممن أرادوا تعليم الشيوعية للتلاميذ، قال لهم: أى أولادى: أترون الباب؟ أترون الشباك؟ أترون السبورة؟ أترون الأستاذ؟

والإجابة فى كل هذا: نعم فيقول لهم: إذا هو موجود. أترون الله؟ قالوا:

فقام تلميذ نجيب، يقول مثلما قال الأستاذ، ويسأل نفس أسئلته، إلى أن قال: أترون الأستاذ؟ قالوا: نعم، قال: فالأستاذ موجود، ثم قال: أترون عقل الأستاذ؟ قالوا: لا، قال: فعقل الأستاذ غير موجود، الأستاذ مجنون. !!

ونوقن بوجود الجاذبية الأرضية "ولم تقع تحت حواسنا" ومع ذلك فهى حقيقة علمية لا سبيل إلى إنكارها.

ونعتقد بوجود الكهرباء، ولا نعلم ماهيتها، ولكننا اعتقدنا وجودها لرؤية آثارها وهو الضياء والنور. !!

فالأثر يدل على المؤثر، والصنعة تدل على الصانع، والكلام يدل على المتكلم، والدليل يدل على المدلل، والعلم يدل على العالم، وهكذا.

أو لسنا ندل بأنفسنا وأجسامنا وحواسنا وأوصافنا، وتقلب أحوالنا، وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا، فى حركاتنا وسكناتنا على خالقنا وربنا؟!

أو ليس كل ما نشاهده من حجر ومدر، ونبات وشجر، وحيوان وجماد، وسماء وأرض، وكواكب، وبر وبحر، ونار وهواء، وذرة ومجرة، وجوهر وعرض، يدل على الله الخالق البارئ المصور؟!!

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه الواحد

ومع ذلك. . فرؤية الله عز وجل ليست مستحيلة، وإنما نحن الذين لا نستطيع رؤيته مع ضعفنا هذا وحالنا تلك، فإذا غَيَّرَ الله حالنا، وغرس فينا قوة أخرى فإننا نستطيع رؤيته سبحانه وتعالى، وهذا يقع لأهل الإيمان فى الآخرة، وفى جنة النعيم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(١).

كما قال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(٢).

والزيادة هى رؤية الله عز وجل فى الآخرة للمؤمنين. وأما فى الدنيا، فإننا لا نستطيع ذلك - بحالنا هذه - وقد ضرب الله عز وجل لنا المثل بالكليم "موسى" عليه السلام - وأنه مع نبوته وقوته، وكلامه مع الله، وكلام الله له،

---

(١) سورة القيامة الآيات: ٢٢، ٢٣

(٢) سورة يونس الآية: ٢٦

لم يستطع رؤية الله عـز وجل. إذ عجز الجبل - مع قوته ورسوخه - أن يتـحمل رؤية الله عز وجل فدك الجبل. فكيف بموسى؟!!

لقد خـر موسى صـعقًـا، لا لرؤية المتجلِي وهو الله سـبحـانه، ولكن لرؤية المُتَجَلَّى عليه وهو الجبل، وكان هذا حاله، فكيف برؤية الله تعالى؟!!

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

[- ولم يقل لن أرى - والفـارق بينهـمـا واضح - أى أنا أرى: ولكن أنت لا تستطيع رؤيتى].

فرؤية الله لا تقع فى الدنيا لأحد من الناس، إلا رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج على خلاف بين العلماء، فالـذى قال بالرؤية، قال: إنه صار على صورة أخرى حـتى يتـمكن من الرؤية. وفريق منع الرؤية، كـما حكـاه غير واحـد من الصحابة، ومنهم عائشة رضى الله عنها قـالت: «من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية»(٢)، وهو الراجح فى المسألة. والله أعلم.

---

(١) الأعراف الآية: ١٤٣ .

(٢) متفق عليه (البخارى ٣٢٣٤ ، ومسلم ١٧٧).

أسباب الإلحاد

هذا الإلحاد الموجود فى بعض الناس ليس دينًا ولا فطرة، ولا شيئًا أملاه العقل، أو تقبله النفس، أو يستريح له الفؤاد.

ولكنه نتيجة ردود فعل عنيفة، لبيئة فاسدة، شديدة الخطورة على الفطرة.

فالبيئة الفاسدة خطر شديد على الفطرة، فهى تمسخها وتشرد بها، وتخلف فيها من العلل ما يجعلها تعاف العذب، وتسيغ الفج، وذاك سر انصراف فريق من الناس عن الإيمان والصلاح، وقبولهم للكفر والشرك، مع منافاة ذلك لمنطق العقل، وضرورات الفكر وأصل الخلقة.

كما فى الحديث القدسى «إنى خلقت عبادى كلهم حنفاء، فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم...»[(١)].

وقد اقترنت حضارة الغرب- التى تسود العالم اليوم - بنزوع حاد إلى المماراة فى وجود الله، والنظر إلى الأديان جملةً نظرة تنقص، أو قبولها كمسكنات اجتماعية لأنصارها والعاطفين عليها[(٢)].

إن الإلحاد بإنكار الخالق عز وجل لم يعرف بين أجناس البشر بصورة واضحة إلا فى القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر الميلاديين، وبخاصة عندما ظهر المذهب الشيوعى الماركسى المدمر، والذى نكبت به أوربا وأنحاء كثيرة من العالم.

وإن العوامل التى ساعدت على انتشار الإلحاد فى العالم ومكنت للمذهب الشيوعى الإلحادى المدمر فى أوربا وغيرها قد تكون كثيرة، غير أن أهمها ما يلى:

(١) ظلم الكنيسة النصرانية، وتحالفها مع الملوك النصارى على استعباد الشعوب النصرانية، واستذلالهم، واستغلالهم باسم السلطة الروحية الدينية.

(٢) فساد الديانة النصرانية وبطلانها ومنافاتها للعقول، وأسطورة بنوة عيسى

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨٦٥ .

(٢) عقيدة المسلم للغزالى ص١٥ بتصرف.

أو ألوهيتـه المزعـومـة، واسـتـغـلال صكوك الغـفـران والحـرمـان، وكـراسى الاعتـراف . . . الخ، وتصادمـها مع حاجـات الإنسان الفطرية، الأمـر الذى يسهل على الناس من أتباعهـا التنكر لها، والكفر بها بمجرد وجـود الإستطاعة أن يفلت من زمامها[1].

هذا - ومـثل هذه الظروف، جعلت الكثـير مـن المتنورين من أهلها يكفـرون بالدين ويجحـدون الله، أو يشكون فيـه، والواقع أنهم لم يكفـروا بالديـن الحق ولا بالإله الحق، وإنما كفـروا بإله الكنيسة الغـربية ودينها، إذ وقفت الكنيـسة فى أوربا تؤيد الظلم وتحارب النور، تؤيد الجهل وتحارب العلم، تؤيد الإقطاع وتحارب العدل، تؤيد الملوك وتحارب الشعوب، تؤيد الخـرافة وتحارب الفكر. فلما اندلعت الثورات الداعية إلى الحرية والمساواة كان نداء رجالها «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس» لقد حكمت الكنيسة يومـئذ بإعدام الألوف من العلماء والمفكرين وتحريق أجسامهم بالمسامير، بل حاكمت جثثهم بعد موتهم، فعلت الكنيسة ذلك كله باسم الدين، وباسم الله وباسم المسـيح، فلما رأى ذلك أحـرار الفكر وعشـاق العلم، كفروا بإلـه تمثله هذه الكنيسة ورجالهـا وآمنوا بما عندهم من العلم، وأعظم الناس فى الدين فساد دعـاته، وانحراف منتحليه، وخصوصًـا فى دين يحجر على الناس أن يعرفوا الله أو يتـصلوا به، أو يطرقوا بابه إلا عن طريق كهنوتية خـاصة تسمى "رجال الدين"[2].

ومن هنا قامت فى أوربا مـذاهب تقوم فلسفتهـا على الحس والمادة، وتنكر ما وراء ذلك من الغـيبيـات فـلا إله، ولا وحى، ولا ملائكة، ولا آخـرة، ولا جنة ولا نار.

وبلغ الجحـود والإلحاد قـمته فى المذهب: "الماركـسى" الذى تبنى ما زعـمه "نيتشه" أن "الدين أفيون الشعـوب" وما زعمه غيره من أنه «ليس الدين إلا حيلة اخترعهـا الأغنياء والأدباء، ليلهوا بها الضعفاء والفـقراء، ويمنوهم بنعيم الآخرة، لينفردوا هم بنعيم الدنيا».

---

(١) عقيدة المؤمن ص٨٩ بتصرف

(٢) وجود الله د. يوسف القرضاوى ص١٠، ١٦ بتصرف.

وقـال كارل مـاركس فى ذلك: «إن الله لم يخلـق الإنسان، بل الصـواب أن الإنســان هو الذى خلق الله[١] ثم جعل له مذهبًا، مـبدؤه الأول "لا إله، والحياة مادة".

(٣) طفرة العلوم الكونية والصناعية والآلية، طفـرة أدهشت العقول وحيرتها، الأمر الذى حـمل الناس على تصديق كل نـظرية تأتى باسم العلم ونظرياته، وإن كانت النظرية فـرية ظاهرة، معلوم كذبهـا، ومعروف كـذبها. وذلك لأن المرء إذا ضعف أمام أية قوة مـادية أو روحية يفقد كل قواه العقلية والبـدنية، ويصبح قابلاً لكل ما تمليه عليه، مستجيبًا لكل ما تدعوه إليه مصدقًا لكل ما تقوله وتجذبه.

(٤) ميل الإنسـان بطبعه إلى الشهـوات والملاذ، ونفوره من القيـود والأنظمة التى تحد من ميوله، وتوجه غرائزه، لا سيما إذا وجد مشجعًا على ذلك، مؤيداً له فى نزعتـه التحررية، الإباحـية، التحلليـة من كل القيود الأخـلاقية والالتـزامات الدينية الشرعية.

لذا لم يكتف "فرويد" بمـذهب ماركس حتى أسس هو مـذهب "الوجودية" مشتمـلاً على الإلحاد كما هو عند "ماركس" مـضيفًا إليه عنصر الغـريزة والشهوة والنزعة الحيوانية.

(٥) غيـبة الحـكم الإسلامى، وخـفوت نور الإسـلام، وتقلص ظل سلطانه الروحى، وانحسـار مده الخيـرى الذى كان يعطى البـشرية فى شتى أنحـاء العالم طاقات كبيرة من القيم الروحية والأخلاق البشرية الفاضلة الكريمة.

إذ الفتـرة التى ظهر فيـها المذهب المادى الشـيوعى كان الإسـلام قد ران على عقائده رين الخرافات والضلالات، وحل بدياره الدمـار، وبأسواق علومه ومعارفه الكساد والبـوار، نتيـجة لكيـد أعدائه له، وغفـلة بنيه عنه، فوجـد ذلك المذهب الإلحـادى الجو خـاليًا للتـضليل، والمغالطـة والفسـاد، فحكم على الأديان كلهـا بالبطلان، ونسب كل ضعف فى الـناس إليها، وكفـر بها، وحاربها، ووجـه نقده إليها بلا هواده[٢].

(١) وجود الله د. يوسف القرضاوى ص١٦

(٢) عقيدة المؤمن ص ٩٠ بتصرف

هذا الإلحاد لا يأخذ صورة واحدة، فى محاربة الأديان عامة والإسلام خاصة، ولكنه يتلون بكل لون "كالحرباء" ويغير ثيابه كلما بليت "كالأفاعى" وينطوى تحت رايات مختلفة، تعمل علانية، أو من وراء ستار، فهو مرة شيوعية أو ماركسية، "وتارة وجودية" وأخرى "علمانية" وحتى فى صورة "الجمعيات الماسونية، والتنظيمات الصهيونية" وهذه لها أسماء عدة، ورايات مختلفة. والهدف الأول هو القضاء على الإسلام ثم بقية الأديان، لتصل حفنة من البشر "من اليهود" إلى قيادة العالم، ولو على جماجم البشر!!

وكانت "أوربا" هى الضحية الأولى لهذا الإلحاد، ولن تكون هى الوحيدة إذا لم يوقف هذا الإلحاد عند حده، ويجد القوة التى ستعارضه وتقضى عليه، ولن يكون ذلك إلا بالإسلام الذى سيظهر على كل دين، بإذن رب العالمين كما قال أحكم الحاكمين: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[1].

(١) سورة الصف الآيات: ٨، ٩

أدلة وجود الله "تعالى"

وحديثنا عن أدلة الوجود، من باب مجادلة الملاحدة بالتى هى أحسن والنزول إلى مستواهم فى المناقشة، من باب قوله تعالى: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[١].

وكذلك فحديثنا لهم أو مجادلتنا معهم، قبل أن تكون بالقرآن الكريم وهو دليل الأدلة، كانت بالعقل، ذلك الأمر المتفق عليه بيننا وبينهم، أما القرآن فنحن نؤمن به، ولذا سنذكر أدلته فيما يختص بنا ولا نحاجهم به، لعدم إيمانهم به.

ولا شك أن الأدلة فى هذا الباب شىء يفوق الحصر والعد، ثم هى من الوضوح بمكان، مع أن الأمر أبسط وأوضح من أن يحتاج إلى برهان أو دليل، كما قال الشاعر:

وليس يصح فى الأذهان شىء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

فما البراهين والأدلة التى يقدمها المؤمنون لإثبات وجود الله عز وجل لدى الشاكين والملحدين؟

(١) «دليل الخلق والحدوث، أو العلة والكون»

قالوا: من الأمور المسلم بها عقلاً والمعروفة تجربة وحسا وواقعًا أن كل حادث لابد له من محدث، وباعتبار أن هذا الكون ـ كما عليه الإجماع من العقلاء ـ حادث، إذن لابد له من محدث.

وأن هذا الكون موجود، فلابد لم من موجد، ومخلوق فلابد له من خالق فمن الذى خلقه؟ ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[٢].

إذن فإنكار محدث الحوادث، وموجد للوجود، تكذيب للواقع، وتناقض مع

(١) سورة الأعراف الآية: ١٦٤

(٢) سورة الطور الآيات: ٣٥، ٣٦

العقل، ونسف لمبدأ السببية الذى هو مفتاح العلم، ومصدر الحقائق.

إن المتأمل للمخلوقات الحية المنبثة هنا وهناك، والمنتشرة فى عوالم هذا الكون، يجد ملايين الملايين من الأحياء تنقسم إلى آلاف من الأنواع والأجناس، كل جنس وكل نوع له خصائصه ومزاياه وشكله وصورته وطرق تغذيته وطرق حياته وبقاء نوعه وسلالته.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النوعيات والأجناس حين قال: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾(١).

كما أنه أشار إلى الخصائص والمزايا، والشكل والصورة، وطرق الحياة، حين قال: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم** ﴾(٢).

فهذه النوعيات والأجناس من الكائنات الحية المنتشرة فى الكون. وهذه الخصائص والمزايا الموجودة فيها، ألا تدل على أن الله سبحانه هو الذى بدأ خلقها، وصور أشكالها، وقدر أقواتها، ونفخ فيها روح الحيوية والحياة؟ ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ** ﴾(٣).

فهل يستطيع أحد فى هذا الوجود مهما أوتى علمًا وقدرة وذكاء، أن يخلق كائنًا حيًا بعد أن لم يكن؟ القرآن الكريم يتحدى البشر أن يخلقوا ذبابة إن كان فى مقدورهم، فإن ثبت عجزهم، أفلا يدل على أن المحيى والمميت هو الله سبحانه وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** ﴾(٤).

هذا فضلاً عن خلق الإنسان فهو أعجب وأعظم لما امتاز به من العقل، ولما أوتى من الفهم والعلم، ولما أعطى من ملكة التعبير والبيان، ولما فطر عليه من

---

(١) سورة النور الآية ٤٥
(٢) سورة الأنعام الآية: ٣٨
(٣) سورة العنكبوت الآية: ٢٠
(٤) سورة الحج الآية: ٧٣

حسن الهيئة والصورة، ولما سخر له ما فى السموات والأرض، ولما أودع فيه من قدرة فائقة، وطاقة هائلة، وذكاء فريد. ويكفى الإنسان فضلاً وفخراً وكرامة أن يقول الله عنه فى محكم تنزيله: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[١].

فكل هذه الخصائص والمزايا التى ركبها الله فى الإنسان، تدل دلالة تامة على الخالق المبدع، والإله الحكيم القادر ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[٢].

ولعل قائلاً يقول: إن هذا العالم قديم أزلى ليس لنشأته بداية. فنقول: فكرة قدم العالم منقوضة من الناحية العلمية، ومن الناحية العقلية[٣]، كما قال الأستاذ "فرانك ألن" أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة "مانيوتوبا" بكندا:

كثيراً ما يقال: إن هذا الكون المادى لا يحتاج إلى خالق، ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود، فكيف نفسر وجوده ونشأته؟ هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال.

١ ـ فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال، وهو ما يتعارض مع القضية التى سلمنا بها حول وجوده.

٢ ـ وإمام أن يكون هذا الكون نشأ من تلقاء نفسه من العدم.

٣ ـ وإما أن يكون أبديًا ليس لنشأته بداية.

٤ ـ وإما أن يكون له خالق.

أما الإحتمال الأول: فإنه لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال لسخافته. وأما الرأى الثانى: الذى يقول: إن هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم، فهو لا يقل عن سابقه سخفًا وحماقة، والرأى الثالث الذى يذهب إلى أن هذا الكون أزلى ليس لنشأته بداية، إنما يسير مع الرأى الذى ينادى بوجود خالق لهذا الكون،

(١) سورة الإسراء الآية: ٧٠

(٢) سورة الإنفطار الآيات: ٦-٨

(٣) شبهات وردود للاستاذ ناصح علوان ص٢٤، ٢٧، ٢٩، ٣٢ بتصرف

وذلك فى عنصر واحد هو الأزلية والقدم، وإذن فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت، وإما أن ننسبها إلى إله حى يخلق، ولكن قوانين الحرارة تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيًا. وأنها سائرة حتمًا إلى يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هى الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة.. أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون وأساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة فهو إذن حدث من الأحداث.

ومعنى ذلك: أنه لابد لأصل هذا الكون من خالق أزلى ليس له بداية، عليم محيط بكل شىء، قوى ليس لقدرته حدود، ولابد أن يكون هذا الكون من صنع يديه[1].

فالذى نخلص إليه بعدما تقدم أن هذا الكون ما دام فيه حرارة وما دام فيه حركة وسكون ـ فلا يمكن أن يكون قديمًا، وإذا كان ليس قديمًا فهو إذن حادث، وإذا كان حادثًا فلابد له من محدث، والمحدث هو الله سبحانه وتعالى، وكما قال الله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[2].

إن الإنسان لم يخلق نفسه ولم يخلق أولاده، ولم يخلق الأرض التى يدرج فوقها، ولا السماء التى يعيش تحتها، والبشر الذين ادعوا الألوهية لم يكلفوا أنفسهم مشقة ادعاء ذلك.

فمن المقطوع به أن وظيفة الخلق والإبراز من العدم لم ينتحلها لنفسه إنسان ولا حيوان ولا جماد، ومن المقطوع به كذلك أن شيئًا لم يحدث من تلقاء نفسه، فلم يبق إلا الله.

وقد قرر القرآن الكريم هذا الدليل، حين سألنا ربنا هذا السؤال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾[3].

ولا شك أن لوجود كل واحد منا بداية معروفة. فنحن قبل ميلادنا لم نكن

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص٥

(٢) سورة الذاريات الآيات: ٢٠، ٢١

(٣) سورة الطور الآيات: ٣٥، ٣٦

شيئًا يذكر، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾(١).

وعناصر الكون الذى نعيش فيه كذلك لها بداية معروفة، وعلماء الجيولوجيا يقدرون لها أعماراً محدودة مهما طالت فقد كانت قبلها صفراً.

وكان هناك ظن بأن المادة لا تفنى، اعتمد عليه فريق من الناس فى القول بقدم العالم وما يتبع ذلك القدم الموهوم من أباطيل، على أن تفجير الذرة هدم هذا الظن، ولو لم يتم تفجيرها ما قبلنا هذا الظن على أنه حقيقة ثابتة، فإن المفتاح الذى يفتح على العالم أبواب الفناء ليس من الضرورى أن يضعه الله فى أيدى العلماء، وعدم اهتداء الناس إلى ما يدمر الكون، لا يعنى أن مادة الكون غير قابلة للدمار والفناء. ولم لا يكون ذلك حصانة أقامها القدر الأعلى حتى يمنع العالم من الانتحار؟ إننا جازمون بأن وجودنا محدث، لأن تفكيرنا وإحساسنا يهدينا لذلك، وغير معقول أن يتطور العدم إلى وجود، تطوراً ذاتياً.

إنه إذا وقعت حادثة لم يدر فاعلها، قيل: إن الفاعل مجهول، ولم يقل أحد قط: إنه ليس لها فاعل، فكيف يراد من العقلاء أن يقطعوا الصلة بين العالم وربه؟ إننا لم نكن شيئًا، فكنا فمن كوننا؟ ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾(٢) أ.هـ.(٣).

والمراد بالخلق هو الإيجاد والإحداث أى إبراز الشىء من العدم إلى الوجود.

وذلك مثل: خلق الحياة فى الكائنات الحية على ظهر الأرض التى بث فيها من كل دابة وأنبت فيها من كل زوج بهيج، ومثل خلق الإنسان العاقل الذى لم يكن شيئًا مذكوراً ثم كان، ومثل خلق السموات والأرض وهو أكبر من خلق الناس، وقد دلنا الفلك الحديث على عظم الأجرام العلوية، وسعة المسافات بينها حتى إنها لتقاس بملايين السنين الضوئية.

ترى: من خالق الحياة على هذه الأرض؟ ومن خالق هذا الإنسان العاقل

---

(١) سورة الإنسان الآية: ١

(٢) سورة الأنعام الآية: ٩١

(٣) عقيدة المسلم ص ١٦، ١٨، ١٩ بتصرف

المفكر؟ ومن خالق هذا الكون كله بأرضه وسمائه؟ هل وجدت الحياة ووجد الإنسان، ووجدت المخلوقات العلوية والسفلية وحدها بلا موجد، أم لابد لها من خالق أوجدها؟ ومن هو؟ إنه بمنطق الإيمان "الله عز وجل".

وقال المتكلمون: العالم متغير، وكل متغير حادث، وكل حادث لابد له من محدث، ولابد أن يقف العقل عند محدث غير حادث، وإلا لزم الدور أو التسلسل المحالان. وذلك المُحْدِثُ هو الله، والعلم الحديث يقر بحدوث العالم، ويرجع حدوثه إلى ملايين - يقدرها - من السنين، ولكن ماذا يقول الملحدون في ظهور الحياة لأول مرة على هذا الكوكب؟[1].

- من شبهات الملاحدة -[2]: **(١) هذا الكون وجد مصادفة!!**

يثير بعض الملاحدة أن هذا الكون ليس من صنع خالق، وإنما وجد مصادفة دون أن يكون للقدرة الإلهية أي تأثير فيه، ونريد أن نناقش هذا الادعاء على ضوء العقل والعلم، ولنعرف مبلغه من الحقيقة، ومقداره من الصواب.

إن المصادفة في نظر العقل تنقسم إلى قسمين:

١ - مصادفة ممكنة.

٢ - مصادفة مستحيلة.

أما المصادفة الممكنة فصورتها: مهندس مدني أشرف على نسف جبل صغير في جهة من الجهات، ولما قام بعملية تفجير الألغام، إذ بالأحجار تتناثر هنا وهناك، فَتَكَوَّنَ عن طريق الصدفة بيت صغير، لم تظهر عليه روعة الهندسة ولا تصميم البناء، فتشكيل البيت مصادفة بهذا الوصف وبعد عملية النسف ممكن عقلاً، إذ الواقع يؤيده والعقل يصدقه أو يحتمله. أما المصادفة المستحيلة فهي التي يحكم العقل ببطلانها لاستحالة وقوعها في عالم الواقع، وهي في المثل الذي يتعلق بنسف الجبل فإنه من المستحيل عقلاً وعرفًا أن يتكون من عملية النسف قصر منيف رائع قائم على هندسة محكمة، وتصميم بديع من ناحية ترتيب الغرف،

---

(١) وجود الله، للقرضاوي ص٢٨، ٣١ بتصرف

(٢) شبهات وردود العقيدة الربانية وأصل الإنسان ص٤٥- ٤٧ بتصرف

وموقع الشـرفات وتماسك البناء. فـالعقل يكذب بداهة هذه المصـادفة المزعـومة، ويحكم عليها بالاستحالة، ويتهم من يدعيها بالهوس والجنون.

وصورة أخرى: نفتـرض أنك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف مـصفوفة فى صناديق، فجـاءت هزة أرضيـة قلبت صناديق الحروف وبعثـرتها وخلطتـها مع بعضها البـعض، ثم جاءك من يخبرك بأنه قد تألف من اختلاط الحـروف مصادفة بضع كلمات متفرقة غير مترابطة المعنى، فالمصادفة قد تكون فى هذه الحالة ممكنة، لأن الواقع يؤيدها والعقل يصدقها.

ولكنه من المستـحيل عرفًا وعـقلاً كذلك أن يتكون من نتـيجة الهزة الأرضـية كتـاب كامل مؤلف من "٥٠٠" صـفحة مثـلاً، يتضمن فـصولاً مـتعددة تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مـترابطة الأفكار، متساوية الأسلوب والمعانى، لاشك أنك ترى المصادفة أمـرًا مستحيلاً. والعـقل لا يمكن أن يصدقها، بل يتهم من يدعـيها باختلاط العقل والهستريا الفاضحة[1].

وصورة ثالثة: لنفـرض أن آلة كاتبة فى أحد الدواوين وجـدت بجوارها ورقة مكتوب عليها اسم "عمر" ماذا يعنى هذا؟ أحد أمرين:

أقربهـما إلى البداهة، وهو أن خبيرًا بالكتابة طبع الاسم على ورقـة، والأمر الثـانى: أن حروف الاسم تجمعت وترتبت وتلاقت هكذا جـزافًا، وهذا الـفرض الأخير معناه من الناحية العلمية ما يأتى:

الابتداء بكتابة العين، أو سـقوط حرفها وحـده على الورقة دون وعى، يجوز بنسبة (١) إلى (٢٨) وهو عدد حروف الهجاء العربية، وسقوط حرف العين والميم معًـا، يجوز بنسـبة (١) إلى ٢٨×٢٨ . ونزول الحـروف الثلاثة بـعوامل الصـدفة المحضة، يجوز بنسـبة (١) إلى ٢٨×٢٨×٢٨ أى بنسبة (١) إلى ٢١٩٥٢ . وليس أغبى فكرًا ممن يتـرك الفرض الوحيد المعقـول، ويؤثر عليه فرضًا آخـر، لا يتصور وقوعه إلا مرة بين اثنين وعشرين ألف مرة.

إن إحـالة الأمـور على المصادفـات ضـرب من الدجل العلمى يرفـضـه أولو الألباب. والصـدف حين تخط على القرطاس كلمة "عمـر" أقرب إلى الذهن من

---

(١) عقيدة المسلم ص ٢١ بتصرف

تصور الصدف هذه تخلق قطرة ماء فى المحيطات الغامرة، أو حبة رمل فى الصحارى الشاسعة.

وأين ما ذكرناه من صور المصادفة المستحيلة بالنسبة لهذا الكون الكبير المتآلف الأجزاء، المحير بإبداعه، وروعة نظامه، العقول والألباب؟

أين القصر المنيف من إبداع هذا الكون العظيم؟ وأين وحدة الكتاب من روعة خلق الأرض والإنسان والأفلاك؟

إن نشوء حياتنا هذه ودوامها يقومان على جملة ضخمة من القوانين الدقيقة يحكم العقل باستحالة وجودها هكذا جزافًا!!

فوضع الأرض أمام الشمس مثلاً، ثم على مسافة معينة، لو نقصت بحيث ازداد قربها من الشمس لاحترقت أنواع الأحياء من نبات وحيوان. ولو بعدت المسافة لعم الجليد والصقيع وجه الأرض، وهلك كذلك الزرع والضرع، أفتظن إقامتها فى مكانها ذلك لتنعم بحرارة مناسبة جاء خبط عشواء؟!

وحركة المد والجزر التى ترتبط بالقمر، أفما كان من الممكن أن يقترب القمر من أمه أكثر فيسحب أمواج المحيطات سحبًا يغطى به وجه اليابسة كلها ثم ينحسر عنها وقد تلاشى كل شىء؟

من الذى أقام القمر على هذا المدى المحدود ليكون مصدر ضوء لا مصدر هلاك؟!! إننا على سطح هذه الأرض نستنشق "الأوكسجين" لنحيا به ونطرد "الكربون" الناشئ من احتراق الطعام فى جسومنا. وكان ينبغى أن يستنفذ الأحياء - وما أكثرهم - هذا العنصر الثمين فى الهواء، فهم لا ينقطعون عن التنفس أبدًا. لكن الذى يقع أن النبات الأخضر يأخذ "الكربون" ويعطى "الأوكسجين" وبهذه المعاوضة الغريبة يبقى التوازن فى طبيعة الغلاف الهوائى الذى يحيا فى جوفه اللطيف الحيوان والنبات جميعًا.!! أفتحسب هذا التوافق من تلقاء نفسه؟!!

إننى أحيانًا أسرح الطرف فى زهرة مخططة بعشرات الألوان، ألتقطها بأصابع عابثة من بين مئات الأزهار الطالعة فى إحدى الحدائق، ثم أسأل نفسى: بأى ريشة

نسقت هذه الألوان؟ إنها ليست ألوان الطيف وحدها، إنها مزيج ساحر من الألوان التى تبدو هنا مخففة، وهنا مظللة، وهنا مخططة، وهنا منقطة.

وأنظر إلى أسفل التراب الأعفر الذى أطلع هذه الألوان، إنه بيقين ليس راسم هذه الألوان، ولا موزع أصباغها، هل الصدفة هى التى أشرفت على ذلك؟ أى صدفة؟!!!

إن المرء يكون غبيًا جدًا عندما يصور الأمور على هذا النحو، وألوان الزهرة هذه ملاحظة شكلية ساذجة بالنسبة إلى ملاحظة قصة الحياة فى أدنى صورها.

إن إنشاء الحياة فى أصغر خلية يتطلب نظامًا بالغ الإحكام، ومن الحمق تصور الفوضى قادرة على خلق "جزئ" فى جسم دودة حقيرة فضلاً عن خلق جهازها الهضمى أو العصبى، فما بالك بخلق هذا الإنسان الرائع البنيان، الهائل الكيان، ثم ما بالك بخلق ذلكم العالم الرحب؟(١).

(٢) شبهة هذا الكون أوجدته الطبيعة:

هذه الشبهة التى يثيرها بعض الملاحدة لا تقل تفاهة عن شبهة أن هذا الكون وجد مصادفة!! إن هؤلاء الطبيعيين الماديين يعترفون فى دعواهم هذه، أن هذا الكون لابد له من موجد، ومما يدل على اعترافهم أنك لو سألتهم: من خلق السموات والأرض والشمس والقمر؟ يقولون لك: الطبيعة. من أوجد هذا الكون وما فيه من عجائب وأسرار؟ يقولون لك: الطبيعة. من دبر هذه الأمور الفلكية والحيوية والغريزية؟ يقولون لك: الطبيعة.

إذن فالطبيعة فى نظرهم هى إله العصر المزعوم فهى الموجدة وهى الخالقة. وهؤلاء الطبيعيون يشتركون مع المؤمنين فى قضية الموجد للكون فهم يقولون: الطبيعة، والمؤمنون يقولون: الموجد للكون هو الله سبحانه وتعالى.

ولست أدرى كيف يعطون للطبيعة صفة الخلق والإيجاد، وهى جماد أصم لا يتصف بعقل ولا تدبير ولا علم ولا إرادة؟ كيف يعطونها صفة الخلق والإيجاد وهى خاضعة لقوانين دقيقة ونواميس ثابتة؟ فهل يصدق عاقل أن الأرض خلقت

---

(١) عقيدة المسلم ص١٩، ٢٠

الأرض، والسماء خلقت السماء، والأشياء أبدعت ذاتها، والحياة أوجدت نفسها فهى خالقة ومخلوقة وموجدة وموجودة؟!!

فما مثل من يقول هذا إلا كمثل من يقول إن هذه الأشياء التى بين أيدينا من أدوات وأثاث وفرش وآلات ما هى إلا صانعة ومصنوعة، ليس للإنسان فيها يد، وليس فى إظهارها تصميم ولا تدبير.

فهل رأيت أيها القارئ الكريم فى تاريخ الفكر والبحث العلمى هبوطًا فى العقل وسخافة فى المناظرة والجدل أعظم من هذه السوفسطائية المتخبطة والغوغائية الجاهلة؟(١) ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾(٢).

إن الطبيعة هى المادة، وعناصر تكوينها من البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة والمواد المركبة منها، وهى الذرات المكونة من النوى، المشتمل كل نواة منه على بروتون، ونيترون، والكترون.

هل هذه العناصر من النوى والذرة والخصائص المشتملة عليها المادة أوجدت نفسها فكونت ما يسمى بالطبيعة؟ اللهم لا إذ هو مما تحيله العقول ولا تقبله أبدًا، إن معنى هذا الهراء أن الطبيعة أوجدت نفسها أولاً ثم أوجدت غيرها من الموجودات. إن المادة المركبة من عناصرها والمودع فيها خواصها وطباعها مفتقرة إلى من يوجد عناصرها ويودع فيها خواصها، وحينئذ فهى حادثة مخلوقة، فكيف تكون إلهًا خالقًا ينسب إليها الخلق والتكوين والإبداع والتنظيم؟ سبحانك اللهم هذا ضلال فى العقول مبين.

المادة ميتة، فكيف تخلق الأحياء، والطبيعة صماء عمياء بكماء، فكيف تخلق السميع البصير المتكلم؟ والإنسان يستخدم الطبيعة ويسخرها له فكيف تكون خالقة له؟

ومن بديهات العقول أن فاقد الشىء لا يعطيه؟ وأن العقول السليمة قد حكمت بحدوث المادة المركبة من عناصر عدة، إذ كل مركب حادث وكل حادث

(١) شبهات وردود ص ٥٣-٥٥
(٢) سورة الحج الآية: ٨

مفتقر إلى محدث قطعًا، كما قضى بذلك قانون العِلِّية المُسَلَّم به عند جميع العقلاء[١].

(٣) شبهة هذا الكون وُجِدَ بالضرورة:

إن الضرورة معناها: أن التنوعات الموجودة حصلت بطريق الضرورة، فحاجة الزرافة إلى تناول غذائها من أشجار عالية هى التى جعلت عنقها يطول. وحاجة السمكة المُلَحَّة إلى السبح فى الماء هى التى أوجدت زعانفها التى تساعدها على السباحة إلى غير ذلك من الهراء والتعسف العجيب والمنطق السقيم. وما قالوا بهذه الترهات والأباطيل إلا إمعانًا فى الهروب من مواجهة الحقيقة وهى الإيمان بالله الصانع الحكيم الذى لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وإلا فما يسمونه بالضرورة إنما هو العناية الإلهية بمخلوقاته، أو لم يروها فى ذات أم الولد وكيف تدر اللبن لمولودها بمجرد أن تضعه، وفى ولدها الذى كان فى بطنها يتغذى بواسطة الأنبوب المتصل بسرته ولما انفصل عنها وخرج من بطنها حملت له الغذاء فى ثديها أو ضرعها، وهدى الله ذلك المولود إلى معرفة امتصاص حلمة الثدى ليتغذى باللبن إلى أن يصبح قادرًا على التغذى بالحبوب والفواكه والخضر؟ أو لم يروا إلى ذكور الحيوانات كيف تأتى إناثها مدفوعة إلى ذلك بما أودع الله فيها من غريزة إتيان الجنس لتحبل الأنثى ذات اللبن، فتوفر للإنسان لحمًا ولبنًا وسمنًا، هو فى حاجة إلى مثلها لاستكمال غذائه الذى هو عنصر نمائه وحياته من أجله؟ أو لم يروا ذبابة لقاح التين كيف تخرج من حبتها بعد نضجها لتدخل فى التينة فتلقحها، ثم تخرج منها لتدخل فى أخرى فتلقحها، كل ذلك ليتوفر للإنسان فاكهة من ألذ الفواكة وأكثرها نفعًا له؟

أو لم يروا إلى الرياح كيف تثير السحاب وهو الضباب الناتج عن تبخر الرطوبات فى الأرض، ومياه الأنهار والبحار وكيف يبسط الله تعالى ذلك السحاب فى السماء على نسب ومقادير خاصة، فيتكثف فى طبقات الجو، ويصبح يحمل كميات من الماء عذبة صافية ثم يمطر حيث يأذن الله تعالى فتحيا به الأرض بعد موتها فتخرج للإنسان غذاءه من الحبوب والفواكه والخضر؟

---

(١) عقيدة المؤمن ص ٣٩، ٤٠ بتصرف

فقولوا لنا: أين الضرورة فى إيجاد اللبن فى الضرع؟ وأين الضرورة فى لقاح الحيوان؟ وأين الضرورة فى تلقيح ذباب التين لأنثاه حتى يكون التين؟ وأين الضرورة فى عملية التبخر والتكثف وإثارة الرياح للسحب ونزول المطر بالمقادير والكميات المحددة والأوقات المحددة، وفى إنبات الأرض وخروج الثمرات المختلفة، أين وجه الضرورة فى ذلك؟؟

إنه لا ضرورة، وإنما هى عناية الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى.

ونختم هذا الجزء من البحث بالحجة العقلية التالية: إن النبات والحيوان والإنسان، هذه الثلاثة يسلم الماديون بحدوثها وبأن الإنسان أحدثها عهداً بالحياة فيقال لهم: من أحدثها؟ والجواب لا يخلو من افتراض ثلاثة حلول:

الأول: أن نقول: إن الله هو الذى أحدثها. والثانى: أن تكون حدثت بواسطة ذرات المادة، وأجزائها وعناصرها عن إرادة وقصد وعناية بمعنى أن العناصر المادية فكرت ودبرت واتفقت على صنع المخلوقات على ما هى عليه من صور وأشكال. والثالث: أن تكون وجدت عن طريق الصدفة بمعنى أن الذرات تلاقت، وتجمعت على نسب وأوضاع مخصوصة بطريق الصدفة فتكونت هذه المخلوقات بما فيها الحيوان والإنسان. فأى الفروض أولى بالصحة والقبول؟ أما الثانى فالملاحدة يردونه ولا يقولون به لأنه ينسب للمادة قصداً وإرادة وهم لا يقولون بالقصد والإرادة أبداً. وأما الثالث فهو محال عقلاً لبطلان قانون الصدفة وفساده كما عُلِمَ وتَقَدمَ فلم يبق إلا الافتراض الأول وهو أن الله تعالى هو الذى خلقها بطريق السنن المطردة التى وضعها لخلق كل المخلوقات وإيجاد هذا العالم. وبذلك وجب الكفر بآلهة الملاحدة الثلاثة التى هى الطبيعة والصدفة والضرورة، ووجب الإيمان بالله الخالق المدبر الحكيم العليم[1].

---

(١) عقيدة المؤمن ص٤١ - ٤٣

(٢) دليل الابداع والعناية، أو الإلهام والهداية

قبل عرض قانون العناية الذى هو أحد القوانين العقلية الموجبة للإيمان بالله تعالى، والمعرفة به سبحانه وتعالى نذكر قاعدة عامة فى الكون كله، قد تخفى على المتأملين فى الكون، والدارسين له وهى أنه لا مجال فى الكون للباطل، ولا محل فيه للعبث بحال من الأحوال، بل الكون كله قائم على أساس العدل والحق، والنظام والإحكام، ولا يوجد جزء واحد من أجزائه خلا من فائدة مقصودة منه، أو حكمة متوخاة فيه، وهذه الحقيقة الكونية تظهر بوضوح لكل من تأمل الكون ونظر فى حقائقه، وقد قرر هذه الحقيقة وأكدها كتاب الله القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾[١].

وفى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** ﴾[٢].

ومثل هذه الحقيقة الكونية فى وضوحها وثبوتها قانون العناية الذى نعرضه الآن برهانًا عقليًا على وجود الله تعالى، وطريقًا من طرق معرفته عز وجل، وقانون العناية هذا يتألف من حقيقتين:

الأول: خلو الكون كله من أية ظاهرة للعبث والباطل فيه.

الثانية: أن الكون كله بجميع أجزائه مسخر لخدمة نوع واحد من بين سائر أنواعه، فمن أعظم كائن فيه إلى أصغر كائن وأحقره، الكل يخدم ذلك النوع، وهى حقيقة مدهشة للغاية، أن يكون هذا الكون الضخم الهائل بكل ما فيه من أجرامه السماوية، ومخلوقاته الأرضية، الجميع مسخر تسخيرًا خاصًا لخدمة نوع واحد من بين سائر المخلوقات التى حواها الكون، وانتظمها هذا الوجود المادى القائم كما سبق بيانه.

(١) سورة الدخان الآيات: ٣٨، ٣٩

(٢) سورة ص الآية: ٢٧

وهذا النوع المسخر له الكون كلـه هو الإنسان وحده، والمثل الذى يوضح هذه الحقيقة التى تبدو غريبة بادىء ذى بدء وعـجيبة، هو: أن يأمر أحد الملوك العظماء ببناء قصـر فخم كبيـر، فيبنى على أحسـن طراز ويُجَمَّل بأحسن أنواع التجـميل، ويزود بكل أسباب الراحة، والارتفاق بحيث يصبح آية فى باب القصور الملكية فى دنيا الناس متعة وجمالاً ثم ينزل به ضيفًا كريمًا عليه، ويقول له: لقد بنينا لك هذا القصر لتعيش طوال حياتك متمتعًا بكل ما فيه من خيرات ونعيم.

فالملك هو الله، والقصر هو الكون، والضيف هو الإنسـان، وهذه الحقيقة قد قررها القرآن أيضًا، وأكدها كالحقيقة الأولى، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[1].

ولنستعرض الآن بعض مظاهر العناية بالإنسان فى الكون "مجملاً".

- فى السماء نجـد الكواكب الكثيرة، والنجوم العـديدة، وفيها الشمس وفـيها القمر، والأرض أكثر تعلقًا بهما من غيرهما من سائر الأجرام السماوية. فبالنجوم المشرقـة، والكواكب المنيرة ازدانت السمـاء الدنيا التى هى سـقف لهذه الدار التى يسكنها الإنسان ويعـمرها، وبالقمر المنير، ذى المنازل والتقـدير، استنار غالب ليل الإنسان، وبه يعرف عـدد السنين والحساب، وبالشمس المضيئـة أشرق النهار على الإنسان، وبها عـرف ليله، وميز نهاره، ومنها اسـتمدت أرضه دفئهـا وحرارتها، وطاقتها المودعة فيها، ولولا الشمس لـتجمدت الأرض، ولما كانت صالحة للحياة، وفى السمـاء تتجمع السحـب وتتراكم، ومنها تنزل الأمطار مـياها عذبة بها حـياة الإنسان وسعـادته، وفى السماء فى علوها وارتفـاعها، وكثـرة أجرامها ومـجراتها وكواكبـها، ونجومها وشـموسها، وأقـمارها آيات عظام تهدى الإنسان إلى مـعرفة ربه، وتبين له قدرته عليه، وتريه سوابغ نعمه به.

- فى الأرض: نجد فيها البحار والأنهار، والمعادن والجبال، والسهول والتلال،

(١) سورة الجاثية الآيتان ١٢، ١٣

فيها الأحياء المائية، والحيوانات البرية، ذات المنافع العديدة، والفوائد الجمة الكثيرة، وبها الأشجار المظللة والمثمرة، وبها الزروع والنباتات التى هى أرزاق وأقوات، وكلها مسخرة للإنسان معطاة له، لم يكن فيها شىء لغيره، ولا يخرج منها شىء عن منفعته، وفائدته بحال من الأحوال[١].

- ومن الأمثلة التى تذكر فى عناية الله عز وجل الواضحة فى هذا الكون وخاصة بالإنسان.

* أنك ترى الزهرة فى النبات فترى لها أوراقًا جميلة جذابة ملونة بألوان زاهية، فإذا سألت علماء النبات عن الحكمة فى ذلك، أجابوا بأن هذا إغواء للنحل وأشباهه من الحشرات التى تمص رحيق الأزهار لتسقط على الزهرة، وحتى إذا وقفت على عيدانها علقت حبوب اللقاح بأرجلها، وانتقلت بذلك من الزهرة الذكر إلى الزهرة الأنثى فيتم التلقيح.

فانظر كيف جعلت هذه الأوراق الجميلة فى الزهرة حلقة اتصال بين النبات والحيوان، حتى يستخدم النبات الحيوان فى عملية التلقيح الضرورية للإثمار والإنتاج!!

وهذا التكامل لا نجده فى عالم النبات فحسب، وإنما نجده فى كل شىء، بين الليل والنهار، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والطعام وجهاز الهضم والإنسان والحيوان والنبات[٢].

* ومما يدل على تلك العناية وهذا الإبداع أنه لو أعطت الشمس نصف حرارتها الحالية لتجمدنا من البرودة، ولو أن حرارتها زادت بمقدار النصف، لكنا رمادًا منذ زمن بعيد.

* ولو كان قمرنا يبعد عنا "٢٠٠,٠٠٠" ميلاً بدلاً من بعده الحالى لكان المد فى البحار يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضى تغمر مرتين فى اليوم بماء متدفق يزيح الجبال عن أماكنها ولما أمكنت الحياة على وجه الأرض.

---

(١) عقيدة المؤمن ص ٥٣- ٥٦ بتصرف

(٢) شبهات وردود ص ٣٦، ٣٧ بتصرف

* ولو كان ليلنا أطول مما عليه الآن عشـرات المرات، لأحرقت شمس الصيف نباتاتنا فى كل نهار، وفى الليل يتجمد كل نبت فى الأرض.

* لو أن نسبة الهـيدروجين والأوكسجين اختلفت فى الماء عـما عليه الآن، لما كان الماء صالحًا للشرب، ولقتل الناس العطش.

* لو كانت قشرة الأرض أسمك مما عليه الآن بمقدار بضع أقدام لامتص ثانى أوكسيد الكربون والأوكسجين، ولما أمكن وجود حياة.

* ولولا قوانين الحرارة لما تبردت الأرض، ولما كانت صالحة للحياة.

* ولولا الجبـال لتناثرت الأرض، ولما كانت لهـا مثل هذه القـشرة الصـالحة للحياة.

* ولولا أن فى الأرض أرزاقها لما استطاعت الحياة أن تبقى.

* ولو كانت مياه البـحار حلوة لتعفن الماء الموجود بهـا، وتعذرت الحياة على الأرض.

* ولو كان الأوكـسجين فى الهواء بنسـبة ٥٠ فى المائة بدلاً من ٢١ فى المائة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق فى العـالم تصبح عرضة للاشتعال لأدنى شرارة، وكان فى ذلك هلاك الحـياة، ولو كانت نسـبة الأوكسجين ١٠ فى المائة لتـعذر أن يكون التمدن الإنسانى على ما هو عليه اليوم ...الخ[١].

هذا الإبداع، وذلك الجمال هو صنع الله عز وجل ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[٢].

وهذا الجمال والكمال من قـدرة الله عز وجل وبديع خلقه ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾[٣].

وهذه الوحدة المتكـاملة، والنسق البديع، الذى لا خلل فـيه ولا نقص هو من

---

(١) إن أردت المزيد فارجع إلى كتاب «العلم يدعو للإيمان» لكريس موريسون

(٢) سورة النمل الآية: ٨٨

(٣) سورة لقمان الآية: ١١

خلق الله عز وجل ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾(١).

وهذه العظمة فى خلق الأرض والسموات ، دلائل ناطقة على وجود الله ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(٢).

وهذه البراهين الساطعة على إبداعه المحكم، وصنعه المتقن، وآثاره المعجزات

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

وما أحسن ما قال بعضهم:

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأبصارهن الذهب السبيك
على قصب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

* * *

انظر لتلك الشجرة ... ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة ... وكيف صارت شجرة
فابحث وقل: من ذا الذى ... يخرج منها الثمرة
وانظر إلى الشمس التى ... جذوتها مستعرة
فيها ضياء وبها ... حرارة منتشرة
من ذا الذى أوجده ... فى الجو مثل الشررة
ذاك هو الله الذى ... أنعمه منهمرة

(١) سورة الملك الآية: ٣ ، ٤
(٢) سورة البقرة الآية: ١٦٤

ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة

وانظر إلى الليل فمن أوجد فيه قمره

وزانه بأنجم كالدر المنتشرة

وانظر إلى الغيم فمن أنزل منه مطره

فصير الأرض به بعد اغبرار خضرة

وانظر إلى المرء وقل من شق فيه بصره

من ذا الذى جهزه بقوة مفتكر

ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة

ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة

إن المرء منا إذا دخل دار فوجد بها غرفة مهيأة للطعام، وأخرى للمنام، وثالثة للنظافة، ورابعة للضيافة.. الخ لجزم بأن هذا الترتيب لم يتم وحده، وأن هذا الإعداد النافع لابد قد نشأ عن تقدير وحكمة، وأشرف عليه فاعل يعرف ما يفعل.

والناظر فى الكون وآفاقه، والمادة وخصائصها يعرف أنها محكمة بقوانين مضبوطة شرحت الكثير منها علوم الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان والطب، وأفادت منها الناس أجمل الفوائد، وما وصل إليه علم الإنسان من أسرار العالم، حاسم فى إبعاد كل شبهة توهم أنه وجد كيفما اتفق. كلا، إن النظام الدقيق المختص فى طوايا الذرة، مطرد فيما بين أفلاك السماء الرحبة من أبعاد ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[٢].

(١) سورة الفرقان الآيات: ٦١ ، ٦٢ والمرجع عقيدة المسلم ص١٦، ١٧ بتصرف.

(٢) سورة الذاريات الآيات: ٢٠ ، ٢١

* يمسك الواحد منا بحبة الرمانة فينظر في جمالها ونسقها ونظمها، ثم يتساءل: من الذى نسقها ونظم حباتها وغلفها؟ ولا يملك إلا أن يقول: سبحان الله!!

* وينظر إلى كوز الذرة، وقد وضعت حباته صفًا متقنًا، وأحيطت بأغلفة متعددة تحفظها ومنحتها هواء بواسطة أنابيب دقيقة "الشرابة" وثبت فى "قولحته"، فمن الذى أتقن هذا؟

* ويد من التى امتدت إلى سنبلة القمح فغلفت حباتها حتى لا تتساقط، وفى ورق غضروفى لا يتلفه المطر، وحَصَّن كل حبة بشوكة حتى لا تكون غذاء للطير، وهى مقدرة أن تكون غذاء للإنسان؟

* وانظر إلى البرتقالة، وإلى عنقود العنب، وإلى التفاح، وإلى، وإلى... إلخ.

ومن النبات والأرض وما فيها إلى الإنسان الذى يعيش عليها ونتساءل:

* قدرة من التى امتدت إلى عين الإنسان فجعلتها فى علبة منخفضة من العظم لئلا تتعرض للتلف والمهالك، وظللتها برموش تدفع عنها معاكسة ضوء الشمس لها، وحاطتها بأهداب تمنع تساقط العرق فيها وغطتها بأجفان، وجعلت لها ماء ملحًا "الدموع" حولها لئلا يلحقها النتن؟

* ويد من التى جعلت ماء الأذن مرًا لئلا تتسرب الحشرات إليها والإنسان نائم فتتلف طبلتها، وجعلت ريق الفم عذبًا مع أن الماء الذى تشربه واحد؟.

* وتدبير من الذى امتد إلى مفاصل الجسم فجعلت لكل مفصل قطعة شحم تسهل حركته بقدر معلوم؟

* وعناية من التى أتقنت لسان المزمار "البلعوم" بحيث تسد قصبة الهواء عند دخول الطعام والشراب، ويسد مسلك الطعام عند دخول النفس.

* وإبداع من الذى جعل اللسان عند خروج الهواء من الجوف يضغط عليه من جوانب الفم فينتج صفيرًا، وهذا الصفير يكون كلامًا منظمًا يعبر عما فى الضمير من معان وخواطر؟ وأى جهاز وضع فى الأنف حتى يميز بين الرائحة الطيبة

والخبيثة؟ وأى جهاز وضع فى الأذن حتى يميز بين الأصوات المتعددة، وهى قطعة من اللحم؟! ولو تأملت اللسان وخشونته لئلا يتزلق الكلام فيظهر غير مضبوط، لأيقنت أن للكون إلهًا، وصدق من قال "نظرك فيك يكفيك"[١].

ماذا أقول: والظواهر التى تدل على الله أكثر من أن يحصيها عاد، أو يحيط بها عالم، وإنما هى أمثلة[٢].

* ومما يرتبط بمعنى العناية والإبداع كذلك الهداية والإلهام. سبحان الله العظيم ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٣].

ونوضح هذه الظاهرة بالأمثلة التالية:

(أ) خطر لعالم أمريكى أن يستفرخ البيض فى جهاز خاص للتفريخ، وذلك بوضع البيض فى نفس الحرارة التى ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له. فلما جمع البيض ووضعه فى الجهاز، نصحه فلاح أن يقلب البيض فى كل فترة، إذ أنه رأى الدجاجة تفعل ذلك، فسَخِرَ منه العَالِمُ وأفهمه أن الدجاجة إنما تقلب البيض لتعطى الجزء الأسفل من حرارة جسمها، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة.

واستمر العَالِمُ فى عمله، حتى جاء دور الفقس، وفات ميعاده ولم تفقس بيضة واحدة، وكرر التجربة بلا جدوى، وأخيراً استمع إلى نصيحة الفلاح، فصار يقلب البيض حتى إذا جاء ميعاد الفقس خرجت الفراريخ. وآخر تعليل علمى لهذه الظاهرة أن الفرخ حينما يخلق فى البيضة ترسب المواد الغذائية فى الجزء الأسفل من جسمه إذا بقى بدون تحريك فيؤدى إلى موته.

ولولا هذه الهداية التى أودعها الله فى الدجاجة لما بقى نوع الدجاج فى العالم.

(ب) وانظر إلى هذا البيض، وقد جاء موعد فقسه، فتقوم الأم بنقر البيض،

---

(١) للكون إله، عبد العزيز كامل الشهابى ص٢٥- ٢٨ بتصرف

(٢) من أراد المزيد فليرجع إلى كتاب: العلم يدعو للإيمان، الله يتجلى فى عصر العلم، هذا الكون

(٣) سورة طه الآية: ٥٠

ما تخطئ مرة فتفقأ عين الكتكوت، أو تنقر أذنه، فمن الذى هداها؟ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[١].

(جـ) حيوان "الاكسيلوكوب" يعيش منفرداً فى فصل الربيع، ومن باض مات، فالأمهات لا ترى صغارها، ولا تعيش لتساعدها فى غذائها ودفاعها عن نفسها، وهؤلاء الصغار لا يستطيعون الحصول على الغذاء لمدة سنة كاملة، لذلك ترى الأم تعمد إلى قطعة خشب فتحفر فيها حفرة مستطيلة، ثم تجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق، وتحشو بذلك الحفرة ثم تبيض بيضة، ثم تأتى بنشارة خشب وتجعلها عجينة لتكون سقفًا لهذه الحفرة فإذا فقست البيضة وخرجت الدودة كفاها الطعام المدخر سنة كاملة.

ولولا هذه الهداية التى أودعها الله فى هذا الحيوان لقضى على نسله نهائيًا.

هذه بعض الأمثلة من أمثلة كثيرة لا تعد ولا تحصى، قصدنا بها لفت النظر إلى ظاهرة الهداية الموجودة فى الإنسان والحيوان والنبات على السواء فإذا التفت العقل ودرس الوجود على الإطلاق فهى ظاهرة تنظم شئون الكون كله بما فيه من الذرة إلى العناصر، إلى الأرض، إلى الشموس، إلى المجرات، إلى الحيوان، إلى الإنسان. وما أجمل ما عبر به القرآن فى إثبات ظاهرة الإلهام والهداية حين قال: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٢].

والذى نخلص إليه بعد ما تقدم أن ظاهرة الإلهام والهداية التى أودعها الله فى هذا الكون هى من أكبر الظواهر التى تدل على خالق حكيم مبدع، أحكم كل شىء وأتقن كل شىء[٣].

---

(١) سورة الأعلى الآيات: ١، ٣

(٢) سورة طه الآية: ٥٠

(٣) شبهات وردود ص ٣٣، ٣٦ بتصرف

(٣) دليل النظام والحركة، أو التقدير والتسوية

إن التأمل فى الكون كله علويه وسفليه، يكشف عن حقيقة كبرى لا مجال لإنكارها أو تجاهلها والاغضاء عنها، أو الغض من شأنها، ألا وهى النظام الدقيق العجيب، الذى ربطت به أجزاء الكون كله من الذرة إلى المجرة، هذا النظام المدهش المحير للعقول، الذى يحيل العقل البشرى السليم أن يكون ناجمًا عن صدفة وتلقائية، أو عن تفاعلات كيميائية، أو يكون نتيجة للحركة المستمرة للمادة منذ ملايين السنين كما يزعم الخياليون والمغرورون، والمخدوعون، إنه لمن أمحل المحال وأبطل الباطل أن يصدر هذا النظام الشامل للخلق كله من غير ذى إرادة وقصد وعلم وحكمة وتدبير.

إن نظرة إلى السماء، إلى خلقها وتكوينها، إلى الإحكام والإتقان فيها، إلى أبعادها، إلى سعتها، إلى عدد نجومها ومواقعها، إلى الأفلاك الدائرة فيها، إلى ضوء شمسها، ونور قمرها، هذه النظرة الفاحصة الشاملة تُرِى الإنسان العاقل من مظاهر القدرة والعلم والإرادة والقصد والتصميم ما يجزم معه ببطلان هراء الماديين، وترهات الملحدين، ويسلم بوجود إله عظيم، متصف بصفات الربوبية، ونعوت الألوهية[(١)].

* أما فكرت فى هذه السيارات المنطلقة. أعنى هذه الكواكب التى تخترق أعماء الجو، والتى تلتزم مدارًا واحدًا، لا تنحرف عنه يمينًا ولا يسارًا، وتلتزم سرعة واحدة، لا تبطئ فيها ولا تعجل، ثم نرقبها فى موعدها المحسوب فلا تختلف عنه أبدًا.

إن الكرة تنطلق من أقدام اللاعبين ثم لا تلبث أن تهوى بعد تحليق، أما هذه الكرات الغليظة الحجم، الحى منها والميت، المضىء منها والمعتم، فهى معلقة لا تسقط، سائرة لا تقف، كل فى دائرته لا يعدوها. وقد يصطدم المشاة والركبان على أرضنا، وهم أصحاب عقل وبصر، أما هذه الكواكب التى أرحم بها الفضاء

---

(١) عقيدة المؤمن ص٥٢، ٥٣

فإنها لا تزيغ ولا تصطدم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[١].

من الذى هيمن على نظامها، وأشرف على مدارها، بل من الذى أمسك بأجرامها الهائلة، ودفعها تجرى بهذه القوة الفائقة؟ إنها لا ترتكز فى علوها إلا على دعائم القدرة، ولا تطير إلا بأجنحة أعارها لها القدير الأعلى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[٢].

إنها قوانين تصرخ باسم الله ولكن الصم لا يسمعون[٣] وأى نظرة فاحصة دقيقة على الأرض، إلى خلقها وتكوينها، إلى محيطاتها وأنهارها، إلى جبالها ووهادها، إلى مرتفعاتها وسهولها، إلى النباتات والأشجار، إلى التنوع فى الحيوانات، وإلى الاختلاف فى أجناس البشر، لونًا ولسانًا. تقف بالناظر عند حقيقة لا يستطيع إنكارها، ولا إخفاءها وجحودها، وهى أن وراء هذا الخلق والإبداع خالقًا مبدعًا عليمًا حكيمًا، وهو الله لا إله إلا هو ولا رب سواه[٤]. قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾[٥].

إن نظرة عابرة فقط إلى النور والحلك، وهذا الهواء المشترك، إلى ائتلاف

---

(١) سورة يس الآيات: ٣٧-٤٠

(٢) سورة فاطر الآية: ٤١

(٣) عقيدة المسلم: ص١٧، ١٨ بتصرف

(٤) عقيدة المؤمن: ص٥٣

(٥) سورة ق الآيات: ٦-١١

الهواء، إلى عناصر الماء، إلى النوعية والزوجية فى كل شىء، فيها وعليها، تكفى فى إقناع ذى العقل بوجود إله ذى قصد وإرادة، وحكمة وتدبير، وقدرة لا تحد، وعلم لا يحيط به أحد، ألا وهو الله العزيز الحكيم. الله الذى أوجبت العقول السليمة وجوده، ودلت كل ذرة فى الكون على علمه وقدرته وتدبيره وحكمته[١].

* وإذا كان الخلق يدل على الله، فالتسوية أدل عليه، والتسوية أخص من الخلق، إذ من الممكن أن يخلق الشىء غير مسوى فمعنى تسوية الشىء: إحسان خلقه، وإكمال صنعته بحيث يكون مهيئاً لأداء وظيفته، وبلوغ كماله المقدر عنده، وإمداده بما به صلاحه وبقاؤه، وجعله مستويًا معتدلاً، متناسب الأجزاء بحيث لا يحصل بينها تفاوت يخل بالمقصود منها.

وهذه التسوية ظاهرة فى الكائنات كلها على وجه العموم، وفى الكائنات الحية على وجه الخصوص، وفى الإنسان على وجه أخص.

قال تعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[٣].

وإليك هذا المثل الذى نتأمل به قدرة الله عز وجل فى تنظيم كونه، وتقدير خلقه، وتسوية حاله:

"الجمل" قد أعطى الصورة الخلقية التى تلائم معيشته، وأسفاره الطويلة فى الصحراء، فهو خلق برقبة طويلة تعلو رأسه، وتنأى بعينيه عن غبار الرمال، كما منح شفة مشقوقة يستطيع أن يتناول بها أشواك البوادى دون أن تؤذيه، وأعطى سنامًا يختزن فيه الدهن إن أعوزه الطعام يومًا فى الصحارى القاحلة، ولم تنته رجله بحافر يغوص فى الرمل كحوافر الخيل والبغال والحمير، بل انتهت بخف، يقدر به على اجتياز الرمال دون أن يسوخ فيها، ولهذا سموه "سفينة الصحراء" فسبحان الله!! ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾[٤].

---

(١) عقيدة المؤمن: ص٥٣

(٢) سورة السجدة الآية: ٧

(٣) سورة الإنفطار الآيات: ٦-٨

(٤) سورة طه الآية: ٥٠

ثم سخر سبحانه هذا الجمل "الحيوان الضخم" لصبى صغير، يقوده ويركبه، وهذا مثل من الأمثلة الكثيرة المبثوثة فى الكون، ولذا قال سبحانه: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[١].

هذا ونجد كل شىء فى الخلق له حساب وتقدير، وميزان وترتيب، بحيث يتلاءم مع مكانه وزمانه، وبحيث يتناسق مع غيره من الموجودات القريبة منه، والبعيدة عنه، فلا يعطل وظيفتها أو يعوق سيرها لما خلقت له، وبحيث يتم بين المخلوقات كلها توازن شامل، ينتظم به سير الوجود كله، فإذا كانت التسوية إعطاء كل شىء من الخلق والتصوير ما يؤدى به وظيفته على الوجه اللائق به، فإن التقدير أن يكون بالقدر الذى ينفع فى نفسه ولا يضر غيره، ولا يصطدم بالمخلوقات الأخرى، وذلك يتم إذا ما وضع فى مكانه الملائم، وزمانه المناسب، وبالكم الذى يُصلِح ولا يُفْسِدُ، وعلى الكيفية التى يتحقق بها التناسق والتوازن بين وحدات الكون وأجزائه.

وهذا التقدير ظاهرة عامة فى كل شىء، كما نبه القرآن على هذه الحقيقة، إذ قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[٢]. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[٣]. ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[٤]. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٥]. ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٦].

فالماء مثلاً سواه الله بمعنى أنه أحسن خلقه، وهيأه لأداء وظيفته من السقى والرى والتطهير والتنظيف ونحو ذلك، ولكن الماء الذى خلقه الله وأسكنه فى الأرض خلقه بقدر، وأنزله بقدر، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾[٧].

هذا وقد جاء العلم الحديث بكشوفه ووسائله: فأماط اللثام عن الحكمة

(١) سورة الغاشية الآيات: ١٧-٢٠
(٢) سورة الرعد الآية: ٨
(٣) سورة الفرقان الآية: ٢
(٤) سورة الطلاق الآية: ٣
(٥) سورة القمر الآية: ٤٩
(٦) سورة الحجر الآية: ٢١
(٧) سورة المؤمنون الآية: ١٨

البالغة. والأسرار العجيبة وراءه، وما بين المخلوقات من مقادير وحدود. وضوابط وموازنات.

إن فى الفضاء الفسيح الذى لا نعرف له حدوداً، ملايين الملايين من النجوم السابحة فى أجوائه، وبعض هذه أكبر من الشمس بآلاف المرات وملايينها، "كالشعرى" الذى هو أثقل من الشمس بعشرين مرة، ونورها ضعف نور الشمس بخمسين مرة، "وسهيل" أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة. . وهكذا. ويقول الفلكيون: "إن من هذه النجوم والكواكب التى تزيد على عدة بلايين نجم، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يُرَى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه، هذه كلها تسبح فى الفلك الغامض، ولا يوجد أى احتمال أن يقترب مجال مغناطيسى لنجم من مجال هذه نجم آخر، أو يصطدم بكوكب آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب فى البحر الأبيض المتوسط بآخر فى المحيط الهادى، يسيران فى اتجاه واحد، وبسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد، وبعيد جداً. إن لم يكن مستحيلاً".

ومع هذا التباعد بين كل نجم وآخر، فقد وضع كل نجم فى مكانه بحيث يتسق فى آثاره وتأثراته مع سائر النجوم والكواكب، وتؤدى جميعها مهمتها المنوطة بها فى بناء الكون وسير وحركته.

ولنأخذ الشمس والقمر والأرض وما بينهم من علاقات مثلاً لهذا التقدير المحكم، والنظام الدقيق الذى كان من آثاره ظهور الحياة الإنسانية على الأرض واستمرارها إلى اليوم.

إن هذه الشمس هى الوحيدة بين آلاف النجوم التى تصلح لجعل الحياة على الأرض ممكنة. وإن حجمها، وكثافتها، ودرجة حرارتها، وطبيعة أشعتها، ودرجة بعدها عنا، كل ذلك لازم لقيام حياتنا على كوكبنا الذى هو الأرض.

وكذلك وضع القمر، وحجم الهواء، والغازات، وعالم النبات والحشرات[1] ترى من الذى وضع كل هذه المخلوقات فى مواضعها الصحيحة، وقَدَّر أحجامها

(١) انظر بتوسع: الله والعلم الحديث، والعلم يدعو إلى الإيمان، والله يتجلى فى عصر العلم.

وأشكالها وأبعادها ونسبها وعلاقتها هذا التقدير المحكم العجيب؟ هل عند الماديين الجاحدين من جواب يشفي الصدور؟ كلا. أما نحن فجوابنا: إنه "الله" ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1].

إنه باختلاف التوازن في أي شيء تحدث كارثة تنذر بها المدنية، وتتخبط البشرية، إذا بقي أي شيء على قيد الحياة، ترى كيف يتحقق كل هذا التقدير، وكيف يتم كل هذا التدبير، إذا لم يكن هناك خالق أعلى يقدر فيحسن التقدير، ويدبر فيحسن التدبير؟!![2].

(١) سورة الأنعام الآية: ٩٦

(٢) انظر بتوسع: وجود الله من ص ٣٢ - ٥٤

(٤) دليل الفطرة والأخلاق والتاريخ

وإن كان هنـاك من الأدلة ما هو مبثـوث فى الكون، خارج دائرة الإنسـان، فهناك أدلة ليست خارجة عن كيانه. ومنها الفطرة، التى فطر الله عليها الناس، إنه ذلك الشعور الطبيعى الغامر، بأن فوق الكائنات المحدودة المتناهية كائنًا غير محدود ولا متناه، يهيمن على كل شىء ويدبر كل أمر، يُرْجَى ويُخْشَى، ويعظم ويقصد، وهو شعور ينـبع من أعماق الإنسان، ويستـمد من كيانه كله لا مـن عقله وحده، ولا من وجدانه بمفرده، شعـور يجده الإنسـان فى نفسـه بغيـر تعلم ولا تلقين ولا اكتساب.

يعبر الفيلـسوف الشهير "ديكارت" عن هذا الشعور الـفطرى، فيقول: "إنى مع شعورى بنقص فى ذاتى أحس فى الوقت نفسه بوجود ذات كاملة، وأرانى إلى اعتقادى بأن هذا الشـعور قد غرسته فى ذاتى تلك الذات الكاملة المتـحلية بجميع صفات الكمال وهى "الله".

وكلمـا كان الإنسـان أسلم فطرة وأزكى نفسًـا، رق حجـابه، وتفتـحت عين بصيـرته، وارتفع عن جاذبية الطين، وحلق فى أجـواء الروح، وحينئذ يشـعر بأن وجود الله يملأ عليه أقطار نفسـه، ويغمر كيانه كله، فيحس بأنه غـير محتاج إلى دليل على وجود ربه - سـبحانه - خارج عـن ذاته وكيانه هو، بل يشعـر أن وجود الله أظهر من كل شىء ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

ويروون أن أحد العلمـاء الصالحين الموقنين، قيل له يومًا: إن فـلانًا من علماء "الكلام" قد أقام على وجود الله ألف دليل، فقال: لأن فى نفسه ألف شبهة.

وهذا جواب من وضح الأمر فى نفسه بحيث لا يحتاج إلى إقامة برهان، على نحو ما قال الشاعر:

وليس يصح فى الأذهان شىء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

(١) سورة فصلت الآية: ٥٣

وسئل واحد من السلف: بم عرفت ربك؟ فأجاب: عرفت ربى بربى، ولولا ربى ما عرفت ربى!

ويقول ابن عطاء الله السكندرى فى هذا المعنى؟ "إلهى كيف يستدل عليك، بما هو فى وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك؟".

هذا ما نقصده: إن الإنسان ـ سواء أكان جاهلاً أم عالمًا ـ لو جرد نفسه من آثار الوارثات المختلفة، ومحا من ذهنه كل ما يربطه بالمكان الذى يعيش فيه، والمذهب الذى ينتمى إليه، ثم يفكر بعد ذلك فى الكون وفى نفسه، لاندفع بفطرته وطبيعته اندفاعًا اضطراريًا ليجد نفسه ساجداً خاشعًا أمام ربه العلى العظيم. الرحمن الرحيم.

إن الذى علم الإنسان أن ١+١=٢ بدون برهان ولا مقدمات، هو الذى علمه أن له إلهًا لا يستغنى عنه، بدون حاجة إلى إستدلال، ولا انتقال من معلوم إلى مجهول، ومن مقدمات إلى نتائج.

هذا الشعور الفطرى قد يختفى فى ساعات العافية والرخاء، والغنى الذى يطغى الإنسان ويحجبه أحيانًا عن رؤية نفسه على حقيقتها، فإذا أنزل بالإنسان شدائد قاهرة، ذاب الطلاء الكاذب الذى غش الفطرة الأصيلة، ورجع الإنسان إلى ربه ضارعًا داعيًا منيبًا إليه.

سأل رجل الإمام جعفر الصادق عن "الله" فقال له: ألم تركب البحر؟ قال بلى، قال: فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم الريح العاصفة؟ قال: نعم، قال: وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة؟ قال: نعم. قال: فهل خطر ببالك، وانقدح فى نفسك، أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء؟ قال نعم، قال جعفر: فذلك هو "الله".

وإلى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم، إذ يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا

ريحٌ عاصفٌ وجاءهم الموجُ من كلِّ مكانٍ وظنُّوا أنَّهم أُحيطَ بهم دعَوُا اللَّهَ مُخلصينَ له الدِّينَ لئن أنجيتنا من هذه لنكونَنَّ من الشَّاكرينَ ﴾(١).

والقرآن الكريم يصور أصالة هذه الفكرة وشمولها لكل أفراد النوع الإنسانى تصويراً بليغاً، يأخذ بمجامع القلوب، ويسوقها إلى ربها سوقاً حثيثاً، ويعرض ذلك فى صورة ميثاق قديم بين الإنسانية وبين ربها. على أن تؤمن به وتعبده وتوحده، فلنستمع إليه يقول: ﴿ وإذْ أخذَ ربُّك من بني آدمَ من ظهورهم ذُرِّيَّتَهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربِّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنَّا كنَّا عن هذا غافلين (١٧٢) أو تقولوا إنَّما أشرك آباؤُنا من قبلُ وكنَّا ذُرِّيَّةً من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾(٢).

ولما كان هذا الشعور أمراً فطرياً ـ كما تبين ـ وجدنا أصل الإيمان قدراً مشتركاً بين جميع الأمم، وفى مختلف الأقاليم. وفى شتى عصور التاريخ، وإن كان الكثيرون قد انحرفوا عن الإيمان الصحيح، وخلطوه بأوهام وأباطيل كدرت نقاءه وأفسدت جوهره.

يقول الفيلسوف المعروف "هنرى برغسون" : "لقد وجدت جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة" . ويقول المؤرخ الإغريقى القديم "بلو تارك" : "لقد وجدت فى التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا مدارس، ومدن بلا قصور، ولكن لم توجد مدن بلا معابد" .

والدارسون لتاريخ الأديان، يؤكدون أن الإنسان لن يستطيع مهما بلغ من العلم والتمدن أن يستغنى عن الإيمان والدين.

ويقول الفيلسوف "رينان" فى كتابه "تاريخ الأديان" إنه من الممكن أن يضمحل كل شىء نحبه، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ولكن يستحيل أن يتمحى التدين، بل سيبقى حجة على بطلان المذهب المادى الذى يريد أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة فى الحياة الأرضية"(٣).

(١) سورة يونس الآية: ٢٢
(٢) سورة الأعراف الآيات: ١٧٢، ١٧٣
(٣) وجود الله، للدكتور يوسف القرضاوى ص ١٩-٢٣ بتصرف.

* هذا، فضلاً عن الوازع الأخلاقى المركوز فى النفس الإنسانية - كما قاله الفيلسوف الألمانى "عما نويل كانت" وجوهر هذا الدليل: أن الكون بما فيه من خلق وتسوية، وما فيه من تدبير وهداية، يدل على وجود "الصانع القادر" ولكنه لا يلزم من قدرته وصنعته أنه "الإله" الذى يصدر منه الخير والنعم، وتتجه إليه القلوب بالعبادة والحب والحمد والتعظيم.

وإنما يثبت وجود هذا "الإله" بدلالة وعلامة فى النفس الإنسانية، لا يتأتى وجودها فيها بغير وجود إله، وتلك هى دلالة الوازع الأخلاقى، أو دلالة الواجب، أو دلالة الضمير.

فمن أين استوجب الإنسان أن يدين نفسه بالحق كما نعرفه، إن لم يكن فى الكون قسطاس للحق، يغرس فى نفسه هذا الوجوب؟ ومن أين تقرر فى فطرة الإنسان أن الواجب الكريه لديه أولى به من إطاعة الهوى المحبب إليه، وإن لم يطلع أحد على دخيلة سره؟.

إن وجود هذا الوازع الأخلاقى فى نفس الإنسان دليل على أن هناك غارساً غرسه فيها ليستقيم سير الحياة، وينتظم أمر الجماعة، وذلك هو مصدر الخير والرحمة والجمال.

ويشير القرآن إلى هذا الدليل فيقول: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾(١).

وإلهام التقوى للنفس يعنى منحها الوازع الأخلاقى الذى يقاوم دواعى الشهوة والفجور.

ويعترض بعض الناس على هذا الدليل بأن وجود الأخلاق أو الضمير أو الشعور بالواجب، إنما هى "عادة اجتماعية" رسخت فى النفس بمضى الزمن، حتى استحالت إلى رغبة مقبولة أو مطلب محبوب. وينسى هؤلاء أن العادة الاجتماعية "ليست بالتفسير الذى يعلل نشأة الأخلاق، وإنما هى تكرير للمشاهدة، كما رأيناها، فإذا سألهم سائل: لم نشأت العادة الاجتماعية؟ قالوا:

---

(١) سورة الشمس الآيات: ٧، ٨

للمصلحة الإجتماعية. ولكنهم لا يسألون أنفسهم: لماذا كانت المصلحة الاجتماعية أمراً مفروغًا منه، مقضيًا بوقوعه؟[١].

إن ترجح المصلحة الاجتماعية العامة على المصالح والشهوات الفردية الخاصة، هو أثر من آثار الوازع أو الضمير الذى أنكروه[٢].

(١) انظر: «الله» للعقاد ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ بتصرف

(٢) وجود الله ص ٧٤-٧٦

أدلة مبسطة لولدك الصغير

قد يسألك ابنك الصغير: من الذى خلق الخلق؟

فأنت تجيب: الله عز وجل هو الذى خلق الخلق.

فيقول لك: ولماذا لا نرى الله؟

فقل لـه: هل أنت حى: فيـقول لك: نعم، فـقل له: ما سـر الحيـاة فيك؟ يقـول: الروح فقل له: هل أنت تراها، فـيقـول: لا: فقل له، هذا مـخلوق لم تستطع رؤيته، فكيف تستطيع أن ترى الخالق عز وجل؟!.

ثم اسـأله: هل أنت عاقل؟ فـيجـيبـك: نعم، فقل له: هل رأيت عـقلك؟ فيقول: لا، فقل له: ليس كل مـا لا يرى ينكر. وكذلك اضرب له المثل بالجاذبية الأرضية، وبالكهـرباء، وغير ذلك. وذَكِّرهُ بمثل الأستاذ الملحـد مع تلامذته، وقد سبق ذكره.

فيسألك: ما الدليل على وجود الله؟

فقل له قول الأعرابى، حين سألوه عن "الله" كيف عـرفه؟ فقال: البعرة تدل على البعيـر، وأثر السير يدل على المسيـر، فكيف بسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا يدل ذلك على العلى الكبير؟!!.

وقل له: من خلق كذا؟ ومن خلق كذا؟

فالإجابة منه: الله هو الخالق. ولكنه ربما يسأل: من الذى خلق الله؟

فقل له: الخالق لا يخلق، وإلا كيف يسمى خالقًا؟!!

فالله سـبحانه وتعالى الكبـير المتعال، وهو خـالق الخلق، فلا يمكن أن يكون مخلوقـًا، إذ لابد للمخلوق من خالق وهكذا، حـتى تصل إلى الخالق الأول الذى لم يُخْلَق ولم يلد ولم يـولد، ولم يكن له كفـواً أحـد، والذى ليس كمـثله شىء وهو السميع البصير(١).

---

(١) راجع ما ذُكِرَ من الأدلة، وخذ البسيط منها تعلمه لولدك، وتذكر به طفلك.

(٥) الأدلة الشرعية أو الدينية

وبعد أن ذكرنا شيئًا من الأدلة العقليـة، توضيحًا للقضية وردًا على الملاحدة، نذكر شـيئًا من الأدلة الشرعـية التى أيقنا بها، والأدلة الدينيـة التى آمنَّا بها، وهو عندنا من أعظم الأدلة، لأنه من عند الله، وقـد جاء به رسل الله، وأثبتـه القرآن الكريم، واتفقت عليه كلمة أهل الدين، بلا خوف أو نكير.

وهو دليل جمع بين أخبـار الله تعالى، والبراهين التى أقامها سـبحانه وتعالى لمعرفته، فهو مرتبط بسـابقه من الأدلة العقلية، ذلك أن الدين الصحيح لا يتناقض مع العقل، بل هو الذى يدعو للنظر والتأمل، وكذلك التدبر والتفكر.

وبذلك فهـو أعظم طريقتى الهـداية إلى معـرفة الله تعـالى، والإيمان به، عز وجل، وهى التى تبعث المهتدى بها إلى العمل، المزكى للنفس، والمهيىء له سعادة الدارين، بخلاف الهـداية العقلية وحـدها فإنها وإن أنقذت صـاحبها من التـمزق الشـخصى، والقلق النفسى، والحيـرة الفكرية، فـإنها لا تزكى نفسه ولا تُقَـوِّمُ أخلاقه، ولا تـهيئه لسـعادة الدنيا والآخرة، كـما أنها لا تخرجـه من دائرة اللغز الموجب للعذاب الأخروى والخلود فيه.

وبادىء ذى بدئ، نذكـر أن هناك حقـيقتـين ثابتتين، ينبـغى أن تكونا منطلق التعرف إلى الله تعالى، والتعريف به سبحانه وتعالى، هما:

الأولى: إنه لا يعرف الله كنفـسه سبحانه وتعالى، ولا يـعرف بالله مثل الله جل جلاله، وعَظُمَ سُلْطَانه.

والثانيـة: أن مصدر معـرفة الله تعالى، هو كـتابه ورسوله، فقـد تعرف الله تعالى لعـباده فى كتـابه بما لا مزيد عليه، كـما أن الرسول ﷺ لم يأل جـهدًا فى التعـريف بربه عز وجل، بالحديث عنه، وبذكـر أسمائه وصفـاته وعَرَفَ المؤمنون ربَّهم معرفة أثمرت لهم محبته وطاعته.

ويحسن أن ننبه هنا إلى أن التعرف بالله عز وجل فى الكتاب له طرق مختلفة بأساليب متنوعة، منها:

* أن يخاطب عباده كافة - مؤمنهم وكافرهم - ويتعرف إليهم، فيأمرهم وينهاهم.

* وأن يتعرف إلى أنبيائه ورسله عليهم السلام - فيناديهم، ويخاطبهم ويوحى إليهم.

* وأن يتعرف إلى عباده المؤمنين به وبرسله، فيخاطبهم ويأمرهم وينهاهم، ويعدهم، ويبشرهم، وينذرهم، ويحذرهم.

* وكذلك إرساله تعالى الرسل وإنزاله عليهم الكتب، وتأييدهم بالمعجزات والخوارق التى يعجز عنها البشر عادة، ولا يقدرون على مثلها، لكونها لا تخضع للسنن الكونية[١].

وإذا تركنا تفصيل القول فى ذلك - بالرجوع إلى مصادره - فإنه يحق لنا أن نتساءل:

من الذى أرسل الرسل؟ ومنحهم تلك المعجزات التى عجزت عنها الخلائق واعترفوا بها؟ وهل بعد أن أرسل الله عز وجل هؤلاء الرسل ومنحهم تلك المعجزات يطلب عاقل الدليل على وجود الله، ووجوب الإيمان به، وبمعرفته وعبادته؟ اللهم لا.

* وهذه الكتب التى تلقاها الرسل - وحيا أوحاها الله تعالى إليهم، وتلقاها أتباع الرسل عن رسلهم، ولم يشك أحد فى أنها وحى الله، وكتبه أنزلها على رسله وفيها أمره ونهيه، وأخباره، ووعده ووعيده، وشرائعه وأحكام دينه - وإن كان قد طرأ على بعضها فساد بالتحريف والزيادة والنقصان، لكن القرآن الكريم - الكتاب الذى نزل على محمد ﷺ وهو أحدثها نزولاً ، لم يزل غضا طريا كما نزل، لم ينقص منه حرف، ولم يزد فيه آخر، وهو آية صدق نبوة صاحبه الأمى الذى لم يقرأ، ولم يكتب ولم يجلس بين يدى أستاذ قط، وقد اشتمل كتابه القرآن على علوم ومعارف، بهرت العقول، وأخذت بالمشاعر والقلوب، فما من علم من العلوم الإلهية، والإنسانية إلا وذكر فيه طرف منه، وأشير إلى دقيقة من

---

(١) راجع بتوسع: عقيدة المؤمن ص ٥٧- ٧٥

دقائقه، أو جليلة من جلائله، فسبق الزمان بإشاراته إلى شتى العلوم والمخترعات العصرية.

فذكر الذرة، وتفتيتها، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[1].

وذكر نظام الزوجية فى كل أجزاء الكون وذراته، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[2].

كما أشار إلى اتساع الكون، فى قوله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[3].

وكروية الأرض. فى قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾[4] وغيرها.

وذكر مبادئ الصحة فى مثل قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[5].

ووضع قواعد العدل والحكم فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[6].

وأسس الآداب الرفيعة والأخلاق البشرية الفاضلة، وذلك بمثل قوله عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[7].

وغير ذلك كثير، الشيء الذى لم تعهده البشرية فى كتاب غيره[8].

* فهذا الكتاب العظيم حوى من العلوم الإلهية والكونية، والقانونية

---

(١) سورة الزلزلة الآية ٧
(٢) سورة الذاريات الآية: ٤٩
(٣) سورة الذاريات الآية: ٤٧
(٤) سورة الزمر الآية: ٥
(٥) سورة الأعراف الآية: ٣١
(٦) سورة النساء الآية: ٥٨
(٧) سورة النحل الآية: ٩٠
(٨) عقيدة المؤمن ص ٧١ ، ٧٢ بتصرف

والتشريعية فى كل مجالات الحياة ـ ولم يدع أحد من الخلق أنه قوله وكلامه، أو تركيبه وتأليفه، وكل ما فى الأمر أنه نزل على بشر هو أكمل البشر طهراً وصفاء وصدقًا، وأمانة وعدلاً ورحمة.

* فما مصدر هذا الكتاب، ومن أنزله، فهل يحسن السكوت عن الجواب؟

أو يحسن الكذب والمغالطة، فنقول: هل فاض به وجدان "محمد" الأمى؟ كما يقول المضللون!!

أو ماذا عن الإنسان العاقل أن يقول؟ إنه لا جواب صحيح غير الاعتراف بأنه تنزيل الله، وكتاب الله، ووحى الله، ولازم ذلك أن الله ـ منزله ـ موجود، وأنه عليم قدير، وعزيز حكيم، وأن من نزل عليه هو نبى الله ورسوله وأن كل ما جاء فى هذا الكتاب حق، وصدق، وعدل، وأن الهداية البشرية متوقفة ـ لا محالة ـ عليه، وأن السعادة الإنسانية منوطة بالإيمان به والأخذ بما فيه.

* وهذه المعجزات التى جعلها الله لأنبيائه ورسله، ـ وجلها مذكور فى القرآن الكريم ـ وهى خارقة لسنن الكون، وقوانين الحياة، وهى دليل على صدق نبوتهم، وثبوت رسالتهم، ولازم ذلك أن الله عز وجل ـ صاحبها ـ موجود وهو واجد الوجود، سبحانه وتعالى، ولئن كان الكثير من المعجزات كان حسيًا ـ انتهت بانتهاء عصر نبيها، فإن المعجزة الخالدة الباقية وهى القرآن الكريم، لا يزال يتحدى البشر ويعجز العالمين على أن يأتوا بمثله ولو مجتمعين، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(1).

أو أن يأتوا بعشر سور منه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(1).

---

(1) سورة الإسراء الآية: ٨٨

بل يتحداهم على أن يأتوا بسورة من مثله، ولو أقصر سورة منه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[٢].

فمن الذى يستطيع على مدى الزمان أن يبطل قوله تعالى «ولن تفعلوا»؟ فهذه المعجزة الخالدة وغيرها من المعجزات السالفة، وكل واحدة خارقة لنظام السنن الكونية، فهل تدل على غير وجود الله ربًا وإلهًا، ذا صفات متناهية فى الكمال؟؟.

اللهم إنها لا تدل إلا عليك، ولا تعرف إلا بك، يا رب العالمين. وإله الأولين والآخرين[٣].

* إن هذا القرآن الكريم. هذا الكتاب المعجز، ليس آية ودليلاً على نبوة محمد ﷺ، بل هو آية ودليل على وجود الله سبحانه وتعالى، وعلى واسع علمه وحكمته، وكمال أسمائه وصفاته، وكلما تقدم العلم واتسعت معارف البشر، اكتشف العالمون فى هذا القرآن من الأسرار والكنوز ما يزيل شك الشاكين، ويزيد الذين آمنوا إيمانًا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[٤].

إن الرسالات السماوية آية من آيات وجود الله - تعالى - ووحدانيته وكماله، فإن من رحمة الله أنه لم يكتف بما أودعه فى الفطر والعقول، وفى الأنفس والآفاق من شواهد، تهدى إليه، وتدل عليه، بل أرسل الرسل بالبينات ليهدوا الناس إلى صراط العزيز الحميد، وليس مما يقبله العقل السليم أن يكون هؤلاء الرسل الكرام فى مختلف الأمم، وشتى العصور، قد توافقوا على أنهم مبعوثون لإله، لا وجود له، ولو فرض هذا - وفرض المستحيل جائز جدلاً - فمن الذى

---

(١) سورة هود الآيات: ١٣، ١٤

(٢) سورة البقرة الآيات: ٢٣، ٢٤

(٣) عقيدة المؤمن ص ٧٢ - ٧٤ بتصرف

(٤) سورة فصلت الآية: ٥٣

أيدهم ونصرهم؟ وهم الفقراء مالاً، الضعفاء جاهًا، القليلون أعوانًا؟ ومن الذى خرق لهم العادات، وأمدهم بآيات معجزات، آخرها وأعظمها هو القرآن العظيم؟ من الذى أنزل هذا الكتاب، وأنزل من قبل التوراة والإنجيل والصحف والزبور؟ ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1] ا.هـ[2].

وأخيراً...

والآن فليقل لنا المنصفون: بمن يجب أن يؤمن العقلاء: أبإله يخلق ويرزق ويدبر، ويحيى ويميت، ويضر وينفع، ويُنَزِّل الكتب، ويرسل الرسل، ويضع الشرائع والقوانين، ويهدى ويضل، ويُسْعِدُ ويُشْقِي، ويوالى ويعادى، ويحب

(١) سورة الأنعام الآية: ٩١

(٢) وجود الله، للقرضاوى ص ٧٧، ٧٨ بتصرف

ويبغض، ويعطى المعجزات، ويهب الكرامات، له تسعة وتسعون اسمًا وصفة، كلها أسماء حسنى، وصفات عليا، يُكَلِّم ويُعَلِّم، ويسمع ويجيب، ويرفع ويضع، ويعز ويذل، يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الظلم والعدوان.

أم بطبيعة ميتة عمياء، صماء، بكماء، لا إرادة لها ولا اختيار، لا تسمع دعاء، ولا تجيب نداء، لا تحب ولا تكره، لا تضر ولا تنفع، لا تعلم ولا تكلم، لا تنزل كتبًا، ولا تبعث رسلاً، ولا تشرع ولا تقنن، لا تهدى ولا تضل، لا اسم لها ولا صفة سوى الحدوث والموت والصمم والبكم والعمى؟!! ألا فليقولوا لنا!! أما نحن فقد آمنا بالله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء، خلق آدم من تراب ونفخ فيه من روحه، وخلق ذريته من ماء مهين، وخلق كل شىء، وملكه وخلق بقدرته ودبر بحكمته، أنزل الكتب، وأرسل الرسل يدعى فيجيب، ويسأل فيعطى، ويُسْتَنصَرُ فَيَنْصُرُ، يهدى من يشاء برحمته، ويضل من يشاء بعدله، فبمعرفته ومحبته تثلج الصدور، وتمتلىء النفوس بالسعادة والحبور، لا أنس بغير ذكره، ولا سعادة بغير طاعته، الحياة بدون الإيمان به موت، والوجود بغير عبادته عدم، رضاه أمل الآملين، وغاية العاملين، لا نرضى بغيره بدلاً، ولا نبغى عن طاعته حولاً، معرفته ومحبته جنة القلوب، لا نصب فيها ولا لغوب.

اللهم كما وهبتنا الإيمان بك، وهديتنا إلى معرفتك، فسخرنا لطاعتك، وامنن علينا بمحبتك، وأكرمنا بولايتك، وألبسنا ثوب عافيتك، واخلع علينا حلل رضوانك. آمين. . . (١).

براءة واعتذار:

اللهم أنى أبرأ إليك من كفر كل من كفر بك، ومن إلحاد من ألحد فى أسمائك أو صفاتك، ومن شرك كل من أشرك بك فى ربوبيتك أو ألوهيتك.

(١) عقيدة المؤمن ص ٧٤، ٧٥

وأعتـذر إليك من كل استـدلال استدللـت به عليك، ومن كل قيـاس عقلى وضعتـه تدليلاً على وجودك، وأنت موجد كل مـوجود، ومن كل برهان أتيت به على إثبـاتك وإثبات جـلالك وكـمالك، ومن كل دليـل مادى سـقتـه لأثبت به وجودك، لأنك يا ربى أنت الدليل على وجودك والبـرهان على جلالك وكمالك، فكيف يصح الدليل للدليل، والاتيان بالبرهان على البرهان؟

اللهم إننا لم نعـرفك ـ وأنت تعلم ـ بقيـاس، ولا بطلب منا لك والتـماس، لأنك سـبحـانك أكبـر من أن يقاس بالناس، أو يدخل تحت القـياس، أو تـدركه الحواس، وإنما عـرفناك بما فطرت نفوسنا عليـه من الإيمان بك، والافتـقار إليك، والتوكل والاعتماد عليك، فِطَرنا بوجودك ناطقة، وأحوالنا المتبدلة المتغيرة بكمالك شـاهدة، هيهـات هيهـات يا ربنا أن تعـرف بالقيـاس، وأنت ربّ الناس، وملك الناس، وإله الناس، أو تثبت بالدليل، وأنت خالق المستدل والدليل[(١)].

رضى الله عن ابن عبـاس: قيل له: بماذا عرفت ربك؟ فـقال: من طلب دينه بالقيـاس، لم يزل دهره فى التباس، خـارجًا عن المنهاج، طاعنا فى الاعـوجاج، عرفته بما عرف به نفسه، ووصفته بما وصف به نفسه.

ورحم الله شيخًا عارفًا، قـيل له فى ذلك، فقال: عرفت الأشياء بربى، ولم أعرف ربى بالأشياء[(٢)].

سـبـحانـك ربى: أنت الظاهر الذى لا تخـفى، والموجـود الذى قـام به كل الوجود.

والله أعلم.

---

(١) عقيدة المؤمن ص ٨١، ٨٢ بتصرف

(٢) وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية جـ٢ ص١٨

.توحيد الله:

.توحيد الربوبية.

.توحيد الألوهية:

(العبادة. الوسيلة. الشفاعة. البركة.
الولاية. الكرامة)

.توحيد الذات، والأسماء، والصفات

[illegible]

[illegible] رضي الله عن [illegible] قيل له: بماذا عرفت ربك؟ فقال [illegible] بالبراهين، لم يزل نظره في الشاهد، [illegible] عن النهايات، طالبًا [illegible] لربه بما عرّف به نفسه، ووصفه بما وصف به نفسه.

ورحم الله شيخًا عندنا، قيل له في ذلك، فقال: عرفت الأشـ[illegible] [illegible]

ثانيًا: "لا إله إلا الله" تقتضى التوحيد، بعد التخلى عن الشركاء والكفر بالطاغوت، فما هو التوحيد؟

التوحيد: مصدر وحد الشىء، يوحده توحيدًا، إذا أفرده، ونفى عنه التعدد، والتوحيد فى الشرع: نفى الكفء والمثل عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، ونفى الشريك فى ربوبيته وعبادته "عز وجل" قال تعالى فى نفى الكفء: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[1].

وقال فى نفى الشريك فى الربوبية: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾[2].

وقال فى نفى الشريك فى العبادة: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[3].

وقال سبحانه وتعالى أيضًا: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[4].

ومن هنا كان التوحيد ثلاثة أقسام:

(١) توحيد الربوبية

(٢) توحيد الألوهية.

(٣) توحيد الذات والأسماء والصفات والأفعال.

وهذا التقسيم ليس مقصودًا لذاته وإنما هو من باب الإفهام والتعليم فقط. وإلا فالتوحيد لا يقسم، وما لم تكتمل دائرته وجوانبه لا يسمى توحيدًا. فالحصول على ثلثى التوحيد أو أكثر دون الباقى لا يسمى توحيدًا، ولا يسمى صاحبه موحدًا.

وهذا على عكس الشرك، إذ بالوقوع فى جزء منه يسمى شركًا، وصاحبه يسمى مشركًا، وإن كان لا يحكم على صاحبه بالشرك، أو يوصف بأنه مشرك

(١) سورة الإخلاص بكاملها
(٢) سورة يونس الآية: ٣١
(٣) سورة محمد الآية: ١٩
(٤) سورة الأنعام الآية: ١٦٢، ١٦٣

حتى تقام عليه الحجة من قِبَلِ العلماء، أصحاب الاجتهاد، وأهل الحل والعقد، وذلك بإقامة الأدلة، ورد الشبهات، حتى يتبين ويعلم، فإذا أقيمت عليه الحجة، وعاد إلى وقوعه فى الشرك مرة أخرى وكان ذلك عن علم - لا عن جهل - وعن عمد - لا عن خطأ - وعن قصد - لا عن تأويل - وعن حرية - لا عن إكراه - وعن تذكر - لا عن نسيان - وبتعقل - لا عن جنون - فإنه يحكم بعد ذلك عليه بالكفر والردة ، ويقام عليه حد الردة، وتطبق عليه أحكامه، ولا يكون ذلك إلا فى ظل تطبيق شرع الله ، أما ما دامت الشريعة معطلة، ولم يوجد من يقيم الحجة، ولم يعين من قبل الحاكم المسلم جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أو أهل الحسبة فإن هذه الأحكام ترجىء حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

التوحيد وضده الشرك، وهو فى اللغة: الاسم من شركه فى كذا، يشركه، شركا ،شركة، وهو إذا جعل له نصيبا قليلا أو كثيرا فى ذات أو معنى ، بقدر كبير أو صغير فى ذات أو وصف.

والشرك شرعا ضد التوحيد، كالكفر ضد الإيمان. ،يكون فى ربوبية الله تعالى أو أسمائه، وصفاته، كما يكون فى عبادته تعالى إن كان الفاعل عالما ،مصراً عليه كفر بذلك، إذ الشرك فى ربوبية الله تعالى وأسمائه وصفاته تكذيب لله تعالى وكذب عليه عز وجل، والشرك فى عبادته تعالى تأليه لغيره سبحانه، وتأليه غير الله تعالى كفر، وتكذيب لله تعالى فى قوله: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[1].

وفى قوله: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾[2].

وتكذيب الله تعالى كفر، بلا شك[3] ويختلف الشرك مع الكفر فى أن من الشرك ما لا يكون كفرا، وذلك كالشرك الأصغر والشرك الخفى، لخبر الرسول ﷺ فى ذلك وسماعه من بعض أصحابه. ولم يعتبر فاعله كافرا، ولم يحكم بردته، من ذلك قوله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر، يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله تعالى: إذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون من جزاء»[4] وقوله لمن

(١) سورة آل عمران الآية: ١٨
(٢) سورة محمد الآية: ١٩
(٣) انظر عقيدة المؤمن ص١٠٥ بتصرف
(٤) أخرجه أحمد ٢٣٦٨٠، وابن أبى الدنيا ، والبيهقى فى الشعب ٦٣٨١ وغيرهم، وقال الالبانى فى صحيح الجامع (١٥٥) : صحيح.

قال له: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتنى لله ندا؟ قل ما شاء الله وحده»[١] والند: الشرك.

وقوله لأصحابه لما قالوا: قوموا بنا نستغيث برسول ﷺ من هذا المنافق، قال: «إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث بالله»[٢] ومنه قوله ﷺ «من حلف بغير الله فقد أشرك »[٣] وقوله : ﷺ : «يا أيها الناس اتقوا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل ، فقيل له : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: قولوا : اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ، و نستغفرك لما لا نعلمه.[٤]

ولم يحكم ﷺ فى كل هذا بردة فاعله، ولا بتكفيره، ومن أجل هذا قيدنا الكفر فى شرك العبادة بكون فاعله عالما به أنه شرك وأصر عليه عنادا ومكابرة، وإيثاراً للمنافع الدنيوية من مال ، أو جاه، أو سلطان.[٥]

ولعل قائلا يقول: وهل العذر بالجهل فى شرك العبادة فقط؟

فنقول وبالله التوفيق : لا عذر بالجهل فى أصل التوحيد، فمن اعتقد أنه لا إله، أو أنه مع الله إله آخر، أو له ابن وزوجة ، أو أنه لم يخلق هذا الكون، أو أعانه فيه غيره، أو أن معه من يتصرف فى الكون بغير إذنه، أو أنه شبه الله بأحد من خلقه ، أو جعل له من عباده كفؤا وندا، ومثيلا وشبيها، أو قال: إن الله فى صورة إنسان ومثل هذا، فإنه لا عذر فيه بجهل، وإلا لعذر اليهود، والنصارى، والمشركون!!

وأما توحيد العبادة، وصور التوحيد وفروعه فإنه يشتمل على العذر بالجهل فيه، ويندرج تحته عامة المتصوفة، وجهلة المسلمين الذين يقعون فى شرك العبادة[٦] وإن كان المطلوب منهم التعليم والعمل بما أمر الله عز وجل به والحذر من الوقوع

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ٨٧٣، وأحمد ١٨٣٩، والنسائى فى الكبرى ١٠٨٢٥ وغيرهم ، وقال الألبانى فى الصحيحة (١٣٩): صحيح.

(٢) أخرجه أحمد ٢٢٧٥٨ وقال شعيب الأرنؤط: إسناده ضعيف لضعف عبد الله بن لهيعة.

(٣) صحيح تقدم .

(٤) حسن لغيره تقدم.

(٥) عقيدة المؤمن ص ١٠٥ ، ١٠٦ بتصرف

(٦) راجع بحث العذر بالجهل فى كتابنا «شبهات التكفير»

فيما نهى عنه، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(١) وكما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾(٢) فهذا نهى من الله عز وجل عـن الشرك فى عبادته- وهو من الشرك الأكبر ، إلا بعض صوره التى ذكرناها - بعد أن نهى عن الشرك به سبحانه فى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(٣) .

وبعد أن عرفنا هذه المقدمـة حول معنى التوحيد وأقسـامه، والشرك وأنواعه، يحسن بنا أن نتعـرف - بشىء من التفصيل- على التوحيـد، وكيف يكون الشرك فيه،من باب تعليم الأمـة، وإنقاذها من وهدة الضلال، وها هى خطوة على طريق البناء، فاللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك.

---

(١) سورة الكهف الآية: ١١٠

(٢) سورة الزمر الآية: ٦٥، ٦٦

(٣) سورة النساء الآية: ٤٨

توحيد «الربوبية»

معنى «الرب» : إن مادة كلمة الرب فى اللغة (الراء والباء المضعفة) تأتى عنها هذه الاستعمالات

١- رب الولد ، إذا رباه وأصلح من شأنه، ورب الضيعة، إذا تعاهدها وأصح أمرها ورعاها .

٢- رب فلان قومه، وربيت القوم : إذا حكمتهم وسدتهم فانقادوا لك واجتمعوا عليك ، ومنه « فلان يرب الناس » أى يجمعهم. ويسمى مكان الاجتماع «المرب».

٣- رب الدار ورب الإبل: أى صاحبها ومالكها ومنه الحديث «أرب غنم أم رب إبل؟» أى أمالك.

ويلاحظ الترابط بين هذه المعانى ، فالمالك يسوس، ويتعهد ويصلح ويربى ، والمربى له سلطان وسيطرة ونوع ملك.

وبالنسبة للذات الإلهية، فالله على الحقيقة هو مالك كل شىء وهو السيد والحكم وليس لغيره من سيادة ولا حاكمية وهو خَلَقَ وربَّى وأصلح شأن الكون ويرعاه.

وإذا تأملنا القرآن نجد أن القرآن ذكر أن هذه الخصائص كلها للذات الإلهية وإضافتها إلى الغير على سبيل المجاز، ولا تنطق مفردة، فيقال: رب البيت، رب الدار، رب القوم، وهكذا،أما ذكرها مفردة « رب » فهى لا تطلق إلا على الله عز و جل. ولذلك نعرف أن الربوبية أو توحيد الربوبية يستلزم هذه المعانى وجعلها لله وحده، أنه الخالق الرازق المالك المربى الحاكم السيد المتصرف.

قال سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾[1] .

لقد بين سبحانه وتعالى أنه خلق الخلق ، ومالك الملك ،فقال تعالى :

---

(١) سورة الناس الآيات: ١-٣

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[١] .

كما قال : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾[٢] .

وهل هناك خالق مع الله ؟

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[٣] .

وما دام ليس هناك خالق غير الله ، فليس رازق سواه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾[٤]

كما قال سبحانه : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[٥]

خلق ورزق إذاً يأمر ويحكم ، قال تعالى : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾[٦] وحكمه مبنى على علمه ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[٧]

بلى يعلم، فلما علم حكم فقال : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[٨] له السيادة العظمى «فالسيد على الإطلاق هو الله»، وله التصرف المطلق فى كونه سبحانه: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٩] فهذا اعتقادنا فى ربوبية الله عز وجل وهو من التوحيد.

أما نقيض ذلك وعكسه وهو الشرك فى الربوبية كمن يزعم أن له خالقا غير

---

(١) سورة الفاتحة الآية: ٢
(٢) سورة الشعراء الآيات: ٢٣، ٢٤
(٣) سورة فاطر الآية: ٣
(٤) سورة الذاريات الآية: ٥٨
(٥) سورة الذاريات الآية: ٢٢
(٦) سورة الأعراف الآية: ٥٤
(٧) سورة الملك الآية: ١٤
(٨) سورة يوسف الآية: ٤٠
(٩) سورة آل عمران الآيات: ٢٦، ٢٧

الله، أو رازقا سواه، أو مالكا للملك غيره، أو متصرفا فى الكون إلا بإذنه، أو حاكما بغير شرعة الله، أو أن شرعا يصلح الناس ويربيهم غير شريعته، أو دينا غير الدين الذى ارتضى لهم.

والربوبية تقابلها العبودية، والرب هو المعبود، فماذا تعنى هذه الكلمة؟ إن مادة «عبد» فى اللغة هى «العين والباء والدال» يأتى منها: ﴿ **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾[1] أى اتخذتهم عبيدا.

٢- العبادة هى الطاعة مع الخضوع. وقد ورد فى القرآن: ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ** ﴾[2] أى لا تطيعوه.

وقوله تعالى: ﴿ **وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ** ﴾[3] أى خاضعون مطيعون.

٣- المعبد هو المكرم المعظم، قال الشاعر «أرى المال عند الباخلين معبداً».

٤- عبد به: لازمه فلم يفارقه.

٥- ما عبدك عنى: ما حبسك عنى.

ولو أنك تأملت هذه المعانى المختلفة لهذه المادة، فإنك تجد الترابط التام بينها، فلا يحبس إلا من يتعبد بنوع من العبودية، ومن استعبدت له لزمته وعظمته وأطعته، وخضعت له، وتنازلت له عن كثير من حريتى.

فصارت كلمة المعبود تتضمن معانى: المالك - المطاع - المعظم- المستمسك به. فعندما قلت: لا معبود إلا الله أى لا مالك لى ولغيرى، ولا مطاع ولا معظم ومستمسك به إلا الله.

وإذا تأملنا القرآن وجدنا فعلا أن من خصائص الذات الالهية هذه المعانى ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ● مَلِكِ النَّاسِ ● إِلَٰهِ النَّاسِ** ﴾[4] ﴿ **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[5] ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ** ﴾[6] وطاعة الرسول هى طاعة لله على الحقيقة. ﴿ **مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾[7] كما قال

(١) سورة الشعراء الآية: ٢٢
(٢) سورة يس الآية: ٦٠
(٣) سورة المؤمنون الآية: ٤٧
(٤) سورة الناس الآيات: ١-٣
(٥) سورة آل عمران الآية: ١٨٩
(٦) سورة آل عمران الآية: ٣٢
(٧) سورة النساء الآية: ٨٠

الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾[١] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[٢] ويلاحظ أن الطاعة والعبادة كلمتان مترادفتان، بينهما عموم وخصوص، فالعموم بمعنى واحد، وأما الخصوص، فالعبادة لا تكون إلا لله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٣] وأما الطاعة فإنها كلمة مشتركة، فنقول: طاعة الله، وطاعة الرسول، وطاعة أولى الأمر، وطاعة المعلم، وهكذا، ومنه قوله تعالى: - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[٤] والذى يهمنا هنا أن توحيد الربوبية لابد من اكتماله بالتحلى بالعبودية، ولكن فريقا من الناس اعتقدوا بالربوبية، وأبوا إخلاص العبودية، فلم ينفعهم إيمانهم ولا اعتقادهم، فهم على الرغم من اعترافهم كما حكاه القرآن، إلا إنهم أشركوا مع الله آلهة أخرى فى عبادته، وقالوا على حد زعمهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾[٥] لقد اعترف المشركون بجوانب كثيرة من الربوبية فقط، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾[٦] وقال سبحانه: ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) ﴾[٧] ويقول جل جلاله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[٨] ويقول عز من قائل: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾[٩] وهكذا توالت اعترافاتهم بربوبية الله عز وجل، واعتقادهم به

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٥
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٠٢
(٣) سورة الفاتحة الآية: ٤
(٤) سورة النساء الآية: ٥٩
(٥) سورة الزمر الآية: ٣
(٦) سورة يونس الآية: ٣١
(٧) سورة المؤمنون الآيات: ٨٤ - ٨٩
(٨) الزخرف الآية: ٨٧
(٩) سورة الزخرف الآية: ٩

فيما حكاه القرآن عنهم ، ولكنهم لما طلب منهم إخلاص التوحيد وإفراد الله بالعبادة والحكم، أبوا ذلك وأنكروه ، فلم ينفعهم إيمانهم وظلوا على الشرك إلا من هداه الله للإسلام وشرح صدره له، ونور قلبه بهذا الحق. ولذلك لا يصلح التوحيد إلا إذا اكتملت جوانبه، فلا توحيد للربوبية إذا لم يتبعه توحيد العبودية ، فكلاهما أمر لا يتجزأ، وعروة لا تنفصم ولا تقسم.

واستمع إلى هذا الفيض القرآني والبيان الرحماني، من الله عز وجل، وهو يقول : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1].

(١) سورة النمل الآيات: ٥٩-٦٤

توحيد «الألوهية»

«إله» : مادة كلمة الإله فى اللغة (الألف، واللام ، والهاء) جاءت من هذه المادة كما يلى :-

ألهت إلى فلان: إذا سكنت إليه واطمأننت، إله الرجل يأله : إذا استجار، أله الرجل إلى الرجل: اتجه إليه لشدة شوقه، أله الفصيل بأمه ، إذا ولع بها أله إلاهة وألوهة: عبد، لاه يليه ليها: إذا احتجب.

والقاعدة فى اللغة العربية أن الكلمات ذات المادة الواحدة يكون فيما بينها ترابط، ولو أننا تأملنا مدلولات المادة السابقة. فإننا نجد الترابط واضحا فيما بينها، فأنا لا أستجير إلا بمن أسكن إليه وأحبه، وأعتبره أقوى منى، بحيث يقدر على إجارتى، وعلى هذا ، فالاله يسكنُ إليه ويُطمأن، ويُستَجَارُ به ، ويُستَعَاذُ به ، ويُحَبُ ويُشْتَاقُ إليه ويُعبَدُ وهو محتجب. فإذن نحن عندما قلنا: لا إله إلا الله دخل فى ذلك ضمنا معان معينة ، فكأننى قلت: لا مُطمأن إليه، ولا مُستَجار به، ولا محبوب ، ولا معبود إلا الله.(١)

وفعلا فإن القرآن علمنا أن هذه المعانى كلها من خصائص الذات الإلهية، ومن واجبات العبودية، ولذلك فإنه يصح لنا أن نسمى هذا «توحيد الألوهية» من جانب، «وتوحيد العبودية» من جانب آخر ، وبما أن هذه المعانى التى ذكرت، إنما هى تفصيل واشتقاق لمعانى العبودية ، والعبادة ، فما هى العبادة إذن؟

لقد ذكر لها سلفنا الصالح تعريفا مقتبسا من القرآن يبين معناها، ويصحح مفهومها فقالوا: العبادة هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. ولذلك فهى لا تقف عند حد أصول العبادات فقط، أو أعمال الجوارح فحسب، لا ، ولكنها تشمل :-

الصلاة، والزكاة والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر،

---

(١) الإسلام للشيخ سعيد حوى ص ١٨، ١٩ بتصرف.

والجهـاد للكفار والمنافقين، والإحسـان إلى الجار واليتيم والمسكين، والمملوك من الآدميين والبهـائم. وكـذلك حب الله ورسـوله، وخشيـة الله، والإنابة إليـه، وإخلاص الدين له ، والصبـر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقـضائه، والتوكل عليه، والرجاء في رحمته ، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هى من العبادات لله تعالى ، فهى تشـمل الحياة وتتعـداها إلى الموت ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾(١) فالعبادة لله جـامعة لكل ما يحبه الله ويرضاه ، فيـخرج منها ما يبغضه الله ويسخطه كالشرك والمعصية. والعبادة لله هى الغاية المحبوبة له والمرضية كذلك التى خلق الخلق لـها ، كما قـال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾(٢) هكذا بأداة النفى والاستثناء ليفيد الحصر والقصر. وبها أرسل جميع الرسل إلى أقوامهم ، فما من نبى إلا وقد دعا إليها قائلا: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾(٣) وأجمل القرآن ذلك بقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾(٤) كما قال سـبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾(٥) وقد أمرنا ربنا بالعبادة فى قوله: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾(٦) كما أمر ربنا بها الرسل فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾(٧) وجعل ذلك لازمـا لرسله إلى الموت ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾(٨) وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعـالى: ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾(٩) وذم المستكبرين عنها بقوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ

---

(١) سورة الأنعام الآيات: ١٦٢ ، ١٦٣
(٢) سورة الذاريات الآية: ٥٦
(٣) سورة الأعراف الآيات: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥ (على لسان نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم)
(٤) سورة النحل الآية: ٣٦
(٥) سورة الأنبياء الآية: ٢٥
(٦) سورة الأنبياء الآية: ٩٢
(٧) سورة المؤمنون الآية: ٥١
(٨) سورة الحجر الآية: ٩٩
(٩) سورة الأنبياء الآية: ١٩

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (١) ونعت صفوة خلقه بالعبودية له - لأنها شرف - فقال تعالى: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ (٢) وقال: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (٣) كما حكاه الله عز وجل عن كل خلقه: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ (٤) فالدين كله داخل فى العبادة، وقد ثبت فى الصحيح فى حديث جبريل عليه السلام - فى آخره - قال: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» (٥) فجعل هذا كله من الدين.

والدين يتضمن معنى الخضوع والذل، يقال دنته فدان، أى أذللته فذل، ويقال: ندين الله ، وندين لله ، أى نعبد الله ونطيعه ونخضع له ، فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له. ولذا فشرطا العبادة: الذل- الذى هو أصل معناها - والحب هو المعنى المتمم لها، فهى تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له. . . (٦)

فإن آخر مراتب الحب هو التتيم، وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه، ثم الغرام وهو الحب اللازم للقلب، ثم العشق، وآخرها التتيم، يقال «تيم الله» أى عبد الله، فالمتيم المعبد لمحبوبه.

ومن خضع لإنسان مع بغضه له فلا يكون عابدا له، ولو أحب شيئا ولم يخضع له لم يكن عابدا له. كما قد يحب ولده وصديقه، ولهذا لا يكفى أحدهما فى عبادة الله، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شىء، وأن يكون الله عنده أعظم من كل شىء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله، فكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة، وما عظم بغير أمر الله كان تعظيما باطلا، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

---

(١) سورة غافر الآية: ٦٠

(٢) سورة الإنسان الآية: ٦

(٣) سورة الفرقان الآية: ٦٣

(٤) سورة مريم الآية: ٩٣

(٥) متفق عليه (البخارى ٥٠ ، ومسلم ٩، ١٠)

(٦) العبودية لابن تيمية ص٤-٦ بتصرف

﴿ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾[١] فجنس المحبة يكون لله ورسوله، كالطاعة تكون لله ورسوله، والإرضاء لله ورسوله[٢] ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[٣] فالتوحيد أن يكون أكبر الحب لله ، والشرك تقديم محبة الغير على الله ، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ فهذا شرك: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[٤] وهذا توحيد.

ولذلك فحب الله عز وجل أولا ، ثم حب النبى ﷺ وإخوانه من الأنبياء، ثم حب الصحابة رضى الله عنهم بدءاً بأبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وبقية العشرة المبشرين بالجنة، ثم آل البيت ثم أهل بدر، وأهل بيعة الرضوان والمهاجرين، ثم الأنصار، ثم عموم الصحابة، ومن تبعهم بإحسان، ثم يحب الرجل والده وأولاده وإخوانه وزوجه وعشيرته وماله وتجارته ومسكنه ، وليست هذه كتلك، ولا يجوز تقديم هذه على تلك.

هذا، وللعبادة ركنان أساسيان، لابد منهما:

أحدهما: إخلاص النية. وذلك بأن لا يعبد إلا الله، ولا يقصد إلا وجهه ولا يبتغى إلا مرضاته، ولا يريد بعمله أحداً سواه، كما قال تعالى: ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾[٥] وكما قال سبحانه: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾[٦] وكقوله ﷺ فى الحديث القدسى- فيما يرويه عن ربه عز وجل «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وتركته وشركه» - وفى رواية. وشريكه ، وفى رواية: وإنما هو للذى أشرك[٧]

وقوله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى . . الحديث»[٨]

(١) سورة التوبة الآية: ٢٤
(٢) رسالة العبودية لابن تيمية ص٤-٦ بتصرف
(٣) سورة التوبة الآية: ٦٢
(٤) سورة البقرة الآية: ١٦٥
(٥) سورة الزمر الآيات: ٢، ٣
(٦) سورة البينة الآية: ٥
(٧) أخرجه مسلم ٢٩٨٥
(٨) متفق عليه (البخارى ١، ومسلم ١٩٠٧).

ثانيهما: أن يعبده بما أمر وشرع، لا بغير ذلك من الأهواء والبدع، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢) وقوله ﷺ: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد» (٣) أى باطل.

فلا غنى لأحدهما عن الآخر، ولا ينفع أحدهما بدون الآخر ولا يقبل، ولذا جمع الله بينهما فى كثير من آى القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ (أى صحيحا)
﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (أى لابد من النية الخالصة).

كما قال تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (٤)

وقد سئل الفضيل بن عياض عن أحسن العمل ؟ فقال: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا على: ما أخلصه وأصوبه؟ قال : العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة.

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: اللهم اجعل عملى كله صالحا، واجعله لوجهك خالصا، ولا تجعل لأحد فيه شيئا(٥)

وخلاصة القول : أنه لا بد للعبادة من ركنين أساسيين:

(١) نية خالصة. (٢) صورة عمل مشروعة.

فلابد أن يبتغى بنيته وجه الله وحده، وأن يكون عمله موافقا للكتاب والسنة. ولا تجزىء واحدة عن الأخرى، فلا تسعفه النية الخالصة وحدها ويخطىء فى العمل. ولا يكفيه عمل صحيح والنية قد شابتها شائبة شك أو شرك أو رياء، كما

(١) سورة الكهف الآية: ١١٠
(٢) سورة البقرة الآية: ١١٢
(٣) متفق عليه (البخارى ٢٦٩٧، ومسلم ١٧١٨).
(٤) سورة الملك الآية: ٢
(٥) اخرجه أحمد فى الزهد، وأبو الشيخ الأصبهانى فى طبقات المحدثين بأصبهان، وهو منقطع بين الحسن البصري وعمر بن الخطاب.

قال تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (١) على نحو ما قد وضحناه.

نوعا العبادة: للعبادة نوعان: (١) قلبية (٢) بدنية. أو ظاهرة وباطنة.

(١) فعبادة القلب، أو العبادة الباطنة تتمثل فى الإيمان، والإنابة، والاستسلام، والحب، والرجاء، والخوف، والرغبة والرهبة، والتوكل، والخشية.

والمراد بعبادة القلب: العبادات التى يقوم بها قلب العبد، دون دخل للجوارح فيها، وهى من جنس العبادات، بل أصلها، ولكن يغفل الكثير عنها، ويظن أن ذلك لا دخل له بالعبادة، فيوجهها لغير الله، فيقع فى لون من ألوان الشرك.

وعلى رأس هذه العبادات القلبية:

١) الإيمان: وهو تصديق القلب بوجود الله تعالى وربوبيته لكل شىء، وألوهيته للأولين والآخرين، مع التصديق بكل ما أمر الله تعالى بالإيمان به، واعتقاده من الملائكة والكتب، والرسل، والمعاد، والجزاء، والنعيم، والشقاء، والقدر والقضاء، لأمر الله تعالى بذلك، فى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾ (٢) وهذا الإيمان محله القلب، كما قال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾(٣) كما قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ (٤)

وهذا الإيمان الذى محله القلب هو الركيزة التى يرتكز عليها ما بعده، فهو أساس الدين، ورأس الدين، ورأس العبادات.

٢) المحبة: وهى حب الله تعالى وحب كل من يحب من عباده، وما يحب من عقائد عباده، وأقوالهم وأعمالهم، وذلك لقول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾(٥)

---

(١) سورة الملك الآية: ٢

(٢) سورة النساء الآية: ١٣٦

(٣) سورة الحجرات الآية: ٧

(٤) سورة المجادلة الآية: ٢٢

(٥) سورة البقرة الآية: ١٦٥

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(١)] وقول الرسول ﷺ « اللهم ارزقني حبك وحب من ينفعني حبه عندك، اللهم ارزقني مما أحب فاجعله قوة فيما تحب، وما زويت عني فاجعله فراغا لي فيما تحب» [(٢)] وقوله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يقذف به في النار»[(٣)]

وعليه فمن أحب الله تعالى ، وأحب من يحب من عباده ، وما يحب من اعتقاداتهم وأقوالهم وأفعالهم، ولم يشرك في هذا الحب أحداً فقد وحد الله تعالى في العبادة، ومن أحب غير الله تعالى حبا لم يأذن فيه الله تعالى ، ولم يشرعه لعباده بل نهى عنه ، أو حَرَّمَه كحب ما يُعبد من دون الله تعالى، وحُب الرؤساء، وحب الدنيا حبا يجعل المحب على طاعة المحبوب في معصية الله تعالى ، ومعصية رسول الله ﷺ ، وعلى تعظيمه وإجلاله ، وإكباره، والذلة له والخضوع، والخنوع ، فمن أحب بهذا الحب غير الله تعالى فقد أشرك في عبادة الله تعالى التي هي حب الله والحب لأجل الله تعالى ....[(٤)]

٣) الخشية والخوف: إن خشية الله تعالى والخوف منه عز وجل مما تعبد الله به عباده المؤمنين، فقد أمر بخشيته ، ونهى عن خشية غيره ، في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾[(٥)] كما أمر بالخوف منه ، ونهى عن خوف غيره في قوله: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[(٦)] وأخبر عن جزاء من يخشونه بالغيب، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٣١

(٢) أخرجه الترمذي ٣٤٩١، وابن أبي شيبة في المصنف ٢٩٥٩٢، والطبراني في الدعاء ١٤٠٣، وقال الترمذي: حسن غريب. وقال الألباني في ضعيف الجامع (١١٧٢) : ضعيف.

(٣) متفق عليه كما تقدم

(٤) عقيدة المؤمن ص ١١٠، ١١٢- بتصرف

(٥) سورة المائدة الآية: ٤٤

(٦) سورة آل عمران الآية: ١٧٥

مغفرة وأجر كبير ﴾(١) فالخشية والخوف كلاهما عبادة قلبية يجب أن يفرد بهما الله عز وجل، وتختص به ، فمن خاف غير الله تعالى، أو خشيه معظما له ، مستكينا، يذل له ويطيعه في معصية الله تعالى، وهو غير مُكْرَه له على تلك الطاعة فقد أشرك بالله في هذه العبادة.

٤) الرجاء والرغبة: الرجاء هو الأمل في الخير، وترقب حصوله. وانتظاره ممن يملكه ويقدر على تحقيقه لمن أمله فيه ورجاه منه ، والرغبة: حب الخير وإرادته، والطمع في تحصيله ممن يملكه، ويقدر على إعطائه وهبته، فهي مثل الرجاء، وكلاهما مما تعبد الله تعالى به المؤمنين حيث قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾(٣) وقال ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾(٤) وأمر رسول الله ﷺ بالرغبة إليه تعالى في قوله: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ⑦ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾(٥) ولما كان الخير كله بيد الله تعالى وليس بيد أحد سواه ، وكان الله وحده القادر على إعطائه من يشاء من عباده، كان رجاء الخير ورغبته من غير الله تعالى ضلالا وباطلا، وكان فاعله مشركا في هذه العبادة القلبية غير ربه عز وجل.

٥) الإنابة: وهي الإقبال على الله تعالى، والتوبة إليه . والإنابة عبادة أمر الله تعالى بها في قوله ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾(٦) وقوله ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾(٧) وأخبر أنه يهدي إليه من ينيب ، وأمر باتباع سبيل من أناب إليه كما قال: ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾(٨) ولما لم يكن في الخلق كله من يعطي أو يمنع ، أو يضر أو ينفع إلا بإذن الله ولا من يسعد أو يشقى إلا الله سبحانه وتعالى ، كان من غير المعقول ولا المقبول أن ينيب المرء إلى

(١) سورة الملك الآية: ١٢
(٢) سورة الكهف الآية: ١١٠
(٣) سورة الأحزاب الآية: ٢١
(٤) سورة الأنبياء الآية: ٩٠
(٥) سورة الشرح الآيات: ٧ ، ٨
(٦) سورة الشورى الآية: ١٣
(٧) سورة الزمر الآية: ٥٤
(٨) سورة لقمان الآية: ١٥

غيـر الله رغبة أو رهبـة ، خوفا أو طمعـا ، وكانت الإنابة إلى غيـر الله عز وجل باطلا وشركا، وكان من أناب إلى غير الله تعالى تائبا إليه - أى إلى ذلك الغير - راجيا الخير منه، خائفا من سخطه أو عقابه فقد أشرك.

٦) التوكل : وهو الاستسلام لله تعالى، وتفـويض الأمر إليه، اعتمادا ووثوقا به، أمر الله تعالى به ، فى غير آية من كتـابه ، وجعله آية الإيمان وعلامته، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[١] وقال : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٢] ووعد بالكفاية للمتوكلين عليه فى قوله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[٣] وخص التوكل به فقال : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[٤]

فالتوكل إذا عـبادة قلبية وهو سكون القلب إلى كفـاية الله ، وتفويض الأمور إلى الله تعالى لكفايته والاعتماد عليه تعالى لعلمه وقدرته.

ولما كـان لا كافى إلا الله ، ولا قـادر على كل شىء سواه ، ولا عـالم بكل شىء غيره كان التوكل على غير الله تعـالى باطلا وشركا، وكان المتوكل على غير الله تعالى سكونا ، ووثوقا واعتمادا، مشركا[٥]

٢) وعبـادة البدن، أو العـبادة الظاهرة للـجوارح تتمـثل فى القول والـفعل، فالقول يتمثل فى الدعاء ، والاستـعانة والاستغاثة ، والحلف، وطلب المدد، وذكر الله عز وجل ، والفعل يتمثل فى الصـلاة والركوع والسجود والطواف، والزكاة، والنسك ، والنذور، والتقبيل ، والحلق ، والهدى ، وسـائر أنواع العبادات البدنية والمالية.

وهذه العبادات لا يجوز أن تكون إلا لله عز وجل ، وفق مـا شرعه سبحانه، ونبيه ﷺ فى سنـته . فلا يجوز أن تكون لملك مقـرب ولا نبى مرسل، ولا ولى صالح. إذ لا يعـبد إلا الله عـز وجل ، كما قـال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٦]

(١) سورة الأحزاب الآية: ٢١
(٢) سورة المائدة الآية: ٢٣
(٣) سورة الطلاق الآية: ٣
(٤) سورة إبراهيم الآية: ١٢
(٥) عقيدة المؤمن ص ١١٣ - ١١٤ بتصرف
(٦) سورة الفاتحة الآية: ٥

وقال سبحانه: ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾(١)

ونوضح القول فى هذه العبادات بأدلتها من القرآن والسنة - مختصرا - فنقول- وبالله التوفيق:

(أ) العبادات القولية: ومنها

(١) « الدعاء » وهو سؤال الرغائب، وطلب الحاجات فى جلب نفع أو دفع ضر ممن يملك ويقدر. والدعاء من أعظم مظاهر العبادة ، وأوضح صورة من صورها حتى قيل فيه «الدعاء مخ العبادة» وكما قال ﷺ «الدعاء هو العبادة»(٢) وكما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾(٣)

فعبر القرآن الكريم عن الدعاء بأنه هو العبادة، وحذر من الاستكبار عنه ، ولذلك كانت العبادة بدونه ليست شيئا، أولا تستقيم ولا تتم إلا به ، وهو كذلك إذ فى الدعاء الذل للمدعو، والافتقار إليه والاستكانة له وتعظيمه ، واستشعار غناه ، وإحاطة علمه بالداعي، وقدرته على إعطائه ما سأله فيه مع تمجيده، والتوسل إليه بأسمائه وصفاته إلى غير ذلك من مظاهر العبودية التى لا توجد واضحة بهذه الصورة إلا فى الدعاء، وحال السجود ، ولذا كان الدعاء فى السجود مستجابا، لاجتماع مظهرين عظيمين من مظاهر العبادة فيه.

وهذه العبادة لا تجوز إلا لله وحده . فبما أنه عبادة فلا يكون إلا لله.

وفى الدعاء جلب نفع ودفع ضر، وجلب خير ، ودفع شر ، والنافع والضار، هو الله عز وجل، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(٤)

---

(١) سورة الزمر الآية: ٦٦

(٢) أخرجه أحمد ١٨٣٧٨ والترمذى ٣٢٤٧ وأبو داود ١٤٧٩ وغيرهم. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الألباني فى صحيح الجامع (٣٤٠٧): صحيح.

(٣) سورة غافر الآية: ٦٠

(٤) سورة الزمر الآية: ٣٨

كما بين سبحانه وتعالى عجز المخلوقات عن استجابة الدعاء أو سماعه، فقال عز من قائل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(١)

كما قال جل وعلا: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾(٢)

فالذى يملك تحقيق الرغائب، وقضاء الحوائج، واستجابة الدعوات، الذى يعلم حال السائل الداعى، يسمع كلامه ويرى مكانه، ولا يخفى عليه شىء فى أمره ، لذا لم يحتج الدعاء رفع الأصوات والاستعانة بالأموات ، أو اللجوء إلى وساطة وشفاعات ، أو كرامة ولى أو بركات ، وإنما كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾(٣)

٢) الاستعانة: هى طلب المعونة ، والمعونة على قضاء حاجة ، أو خروج من محنة وهى نوع من الدعاء والاستغاثة ، فلا تطلب من عاجز لا يقدر على الإعانة، ولا من ميت لا يسمع المستعين به ، ولا يرى مكانه ، ولا يعرف حاجته وحاله ، ولامن غائب بعيد حال البعد دون سماع الدعاء ، ورؤية الداعى ، وإعانته على ما هو فى حاجة إلى المعونة فيه، كحال من ينادى على شخص قريب منه من أجل أن يعينه فلا بأس ، على أنه سبب من الأسباب ، وليس هذا كالذى ينادى على ميت أو شخص بعيد .

وقد أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الاستعانة به دون سواه ، بعد أمره لهم بعبادته، فالعبادة أولا والاستعانة ثانية ، وبالعبادة يأتى العون قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(٤)

وتقديم المفعول على الفعل يفيد الاختصاص ، فلا عبادة إلا لله ولا استعانة

(١) سورة الأعراف الآية: ١٩٤
(٢) سورة فاطر الآية: ١٣، ١٤
(٣) سورة البقرة الآية: ١٨٦
(٤) سورة الفاتحة الآية : ٥

إلا بالله، وهذا ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم - فى حديث عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما - « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » . (١)

ومن هنا كان طلب المعونة ممن لايقدر عليها من الأحياء لعجزهم أو غيبتهم كطلبها من الأموات لموتهم ، وانقطاعهم عن الحياة ، كان ضلالا وباطلا، وكان فاعله مشركا بالله تعالى فى هذه العبادات من عبادات الله التى لا تنبغى لأحد سواه .

٣) الاستغاثة : هى طلب الغوث والغياث ، وهو ما يغاث به المضطر ، ويعان به من طعام ، أو شراب ، أونصر أو تأييد ، أو خلاص من شدة ، أو إنقاذ من محنة ، وهى - أى الاستغاثة - من جنس الدعاء ، فمن لا يُدْعَى لفقره وعدم قدرته وجهله بحال الداعى ، وعدم سماع دعائه - وعدم معرفة مكانه وحاله ، لايستغاث به كذلك ، قال تعالى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢)

كما قال سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ (٣)

ومن هنا كان من استغاث بمن لا يقدر على إغاثته ممن لايسمع كلامه، ولا يرى مكانه ، ولا يعرف حاله من حى غائب بعيد ، لا يرى المستغيث ، ولا يسمع استغاثته ، أو ميت انقطع عمله من الدنيا ، سواء كان نبيا من الأنبياء، أو صالحا من الصالحين ، فقد أشرك بعبادة الاستغاثة غير ربه تعالى .

وليعلم المؤمن هنا أن سؤال الحى من الناس واستغاثته - أى طلب الغوث منه -

(١) أخرجه أحمد ٢٦٦٩ ، والترمذي ٢٥١٦ ، وأبو يعلى ٢٥٥٦ وغيرهم وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الألباني في صحيح الجامع (٧٩٥٧): صحيح.

(٢) سورة النمل الآية: ٦٢

(٣) سورة الأحقاف الآية: ٥

إذا كان قادرا على العطاء والغوث ، وكان قريبا من الداعى المستغيث يسمع كلامه ويرى مكانه ، قد أذن الله فيه ، وأباحه لعباده ولم يجعله عبادة تخصه ، يحرم إشراك غيره فيها ، وهذا معلوم من الدين بالضرورة .

٤) وكذلك « المدد » وهو طلب العطاء ولا يملكه إلا الله ، فلا يكون من ميت أو بعيد لا يسمع ولا يجيب ، وبما أن العطاء لا يملكه إلا الله ، فلا يكون طلب المدد إلا منه سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[١]

فيجب أن نقول: مدد ياالله ، مدد يارب ، ولكن يأبى جهلة المسلمين ، وعامة الصوفية ، إلا أن يقولوا : مدد يا رسول الله ، مدد يا آل البيت ، مدد يا أولياء الله ، وبعد الإجمال يأتى الذكر بالتفصيل أو بالأسماء . وهذا منهم خلط وشرك. فلا يطلب المدد إلا من الله .

٥) تعظيم الله بالحلف به عز وجل : إن تعظيم الله عز وجل بالحلف به ، وإجلاله تبارك وتعالى عبادة تعبد الله بها المؤمنون من عباده ، فلذلك كان الحلف به سبحانه ، كما قال ﷺ ، «من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت»[٢] ولا يجوز الحلف بغير الله سبحانه وتعالى ، لا بنبى ولا ولى ولا والدين، ولا الأمانة، ولا شيء من المخلوقات ، وذلك لقول النبى ﷺ : «ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، ومن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»[٣] ومثل هذا الحلف من الشرك، كما قال ﷺ: « من حلف بغير الله فقد أشرك » - وفى لفظ - « فقد كفر»[٤] وقال « من حلف فقال فى حلفه واللات والعزى ، فليقل : لا إله إلا الله» [٥]ولا يجوز لإنسان أن يقول : أقسم الله عز وجل بالليل والضحى والشمس والفجر والبلد ، وأمثال هذا من المخلوقات، كما أقسم بالنبى ﷺ فقال:

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[٦]

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٩
(٢) متفق عليه (البخارى ٢٦٧٩، ومسلم ١٦٤٦)
(٣) متفق عليه (البخارى ٦٦٤٦، ومسلم ١٦٤٦).
(٤) صحيح تقدم.
(٥) متفق عليه (البخارى ٤٨٦٠، ومسلم ١٦٤٧).
(٦) سورة الحجر الآية: ٧٢

فلماذا لا نقسم نحن بالنبى وبغيره مما أقسم الله به ، ونقيس عليه أمثاله ؟

فنقول : إن الله عز وجل يقسم بما شاء من مخلوقاته ، وكيفما شاء سبحانه، لبيان عظمة القسم والحكمة التى أودعها الله فيه أما نحن فلا نقسم إلا بما شرع لنا، ولا نقسم إلا بالله، فى مظانه ، ولأسبابه بدون التعرض لكثرة الحلف، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ ﴾[١]

فإذا حلف الإنسان بغير الله ـ فهو من قبيل الشرك فى الألفاظ ـ فعليه أن يقول : لا إله إلا الله ، كما يقول : « اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك شيئا أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه » [٢]

ومثله كل لفظ يخطىء الإنسان فيه ، مما يوقعه فى الشرك الأصغر ، كأن يقول : اعتمدت على الله وعليك ، وتوكلت على الله وعليك، وهذا من بركات الله وبركاتك، ماشاء الله وشئت ، وليس لى إلا الله وأنت، وأمثال هذا من الشرك فى الألفاظ عليه أن يكفر عن خطئه هذا بقوله : « لا إله إلا الله » وتجديداً للإيمان ، وفى ذات الوقت يصوب اللفظ ، وفق ما جاء فى دين الله وسنة رسول ﷺ ، فيقول : اعتمدت على الله ثم عليك ، وما شاء الله ثم شئت . . وهكذا.

ومن الشرك الأصغر « التسمى بأسماء الله تعالى ، أو بما لا ينبغى إلا لله.

لما روى أبو داود عن أبى شريح أنه كان يُكَنَّى أبا الحَكَم ، فقال له النبى ﷺ: إن الله هو الحَكَمُ وإليه الحُكْمُ ، ثم كَنِيَ بولده « شريح » أكبر أولاده[٣].

وفى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال « إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى شاهنشاه أى ملك الملوك ، ولا ملك إلا الله[٤].

وفى رواية أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه[٥]، ومنه أيضًا : أن يسمى

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٢٤

(٢) صحيح. تقدم.

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ٨١١، والنسائى ٥٣٨٧، وأبو داود ٤٩٥٥ وغيرهم، وقال الالبانى فى تعليقه على المشكاة: صحيح.

(٤) متفق عليه (البخارى ٦٢٠٦، ومسلم ٢١٤٣).

(٥) أخرجه مسلم ٢١٤٣ .

الإنسان باسم معبد لغير الله، كعبد الكعبة ، أو عبد النبى، أو عبد الحسين، أو عبد المسيح، ونحو ذلك، فقد نقل ابن حزم الإجماع على تحريم التسمية بذلك، باستثناء « عبد المطلب» .

ومن ذلك : سب الدهر عند نزول الشدائد والنكبات بالناس ، فإن سب الدهر حينئذ يكون نوعا من شكوى الله تعالى أو السخط عليه، فإنه هو الذى يدبر الأمر، ويقلب الليل، النهار، وهو الفاعل لكل ما فى الكون من أحداث (١).

ولهذا جاء فى الحديث الصحيح: قال الله تعالى: «يؤذينى ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار»(٢).

وإن الدقة فى هذا الدين هى التى جعلت ابن عباس- رضى الله عنهما- يقول: الشرك أخفى فى الأمة من دبيب النملة السوداء، على الصخرة الملساء، فى الليلة الظلماء ، ومثاله أن يقول الرجل: لولا كلب فلان لسرق الدار، ولكن ليقول: لولا أن الله سخر الكلب لسرق الدار. ! ! فإذا كانت الدقة إلى هذا الحد، وتلك والدرجة ، فكيف يجوز لإنسان أن يطلق لنفسه العنان فى أن يقول ما يشاء ، ويحلف بمن شاء ، ويدعو من يشاء، ويستغيث بمن شاء؟!!

ألا إن هذا الدين مرتهن بإخلاص النية، وصحة العمل ، فلا يغن أحدهما عن الآخر، ولذلك فالذى يذكر الله عز وجل لا بد أن يذكره وفق ما شرع له، وبين نبيه ﷺ، لا بمكاء ولا تصدية، أو طبل وزمر، أو الحاد فى أسماء الله، أو ذكر اسم الله مفردا، أو تغنج وتغنى ، وتمايع وتمايل ، فليس هذا من ذكر الله فى شىء، ولا من العبادة فى شىء، فكل عبادة مرتهنة بما ذكرناه من أركان وشروط.

ب) العبادات الفعلية، ومنها:

- أصول العبادات «الصلاة- الزكاة- الصوم - الحج» وحتى تكون هذه العبادات لله لابد فيها من إخلاص النية وصحة العمل، مع كمال الحب وتمام الذل، كما وضحناه.

---

(١) حقيقة التوحيد، د/ القرضاوى ص٧٧ بتصرف

(٢) متفق عليه (البخارى ٤٨٢٦، ومسلم ٢٢٤٦).

- ويندرج تحت الصلاة بعض أركانها «كالركوع والسجود»، لابد أن يكون ذلك لله وحده، فلا ركوع لعظيم، ولا سجود على سبيل التحية والتكريم، فضلا عن العبادة والتعظيم، إنما يكون ذلك لله وحده ، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(١)

فلا سجود لنبى، ولا ولى ، ولا لحاكم، أو زوج، أو والدين ، وإن كان ذلك يجوز فى شرائع سابقة، فقد نسخ ذلك فى شريعة الإسلام الخاتمة.

ولذلك فالذى يسجد على أعتاب الأولياء، والحكام والعظماء وغيرهم ، فقد أشرك بالله تعالى. ومن هنا كان الركوع وهو الانحناء، والسجود وهو وضع الوجه على الأرض عبادة لا تنبغى لأحد مهما كان شأنه إلا الله تعالى ، فمن ركع لأحد أو سجد له ، معظما إياه، أو طامعا فيه، أو خائفا منه، وليس بمكره على ذلك فقد أشرك بربه، وعبد مع الله غيره وكان فعله شركا أكبر.

- ومما يأخذ حكم الصلاة «الطواف» لأنه عبادة تضاهى الصلاة، ويأخذ حكمها فى كثير من الحيثيات ، ولذلك قال ﷺ : «الطواف صلاة، إلا أن الله أحل فيه الكلام، فمن تكلم فلا يتكلم إلا بخير»(٢).

فالطواف عبادة شرعها الله تعالى لعبادة ، وأمرهم بها ، وقصرها على بيته العتيق، فى قوله تعالى: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾(٣)

وعليه، فمن طاف ببيت غير بيت الله من قبر أو ضريح، أو مشهد، أو صنم، أو بيت أبيض أو أسود، أو غير ذلك، معظما لما يطوف، متقربا إليه، أو به إلى غيره، حتى ولو إلى الله تعالى، فقد ابتدع وأشرك، وطوافه ذلك شرك أكبر وبدعة وضلالة من أشنع البدع وأقبحها، لما فيها من التشريع، وهو حق الله تعالى وحده دون سواه.

فالطواف بالكعبة فقط، والتقبيل للحجر الاسود فقط، عبادة شرعها الله على

(١) سورة الحج الآية: ٧٧

(٢) أخرجه الترمذى ٩٦٠، والدرامى ٨٤٧، وابن خزيمة فى صحيحه ٢٧٣٩، وقال الألباني فى صحيح الجامع (٣٩٥٥): صحيح.

(٣) سورة الحج الآية: ٢٩

لسان رسول الله ﷺ وبفعله، فلم يشرع له وللأمة تقبيل حجر آخر، ولا ركن ولا جدار، ولا قبر ولا ضريح ولا تابوت، وعليه فمن قَبَّل عتبة، أو جدارا، أو بابا، أو حلقة فى باب، أو قبرا، أو مشهدا قائما من المشاهد، فقد ابتدع، وإن فعل ذلك تعظيما لما قبله وتقديسا، راجيا منه النفع، دافعا به الضر، فقد أشرك.

- ومن بعد الصلاة تذكر النسك كما هو فى الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] ومن النسك «النذور، وذبح القربان».

فالنذر وهو التزام العبد ما لم يلزمه من الطاعات، وبعبارة أوضح هو التعهد بالقيام بشىء من العبادات تقربا إلى الله تعالى، أو بشرط أن يقضى الله له حاجة تعسرت عليه يريد قضاءها، كأن يقول فى تعهده: اللهم إن شفيت مرضى، أو رددت غائبى، أو قضيت حاجتى فى كذا... لك على أن أتصدق بكذا... أو أصوم أو أصلى كذا وكذا.. والنذر مما تعبد الله به عباده المؤمنين، وقال تعالى مثنيا عليهم بالوفاء به: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾[2]

وقال مرغبا فيه: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾[3]

وخير النذر ما كان بغير شرط لكراهة النبى ﷺ النذر المشروط فى قوله «النذر لا يأتى بخير، وإنما يستخرج به مال البخيل»[4].

وهذا فيه استشعار قدرة الله وغناه، وإظهار الناذر عجزه وضعفه، وافتقاره إلى من نذر إليه.

وهذا - وأيم الله - لا يليق إلا بالله تعالى، ويا ويل أولئك الذين ينذرون إلى الأولياء والصالحين، من أموات المسلمين وأحيائهم، فقد وقعوا فى هلكة وهم لا يشعرون، وأشركوا بعبادة ربهم غيره وهم لا يعلمون. ثم تعطى تلك النذور لمن لا يستحقون، ولا يؤجرون عليها، بل يأثمون.!!

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٦٢
(٢) سورة الإنسان الآية: ٧
(٣) سورة البقرة الآية: ٢٧٠
(٤) متفق عليه أخرجه البخاري٦٦٠٨ ومسلم ١٦٣٩ . بلفظ «نهى النبى ﷺ عن النذر وقال إنه لا يرد شيئا، وإنما يستخرج به من البخيل».

ومن هذه النذور ما يقدم فى صورة نقدية كالمال، أو عينية كالذبائح، وهى من جنسها.

- وذبح القربان وهو ما يتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح كالهدى فى الحج، وضحايا يوم عيد الأضحى، وشاة العقيقة يوم سابع المولود، وذبائح وليمة العرس، وما يذبح صدقة على الفقراء والمساكين. كل هذا قد شرعه الله تعالى فى كتابه، وعلى لسان رسوله محمد ﷺ، فكان هذا الذبح تقربا وعبادة لا تنبغى إلا لله تعالى، ومن ذبح لغير الله تعالى معظما له، خائفا منه راجيا ما عنده، فقد عبده بهذه العبادة وأشركه فى عبادة ربه عز وجل.

وهنا يحسن التنبيه والتنديد معا بما يفعله أهل الجهالات من المسلمين اليوم من ذبائح على الأضرحة والقبور فى أيام الموالد والمواسم تعظيما لمن يذبحون لهم، وتقديسا، ورغبة فى شفاعتهم، وطمعا فيهم، وتوسلا بجاههم.

ولعل قائلا يقول: إنما نحن نذبحها لله- لا لهم- وإنما نوزعها على الفقراء. كفقراء الحسين والسيدة مثلا. فنقول: شرط الذبح أن يكون لله، فى مكان لا يذبح فيه لغير الله. أو فيه عيد من أعياد الجاهلية، وفى الحديث (لعن الله من ذبح لغير الله)[١] وكذلك عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه قال: نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة فسأل النبى ﷺ فقال: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعْبَد؟ قالوا: لا ﷺ قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا، فقال: أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر فى معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم[٢].

ثم من الذى يزعم أنهم فقراء؟ بل محترفون، نصابون - فى غالب الأحيان!!

ومثل هذه الذبائح على القبور والمشاهد ذبائح الزار، والنشرة[٣].

وعلى حافات الآبار، وعتبات المنازل خوفا من الجن، إن هذه الذبائح كلها شرك وكفر، والعياذ بالله من ذلك[٤].

(١) أخرجه مسلم - بتمامه ١٩٧٨.
(٢) أخرجه أبو داود ٣٣١٣، وقال الألباني فى صحيح سنن أبي داود: صحيح.
(٣) النشرة: حل السحر عن المسحور
(٤) راجع عقيدة المؤمن ص ١١٧ - ١٢٠ بتصرف

ثم لابد من أن تكون حياة الإنسان لله، ومماته لله، وما بين الحياة والممات لله، لا يشرك مع الله فيها أحدا، ولا يعبده بغير شرعه ، ولا يقصد سواه، معتقدا أن النافع والضار هو الله، فلا يجوز أن يقول رقية شركية، ولا يعلق تميمة أو تولة، لقوله ﷺ: « إن الرقى والتمائم والتولة شرك»[(١)] ومعناه: إن الرقى التى تسمى بالعزائم- ما لم تكن قرآنا وسنة- فهى من الشرك، والتمائم: شىء يعلق على الأولاد من العَين، ورخص بعض السلف إذا كان المعلق قرآنا، وبعضهم لم يرخص فيه ، ويجعله من المنهى عنه، والتولة: شىء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة لزوجها، والرجل إلى امرأته، فكل هذا من الجاهلية، والتعلق به باطل وشرك و«من تعلق شيئا وكل إليه» [(٢)] وكذلك ورد «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعه فلا ودع الله له»[(٣)] والودعة: شىء يخرج من البحر يشبه الصدف يتقون به العين، والتمائم ، إما أحجبه أو خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم خشية السحر، ومعنى: لا أتم الله له ، ولا ودع الله له ، دعاء عليه[(٤)].

وكما حرم الإسلام لبس الحلقة ، والخيط وتعليق التمائم، والرقى الشركية حرم كذلك من باب أولى- السحر والتنجيم، والكهانة والعرافة، والطيرة فقال ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، ومصدق السحر، وقاطع الرحم»[(٥)] وقد ذهب كثير من أئمة السلف إلى أن الساحر كافر، وأن السحر كفر، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد رضى الله عنهم ، وجاء عن عدد من الصحابة أن عقوبة الساحر ضربة بالسيف ، ففى صحيح البخارى عن بجالة بن عبدة قال: كتب إلينا «عمر بن الخطاب» ، «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر» وصح قتل الساحر عن حفصة أم المؤمنين، وعن جندب من الصحابة رضى الله عنهم.

---

(١) أخرجه أحمد ٣٦١٥، وأبو داود ٣٨٨٣ ، وابن ماجه ٣٥٣٠، وقال الألباني فى صحيح الجامع (١٦٣٢): صحيح.

(٢) أخرجه أحمد ١٨٨٠٣، والترمذى ٢٠٧٢، وابن أبى شيبة فى المصنف ٢٣٤٥٧ وغيرهم، وقال الألباني في غاية المرام: حسن.

(٣) أخرجه أحمد ١٧٤٤٠ ، وابن حبان فى صحيحه ٦٠٨٦ ، والحاكم فى المستدرك ١٠٧٥ ، وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال الألباني في ضعيف الجامع (٥٧٠٣): ضعيف

(٤) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص٩٨ - ١٢٧ بتصرف

(٥) أخرجه أحمد ١٩٥٨٧ ، وابن حبان فى صحيحه ٥٣٤٦ ، والحاكم فى المستدرك ٧٢٣٤ ، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي. وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢٥٩٨): ضعيف.

وكما أن السحر حرام ، فإن المصدق لأهله ، الساعى لعمل السحر شريك لهم فى الإثم، كما سبق فى الحديث. ومن أنواع السحر «التنجيم» والمراد به هنا ما يزعم أهله أنهم يعرفون ما يخبئه المستقبل من أحداث عامة وخاصة عن طريق النجوم و النظر فيها، وهذا ضرب من السحر والدجل، جاء فى الحديث «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر»[١].

ومثل المُنَجم (الكاهن والعراف)، والكاهن هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل، أو هو الذى يخبر عما فى الضمير. والعراف اسم للكاهن والمنجم والرَمال ومن شابه هؤلاء من كل من يدعى معرفة المغيبات، سواء ما يُكنه المستقبل أو ما يُكنه الضمير، وسواء أكان ذلك عن طريق الاتصال بالجن، أم النظر، أو الخط فى الرمل، أو قراءة الفنجان، أو خلاف ذلك.

روى مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قال: «من أتى عرافا ، فسأله عن شىء فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»[٢]، وروى أبو داود عنه ﷺ «من أتى كاهنا فصدقه بما يقول: فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»[٣] وذلك لأن مما أنزل الله على محمد ﷺ أن الغيب لا يعلمه إلا الله ، قال تعالى: ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾[٤]

وقال سبحانه : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾[٥] وأيضا: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾[٦]

حتى النبى ﷺ لم يكن ليعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله عن طريق الوحي ولهذا خاطبه بقوله: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ

---

(١) أخرجه أحمد ٢٠٠٠، وأبو داود ٣٩٠٥، وابن ماجه ٣٧٢٦ وقال الألباني في صحيح الجامع (٦٠٧٤): صحيح.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣٠ .

(٣) أخرجه أحمد ٩٥٣٢، والترمذى ١٣٥ ، وأبو داود ٣٩٠٤، وابن ماجه ٦٣٩ ، وقال الألباني في صحيح الجامع (٥٩٤٢): صحيح.

(٤) سورة النمل الآية: ٦٥

(٥) سورة الأنعام الآية: ٥٩

أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(١)

كما أن الجن الذين يستعين بهم السحرة والكهنة ليس لهم قدرة على معرفة الغيب، فحكى الله عن جن سليمان أنهم لم يعلموا بموت سليمان ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾(٢)

ولهذا كان تصديق الكهنة والعرافين فى زعمهم معرفة الغيب كفر بما أنزل الله من آيات بينات، وإذا كان إتيان هؤلاء وتصديقهم بهذه المنزلة من الشناعة فى الدين ، فما بالك بهؤلاء الكهنة والعرافين أنفسهم؟ إنهم براء من الدين ، كما أن الدين برىء منهم ، جاء فى الحديث « ليس منا من تَطَيَّرَ أو تُطُيِّرَ له، أو تَكَهَّنَ أو تُكُهِّنَ له ، أو سَحَرَ أو سُحِرَ له»(٣) وذلك بذهابه إلى الساحر ليفعل له سحرا يكون لفلان أو فلانة ، وليس من سُحر بدون قصد منه.

فالطيرة ومعناها التشاؤم ببعض الأصوات المسموعة، أو الأشياء المرئية، أو نحو ذلك من الشرك الخفى ، فإذا رده شىء من ذلك عن حاجته التى عزم عليها كسفر أو زواج أو تجارة أو نحو ذلك فقد دخل فى الشرك ، لأنه لم يخلص توكله على الله ، ولأنه التفت إلى سواه، وجعل للتطير فى قلبه نصيبا ، روى الإمام أحمد أن النبى ﷺ قال: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك، فقالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : أن نقول : اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»(٤) وأما ما يجده الإنسان فى نفسه من انقباض، أو توجس للشر من بعض الأشياء فلا يؤثر ولا يضر، إذا مضى فى طريقه متوكلا على الله، ولم يرده التطير عن قصده وغايته قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾(٥)

وضد الطيرة: الفأل: وهو توقع الإنسان الخير، بناء على كلام سمعه، أو شىء

---

(٦) سورة الجن الآيات: ٢٦، ٢٧

(١) سورة الأعراف الآية: ١٨٨ (٢) سورة سبأ الآية: ١٤

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير ٣٥٥ من حديث عمران، وفى الأوسط ٤٢٦٢ من حديث ابن عباس، وفى الأوسط أيضا ٤٨٤٤ من حديث علي، وقال الألباني في صحيح الجامع (٥٤٣٥): صحيح.

(٤) أخرجه أحمد ٧٠٤٥ . وأورده الألباني في الصحيحة (١٠٦٥).

(٥) سورة الطلاق الآية: ٣

أبصره، أو نحو ذلك ، وكان النبي ﷺ يحب الفأل الحسن، ففي الحديث «ويعجبني الفأل، قالوا: وما الفأل؟ قال : الكلمة الطيبة»(١).

ومثال التفاؤل: أن يكون رجل مريضا، فيسمع آخر يقول: يا سالم، فيتفاءل بالسلامة والصحة، وهذا أمر حسن ، لأنه داع إلى سعة الأمل، وحسن الظن بالله تعالى ، بخلاف الطيرة فإن فيها سوء الظن بالله تعالى، وتوقع البلاء من غير سبب يفضي إليه(٢).

لقد جاء الإسلام بالتوحيد الخالص، وحارب الشرك، أكبره وأصغره، وحذر منه أشد التحذير، واتخذ لذلك وسائل شتى ، أبرزها سد كل المنافذ التي تهب منها ريح الشرك. ومن المنافذ ما يأتي:-

١- الغلو في تعظيم النبي ﷺ : فقد نهى ﷺ عن الغلو في تعظيمه ومدحه فقال: « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد ، فقولوا: عبد الله ورسوله» (٣) والقرآن الكريم أثنى عليه بشرف العبودية في أشرف المقامات، تأكيدا لهذا المعنى ، كقوله تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا** ﴾(٤)

وقوله جل وعلا: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً** ﴾(٥)

وقوله سبحانه: ﴿ **فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** ﴾(٦)

وقوله عز وجل: ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا** ﴾(٧)

وقوله عز من قائل: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾(٨)

وكان صلوات الله وسلامه عليه إذا رأى أو سمع ما يؤدي إلى الغلو في

---

(١) أخرجه مسلم ٢٢٢٤ .

(٢) حقيقة التوحيد: يوسف القرضاوي ص٥٤، ٦٣ - ٦٥ بتصرف

(٣) أخرجه البخاري ٦٨٣٠ .

(٤) سورة الكهف الآية: ١

(٥) سورة الإسراء الآية: ١

(٦) سورة النجم الآية: ١٠

(٧) سورة الجن الآية: ١٩

(٨) سورة البقرة الآية: ٢٣

شخصه، زجر من قال ذلك أو فعله ، ونبهه إلى الحق والسداد، ومثاله من قال له: أنت سيدنا، وكذلك ، ما شاء الله وشئت، وقوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ، وسجود معاذ للنبى ﷺ على سبيل التحية والتكريم.

٢- الغلو فى الصالحين: ومما نهى عنه الإسلام وحذر منه ، الغلو فى شأن الصالحين. فقد غلا قوم فى شأن المسيح حتى جعلوه ابنا لله، أو ثالث ثلاثة، وقال بعضهم: إن الله هو المسيح ابن مريم. وغلا قوم فى أحبارهم ورهبانهم فاتخذوهم أربابا من دون الله.

وأول شرك وقع فى الأرض كان سببه الغلو فى الصالحين، جاء فى صحيح البخارى عن ابن عباس فى الحديث عن آلهتهم «ود، وسواع، ويغوث ، ويعوق ، ونسر» قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا، ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسِىَ العلم عُبِدَتْ»[1] وقال بعض السلف: «لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم».

ومن هنا نعلم أن غلو بعض المسلمين فيمن يعتقدون صلاحهم وولايتهم لله، وبخاصة أصحاب الأضرحة والمزارات يؤدى إلى أنواع من الشرك، كالنذر لهم: والذبح لهم، والاستعانة بهم والإقسام بهم على الله ونحو ذلك ، وقد يفضى بهم الغلو إلى الشرك الأكبر، وهو اعتقاد أن لهم سلطة وتأثيرا فى الوجود، وراء الأسباب والسنن الكونية، فيدْعُون من دون الله أو مع الله، وهذا هو الإثم العظيم، والضلال البعيد.

٣- تعظيم القبور: ومما حذر منه الإسلام أشد التحذير ، تعظيم القبور وبخاصة قبور الأنبياء والصالحين، ولذلك نهى عن جملة أشياء تفضى إلى تعظيم القبور منها:

أ- اتخاذها مساجد: روى مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قال قبل أن يموت بخمس: « ألا فلا تتخذوا، القبور مساجد، فإنى أنهاكم عن ذلك»[2] وعن عائشة وابن عباس قالا: لما نزل برسول الله ﷺ - أى فى حالة الاحتضار - طفق يطرح

---

(١) أخرجه البخارى ٤٩٢٠ . (٢) أخرجه مسلم ٥٣٢ .

خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم كشفها، فقال وهو كذلك «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(١)، يحذر ما صنعوا.

ب- الصلاة إليها: ففى الحديث « لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها»(٢) أى لا تجعلوا القبور فى اتجاه القبلة.

جـ- إضاءتها وإيقاد السُرُج عليها، وفى الحديث «لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»(٣)

د- البناء عليها وتجصيصها، روى مسلم من حديث جابر أنه قال «نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر، وأن يُقْعَدَ عليه، وأن يُبْنَىَ عليه بناء».

هـ- الكتابة عليها، لحديث جابر «أنه ﷺ نهى أن تجصص القبور، وأن يكتب عليها»(٤)

و- تعليتها ورفعها، لحديث علي «أن النبى ﷺ بعثه وأمره ألا يدع قبرا مشرفا إلا سواه» (٥) كما جاء فى سنن أبى داود نهيه عليه الصلاة والسلام أن يزاد عليها غير ترابها من الأحجار والآجر ونحوها، ولهذا كان السلف يكرهون الآجِرَ على قبورهم.

ز- اتخاذها عيدا، روى أبو داود عن أبى هريرة مرفوعا «لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبرى عيدا، وصلوا علىَّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم»

وروى أبو يعلى بسنده عن على بن الحسين، أنه رأى رجلا يجىء إلى فرجة كانت عند قبر النبى ﷺ فيدخل فيها ويدعو، فنهاه وقال: ألا أحدثكم حديثا سمعته عن أبى هريرة عن جدى عن رسول الله ﷺ قال «لا تتخذوا قبرى عيدا،

---

(١) متفق عليه (البخارى ٤٣٥ - ٤٣٦ ، ومسلم ٥٣١).

(٢) أخرجه مسلم ٩٧٢ .

(٣) أخرجه أبو داود ٣٢٣٦ ، والترمذى ٣٢٠ ، والنسائى ٢٠٤٣ ، وقال الترمذي: حديث حسن. وقال الألباني في تعليقه على المشكاة: ضعيف.

(٤) أخرجه الترمذى ١٠٥٢، وابن ماجه ١٥٦٢-١٥٦٣، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقال الألباني في تعليقه علي المشكاة: صحيح.

(٥) أخرجه مسلم ٩٦٩ .

ولا بيوتكم قبورا، فإن تسليمكم يبلغنى حيث كنتم»(١).

ومعنى اتخاذ القبر عيدا ، قصده للاجتماع فيه والقعود عنده، ونحو ذلك وقبر رسول الله ﷺ هو أفضل قبر على وجه الأرض، فإذا نهى عن اتخاذه عيدا، فقبر غيره أولى بالنهى كائنا من كان ، ويكفى أن يصلى ويسلم على الرسول، فتصله صلاته وسلامه حيثما كان(٢).

الحكمة فى هذا التحذير: والحكمة فى نهى الإسلام عن تعظيم القبور أنه ذريعة إلى الشرك الأصغر والأكبر - كما رأينا فى قوم نوح، وكما هو مشاهد إلى اليوم. فالغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثانا معبودة، ولهذا قال ﷺ: «اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(٣).

ومما يأسف له كل مسلم غيور على دينه أن ما حذر منه الرسول ﷺ قد وقع فيه كثير من أهل الإسلام، فقد اتخذوا قبور بعض الصالحين أعيادا، وشيدوها وزخرفوها، وبنوا عليها المساجد والقباب، وأوقدوا عليها السرج والقناديل، ووقفوا لذلك الوقوف، ونذروا لها النذور، وطافوا بها كالكعبة، واستلموها كالحجر الأسود، وأوسعوا جدرانها لمسا وتقبيلا، ومنهم من يسجد لها ، ويعفر الخدود على ترابها ، ويقف خاشعا مستكينا، يستغيث بأصحابها، يسأله مشافهة قضاء الديون، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفان، وشفاء المرضى، والنصر على الأعداء. وبعضهم يقدم طلباته مكتوبة فى رقام إلى صاحب القبر، وهذا من الشرك الصريح، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم(٤).

سائر أنواع العبادات

- إن كل ما شرعه الله لعباده من الطاعات والقربات ليعبدوه بها تقربا إليه

---

(١) أخرجه أحمد ٨٧٩٠ ، وأبو داود ٢٠٤٢ ، والطبرانى فى الأوسط ٨٠٣٠ . وقال الألباني في تعليقه على فضل الصلاة : صحيح لغيره.

(٢) حقيقة التوحيد ص ٦٧ بتصرف

(٣) أخرجه مالك ٤١٤ مرسلاً. وقال الألباني في تعليقه على المشكاة: صحيح.

(٤) حقيقة التوحيد ص ٧٢، ٧٣

- تعالى - وتزلفا، من صلاة وصيام وحج واعتمار وصدقات وزكوات واعتكاف وجهاد ورباط وفعل خير من بر وصلة وذكر ودعاء وأمر بمعروف ونهى عن منكر وتعليم علم وتعلمه ، كل هذه العبادات وغيرها مما شرعه الله تعالى فى كتابه وعلى لسان رسول الله ﷺ ، فعله لغير الله تعالى- يتنافى مع عقيدة المؤمن القائمة على أساس التوحيد، الدالة عليه كلمة الإخلاص «لا إله إلا الله».

- وكذلك ترك طاعة الله للرغبة أو الرهبة: فلقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله، بقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[1]

فطاعة الله وطاعة رسوله فى الأمر والنهى عبادة تَعَبَّدَ الله تعالى بها المؤمنين من عباده، فمن ترك طاعة الله ورسوله غير مكره من أجل أحد من خلق الله كائنا من كان، رغبة فيما عنده ، أو رهبة مما لديه فقد أشرك، وتركه لطاعة الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ وهو غير مكره رغبة أو رهبة فيمن أطاعه شرك، إذ الطاعة فى المعروف فقط، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق»[2]

ولكن قوما رفضوا هذا، وأبوا الا التوجه بهذه العبادات القلبية والبدنية للأولياء والصالحين باسم الوسيلة والشفاعة والبركة، وكذلك باسم الولاية والكرامة، فما معنى ذلك؟[3] وما هو بيانه؟ وما حكمه؟

هذا الذى سنعرفه إن شاء الله تعالى- فى الصفحات الآتية.

(١) سورة محمد الآية: ٣٣
(٢) عقيدة المؤمن ص ١٢٠ ، ١٢١
(٣) انظر المبحث القادم

الوسيلة أو التوسل

(معناها - أركانها - المشروع منها والممنوع - شبهات المتوسلة)

(أ) تعريف الوسيلة: لغة: اسم فعلة، وسل إليه بكذا، يسل وسيلة فهو واسل، تقرب ورغب، ومثله توسل إليه بكذا توسلا، وتوسيلا، إذا عمل عملا تقرب إليه، فالمتوسل والواسل بمعنى واحد فهى تعنى الواسطة التى تقرب العبد من طلبه.

ويطلق لفظ الوسيلة على المنزلة عند الملك، وعلى الدرجة والقربة، وأطلقت كذلك على أعلى درجة فى الجنة، وهى التى قال رسول الله ﷺ عنها «ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة»[1].

وأما الوسيلة فى الشرع: فهى العمل يقدمه المؤمن بين يدى رغبته ليتوسل به إليه، فيفوز بمرغوبه ويحصل على مطلوبه.

(ب) أركانها: والوسيلة هى التقرب إلى الله تعالى بعمل صالح طلباً للقرب منه تعالى، والحظوة لديه والدرجة عنده سبحانه وتعالى، أو لقضاء حاجة بحصول نفع، أو دفع ضر.

هذه الوسيلة الشرعية مبناها على ثلاثة أمور:

الأول: المتوسل إليه وهو الله ذو الفضل والإنعام.

والثانى: المتوسل، وهو العبد الضعيف، المحتاج، الطالب القرب من الله، والراغب فى قضاء الله حاجة له.

والثالث: المتوسل به، وهو العمل الصالح المتقرب به إلى الله تعالى، أو هو الوسيلة المشروعة.

ولكى تكون الوسيلة مجدية نافعة، يحصل بها القرب، أو تقضى بها الحاجة،

---

(١) أخرجه مسلم ٣٨٤.

لابد من مراعـاة ما يلى كشـروط أساسية لابد من تـوافرها للواسل الذى يريد أن ينتفع بوسيلته .

(١) أن يكون العبد الواسل إلى الله- المُتَوسَّل إليه- مؤمنا صالحاً.

(٢) أن يكون العمل المتـوسل به مما شرع الله تعالى لعباده أن يتقـربوا به إليه سبحانه.

(٣) أن يكون العمل المشـروع قربة موافقاً فى آدائه لما كـان الرسول ﷺ يؤديه عليه، فلا يزاد فـيه ولا ينقص عنه ، ولا يفعل فى غيـر زمانه الذى شرع له، ولا فى غير مكانه الذى عين له وحدد.

فلهذا لا يكون عـمل غير المؤمن قربـة ولا وسيلة أبدا، كما لا تكون البـدعة قـربة إلى الله تعـالى، ولا وسيـلة، بحال من الأحـوال، والوسـيلة بهـذا المعنى مشروعـة، ومندوب إليها فى كل مكان وزمان، كمـا قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[(١)]

وقال عـز وجل: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾[(٢)]

ففى الآية الأولى أمـر فيه ترغـيب للمؤمنين فى طلب القـرب من الله تعالى بفعل الطاعات ، الزائدة عن الفرائض والواجبات، وفى الآية الثانية إخبار عن نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، وأسلم النفر من الجن وعبدوا ربهم وتقربوا إليه بصالح الأعـمال، والنفر من العرب لم يشعـروا بإسلام أولئك النفر من الجن وبقوا يعبدونهم ، فأخبر تعالى عن حالهم، منبها إلى خطأهم، وضلالهم[(٣)] .

هل كل وسيلة جائزة ومشروعة؟ أو هل الغاية تبرر الوسيلة؟

ليست كل وسيلة جائزة ومشروعة، وإلا لكانت الغاية تبرر الوسيلة، فالوسيلة منها ما هو جائز، ومنها ما هو ممنوع، فالجـائز منها هو كل وسيلة أذن فيها الشارع

(١) سورة المائدة الآية: ٣٥
(٢) سورة الإسراء الآية: ٥٧
(٣) عقيدة المؤمن ص ١٢٣ - ١٢٥ بتصرف

ولا فرق فى ذلك بين التوسل فى الأمور الدنيوية، أو الأمور الأخروية فلا بد من إذن الشارع فى جواز الوسيلة وإلا حرمت.

وقد يتم الاتفاق على جواز الغاية، ومشروعيتها، ولكن ما مدى مشروعية الوسيلة إليها؟ وهذه بعض الأمثلة - فى أمور دنيوية - توضح المراد:

(١) شخص يريد أن يحصل على ثروة مالية، فبحث عن وسيلة تحقق له الثراء، وهى غاية مقبولة، فرأى قتل أخيه الغنى الذى لا وارث له غيره، فقتله، فهل هذه الوسيلة مشروعة؟

أو أنه سرق، أو اختلس، أو ارتشى . ونصب، فهل هذه وسائل جائزة؟ والجواب: قطعا، لا: لأنها محرمة فإذا عمل وتعب وكدح، وحصل على المال المطلوب ، وأدى حق الله فيه ، فهى وسيلة مشروعة.

(٢) رجل خطب امرأة فى نفسها، فأبت الزواج منه، فرأى أن الوسيلة لقبولها أن يذهب إلى ساحر أو دجال يكتب له حرزاً، أو يجلب له ودعة، أو يعلق له تميمة ليحببه إليها حتى تتزوجه، فهل هذه الوسيلة جائزة؟ والجواب لا ، بل هى محرمة شرعاً.

فإن سلك الطريق المستقيم الذى شرعه الإسلام فى الخِطبَة والزواج، فهذه وسيلة مشروعة.

(٣) رجل مرض أخوه، فأراد أن يعالجه، فقيل له : اذهب إلى الضريح الفلانى، واستشفع بصاحبه، وناده واستغث به، فإن أخاك يبرأ من مرضه، أو قيل له: ما عنده؟ فقال الحصوة مثلا، فقيل له: اسقه خمرا أو بيرة، تفتت الحصوة، ويبرأ من علته!!

فهل هذه أو تلك وسيلة صحيحة؟، بالطبع لا ، فالأولى شرك، والثانية معصية من الكبائر. وإنما إذا ذهب إلى الطبيب المسلم الحاذق الذى يشخص الداء ويصف الدواء، فتلك هى الوسيلة المشروعة، وهكذا، فتلك أمثلة للتوضيح والبيان، يقاس عليها أمثالها.

والمراد منه بيان أنه ليست كل الوسائل مشروعة، تعمم فيها الآيات

والأحاديث، وإنما الوسيلة منها ما هو مشروع، ومنها ما هو ممنوع.

والمشروع منها لا يكون بهوى أو مزاج، أو تعصب، وإنما بما شرعه الله لعباده وأذن لهم فيه، والممنوع منها هو غير ما شرعه الله من العبادات والقربات فهو توسل باطل، وضار غير نافع، ومن هنا تعين- بعد ذكر تلك الأمثلة فى الأمور الدنيوية- أن نذكر جلة صالحة من أنواع الوسائل الشرعية والمباحة- فى الأمور التعبدية- النافعة للمتوسلين، ثم نتبعها بذكر جملة أخرى من الوسائل المحرمة الباطلة، تعليما وتحذيرا، حتى نوفى هذا البحث حقه.

فما هى الوسائل المشروعة، وما هى الوسائل الممنوعة؟[١].

جـ- الوسائل المشروعة:

لقد شرع الله عز وجل وسائل كثيرة لعباده يتقربون بها إليه، وينالون الحظوة لديه، والمنزلة العالية عنده، وكذلك يقضون بها حاجاتهم، ويحصلون على مرغوبهم وينجون من مرهوبهم، وهذه الوسائل المشروعة، نستطيع أن نلخصها فيما يلى:-

(١) الإيمان: ويعنى به الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، وهو أفضل الأعمال وأشرف الوسائل، إذ هو إخلاص التوحيد وصفاء العقيدة.

هذا وقد رضيه الله تعالى وسيلة إليه وأثنى على المتوسلين به فى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾[٢]

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[٣]

ومنه: التوسل بأسماء الله الحسنى، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[٤]

---

(١) عقيدة المؤمن ص ١٢٧ - ١٢٩ بتصرف

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٩٣

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٦

(٤) سورة الأعراف الآية: ١٨٠

وفى الحديث « أن النبى ﷺ سمع رجلا يدعو - متوسلا بالإيمان بالله وبأسمائه الحسنى- يقول: اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد» فقال ﷺ «والذى نفسى بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذى إذا دُعِىَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى»[١].

وقوله ﷺ: «إن لله ملكا موكلا بمن يقول: يا أرحم الراحمين، فمن قالها ثلاثا، قال الملك: إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فسل»[٢].

وقوله ﷺ لمن سمعه يدعو ويقول: «اللهم إنى أسألك بأن الحمد لك، لا إله إلا أنت، يا حنان يا منان، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام» فقال ﷺ: «لقد سألت الله باسمه الأعظم الذى إذا دُعِىَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى»[٣].

وقوله ﷺ : إذا قال العبد: يارب، يا رب، يا رب، قال الله تعالى: «لبيك عبدى، سل تعط»[٤].

وقوله ﷺ ، «دعوة ذى النون إذ دعاه وهو فى بطن الحوت: لا إله إلا أنت، سبحانك إنى كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله تعالى له»[٥].

- ومن هنا كان لأى مؤمن أو مؤمنة أن يتوسل إلى الله تعالى بإيمانه فى أى حاجة من حوائج الدنيا والآخرة أرادها، فيقول: مثلا - اللهم إنى أسألك بإيمانى بك وبرسولك، أو بأنى أشهد أنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت، وأن محمدا عبدك ورسولك، أن تغفر لى وترحمنى، أو تقضى حاجتى فى كذا..

---

(١) أخرجه أحمد ٢٣٠٠٢ والترمذى ٣٤٧٥ ، وأبو داود ١٤٩٣، وابن ماجه ٣٨٥٧ ، وقال الترمذي: حسن غريب ، وقال الألباني في تعليقه علي المشكاة: صحيح.

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ١٩٩٦ . وقال الألباني في ضعيف الجامع (١٩٥٧): ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد ١٢٢٢٦ . وابن ماجه ٣٨٥٨ . وقال الألباني في صحيح الترغيب (١٦٤١) : حسن صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الدعاء وقال الألباني في ضعيف الجامع (٦١١): ضعيف جداً.

(٥) أخرجه أحمد ١٤٦٢ ، والترمذى ٣٥٠٥ ، والنسائى فى الكبرى ١٠٤٩٢ . وقال الألباني في الجامع (٣٣٨٣): صحيح.

وكذلك بأسماء الله تعالى، وهى تسعة وتسعون اسما، كلها يُدعىَ بها الرب تبارك وتعالى، ويُتوسَلُ بها إليه، فيستجيب للداعين ويعطى السائلين، وهو البر الرحيم، والجواد الكريم، فيدعو الله بأسمائه الحسنى، وأجلها اسم الله الأعظم، كما ورد فى الأحاديث.

(٢) من الوسائل المشروعة: (العمل الصالح)

وهذه الوسيلة لابد أن تكون من العمل المشروع قربة، الموافق فى آدائه لما كان الرسول ﷺ يؤديه، مع إخلاص النية لله عز وجل.

وهذا العمل يتمثل فى أداء الفرائض والواجبات، وفعل الطاعات الزائدة عن ذلك، والنوافل، وكذلك بتقوى الله عز وجل التى تتحقق بفعل المأمور، وترك المنهى، وتترقى حتى درجة الإحسان، وبها تتحقق النجاة من العذاب، وتحصيل الثواب. إن شاء الله تعالى.

ومثال هذا العمل الصالح:

الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، فرضاً، ونفلاً، كالسنن فى الصلاة، والصدقة، والتطوع فى الحج والعمرة، والإكثار من صيام النوافل، والجهاد والرباط، وتلاوة القرآن الكريم، والذكر والتسبيح، والتوبة، وعموم الطاعات، وفعل الخيرات، وكذلك ترك المحرمات، هكذا مجملاً.

والدليل على مشروعية هذه الوسيلة- فى القرآن - قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[١]

وفى السنة - قوله ﷺ «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار، فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل، فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، قال رجل منهم: اللهم إنه كان لى أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق[٢] قبلهما أهلا ولا مالا،

---

(١) سورة المائدة الآية: ٣٥

(٢) أغبق: بفتح الهمزة، وكسر الباء وضمها، والغبوق هو الذى يشرب بالعشى، ومعناه كنت لا أقدم عليهما فى الشرب أحدا.

(٣) فنأى: أى بَعُدَ

بى طلب الشجر يوما، فلم أرح[١] عليهما حتى ناما ، فحلبت غبوقهما، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا ولا مالا، فلبثت[٢] والقدح على يدى، انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، والصبية يتضاغون[٣] عند قَدَمَىَّ، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئا لا يستطيعون منه الخروج.

وقال الآخر: اللهم إنه كانت لى ابنة عم، كانت أحب الناس إلىَّ، فراودتها عن نفسها فامتنعت، حتى ألمت بها سنة من السنين[٤]، فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة ديناراً على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت حتى قَدرْتُ عليها - وفى رواية: حتى وقعت بين رجليها - قالت: يا عبد الله، اتق اللهَ ، ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة، فَفُرِجَ لهم.

وقال الآخر: اللهم إنى كنت استأجرت أجيرا، بفرق[٥] أرز، فلما قضى عمله قال: أعطنى حقى، فعرضت له فرقه، فرغب عنه[٦] فلم أزل أزرعه حتى جمعت بقرا ورعاءها فجاءنى بعد حين ، فقلت : كل ما ترى من البقر ورعاءها من أجرك، فقال: اتق الله ولا تستهزىء بى، فقلت: إنى لا أستهزىء بك ، خذ ذلك البقر ورعاءها، فأخذه فذهب به ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقى، ففرج الله ما بقى، فخرجوا يمشون.[٧]

وإذا علمت هذا كله فاعلم أن التوسل المشروع الذى شرعه الله على لسان نبيه المتبوع، إنما هو التقرب إلى الله تعالى بما شرعه على لسان نبيه ﷺ من علم أو عمل قلبى أو بدنى، أو ترك وكف عن عمل محظور، فيدخل فيه جميع الطاعات، وترك جميع المعاصى امتثالا لأمر الشارع.

---

(١) أرح: بضم وكسر الراء - أى لم أرد الماشية عن المرعى اليهما حتى ناما

(٢) فلبثت: أى فمكثت واقفا، والقدح: الإناء الذى يشرب فيه

(٣) يتضاغون: أى يصيحون من الجوع

(٤) ألمت بها: أى نزلت بها سنة مقحطة.

(٥) الفرق: بفتح الفاء - مكيال ضخم، قاله صاحب لسان العرب

(٦) رغب عنه: أبى أن يأخذه

(٧) متفق عليه (البخارى ٢٢٧٢، ومسلم ٢٧٤٣).

وهذه بعض الأدلة لجزئيات من العمل الصالح، المشار إليها مجملا.

حول الصلاة، قوله ﷺ: لمن سأل عن أحب الأعمال إلى الله تعالى «الصلاة على وقتها»(١) فمن أراد المنزلة عند الله تعالى، والظفر بمرغوبه بإذن الله تعالى، فليحافظ على الصلوات الخمس، ونافلتها، كما أمر الرسول ﷺ الرجل الضرير بأن يتوضأ ويصلى ركعتين، ويسأل الله تعالى ففعل ودعا له الرسول ﷺ، فرد الله عليه بصره(٢).

وقوله ﷺ - عن الصيام: «ما من عبد يصوم يوما فى سبيل الله تعالى إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفا»(٣) ولمن سأله، يا رسول الله: دلنى على عمل أدخل به الجنة؟ قال: عليك بالصوم فإنه لا مثل له»(٤) وصح أيضا «أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»(٥)

هذا ورد فى التوسل بالصيام للحصول على القرب من الله تعالى، وأما التوسل به لقضاء الحاجات، واستجابة الدعوات، فقد قال النبى ﷺ «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم»(٦)

كما ورد « للصائم دعوة لا ترد» (٧) وهو بسند ضعيف، ولكن يشهد له الحديث السابق. وعن الصدقة قال ﷺ «اتقوا النار ولو بشق تمرة»(٨) وقال: «الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار»(٩) وقوله ﷺ «صنائع المعروف تقى

---

(١) متفق عليه (البخارى ٥٢٧، ومسلم ٨٥).

(٢) أخرجه أحمد ١٧٢٧٩، والترمذى ٣٥٧٨، وابن ماجه ١٣٨٥، والنسائى فى الكبرى ١٠٤٩٤ وقال الترمذي: حسن صحيح غريب وقال الألباني في صحيح الجامع (١٢٧٩): صحيح.

(٣) متفق عليه (البخارى ٢٨٤٠، ومسلم ١١٥٣).

(٤) أخرجه أحمد ٢٢٣٣٠، والنسائى ٢٢٢٠، وابن أبى شيبة ٨٨٩٥ وابن حبان في صحيحه ٣٤٢٥، وقال الألباني في صحيح الجامع (٤٠٤٤): صحيح.

(٥) متفق عليه (البخارى ١٩٠٤، ومسلم باب فضل الصيام).

(٦) أخرجه أحمد ٨٠٣٠ وابن حبان في صحيحه ٣٤٢٨ وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح بطرقه وشواهده.

(٧) أخرجه ابن ماجه ١٧٥٣، وابن السنى ٤٧٥، والطبرانى فى الدعاء ٩١٩. وقال الألباني في الإرواء: ضعيف.

(٨) متفق عليه (البخارى ١٤١٧، ومسلم ١٠١٦).

(٩) أخرجه أحمد ١٤٤٨١، والترمذى ٦١٤ وابن ماجه ٣٩٧٣ وقال الترمذي: حسن غريب، وقال الألباني في صحيح الجامع (٥١٣٦): صحيح.

مصارع السوء، وصدقة السر تطفىء غضب الرب، وصلة الرحم تزيد فى العمر»[(١)].

وعن الحج بين ﷺ أن «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[(٢)] وأنه «من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[(٣)].

وعن الاعتمار، قال ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفى الكير خبث الحديد، والذهب والفضة». [(٤)]

وعن الجهاد والرباط، قال ﷺ: «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»[(٥)] ويقول: «مقام الرجل فى الصف فى سبيل الله أفضل من عبادة الرجل ستين سنة»[(٦)] ويقول: «الغازى فى سبيل الله، والحاج إلى بيت الله الحرام والمعتمر، وفد الله، دعاهم فأجابوه، إن دَعَوْه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم»[(٧)]وعن الرباط، يقول ﷺ: «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»[(٨)]، ويقول: «حرمت النار على عين العبد دمعت أو بكت من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت فى سبيل الله»[(٩)].

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط ٧٧٦١ . وقال الألباني في صحيح الجامع (٣٧٩٦): صحيح.

(٢) متفق عليه (البخاري١٧٧٣، ومسلم ١٣٤٩).

(٣) متفق عليه (البخارى ١٨١٩، ومسلم ١٣٥٠).

(٤) أخرجه أحمد ٣٦٦٩، والنسائى ٢٦٣١، والترمذى ٨١٠، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، . وقال الألباني في الصحيحة (١٢٠٠) : صحيح.

(٥) أخرجه البخارى ٢٧٩٠ .

(٦) أخرجه الدرامى ٢٣٩٦، والطبرانى فى الكبير ٣٧٧، والحاكم فى المستدرك وغيرهم، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال الألباني في صحيح الجامع (٥٨٨٦): صحيح.

(٧) أخرجه ابن ماجه ٢٨٩٣، وابن حبان فى صحيحه ٤٦١٣، والطبرانى فى الكبير ١٣٥٥٦، وقال الألباني في صحيح الجامع (٤١٧١): صحيح.

(٨) أخرجه البخارى ٢٨٩٢ .

(٩) أخرجه أحمد ١٧٢٥٢، والدرامى ٢٤٠٠، والنسائى فى الكبرى ٨٨٦٩ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الترغيب (١٢٣٤) : حسن لغيره.

وعن تلاوة القرآن الكريم، بين ﷺ أن قراءة الحرف منه بعشر حسنات، وذكر فضله ، ومنه «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»(١).

«الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة»(٢)، كما يقال له إذا دخل الجنة: «اقرأ وارق، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»(٣).

وعن الذكر والتسبيح ، ما ذكره ﷺ ، فيما يرويه عن ربه عز وجل: «أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه»(٤). وقوله ﷺ «ما عمل آدمي عملا أنجى له من العذاب من ذكر الله تعالى»(٥) وقد بين ﷺ أفضل الذكر وأحسنه.

وعن الصلاة على النبى ﷺ قال: «من صلى عَلَيَّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا»(٦).

وقوله للذى قال له : أجعل لك صلاتى كلها: «إذاً تُكْفَى همك ، ويُغْفَرُ ذَنْبُك»(٧) وقد بَشَّرَهُ جبريل عليه السلام أن الله عز وجل يقول لك «من صلى عليك صليت عليه ، ومن سلم عليك سلمت عليه»(٨).

وعن الاستغفار ، قال ﷺ « من قال: أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه، غُفِرَ له ، وإن كان قد فر من الزحف»(٩) وقوله ﷺ : «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من

---

(١) أخرجه البخارى ٥٠٢٧ .

(٢) متفق عليه (البخارى ٤٩٣٧ ، ومسلم ٧٩٨).

(٣) أحمد ٦٧٩٩ ، والترمذى ٢٩١٤، وأبو داود ١٤٦٤ . وغيرهم، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقال الألباني في صحيح الترغيب ١٤٢٦: حسن صحيح.

(٤) متفق عليه (البخارى ٧٤٠٥ ، ومسلم ٢٦٧٥).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط ٢٢٩٦ - والصغير ٢٠٩ وقال الألباني في صحيح الترغيب ١٤٩٧: حسن لغيره.

(٦) أخرجه مسلم ٣٨٤ .

(٧) أخرجه أحمد ٢١٢٨٠ والترمذى ٢٤٥٧ وعبد بن حميد ١٧٠ . وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الألباني في صحيح الترغيب ١٦٧٠: حسن صحيح.

(٨) أخرجه أحمد ١٦٦٢ ، وعبد بن حميد ١٥٧، وأبو يعلى ٧٦٩، وقال الألباني في صحيح الترغيب١٦٥٨: حسن لغيره.

(٩) أخرجه الترمذى ٣٥٧٧، وأبو داود ١٥١٧، وقال الترمذي: حديث غريب، وقال الألباني في الصحيحة: صحيح.

حيث لا يحتسب»(١).

وعن الدعاء قال: «وما على الأرض مسلم يدعو الله دعوة إلا آتاه الله تعالى إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»(٢).

وقوله ﷺ: «ما من مسلم ينصب وجهه لله عز وجل وسأله مسألة إلا أعطاه إياها، إما أن يُعَجِلَها له، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، قالوا: إذا نكثر! : قال : الله أكثرَ» (٣) كما قال ﷺ : «إن الله حَيِي كريم يستحى إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين»(٤).

وكذلك فعل الخيرات - عموما - كما بين ﷺ : «أن رجلا من بنى إسرائيل أماط غصن الشوك من الطريق خشية أن يصيب أحداً، فشكر الله تعالى له - ذلك العمل القليل - فغفر له وأدخله الجنة»(٥) و «أن امرأة بغيا من بنى إسرائيل، سقت كلبا عطشان يأكل الثرى من شدة العطش - سقته لوجه الله تعالى - فشكر الله لها وأدخلها الجنة(٦) وما ورد فى البرّ - أى بالوالدين - فى حديث الثلاثة. وكذلك ترك المحرمات، والبعد عن المنكرات، وذلك بترك الإثم خوفا من الله، كما جاء ذلك فى الحديث أيضا، وترك معصية الله تعالى خوفا من الله وحياءً منه.

كان ذلك بيانا - على عجالة - فى مشروعية التوسل بالعمل الصالح، كما أشار إليه القرآن، ووضحته سنة النبى العدنان، عليه الصلاة والسلام.(٧).

إن من بين الوسائل المشروعة التى تُرفَعُ بها الدرجات، وتُقْضَى بها الحاجات، دعاء المؤمن لأخيه المؤمن، فقد كان أصحاب الرسول ﷺ يأتونه

---

(١) أخرجه أحمد ٢٢٣٤ وأبو داود ١٥١٨، وابن ماجه ٣٨١٩، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٥٨٢٩): ضعيف.

(٢) أخرجه الترمذى ٣٥٧٣، والطبرانى فى الأوسط ١٤٧، والبيهقى فى الشعب، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. وقال الألباني في صحيح الجامع (٥٦٣٧): صحيح.

(٣) أخرجه أحمد ١١١٤٩، وابن أبى شيبة فى المصنف ٢٩١٧٠، والحاكم فى المستدرك ١٨١٦. وقال الألباني في صحيح الترغيب ١٦٣٣: حسن صحيح.

(٤) أخرجه الترمذى ٣٥٥٦، وأبو داود ١٤٨٨، وابن ماجه ٣٨٦٥، وقال الترمذي: حسن غريب وقال الألباني في صحيح الجامع (١٧٥٧): صحيح.

(٥) متفق عليه (البخارى ٦٥٢، ومسلم ١٩١٤).

(٦) متفق عليه (البخاري ٣٤٦٧، ومسلم ٢٢٤٥).

(٧) راجع بتوسع: القاعدة الجليلة فى التوسل والوسيلة لابن تيمية، وكذلك عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى

فيطلبون منه أن يدعو الله تعالى لهم، فيدعو ، فيستجيب الله تعالى له فيهم، فتُقضَى حاجاتهم ، فكم من مرة توسلوا- رضى الله عنهم - بدعاء نبيهم فى طلب الغيث، فيستجيب الله تعالى ، ويُسْقَوْنْ، وهذا ثابت فى الصحيح لا شك فيه ، وقد تقدم خبر الضرير وأنه توسل بدعاء النبى ﷺ، فقال: «ادْعُ الله يا رسول الله أن يرد علىَّ بصرى ، فدعا له الرسول ﷺ ، فرد الله عليه بصره، وعاد كأن لم يكن قد مسه ضر»(١) .

كما رُوِىَ أنه ﷺ قال لعمرَ بن الخطاب - رضى الله عنه - وهو يريد العمرة- «لا تنسنا يا أخى من دعائك » - وفى لفَظ - «أشركنا يا أخى فى دعائك»(٢) .

وتوسل أصحاب النبى ﷺ بعد وفاته بدعاء العباس - رضى الله عنه - لهم فى صلاة الاستسقاء، فاستجاب الله تعالى له، وسقاهم بعد قحط شديد.(٣) .

وقد أشار القرآن الكريم لهذا فى قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾(٤)

وما زال المسلمون إلى اليوم يتوسلون بدعاء بعضهم بعضا، فيقول المؤمن لأخيه: ادْعُ الله لى يا فلان، لما علموا من مشروعية ذلك وجوازه، وقد صرح النبى ﷺ بذلك فقال: « من دعا لأخيه بظهر الغيب، قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثله»(٥) .

وبهذه العجالة - أخا الإسلام- أكون قد وقفت معك على الوسيلة المشروعة، فى دين الله ، الواردة فى كتاب الله ، والتى صحت فى سنة رسول الله ﷺ .

---

(١) صحيح تقدم.

(٢) أخرجه أحمد ١٩٥ ، والترمذى ٣٥٦٢ ، وأبو داود ١٤٩٨ ، وابن ماجه ٢٨٩٤ . وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الألباني في ضعيف الجامع (٦٣٧٧): ضعيف.

(٣) أخرجه البخارى ١٠١٠ .

(٤) سورة الحشر الآية: ١٠

(٥) أخرجه مسلم ٢٧٣٢ .

فما هى الوسيلة الممنوعة؟

(د) الوسائل الممنوعة:

وبعد ذكرنا لتلك الطائفة من الوسائل المشروعة، نذكر هنا جملة من الوسائل الباطلة الممنوعة، والتى شغلت الكثير من المسلمين عن الوسائل النافعة وصرفتهم عنها، فحرموا من التوسل المشروع، بسبب انشغالهم بالممنوع، فخابوا فى سعيهم وخسروا. ونحن نذكر هذا نصحا للمسلمين ، وتبليغا لرسالة الإسلام ، وتعريفا بالعقيدة الصحيحة، ورداً للعقيدة الزائفة، وتوحيدا لكلمة المسلمين، على دين رب العالمين.

* وإذا كان ما ذُكِرَ من وسائل هو المشروع فمعناه - بمفهوم المخالفة - أن ما سواه ممنوع، ومثاله : التوسل بالأشخاص بعد موتهم ، أيا كانت منزلتهم، لا من الأنبياء أو الأولياء، وذلك بدعائهم، أو رجائهم، أو النذر لهم ، والطواف حول قبورهم، والسجود على أعتابهم، والتمسح بأبوابهم، والتبرك بأخشابهم، وسَوْق الهَدْى والقرابين إليهم، وحلق الرأس - وخاصة الأولاد - عندهم، وشد الرحال إلى مزاراتهم، وبناء المساجد على قبورهم، ورفع الصوت بالدعاء عند مقاصيرهم، وسؤال الله بجاههم، والاستشفاء بالعكوف عند أضرحتهم، والقَسَمِ على الله بهم ، ودعائه بحقهم. وطلب المدد والعون منهم، أو خوف أذيتهم لمن لم يعتقد فى كرامتهم ، ويؤمن بدولتهم . . . الخ.

فقد عرفت - أخا الإسلام- أن هذه الأمور هى من العبادة الصرفة - ومثلها لا يوجه إلا إلى الله عز وجل، فلا يجوز أن تكون لملك مقرب ، أو نبى مرسل ، أو ولى صالح، وجعلها لأحد غير الله، شرك أكبر. لم يشرعه الله، ولم يأذن فيه ، بل حَرَمَه ومَنَعَه وتوعد عليه بمثل قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** ﴾[1] فكل ما يفعله جهلة المسلمين - اليوم - وعامة المتصوفة ، من دعاء الصالحين والاستغاثة بهم ، كمن يقول : يا سيدى فلانا خذ بيدى ، ومولاى فلانا أنا فى حماك، وأنا بك وبالله .. وغير

(١) سورة المائدة الآية: ٧٢

ذلك ، ثم يقدم لهم النذور ويقول : يا سيدى فلانا إن رزقنى الله كذا ، أجعل لك كذا.

وهذا نذر لغير الله تعالى ، وعبادة صرفت لغيره، ومال ذهب فى غير محله وغير وجهه ،والإسلام برىء منه فلا يجوز نذر فى صندوق يذهب لغير مستحقيه، ولا ذبح لغير الله فى مكان يذبح فيه لغير الله ، ولا العكوف حول قبور الصالحين، أو السؤال بجاه فلان وحقه ، وأمثال هذا ، مما سبق القول فى حديثنا عن توحيد الألوهية فارجع إليه.

(هـ) شبهات المتوسلة:

هذا. . وبعد عرضنا لمسألة «الوسيلة» والمشروع منها والممنوع، رأى بعض المسلمين - من العامة أو العلماء المتصوفة - أن الوسيلة جائزة بالأنبياء والأولياء والصالحين، سواء فى محياهم أو بعد مماتهم.

وذلك لشبهات عرضت لهم، تُذْكَرُ عند كلامهم عن الوسيلة، ويستكثرون منها إيهاما للعامة ، أن الأدلة التى تبيح الوسيلة - على عمومها - كثيرة جداً، وهى فى القرآن والسنة، وأقوال الصحابة وأفعالهم.

* والناظر فى تلك الأدلة أو الشبهات يرى أن أصحابها خلطوا فى فهمها، وضلوا فى معرفتها، وجمعوا غثها على سمينها، انتصارا لما هم عليه، وايهاما للعامة بصدق قولهم وطرقهم. فما هى هذه الشبهات.

نقول- وبالله تعالى التوفيق: لقد أباح المتوسلة كل نوع من الوسيلة، لعموم الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[(1)].

وقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾[(2)].

وأجازوا التوسل بالنبى ﷺ فى حياته وبعد مماته بهذه الأدلة، - قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ

(1) سورة المائدة الآية: ٣٥ .
(2) سورة الإسراء الآية: ٥٧ .

﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[(١)].

وذكروا معها قصة العتبى مع الأعرابى.

وكذلك: توسل الأعمى بالنبى ﷺ، فرد الله عليه بصره، وحديث «حياتى خير لكم ومماتى خير لكم، تُحدثُونَ ويُحدَثُ لكم، فإذا أنا مت كانت وفاتى خيرا لكم، تعرض على أعمالكم، فإن رأيت خيرا حمدت الله، وإن رأيت شرا استغفرت لكم» وهذا مع قولهم بحياة النبى !!، وحديث «توسلوا بجاهى، فإن جاهى عند الله عظيم» وتوسل آدم بالنبى ﷺ. وجواز التوسل بالأنبياء، لأن النبى ﷺ توسل بهم فى حديث فاطمة بنت أسد إذ الرسول ﷺ قال- بعد أن اضطجع فى قبرها، ودعا لها - بحق نبيك والأنبياء الذين قبلى، فإنك أرحم الراحمين»[(٢)].

وحديث «اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك»[(٣)] فلماذا لا نقول بحق فلان وفلان؟ وحديث «أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم، ثم بنوح، ثم بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بعيسى، ثم بالنبى ﷺ.»

كما أجازوا التوسل بآل بيت النبى ﷺ، لأن الله تعالى يقول: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[(٤)].

وفسروا معنى المودة فى القربى، هو التودد إلى آل بيت النبى ﷺ، وكذلك استشهدوا بتوسل عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالعباس - عم النبى ﷺ - فى حضرة الصحابة، رضى الله عنهم، وقال عمر: «اللهم إنا كنا نستسقى إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نستسقى إليك بعم نبينا فاسقنا، فيسقون»[(٥)].

وأباحوا التوسل بعموم الصالحين، بعد موتهم، لأن بركة الأموات تتعدى إلى الأحياء، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾[(٦)]، فى قصة الغلامين

---

(١) سورة النساء الآية: ٦٤

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير ٨٧١، والأوسط ١٨٩ وأبو نعيم فى الحلية. وقال الألباني في الضعيفة (٢٣): ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد ١١١٧٢، وابن ماجه ٧٧٨، وابن أبى شيبة فى المصنف ٢٩٢/٢ وغيرهم. وقال الالباني ضعيف الجامع (٥٥٧١): ضعيف.

(٤) سورة الشورى الآية: ٢٣

(٥) أخرجه البخارى ١٠١٠.

(٦) سورة الكهف الآية: ٨٢

اليتيمين. وحديث «إذا أعيتكم الأمور، فاستعينوا بأهل القبور»[١] وهذه أهم ما عندهم من الأدلة. وللرد على تلك الشبهات، نقول- وبالله التوفيق:

أولا: الآيات القرآنية الكريمة:-

أ) قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾[٢].

معناه الوسيلة المشروعة، وليست الممنوعة - على نحو ما وضحناه- ولا يجوز إساءة فهم الآية حتى تشمل كل وسيلة، الجائز والباطل، والمشروع والممنوع!!

فهذا ما لم يقل به عاقل، فضلاً عن عالم.

وهى وإن كانت تدل على الوسيلة المشروعة - على سبيل العموم- فإنها تدل على التوسل بالعمل الصالح- على سبيل الخصوص - كما هو واضح من نص الآية- بالأمر بالتقوى والجهاد، والتقوى هى جوهر هذا الدين ومنزلة رفيعة فيه، ثم وصولا إلى ذروة سنام الإسلام. وهو الجهاد فى سبيل الله.

فهل يجوز تفسير الآية على أن الوسيلة التى تبتغى إلى الله هى عباد أمثالهم، يسألون الله تعالى بذواتهم، ويتوجهون إليه بأشخاصهم، ويقسمون عليه بحقهم؟!! «ايتونى بأثارة من علم إن كنتم صادقين؟!!»

ب) قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[٣].

فلعلها الآن قد وضحت، ونزيد الأمر وضوحا ببيان معناها.

كما قال المحققون من المفسرين: يقول تعالى: يا محمد، قل لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، ادعوا الذين زعمتم من دونه من الأصنام والأنداد فارغبوا

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذا مكذوب باتفاق أهل العلم لم يروه عن النبى ﷺ أحد من علماء الحديث.

(٢) سورة المائدة الآية: ٣٥

(٣) سورة الإسراء الآيتان: ٥٦، ٥٧

إليهم، فإنهم لا يملكون كشف الضر عنهم بالكلية، ولا تحويلا بأن يحولوه إلى غيرهم، إذ لله وحده لا شريك له - الخلق والأمر، والنفع والضر، وهؤلاء المشركون كانوا يعبدون الملائكة أو الجن أو المسيح وعزيرا فهؤلاء الذين يدعون أولئك- أى الجن والملائكة أو غيرهم - وفى الصحيح: كانوا يعبدون ناسا من الجن، فأسلم الجن. وتمسك هؤلاء بدينهم ولا يشعرون بإسلامهم، وفى الوقت ذاته، إذ هم يعبدونهم ويتزلفون إليهم ويتقربون بهم، وكانوا - أى الجن- بعد إسلامهم، يبتغون إلى ربهم الوسيلة ويتقربون إلى الله، ويرجون رحمته بإسلامهم، ويخافون عذابه لما كانوا عليه. وإذا كان هذا حالهم يطلبون ذلك من الله ، فكيف يملكونه لغيرهم، وفاقد الشيء لا يعطيه.

ثم إن الله عز وجل يسأل هؤلاء - المتوسلة بالعبادة- أيهم أقرب؟ آلله عز وجل أم هؤلاء العباد، الذين لا يملكون شيئا ولا نفعا أو ضرا؟ بل الله عز وجل هو أقرب كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[١].

وكما قال ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[٢].

ثم ذكر الرجاء والخوف ولا تتم العبادة إلا بهما[٣].

فالآية حجة على القوم، لا لهم ، ولكنهم لما ذكر لفظ الوسيلة بها، أرادوا أن يضحكوا بها على العامة والدهماء ، والجهلة والبسطاء. !!

جـ) قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[٤].

* ووجه الشبهة فى الآية: أن الآية تأمر بالذهاب إلى النبى ﷺ والتوسل به أو طلب الاستغفار، فهو وسيلتنا إلى الله عز وجل، ولا فارق فى ذلك بين حياته وموته ، إذ ثبت أن رجلا أعرابيا قدم على قبر النبى ﷺ وتلا الآية، ثم قال:

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٨٦

(٢) سورة ق الآية: ١٦

(٣) تفسير ابن كثير جـ٣ ص٤٦، ٤٧ بتصرف

(٤) سورة النساء الآية: ٦٤

وقد ظلمت نفسى، وجئتك تستغفر لى ، فنودى من القبر أنه قد غُفِرَ لك - وفى رواية أخرى - أن النبى ﷺ جاء إلى العتبى، وقال : إلحق بالأعرابى، وبشره بأن الله قد غفر له . ا.هـ(١).

* والرد على ذلك: بأن هـذا الذى ذُكِـرَ لم يصح ، ولا دليـل عليـه، بل لا وجه له فى الآية. إذ معنى الآية- كما ورد فى كتب التفسير الصحيحة- هو أن هذه الآية نزلت فى توبة المنافقين ، وقد جاءت بين الآيات التى تتحدث عن صفات المنافقين.

وتفسيرها: ولو أنهم ظلموا أنفسهم بالتحاكم إلى الطغوت، جاؤك تائبين من النفاق، متنصلين عما ارتكبوه فاستغفروا الله من ذلك بالإخلاص، وبالغوا فى الاعتذار إليك من إيذائك، برد قضائك حتى انتصبت شفيعا لهم إلى الله ومستغفرا لوجدوا الله توابا، أى لعلموه توابا، أو لتاب عليهم ، ولم يقل: واستغفرت لهم ، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيما لشأن رسول الله ﷺ وتعظيما لاستغفاره، وتنبيها على أن شفاعة من الرسول ﷺ تقع من الله بمكان.(٢)

وإذا قيل : العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فهى على المعنى العام- كالآتى:

يرشد الله تعالى العصاة والمذنبين، إذا وقع منهم الخطأ والعصيان، أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ، وسألوه، أن يستغفر لهم - فإنه مجاب الدعاء - فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغَفَرَ لهم ، وهكذا كان يفعل أصحاب النبى ﷺ ، لا فى الاستغفار فقط ، وإنما فى قضاء حوائجهم أيضا، كمن كان يطلب الشفاء، أو الاستسقاء، أو المال، أو غير ذلك(٣).

---

(١) فى إسناده الهيثم بن عدى الطائى اتهمه البخارى بالكذب وتركه النسائى وغيره وقال أحمد: كان صاحب اخبار وتدليس. قال صاحب الكنز: والحديث هنا خال من اله زو وفي المنتخب كذلك. وذكره ابن كثيرفي تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم...﴾.

(٢) انظر: الزمخشرى فى الكشاف

(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥١٩ بتصرف

فالتوسل الوارد والمشروع بالدعاء لا بالأشخاص، على الرغم من منزلتهم ومكانتهم عند الله تعالى ، وحكاية العتبى مع الأعرابى لم تصح، ولا يستشهد بمثلها فى أمور العقيدة والأحكام.

د) وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾

الواردة فى الآية ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾(١).

ووجه الشبهة فيها. أن فى الآية ما يفيد أن بركة الأموات تتعدى إلى الأحياء، ومنهم من يقول: أن التوسل بأصحاب القبور واجب، فإن لصاحب القبر تأثيرا أقوى من تأثير الحى، ولا حرج فى ذلك ما دام المتوسل يعتقد أن الله هو الفاعل. !!

والرد على ذلك: نقول : ما علاقة التوسل بالآية الكريمة؟ وإن الآية تفيد أن صلاح الآباء يمتد نفعه إلى الذرية والأبناء، كما أن فسادهم ينتقل خطره إليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾(٢).

فالصالحون بعد موتهم قد يظهر فى أعقابهم أثر من بركة استقامتهم، ونقول: «قد» لأن للوراثة قوانين سنها رب الوجود الأعلى، ولا نعرف بالضبط اتجاهاتها، وقد كان إبراهيم من نسل رجل كافر، وكان لنوح ابن عنيد فى الضلال، والله يقول - فى ذرية إبراهيم وإسحاق: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾(٣)

ومن المنتسبين إلى الأسرة النبوية فى هذا العصر من أساءوا إلى الإسلام أشنع الإساءة.

فإن كان السائل يقصد أن هؤلاء هم أصنام العصر الحديث الذين يتوسل بهم المتوسلون فقد كفرنا بهم وآمنا بالله وحده.

---

(١) سورة الكهف الآية: ٨٢ — (٢) سورة النساء الآية: ٩

(٣) سورة الصافات الآية: ١١٣

إن الحسين رضى الله عنه ، لم يدفع عن نفسه وهو حى ، فكيف يدفع عن غيره وهو ميت؟ وأما ذلك الذى يوجب التوسل، ويرى أن تأثير الميت أقوى من الحى، فهو رجل مخبول. وزعمه بانتفاء الشرك ما دام الاعتقاد أن الفاعل هو الله، كلام فارغ، وقد رأينا أن المشركين القدماء كانوا يعرفون أن الفاعل هو الله ، وأن توسلهم كان من باب: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾(١)

وأن ندمهم يوم القيامة إنما هو على تسويتهم المخلوق بالخالق ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٢)

وهناك عشرات الآيات التى تؤكد هذا المعنى.

سيقول بعض الناس: إن القدماء كانوا يعبدون، أما عوام اليوم فهم يدعون ويسألون فقط، وشتان بين عبادة الجاهلين. وتوسل المُحَدثين بأولياء الله!!

ونقول: هذه مغالطة، فالسؤال أو الدعاء - بنص القرآن والسنة- عبادة محضة: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾(٣).

وفى الحديث «الدعاء هو العبادة» (٤) فلماذا نتوجه إلى البشر بما هو من خصائص الألوهية؟ وإذا وقع الجهال فى تلك الخطايا بعبادتهم ، فلماذا لا نسارع إلى إنقاذهم منها ، بدل تزوير الفتاوي.(٥)

هـ) قوله تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾(٦)

ووجه الشبهة فيها: أننا نتودد إلى قرابة النبى ﷺ ، وآل بيته وذلك بالتوسل بهم ، والاحتفال بموالدهم وتعظيم قبورهم وتخليد ذكراهم. !!

* وهذا عجب ، وأعجب منه أن الآية، لا تتحدث عن آل البيت، ولا

---

(١) سورة الزمر الآية: ٣
(٢) سورة الشعراء الآيات: ٩٧، ٩٨
(٣) سورة غافر الآية: ٦٠
(٤) صحيح. تقدم.
(٥) عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص٧٩ - ٨٢ بتصرف
(٦) سورة الشورى الآية: ٢٣

التوسل بهم، إذ تفسير الآية - كما جاء - قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش، لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ، مالاً تعطونيه ، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عنى وتذرونى أبلغ رسالات ربى، إن لم تنصرونى فلا تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة، روى البخارى[1] فى صحيحه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى: «إلا المودة فى القربى» فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد، فقال ابن عباس: عجلت، إن محمدا ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة، وانفرد به البخارى، ورواه غيره، بروايات مختلفة.

والزعم بأن القرابة هم آل البيت، أو فاطمة وولدها- رضى الله عنهم- قول لا دليل عليه ، وإنما عرف عن شيخ شيعى محترق، وهو «حسين الأشقر» ولا يقبل خبره فى هذا المحل، وذكر نزول الآية فى المدينة بعيد ، فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة - رضى الله عنها - أولاد بالكلية، فإنها لم تتزوج بعلى - رضى الله عنه - إلا بعد «بدر» من السنة الثانية من الهجرة. والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن «عبد الله بن عباس» - رضى الله عنه - كما رواه عنه البخارى.

ولا ننكر الوصاة بأهل البيت ، والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم ، فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخرا وحسبا ونسبا، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة، الواضحة الجليلة، كما كان عليه سلفهم ، كالعباس وبنيه وعلي وأهل بيته وذريته ، رضى الله عنهم أجمعين.[2]

وليس هذا من ذاك، فليس الحب كالتوسل، فحب آل البيت آية الإيمان، وبغضهم آية النفاق، ولا ينكر هذا إلا جاحد معاند، أو جاهل ضال.

وأما الوسيلة فهى وفق ما حكم الله عز وجل وبيَّن رسوله ﷺ، فلا تجوز بهم

(١) أخرجه البخارى ٤٨١٨ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ٤ ص١١١- ١١٣ بتصرف

بعد مماتهم ، والزعم بأنهم أطهر الناس نسبا، وأرقاهم درجة، ولهم عند الله دولة، وكذلك لهم ما يشاؤن عند ربهم ، كل ذلك لهم، وليس لمن يتوسل بهم، وقصور انسان أو تقصيره، لا يجبره طاعة إنسان آخر وقربة. ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾(١)

ثانيا: الأحاديث النبوية الصحيحة:

أ) حديث الأعمى: «أن رجلا ضرير البصر أتى النبى ﷺ ، فقال : أدع الله أن يعافينى . قال : إن شئتَ دعوتُ لك، وإن شئتَ صبرتَ، فهو خير لك؟ فقال: أدعه، فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء فيصلى ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبى الرحمة، يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه فتقضى لى، اللهم شفعه فىَّ، قال : ففعل الرجل فبرأ.(٢)

ووجه الشبهة فى الحديث، أن يقول المرء: ما دام الضرير قد علمه الرسول ﷺ أن يقول : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبى الرحمة . . الخ، فلم لا أفعل أنا مثله لقضاء حوائجى؟.

والجواب: أن نقول: إن هذا التوسل مركب من عدة أمور، ولا يتم إلا بها، وبعض هذه الأمور قد تعذر الحصول عليه بوفاة الرسول ﷺ ، ألا وهو دعاء الرسول لأحدنا اليوم وشفاعته لنا عند الله تعالى فى قضاء حاجتنا ، وذلك لوفاته ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى، فلو قام أحدنا اليوم يقول: يا رسول الله أدع الله لى أن يقضى حاجتى، لكان قوله باطلا وضلالا، ولا معنى له ، إذ الرسول ﷺ ليس أمامه يسمعه ويراه ولا يدعو الله تعالى له أبدا ، ولو قال أحدنا اليوم هذا الدعاء لكان كاذبا فى قوله، لأنه لم يقدم بين يدى دعائه الرسول ﷺ ، حتى يقول لله تعالى، اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك ، اللهم شفعه فى ، إنما يقول هذا من قام الرسول ﷺ يدعو الله تعالى له ، كما دعا الضرير.

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ٤٣

(٢) صحيح. تقدم.

ومن هنا لم يبق هذا التوسل بتلك الكيفية جائزا ولا نافعا، لفقد أعظم أركانه وأهم عناصره، وهو دعاء الرسول ﷺ للمتوسل، وعلى فرض أن مؤمنا قام فتوسل به، وبرأ من مرضه أو قضيت له حاجته، فإن ذلك لا يدل على جوازه ومشروعيته إذ حاجته قد قضيت بقضاء وقدر.

كما قد يحصل لبعض الناس أن يدعو ميتا، ويتشفع به فتقضى حاجته، ويقول سيدى فلان قضى حاجتى. والحقيقة أن وسيلته شرك محرم وما قضى له من حاجة إنما وافق فيه القدر فقط، لا أن السيد دعا له، وأن الله تعالى قد استجاب له.

هذا ولا بأس يفعل المسلم ما يمكنه فعله من هذه الوسيلة ويتوسل به إلى الله تعالى وهو يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلى ركعتين، ويقول: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بإيمانى وحبى لنبيك نبى الرحمة محمد ﷺ أن تقضى حاجتى، ويسمى حاجته فإنه يرجى أن يستجيب الله تعالى له، ويقضى حاجته.[1]

هذا وليس فى حديث الأعمى أى توسل شركى مما عليه العامة أو يطلبه الجهال، إذ كل طلبه وتوجهه كان إلى الله عز وجل يطلب الأمر ممن يملكه والشفاعة ممن يأذن بها، ومعنى: أتوجه إليك بنبيك، أى بدعائه، لا بشخصه، وإلا ما ذهب إليه، وتوسل بشخصه من أى مكان.، والله أعلم.

ب) حديث توسل عمر «رضى الله عنه» بالعباس رضى الله عنه:

ونصه «أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، كان إذا قحطوا استسقى بالعباس ابن عبد المطلب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون»[2]

ووجه الشبهة فى هذا الحديث أن يقال: مادام عمر- رضى الله عنه - قد قال «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا» وهو إقرار من عمر بأنهم كانوا يتوسلون بالنبى ﷺ، فلم لا نتوسل نحن اليوم بالنبى ﷺ.

(١) عقيدة المؤمن ص ١٤٧، ١٤٨

(٢) اخرجه البخارى (تقدم).

وكذلك توسلـه بالعباس رضى الله عـنه، يدل على جواز التوسـل بآل البيت والصالحين . ! !

وكل من ترجى بركته . وفيه إظهار الإكرام لآل البيت فى صورة العباس رضى الله عنه !!(١) .

والجواب عن هذه الشـبهة : أن توسلهم- رضى الله عـنهم - بالنبى ﷺ كان بطلبـهم منه أن يدعو الله تعـالى لهم بالغـيث فيـدعو فيـستـجيب الله دعـوته، ويسقـيهم، كمـا قد حصل مـرارا ، لا أنهم كانوا يتوسلون إلـى الله تعالى بذات النبى أو بجاهه ﷺ ، فيـقولون: اللهم إنا نتوسل إليك بنبـيك ، أو بجاه نبيك، والنبى غائب عنهم ولم يدع الله تعالى لهم، إذ لو كـان الأمر هكذا لما توسل عمر بالعباس - رضى الله عـنهما- وإنما كان يقول: اللهم إنا نتـوسل إليك بنبيك ، أو بجاه نبيك فاسقنا ، لم يقل عـمر هذا لأنه يعلم أن التوسل بالنبى ﷺ كان بدعائه عليه الصـلاة والسلام لهم،ولما توفى ﷺ لم يبق ليدعـو لهم، فتوسلوا بالعـباس ليدعـو الله لهم فكان يدعو ويسـتجيب الله له ، فـيسقـون . ثم هم فى توسلهم بالعباس هل قالوا بجاه العباس، وبحـقه، وقربه من النبى ﷺ كالذى يقوله العامة فى زماننا؟ بالطبع: لا . وهذا هو الخطأ فى المسألة.

وكـذلك، أساس الخـلاف، فى من مات لا مـن هو من الأحيـاء، وتوسلهم بالنبى ﷺ كـان فى حيـاته، وتوسلهم بالعبـاس بدعائه، وفـى حياته، ولـو كان التوسل جائزا بالأموات ، لتوسلوا بخـير من مات ﷺ ، وهو قريب العهد بهم ، زمانا ومكانا .

ثم مـاذا قال العـبـاس رضى الله عنه ؟ لقـد قـال: « اللهم لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولا يكشف إلا بتوبة، وقد توجـه بى القوم إليك لمكانى من نبيك . وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتـوبة فاسقنا الغيث» فـهذا من دعاء المسلم لإخوانه المسلمين وهو من الجـائز المشروع، واختيار «العـباس رضى الله عنه» ليس لأنه من أهل البيت فقط، وإلا لكان علي وأولاده رضى الله عنـهم أولى بالاختيار

(١) إتحاف الأذكـياء بجـواز التوسل بالأنبـياء والأولياء، تاليـف السـيد عبد الله الصـديق الحسنى الغـمارى ص١٩، ٢٠ .

منه لمكانة «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه - في الإسلام، وبين آل بيت النبي ﷺ وإنما لأنه «العباس» كان كبيراً في السن، وكذلك كان مجتهدا في الطاعة والتقوى بعد إسلامه، وقد يقدم المفضول مع وجود الفاضل وليس ذلك مقصورا على أن يدعو من تتوسم فيهم الصلاح لمن نظن بهم التقصير فهذا خطأ، بل الأمر أعم، وقد طلب الرسول ﷺ من عمر - رضي الله عنه - أن يدعو له، وأمر الرسول ﷺ جمهور الأمة أن يدعوا له، أو لسنا نصلي عليه كما أمر الله؟ فما صلة ذلك بالتوسل على هذا النحو المجنون الذي سقط فيه العامة، وجاراهم عليه الكسالى والمرتزقة والقاصرون من أدعياء العلم؟ (١).

ثالثا: أحاديث ضعيفة، استشهدوا بها كذلك، ومنها:

(أ) قوله ﷺ «من خرج من بيته إلى الصلاة، فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة، وإنما خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تعيذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك» (٢).

ووجهة الشبهة أن يقال: إن النبي ﷺ قال: إني أسألك بحق السائلين عليك، فلمَ لا نتوسل نحن بمثل ذلك، ونقول: اللهم إنا نسألك بحق فلان أو فلان؟

والجواب: أن نقول: إن الحديث الذي ورد فيه هذا اللفظ، حديث ضعيف، والضعيف لا تؤخذ منه الأحكام فضلا عن مسألة تتعلق بالعقيدة كهذه، مع أن هذا اللفظ- لو صح عن النبي ﷺ ما دل على سؤال الله تعالى بحق فلان أو فلان، لأن معنى بحق السائلين عليك. اللهم استجب لي كما تستجيب للداعين لأنك قلت «ادعوني أستجب لكم»، وذلك لأنه ما دام تعالى قد أمر عباده بدعائه ووعدهم بالاستجابة: فقال عز وجل ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (٣)

---

(١) عقيدة المؤمن ص ١٤٩، ١٥٠ بتصرف - وعقيدة المسلم ص٧٨، ٧٩ بتصرف

(٢) أخرجه أحمد ١١٧٢ وابن ماجه ٧٧٨ وحسن إسناده العراقي في تخريج الإحياء. وقال الألباني في ضعيف الجامع (٥٥٧١): ضعيف.

(٣) سورة غافر الآية: ٦٠

أصبح لكل داع الحق أن يطلب من ربه بما وعده به لينجزه له، فمن هنا لما دعا الرسول ﷺ عند خروجه من بيته للصلاة قال مستنجزا ربه وعده «اللهم إنى أسالك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا» فهو قد سأل ربه بصفة من صفاته تعالى الفعلية، وهى الإجابة للداعين، والمثوبة للعاملين بطاعته الماشين إلى بيوته لأداء عبادة الله

قلنا هذا من باب التنزل والفرض، وإلا فما دام الحديث ضعيفا، فإنه لا يلتفت إليه ولا إلى من يحتج به.

(ب) حديث فاطمة بنت أسد- أم على رضى الله عنها: «دخل رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها فقال: يرحمك الله يا أمى، كنت أمى، تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسينى، وتمنعين نفسك طيبا وتطعميننى، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة، ثم أمر أن تُغَسَّل ثلاثا، فلما بلغ الماء الذى فيه الكافور وضعه الرسول ﷺ بيده، ثم خلع قميصه فألبسها إياه، وكفنها ببرد فوقه، ثم دعا أسامة بن زيد، وأبا أيوب الأنصارى، وعمر بن الخطاب وغلاما أسودَ يحفرون، فحفروا قبرها، فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله ﷺ بيده وأخرج ترابه بيده فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه، وقال: الله الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت، اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فإنك أرحم الراحمين، وكبَّر عليها أربعا، وأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر رضى الله عنهما».[1]

فهذا الحديث حكم عليه أهل الحديث بالضعف، فلا يلتفت إليه، ولا يعول عليه، أو يحتج به. وفيما صح عن نبينا ﷺ من التوسلات المشروعة كفاية، فلنأخذ ما صفا، ولنترك ما كدر، وأمثال هذا لا يستدل به فى العقائد.

(جـ) وقوله ﷺ «حياتى خير لكم، تحدثون ويحدث لكم، ووفاتى خير لكم، تعرض علىَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه. وما رأيت من شر

(١) ضعيف. تقدم.
(٢) أخرجه البزار ١٩٢٥ من طريق ابن مسعود، وقال الهيثمى فى المجمع: رجاله رجال الصحيح. وقال الألبانى فى الضعيفة (٩٧٥): ضعيف.

لقد حاول الشيخ أبو عبد الله محمد بن الصديق الغمارى المغربى- فى كتابه - نهاية الآمال فى صحة حديث عرض الأعمال - تصحيح الحديث، وكذلك الشيخ عبد الحليم محمود، والشيخ صالح الجعفرى، والشيخ محمد علوى المالكى - وكلهم أئمة التصوف فى العصر الحديث.

هذا ولقد حاول المتصوفة من خلال هذا الحديث- على الرغم من الاختلاف فى صحته- على أقل الدرجات - إثبات حياة النبى ﷺ حياة كاملة، مع أن ذلك يتعارض مع ظاهر النص «ووفاتى خير لكم» وفى رواية، «ومماتى خير لكم» وكذلك «فإذا مت أنا كانت وفاتى خيرا لكم» فما معنى هذا؟.

إلا أن تكون حياة برزخية معلومة، وكالتى نعرفها عن سائر الموتى وتبقى الخصوصيات التى جعلها الله عز وجل للأنبياء، كقوله ﷺ «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[1] أو ما اختص به ﷺ «ما من أحد يسلم على إلا رد الله على روحي حتى أرد عليه السلام»[2] ولماذا نذهب بعيدا والقرآن الكريم قد حكم على النبي ﷺ بالموت، شأنه فى ذلك شأن كل البشر- فقال تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[3] وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾[4]

ووجه الشبهة في الحديث- عندهم: أنه يدل دلالة صريحة على أن النبى ﷺ يشفع لأمته بعد انتقاله باستغفاره لهم، وعلى هذا يجوز التوسل به لأنه استشفاع، وهو الشفيع المشفع المجاب.

وجواب هذه الشبهة أولا: ضعف الحديث لا ينبنى عليه حكم، لا فى العقائد أو الأحكام.

ثانيا: إنه - على فرض صحته - لا يدل على ما ذهبوا إليه من جواز التوسل والاستشفاع.

---

(١) أخرجه أحمد ٧٠٠/١٦٢، وأبو داود ١٠٤٧، والنسائى ١٣٧٤، وابن ماجه ١٦٣٦، وقال الألبانى فى الجامع (٢٢١٢): صحيح.

(٢) أخرجه أحمد ١٠٨٢٧، وأبو داود ٢٠٤١، وابن راهويه في مسنده ٥٢٦، وقال الألباني في صحيح الجامع (٥٦٧٩): حسن.

(٣) سورة الزمر الآية: ٣٠.

(٤) سورة الأنبياء الآية: ٣٤

ثالثا: استغفار النبى ﷺ لأمته وسيلة مشروعة، كما بيناها.

رابعا: ما معنى عرض الأعمال على النبى ﷺ؟ وهل الاستغفار للمذنبين من أمته شفاعة لهم فى الدنيا قبل الآخرة؟ وهل كل استغفار من النبى ﷺ يكون مقبولا؟ وقد رفض استغفاره لعبد الله بن أبىّ بن سلول، وكذلك لعمه أبى طالب.

خامسا: ألا يتعارض هذا مع قوله ﷺ - فى حديث الحوض «فقيل لى إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك» (١) فلو صح الحديث لعلم ما عليه أمته من خير أو شر.

سادسا: لست أدرى . . ما يعنيه المتصوفة بحياة النبى ﷺ ، وما المراد من ذلك ؟

رابعا: أحاديث موضوعة مكذوبة وهى:-

(أ) «توسلوا بجاهى، فإن جاهى عند الله عظيم»

وهو حديث موضوع لا أصل له، ذكر ذلك الشيخ الألبانى (٢) ونص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية(٣) ومما لا شك فيه أن جاهه ﷺ ومقامه عند الله عظيم. ولكن هذا شىء، والتوسل بجاهه ﷺ شىء آخر، فلا يليق الخلط بينهما، كما يفعل البعض.

(ب) لما اقترف آدم الخطيئة، قال يا رب أسألك بحق محمد إلا غفرت لى، فقال الله: يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: يا رب لما خلقتنى بيدك ونفخت فىَّ من روحك، رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إلىَّ، ادعنى بحقه، فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك.

وهو حديث موضوع، أخرجه الحاكم فى المستدرك، وكذا البيهقى(٤)

---

(١) متفق عليه (البخارى ٦٥٨٥ ، ومسلم ٢٤٧).

(٢) السلسلة الضعيفة للألبانى جـ١ ص ٣٠،٣١

(٣) قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ص١٤١، ١٦١

(٤) السلسلة الضعيفة والموضوعة جـ١ ص٣٨ - ٤٢ بتصرف

وحاول الحاكم تصحيحه، فتعقبه الذهبى بقوله: بل موضوع، وذكر علة وضعه، وكذلك العسقلانى.

(جـ) «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور، أو فاستعينوا بأهل القبور».

فهذا الحديث كذب مفترى على النبى ﷺ، بإجماع العارفين بحديثه، لم يروه أحد من العلماء بذلك، ولا يوجد فى شىء من كتب الحديث المعتمدة، وقد قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾[١]

وهذا مما يعلم بالضرورة من دين الإسلام أنه غير مشروع، وقد نهى النبى ﷺ عما هو أقرب من ذلك - عن اتخاذ القبور مساجد، ونحو ذلك .[٢]

واعلم - أخا الإسلام- أن هذه الأحاديث الضعيفة والموضوعة - لها الآثار السيئة التى تركتها فى التوسل، أنها صرفت كثيرا من الأمة عن التوسل المشروع إلى التوسل المبتدع.

ومهما قيل فى التوسل المبتدع فإنه لا يخرج عن كونه أمرا مختلفا فيه ، فلو أن الناس أنصفوا لانصرفوا عنه احتياطا، وعملا بقوله ﷺ « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[٣] إلى العمل- بما أشرنا إليه - من التوسل المشروع، ولكنهم مع الأسف أعرضوا عن هذا وتمسكوا بالتوسل المختلف فيه ، كأنه من الأمور اللازمة التى لابد منها ولازموها ملازمتهم للفرائض ، حتى ندر التوسل الصحيح المشروع، وكثر التوسل الباطل الممنوع. وذلك من آثار انتشار الأحاديث الضعيفة والموضوعة بين الناس، وجهلهم بالسنة الصحيحة، فعليكم بها - أيها المسلمون - علما وعملا تهتدوا وتَعِزُّوا.[٤]

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٥٨

(٢) قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ص١٤١، ١٦١

(٣) علقه البخارى فى صحيحه من قول حسان بن أبى سنان التابعى وجاء مرفوعًا من حديث الحسن بن على عند أحمد ١٧٢٣ والترمذى ٢٥١٨ والنسائى ٥٧١١ وقال الترمذي: حسن صحيح . وقال الألباني في صحيح الجامع (٣٣٧٨): صحيح.

(٤) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ص٤٣ بتصرف.

خامساً: أدلة عقلية:

(أ) جمهور الناس عصاة، والله إنما يتقبل من المتقين، فلو ذهب الإنسان إلى ربه وهو موقر بالسيئات لم يجب له سؤلا، ولم يسق له فضلا، ومن ثم فعلى الإنسان أن يبحث عن وساطة مقبولة، كولى صالح مثلا.

(ب) لا يسوغ القول بأن هذا شرك لأن النية هى الحكم على الأعمال والمتوسلون لم ينووا شركا أو يرضوا به.

والجواب على هذه الشبهة وتلك:

(أ) فأما إن العاصى ليس له اللجوء إلى الله مباشرة، وأنه أولى به أن يستصحب أحد المقربين قبل مناجاة رب العالمين، فكلام لا أصل له فى الإسلام قط. وذلك لأن إبليس دعا ربه مباشرة وأجيب ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[1]

والمشركون دعوا الله مباشرة وأجيبوا ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[2] فهل عصاة المسلمين يحرمون من حق أخذه إبليس وجنوده؟!

إن أى مسلم يقع فى خطأ فعليه أن يجأر بالدعاء إلى الله على عجل، من غير توسيط نبى ولا ولى، ولا إنسان ولا شيطان.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[3]

ثم إن الرجل إذا كان بحالة لا يقبل منه دعاء معها، فلن يقبل فيه دعاء غيره له، ولو كان سيد الأنبياء، ألا ترى كيف رفض استغفار الرسول ﷺ لعبد الله بن أُبىّ بن سلول؟

وصحيح أن إجابة الدعاء تقتضى الإخلاص والتقوى، ولكن ما صلة ذلك بما نحن فيه؟

(١) سورة الحجر الآيات: ٣٦-٣٨ (٢) سورة يونس الآيات: ٢٢، ٢٣

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٣٥

أتظن أن الرجل إذا فقد الحرارة والصدق والتقى، يذهب إلى ميت أوحى ليجد لديه العوض عما فقده. !!

هذا زعم باطل، وليس فى دين الله ما يؤيده، بل إن دين الله ضده.

(ب) والقول بأن العمل لا ينظر إليه، وإنما تعتبر النية المصاحبة له، غير صحيح، فالعمل المقبول- دينا- يجب أن تتوافر فيه - أولا - النية الصالحة، وثانيا- الصورة المشروعة، وفقدان العمل لأحد هذين الركنين يبطله.

فالعمل المتفق ظاهره مع الشرع إذا كان صاحبه مرائيا أو منافقا يحبط أجره.

والقصد الصالح إذا لم يجر فى طريقه الذى رسمه الدين فلا قيمة له ولا يلتفت إليه[1] ولماذا نستحى من وصف القبوريين بالشرك، مع أن الرسول ﷺ وصف المرائين به؟ فقال: «الرياء شرك».[2]

إن واجب العالم المسلم أن يرمق هذه التوسلات النابية باستنكار ويبذل جهده فى تعليم ذويها طريق الحق، لا أن يفرغ وسعه فى التمحل والاعتذار. !

ولست ممن يحب تكفير الناس بأوهى الأسباب، ولكن حرام أن ندع الجهل يفتك بالعقائد ونحن شهود.

أية جريمة يرتكبها الطبيب إذا طمأن المصدور «المريض» ومنع عنه الدواء، وأوهمه أنه سليم معافى: إن ذلك لا يجوز.....

رزقنا الله صدق التوحيد وأحيانا وأماتنا عليه.

جاء عن النبى ﷺ : «الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا، فى الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على شىء من الجور. وأن تبغض على شىء من العدل، وهل الدين إلا الحب والبغض؟»، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[3]

---

(١) عقيدة المسلم للغزالى ص٥٧- ٧٧ بتصرف

(٢) حديث صحيح (تقدم).

(٣) أخرجه أبو نعيم فى الحلية والحاكم فى المستدرك ٣١٤٨، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الألباني في ضعيف الترغيب ١٧٨٧: ضعيف جداً. والآية من سورة آل عمران الآية: ٣١.

يعنى أن إخلاص التوحيد يقتضى محبة العدل، وكراهية الظلم.

فإذا كان حس الإسلام مرهفا إلى هذا الحد من تمحيص القلوب، ونقد اتجاهاتها الخاطئة، فكيف يسوغ أن تأتى إلى رجل يجهر بالدعاء لغير الله، ويخاف ويرجو غير الله، ثم نقول له: لا بأس عليه ؟!!

إن موقف العالم المسلم فى القضية ليس موقف المحامى الذى يدافع عن المجرم، فيقف ساعة أو أكثر ليزيف التهمة ويؤول القانون . . بل موقف الزائد عن معالم الإسلام. فإذا كان لا يعاقب المتهم، لأنه جاهل - كما يقولون - فليعلمه دين الله ، ولا يتركه نهبا للشياطين.

(جـ) ويقولون: الآيات التى استشهدنا بها على نفى هذه المزاعم نزلت فى المشركين خاصة. فلماذا تسحبونها على المسلمين ؟!!

نقول: إن القول بأن الآيات نزلت فى أهل الجاهلية وحدهم، جهالة لا نأبه لقائلها، ولا نقيم لها اعتبارا، وقد حرم الله الشرك على العرب ، فهو على غيرهم حرام.

وآيات القرآن ينظر فيها إلى عموم اللفظ، لا إلى خصوص السبب.[1]

(د) ويقولون: إذا كان الناس يستشفعون - فى الدنيا - بالوزراء، عند الملوك، وبالوجهاء عند الولاة، فلماذا لا نفعل نحن ذلك؟ وإذا كان الناس - فى الآخرة- يستشفعون بالأنبياء ، كما ورد فى حديث الشفاعة الصحيح، فلماذا تحرمون علينا ذلك؟

نقول: وهل يجوز أن يقاس الله على خلقه؟

وهل يشبه من يسمع بمن لا يسمع، ومن يعدل بمن يظلم؟

وبمن فتح بابه لخلقه بمن أغلق دونهم الأبواب؟

---

(١) راجع: عقيدة المسلم ص ٧٧، ٧٨، ٨٢، ٨٣

لا تسألن بنى آدم حاجة ... وسل الذى أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبنى آدم حين يسأل يغضب

فهل الله تعالى يحتاج إلى من يعلمه ، أو يوصل إليه شكواك؟ وهل، وهل؟

كما أنه يقال: وهل يقاس أمر الاستشفاع فى الدنيا على أمر الشفاعة فى الآخرة؟ والجواب: لا.

وهذه الشبهة العقلية والتى أردفها الحديث الصحيح، هذا ما سنعرفه فى حديثنا عن الشفاعة والاستشفاع فى المبحث القادم؛ إن شاء الله.

«الاستشفاع أو الشفاعة»

وإن مما اشتبه أمره على كثير من المسلمين حتى وقع من وقع منهم فى أمور عظيمة من الباطل: معنى الاستشفاع والتشفع والشفاعة.

فترى أحدهم يدعو غير الله تعالى، ويستغيث بغيره عز وجل، ولا يحسب هذا الدعاء لغير الله ولا يعده شركا فى عبادته سبحانه وتعالى ، وإذا قيل له فى ذلك، وأُنكِرَ عليه، قال: هذا ليس بدعاء لغير الله ولا شرك فى عبادته، وإنما هو استشفاع وتشفع فقط.

فما معنى الاستشفاع، وما حكمه ، وما أنواعه، وما المشروع منه وما الممنوع.

هذا ما نحاول فى هذا البحث بيانه إن شاء الله تعالى- بيانا للحق فيه، تعليما وتحذيرا.

أولا: معنى الاستشفاع:

الاستشفاع والتشفع والشفاعة، هذه الكلمات الثلاث مدلولها واحد، ومعناها لا يختلف وهو: أن يطلب إنسان من آخر التوسط له عند ذى ملك أو سلطان ليقضى له حاجته فى اعطائه ما هو فى حاجة إليه أو فى التجاوز عنه فى ذنب قارفه، أو جريمة ارتكبها.

والكلمات الثلاثة مشتقة من لفظ «الشفع» الذى هو خلاف الوتر «الفرد» وبيان ذلك أن صاحب الحاجة كان واحدا فضم إليه الواسطة، وهو من استشفع به ، وطلب شفاعته فكانا معا شفعا أى اثنين بعد أن كان فردا، من هذا المعنى أخذت كلمات الاستشفاع والتشفع والشفاعة.

ثانيا: حكم الاستشفاع: (أ) «فى الدنيا»

لابأس باستشفاع أحد بآخر عند ذى منصب أو مال أو سلطان ، ليشفع له عنده، يرفع حاجته إليه ، حيث عجز هو عن رفعها إليه لخموله أو قصوره.

وذلك لقوله تعالى: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾(١)

ويؤجر الشافع على شفاعته ولو لم تقضَ حاجة من شفع له ، وذلك لقول النبى ﷺ فى حديث أبى موسى «اشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء»(٢)

وجواز الاستشفاع مشروط بأن يكون فى حق ضاع، أو حق يخشى ضياعه، أو فى شىء مباح ينتفع به، أو نصرة مظلوم، أو أداء واجب ونحو هذا.

أما أن يكون فى إثم باسقاط حق من الحقوق، أو تعطيل حد من الحدود، أو ظلم إنسان ، أو تعدى على حق، وعلى حد فلا، وذلك لبيان الآية أن هذه شفاعة سيئة، ولقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٣)

ولقول الرسول ﷺ «إذا بلغ الحد السلطان فلعن الله الشافع والمشفع»(٤)

ولم يقبل الرسول ﷺ شفاعة أسامة فى المرأة المخزومية - التى سرقت- وقال: «أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة؟»(٥)

فهذا استشفاع فى الدنيا، كما عرفته ، وهو لا تقاس عليه العبادات.(٦)

• قياس خاطىء:

وجهل كثير من المسلمين ربهم عز وجل فلم يعرفوه، فقاسوه - سبحانه وتعالى - على بعض عباده فاستشفعوا عنده بالأولياء والصالحين من أموات

---

(١) سورة النساء الآية: ٨٥

(٢) متفق عليه (البخارى ١٤٣٢، ومسلم ٢٦٢٧).

(٣) سورة المائدة الآية: ٢

(٤) قال الحافظ فى الفتح: أخرجه مالك فى الموطأ وهو منقطع مع وقفه، وهو عند ابن أبى شيبة بسند حسن عن الزبير. وبنحوه عند الطبرانى فى الأوسط والصغير.

(٥) متفق عليه (البخارى ٣٤٧٥ ومسلم ١٦٨٨).

(٦) عقيدة المؤمن ص١٥٣، ١٥٤ بتصرف

المسلمين، وطلبوا منهم الشفاعة لديه سبحانه وتعالى ، فكانوا يقولون: يا فلانا اشفع لى عند ربك فى قضاء كذا وكذا- ويا مولاى فلانا توسلت بك إلى ربى فادع لى يفعل بى كذا وكذا.

ولما يُنْكَرُ عليهم ذلك يقولون: إن الذى لا يستطيع أن يدخل على السلطان يطلب له واسطة!! فجمعوا بذلك بين عظيمتين : الأولى : دعاء غير الله تعالى، وهو شرك أكبر، والثانية: قياس الخالق على المخلوق، وتشبيه به، حيث طلبوا له واسطة كما تطلب للمخلوق من ذوى السلطان.

وجهلوا أن المخلوق قد يخفى عليه أمر الإنسان، فيحتاج إلى من يعلمه به، وينبهه إليه، بخلاف الرب تبارك وتعالى ، فإنه عليم بأحوال عباده ولا يخفى عليه من أمرهم شيء فما هو فى حاجة إلى من يعلمه بأحوال عباده أو ينبهه إليها.

وإذا كان المخلوق قد يعجز عن رفع حاجته إلى من يقضيها له من سلطان وغيره فيضطر إلى البحث عن واسطة، فإن الأمر بالنسبة إلى الله تعالى يختلف تمام الاختلاف إذ العبد مع الله تعالى يمكنه أن يرفع إليه حاجته مباشرة وبدون واسطة، لعلمه تعالى بأحوال عباده، وقربه منهم ، بخلاف المخلوقين فإنهم لجهلهم بأحوال الناس وعجزهم عن كفايتهم يحتاج طالب الحاجة منهم إلى واسطة ترفع حاجتهم إليهم ليعلموها. وتؤثر عليهم ليقضوها، وهذا المعنى منتف مع الله تعالى تماما، ومن هنا قبح بالعبد أن يستشفع على ربه بأحد من خلقه، وحسن به أن يسأل ربه مباشرة وبغير واسطة، إذ لو غلقت عليه كل الأبواب فلن يغلق عليه باب الله ، وإذا جهله الناس فإن الله يعلمه، وإذا ظلمه الناس فإن الله لا يظلمه.

وإذا بعد عن الناس فإن الله قريب منه، يستجيب له ويرحمه وكيف لا ، والله تعالى يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(١)

كما يقول جل وعلا: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾(٢)

وإن قيل : كيف جاز لنا أن يقول بعضنا لبعض: يا فلان أدع الله تعالى لى بكذا؟ أليس هذا هو عين ما نفيتموه من مسألة الاستشفاع بالأولياء؟

(١) سورة البقرة الآية: ١٨٦ (٢) سورة غافر الآية: ٦٠

قلنا: إن هذا ليس من جنس ذاك أبدا، وذلك لأمرين: أولهما: أن هذا قد أذن فيه الشارع لنا، بما سبق ذكره[1] وثانيهما: طلبنا الدعاء من عبد صالح حيّ يسمعنا ويرانا، ويقدر على أن يدعو الله تعالى لنا وهو كطلبنا منه أن يناولنا شيئا أو يعطينا آخر، أفليس هذا جائزا؟ بلى قطعا. وإذاً فأي مانع في أن نقول لمؤمن صالح: ادع الله لنا يا فلان، رجاء أن يستجيب الله له فينا. وهذا بخلاف الاستشفاع بأموات المسلمين، من أولياء، وصالحين، إذ هم أموات، والميت غير مكلف بعبادة ولا دعاء ولا يسمع من يناديه، ولا يعرف من يستشفع به. فنداؤه وطلب الدعاء منه باطل والاستشفاع به ضلال عقلي، وخطأ فكري، وفساد ديني، يبرأ منه الإسلام وأهله، وهذه أقل أحواله، وإلا فهو شرك في عبادة الله، والعياذ بالله تعالى[2].

(ب) وإذا كان ما تقدم من أحكام من الاستشفاع في الدنيا، فإن الشفاعة في الآخرة تختلف عنها اختلافا كبيرا، وذلك لأن الأمر يومئذ كله لله، وليس لأحد غير الله تعالى منه شيء، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۞ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۞ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾[3]

وقد تكون يوم القيامة شفاعات كثيرة غير أنها تجرى على خلاف ما تكون عليه اليوم في الدنيا، وهذا بيانها:

إن الشفاعة تنقسم يوم القيامة إلى قسمين:

١- شفاعة منفية تماما لا حقيقة لها ولا واقع ولا وجود.

٢- وشفاعة ثابتة واقعة لها حقيقة ووجود.

(١) الشفاعة المنفية هي:

(أ) شفاعة الآلهة التي عبدت من دون الله أو معه، فهذه شفاعة لا وجود لها البتة، كما قال تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ

---

(١) بحث الوسيلة: المشروع منها: دعاء المسلم لأخيه المسلم.

(٢) عقيدة المؤمن ص ١٥٤- ١٥٦ بتصرف.

(٣) سورة الانفطار، الآيات: ١٧-١٩.

شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾[١]

كما قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٢] ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[٣]

(ب) شفاعة الكفار والمشركين، إذ لا شفاعة لكافر ، لقول الله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[٥]

وهذه قطعا نفس الكافرين والمشركين، وكما قال تعالى أيضا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[٦]

وقوله تعالى: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[٧]

وبطلت الشفاعة الشركية، وانهارت معها آمال المشركين.

(جـ) شفاعة بدون إذن الله تعالى، أو بدون رضاه، هي شفاعة منفية لا تحدث، وذلك لقوله تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾[٨]

وقوله تعالى: ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾[٩]

وقوله جل وعلا: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن

---

(١) سورة الزمر الآيتان ٤٣ ، ٤٤
(٢) سورة يونس الآية: ١٨
(٣) سورة الأنعام الآية: ٩٤
(٤) سورة المدثر الآية: ٤٨
(٥) سورة البقرة الآية: ١٢٣
(٦) سورة البقرة الآية: ٢٥٤
(٧) سورة غافر الآية: ١٨
(٨) سورة البقرة الآية: ٢٥٥
(٩) سورة الأنبياء الآية: ٢٨

بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾[١]

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾[٢]

(٢) الشفاعة المثبتة ، قسمان:

القسم الأول: شفاعات النبى ﷺ.

القسم الثانى: شفاعات غيره من الأنبياء والملائكة والأولياء والشهداء والصالحين من عباد الله.

(أ) فأما شفاعاته ﷺ فهى كثيرة، ومنها:

١- الشفاعة العظمى، وهى الشفاعة فى فصل القضاء. وهى المقام المحمود الذى ذُكِرَ له فى القرآن الكريم، فى قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[٣]

ووردت كذلك فى حديث الشفاعة، كما هو ثابت فى الصحيحين.

٢- شفاعته فى أناس من أمته، فيدخلون الجنة بغير حساب، وذلك فى حديث الشفاعة أيضا حيث ورد فيه «أَدْخِلْ الجنةَ من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن...»[٤]

٣- شفاعته لأهل الأعراف - الذين استوت حسناتهم بسيئاتهم- كما ورد ذكرهم فى القرآن: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾[٥]

٤- شفاعته ﷺ فى أناس من أمته استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفع لهم فلا يدخلون النار، ولعلهم أصحاب الصغائر التى ماتوا عليها دون توبة منها.

٥- شفاعته ﷺ فيمن دخل النار من أمته فيخرج منها بشفاعته ﷺ،

---

(١) سورة النجم الآية: ٢٦

(٢) سورة سبأ الآية: ٢٣

(٣) سورة الإسراء الآية: ٧٩

(٤) متفق عليه (البخارى ٤٧١٢، ومسلم ١٩٤).

(٥) سورة الأعراف الآية: ٤٦

للحديث الصحيح «لكل نبى دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته، وإنى اختبأت دعوتى لأمتى يوم القيامة فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئا» (١).

(ب) الشفاعات الأخرى للملائكة، والأنبياء ، والشهداء، والأولياء، والعلماء، وكذلك للقرآن والصيام - كما قال تعالى - عن شفاعة الملائكة: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾(٢)

وكذلك: ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾(٣)

وأما شفاعة الأنبياء والعلماء والشهداء فهى ثابتة بعموم القرآن، وخصوص السنة، ففى القرآن الكريم يقول تعالى ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾(٤)

فهى بمفهومها أثبتت وجود الشفعاء.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾(٥)

وكذلك: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾(٦)

فهذه الآيات دالة على وجود شفعاء بمنطوقها وبمفهومها.

وقوله ﷺ: «يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته»(٧).

وعن الصيام والقرآن ، قال ﷺ: « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أى رب منعته الطعام والشهوات بالنهار ، فشفعنى فيه ،

---

(١) متفق عليه (البخارى ٦٣٠٤ ، ومسلم ١٩٨).
(٢) سورة النجم الآية: ٢٦
(٣) سورة الأنبياء الآية: ٢٨
(٤) سورة المدثر الآية: ٤٨
(٥) سورة مريم الآية: ٨٧
(٦) سورة البقرة الآية: ٢٥٥
(٧) أخرجه أبو داود ٢٥٢٢ ، وابن حبان فى صحيحه ٤٦٦٠ ، والبيهقى فى الكبرى ١٨٣٠٨ . وقال الألباني فى صحيح الجامع (٨٠٩٣): صحيح.

ويقول القرآن: أى رب منعته النوم بالليل فشفعنى فيه، قال: فيشفعان[1] وقوله ﷺ «اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه.»[2]

ودلت الآثار على أن الولد يموت فى صغره فيكون شفيعا لوالديه.

(فوائد حول الشفاعة)

- الذى يملك الشفاعة هو الله عز وجل: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[3]

فمن أرادها فليسأله إياها، فمن أراد شفاعة النبى ﷺ، فليسألها من الله تعالى، وليقل: اللهم شفع فىَّ نبيك، أو اللهم ارزقنى شفاعة نبيك، أو يا رب اجعلنى ممن تشفع فيهم نبيك ﷺ ونحو هذا

- الذى يطلب الشفاعة يؤدى من العمل ما يوجبها ويقتضى تحقيقها، ومنه:

١- الإخلاص لله تعالى فى العبادة، ونفى الشرك عنه تعالى، للحديث الصحيح: «من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ فقال: من قال لا إله إلا الله، خالصا من قلبه، أو من نفسه»[4]

٢- كثرة الصلاة، لما صح عنه ﷺ أنه سأله أحد الصحابة مرافقته فى الجنة فقال له «فأعنى على نفسك بكثرة السجود»[5]

٣- الصلاة على النبى ﷺ وسؤال الوسيلة له، وذلك للحديث «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة، لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وارجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت له الشفاعة»[6] ا.هـ[7]

---

(١) أخرجه أحمد ٢٦٢٦، وأبو نعيم فى الحلية، والحاكم فى المستدرك ٢٠٣٦. وقال الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٨٢): صحيح.

(٢) أخرجه مسلم: ٨٠٤.

(٣) سورة الزمر الآية: ٤٤

(٤) أخرجه البخارى ٩٩.

(٥) أخرجه مسلم ٤٨٩.

(٦) أخرجه مسلم ٣٨٤.

(٧) انظر: كتاب الشفاعة للشيخ أبو الوفا محمد درويش ص ٣٢ - ٨٣ وعقيدة المؤمن ص ١٥٧-١٦٣.

«من أحاديث الشفاعة»

ما ورد في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُتيَ رسول الله يوما بلحم فَرُفِعَ اليه الذراع، وكانت تعجبه ، فنهس منها نهسة[(١)] قال: أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بما ذلك ؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي وينفذ فيهم البصر، تدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون، ولا يحتملون ، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس: ائتوا آدم، فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم: إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحا - عليه السلام - فيقولون: يانوح أنت أول رسل الله إلى الأرض، وسماك الله عبدا شكورا ، اشفع لنا عند ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة فدعوت بها على قومي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض؟ اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله- وذكر كذباته- نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى عليه السلام، فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، فضلك الله تعالى برسالاته، وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفسا لم أومر بقتلها، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى عليه السلام، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمت

(١) فنهس: أي أكل منها بمقدم أسنانه.

الناس فى المهد، وكلمة منه ألقاها إلى مريم، وروح منه ، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر له ذنبا- نفسى، نفسى، اذهبوا إلى محمد ﷺ .

فيأتوننى، فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلق فآتى تحت العرش، فأقع ساجدا لربى، ثم يفتح الله تعالى علىَّ، ويلهمنى من محامده، وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه لأحد قبلى ثم يقول: يا محمد، ارفع رأسك فأقول: يا رب أمتى أمتى ، فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذى نفسى بيده أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى.»[(١)]

وفى الصحيحين كذلك - عن أنس رضى الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا - فيأتون آدم فيقولون: أنت الذى خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، فاشفع لنا عند ربك، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته، ويقول: ائتوا نوحا، أول رسول بعثه الله ، فيأتونه فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته، ائتوا ابراهيم، الذى اتخذه الله خليلا. فيأتونه فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته، ائتوا موسى الذى كلمه الله، فيأتونه، فيقول: لست هناكم فيذكر خطيئته ، ائتوا عيسى، فيأتونه فيقول: لست هناكم، ائتوا محمداً ﷺ فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتونى فأستأذن على ربى، فإذا رأيته وقعت له ساجدا فَيَدَعُنِى ما شاء الله، ثم يقال لى: ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل يسمع، واشفع تشفع، فأرفع رأسى، فأحمد ربى بتحميد يعلمنى، ثم أشفع، فيحد لى حدا ثم أخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأقع ساجدا مثله فى الثالثة أو الرابعة حتى ما يبقى فى النار إلا من حبسه القرآن.

وكان قتادة يقول: عند هذا - أى وجب عليه الخلود.[(٢)]

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم (تقدم).

(٢) متفق عليه (البخارى ٤٤٧٦، ومسلم ١٩٣).

وفى بعض رواياته، (فأقول: يا رب أمتى أمتى، فيقول عز وجل: يا محمد، ما تريد أن أصنع فى أمتك ، فأقول يا رب عجل حسابهم) وفى رواية، : «فإذا أراد الله أن يفرغ من خلقه نادى مناد: أين محمد وأمته؟».

وفى حديث أنس - السابق - وقع اشكال، فهو - أى راوى هذا الحديث، ركب شيئا على غير أصله، وذلك أن فى أول الحديث ذكر الشفاعة فى الإراحة من كرب الموقف، وفى آخره ذكر الشفاعة فى الإخراج من النار، يعنى ذلك إنما يكون بعد التحول من الموقف والمرور على الصراط وسقوط من يسقط فى تلك الحالة فى النار، ثم يقع بعد ذلك الشفاعة فى الإخراج، وهو إشكال قوى، يتفق مع ما يذكر فى بقية الأحاديث، قال عياض: فبهذا يتصل الكلام، لأن الشفاعة التى لجأ الناس إليه فيها هى الإراحة من كرب الموقف، ثم تجىء الشفاعة فى الإخراج بعد ذلك ، فقد وقع فى حديث أبى هريرة. بعد ذكر الجمع فى الموقف الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد، ثم تمييز المنافقين من المؤمنين، ثم حلول الشفاعة بعد وضع الصراط والمرور عليه فكأن الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد هو أول فصل القضاء والإراحة من كرب الموقف، قال: وبهذا تجتمع متون الأحاديث وترتب معانيها.

قلت. فكأن بعض الرواة حفظ ما لم يحفظ الآخر، وثبت أنه ﷺ ، أول ما يشفع ليقضى بين الخلق، وقد وقع ذلك صريحا فى حديث ابن عمر، وفيه:

«إن الشمس تدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد، فيشفع ليقضى بين الخلق، فيمشى حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاما محموداً يحمده أهل الجمع كلهم.

ثم الشفاعة فيمن يدخل الجنة من أمته بغير حساب، فيقول الله له: قد شفعتك فيهم ، وأذنت لهم فى دخول الجنة حتى يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وإن لم يعمل خيراً قط.

فعلى هذا قوله «حبسه القرآن يتناول الكفار وبعض العصاة ممن ورد فى القرآن فى حقه التخليد، ثم يخرج العصاة فى القبضة، ويبقى الكفار، ويكون المراد بالتخليد فى حق العصاة المذكورين، البقاء فى النار بعد إخراج من تقدمهم، وفى الحديث «يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة، يسمون

الجهنميين»[1] وفى الحديث أيضا «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله تعالى أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله، فيعرفونهم فى النار، يعرفونهم بأثر السجود تأكل النار من ابن آدم كل شيء إلا أثر السجود، حرم الله النار أن تأكل أثر السجود فيخرجون من النار..»[2].

وكذلك «حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فو الذى نفسى بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله فى استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار، يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار نصف ساقيه وركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحد ممن أمرتنا، ثم يقول ارجعوا، فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا، وكان أبو سعيد الخدرى يقول: إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرؤا إن شئتم ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾[3]

فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط، قد عادوا حمما، فيلقيهم فى نهر فى أنهار الجنة، يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحَجَرِ أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض- فقالوا يا رسول الله: كأنك كنت ترعى بالبادية، قال: فيخرجون كاللؤلؤ،

---

(١) أخرجه البخارى ٦٥٦٦ (٢) أخرجه مسلم ١٨٢

(٣) سورة النساء الآية: ٤٠

فى رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين، فيقول لكم عندى أفضل من هذا، فيقولون، يا ربنا أى شىء أفضل من هذا، فيقول: رضاى فلا أسخط عليكم بعده أبدا.»[1]

وإذا كان ما ذكرناه فى الصحيحين. فقد وردت أحاديث أخرى فى غيرها، ذكرت تلك الشفاعات المثبتة كما بيناها، وزاد البعض عليها، شفاعة زيادة الدرجات فى الجنة، وفصلوا القول فى غيرها.

وقد ذكر ابن كثير فى تفسير قوله تعالى: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[2]

حديثا مطولا - مرويا عن الطبرانى فى كتاب المطولات - وفيه ذكر أنواعا من الشفاعة، ومنه «... قال رسول الله ﷺ حتى يأتونى فأنطلق فأخر ساجدا قدام العرش حتى يبعث الله إلىّ ملكا فيأخذ بعضدى ويرفعنى، فيقول: يا محمد، فأقول: نعم يا رب، فيقول الله عز وجل: ما شأنك- وهو أعلم - فأقول: يا رب وعدتنى الشفاعة فشفعنى فى خلقك،فاقضى بينهم، قال الله: قد شفعتك ، أنا آتيكم أقضى بينكم - فإذا أفضى أهل الجنة، قال أهل جهنم، من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة؟ فيقولون: ... حتى يأتونى ولى عند ربى ثلاث شفاعات وعدنيهن، فأنطلق فآتى الجنة، فآخذ بحلقة الباب فأستفتح.. فأقول يا رب وعدتنى الشفاعة فشفعنى فى أهل الجنة، فيقول الله قد شفعتك .. وقد أذنت لهم فى دخول الجنة .. فأقول يا رب شفعنى فيمن وقع فى النار من أمتى فيقول: أخرجوا من عرفتم، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ، ثم يأذن الله فى الشفاعة، فلا يبقى نبى ولا شهيد إلا شفع ، فيقول الله: أخرجوا من وجدتم فى قلبه زنة دينار إيمانا، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد وحتى لا يبقى فى النار من عمل لله خيرا قط، ولا يبقى أحد له شفاعة إلا شفع، حتى إن إبليس يتطاول

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية: ٧٣

مما يرى من رحمة الله رجاء أن يشفع له، ثم يقول: بقيت وأنا أرحم الراحمين، فيدخل يده فى جهنم، فيخرج منها ما لا يحصيه غيره كأنهم حمم، فيلقون على نهر يقال له نهر الحيوان، فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل. مكتوب فى رقابهم «الجهنميون» عتقاء الرحمن، يعرفهم أهل الجنة بذلك ، ما عملوا خيرا لله قط فيمكثون فى الجنة ما شاء الله وذلك الكتاب فى رقابهم، ثم يقولون: ربنا امح عنا هذا الكتاب، فيمحوه الله عز وجل عنهم.

وبعد ما ذكره بطوله، قال: هذا حديث مشهور وهو غريب جدا. ولبعضه شواهد فى الأحاديث المتفرقة وفى ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع، قاضي أهل المدينة، وقد اختلف فيه. ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقا واحدا، فأنكر عليه ذلك.[1]

هذا ومثل هذه الأحاديث فى الشفاعة لا يقاس عليها التوسل والاستشفاع بالأنبياء والأولياء فى الدنيا، كما زعم المتصوفة، وعلى نحو ما قد بيناه، والله أعلم بالصواب. ا.هـ.

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٤٦

«التبرك أو البركة»

إن التبرك مثل التوسل والتشفع كلها أسيء فهمها، وجهل الناس بحقيقتها أوقع الكثير من المسلمين فى أخطاء كبيرة أخلت بالمعتقد الإسلامى، وأساء للحياة الإسلامية أيما إساءة. فباسم التبرك وتحت شعاره عبدت الأشجار والأحجار، وانتهكت الحرمات، وضيعت الفرائض، وأُسقطت الواجبات، كما أنه باسم التوسل والاستشفاع ذبح لغير الله تعالى واستغيث بغيره عز وجل، وبالجملة فإن ما وقع من الشرك فى هذه الأيام من هذه الأمة- أيام جهلها بكتاب ربها وسنة نبيها، وبعدها عنهما - إنما كان فى الغالب عن طريق التوسل والتشفع والتبرك.

ولهذا رأينا مما ينبغى أن يبحث فى هذا المعتقد ليكون المسلم فيه على علم كامل وبينة تامة ، وبعد أن بحثنا الأول والثانى، ها نحن نبحث الأخير إن شاء الله تعالى، فما هو التبرك؟ وبم يكون، وكيف يكون؟ وما حكمه؟

فنقول وبالله التوفيق:

التبرك مصدر تبرك بالشىء، تبرك به تبركا، إذا تيمن به، والتيمن بالشىء هو طلب اليمن وهو البركة. والبركة هى النماء فى الخير والزيادة فيه مع لزومه واستقراره، ويطلق لفظ البركة على كل كثرة فى الخير، واشتقاقها من بروك البعير وهو استناخته فى موضع ولزومه فيه، فالخير الدائم الثابت فى الشىء والنامى فيه هو البركة.

والبركة فى عرف الدين - ما جعله الله تعالى من الخير فى الشىء الذى يباركه، فقد أخبر تعالى أنه بارك فى أرض الشام أى جعلها مباركة فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾(١) وعن المسجد الاقصى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾(٢) وعن الأرض عموما: ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ

(١) سورة الأنبياء الآية: ٧١
(٢) سورة الإسراء الآية: ١

فِيهَا ﴾(١) وأخبر أنه جعل كتابه مباركا، فى قوله تعالى ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ ﴾(٢) وكذلك: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾(٣) وأخبر عن عيسى عليه السلام - عند تكلمه في المهد - أنه تعالى جعله مباركا أينما كان، فقال: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾(٤) وعن ابراهيم وإسحاق قال: ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾(٥) وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾(٦) وعن المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾(٧) وعن المطر: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾(٨) وعن الطور: ﴿ نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾(٩) وعن ليلة القدر: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾(١٠).

ومن الأدعية المأثورة: « وبارك لى فيما أعطيتنى» وعلى هذا فطلب البركة والتماسها أمر مستحسن شرعا، لأنه من طلب الخير والتماسه، ومن ذا يرغب عن طلب الخير أو يكون له غنى عن بركة الله؟ ولكن بم يكون التبرك، وكيف يكون؟

أما بم يكون التبرك؟

فإن التبرك يكون بما عُلِمَ شرعا أن فيه بركة، وأذن الشارع فى طلبها منه والتماسها فيه، وذلك - كذكر ما سبق - كبيت الله الحرام وزمزم، والمساجد الثلاثة أو المساجد عموما، وكالأرض المقدسة، والأنبياء والقرآن، ونحو هذا.

(١) سورة فصلت الآية: ١٠
(٢) سورة الأنعام الآية: ١٥٥
(٣) سورة ص الآية: ٢٩
(٤) سورة مريم الآيات: ٣١، ٣٢
(٥) سورة الصافات الآية: ١١٣
(٦) سورة الأعراف الآية: ٩٦
(٧) سورة آل عمران الآية: ٩٦
(٨) سورة ق الآية: ٩
(٩) سورة القصص الآية: ٣٠
(١٠) سورة الدخان الآية: ٣

وأما كيف يكون التبرك؟ فالتبرك ببيت الله الحرام يكون بزيارته ، حجا وعمرة، وبالطواف به ، واستلام ركنيه، وتقبيل الحجر الأسود، والنظر إلى الكعبة، والدعاء عنده، والجلوس حوله، وإن كان بزمزم فبالشرب منها لقول الرسول ﷺ : (ماء زمزم طعام طعم، وشفاء سقم)(١)

وإن كان التبرك بمسجد رسول الله ﷺ فبالزيارة، والقصد والاعتكاف، وإن كان بالمسجد الأقصى فبشد الرحال إليه، وقصد الصلاة فيه، بل بتطهيره من دنس أبناء القردة والخنازير، وتحريره من اليهود والصهاينة.

ويجمعهم قوله ﷺ « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام، ومسجدى هذا والمسجد الأقصى». (٢)

وأما التبرك بالأرض المقدسة، فيكون بالتوجه إليها، وسكناها، وتمنى الموت فيها، كقول الداعى «اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك، وموتا فى بلد رسولك ﷺ» وإن كان التبرك بعموم المساجد، فبالصلاة فيها والعبادة بها، والحرص على تعميرها.

وإن كان التبرك بالأنبياء فبالاقتداء بهم، والسير على هديهم، ونهج سيرتهم، وتعظيم شأنهم، خاصة إمامهم، وخاتمهم، سيدنا محمد ﷺ ، وذلك باتباع سنته، والتعرف على سيرته والاقتداء بطريقته، والاهتداء بدعوته، والعمل برسالته ﷺ .

وإن كان بالشهداء فبذكر سيرتهم العطرة، وتمنى الشهادة مثلهم، والسير على منوالهم. وإن كان بالعلماء، فبأخذ العلم عنهم ، وسماع نصائحهم والعمل بإرشادهم وتوجيهاتهم ، وإن كان بالقرآن ، فبحفظه وطلب معرفته، وتدبر آياته، والعمل بأحكامه ، والاحتكام إليه. وإن كان بشيء من الأرض، كأرض الشام، فتطهيرها من دنس اليهود، والأخذ بالأسباب فى زراعتها واستغلال خيراتها، واستخراج بركاتها.

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة ١٤١٣٣ ، والطبرانى فى الكبير ١١١٦٧ ، والبيهقى فى الشعب ٤١٣٠ . وقال الألباني في صحيح الجامع (٣٥٧٢) : صحيح.

(٢) متفق عليه (البخارى ١١٨٩، ومسلم ١٣٩٧).

وإن كان بعموم الأرض، فبالإيمان والتقوى ، وإقامة الحدود فى أرض الله، تؤتى الأرض بركاتها، وتمدها السماء بخيراتها ، حتى تلتقى بركات السماء بخيرات الأرض، فيكثر الخير ويعم الرخاء. وإن كان التبرك بالزمان، كليلة القدر، وليلة الجمعة، ويومها، ويوم عرفة وليلته، وأمثال هذا فبركته والتبرك به ، فى استغلاله فى الطاعة، واغتنامه فى الخير، والتماس استجابة الدعاء.

وهكذا كل ما ورد فيه لفظ البركة فى القرآن والسنة يتبرك به، بما يتفق مع القرآن والسنة لا بما تمليه البدع والأهواء ، فليس من التبرك الصحيح فى شىء أن يتبرك إنسان بولى أو بصالح فيتمسح بالأبواب، ويقبل الأخشاب، ويخر ساجدا على الأعتاب، وليس من التبرك الصحيح أن يتبرك إنسان بالنبى محمد ﷺ ، فيدعوه من دون الله، ويستغيث به ويستنصره، ولا أن يتبرك بالكعبة فيقبل كل أركانها، ويتمسح بجدرانها وهكذا.

ما حكم التبرك؟

هذا وبعد أن بينا ما يشرع التبرك به، وكيف يتم التبرك به ، وجب أن نبين إتماما للبحث حقائق هامة لابد من بيانها وهى:

(١) أن التبرك لم يَعُد كونه مشروعا، وأقصى درجات حكمه أن يكون مستحبا لا غير.

(٢) أن التبرك - وهو طلب البركة - الذى قد يؤدى إلى فعل مكروه، أو ارتكاب محرم، فإنه يجب تركه ، ويتعين عدم فعله ، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع، ويشهد لهذا فعل «عمر رضى الله عنه» - وهو أحد الخلفاء الراشدين الموصى شرعا باتباع سنتهم - فإنه - رضى الله عنه - لما رأى رغبة الناس عند المرور بالحديبية فى طريقهم إلى مكة فى النزول تحت شجرة بيعة الرضوان، للتبرك بها، أمر بقطعها، حسما لمادة الفساد، وإذ لو تركت لعُبِدَتْ كما عُبِدَ غَيرُهَا من أشجار كثيرة باسم التبرك، فى كل زمان، ومكان ، من عهد نوح إلى ساعتنا هذه.

(٣) إن ما يفعله جهلة المسلمين اليوم من شد الرحال إلى زيارة قبر فلان وفلان أو ضريح فلان الولى. الصالح وإقامة الحفلات أو الموالد حولها، والنزول بساحتها، والعكوف والإقامة عندها باسم التبرك، كل هذا باطل منهى عنه، ولم يشرع فعله للمسلمين، وإنما هو من محدثات الأمور، وضلال الابتداع وقد أدى إلى الشرك والعياذ بالله، فكم تسمع من مستغيث بأصحاب تلك الأضرحة، وكم ترى حولها من مستجير بها، وداع ضارع لها وباكٍ خاشع لها، وكم تجد من قطعان البقر والغنم تساق إليها وتذبح قربانا لها، كلّ ذلك تحت شعار التبرك وعنوان التوسل والتشفع ، ألا فلا تبرك ولا توسل، ولا تشفع إذا كان ذلك يؤدى إلى الشرك والكفر. ا. هـ.[١]

---

(١) انظر عقيدة المؤمن ص ١٦٥-١٦٨ وغيرها كالعقيدة الطحاوية، وفتح المجيد شرح كتاب التوحيد

الولاية

* ما هى الولاية، ومن هم الأولياء؟

(أ) معنى الولاية: الولاية فى اللغة: مصدر ولى الشىء يليه، وليا وولاية، إذا دنا منه وقرب أو قام به وملك أمره، أو نصره وأحبه، ويصاغ من فعل ولى المفاعلة، فيقال: والاه يواليه موالاه، إذا صادقه وناصره فهو موال له ، ضد معاد له، كما يصاغ من التولية فيقال: تولاه تولية إذا صار له وليا، ومنه اشتقّ لفظ الولى الذى هو ضد العدو[1] هذا معنى الولاية فى عرف اللغة، وهو لا يختلف عنه كثيرا فى الدين، إذ كلا المعنيين يدور على القرب والحب والنصرة والقيام بالأمر لصالح الولى. وضد الولاية: العداوة وهى تدور على البعد والبغض وإرادة الشر والهزيمة والهلاك للشخص المُعَادى، على عكس الولاية، وبناء على هذا: فولاية الله تعالى للعبد أن يهديه إلى الإيمان به ، وإلى معرفته وطاعته ومحبته، ونصرة دينه فيعمل العبد بذلك ، ويقرب به من ربه عز وجل حتى يحبه فإذا أحبه قربه وتولى أموره، ونصره وحفظه، فكان بذلك وليه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[2]

وولاية العبد للرب تبارك وتعالى أن يؤمن به ويتقيه، ويتقرب إليه بطاعته، ويوافقه فى محابه ومكارهه، ويوالى من يوالى، ويعادى من يعادى، وينصر دينه وأولياءه، وبذلك يكون وليا لله تعالى، قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[3]

* الحالة الجامعة: وتكون الحال الجامعة بين الله تعالى الولى الحميد، وبين العبد المؤمن التقى هى الموافقة فى الحب والبغض، والقرب والمناصرة، والموالاة والمعاداة.

---

(١) راجع لسان العرب. مادة (ولى)

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٥٧

(٣) سورة يونس الآية: ٦٢-٦٤

* ومن هذا يستخلص أصل الولاية وشرطها، فأصلها: الإيمان والتقوى.

وشرطها: الموافقة التامة فى الحب والبغض، والموالاة والمعاداة، ومتابعة الرسول ﷺ فى كل ما جاء به، ودعا إليه من أصول العقائد والعبادات والآداب والأخلاق، متابعة يتجرد فيها العبد لله ويُخْلِصُ له فيها إذ لا تتم محبة الله للعبد إلا بشرط المتابعة للرسول ﷺ ، وذلك لقوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾(١)

وهذا لأن المتابعة فى سبيل طهارة الروح وزكاة النفس، ومن طهرت روحه وزكت نفسه بالإيمان والعمل الصالح، والبعد عن الشرك والمعاصى ، كان أهلا لحب الله تعالى وموالاته عز وجل.(٢)

* الفرق بين الولايتين: إن هناك فرقا بين ولاية الله تعالى للعبد، وبين ولاية العبد لله عز وجل، تجب ملاحظته وهو أن الله تعالى لا يوالى عن افتقار للعبد واحتياج إليه، وإنما يوالى إكراما للعبد وإنعاما عليه، لغناه تعالى عن كل ما سواه، وافتقار كل ما عداه إليه تعالى، وهذا من معانى اسمه «الصمد» وقد نفى الله تعالى فى كتابه العزيز أن يكون له ولى من الذل: فقال تعالى: ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا** ﴾(٣)

وأما العبد فإنه يوالى - إذا وفقه الله تعالى - لفقره وحاجته إلى ربه، إذ هو دائما فى حاجة إلى نصرة ربه ومعونته ، ومحبته ورضاه، وإدنائه منه، وتقربه إليه، إذ لا يسعد العبد إلا فى جوار مولاه، ولا ينعم إلا إذا تغمده ربه برحمته وخلع عليه - فضلا منه - رضوانه. فالمنة إذاً لله تعالى على موالاته لعبده وقبوله له وليا. وأما العبد فلا منّة له بحال ، وليس له أن يُدِلَ وحتى لو لم يبق له هم ولا هوى سوى الله عز وجل.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٣١

(٢) عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى ص١٦٩ - ١٧١

(٣) سورة الإسراء الآية: ١١١

هذا هو الفرق بين ولاية الرب تعالى للعبد، وبين ولاية العبد للرب سبحانه وتعالى فليُعلَمْ فإنه مُهمٌ وجديرٌ بالفهم والمعرفة.[١]

(أ) معنى الولى: إننا بعد معرفتنا للولاية سيسهل علينا - إن شاء الله - معرفة الولى. إن لفظ «الولى» وجمعه أولياء، يكون اسم فاعل بمعنى المتولى غيره، المولى له، ويكون اسم مفعول بمعنى الذى يواليه غيره ويتولاه، فالله تبارك وتعالى وهو الولى الحميد، ولى عبده المؤمن بمعنى أنه هداه للإيمان، ووفقه للطاعة وأدناه منه، وقربه إليه وأحبه، ونصره، فهو مولاه ووليه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[٢]

والمؤمن ولى الله تعالى بمعنى أن الله تعالى هداه وتولاه، وبمعنى إن المؤمن والى الله تعالى، فآمن به واتقاه وأحبه، وأطاعه، ووافقه فى محابه ومساخطه فوالى من يوالى، وعادى من يعادى، وأحب من أحب وما أحب، وكره ما كره ومن كره، فكان بذلك عبده ووليه، قال تعالى فى إثبات هذه الولاية، وذكر كرامتها: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٣]

وقد تقدم هذا المعنى واضحا فى بحث الولاية فازداد وضوحا وتقريرا، وبالجملة فإن ولى الله تعالى من عباده هو مؤمن أكرمه الله تعالى بهدايته، فآمن به واتقاه، وتقرب إليه بالصالحات، ووافقه فيما يحب وما يكره من الذوات والصفات، ووالى من يوالى وعادى من يعادى، فوالاه الله تعالى لذلك، وتولاه وأكرمه بكرامات، فكان إذا دعاه استجاب له وإن استعاذه أعاذه وإن سأله أعطاه.[٤]

ولذلك كان المُعَادِى لولى الله هو المُعَادى لله عز وجل، لأنه عادى من تابع أوامره واجتنب نواهيه، لهذا السبب بخصوصه، فكأنه عادى من أصدر هذه

---

(١) عقيدة المؤمن ص١٧٣ بتصرف
(٢) سورة الأعراف الآية: ١٩٦
(٣) سورة يونس الآيات: ٦٢-٦٤
(٤) عقيدة المؤمن ص ١٧٤

الأوامر والنواهى فى هذا كله، ولهـذا ورد فى الحـديث القـدسى عن أبى هريرة رضى الله عنه «يقول الـله: من عادى لى ولياً فـقد بارزنى بالمحاربة، ومـا تقرب عبدى بمثل ما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بهـا، ولئن سألـنى لأعطينه، ولئن استـعاذ بى لأعـيذنه، ومـا ترددت فى شىء أنا فاعـله ترددى عن قبض نفس عبـدى المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولا بد له منه»(1)

مراتب الأولياء : للأولياء أربع مراتب: عليا، وعالية، ودنيا ، ووسطى.

فالعليا: هى مرتبة الأنبياء والمرسلين، وكـرامتهم ، يصرفونها لله تعالى الذى منَّ بها عليهم، فتكون معجزات تقوم بها الحجة لله تعالى على الناس.

والعاليـة: وهى مرتبـة السابقين المقـربين من أتباع الرسل عليـهم السلام وهم متفاوتون فيها تفاوت الرسل فيما بينهم فى تسامى الدرجات وعلو المنازل.

والوسطى: وأهلها هم أهل الإيمان والتقوى من أصحاب اليمين المقتصدين.

ودنيا: وهى مرتبة أهل الضعف فى الإيمان والتقوى، وهم الظالمون لأنفسهم، المذكورون فى قوله الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾(2)

والشـاهد من هذه الآية الكريمة أن الله تعـالى ذكـر ثلاثة أصناف من الناس، وهم الظالمون لأنفسهم، والمقتصدون، والسابقـون بالخيرات، وحكم على جميعهم بأنهم يدخلون الجنة يُحَلَّونَ فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولبـاسهم فيها حرير،

(1) أخرجه البخارى ٦٥٠٢ . إلا أنه ليس فيه (ولابد له منه).

(2) سورة فاطر الآيات: ٣٢- ٣٥

فدل ذلك على أن أهل الإيمان والتقوى هم كذلك أولياء الله تعالى، وإن ظلموا أنفسهم بترك بعض الواجبات، أو بفعل بعض المحرمات، غير أن درجاتهم دون درجة السابقين ولم تصل إلى درجة المقتصدين، فهم فى منزلة دُونْ، وذلك لضعف إيمانهم وتقواهم.

* ويلاحظ هنا أن أهل هذه المراتب على اختلافهم ، متفاوتون فى العدد، قلة وكثرة، فأهل المرتبة العليا أقل عددا من أهل المرتبة العالية، وأهل المرتبة العالية أقل عدداً من أهل المرتبة الوسطى ، وأهل الوسطى أقل عددا من أهل المرتبة الدنيا، وهذا أمر ظاهر لا يحتاج إلى أكثر من تنبيه إليه.[١]

ويلاحظ أن الأولياء من غير الأنبياء والمرسلين لا عصمة لهم، فقد يخطئون ويغلطون غير أن الغالب فى أحوالهم الحفظ مما يدنس شرف الولاية ويخل بمقامها، وإن وقع أن أحدثوا ذنبا لعدم عصمتهم أحدثوا له توبة على الفور، يقبلها الله تعالى منهم بعد أن وفقهم لها، فيسلم بذلك مقامهم من التداعى والسقوط، ومنزلتهم من النزول والهبوط.[٢]

فكيف يقال: إن الأولياء أفضل من الأنبياء ، عند من يهرف بمثل هذا؟!!

ويقول ابن تيمية: ولكن الولاية قسمان: ولاية عامة تشمل جميع المؤمنين وهى مأخوذة من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾[٣]

وولاية خاصة أعظم قدرا من الأولى وهى مأخوذة من الآية الكريمة: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾[٤]

وهى الواردة فى الحديث القدسى السابق ذكره «من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب . . . . . . الحديث».

فهذه الولاية الخاصة- تزيد عن التى قبلها بمسألة التقوى، وهذه الولاية الخاصة لا تحصل إلا لمن كان من أهل الولاية العامة، ثم زاده الله من طاعته ومحبته له حتى بلغ درجة المحبة التى ذكرها الله عز وجل فى الحديث القدسى المذكور سابقا.[٥]

(١) عقيدة المؤمن ص ١٧٧، ١٧٨
(٢) عقيدة المؤمن ص ١٧٩
(٣) سورة المائدة الآية: ٥٥
(٤) سورة يونس الآيات: ٦٢، ٦٣
(٥) موقف الامام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ١٩٥ بتصرف

ولذلك صح قول القائل، كل الناس أولياء، إما أولياء للرحمن أو أولياء للشيطان، ومن كان وليا للرحمن كان عدوا للشيطان، ومن كان عدوا للرحمن كان وليا للشيطان، إلا أنه لا يطلق لفظ الولاية بصريح العبارة على أصحاب الولاية العامة، أو أصحاب الدرجة الدنيا الظالمى لأنفسهم وإن كان معهم أصل الولاية، كما لا نطلق لفظ الإيمان المطلق على كل المؤمنين، وإن كان معهم مطلق الإيمان، أو أصله. فهذه تقاس على تلك.

فكيف يقال: من زعم لنفسه الولاية فهو كافر!! وأن الولاية لا تكون إلا لأصحاب الكرامات! أو لا تكون إلا لمن مات من أصحاب الأضرحة والقباب ومن يقصدهم الناس بالحاجات!!!

* طريق الوصول إلى الولاية: إذا كانت ولاية الله ومحبته هما الغاية التى يسعى إليها كل مؤمن، فإن الوصول إلى هذه الغاية لا تأتى إلا بأحد طريقتين لا ثالث لهما:

الطريق الأول طريق الإجتباء، وهى المذكورة فى الآية الكريمة:

﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ ﴾[1]

الطريق الثانى: طريق الإنابة وهى المذكورة فى كمال الآية السابقة:

﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

قال العلامة الشيخ صديق حسن خان: والاجتباء: الاختيار، والمعنى يختاره لتوحيده والدخول فى دينه، واجتباء العبد تخصيصه إياه بفيض إلهى لتحصل له أنواع النعم بلا سعى منه.

وقال أيضا فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

أى يوفق لدينه، ويستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته، أو يُقْبِل إلى عبادته[2]

(١) سورة الشورى الآية: ١٣

(٢) فتح البيان لصديق خان جـ٨ص٣٦١ بتصرف

ويترجم الصوفية هذه المعانى الواردة فى الآية الكريمة والتى حددت طريق الوصول إلى محبة الله تعالى وموالاته بقولهم: إن من عباد الله من يسمى مرادا، وهو المقصود بالاجتباء، ومنهم من يسمى مريدا، وهو المقصود بالإنابة.(١)

وبالنسبة لمعنى الاجتباء نقول: لا شك أن الله سبحانه وتعالى هو المالك المتصرف فى الكون وأن له أن يختار من عباده من يشاء ويصطفيه ويفضله على غيره من الخلق، وقد اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين كما جاء فى الآية الكريم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾(٢)

فمن آل ابراهيم من كان نبيا ورسولا، ومنهم من كان وليا ولم يصل إلى درجة النبوة وهم بقية الصالحين من آل إبراهيم، «مريم بنت عمران» التى ثبت لها الولاية لله عز وجل، ولم تثبت لها نبوة ولا رسالة.

ومضمون هذه الطريقة أن الله سبحانه وتعالى له أن يختار من عباده من يلهمه الصلاح والتقوى والعلم وما إلى ذلك من خصائص أوليائه، فيبادره بذلك قبل أن يصل إلى مرحلة التكليف والاختيار قال الله عز وجل فيها: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾(٣)

وأما بالنسبة لمعنى الإنابة: فمن المعلوم أن الهداية درجات، وأن جميع درجات الهداية إنما هى نعم من الله عز وجل على العباد، فمن نعمه عز وجل على عباده أن يوفقهم للإيمان، قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٤)

والمؤمنون بعد أن يشتركوا جميعا فى الإيمان ينقسمون إلى ثلاثة أقسام، وضحتها آية سورة فاطر، وسورة الواقعة.

وهم السابقون بالخيرات فى الدنيا، السابقون إلى الجنة فى الآخرة، والمقتصدون فى الدنيا، أصحاب اليمين فى الآخرة، والظالمون لأنفسهم فى الدنيا

---

(١) عوارف المعارف للسهرودى ص ٤٨

(٢) سورة آل عمران الآية: ٣٣

(٣) سورة الإنسان الآية: ٣

(٤) سورة الحجرات الآية: ١٧

بتقصيرهم أو قصورهم هم أقل الدرجات ولاية فى الدنيا ومنزلة فى الآخرة، ولعل قائلا يقول: ألا يستحق أهل الظلم لأنفسهم العذاب عقوبة ظلمهم؟ فنقول: إن الظالم قد يعذب إن لم يغفر الله عز وجل له ولكنه بعد تطهيره من ذنوبه بالعذاب مصيره الجنة، ولهذا حكمت الآية بعد ذكرهم ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾(١)

والسابقون الذين سلكوا الطريق إلى الله- بعد الإيمان - بأداء الفرائض واجتناب النواهى، ثم يكثرون من النوافل، والبعد عن المتشابهات، والالتزام بالورع - هم أعلى درجات الولاية بعد الأنبياء.

وسلوك هذا الطريق لابد فيه أن يبتدىء بالتعليم، وقراءة القرآن، وحفظ الحديث الشريف، ومعرفة الحلال والحرام، ونحو ذلك من العلوم الضرورية والكمالية.

ولا عبرة بقول من قال: إنه لا يشغل فكره بقراءة قرآن، ولا بالتأمل فى تفسيره ولا يكتب الحديث ولا غيره. ولا تكون بهذه الخلوات المبتدعة التى ظنها الصوفية أنها شبيهة بالاعتكاف، وليست كذلك.

ولا تكون بمجرد الاقتصار على تخلية القلب من كل شاغل له وإفراغه من كل ما فيه من الشواغل والأفكار ما عدا ذكر الله ، كما ادعى الشيخ «أبو حامد الغزالى» . (٢)

فإن من ظن أن مجرد الخلوة والتجرد من المشاغل الفكرية والبدنية توصل إلى ولاية الله الخاصة التى هى أمل كل مؤمن، فهذا خطأ لا شك فيه، إذ لا يقبل الشرع ولا العقل أن ينطوى الانسان على الجهل وينعزل عن العالم ويبتعد عن حلقات الدرس وعن ممارسة الحياة لكى ينتقل من مرحلة الجهل إلى مرحلة خصوصية العلم والولاية دفعة واحدة.

ولا شك أن هذه فكرة غريبة عن الإسلام بدليل أن الإمام الغزالى نفسه الذى

(١) سورة فاطر الآية: ٣٣
(٢) انظر: موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ص١٩٦

شرح هذه الطريقة بدأ ذلك بقوله: وزعموا أن الطريق فى ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية... الخ.(١)

فقوله: (زعموا) دليل على أنه غير واثق من صدق هذا القول، وأنه قول غير مستند إلى أدلة شرعية من الكتاب والسنة.

وكما قالوا: الزعم مطية الكذب ا.هـ.(٢)

ومن الولاية إلى الكرامة.

(١) إحياء علوم الدين للغزالى جـ٣ ص١٩

(٢) انظر: موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ص١٩٦

الكرامة

* معنى الكرامة

الكرامة: الاسم من كَرُمَ، والجمع كرامات، وهى ما يكرم الرب تبارك وتعالى به عباده من أنواع الافضالات، (وهى عامة وخاصة).

فالعامة: هى ما كَرَّمَ الله به بنى آدم، وفضلهم به على غيرهم من هذه المخلوقات الأرضية، ومن ذلك اعتدال القامة، والخَلق فى أحسن تقويم، والعقل، والمنطق، وتدبير المعاش واصلاحه، وتسخير الكون لهم، والانتفاع به، إلى غير ذلك من الإفضال والإنعام، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[١]

والخاصة: وهى أفضلهما: ما يكرم الله تعالى به بعض عباده من هدايتهم إلى الإيمان، وتوفيقهم إلى طاعته تعالى بفعل المأمورات، وترك المنهيات، فهذه الاستقامة على الإيمان والطاعة من أعظم الكرامات، وأهلها هم أصحاب اليمين، المذكورون فى قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾[٢]

وقوله: ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾[٣] ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾[٤]

وهم المبشرون بالجنة فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٥]

وأخص من هذه الكرامة- كرامة الإيمان والاستقامة - ما يكرم الله تعالى به

(١) سورة الاسراء الآية: ٧٠

(٢) سورة الواقعة الآية: ٢٧

(٣) سورة الواقعة الآيات ٩٠، ٩١

(٤) سورة فاطر الآية: ٣٢

(٥) سورة الأحقاف الآيتان: ١٣، ١٤

بعض عباده زيادة على الايمان والتقوى، من الورع، والتقليل من المباحات، والاكثار من نوافل العبادات من صلاة، وصدقات، ورباط، وجهاد، وصيام، وحج، وهؤلاء هم الموصوفون بالمقربين السابقين فى قوله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾[١]

وقوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾[٢]

وهم المعنيون بقول الله تعالى فى حديث البخارى «من آذى لى وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب الىَّ عبدى بمثل ما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه. . . . .» الحديث[٣]

فهؤلاء فى أعلى مرتبة من مراتب الولاية، إذ يعرفون باستقامتهم، واستجابة ربهم لهم فيما يسألونه ويطلبونه، فلو سألوه زوال جبل لزال، ولو أقسموا عليه تعالى لأبرهم، وهم الذين يظهر الله تعالى على أيديهم ببركة دعائهم خوارق العادات كتكثير القليل، وشفاء العليل، وكإكساب المعدوم، والإنقاذ من الهلاك المحتوم.[٤] أو خوض البحار، وعدم الاحتراق بالنار، ونحو ذلك.

ماهية الكرامة: هى ظهور أمر خارق للعادة من قِبَل شخص غير مقارن لدعوى النبوة[٥] ويعتمد كثير من الناس على الكرامات كشاهد يثبت وصول صاحبها إلى درجة عظيمة فى الولاية لله عز وجل، ولكن هذا المسلك أدى إلى الخلط بين الأولياء الحقيقيين الذين تحصل لهم كرامات حقيقية، وبين الأدعياء الدجالين الذين يظهرون بعض المخاريق الشيطانية على أنها كرامات، وهى ليست كذلك.

---

(١) سورة الواقعة الآيات: ١٠-١٤
(٢) سورة فاطر الآيات: ٣٢، ٣٣
(٣) صحيح تقدم
(٤) عقيدة المؤمن ص١٧٥، ١٧٦ بتصرف
(٥) التعريفات للجرجانى ص ١٦١ط القاهرة ١٣٥٧هـ

وقد نشأ هذا الخلط من اشتراك الكرامة مع غيرها فى خرق العادة.

وقد اختلف فى جواز خرق العادات من عدمه على آراء كثيرة، الراجح منها أن خرق العادة جائز، فكل ما خرق لنبى من العادات يجوز أن يخرق لغيره من الصالحين، بل ومن السحرة والكهان أيضا، لكن الفرق أن هذه تقترن بها دعوى النبوة وهو التحدى والإعجاز ، فهذه تكون معجزة للأنبياء، وإن كانت قبل النبوة فهى الإرهاص، وإن كانت غير مقرونة بالتحدى خالية من دعوى النبوة فهى الكرامة الخاصة بالأولياء، أو تكون بمعنى المعونة لعامة المؤمنين.

أما إذا كانت فى معرض المعارضة للأنبياء، فهى الاستدراج للكفار ومن فى حكمهم أو الاهانة لمدعى النبوة من الكذابين.(١)

قال ابن تيمية ما حاصله أن كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء من جنس واحد بلا ريب، ولكن كرامات الصالحين لا تبلغ مثل معجزات الأنبياء والمرسلين، كما أنهم لا يبلغون فى الفضيلة والثواب إلى درجاتهم، ولكن قد يشاركونهم فى بعضها كما قد يشاركونهم فى بعض أعمالهم.

والمعول عليه فى الشهادة على صدق الأنبياء فى نبوتهم معجزاتهم الكبرى، وهذه لا يظهر مثلها على يد أحد، سواء من المعارضين أو الموالين.

أما التوابع والنوافل التى لا يعتمد عليها استقلالا فى الشهادة على صدق الأنبياء فيجوز أن يظهر مثلها على يد الأولياء كرامة لهم ودلالة على صدق النبى الذى اتبعوه، وهذا لا يطعن فى صدق الأنبياء بل يؤيده.

أما ما يروى من أمور كبار حدثت على يد بعض الصحابة - رضى الله عنهم- كما صارت النار بردا وسلاما على أبى مسلم الخولانى ونحو ذلك ، فقد خرجها ابن تيمية، على أنها ليست مجرد كرامات لهؤلاء الصحابة، بل هى معجزات النبى المتأخرة عنه بمنزلة الإرهاصات التى تتقدم مبعثه.(٢)

وبهذا يكون «ابن تيمية» قد وضع قواعد واضحة للتمييز بين المعجزة

---

(١) موقف الامام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ٢٢٧ ، ٢٨٨ بتصرف

(٢) النبوات لابن تيمية ص ٢-٤ بتصرف.

والكرامة، فالمعجزة شيء عظيم لا يحدث إلا لنبى دلالة على صدقه، أما الكرامات فإنها وإن كانت من جنس المعجزات لأن مصدرها واحد هو الله عز وجل، ولأنها خارق حقيقى للقوانين والنواميس الكونية بقدرة الله، وليس كالسحر والشعوذة، كما سيأتى التفريق بينها وبينهم، إلا أن الكرامة من التوابع والنوافل، التى لا تصل إلى حد المعجزات الكبرى.(١)

ويشارك «ابن تيمية» المعتزلة فى القول بأن ما حدث من أمور كبيرة على يد الصحابة إنما هو من المعجزات الخاصة بنبى هذه الأمة وإن جرى على يد تابعه، فلا يصح ضمه إلى جملة الكرامات، إلا أن المعتزلة تعمم ذلك فى كل ما يحدث من خوارق للأولياء وتتخذ من ذلك ذريعة لمنع الكرامات، أما «ابن تيمية» فيخصصه بما كان منها فى درجة المعجزات التى جرت للأنبياء فعلا.

ولقد رد ابن تيمية على المعتزلة انكارهم للخوارق عدا المعجزات، بأن هذه موجودة مشهورة لمن شهدها، متواترة عند كثير من الناس أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الأنبياء.

الفرق بين الكرامات وغيرها من أنواع السحر والشعوذة

يستتبع موضوع البحث فى الكرامة من جهة ثبوتها ومنزلتها بالنسبة للمعجزة أن نميز بينها وبين السحر والشعوذة، ونكتفى هنا بما بذله «ابن تيمية» من جهد مشكور لإظهار الفرق بين الكرامة وبين السحر والشعوذة، بشكل لم أجد له مثيلا فى الدقة والوضوح عند غيره.

فابن تيمية يتخذ من النبوة أساسا للتمييز بين ما يسمى معجزات وكرامات وبين ما يسمى سحر أو شعوذة وكهانة.

فآيات الأنبياء وبراهينهم، ومنها كرامات الصالحين. . . لا توجد إلا مع النبوة والايمان بها، ولا توجد مع ما يناقضها أبدا.

أما خوارق الكهان والسحرة والمشعوذين فلا توجد إلا مع ما يناقض النبوة، لأن السحر والكهانة والشعوذة تناقض النبوة بلا شك.

---

(١) موقف الامام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص٢٣١ بتصرف.

والناس رجلان: رجل موافق للأنبياء، ورجل مخالف لهم، فالمخالف مناقض، وإذا كان كذلك فيقال جنس آيات الأنبياء خارجة عن مقدور البشر، بل وعن مقدور جنس الحيوان.

وأما خوارق مخالفيهم كالسحرة والكهان فإنها من جنس أفعال الحيوان مقدور لجنس الحيوان أو الجان أو الإنسان، فآيات الأنبياء، وكرامات الأولياء مما لا يختص غير الرب بالقدرة عليه لأن فيه خرقا حقيقيا للقوانين الكونية قد يصل إلى تغيير جنس إلى جنس آخر.

أما خوارق الكهان وغيرهم فهى لا تصل إلى هذا الحد، بل لا تتعدى ما هو فى مقدور الإنس أو الجن، فهى إما تَصَرُّفٌ فى أعراض الحى بالحركة أو الموت أو المرض أو إخبار بأمور غائبة عمن أخبر بها، بينما هى لا تكون غيبا بالنسبة لمن حضرها من الجن الذين ينقلونها مع الكذب فيها.

وأما ما يخبر به الرسل من الأمور البعيدة والكبيرة مفصلا فهذا لا يقدر عليه جن ولا إنس. والحاصل أن ابن تيمية ينبه إلى أن خوارق السحرة والكهان والمشعوذين ليس فى الحقيقة إلا أمور مقدورة لبعض المخلوقات دون البعض الآخر.

بينما لا تكون آيات الأنبياء وما فى حكمها ككرامات الصالحين من هذا القبيل مطلقا.

* وأخيرا يمكن أن يقال: إن الكرامات مسألة دينية لا يقف فى سبيلها اعتراض ولا إبطال. فقد كان العمدة فى إبطالها التباسها بالمعجزات فكان فى إثباتها تشويش على معجزات الأنبياء وطعن فى صدق دعواهم أو اشتباهها بالسحر والكهانة، ولكن بما حققه الإمام ابن تيمية اندفع هذا الاشكال بشكل حاسم.

وفوق هذا كله انتفاء المانع من الكرامات فقد ثبت بما يشبه التواتر كرامات كثيرة لكثير من الصالحين فى العصر الأول، وما يليه عن الثقات الذين لا يتطرق الى رواياتهم الشك ولا التكذيب.(١)

---

(١) موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ص٢٣٢، ٢٣٣

* نماذج من الكرامات عند أهل الحق:

نقل ابن تيمية: فى رسالته «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» وغيرها، كثيرا من الروايات الصحيحة التى تذكر أنواعا من الكرامات للأولياء الصالحين. ومنها:-

* ما حدث للأنبياء والمرسلين من معجزات هو لهم من الله كرامة، فإن كانت مقترنة بالتحدى فهى المعجزة قولا واحداً، وأما إن كانت غير مقرونةبالتحدى والاعجاز فهى وإن كانت فى ظاهر الأمر معجزة، الا أنها إلى الكرامة أقرب، إذ ليس فيها تحدى أو إعجاز، كما هو شأن المعجزة، وذلك لأنها تبعا لولاية النبى، إذ - كما عرفت - كل نبى ورسول ولى، وليس كل ولى نبيا أو رسولا، وكل رسول نبى ولى، وليس كل نبى رسولا، فالرسول نبى ولى، ورسالته متضمنه لنبوته، ونبوته متضمنة لولايته ، وإذا قدروا مجرد انباء الله إياه بدون ولايته لله فهذا تقدير ممتنع ، فإنه حالة إنبائه إياه ممتنع أن يكون إلا وليا لله، ولا تكون مجردة عن ولايته، ولو قدرت مجردة لم يكن أحد مماثلا للرسول فى ولايته.(١)

فأفضل أولياء لله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولوا العزم، وأفضل أولى العزم محمد ﷺ ، خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد ولد آدم أجمعين.(٢)

* ومن ذلك ما حدث للنبى محمد ﷺ : مثل تسبيح الحصى فى كفه وإتيان الشجر إليه، وحنين الجذع إليه، وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة، كما أشبعَ فى الخندق العسكرَ من قِدْر طعام وهو لم ينقص. فى حديث أم سلمة المشهور، ورَوَىَ العسكرَ فى غزوة خيبر من مزادة ماء ولم ينقص، وهم نحو ثلاثين ألفا، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه كما كانوا فى غزوة الحديبية نحو ألف وأربعمائة أو خمسمائة، ورده لعين «أبى قتادة» حين سالت على خده فرجعت أحسن عينيه، ولما أرسلَ «محمد بن مسلمة» لقتل «كعب بن الأشرف» فوقع فانكسرت رجله فمسحها فبرئت، وأطعم من شواء مائة وثلاثين

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٥٣ بتصرف
(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٦، ٧ بتصرف

رجلا كلا منهم حز له قطعة، وجعل منها قطعتين، فأكلوا منها جميعهم ثم فضل فضلة، ومثل هذا كثيرا [١] ا.هـ. [٢]

* ومثاله ما حدث لبقية إخوانه من الأنبياء، كما امتن الله عز وجل على الخليل إبراهيم «عليه السلام» بالنجاة من النار، وإكرامه بإنجاب الولد بعد أن بلغ من الكبر عتيا، فضلا عن عقم زوجه، وكذلك ما أكرم الله به «زكريا» عليه السلام من الولد بعد كبر سنه، ومع عقم زوجه أيضا.

وما أكرم الله به «يونس» عليه السلام بإخراجه من بطن الحوت، وما منَّ الله به على «يوسف» عليه السلام فنجاه الله من كيد إخوته، ومن مكر امرأة العزيز، ومن كيد نسوة المدينة، فصرف عنه السوء والفحشاء، وما أكرم الله به «مريم البتول» من الرزق الذى جاءها بغير أسباب، وتساقط الرطب الجنى عليها بشىء من الأسباب، ونطق «عيسى» عليه السلام فى المهد ليبرئها من اتهام اليهود، وما حدث لأهل الكهف من آيات كانت عجبا، وبعثهم بعد نومهم بسنين عددا، وما وقع للعزير إذ دخل القرية الخاوية على عروشها، فحدثت له آية عجيبة، كما ذكر ذلك فى القرآن مفصلا. [٣]

* وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم، وسائر الصالحين كثيرة جدا، مثل:

* ما حدث لأبى بكر رضى الله عنه لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته وجعل لا يأكل لقمة إلا ربى من أسفلها أكثر منها، فشبعوا وصارت أكثر مما هى قبل ذلك فنظر إليها أبو بكر وامرأته، فإذا هى أكثر مما كانت فرفعها إلى رسول الله ﷺ وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا [٤].

وما حدث لعمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه أنه كان يخطب على منبر رسول الله ﷺ بالمدينة، فإذا به يقول: ياساريةُ، الجبلَ، يا ساريةُ، الجبلَ- يوجه قائد معركة يقال له: سارية - فسمع سارية صوته، وانحاز بالجيش إلى الجبل،

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٨٧، ٨٨ بتصرف
(٢) راجع نصوص الأحاديث فى الصحاح
(٣) راجع الآيات بنصها وشروحها
(٤) متفق عليه (البخارى ٦٠٢، ومسلم ٢٠٥٧).

فكان فى ذلك نصرهم، وانهزام أعـدائهم من المشركين، ورجع سارية فأخبـر عمر والصحابة بما سمع من صوت عمر رضى الله عنه.[(١)]

وعـمـر رضى الله عنه، قـال فيـه النبى ﷺ : «قـد كـان فى الأمم قـبلكم مُحَدَّثُونَ، فإن يكن فى أمتـى أحد ،فعُمَرُ منهم»[(٣)] وفى حديث آخـر: «بأن الله ضرب الحق على لسان عـمر وقلبه»[(٤)] وأيضا: «لوكان نبى بعـدى لكان عمر»[(٤)] وكان «على بـن أبى طالب» رضى الله عنه يقول: مـا كنا نبعـد أن السكينة تنطق على لسان عمـر. وقال ابن عمر: ما كان عمـر يقول لشيء: «إنى لأراه كذا، إلا كان كما يقول»، وعن طارق بن شهاب قال: «كنا نتحدث أن عمر نطق على لسانه ملك.»[(٥)]

* وكان عمـر يقول : «اقتربوا من أفـواه المطيعين واسمعوا منـهم ما يقولون، فإنه تتجلى لهم أمور صادقة.»

وهذه الأمـور الصادقـة التى أخبـر بها عـمر بن الخطاب رضى الله عنه أنـها تتجلى للمطيعين هى الأمور التى يكشفـها الله عز وجل لهم. فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبـات ومكاشفات، وأفضل هؤلاء فى هذه الأمة بعـد «أبى بكر» عمر بن الخطاب رضى الله عنهما». فإن خير هذه الأمة بعد نبيها «أبوبكر» و «عمر».[(٦)]

وكم من مرة يوافق عمر رضى الله عنه فيها القرآن، فيدل على أنه محدَّث فى هذه الأمة، ومع هذا فليس هو بمعصوم رضى الـله عنه، فقد خالف النبى ﷺ فى صلح الحديبـية، وأنكر موت النبى ﷺ ثـم رجع عنه، وخالف الصديق فى قـتال مانعى الزكاة ثم عدل عنه.

(١) أخرجه أبو نعيم فى الدلائل، واللالكائى فى السنة، والبيـهقى فى الدلائل وغيرهم. وقال الألباني في الصحيحة (١١١٠) : صحيح.

(٢) اخرجه البخارى ٣٤٦٩ .

(٣) أخرجه أحمد ٢١٥٨٢ ، وأبو داود ٢٩٦٢ ، وابن أبى شيبة فى المصنف ٣١٩٦٨ وغيرهم. وقال الألباني في صحيح الجامع (١٧٣٦) : صحيح.

(٤) أخرجه أحمد ١٧٤٤١ ، والترمذى ٣٦٨٦ ، والطبرانى فى الكبير ٨٢٢ . وقال الترمذي: حسن غريب. وقال الألباني في صحيح الجامع (٥٢٨٤) : حسن.

(٥) أخرجه أحمد فى فضائل الصحابة. وإسناده صحيح.

(٦) الفرقان ص ٣٧ بتصرف

* وقال عثمان رضى الله عنه: لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله عز وجل، ودخل عليه رضى الله عنه رجلان فقال: مالى أرى فى أعينكما أثر الزنا، وقد نظرا إلى امرأة أجنبية قبل الدخول عليه، ثم قالا: أوحى بعد رسول الله ﷺ؟! قال: لا، ولكن سمعت النبى ﷺ يقول: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»(١) وقد تقدم الحديث الصحيح الذى فى البخارى وغيره قال فيه: «لا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، فبى يسمع، وبى يبصر، وبى يبطش، وبى يمشى، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه، وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه.»(٢)

* وما أوتى «على» رضى الله عنه من قوة فى فتح حصن خيبر، وقد كان بعينيه رمد، فبرأ منه بإذن الله، وما قاله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»(٣) وفى قوله ﷺ « كانت امرأة ترضع ولدها، فرأت رجلا على فرس فاره، فقالت: اللهم اجعل ولدى مثل هذا، فالتفت إليه الطفل وهو يرضع، وقال: اللهم لا تجعلنى مثله (٤) فنطق الرضيع كرامة للولد والوالد.

وفى قوله فى جريج العابد وأمه «إذ قالت أمه: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه الموسات» - أى الزانيات - فاستجاب الله لها كرامة منه تعالى لها، وقال ولدها جريج لما اتهموه بأن ولد البغى منه، قال للولد الرضيع: من أبوك؟ فقال: راعى الغنم، فنطق الرضيع كرامة لجريج العابد، وقال عن نفسه وهم يبتسم: «أصابتنى دعوة أمى»(٥)

وقوله ﷺ فى أصحاب الغار الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة فدعوا الله

(١) أخرجه الترمذى ٣١٢٧ والطبرانى فى الأوسط ٧٨٤٣ والحلية لأبى نعيم وقال الترمذي: حديث غريب. وقال الألباني في ضعيف الجامع (١٢٧): ضعيف.
(٢) أخرجه البخارى ٦٥٠٢ .
(٣) متفق عليه بلفظ (البخارى ٤٦١١ ، ومسلم ١٦٧٥).
(٤) متفق عليه (البخارى ٣٤٣٦، ومسلم ٢٥٥٠).
(٥) أخرجه البخارى ٣٤٣٦ دون قوله (أصابتنى دعوة أمي).

وتوسلوا إليه بصالح أعمالهم، فاستجاب الله لهم وفرجها عنهم حتى خرجوا سالمين كرامة لهم.(١)

وقوله فى حديث الراهب والغلام، إذ جاء فيه: أن الغلام رمى الدابة التى كانت قد منعت الجماهير من المرور بحَجَرٍ فماتت ، ومر الناس، فكانت كرامة للغلام، كما أن الملك حاول قتل الغلام بشتى الوسائل فلم يفلح حتى رماه من جبل شاهق ولم يمت، وقذفه فى البحر فخرج منه يمشى، فكان ذلك كرامة للغلام المؤمن الصالح.(٢)

* ومن أمثلة الصحابة رضى الله عنهم أيضا: أن الملائكة كانت تسلم على «عمران بن حصين» رضى الله عنه، وأن «سلمان الفارسى» و «أبا الدرداء» رضى الله عنهما كانا يأكلان فى صحفة فسبحت الصحفة أو الطعام فيها، وهذا مما يشهد له قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾(٣) وأن «خبيبا» رضى الله عنه كان أسيرا عند المشركين بمكة، فكان يؤتى بعنب يأكله، وليس بمكة من عنب. وهذا يشهد له قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٤)

وأن «البراء بن عازب» رضى الله عنه كان إذا أقسم على الله فى شىء استجاب الله له حتى كان يوم القادسية أقسم على الله أن يُمكِّنَ المسلمين من رقاب المشركين، وأن يكون أول شهيد فى المعركة فكان كما طلب. ويشهد له حديث النبى ﷺ: «إن من عباد الله ، من لو أقسم على الله لأبره».(٥)

وأن «العلاء بن الحضرمي» رضى الله عنه كان يقول فى دعائه: يا عليم يا حكيم يا عظيم، فيستجاب له حتى إنه خاض البحر بسرية معه، فلم تبتل سروج خيولهم(٦).

(١) متفق عليه (البخارى ٢٢١٥، ومسلم ٢٧٤٣).
(٢) أخرجه مسلم ٥ - ٣٠٠.
(٣) سورة الاسراء الآية: ٤٤
(٤) سورة آل عمران الآية: ٣٧
(٥) متفق عليه (تقدم).
(٦) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف ٢٩٨٠٤ . وفي إسناده معاوية بن هشام قال الحافظ في التقريب: صدوق له أوهام. وقدامة بن حماطة ذكره ابن حبان في الثقات على قاعدته.

وأن «الحسن البصرى» دعا الله على رجل كان يؤذيه، فخر ميتا فى الحال.

وأن «عامر بن فهيرة» قتل شهيدا فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه، وكان لما قتل رفع، فرآه «عامر بن الطفيل» وقد رفع، وقال عروة : فيرون الملائكة رفعته.

وخرجت «أم أيمن» مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء ، فكادت تموت من العطش، فلما كان وقت الفطرِ وكانت صائمة، سمعت حسا على رأسها فرفعته، فإذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت، وما عطشت بقية عمرها.

«وسفينة» مولى رسول الله ﷺ أخبر الأسد بأنه رُسُولُ رَسُولِ الله ﷺ فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده.

«وسعد بن أبى وقاص» كان مستجاب الدعوة، ما دعا قط إلا استجاب الله له، وهو الذى هزم جنود كسرى وفتح العراق.

«وخالد بن الوليد» حاصر حصنا منيعا، فقالوا: لا نُسْلِمُ حتى تشربَ السُمَّ، فشربه فلم يضره.

ولما عذبت «الزبيرة» على الإسلام فى الله ، فأبت الا الإسلام، وذهبت بصرها، قال المشركون: أصاب بصرها اللات والعزى، قالت: كلا والله.

فرد الله عليها بصرها.(١)

* ومنها أن أسيد بن حضير« رضى الله عنه» كان يقرأ سورة الكهف، فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج، وهى الملائكة نزلت لقراءته(٢) ويؤيد هذه الرواية قوله الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾(٣)

* وأن «عباد بن بشر» و «أسيد بن حضير» خرجا من عند رسول الله ﷺ فى ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط، فلما افترقا افترق الضوء معهما.(٤)

(١) راجع: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٨٨-٩٠ بتصرف، وموقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ٢٣٣، ٢٣٤ بتصرف. ومنهاج المسلم لأبى بكر الجزائرى ص ٦١- ٦٣ بتصرف

(٢) أخرجه البخارى ٥٠١٨ .

(٣) سورة فصلت الآية: ٣٠

(٤) أخرجه البخارى ٣٨٠٥ .

* ودعا «سعيد بن زيد» على أروى بنت الحكَم، فأعمى الله بصرها، لما كذبت عليه، فقال: اللهم إذا كانت كاذبة فأعْمِ بصرها، واقتلها فى أرضها، فعميت ووقعت فى حفرة من أرضها فماتت.[١]

* وما جرى لأبى مسلم الخولانى الذى ألقى فى النار، فإنه مشى هو ومن معه من العسكر على دجلة وهى ترمى بالخشب من مدها، ثم التفت إلى أصحابه فقال: تفقدون من متاعكم شيئا حتى أدعوا الله عز وجل فيه؟ فقال بعضهم: فقدت مخلاة، فقال: اتبعنى، فوجدها قد تعلقت بشىء فأخذها. وطلبه الأسود العنسى لما ادعى النبوة فقال له: أتشهد أنى رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم، فأمر بنار فألقى فيها، فوجده قائما يصلى فيها، وقد صارت عليه بردا وسلاما. وقدِمَ المدينة بعد موت النبى ﷺ فأجلسه عمر بينه وبين أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، وقال: الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فُعِلَ به كما فُعِلَ بإبراهيم خليل الله، ووضعت له جاريته السم فى طعامه فلم يضره، وخببت امرأة عليه زوجته، فدعا عليها فعميت، وجاءت وتابت، فدعا لها، فرد الله عليها بصرها.[٢]

* هذا وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله مزيدا من تلك الكرامات التى صحت والتى تتفق مع ما قرره الدين، قال، وهذا باب واسع، وقد بُسِطَ الكلام على كرامات الأولياء فى غير هذا الموضع.[٣]

ويقول: وأما ما نعرفه نحن عيانا ونعرفه فى هذا الزمان فكثير، ومما ينبغى أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل، فإذا احتاج الرجل إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج، أتاه منها ما يقوى إيمانه، ويسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنيا عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها، لا لنقص ولايته. ولهذا كانت هذه الأمور فى التابعين أكثر منها فى الصحابة بخلاف من يجرى على يديه الخوارق لهدى الخلق ولحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة.[٤]

---

(١) أخرجه مسلم ١٦١٠، والبخاري ٣١٩٨ من طريق أخرى مختصراً.

(٢) أخرج القصة ابن عساكر في تاريخه كاملة وقد أرسلها شرحبيل بن مسلم.

(٣) راجع بتوسع: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وكذلك مجموعة الفتاوى، كلها لابن تيمية.

(٤) الفرقان ص ١٧٩ بتصرف.

* كما ينبغى أن يعلم أن هذه الكرامات التى يظهرها الله على يد بعض أوليائه ليست شرطا فى ثبوت الولاية، ولا فى نفيها، ولما كانت تنقص من درجة من يظهرها الله تعالى على يديه، لأنها بمثابة تعجل الجزاء على الايمان والتقوى فى الدنيا، كان بعض الأولياء يتوبون منها إلى الله تعالى، ويستغفرون لأجلها [١].

* وهذه الكرامات - التى ذكرناها - بخلاف الأحوال الشيطانية. مثل: حال «عبد الله بن الصياد» الذى ظهر فى زمن النبى ﷺ، وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال، وتوقف النبى ﷺ فى أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال. لكنه كان من جنس الكهان. فقال له النبى ﷺ: قد خبأت لك خبئاً، فقال: الدخ الدخ. وقد كان خبأ له سورة الدخان فقال له النبى ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك» يعنى إنما أنت من إخوان الكهان، والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب، كما هو فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره أن النبى ﷺ قال «إن الملائكة تنزل فى ا لعنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضى فى السماء فتسترق الشياطين السمع فتوجه إلى الكهان فيكذبوا معها مائة كذبة من عند أنفسهم» [٢].

وفى الحديث الذى رواه مسلم من حديث ابن عباس رضى الله عنهما. قال: بينما النبى ﷺ فى نفر من الأنصار، إذ رُمِىَ بنجم فاستنار، فقال النبى ﷺ: «ما كنتم تقولون لمثل هذا فى الجاهلية إذا رأيتموه»؟ قالوا: كنا نقول: يموت عظيم، ويولد عظيم، قال رسول الله ﷺ «فإنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمرا سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء والذين يلونهم ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء ثم يسألون أهل السماء السابعة وحملة العرش ماذا قال ربنا؟ فيخبرونهم ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا، وتخطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم، فما جاؤا به على وجهه فهو حق ولكنهم يزيدون» [٣] وفى رواية: قال

(١) عقيدة المؤمن ص ١٧٩ بتصرف.
(٢) أخرجه البخارى ٣٢١٠.
(٣) أخرجه مسلم ٢٢٢٩.

معمر: قلت للزهرى: أكان يُرْمَى بها فى الجاهلية؟ قال: نعم، ولكنها أغلظت حين بُعِثَ النبى ﷺ .

* والأسود العنسى الذى ادعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور الغيبية، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين كفره فقتلوه.

وكذلك « مسيلمة الكذاب» كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات ويعينه على بعض الأمور، وأمثال هؤلاء كثيرون مثل «الحارث الدمشقى» الذى خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوة ، وكان الشياطين يخرجون رجليه من القيد، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده، وكان يُرِى الناس رجالا وركبانا على خيل فى الهواء، ويقول: هى الملائكة، وإنما كانوا جنا، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك: إنك لم تسم الله، فسمى الله فطعنه فقتله.

وهكذا أهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم ما يطردها مثل آية الكرسى، فإنه قد ثبت فى الحديث الصحيح فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه لما وكله النبى، بحفظ زكاة الفطر، فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة وهو يمسكه فيتوب فيطلقه، فيقول له النبى ﷺ : « ما فعل أسيرك البارحة» فيقول: زعم أنه لا يعود ، فيقول: «كذبك وإنه سيعود» فلما كان المرة الثالثة قال: دعنى حتى أعلمك ما ينفعك، إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ إلى آخرها، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فلما أخبر النبى ﷺ قال: «صدقك وهو كذوب»[1] وأخبره أنه شيطان، ولهذا إذا قرأها الانسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها مثل من يدخل النار بحال شيطانى، أو يحضر سماع المكاء والتصدية فتنزل عليه الشياطين وتتكلم على لسانه كلاما ولا يُعْلَم وربما لا يُفْقَه، وربما كاشف بعض الحاضرين بما فى قلبه، وربما تكلم بألسنة مختلفة، كما يتكلم

(١) أخرجه البخاري ٢٣١١ .

الجن على لسان المصروع، والانسان الذى حصل له الحال لا يدرى بذلك بمنزلة المصروع الذى يتخبطه الشيطان من المس، ولبسه وتكلم على لسانه، فإذا أفاق لم يشعر بشيء مما قال، ولهذا قد يضرب المصروع وذلك الضرب لا يؤثر فى الإنس، ويخبر إذا أفاق أنه لم يشعر بشيء لأن الضرب كان على الجن الذى لبسه.

ومن هؤلاء من يأتيه بأطعمة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون فى ذلك الموضع، ومنهم من يطير بهم الجن إلى مكة، أو بيت المقدس أو غيرها، ومنهم من يحمله عشية عرفة ثم يعيده من ليلته فلا يحج حجا شرعيا، بل يذهب بثيابه، ولا يحرم إذا حاذى الميقات، ولا يلبى، ولا يقف بمزدلفة، ولا يطوف بالبيت، ولا يسعى بين الصفا والمروة، ولا يرمى الجمار، بل يقف بعرفة بثيابه ثم يرجع من ليلته، وهذا ليس بحج، كمن فعل ذلك، فقال: ألا تكتبونى؟ فقالوا: لست من الحجاج، يعنى حجا شرعيا.

* وبين كرامات الأولياء وما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة:-

منها: أن كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى، والأحوال الشيطانية سببها ما نهى الله عنه ورسوله. كما تحصل بما يحبه الشيطان، وبالأمور التى فيها شرك كالاستغاثة بالمخلوقات، أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش، فهى من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية.

ومن هؤلاء مَنْ إذا حضر سماع المكاء والتصدية، يتنزل عليه الشيطان حتى يحمله فى الهواء ويخرجه من تلك الدار، فإذا حضر رجل من أولياء الله تعالى طرد شيطانه فيسقط، كما جرى هذا لغير واحد.

ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق إما حى أو ميت سواء كان ذلك الحى مسلما أو نصرانيا أو مشركا، فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به، ويقضى بعض حاجة ذلك المستغيث، فيظن أنه ذلك الشخص، أو هو ملك على صورته، وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتكلم المشركين. ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان، ويقول له: أنا الخضر، وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه، كما قد جرى لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى وكثير من الكفار بأرض المشرق والمغرب، يموت لهم الميت فيأتى

الشيطان بعد موته على صورته وهم يعتقدون أنه ذلك ويقضى الديون ويرد الودائع ويفعل أشياء تتعلق بالميت، ويدخل إلى زوجته ويذهب، وربما يكونون قد أحرقوا ميتهم بالنار كما تصنع كفار الهند، فيظنون أنه عاش بعد موته، ومن هؤلاء شيخ كان بمصر أوصى خادمه، فقال: إذا أنا مت فلا تدع أحدا يغسلنى ، فأنا أجىء وأُغَسِّلُ نفسى، فلما مات رأى خادمه شخصا فى صورته فاعتقد أنه هو دخل وغَسَّلَ نفسه، فلما قضى ذلك الداخل غسله أى غسل الميت غاب، وكان ذلك شيطانا، وكان قد أضل الميت، وقال: إنك بعد الموت تجىء فتغسل نفسك، فلما مات جاء أيضا فى صورته ليغوى الأحياء كما أغوى الميت من قبل ذلك.

ومنهم من يرى عرشا فى الهواء وفوقه نور ويسمع من يخاطبه ويقول: أنا ربك، فإن كان من أهل المعرفة علم أنه شيطان فزجره، واستعاذ بالله منه، فيزول. ومنهم من يرى أشخاصا فى اليقظة يدعى أحدهم أنه نبى أو صديق أو شيخ من الصالحين. وقد جرى هذا لغير واحد. ومنهم من يرى فى منامه أن بعض الأكابر إما الصديق رضى الله عنه أو غيره قد قص شعره أو حلقه وألبسه طاقيته أو ثوبه فيصبح وعلى رأسه طاقية وشعره محلوق أو مقصر، وإنما الجن قد حلقوا شعره أو قصروه.

وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة، وهم درجات والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم وهم على مذهبهم والجن فيهم الكافر والفاسق والمخطىء، فإن كان الانس كافرا أو فاسقا أو جاهلا دخلوا معه فى الكفر والفسوق والضلال، وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر مثل الإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه من الجن وغيرهم، ومثل أن يكتب أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة أو يقلب فاتحة الكتاب أو سورة الإخلاص، أو آية الكرسى أو غيرهن ويكتبهن بنجاسة فيغورون له الماء وينقلونه بسبب ما يرضيهم به من الكفر، وقد يأتونه بما يهواه من امرأة أو صبى إما فى الهواء وإما مدفوعا ملجأ إليه، إلى أمثال هذه الأمور التى يطول وصفها. والإيمان بها إيمان بالجبت والطاغوت، والجبت السحر، والطاغوت الشياطين والأصنام، وإن كان الرجل مطيعا لله ورسوله باطنا وظاهرا لم يمكنهم الدخول معه فى ذلك أو مسالمته.[1]

---

(١) انظر بتوسع: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ٩٤- ١٠٠

فكرامات أولياء الله لابد أن يكون سببها الإيمان والتقوى فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان فهو من خوارق أعداء الله ، لا من كرامات أولياء الله، وإنما تحصل عند الشرك مثل دعاء الميت والغائب، أو بالفسق والعصيان وأكل المحرمات كالحيات والزنابير والخنافس والدم وغيره من النجاسات ومثل الغناء والرقص لاسيما مع النسوة الأجانب والمردان.

وحالة خوارقه تنقص عند سماع القرآن، وتقوى عند سماع مزامير الشيطان، فيرقص ليلا طويلا فإذا جاءت الصلاة صلى قاعدا، أو ينقر الصلاة نقر الديك، وهو يبغض سماع القرآن وينفر عنه ويتكلفه، ليس له فيه محبة ولا ذوق ولا لذة عند وجده، ويحب سماع المكاء والتصدية ويجد عنده مواجيد.

فهذه أحوال شيطانية، وهو ممن يتناوله قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** ﴾[1] فالقرآن هو ذكر الرحمن، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ** ﴾[2]

يعني تركت العمل بها، قال ابن عباس رضى الله عنهما: تكفل الله لمن قرأ كتابه وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة، ثم قرأ هذه الآية ا.هـ.[3]

الفرق بين الولي الصادق والدعي الكاذب

ومما يتعلق بتمييز الكرامة عن غيرها من خوارق العادات، التمييز بين الولى الذى يجوز أن تحدث له الكرامة وبين من هو أعلى منه منزلة وهو النبى، أو من يدعى مثل منزلته كذبا وبهتانا وهو المشعوذ والساحر وغيرهم.

فأما الفرق بين النبى والولى من جهة الخارق الذى يجرى على يد كل منهما، فقد علمنا أن النبى تجرى على يده المعجزات، وهى نوعان سماها «ابن تيمية» معجزات

(١) سورة الزخرف الآية: ٣٦
(٢) سورة طه الآيات: ١٢٤-١٢٦
(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ١٠٧-١١٠

كبرى «وهى دليل صدقه، ونوع من التوابع والنوافل سماها «معجزات صغرى»

والولى تحدث على يده الكرامات وقد تشتبه بالمعجزات الصغرى أو تماثلها ولكن النبى يختص بالعصمة دون الولى، فالمعجزة للنبى دليل على عصمته من الخطأ فيما أرسل من أجله وهو التشريع.

أما الولى فكرامته إنما تدل على صدق النبى الذى آمن به هذا الولى واتبعه فى شريعته، ولا تدل بحال على عصمته هو أن يخطىء فى بعض أعماله أو عبادته أو توجيهاته لأنه لم يُرسَل ويُصْطَفى من الله عز وجل لهذا الغرض كالنبى وإنما هو مجتهد فيه، أما النبى فقد اصطفاه الله من عباده لهذا الغرض.

ومن هنا وجبت طاعة النبى مطلقا، بينما لا تجب طاعة الولى مطلقا إلا فيما عليه دليل شرعى واضح، وفارق آخر بين المعجزة والكرامة هو أن الكرامة تحدث بحسب حاجة الولى، فإذا احتاج إليها لتقوية إيمانه جاءه منها ما يكفيه لتقوية إيمانه أو احتاج إليها لفك ضيق عليه أو على من يدعو له جاءه من ذلك ما يفرج كربته، ويجيب دعاءه، بخلاف المعجزات فإنها لا تكون إلا لحاجة الخلق وهدايتهم.(١)

ويقول شيخ الإسلام «ابن تيمية» ما نصه: وكرامات الصالحين تدل على صحة الدين الذى جاء به الرسول، ولا تدل على أن الولى معصوم ولا على أنه يجب طاعته فى كل ما يقوله.

ومن هنا ضل كثير من الناس من النصارى وغيرهم، فإن الحواريين مثلا كانت لهم الكرامات كما تكون الكرامات لصالحى هذه الأمة، فظنوا أن ذلك يستلزم عصمتهم كما يستلزم عصمة الأنبياء، فصاروا يوجبون موافقتهم فى كل ما يقولون، وهذا خطأ.(٢)

والحقيقة أن كثيرا من المسلمين أيضا قد وقع فيما وقع فيه النصارى من الخطأ

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ص٧٧

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ص٢٩

الذى ذكره ابن تيمية، فمجرد أن يشتهر شخص بشىء من الكرامات ترتفع درجة الثقة فى أقواله وتوجيهاته وأوامره ونواهيه إلى حد أن أكثر الناس لا يقبل فيها جدلا بتاتاً ولا يعرضها على ما جاء فى الكتاب والسنة، أو لربما كان الرجل واهما فى بعض أموره ولم يتحقق من صحتها مع صلاح نيته ولكن هذا الصلاح فيه لا يوجب اقراره على الخطأ إذا علم فيه، كما لا يمنع من الرد عليه إذا لزم الأمر.

ولكننا إذا رجعنا إلى الصوفية نجد أن كثيرا منهم يقيسون منزلة الولى الدينية بمقدار ما يجرى على يديه من كرامات، ومن هنا نجدهم يتسابقون فى تخصيص كل واحد من مشائخهم بنوع من الكرامات لا ينافسه فيه غيره كاختصاص الرفاعية بإمساك الثعابين، وعدم التأثر بسمها.. الخ[1]

وقد وصل الأمر ببعضهم إلى أمور لا يجوز أن تحدث لنبى من الأنبياء فضلا عن الولى، كما يحكى الشعرانى عن علي الخواص أنه كان محل كشفه اللوح المحفوظ.[2]

فهذا وإن كان محض افتراء ممن قال به، وتكذبه الآيات القرآنية، كقوله تعالى: ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا** ﴾[3]

لكن هذا الافتراء يبين لنا مدى ما وصل إليه حال بعض الصوفية من اعتماد على الكرامات كوسيلة توصلهم إلى درجة مرموقة من الولاية عند الجماهير.

وما كانت مثل هذه الأمور لتنطلى على بعض المسلمين لولا اشتباه الأمر عندهم فى خصائص الأولياء، بحيث اعتقدوا أن من تحدث على يديه الكرامات يكون معصوما كأنه من الأنبياء، فكل ما يقوله أو يأمر به يجب تصديقه وطاعته فيه.

وأما تمييز الولى الصادق الذى قد تجرى على يديه الكرامات من الدعى

---

(١) أقطاب التوف الثلاثة - صلاح عزام : ص ٢٩
(٢) طبقات الصوفية للشعرانى: جـ٢ - ص١٣٥
(٣) سورة الجن الآيات: ٢٦، ٢٧

الكاذب الذى يموه على الناس ويخدعهم، فإنما يكون ذلك بحسب صلاحه وتقواه من قيامه بالفرائض والنوافل واتقائه الكبائر والصغائر، واتصافه بالصفات الكريمة واستدامته عليها، فإن اتصف شخص بكل هذه الصفات الطيبة وعُرِفَت عنه ثم حدث على يديه شيء من الخوارق فيما لا يخالف الشرع فيجوز أن يطلق على ذلك الخارق اسم كرامة. أما إن كان الرجل على خلاف ذلك مشتهرا بالفسق والفساد والضلال وغير ذلك، فإن كل ما يجرى على يديه لا يعتد به، بالغا ما بلغ، والله أعلم.(١)

هذا، وبعد بيان توحيد الربوبية، والألوهية وما يستتبع ذلك من بيان معانى الوسيلة والشفاعة والبركة والولاية والكرامة، ننتقل إلى بيان النوع الثالث من التوحيد وهو توحيد الأسماء والصفات والأفعال مضيفين إليه توحيد الذات أيضاً.

(١) موقف الامام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ٢٣٦، ٢٣٧

عقيدتنا فى الأسماء والصفات هى عقيدة السلف الصالح

وإليك مجمل اعتقاد السلف فى توحيد الأسماء والصفات

توحيد الأسماء والصفات

الإيمان بأسماء الله وصفاته أحد أركان الإيمان بالله تعالى ، وهى الإيمان بوجود الله تعالى ، والإيمان بربوبيته والإيمان بألوهيته ، والإيمان بأسمائه وصفاته، والإيمان بكماله سبحانه وتعالى.

وتوحيد الأسماء والصفات أحد أقسام التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات، فمنزلته فى الدين عالية ، وأهميته عظيمة ، ولا يمكن لأحد أن يعبد الله على الوجه الأكمل، حتى يكون على علم بأسماء الله تعالى وصفاته ليعبده على بصيرة ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾ [(١)] وهذا شمل دعاء المسألة ودعاء العبادة .

فدعاء المسألة أن تقدم بين يدى مطلوبك من أسماء الله تعالى ما يكون مناسبا مثل أن تقول : يا غفور اغفر لى، ويا رحيم ارحمنى . . ونحو ذلك.

ودعاء العبادة أن تتعبد لله تعالى بمقتضى هذه الأسماء ، فتقوم بالتوبة إليه لأنه التواب ، وتذكره بلسانك لأنه السميع ، وتتعبد له بجوارحك لأنه البصير ، وتخشاه فى السر لأنه اللطيف الخبير ، وهكذا .

* هذا ويجب الاعتقاد بأن أسماء الله تعالى كلها حسنى ، أى بالغة فى الحسن غايته ، وذلك لأنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، لا احتمالاً ولا تقديراً .

مثال ذلك : «الحى» اسم من أسماء الله تعالى متضمن للحياة الكاملة التى لم تسبق بعدم ، ولا يلحقها زوال ، الحياة المستلزمة لكمال الصفات من العلم والقدرة والسمع والبصر وغيرها .

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٠ .

ومثال آخر: «العليم» اسم من أسماء الله متضمن للعلم الكامل، الذى لم يُسبق بجهل، ولا يلحقه نسيان، قال تعالى: ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى ﴾ (١) العلم الواسع المحيط بكل شىء جملة وتفصيلاً، سواء ما يتعلق بأفعاله، أو أفعال خلقه، قال الله تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾(٢).

* أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف، فهى أعلام، باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعانى: وهى بالاعتبار الأول مترادفة لدلالتها على مسمى واحد، وهو الله عز وجل، وبالاعتبار الثانى متباينة لدلالة كل واحد منها على معناه الخاص فى الحى، العليم، القدير، السميع، البصير، الرحمن، الرحيم، العزيز، الحكيم، كلها أسماء لمسمى واحد، وهو الله سبحانه وتعالى.

لكن معنى الحى غير معنى العليم ومعنى العليم غير معنى القدير وهكذا.

صفات الله تعالى كلها صفات كمال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

* الواجب فى نصوص القرآن والسنة اجراؤها على ظاهرها دون تحريف لاسيما نصوص الصفات حيث لا مجال للرأى فيها، وظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار ومجهولة لنا باعتبار آخر، باعتبار المعنى هى معلومة، وباعتبار الكيفية التى هى عليها مجهولة، وبذلك يكون التفويض فى علم معانى نصوص الصفات ليس من مذهب السلف، لأنهم قد أثبتوا المعانى لهذه النصوص إجمالاً وتفصيلاً، وتفويضهم للكيفية، فقد جعلوا ذلك إلى علم الله عز وجل.

* * *

(١) سورة طه: ٥٢.
(٢) سورة الأنعام: ٥٩.

منهج السلف الصالح فى الأسماء والصفات

ـ إثبات ما أثبتـه الله لنفسه فى كتابه وعلى لسـان رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل .

* التحريف : لغة : التغيير، واصطلاحًـا : تغيير لفظ النص أو معناه، مثال الأول : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهَ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [1] بنصب لفظ الجلالة ، ليكون التكليم من موسى لا من الله ، ومثال تغـيير المعنى ، تغيير معنى اسـتواء الله على عرشه من العلو والاستقرار إلى الاستيلاء والملك لينتفى معنى الاستواء الحقيقى .

* التعطيل لغة الترك والتخليـة ، واصطلاحًا : إنكار ما يجب لله من الأسماء والصفات ، إمـا كلية كتعطيل الجهمـية ، وإما جزئيا كتـعطيل الأشعرية الذين لم يثبـتوا من صفات الله إلا سـبع صفات، مجـموعة فى قـولهم : حى عليم قدير والكلام له إرادة وكذلك السمع والبصر .

* التكييف والتمثيل : فالتكييف إثبات كيـفية الصفة، كأن يقول : استواء الله على عرشه كيفيته كذا وكـذا، والتمثيل إثبات مماثل للشئ كان يقول : يد الله مثل يد الإنسان.

والفرق بينهـا أن التمـثيل ذكر الصـفة مقـيدة بمماثل ، والتـكييف ذكرها غـير مقيدة.

ـ أسماء الله تعـالى وصفاته توقيفيـة ، والتوقيفى ما توقف إثبـاته أو نفيه على الكتاب والسنة بحيث لا يجوز إثباته ولا نفيه إلا بدليل منها فليس للعقل فى ذلك مجال لأنه شىء وراء ذلك .

ـ وأسماء الله وصفاته من المحكم فى معناهـا ، فمعناها معلوم ، ومن المتشابه فى حقيقتها ، لأن حقائقها لا يعلمها إلا الله .

ـ وتنقسم صفات الله تعـالى باعتبار الثبوت وعدمه إلى قـسمين : ثبوتية وهى

---

(1) سورة النساء : ١٦٤ .

التى أثبتها الله لنفسه كالحياة والعلم ، وسلبية وهى التى نفاها الله عن نفسه كالإعياء والظلم.

والصفة السلبية يجب الإيمان بما دلت عليه من نفى ، وإثبات ضده ، فقوله تعالى : ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[1] يجب الإيمان بانتفاء الظلم عن الله وثبوت ضده وهو العدل الذى لا ظلم فيه.

- وتنقسم صفات الله باعتبار الدوام والحدوث إلى قسمين : صفات دائمة لم يزل ولا يزال متصفا بها كالعلم والقدرة ، وتسمى صفات ذاتية. وصفات تتعلق بالمشيئة إن شاء فعلها ، وإن شاء لم يفعلها كنزوله إلى السماء الدنيا ، وتسمى صفات فعلية، وربما تكون الصفة ذاتية فعلية لاعتبارين كالكلام فإنه بالنظر إلى أصله صفة ذاتية ، لأن الله لم يزل ولا يزال متكلمًا ، وباعتبار آحاده وأفراده التى يتكلم بها شيئًا فشيئًا صفة فعلية، لأنه يتعلق بمشيئته .

- طريقة القرآن والسنة فى صفات الله تعالى هى الإجمال فى النفى، والتفصيل فى الإثبات غالبًا . لأن الإجمال فى النفى أكمل وأعم فى التنزيه من التفصيل ، والتفصيل فى الإثبات أبلغ وأكثر من المدح فى الإجمال، ولذلك نجد الصفات الثبوتية كثيرة فى الكتاب والسنة كالسميع، البصير، العليم، القدير. الغفور، الرحيم . . . الخ، أما الصفات السلبية فهى قليلة مثل نفى الظلم والتعب والغفلة والولادة والمماثل والند والمكافئ.

الإيمان بأن الله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2] ونؤمن بأن الله عز وجل عليٌّ على خلقه بذاته وصفاته لقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾[3] وقوله: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾[4] ونؤمن بأنه ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾[5] واستواؤه على

(١) سورة الكهف : ٤٩ .
(٢) سورة الشورى : ١١، ١٢ .
(٣) سورة البقرة : ٢٥٥ .
(٤) سورة الأنعام : ١٨ .
(٥) سورة يونس : ٣ .

العرش علوه عليه بذاته، علواً خاصاً يليق بجلاله وعظمته ، لا يعلم كيفيته إلا هو .

- ونؤمن بأن الله تعالى مع خلقه وهو على عرشه ، يعلم أحوالهم ويسمع أقوالهم ويرى أفعالهم ، ويدبر أمورهم ، يرزق الفقير ، ويجبر الكسير ، يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير .

ومن كان هذا شأنه كان مع خلقه حقيقة ، وإن كان فوقهم على عرشه حقيقة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [1] ولا نقول كما تقول الحلولية من الجهمية وغيرهم إنه مع خلقه فى الأرض، ونرى أن من قال ذلك فهو كافر أو ضال لأنه وصف الله بما لا يليق به من النقائص.

- ونؤمن بما أخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم: «أنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول : من يدعونى فأستجيب له، ومن يسألنى فأعطيه، ومن يستغفرنى فأغفر له [2] .

- فهو إثبات الأسماء والصفات ، مع نفى مماثلة المخلوقات ، إثباتًا بلا تشبيه ، وتنزيها بلا تعطيل ، كما قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[3] ففى قوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ رد للتشبيه والتمثيل ، وقوله ﴿ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ رد للإلحاد والتعطيل .

ولهذا إذا سمى الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء، وكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه لا يشركه فيها غيره ، وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم ، مضافة إليهم ، توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص، فلا يلزم من اتفاق الاسمين ، تماثل مسماها واتحاده عند الإطلاق والتجريد، فلابد من اثبات ما أثبته الله لنفسه ، ونفى مماثلته بخلقه .

* القول فى بعض الصفات كالقول فى بعض، أو إثبات بعض الصفات إثبات للباقى. والقول بالصفات كالقول بالذات .

(١، ٣) سورة الشورى : ١١ .

(٢) متفق عليه (تقدم) .

إثبات الصفات الذاتية لله تعالى

مثل الوجه : صفة لله ذاتية ثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به ، ودليله قوله تعالى : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (١) والجلال : العظمة ، والإكرام : إعطاء الطائعين ما أعد لهم من الكرم. ولا يجوز تفسير الوجه بالثواب، لأنه مخالف لظاهر اللفظ ، وإجماع السلف، وليس عليه دليل.

اليد : إن يدى الله من صفاته الذاتية الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به، يبسطها كيف يشاء، ويقبض بهما ما شاء ، ودليلها قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (٢) وقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (٣) ولا يجوز تفسير اليدين بالقوة لأنه مخالف لظاهر اللفظ، وإجماع السلف، وليس عليه دليل، وفى السياق ما يمنعه وهو التثنية، لأن القوة لا يوصف الله بها بصيغة التثنية.

العين : إن عين الله من صفاته الذاتية الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به ينظر بهما ويبصر ويرى ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (٤) وقوله ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٥) وقوله ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٦) ولا يجوز تفسيرهما بالعلم ولا بالرؤية مع نفى العين لأنه مخالف لظاهر اللفظ وإجماع السلف على ثبوت العين لله ، ولا دليل عليه.

والجواب عن تفسير بعض السلف قوله تعالى: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾(٦) أى بمرأى منا، أنهم لم يريدوا بذلك نفى حقيقة معنى العين، وإنما فسروها باللازم مع إثباتهم العين، وهذا لا بأس به، بخلاف الذين يفسرون العين بالرؤية وينكرون حقيقة العين.

* الوجوه التى وردت عليها صفة اليدين والعينين : لقد وردت هاتان الصفتان على أوجه : إفراد ، وتثنية، وجمع .

---

(١) سورة الرحمن : ٢٧ .
(٢) سورة المائدة : ٦٤
(٣) سورة ص : ٧٥ .
(٤) سورة طه : ٣٩
(٥) سورة الطور : ٤٨ .
(٦) سورة القمر: ١٤ .

فمثال الإفراد : قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ [١] كذلك قوله : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [٢] .

ومثال التثنية : قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [٣] وفي الحديث الشريف «أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة»[٤] .

ومثال الجمع : قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾[٥] و ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [٦] .

والجمع بين هذه الوجوه : أنه لا منافاة بين الإفراد والتثنية ، لأن المفرد المضاف يعم ، فإذا قيل : يد الله ، وعين الله، شمل كل ما ثبت له من يد أو عين. وأما التثنية والجمع فلا منافاة بينهما أيضًا ، لأن المقصود بالجمع هنا التعظيم وهو لا ينافي التثنية .

السمع : سمع الله تعالى من الصفات الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به، ودليله قوله تعالى :﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [٧]

وينقسم إلى قسمين :

الأول : بمعنى الإجابة ، وهذا من الصفات الفعلية ، ومثاله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [٨] .

الثاني : بمعنى إدراك المسموع، وهذا من الصفات الذاتية ، ومثاله قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ... ﴾[٩] .

وهذا القسم قد يراد به مع إدراك المسموع، النصر والتأييد كقوله تعالى لموسى وهارون :﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [١٠] .

---

(١) سورة الملك : ١ .
(٢) سورة طه : ٣٩ .
(٣) سورة المائدة : ٦٤
(٤) أخرجه البخاري ٣٩٦٥ .
(٥) سورة يس : ٧١ .
(٦) سورة القمر : ١٤ .
(٧) سورة البقرة : ١٣٧ .
(٨) سورة إبراهيم : ٣٩ .
(٩) سورة المجادلة : ١ .
(١٠) سورة طه : ٤٦ .

وقد يراد به أيضًا التهديد كقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .. ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى .... ﴾ (٢)

الرؤية : الرؤية صفة من صفات الله الذاتية الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به، وتنقسم إلى قسمين :

أحدهما : بمعنى البصر وهو إدراك المرئيات والمبصرات ، ودليلها قوله تعالى: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (٣). وقوله: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٤).

والقسم الثاني : الرؤية بمعنى العلم ، ودليلها قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ⦗٦⦘ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ (٥). أي نعلمه .

والقسم الأول من الرؤية قد يراد به مع إدراك المرئي النصر والتأييد مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (٦).

وقد يراد به أيضًا التهديد كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾(٧).

الكلام : قول أهل السنة في كلام الله أنه صفة من صفاته تعالى لم يزل ولا يزال يتكلم بكلام حقيقي، بصوت - لا يشبه أصوات المخلوقين - وحروف يتكلم بما شاء وكيف شاء ، وأدلتهم على ذلك كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (٨) وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ (٩).

والدليل على أنه بصوت ، قوله تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ (١٠).

---

(١) سورة آل عمران : ١٨١ .
(٢) سورة الزخرف : ٨٠ .
(٣) سورة طه : ٤٦ .
(٤) سورة الشورى : ١١ .
(٥) سورة المعارج : ٦، ٧ .
(٦) سورة طه : ٤٦ .
(٧) سورة العلق : ١٤ .
(٨) سورة النساء : ١٦٤ .
(٩) سورة الأعراف : ١٤٣ .
(١٠) سورة مريم : ٥٢ .

ومن السنة قوله ﷺ : يقول الله تعالى : « يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادى بصوت أن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار، فيقول يا ربى: وما بعث النار ؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة . . . » الحديث (1) .

ودليلهم على أنه بحروف قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾(2) فمقول القول هنا حروف .

ودليلهم على أنه بمشيئة، قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾(3) . فالتكليم حصل بعد مجىء موسى عليه السلام .

وكلام الله تعالى صفة ذات باعتبار أصله ، فإن الله لم يزل ولا يزال قادرًا على الكلام متكلمًا .

وصفة فعل باعتبار آحاده ، لأن آحاد الكلام تتعلق بمشيئته، متى شاء تكلم .

القدم : القدم ثابت لله تعالى لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال جهنم يلقى فيها وهى تقول : هل من مزيد ، حتى يضع رب العزة فيها رجله - وفى رواية - عليها قدمه، فينزوى بعضها إلى بعضها وتقول قط قط. . »(4) وفسر أهل السنة الرجل والقدم بأنها حقيقة على الوجه اللائق بالله .

- وفسر أهل التأويل الرجل بالطائفة أى الطائفة الذين يضعهم الله فى النار ، والقدم بالمقدمين إلى النار.

ويرد عليهم بأن تفسيرهم مخالف لظاهر اللفظ، وإجماع السلف، وليس عليه دليل.

وكذا جاءت بلفظ «الساق» فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (5) .

وقد فسرها حديث النبى ﷺ « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن

(1) متفق عليه (البخارى ٣٣٤٨ ، ومسلم ٢٢٢).
(2) سورة البقرة : ٣٥
(3) سورة الأعراف : ١٤٣ .
(4) متفق عليه (البخارى ٦٦٦١ ، ومسلم ٢٨٤٨).
(5) سورة القلم : ٤٢ .
(6) أخرجه البخارى ٤٩١٩ .

ومؤمنة. . » إلى آخر الحديث الذى فسر به الآية »[٦].

وإن ذكر عن ابن عباس قوله فى الآية : « هو يوم القيامة، يوم كرب وشدة ، فإن كلامه عن معنى اليوم ، ولا يتنافى مع ذكر الساق ، ولا يتعارض ، ولأن تفسير الحديث للآية واضح، وهو خير أنواع التفسير ، فالرسول ﷺ - وهو المبلغ عن ربه - أعلم بتفسير كلام الله ومراده، وقد أثبت الساق لله، فى قوله «يكشف ربنا عن ساقه».

فهل يجوز لمسلم أن يترك تفسير الرسول ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى، ويأخذ بتفسير غيره المعرض للخطأ ؟!! .

إثبات الصفات الفعلية لله تعالى

مثل: محبة الله، ودليلها ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[١] أو **الود** في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾[٢].

والود خالص المحبة، ولا يجوز تفسير المحبة بالثواب، لأنه مخالف لظاهر اللفظ، وإجماع السلف، وليس عليه دليل.

ومثل: «المغفرة والرحمة لله» في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٣] والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه، والرحمة صفة تقتضي الإحسان والإنعام. وتنقسم إلى قسمين: عامة، وخاصة.

فالعامة هي: الشاملة لكل أحد، والدليل قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٤] ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[٥].

والخاصة: التي تختص بالمؤمنين، ودليلها قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[٦] ولا يصح تفسير الرحمة بالإحسان، لأنه مخالف لظاهر اللفظ وإجماع السلف ولا دليل عليه.

الرضا والغضب والكراهة والمقت والأسف:

الرضا: صفة من صفات الله مقتضاها محبة المرضى عنه والإحسان إليه، ودليلها قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[٧].

والغضب: صفة من صفات الله مقتضاها كراهة المغضوب عليه والانتقام منه، وقريب منها صفة السخط، ودليل اتصاف الله بها قوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ

---

(١) سورة المائدة: ٥٤.
(٢) سورة البروج: ١٤.
(٣) سورة الفتح: ١٤.
(٤) سورة الأعراف: ١٥٦.
(٥) سورة غافر: ٧.
(٦) سورة الأحزاب: ٤٣.
(٧) سورة التوبة: ١٠٠ وغيرها.

عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ﴾[١] وكذلك : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾[٢].

والكراهة: صفة من صفات الله الفعلية مقتضاها إبعاد المكروه ومعاداته، والدليل عليها قوله تعالى : ﴿ وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ ﴾[٣].

والمقت: أشد البغض ، والبغض قريب من معنى الكراهية ، ودليل المقت فى قوله تعالى :﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾[٤].

والأسف: له معنيان، أحدهما : الغضب ، وهذا جائز على الله ، والدليل قوله تعالى :﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[٥] أى أغضبونا .

والثانى : الحزن ، وهذا لا يجوز على الله أن يوصف به، لأن الحزن صفة نقص، والله منزه عن النقص .

ولا يجوز تفسير الرضا بالثواب ، والغضب بالانتقام، والكراهة والمقت بالعقوبة ، لأنه مخالف لظاهر اللفظ وإجماع السلف وليس عليه دليل .

المجئ والإتيان: من صفات الله الفعلية وهما ثابتتان لله على الوجه اللائق به، ودليلهما قوله تعالى :﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[٦] وقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ ﴾[٧]

ولا يصح تفسيرهما بمجىء أو إتيان أمره، لأنه مخالف لظاهر اللفظ، وإجماع السلف، ولا دليل عليه.

النزول: للحديث «ينزل ربنا إلى السماء كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعونى فأستجيب له، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له»[٨] ومعنى النزول عند أهل السنة أنه ينزل بنفسه سبحانه نزولاً حقيقيًا يليق بجلاله ولا يعلم كيفيته إلا هو ، وقالوا: إن نزوله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى السماء

(١) سورة النساء : ٩٣ .
(٢) سورة محمد : ٢٨ .
(٣) سورة التوبة : ٤٦ .
(٤) سورة الصف : ٣ .
(٥) سورة الزخرف : ٥٥ .
(٦) سورة الفجر : ٢٢ .
(٧) سورة البقرة : ٢١٠ .
(٨) متفق عليه (تقدم) .

الدنيا لا ينافى علوه ، لأن الله سبحانه ليس كمثله شيء، ولا يقاس نزوله بنزول مخلوقاته .

وليس كما هو عند أهل التأويل نزول أمره لأنه خلاف ظاهر النص وإجماع السلف، ولأن أمر الله ينزل فى كل وقت ،وليس خاصًا بثلث الليل الآخر، ولأن الأمر لا يمكن أن يقول : من يدعونى فأستجيب له .....الخ !!

الفرح والضحك والعجب :

الفـــرح : ثابت لله لقولـه ﷺ : «لله أشد فرحًا بتوبة عبـده من أحدكم براحلته. . . »(١) الحديث .

وهو فرح حقـيقى يليق بالله، ولا يصح تفسيره بالثـواب، لأنه مخالف لظاهر اللفظ وإجماع السلف .

الضـحك : ثابت لله تعالى لقوله صلى الـله عليه وسلم: « يضحك الله إلى رجلين يقتل أحـدهما الآخر، كلاهمـا يدخلان الجنة » (٢) . وفـسـره أهل السنة والجمـاعة بأنه ضحك حـقيقى يليق بالـله . وفسره أهل التـأويل بالثواب ، ونرد عليهم بأنه مخالف لظاهر اللفظ، وإجماع السلف، وحول معنى الحديث أن كافرًا يقتل مسلمًا فى الجهاد، ثم يسلـم ذلك الكافر ويموت على الإسلام فيدخلان الجنة كلاهما .

والعــجب : ثابت لله تعالى لقـول الرسول ﷺ « لقد عـجب الله عز وجل -أوضحك - من فلان وفلانة. . . »(٣) الحديث . والممتنع على الله من العجب هو ما كان سـببه الجهل بطرق المتعجب منه ، فإن الله لا يخـفى عليه شيء ، أما العجب الذى سـببه خروج الشيء عن نظائره، أو عما ينبـغى أن يكون عليه، فإن ذلك ثابت لله . وقد فسره أهل السنة بأنه عجب حقيقى يليق بالله ، وفسره أهل التـأويل بثواب الله أو عـقوبتـه ، ويرد عليهم بأنه خـلاف ظاهر النص وإجماع السلف

(١) أخرجه مسلم ٢٦٧٥ .
(٢) متفق عليه (تقدم) .
(٣) متفق عليه (البخاري ٤٨٨٩ ، ومسلم ٢٠٥٤) .

العلو.الاستواء.المعية.هل الله فى السماء؟

«العلو» بمعنى الارتفاع ، وهو على ثلاثة أقسام :

١ـ علو الذات : ومعناه أن الله بذاته فوق خلقه .

٢ـ علو القَدْر : ومعناه أن الله ذو قدر عظيم لا يساويه فيه أحد من خلقه ولا يعتريه معه نقص.

٣ـ علو القهر : ومعناه أن الله تعالى قهر جميع المخلوقات ، فلا يخرج أحد منهم عن سلطانه وقهره .

أدلة العلو من الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة .

فمن الكتاب: قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [(١)] ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾[(٢)] ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[(٣)] ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[(٤)] ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾[(٥)] .

ومن السنة: «إقراره الجارية حين سألها: أين الله ؟ قالت: فى السماء ، فلم ينكر عليها ، بل قال اعتقها فإنها مؤمنة»[(٦)] ، وفى حجة الوداع أشهد النبى ﷺ ربه على إقرار أمته بالبلاغ، وجعل يرفع أصبعه إلى السماء ثم ينكتها إلى الناس وهو يقول : « اللهم اشهد »[(٧)] .

واما الإجماع على علو الله فهو معلوم بين السلف ولم يعلم أن أحدًا منهم قال بخلافه.

وأما العقل فلأن العلو صفة كمال، والله سبحانه متصف بكل كمال، فوجب ثبوت العلو له.

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٥ .
(٢) سورة الأعلى : ١ .
(٣) سورة النحل : ٥٠ .
(٤) سورة طه : ٥ .
(٥) سورة الملك : ١٦ .
(٦) أخرجه مسلم ٥٣٧ .
(٧) أخرجه مسلم ١٢١٨ .

وأما الفطرة فإن كل إنسان مفطور على الإيمان بعلو الله، ولذلك إذا دعا ربه وقال يا رب لم ينصرف قلبه إلا إلى السماء.

وقد أنكرت الجهمية من أقسام العلو علو الذات، ونرد عليهم بما سبق من الأدلة.

هل العلو يعنى الجهة؟ معلوم أنه ليس فى النص إثبات لفظ الجهة ولا نفيه، كما فيه إثبات العلو والاستواء، والفوقية والعروج إليه، وقد علم أن ما ثم موجود إلا الخالق والمخلوق، والخالق مباين للمخلوق - سبحانه وتعالى - ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته، ولا فى ذاته شيء من مخلوقاته، فيقال لمن نفى الجهة: أتريد بالجهة أنها شىء مخلوق؟ فالله ليس داخلا فى المخلوقات، أم تريد بالجهة ما وراء العالم؟ فلا ريب أن الله فوق العالم مباين للمخلوقات.

وكذلك يقال لمن قال الله فى جهة. أتريد بذلك أن الله فوق العالم؟ أو تريد به أن الله داخل فى شيء من المخلوقات؟

فإن أردت الأول فهو حق، وإن أردت الثانى فهو باطل. فالله تعالى فوق خلقه ولا يحيط به شيء من مخلوقاته.

وكذلك لفظ التحيز، إن أراد به أن الله تحوزه المخلوقات فالله أعظم وأكبر، بل قد وسع كرسيه السموات والأرض، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[1].

وقد ثبت فى الصحاح عن النبى ﷺ أنه قال: «يقبض الله الأرض ويطوى السموات بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟»[2] وفى حديث آخر: وإنه ليدحوها كما يدحو الصبيان بالكرة» وفى حديث ابن عباس: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن فى يد الرحمن إلا كخردلة فى يد أحدكم»[3].

وإن أراد به أنه منحاز عن المخلوقات: أى مباين لها منفصل عنها ليس حالا فيها، فهو سبحانه كما قال أئمة السنة: فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه.

---

(١) سورة الزمر: ٦٧. (٢) متفق عليه تقدم.

(٣) أخرجه ابن جرير فى التفسير وابن بطة فى الإبانة بإسناد صحيح موقوفا على ابن عباس.

وذلك بالكيفية التى يعلمها الله جل شأنه عن نفسه، وهو الذى أراده الإمام مالك بقوله: «الاستواء معلوم والكيف مجهول» . وفى معنى أنه بائن من خلقه. بائن لغة: اسم فاعل من بان إذا افترق وظهر، ومنه البين، وهو الفراق، كقول الشاعر: بانت سعاد. . .، ومن المعنى اللغوى نستنتج أن مرادهم ببائن عن خلقه أى أنه سبحانه وتعالى منفصل عنهم ومتميز عليهم.

ومن كلام العلماء فى هذه المسألة ما ذكره ابن أبى العز الحنفى رحمه الله تعالى عند شرحه قول الطحاوى «وتعالى عن الحدود والغايات».

فقد بين رحمه الله أن الناس على ثلاث طوائف فى هذه المسألة، فمنهم من ينفى ذلك، ومنهم من يثبته، ومنهم من يفصل فى ذلك، وهذا لأن هذا الكلام مجمل، وهذه طريقة أهل السنة والجماعة، ومن هنا يعلم أن مراد الطحاوى رحمه الله تعالى من هذا الكلام: أن الله يتعالى عن أن يحيط أحد بحده، لأن المعنى أنه متميز عن خلقه منفصل عنهم، مباين لهم، سئل عبد الله بن المبارك: بم نعرف ربنا؟ قال: بأنه على العرش، بائن من خلقه، قيل: بحد؟ قال: بحد.

ومن المعلوم أن الحد يقال على ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره، والله تعالى غير حال فى خلقه، ولا قائم بهم، بل هو القيوم القائم بنفسه المقيم لما سواه، فالحد بهذا المعنى لا يجوز أن يكون فيه منازعة فى نفس الأمر أصلا، فإنه ليس وراء نفيه إلا نفى وجود الرب ونفى حقيقته. قلت: وفى هذا عين مباينة الله لخلقه، وفيه رد على أهل الحلول الذين يقولون بحلول الله فى خلقه أو فى بعض خلقه كما تقول النصارى بأنه يحل فى عيسى عليه السلام، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن قولنا « بائن عن خلقه» فيه رد على أهل وحدة الوجود القائلين بأن الله هو عين كل موجود، نسأل الله السلامة، ونعوذ بالله من أهل الزيغ والضلال.

استواء الله على عرشه

معنى استواء الله على عرشه علوه واستقراره عليه، وقد جاء عن السلف تفسيره بالعلو والاستقرار والصعود والارتفاع، والصعود والارتفاع يرجعان إلى معنى العلو، ودليله قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (١) وقد ذكر فى سبعة مواضع من القرآن، ويرد على من فسره بالاستيلاء والملك بأنه خلاف ظاهر النص، وأنه خلاف ما فسره به السلف، وأنه يلزم عليه لوازم باطلة.

والعرش لغة: سرير الملك الخاص به، وشرعًا: ما استوى الله عليه، وهو من أعظم مخلوقات الله، بل أعظم ما علمنا منها، فقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما السموات السبع والأرضون السبع بالنسبة إلى الكرسى إلا كحلقة ألقيت فى فلاة من الأرض، وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة»(٢).

وأما الكرسى فقيل هو العرش، والصحيح أنه غيره، كما ثبت فى الحديث السابق، ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير الآية، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾(٣) أنه قال: الكرسى موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى.

وقال السدى: السموات والأرض فى جوف الكرسى بين يدى العرش.

وقال ابن جرير: قال أبو ذر رضى الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما الكرسى فى العرش إلا كحلقة من حديد، ألقيت بين ظهرى فلاة من الأرض»(٤).

---

(١) سورة طه : ٥ .

(٢، ٤) أخرجه ابن حبان فى صحيحه وأبو نعيم فى الحلية وابن بطة فى الإبانة وغيرهم، وقال الذهبى فى العلو: الخبر منكر. وقال الحافظ فى الفتح: صححه ابن حبان. . . وله شاهد عن مجاهد أخرجه سعيد بن منصور فى التفسير بسند صحيح. وقال الألباني في الصحيحة (١٠٩): صحيح .

(٣) سورة البقرة : ٢٥٥ .

فهو إذن - كما قال غير واحد من السلف - بين يدى العرش كالمرقاة إليه، وأما العرش فكما سبق أن عرفناه.

وهناك من يعرفه بتعاريف تخالف مفهوم الآيات والأحاديث الواردة فى هذا المضمار، وقد ذكر صاحب الطحاوية «وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه، محيط بالعالم من كل جهة، وربما سموه بالفلك الأطلس، والفلك التاسع، وهذا ليس بصحيح، وكل هذا حتى توائم ذوقهم وقواعد أصول مذهبهم».

قال صاحب الطحاوية أيضا: «وهو - سبحانه - مستغنٍ عن عرشه وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه» لأن الله غنى عن العالمين، ولو أن جميع الخلق انقادوا إليه ما زاد ذلك فى ملكه شيئًا، ولو أن جميع الخلق عصوه ما نقص ذلك من ملكه شيئًا. واستواء الله على عرشه، ليس لحاجة إليه، بل له فى ذلك حكمة اقتضته، وكون العالى فوق السافل لا يلزم أن يكون السافل حاويا للعالى، محيطا به حاملا له، ولا أن يكون الأعلى مفتقرا إليه. ولا يجوز أن يظن متوهم أنه سبحانه إذا وصف بالاستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الانسان على ظهور الفلك والأنعام، فيتخيل أنه إذا كان مستويا على العرش كان محتاجًا إليه كحاجة المستوى على الفلك والأنعام، فلو غرقت السفينة لسقط المستوى عليها، ولو عثرت الدابة لخر المستوى عليها، فقياس هذا أنه لو سقط العرش لسقط الرب سبحانه وتعالى!!!.

فانظر إلى السماء كيف هى فوق الأرض وليست مفتقرة إليها؟ فالرب تعالى أعظم شأنا وأجل من أن يلزم من علوه ذلك، من احتياج أو حمل أو افتقار أو نحو ذلك، بل لوازم علوه من خصائصه، وهى حمله بقدرته للسافل، وفقر السافل إليه وغناه هو سبحانه عن العرش وإحاطته عز وجل به، فهو - سبحانه - فوق العرش، مع حمله - بقدرته - للعرش وحملته، وغناه عن العرش، وفقر العرش إليه، وإحاطته بالعرش وعدم احاطة العرش به، وحصره للعرش، وعدم حصر العرش له. فهو استواء يخصه سبحانه وتعالى، الغنى عن كل ما سواه، فليس العرش يحمله، ولا الكرسى يسنده، بل العرش وحملته، والكرسى وعظمته، الكل محمول بلطف قدرته، محفوظ بإرادته ومقهور فى قبضته .

وإذا كان الله له ذات حقيقية لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل سائر الصفات.

فإذا قال السائل: كيف استوى على العرش: قيل له كما قال ربيعة ومالك وغيرهما رضى الله عنهما: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة، لأنه سؤال عما لا يعلمه البشر، ولا يمكنهم الإجابة عنه.

وكذلك إذا قال: كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؟ قيل له: كيف هو؟ فإذا قال: لا أعلم كيفيته، قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله، إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، وهو فرع له وتابع له، فكيف تطالبنى بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليمه واستوائه ونزوله، وأنت لا تعلم كيفية ذاته.

وإذا كنت تقر بأن له ذات حقيقية ثابتة فى نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء، فسمعه وبصره وكلامه ونزوله واستواؤه: ثابت فى نفس الأمر، وهو متصف بصفات الكمال التى لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم، ونزولهم واستواؤهم.

وإذا كان نعيم الجنة وكل ما ذكر فيها من أصناف المطاعم والملابس والمناكح والمساكن.. وغير ذلك لا يتفق مع شيء مما فى الدنيا، كما قال ابن عباس - رضى الله عنهما - «ليس فى الدنيا شيء مما فى الجنة إلا الأسماء»، فإن السلف والأئمة وأتباعهم: آمنوا بما أخبر الله به عن نفسه، وعن اليوم الآخر، مع علمهم بالمباينة التى بين ما فى الدنيا وبين ما فى الآخرة، وإن مباينة الله لخلقه أعظم.

ومثاله: الروح أيضاً فإنها موجودة وحية، وعالمة وقادرة وسميعة وبصيرة، وتصعد وتنزل، وتذهب وتجيء، ونحو ذلك من الصفات، والعقول قاصرة عن تكييفها وتحديدها، لأنهم لم يشاهدوا لها نظيراً، والشيء إنما تدرك حقيقته بمشاهدته، أو مشاهدة نظيره. فإذا كانت الروح متصفة بهذه الصفات مع عدم مماثلتها لما يشاهد من المخلوقات، فالخالق أولى بمباينته لمخلوقاته مع اتصافه بما يستحقه من أسمائه وصفاته، وأهل العقول هم أعجز عن أن يحدوه أويكيفوه منهم عن أن يحدوا الروح أو يكيفوها.

المعيــة

المعية لغة المقارنة، المصاحبة.

ودليل ثبوت المعية لله قوله تعالى: ﴿ وهو معكم أين ما كنتم ﴾ (1).

وتنقسم إلى قسمين: عامة وخاصة. **فالعامة:** هي الشاملة لجميع الخلق كقوله تعالى: ﴿ وهو معكم أين ما كنتم ﴾.

مقتضى المعية هنا الإحاطة [illegible] وتدبيرا.

والخاصة: هي التي [illegible] تعالى: ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ (2) [illegible] هم محسنون ﴾ (3) وهذه المعية تقتضي [illegible]

[illegible]

أولا: [illegible] مجتمعان في شيء واحد [illegible]

الثاني: [illegible] مخلوق لم يلزم أن يكون بينهما مماسة [illegible] وهو بكل شيء محيط. فليس معنى قوله [illegible] لا توجبه اللغة، بل هو سبحانه فوق عرشه [illegible] مهيمن عليهم، مطلع عليهم، إلى غير ذلك من معاني الربوبية.

ولا يصح تفسير معية الله بكونه معنا بذاته في المكان

أولا: لأنه مستحيل على الله حيث ينافي علوه، وعلوه من صفاته الذاتية التي لا ينفك عنها.

ثانيا: أنه خلاف ما فسرها به السلف.

ثالثا: أنه يلزم على هذا التفسير لوازم باطلة.

(1) سورة الحديد : ٤ .
(2) سورة التوبة : ٤٠ .
(3) سورة النحل : ١٢٨ .

(القرب) الدليل على قرب الله تعالى قوله سبحانه : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾(١).

وقوله ﷺ: «إنما تدعون سميعا قريبًا»(٢).

وهو قرب حقيقي يليق بالله تعالى ولا ينافي علوه، لأنه تعالى بكل شيء محيط، ولا يقاس بخلقه، لأنه ليس كمثله شيء. وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته، لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وهو علي في دنوه، قريب في علوه.

فإذا قال الله تعالى أنه استوى على العرش، وأنه معنا، فكلاهما حق، وهو على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة.

كما عُلم أن الله سبحانه وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة، ويدنو عشية عرفة إلى الحجاج، وهذه الصفات يجب أن تثبت بلا تعطيل ولا تكييف، فمعنى الدنو والنزول في اللغة معروف، لكن كنهه لا نستطيع إدراكه، وذلك أن الله يدنو من عباده ويبقى عاليا بذاته على عرشه وهذا لا يستلزم بحال تفريغ مكان وشغل آخر كما يظن بعض الزنادقة، خلافا لأهل السنة والجماعة إذ يؤمنون بالنزول صفة حقيقية لله عز وجل على الكيفية التي يشاء، فيثبتون النزول كما يثبتون جميع الصفات التي ثبتت في الكتاب والسنة. ويقفون عند ذلك فلا يكيفون ولا يمثلون ولا ينفون ولا يعطلون، ويقولون: إن الرسول أخبرنا أنه ينزل ولكنه لم يخبر كيف ينزل، وقد علم أنه فعال لما يريد، وأنه على كل شيء قدير.

وقد ثبت أن الله في السماء فهو عال على خلقه، ولا يقتضي هذا بعده عنهم، إذ هو قريب، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ** ﴾(٣) وهذا معنى أن الله بكل شيء محيط كما قال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ** ﴾(٤) وكذلك ﴿ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا** ﴾(٥)

(١، ٣) سورة البقرة : ١٨٦ .
(٢) متفق عليه (البخاري ٥ ٤٢٠٥ ، ومسلم ٤ ٢٧٠٤) .
(٤) سورة البروج : ٢٠ .
(٥) سورة النساء : ١٢٦ .

وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وإنما المراد: إحاطة عظمته وسعة علمه وقدرته، وأنها بالنسبة لعظمته كخردلة، ومن المعلوم ـ ولله المثل الأعلى ـ أن الواحد إذا كان عنده خردلة، إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها، وإن شاء جعلها تحته، وهو فى الحالين مباين لها، عال عليها، فوقها من كل الوجوه، فكيف بالعظيم الذى لا يحيط بعظمته وصف واصف، فلو شاء لقبض السموات والأرض اليوم، وفعل بها كما يفعل بها يوم القيامة، فإنه لا يتجدد به إذ ذاك قدرة ليس عليها الآن، فكيف يستبعد العقل مع ذلك أنه يدنو سبحانه من بعض أجزاء العالم وهو فوق عرشه فوق سمواته، أو يدنى إليه من يشاء من خلقه؟ فمن نفى ذلك لم يقدره حق قدره.

إن ربنا سبحانه عليٌ فى دنوه، وكذلك قريب فى علوه، فهو على عرشه مستو، ولا يستلزم هذا أنه بعيد عن خلقه، بل هو قريب، يعلم سرهم وجهرهم ونجواهم ويراهم ويبصرهم، كما قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(١).

---

(١) سورة المجادلة: ٧.

معنى كون الله في السماء

معناه على السماء أى فوقها، ففى بمعنى على، كما جاءت بهذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾[١] أى عليها، ويجوز أن تكون فى للظرفية، والسماء على هذا بمعنى العلو، فيكون المعنى أن الله فى العلو، وقد جاء السماء بمعنى العلو فى قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[٢] ولا يصح أن تكون فى للظرفية، إذا كان المراد بالسماء الأجرام المحسوسة، لأن ذلك يوهم أن السماء تحيط بالله، وهذا معنى باطل. لأن الله أعظم من أن يحيط به شيء من مخلوقاته. وهل نظن أن ظاهر قوله ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أن السماء تظله أو تقله؟ كلا، فهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان.

فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض، وهو يمسك السموات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره.

فإذا قال الله تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾[٣] من توهم أن مقتضى هذه الآية أن يكون الله فى داخل السموات فهو جاهل ضال بالاتفاق، وإن كنا إذا قلنا: إن الشمس والقمر فى السماء يقتضى ذلك، فإن حرف (فى) متعلق بما قبله وبما بعده، فهو بحسب المضاف إليه.

ولهذا يفرق بين كون الشيء فى المكان، وكون الجسم فى الحيز، وكون العرض فى الجسم، وكون الوجه فى المرآة، وكون الكلام فى الورق، فإن لكل نوع من هذه الأنواع خاصية يتميز بها عن غيره، وإن كان حرف (فى) مستعملا فى ذلك كله.

فلو قال قائل: العرش فى السماء أو فى الأرض؟ لقيل فى السماء، ولو قيل: الجنة فى السماء أم فى الأرض؟ لقيل: الجنة فى السماء، ولا يلزم من ذلك أن يكون العرش داخل السموات، بل ولا الجنة.

(١) سورة الأنعام: ١١ وغيرها.
(٢) سورة الرعد: ١٧.
(٣) سورة الملك: ١٦.

فقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة (أفضلها) وسقفها عرش الرحمن»[(١)] فهذه الجنة سقفها الذى هو العرش فوق الأفلاك، مع أن الجنة فى السماء يراد به العلو، سواء كان فوق الأفلاك أو تحتها مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾[(٢)] وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾[(٣)] ولما كان قد استقر فى نفوس المخاطبين أن الله هو العلى الأعلى، وأنه فوق كل شيء، كان المفهوم من قوله: «أنه فى السماء: أنه فى العلو: وأنه فوق كل شيء» وكذلك الجارية لما قال لها: أين الله؟ قالت: فى السماء، إنما أرادت العلو، مع عدم تخصيصه بالأجسام المخلوقة وحلوله فيها، وإذا قيل: العلو فإنه يتناول ما فوق المخلوقات كلها، فما فوقها كلها هو فى السماء ولا يقتضى هذا أن يكون هناك ظرف وجودى يحيط به، إذ ليس فوق العالم شيء موجود إلا الله كما لو قيل: العرش فى السماء، فإنه لا يقتضى أن يكون العرش فى شيء آخر موجود مخلوق، وإن قدر أن السماء المراد بها الأفلاك، كان المراد أنه عليها كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[(٤)] وكما قال: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾[(٥)] وكما قال: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾[(٦)] ويقال: فلان فى الجبل وفى السطح، وإن كان على أعلى شيء فيه.

وقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن الله تعالى فوق سمواته على عرشه، كما روى الحاكم عن الأوزاعى رحمه الله قال: «كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله عز وجل فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته» وعن ابن جريج رحمه الله قال: «كان عرشه على الماء قبل أن يخلق الخلق» وعن مسروق رحمه الله تعالى أنه كان إذا حدث عن عائشة رضى الله عنها يقول: حدثتنى الصديقة بنت الصديق، حبيبة رسول الله المبرأة من فوق سبع سموات، وعن أبى يزيد المدنى قال: لَقِيَتْ عمر امرأة يقال لها «خولة بنت ثعلبة»، فقال: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات.

---

(١) أخرجه البخارى ٢٧٩٠ .

(٢) سورة الحج : ١٥ .

(٣) سورة الفرقان : ٤٨ .

(٤) سورة طه : ٧١ .

(٥) سورة النحل : ٣٦ .

(٦) سورة التوبة : ٢ .

وفى لفظ أن عمر قال لمن سأله عن أمرها، ويلك أتدرى من هذه؟ هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات، هذه خولة التى أنزل الله فيها ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(١) .

وعن كعب الأحبار رضى الله عنه قال: قال الله عز وجل فى التوراة: «أنا الله فوق عبادي، وعرشى فوق جميع خلقي، وأنا على عرشى أدبر أمور عبادي، ولا يخفى على شىء فى السماء ولا فى الأرض»(٢) .

وقد روى الدارمى من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال: ما بين السماء الدنيا والتى تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وبين السماء السابعة وبين الكرسى خمسمائة عام، وبين الكرسى إلى الماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش على الماء، والله تعالى فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه»(٣) .

ومن ذلك ما قاله «عبد الله بن رواحة» رضى الله عنه:

شهدت بأن الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمين
وتحمله ملائكة كرام ... ملائكة الإله مسومينا

وقال أبو حنيفة: إن الله عز وجل فى السماء دون الأرض، فقال له رجل: أرأيت قول الله عز وجل، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (٤) قال أبو حنيفة: كما تكتب إلى الرجل: إنى معك وأنت غائب عنه .

وقال مالك: «الله فى السماء وعلمه فى كل مكان لا يخلو منه شىء».

---

(١) سورة المجادلة : ١ .
(٢) أخرجه أبو الشيخ فى العظمة ، وابن بطة فى الإبانة. وقال الذهبي: رواته ثقات. وقال الألبانى فى مختصر العلو: صحيح إن كان السند إلى أبى صفوان صحيحاً.
(٣) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية وإسناده حسن .
(٤) سورة الحديد : ٤ .
(٥) مختصر العلو للذهبى .

وقال الشافعي: «القول فى السنة التى أنا عليها، ورأيت عليها الذين رأيتهم مثل سفيان ومالك وغيرهما: إقرار شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن الله تعالى على عرشه، فى سمائه، يقرب من خلقه كيف شاء، وينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء، . . . وذكر الاعتقاد»(٥).

وقال أحمد بن حنبل: «الله فوق السماء السابعة على عرشه، بائن من خلقه. وقدرته وعلمه فى كل مكان، علمه محيط بالكل، وربنا على العرش بلا حد ولا صفة»(١). أ.هـ (٢).

سبحانه، سبحانه، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(٣)

كل ما خطر ببالك، فالله بخلاف ذلك، تعالى وتقدس عن الأشكال والرسوم، والأجسام والفهوم، فوق ما يدور فى الظنون، أو يتوهمه المتوهمون، فصاحب الصنعة أدرى بأحوال صنعته، والصنعة لا تعلم عن صاحبها شيئًا إلا ما أعلمها هو عن ذاته، وما يدبره فى مملكته، وقد عجزت النملة أن تدرك ما الجمل، وعجز الطفل أن يدرك ما هو الرجل، والكل لله مخلوق، فأنى للمخلوق أن يحيط علمًا بالخالق، جل وعلا . .

---

(١) معارج القبول للحافظ الحكمى .

(٢) انظر بتوسع: شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية - الرسالة التدمرية لابن تيمية - شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز - القواعد المثلى فى صفات الله وأسمائه الحسنى لابن عثيمين - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية - مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم - هذه دعوتنا لفضيلة الشيخ عبد اللطيف المشتهرى .

(٣) سورة الشورى : ١١ .

(٣) توحيد الذات والأسماء والصفات

(أ) ماذا نعنى بتوحيد الذات؟

إن الله عز وجل واحد فى ذاته، ليس متعددا، ولا متجزءا أو مركبا من أجزاء، وهذا النوع من التوحيد رد على ضلالة المشركين، والذين عبدوا آلهة متعددة فى صورة الأصنام أو الكواكب، أو طواغيت البشر أو مردة الجن والشياطين، كما أسلفنا. وهو رد على كفر اليهود، إذ زعموا أن «عزيرا» ابن الله، وعبدوه من دون الله، كما هو رد على شرك النصارى، إذ جعلوا عيسى ابنا لله- مرة وجعلوه هو الله ثانية، وثالث ثلاثة، وغير ذلك..

وقد رد القرآن العظيم على هذه الفرية بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[1]

وقوله سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[2] وذلك كما وضحنا سابقا.

وكذلك هو رد على بهتان فلاسفة الصوفية الذين يؤمنون بوحدة الوجود أو الاتحاد والحلول، ومعنى وحدة الوجود، الاعتقاد بأن الوجود وحدة واحدة يتحد

(١) سورة التوبة الآية: ٣٠

(٢) سورة المائدة الآيات: ٧٢-٧٦

بهـا المخلوق مع الخالق، والمخلوق صـورة للخـالق، والخالق مظهـره هم الخلق، فالحقيقة واحدة، وظاهرها الكثرة، أو الموجود واحد فى الحقيقة، وكل ما نراه ليس إلا مظاهر للذات الإلهـية، وأما الاتحاد والحـلول، فهو بمعنى وحـدة الوجود، إذ هما وجهان لعملة واحدة، وأما الفرق بينهـما أو الخوص فيهما: أن وحدة الوجود هى الاعتـقاد بأن الله لا ينفصل عن مظاهر خلقـه، فهو - سـبحانه وتعالى عـما يقولون - هو الوجود الحق، وهو العدم الصرف، وهو الخالق وهو المخلوق، وهو عين كل كائن، وصـفاته عين صفـات كل موجود وكل مـعدوم، وهو المؤمن وهو الكافر، وهو الموحـد الخالص التوحيـد، وهو المشرك الأصم الوثنية، وهو الجـماد الغليظ، وهو الحيوان ذو المشـاعر المرهفة والحساسية المتـوقدة، وهو الملاك الساجد تحت العرش، وهو الشـيطان الذى يصرخ فى سقر، هو القديـس، وهو العربيد، هو الراهبة وهو الغانية، هو النور وهو الظلام.. تلك بعض خصائصه وصفاته.

وأما الاتحاد والحلول فهو الاعتقاد بأن الله قائم بذاته، ولكنه يحل فى الإنسان ويتحـد فيما شـاء أو بأى شىء.. وأصحاب هذا المذهب هم فـلاسفة المتصـوفة، ويتزعمهم: «ابن عربى» و «الحلاج» و «ابن الفارض» وكذلك «عبد الكريم الجيلى» و«ابن عامر البـصرى» و «النابلسى» و «الدمرداش» و «ابن عجيبـة».. وغيرهم، وهؤلاء هم المتفلسـفة الذين انتسبوا إلى التصوف وهم فى الحـقيقة إنما يصـوغون مبـادىء ومذاهب فلسفـية غريبـة عن الإسلام، سبق وجـودها فى أديان ومذاهب قديمة يونانية وبرهمية وغير ذلك.. فصاغـوا كل ذلك بعبارات صوفية، فخرجوا بالتصوف إلى منزلق الكفر والإلحاد.

ومن أقوالهم وأشعارهم: يقول ابن عربى:

فـيحـمـدنى وأحـمـده ويعـبـدنى واعـبـده

ويقول:

العـبـد رب والـرب عـبـد يا ليت شـعـرى مـن المكلف
إن قلت عـبـد فـذاك حق أو قلـت رب أنـى يكـلـف

كما قال: «إن الذين عبدوا العجل ما عبدوا غير الله».. «إن العارف من يرى

الحق، «الله» فى كل شىء، بل يراه عين كل شىء.

وقول الحلاج: «ما فى الجبة إلا الله» ويقول:

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا في خلقه ظاهرا ... فى صورة الآكل والشارب

حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب

ويقول كذلك:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتنى أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتنا

أما ابن الفارض، فاقرأ - إن شئت - تأيته، لتعلم من هو «سلطان العاشقين!!» إذ لا يتسع المجال هنا لذكر شيء منها، واقرأ كتاب «الإنسان الكامل» لعبد الكريم الجيلى، وانظر «مراتب التوحيد» من كتاب «إحياء علوم الدين» للشيخ أبى حامد الغزالى.. وغير ذلك من كتب المتصوفة، التى تطفح بهذا السم الناقع، والكفر الصارخ..(١)

* إن هذا المذهب الباطل ــ شديد البطلان والكفر- الذى تبناه فلاسفة المتصوفة والذى تظهر آثاره فى كل كتب الصوفية وأذكارهم وأورادهم، ومنه «وانشلنى من أوحال التوحيد، وأغرقنى فى عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها..» هذا المذهب يترتب عليه أنه لا فارق بين الخالق والمخلوق، ومن ثم يجب عبادة كل شىء، لأنه ما من شيء إلا ثَم هو الله، ولذلك لا حرج فى عبادة الأصنام والبشر والبقر، وكل شيء، وما كفر من كفر من عبدة الأصنام والبشر والأبقار إلا لتخصيصهم عبادة شيء دون شيء، فاليهود كفروا لأنهم عبدوا العجل فقط، والنصارى كفروا لأنهم عبدوا ثلاثة أقانيم فحسب، وكذلك المشركون لأنهم عبدوا الأصنام فقط، ولو عبدوا كل شيء ما كفروا، ومع ذلك فهم عرفوا ما لم يعرفه غيرهم، وفطنوا إلى ما لم يفقهه سواهم..

(١) يلاحظ الاختصار المخل فى عرض هذه النظرية، بما يتفق مع المنهج الدراسى والكتاب المقرر، وإذا أردت ذكر المراجع، مع مزيد من التفصيل فى تلك الضلالة، فراجع كتابنا «شبهات المتصوفة» تجد فيه ما يكفيك إن شاء الله.

بل إن أصحاب هذه النظرية الباطلة، والقذرة الكافرة، تطاولوا على أنبياء الله، فزعموا - كما زعم كبيرهم «ابن عربى» أن «فرعون» «لعنه الله» عرف ما لم يعرفه موسى عليه السلام، ساعة أن قال - أى فرعون - «أنا ربكم الأعلى»، وكذلك فقه «النمرود» ما لم يفقهه «إبراهيم» عليه السلام، وعلم اليهود - إذ عبدوا العجل - ما لم يعلمه موسى ولا هارون، فكانوا أفضل معرفة منهما، وكذلك فطن عبدة الأصنام إلى ما لم يفطن إليه محمد ﷺ، فيا للعجب. .!!!

ويترتب على هذه النظرية الكافرة أن الله سبحانه وتعالى - يولد فى كل لحظة آلاف المرات، ويموت فى كل لحظة آلاف المرات، وأنه يموت بعض خلقه، يفنى بعضه، وبموتهم يموت معهم !! سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا..

ويترتب على مذهبهم الإلحادى أنه لا فرق بين حق وباطل، أو إسلام وكفر، إذ لابد من وحدة الأديان فى ظاهرة الفلسفة، ما دام جميع المشركين والوثنيين على حق، لأنه من عبد صنما أو حجرا أو شجرا أو إنسانا أو كوكبا فقد عبد الله. . فما قيمة هذا الدين الإسلامى ، وما فائدة القرآن ولماذا نزل هذا الكتاب، وجاء هذا الدين ؟؟

كيف نصدق- يا قوم - بأن الحق هو الخلق، أو أن الخلق هم الحق؟؟

كيف نصدق أن السيف الذى يقطع به رأس الكافر هو الكافر؟ أو أن الكافر هو السيف؟ وأن الكثرة وهم وخيال. . ؟!!

واعلم - أخا الاسلام- أن المذهب إذا كان باطلا فى نفسه لا يمكن للناقد له أن ينقله على وجه يتصوره تصورا حقيقيا، فإن هذا لا يكون إلا للحق، فأما القول الباطل فإذا بُيِّن، فبيانه يظهر فساده، حتى يقال: كيف يشتبه هذا على أحد؟ (١) لقد آمنا بالله وكفرنا بما كانوا به مشركين. . . وصدقنا بكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ. . وأيقنا - كما قال الله تعالى: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ** ﴾(٢)

---

(١) راجع فى هذا «هذه هى الصوفية» والفتوحات المكية، ومصرع التصوف، وحقيقة الصوفية فى ضوء الكتاب والسنة، وفصوص الحكم، والطواسين، وتاريخ بغداد، وجامع الرسائل، وموقف ابن تيمية من التصوف والصوفية، وديوان ابن الفارض، والإنسان الكامل، وإحياء علوم الدين، وأوراد الصوفية.

(٢) سورة محمد الآية: ١٩

(ب) توحيد الأسماء:

* ومفهوم الأسماء، يراد بها الأسماء الحسنى لله عز وجل، والتى سمى الله بها نفسه، وأسماء الله اتصفت بالحسنى لأنها تضمنت صفات الكمال لله عز وجل، ولأنها حسنى حقا، فى الأسماع وفى القلوب، وملؤها الحسن والجمال والكمال.. وهى ليست أعلاما محضة، ولكنها دالة على صفات الله عز وجل التى اشتق منها لجميع معناها، وذلك نحو اسم «العليم» الدال على أن له علما محيطا عاما لجميع ما خلق، فلا يخرج عن علمه مثقال الذرة، واسم «الرحيم» الدال على أن له رحمة عظيمة مطلقة تسع كل شىء.. واسم «القدير» الدال على أن له قدرة عامة مطلقة لا يعجزها شىء ونحو ذلك..[1]

* ونقصد بتوحيد الأسماء، أن الله عز وجل وإن كثرت أسماؤه الحسنى، فهى لا تدل بحال من الأحوال على تعدد المسمى، وكثرته، إذ لا يشترط - حتى فى دنيا الناس - أن من كثر أسماؤه، كأن يكون له اسم أصلى، وآخر شهرة، وثالث لقب، ورابع كنية، وخامس لعب «دلع»، أن يكون مجموعة أشخاص، لمجموع أسمائه، فهذا بعيد، بل مستحيل.. ولله المثل الأعلى، تعددت أسماؤه، وتوحدت ذاته سبحانه، فليس الأمر كما زعم المشركون قديما، أو النصارى حديثا بقولهم: يزعم المسلمون أن لهم ربا واحدا وهم يعبدون آلهة متعددة.. فقد ورد أن سبب نزول الآية: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[2]

أنها نزلت فى رجل من المسلمين كان يقول فى صلاته: يا رحمن، يا رحيم، فقال رجل من المشركين، من مشركى مكة: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربا واحدا، فما بال هذا يدعو ربين اثنين؟ فأنزل الله تعالى الآية.[3]

وأما قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾[4]

---

(١) فى ظلال العقيدة. مفهوم الأسماء والصفات: سعد ندا ص ١٥-١٧ بتصرف.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٨٠

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ص ٧، ص ٣٢٥

(٤) سورة الإسراء الآية: ١١٠

وهو رَدّ على المشركين أيضـاً، معناه: قل يا محمد لهـؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل المانعين من تسميته يا رحمن ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أى لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن، فإنه ذو الأسمـاء الحسنى كما قـال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾[١] قاله ابن كثير.[٢]

وقد ورد فيها كذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال ﷺ بمكة ذات يوم فى دعـائه: يا الله، يا رحمن، فـقال المشـركون: انظروا إلى هذا الصـابىء، ينهـانا أن ندعـوا إلهين، وهو يدعو إلـهين، فأنزل الله «قـل ادعوا الله أو ادعـوا الرحمن. . الآية»[٣] هذا ولا يكتفى بأن تكون الأسماء الحسنى هى التسعة وتسعون اسما فحسب، بل إن له جميع الأسماء الحسنى التى ذكرت فى حديث تفريج الهم «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلتـه فى كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك. . .»[٤]

وذلك مع قـوله ﷺ «إن لله تسعـة وتسـعين اسمـا - مائة إلا واحـدا - من أحصـاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»[٥] وقد جاء فى مـعنى أحصاها: أى عدها وحفظهـا وفهم معانيها، ودعا الـله بها دعاء عبادة، ودعاء مسـألة مع تخير الاسم المناسـب للمسألة، فـيجرد الدعـاء لله وحده، وبهذا يتـحقق توحيـد الله عز وجل، ومن حقق التوحيد دخل الجنة.[٦]

وكما زعم ذلك المشركون قـديما، زعمته المسيحية حديثـا، فقالوا: يعيب علينا المسلمـون أننا نعـبد أقـانيم ثلاثة: بسم الآب والابن والروح القـدس، فى الوقت الذى يعبـدون هم كذلك ثلاثة فى قولهم «بسم الله الرحـمن الرحيم» بل إنهم لا يكتفون بهذا، إذ يذكرون من الأسماء ما يصل إلى المائة أو يزيد عليها أحيانا.

(١) سورة الحشر الآيات: ٢٢- ٢٤ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ٣ ، ص٦٨

(٣) أخرجه ابن جرير ، وابن مردويه فى التفسير ، وأبو نعيم الأصبهانى فى جزء (إن لله تسعة وتسعين اسماً).

(٤) أخرجه أحمد ٣٧١٢ ، والبزار ١٩٩٤ ، وأبو يعلى الموصلى ٥٢٩٧ . وقـال الألباني في صحيح الترغيب (١٨٢٢) : صحيح.

(٥) متفق عليه (البخارى ٢٧٣٦، ومسلم ٢٦٧٧).

(٦) مفهوم الأسماء والصفات ص ٢٢

* وهذا الذى قاله عبدة الصليب ألقاه الشيطان إليهم - كما ألقاه إلى أسلافهم من المشركين ليضل به الذين آمنوا، وليضحك به على ضعاف الإيمان، والبُلْه أو الجهلة من المسلمين، ذلك أنه فى أبسط الردود يقال: إنكم تقولون: باسم الآب والابن والروح القدس، ونحن لم نقل: بسم الله والرحمن والرحيم، تلك الواو التى تقتضى العطف والمغايرة، كذلك فى قولكم: باسم الآب والابن والروح القدس، هناك مغايرة بين هذه الثلاث، ولا يمكن أن تكون واحدا - كما زعمتم، إذ كيف الثلاثة تكون واحدا، أو الواحد ثلاثة؟؟ فهناك فارق بين تعدد الأسماء والصفات، وتعدد الأشخاص.

أما فى أسماء الله تعالى، فلا مغايرة بينها، ولا تدل على تعدد أو كثرة وإنما تدل على صفات الله عز وجل بطريقة الأسماء، فهى منبثقة من صفاته التى منها الرحمة والملك والهيمنة والعزة والخلق والعلم والحكمة والنفع والضر . . . الخ فما هذا من ذلك؟ وأين النور من الظلام؟ وما موقع الثرى من الثريا؟ وإننا إذ نذكر هذه الأسماء، ونعبده بها سبحانه أو ندعوه بها، فإنما نحن نذكر شيئا أخبرنا به وحدثنا عن نفسه سبحانه فى قرآنه المحفوظ، فهى أسماء توقيفية، لا نزيد عليها ولا ننقص منها.

وما استأثر بعلمه فيه، لا نبحث عنه، ولا نجتهد فيه، إذ هو مما أخفاه عنا، ولم يكلفنا به، وما ورد من صفات الله عز وجل - فى سياق الآيات- كصفة الخداع، فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾(١)

أو المكر فى قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾(٢)

والكيد، فى قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾(٣)

والاستهزاء، فى قوله سبحانه: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾(٤)

والغضب، فى قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾(٥)

---

(١) سورة النساء الآية: ١٤٢
(٢) سورة آل عمران الآية: ٥٤
(٣) سورة يوسف الآية: ٧٦
(٤) سورة البقرة الآية: ١٥
(٥) سورة المجادلة الآية: ١٤ والممتحنة الآية: ١٣

ونحو هذا، فإن هذه الصفات وأمثالها لا تشتق منها أسماء الله سبحانه، فيكون مثلا: الخادع، الماكر، الكايد، المستهزىء، الغضب، هكذا. لأن الأسماء - كما علمت - توقيفية، يجب أن نقف عند الذى ورد فى الكتاب والسنة، ولا نزيد عليها باجتهادنا، لأن ذلك من أمر الغيب الذى لا مدخل لنا إليه..

ومما يعلم أن أسماء الله تعالى قديمة بقدم ذاته، فهى أزلية بأزلية الله تعالى الذى تسمى بها، وليست مخلوقة، ولو كانت مخلوقة لفنيت كما يفنى كل مخلوق.[١]

لقد كان الله عز وجل خالقا قبل أن يخلق، ورازقا قبل أن يرزق، ما زال بصفاته قديما قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزليا، كذلك لا يزال عليها أبديا، ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم البارى، له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق.

فهو لا إله إلا هو سبحانه، وحده لا شريك له، ولا شىء مثله، ولا شىء يعجزه، ولا إله غيره، قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء، لا يفنى ولا يبيد، ولا يكون إلا ما يريد، لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام، ولا يشبهه الأنام، حى لا يموت ، قيوم لا ينام، خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة، مميت بلا مخافة، باعث بلا مشقة،[٢] سبحانه وتعالى. ا. هـ.

(جـ) توحيد الصفات:

ماذا نعنى بتوحيد الصفات:

إن الله تبارك وتعالى وصف نفسه فى كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ بصفات عليا، وتعبد المؤمنين بها، وبوصفه بها توسلاً إليه وتقرباً، فوجب الإيمان بذلك وقبوله، وإطلاقه عليه تعالى ما هو مراده منه، فمن نفى عنه ما وصف به نفسه، وسماها به من أسماء، فقد كفر، ومن شبه تلك الأسماء والصفات بأسماء

---

(١) مفهوم الأسماء والصفات ص٢٧ -٣٥ بتصرف

(٢) مفهوم الأسماء والصفات ص ٢٧- ٣٥ بتصرف، ومتن العقيدة الطحاوية.

وصفات المحدثين، فقد كفر وأشرك، إذ هو يتردد فى ذلك بين تكذيب الله تعالى والكذب عليه، وكليهما كفر شنيع وظلم عظيم..

ومن أولَّ تلك الصفات الإلهية العليا، طالبا تنزيه الله تعالى، فقد أخطأ وجهل، وتكلف ما لم يكلف به وفعل ما لم يؤمر به، وتفصيل ذلك فيما يلى:

(أ) صفات الله تعالى ، إما أن تكون ذاتية أو فعلية:

فالذاتية مثل أن الله عز وجل له صفة الحياة والسمع والبصر والكلام والعلم والقدرة وهكذا والتى اشتقت منها أسماؤه سبحانه الحى والسميع والبصير والقادر والعليم وهكذا وكذلك له سبحانه، عين أو عينان، ويد أو يدان، وله وجه وله قدم وأصابع ونحوه مما ورد، والصفات الفعلية كالاستواء والمجىء والنزول والعجب والضحك والغضب وغير ذلك مما ورد فى القرآن، وصحت به سنة النبى العدنان، عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾[1] وقوله جل وعلا : ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾[3] وقوله عز وجل: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[4] وقوله جل وعلا: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[5] وكذلك قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[6] وهكذا.. وقوله عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[7] وقوله سبحانه: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[8] وقوله جل وعلا: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[9] كما قال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[10] وكذلك: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[11] وأيضاً قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾[12] كما قال ربنا: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[13] يقول

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٥٨
(٢) سورة المجادلة الآية: ١
(٣) سورة الأنعام الآية: ٦٥
(٤) سورة البروج الآية: ١٦
(٥) سورة النساء الآية: ١٦٤
(٦) سورة يوسف الآية: ٧٦
(٧) سورة الحجرات الآية: ١
(٨) سورة طه الآية: ٣٩
(٩) سورة الطور الآية: ٤٨
(١٠) سورة الفتح الآية: ١٠
(١١) سورة المائدة الآية: ٦٤
(١٢) سورة الذاريات الآية: ٤٧
(١٣) سورة الرحمن الآية: ٢٧

سبحانه: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[١] كذلك قال: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[٣]

ومثل قول النبى ﷺ «حتى يضع رب العزة فيها قدمه فتقول قط قط»[٤] «قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء» [٥] «كلتا يدى ربى يمين» [٦].

ويقول ﷺ، «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا» [٧] وقال «عجب ربكما من صنيعكما الليلة» [٨] كذلك: «يضحك ربك من رجلين. . .»[٩] وقوله ﷺ «إن ربى غضب اليوم غضبا»[١٠] ومثال ذلك . .

والذى نريد أن نقوله: إن هذه الصفات- الذاتية والفعلية - التى وردت فى القرآن والسنة أنها شابهت فى ألفاظها وأسمائها صفات المخلوقين، فنحن معشر البشر أحياء، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[١١]

ولنا صفة السمع والبصر، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[١٢]

وكذلك نتصف بالقدرة وبالإرادة والكلام والعلم، وأمثال هذا ، ثم نحن لنا عينان ويدان ولنا وجه وقدمان، ومن أفعالنا الاستواء والمجيء والنزول والعجب والضحك والغضب. .الخ.

---

(١) سورة طه الآية: ٥

(٢) سورة الأعراف الآية: ٥٤ وغيرها

(٣) سورة الفجر الآية: ٢٢

(٤) متفق عليه (البخارى ٤٨٤٨، ومسلم ٢٨٤٦).

(٥) أخرجه مسلم ٢٦٥٤ بلفظ «إن قلوب بنى آدم. . .».

(٦) أخرجه مسلم ١٨٢٧ بلفظ «كلتا يديه يمين».

(٧) متفق عليه (البخارى ١١٤٥، ومسلم ٧٥٨).

(٨) متفق عليه (البخارى ٣٧٩٨، ومسلم ٢٠٥٤).

(٩) متفق عليه (البخارى ٢٨٢٦، ومسلم ١٨٩٠).

(١٠) متفق عليه (البخارى ٤٧١٢، ومسلم ١٩٤).

(١١) سورة الأنبياء الآية: ٣٠

(١٢) سورة الإنسان الآية: ٢

فلما تشابهت تلك الصفات بين الخالق عز وجل وبين المخلوقين، نسى القوم أن الله عز وجل لا يشبه أحدا من خلقه، ولا يشبهه أحد من الخلق، وأنه كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١)

فوقفوا أمام هذه الصفات منهم من شبه ومثَّل، ومنهم من نفى وعطل، ومنهم من تأول، وخالفهم أهل الرسوخ والفضل، فأثبتوا المعنى وفوضوا الكيف لله عز وجل، متشبهين بالرعيل الأول.. وبهذا ضل المشبهة المجسمة، وكذلك النفاة المعطلة، وابتعد عن الصواب الخلف المؤلة، وعرف الحق ولزمه سلف الأمة.

وتفصيل ذلك على النحو التالي:

(أ) قول المشبهة المجسمة: الذين نظروا فى هذه الآيات، وتلك الأحاديث فبنوا عليها - بزعمهم - أن الله يشبه الإنسان، ومنهم من قال: هو جسم كالأجسام، ومنهم من قال: بل هو جسم لا كالأجسام، وهم على اختلافهم فى هذا كفروا والعياذ بالله. ذلك أن الله عز وجل بين فى كتابه الكريم أنه لا يشبه أحدا من الخلق ولا يشبهه أحد، وحكم في قرآنه العظيم أنه سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٢)

فكيف تزعم المجسمة أن الله عز وجل جسم سواء كان كالأجسام أو ليس كالأجسام؟؟

فليست صفات الله عز وجل كصفات المخلوقين، ولا ذاته كذات المخلوقين، ومن شبه الله بشىء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا..

(ب) قول النفاة المعطلة: وهو يقابل القول السابق على النقيض، فإذ المشبهة يثبتون الصفات ويجسمون، يأتى النفاة فينكرون ذلك، وله يعطلون، مدعين أن من أثبت تلك الصفات فهم المشبهة كما يزعمون، وكانوا يتهمون أهل السنة بذلك

(١، ٢) سورة الشورى الآية: ١١

لأنهم للصفات مثبتون، ومن قولهم أو زعمهم: أن الله لا يقال له: عالم ولا قادر، لأن من يزعم ذلك له فهو مشبه، لأن الاشتراك فى الاسم يوجب الاشتباه فى معناه، أو معناه تعدد القدماء - كما زعمت المعتزلة.

هذا وقد علمنا أن هذا القول كفر، لأن من أنكر صفات الله أو ما وصف الله به نفسه فقد كفر، كيف لا ؟.. وهو بذلك ينكر الكثير من القرآن الكريم، وما صح من سنة النبى العظيم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وهذان قولان كلاهما أبطل الآخر، وكلاهما عندنا ضلال واضح، وكفر صراح.. إذ فى قول الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد على الممثلة المشبهة وفى قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد على النفاة المعطلة، فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق فهو المشبه المبطل المذموم، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارى فى كفرهم.

ووجب إثبات الصفات له كما دل عليه القرآن الكريم والسنة وصريح العقل ولا يخالف فيه عاقل- لكن ليس الأسماء كالأسماء، ولا الصفات كالصفات، وليس المسمى كالمسمى، ولا الموصوف كالموصوف. [1] (*)

(جـ) قول «الخلف» المؤولة:

أثبتت الخلف تلك الصفات لله عز وجل- مخالفين بذلك المشبهة والمعطلة ولكنهم- حتى لا يقعوا فى دائرة التشبيه والتجسيم - اضطروا إلى التأويل إذ عجزت أفهامهم عن تنزيه الله عن التشبيه أصلا، كما عجزت ألسنتهم عن إفهامه للناس، فتأولوا الصفات.. فى مثل قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[2] يقولون: أى استولى فرارا من وصف الله تعالى بالاستواء على العرش، وفى مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[3] أى قدرته تعالى، فرارا من وصف الله تعالى بلفظ اليد، وفى مثل قوله جل وعلا: ﴿وَجَاءَ

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص٣٩-٤٣

(*) قال شيخ الإسلام: ما من شيئين إلا وبينهما قدر مشترك وقدر فارق فمن نفى القدر المشترك فقد عطل ومن نفى القدر الفارق فقد مثل.

(٢) سورة طه الآية: ٥ — (٣) سورة الفتح الآية: ١٠

رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[1] أي جاء أمره أو ملك من ملائكته وفي مثل قوله عز وجل: ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾[2] أي حكمه وأمره. وكذلك قوله: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾[3] أي رعايتي وحفظي، وفي مثل قوله ﷺ: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا»[4] أي رحمته... إلى غير هذا من التأويل الذى عرف به أكثر علماء الخلف، ولم يعرف به أحد من علماء السلف...

ونقول: إن الخلف في تأويلهم هذا - وإن قصدوا تنزيه الله تعالى وبذلك لا يكفرون - قد تنكبوا الطريق وحادوا عن جادة الصراط المستقيم، واتبعوا ما تشابه منه، ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، وذلك لأمور:

أولا: أن المؤول لم يرض لله تعالى ما رضيه له أعرف الناس به وهو رسوله ﷺ.

ثانيا: أن هذا التأويل لو أراده الله تعالى لنفسه، لأمر به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، ولكان التأويل لصفات الله تعالى واجبا دينيا يحرم إهماله، ويأثم تاركه، غير أنه لم يأذن الله تعالى به، فكان فعله خطأ وتكلفا مذموما لما فيه من معنى الاستدراك على الله تعالى، وعلى رسوله الكريم ﷺ.

ثالثا: أن المؤول لصفات الله تعالى فرارا من التشبيه وخوفا منه، قد جهل حقيقة عظيمة هي استحالة وجود أي شبه بين صفات الله تعالى وصفات عباده، إذ لا شبه بين صفات الخالق وصفات المخلوق أبدا.

رابعاً: أن هذا المؤول لصفات الله تعالى فرارا من التشبيه وخوفا منه، قد خفي عليه الفرق العظيم بين صفات الخالق جل وعلا، وبين صفات المخلوقين العاجزين الضعفاء، إذ أنه لو علم أن الفرق بين صفات الخالق، وبين صفات المخلوق، كالفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق، لما توهم تشبيهها أبدا ولما لجأ إلى التأويل.[5]

خامساً: نسي المؤول أن تأويله يؤدي به إلى التعطيل لصفات الله.

سادساً: أن التشبيه ظني، وأمور العقيدة تؤخذ باليقين، لا بالظن والتخمين،

(١) سورة الفجر الآية: ٢٢
(٢) سورة الملك الآية: ١٦
(٣) سورة طه الآية: ٣٩
(٤) متفق عليه (تقدم).
(٥) عقيدة المؤمن ص ١٠٨، ١٠٩ بتصرف

سابعاً: مِنْ هذا التأويل ما لا تسعفه اللغة، فضلا عن إنكار الشرع له، ومثال ذلك: كيف يكون «استوى» بمعنى استولى، وهذا لا يصح لغة، وما ذكر من الشعر فهو منتحل ومختلق(*). أو مجيء ربنا بمعنى أمره أو ملك من ملائكته، أو يداه بمعنى قدرتاه؟

ولذلك فالتأويل مفضول وليس فاضلا، ومرجوح وليس راجحا، بل خاطىء وليس صوابا، إلا أنه لا يكفر متأول، ما دام يقصد تنزيه الله عز وجل، والله أعلم بالصواب.

(د) قول «السلف»

لقد امتثل هذا الفريق قول الله تعالى في خير الفريقين فاستحقوا أن يكونوا من الراسخين في العلم، كما قال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾(1)

فعلموا حقيقة أنفسهم، فلم يتطاولوا إلى معرفة كنه صفات ربهم، فسلموا له وآمنوا به، وأذعنوا لآياته، وعلموا أنه لا يعلم الله الا الله، وآمنوا به. وقرأوا قرآن ربهم فسلموا بكل ما فيه، وما صح عن نبيهم، فأخذوه واقتنعوا به، مؤمنين به، بلا تشبيه ولا تمثيل، أو نفي وتعطيل، أو شك وتأويل. ولكنهم يؤمنون بالصفة كما وردت، وإن عجزت أفهامهم عن كيفيتها، وفهم كنهها، وفوضوا العلم فيها إلى الله، أو مرروها كما جاءت، ووضعوا معها قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

فهم يعتقدون أنه من لم ير الذات لا يستطيع معرفة كنه الصفات، ويفهمون أنه كل ما خطر ببالك، فالله بخلاف ذلك..

(*) وهذا البيت للشاعر النصراني الأخطل يقول فيه: استوى بشر على العراق   من غير سيف ولا دم مهراق

(1) سورة آل عمران الآية: ٧

فهم عن الاستواء يقولون: الاستواء معلوم «مذكور»، والكيف مجهول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. كما قالوا: استوى كما قال، لا كما يخطر بالبال.. فهم لا يقولون، استوى بمعنى جلس، كجلوس فلان أو غيره ولا بمعنى استولى، ولا ينفون ذلك، بل طريق السلامة عندهم، معرفة قدرهم، والإيمان بما ورد عن ربهم «آمنا به كل من عند ربنا»..

وعن بقية الصفات يقولون، مثلا - عن العين أو اليد أو القدم: لله عز وجل عين ويد ورجل، ليست كجوارحنا، ولا نعلم كنهها ولا ندرى ماهيتها ولا كيفيتها، فهى تتفق مع ذات الله وجلاله وكماله، لا يشبه أحدا من خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١)

وهكذا يقولون عن الحياة والعلم والسمع والبصر والرأفة والرحمة والإرادة والكلام، لله عز وجل حياة، ليست كحياتنا. فحياتنا يسبقها عدم، ويطرأ عليها تغيير ويعتريها الموت، أما حياة الله عز وجل فلم يسبقها عدم، ولن يعتريها فناء، فالله سبحانه ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾(٢)

وعلم الله عز وجل ثابت بالقرآن والسنة، ولكن ليس كعلمنا، فنحن البشر نختلف فى علمنا ما بين جاهل ومبتدىء، وطالب علم أو متعلم، وعالم وأكثر منه علما وهكذا، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾(٣)

وعلم ربنا عز وجل شمل الأولين والآخرين، والصغيرة والكبيرة حتى ما يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، فهو كما قال: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٤)

وكذلك قال: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(٥)

(١) سورة الشورى الآية: ١١
(٢) سورة الحديد الآية: ٣
(٣) سورة يوسف الآية: ٧٦
(٤) سورة الأنعام الآية: ٥٩
(٥) سورة لقمان الآية: ١٦

ولله عز وجل سمع وبصر - كما قال - ولكن ليس كأسماعنا وأبصارنا، فإن سمعنا لا يتجاوز الميل على أقصى تقدير، وإن بصرنا يتفاوت، ومهما قوى فإنه لا يرى على بعد ميلين أو ما وراء الجدار. . ولكن الله عز وجل سبحانه وسع سمعه كل الأصوات، لا يشتبه عليه صوت بصوت، ولا يمنع سماعه وفهمه كلام آخر، وإن كثرت الأصوات، واختلفت اللهجات، وتباينت اللغات. سبحانه يرى النملة السوداء، على الصخرة الملساء، فى الليلة الظلماء، ويسمع دبيبها ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1]

ومثلها بقية الصفات الذاتية، وكذلك الصفات الفعلية. ومثالها: لله عز وجل مجيء كما أخبر، ونزول كما أعلم، وغضب كما قال، وعجب، كما ذُكِرَ ولكن هذا ليس كما فى الأذهان، ولا كما فى شأن الإنسان، وإنما ذلك شيء يختص بالملك الديان، ويتفق وجلال الرحمن، ويليق بخالق الزمان والمكان، ويتمشى مع آى القرآن، ولا يخرج عن حدود الإيمان، سبحانه، سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فهكذا مع أى آية متشابهة يتبعونها بتلك الآية المحكمة بلا تمثيل أو تعطيل أو تأويل. .

ترى - لو اعتقدت هذا فى الأسماء والصفات، ألا تكون قد عرفت الحق، وسلكت السبيل السوى والصراط المستقيم؟ بلى وربى، فإن من يعتقد ذلك فقد نجا بعقيدته، ولم لا ؟ وهذا الذى عليه السلف خير سبيل، وذلك لعدة أمور:

أولا: أنه لم يسمح لخاطره أن يُقَدِّرُ أى شَبَهٍ بين صفات الخالق وصفات المخلوق لاستحالة وجود أى شبه بها واقعا، فأطلق صفات الخالق عليه، كما أطلقها على نفسه، وأطلق صفات المخلوق عليه، كما أطلقت عليه شرعا، وعادة وعرفا، وبذلك سلم من الخطأ والتكلف والجهل، وبالتالى من الشرك والكفر.

ثانيا: استحالة إدراك ذات الله تعالى وحرمة التفكر فيها شرعا، لأن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء، ولم يكن له كفوا أحد، ولا تدركه الأبصار ولا تكتنه كنهه العقول.

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٠٣

إن مدى ما تصل إليه العقول وتدركه من الأشياء هو ما كان من جنس المادة المحيطة بها، والرب تبارك وتعالى ليس منها، لأن المادة شيء معلوم التكوين، والله ليس كمثله شيء، والمادة المعروفة لدى الإنسان، نعلم أن الله سبحانه هو الذى خلقها، والخالق لا يكون جزءا من مخلوقه، كما لا يكون شبيها له بحال من الأحوال. فذات الله عز وجل ذات مقدسة لا تشبه الذوات، وموصوفة بصفات عليا لا تشبه الصفات.

ثالثا: إن الله عز وجل ما دام قد وصف نفسه بهذه الصفات، ووصفه بها رسوله ﷺ وهو أعلم الناس به، لم يبق إذا معنى للتحرج فى وصفه تعالى بذلك، إذ لو لم يكن ذلك جائزا ومشروعا لنهى عنه تعالى فى كتابه، وحرمه على لسان رسوله ﷺ كالذى نفاه وحرمه من أن يكون له صاحبة أوولد أو شريك فى الملك.. الخ.

رابعاً: إذا كان تفاوت فى الخلق بين المخلوقين، فلماذا يكون هناك شبه بين الخالق والمخلوق؟ إن الفارق بين صفات الله الخالق وصفات المخلوق كالفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق، وإذا كانت كلمة «العين» مثلا تطلق على أشياء كثيرة فى الدنيا، فهى تطلق على جارحة الإنسان ، كما تطلق عليه توكيدا فيقال: الإنسان عينه، أى ذاته ونفسه، وتطلق على البئر «عين الماء» وتطلق على المكان «عين جالوت» وتطلق على أشياء أخرى، وهى تختلف فى كل ذلك شكلا وموضوعا، فلماذا إذا ذكرت كلمة «العين» منسوبة إلى الذات الالهية، انقدح فى الذهن أنها كجارحتنا، وسرح الفكر أنها كعيننا سبحانك ربى لا نشبهك بيد أو بقلم أو بلسان.. إن العقول السليمة لا تحيل إطلاق لفظ صفة لذات من الذوات، وبإطلاق ذلك اللفظ لتلك الصفة على ذات أخرى مع انعدام الشبه تماما بين الصفتين، وبين الذاتين الموصوفين بهما، وذلك كلفظ «اليد» أيضا فإنها تطلق على أشياء وتختلف تمام الإختلاف. فيقال: فلان له يد بمعنى الجارحة، وله يد علينا بمعنى الجميل، وفلان أياديه بيضاء وهكذا ، وكذلك والرأس، فيقال رأس إنسان، ورأس المال، ولا شبه بينهما البتة، وذلك لانعدام الشبه بين الذاتين الموصوفتين بهما، إلا فى مجرد الاسم فقط.

والخلاصة: أن المؤمنين المهتدين يؤمنون بأسماء الله تعالى، إذ بها تمت معرفتهم له تبارك وتعالى، ويدعون الله تعالى بأسمائه، ويصفونه بصفاته، غير مشبهين صفاته بصفات المخلوقين ولا مؤولين لها ولا معطلين، مع اعتقادهم الراسخ بأن الله ليس كمثله شىء وهو السميع البصير، وبالعجز الكامل عن إدراك كنه ذاته تعالى، أو كنه صفاته الذاتية والفعلية على حد سواء إذ جهلنا كنه الذات، فجهلنا كنه الصفات، وبذلك سلموا من تكذيب ربهم، ومن الكذب عليه، ونجوا تبعا لذلك من العذاب المتوعد به من كَذَّب الله تعالى أو كذب عليه فى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾[1] ا.هـ[2] ونزيد الأمر تفصيلا فى هذا الباب، بعد عرضنا للقضية مجملة بصورة يستوعبها طالب العلم المبتدئ ومن على شاكلته، نذكر بعض الأمور المهمة التى ترتبط بتلك القضية، لإزالة اللبس فى بعض المسائل، وإن كان تفصيل القول فى القضية بصورة مستوعبة لمسائلها وتفاصيلها يحتمل مجلدات، ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله.

فنقول وبالله التوفيق.

(١) سورة الزمر الآية: ٣٢

(٢) عقيدة المؤمن: ص٧٧-٨١، ص ١٠٧، ١٠٩ بتصرف والعقيدة الطحاوية، ص٣٩-٤٧، ٦٠، ٦٣

كمال الله:

صفات الكمال الأعلى لله عزوجل

[illegible] وهو السميع البصير [illegible]

[illegible] ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين [illegible]

[illegible]

لا إله إلا الله تقتضي الاعتقاد بكمال الله عز وجل

ونعنى بالكمال الأعلى لله عز وجل. اختصاصه سبحانه وتعالى بصفات ليست لأحد من الخلائق ولكنها خاصة به سبحانه، لا تليق بأحد سواه.

ومثالها أنه سبحانه وتعالى هو الأول والآخر، والصمد، الذى ليس كمثله شيء، له الغنى المطلق، والتوحيد المطلق، وله القدرة والإرادة والحكمة والحياة والعلم، والسمع والبصر والكلام وغير ذلك من الأسماء والصفات ونذكر شيئا من هذه الصفات بشيء من البيان مع الإيجاز:

١- هو الأول: وجود الله سبحانه وتعالى ممتد فى القدم، بحيث لا يتصور قبله وجود قط، وما دام كل وجود قد نشأ عنه، فالله تعالى أسبق منه، ونحن لا نعرف عن الأول شيئا، إذ عهدنا بالوجود قد حدث بعد ميلادنا.

عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك فنزل: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾[1]

فهو سبحانه الواحد الأحد، الصمد، القائم بذاته، وقام كل شيء به، لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يولد إلا وسيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله تعالى لا يموت ولا يورث، ولم يكن له كفوا أحد، لم يكن له شبيه ولا عدل ولا مثيل وليس كمثله شيء.

إن أولئك المشركين نظروا إلى الألوهية بعقولهم القاصرة، وقاسوا وجودها المطلق على وجودنا المحدود، فتوهموا أن له أولا، وليس الأمر كما يتوهمون إن لوجودنا المادى أولا، لأننا نحس بذلك وندركه بيقين، ونجزم باستحالة غيره. أما الوجود الإلهى فقديم لا أول له.

وقد تمر بالخاطر هواجس تتساءل عن أسرار هذا الأزل الغامض على عقولنا، وذلك من استشراف العقل إلى اكتناه ما يعجزه، ولا يقدح ذلك فى صحة الإيمان.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه «أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوه:

---

(١) أخرجه أحمد ٢١٢٥٧ ، والترمذى ٣٣٦٤ ، والحاكم فى المستدرك ، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٨٠): حسن، والسورة سورة الاخلاص

إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: أوجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: ذلك صريح الإيمان. وفى رواية أخرى «الحمد لله الذى رد كيده - أى الشيطان - إلى الوسوسة»(١)

وعن ابن مسعود، قالوا: يا رسول الله: إن أحدنا ليجد فى نفسه، لأن يحترق حتى يصير حممة، أو يخر من السماء إلى الأرض، أحب إليه من أن يتكلم به، قال : ذلك محض الإيمان.(٢)

إن تاريخ الإنسان والعالم والحياة كلٌّ وُجِدَ بعد عدم لا يدرى مداه، وربما استطاع الإنسان إدراك أعراض يسيرة فى بيئته المحدودة، أعراض تمس يومها الحاضر، أو أمسها القريب أو غدها الموشك، وقد يكون من هذه الأعراض المدركة جملة من المعارف النافعة. ثم تقف بعد ذلك بصيرته فلا تستطيع حراكا ولا إدراكا. فإذا كانت تلك حدود قدرته العقلية فى عالم الشهادة، فلا جَرَمَ أنه يكون فى عالم الغيب أعجز، وعن فهمه أقصر، وراكب السفينة قد يستطيع التجوال فيها، فإذا بدا له أن يقذف بنفسه فى أغمار اليم فقلما يعود. وعقلنا فى قوته المحدودة كبصرنا الذى لا يقرأ إلا على بُعْد أشبار، فإذا ابتعد الخط عنه مسافة لم يميز منه حرفاً، كذلك لا يستطيع العقل أن يدرك إلا فى دائرة وجوده الضيقة ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾(٣)

ومن ثم فنحن نؤمن بقدم الذات الإلهية وامتداد هذا القدم فى أغوار الأزل الذى لا نعرف كنهه كذلك، وطبيعة الوجود المحدث تقتضى البداية والنهاية، أما من وجوده من ذاته فحقه أسمى من أن يسبقه أو يطرأ عليه عدم.(٤)

٢- والآخر: والله سبحانه باق أبدا، لأنه ليس جسما فيموت، ولا مادة فتتحلل وتذوى، إنه الدائم الثابت الذى يصير إليه كل شىء.

كما قال سبحانه: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٥)

---

(١) اخرجه مسلم ١٣٢ .
(٢) اخرجه مسلم مختصراً ١٣٣
(٣) سورة الأسراء الآية : ٨٥
(٤) عقيدة المسلم ص ٣٤-٣٦
(٥) سورة القصص الآية: ٨٨

وقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾(١)

وذو الوجود الخالد المتأبى على الفناء قد يمنح للأخيار من عباده الخلود فى جنات النعيم، فهذا الفضل الممنوح لا يعنى أن بشراً أصبح حقيقا بوصف الباقى والآخر.

فالأمر كما قلنا: إن وجود الله عز وجل واجب له من ذاته لا ينفك عنه أبدا أما ما عداه فهو صفر إن لم تدركه نعمة الوجود المفاض عليه من الخالق جل فى علاه.(٢) سبحانه ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٣)

هو الأول فليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فليس فوقه شيء، وهو الباطن فليس دونه شيء.

٣- القائم بذاته: «الله الصمد» قام بنفسه، وقام كل شيء به كما قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾(٤)

وقد يشرف المهندسون والبناءون على تشييد عمارة ضخمة، ثم ينفضون أيديهم منها، أو يموتون عنها، وتبقى العمارة بعدهم أمدا بعيدا، قائمة الجدران، مستوية الأركان.

إن هذه العمارة لم تخلق من عدم، والفعلة فيها لا يزيدون أن ضموا حجرا على حجر، ثم انتهى عملهم إلى هذا الحد، أما بناء الكون الفسيح وتشييد سقفه المحفوظ وتمهيد أرضه وتهيئتها للعمران فهو شيء آخر، أساسه الإبداع من العدم المطلق.

وكما أن العالم فى وجوده احتاج إلى ربه، فهو فى بقائه يحتاج إليه لحظة بعد لحظة، ولا توجد ذرة فى الأرض ولا فى السماء تستمد وجودها من ذاتها، حتى يتصور استغناؤها بنفسها، بل على العكس، هذا الوجود المفاض عليها يتلاشى

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٥٨

(٢) عقيدة المسلم ص ٣٦

(٣) سورة الحديد الآية: ٣

(٤) سورة فاطر الآيات: ١٥-١٧

ويضمحل إذا شاء مفيضه أن يحرمها منه، مثلما يتقلص الظل إذا ذهب ما يلقيه. لن يكون نهار إلا مع وجود الشمس، ولن يكون عالم إلا مع وجود الله ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ﴾(١)

فالعقول وما يتردد فيها من أفكار، والقلوب وما يتجدد فيها من مشاعر، والأجسام وما يتدفق فيها من دماء، وما يتحرك فيها من أجهزة وعضلات، فى كل بلد، بل فى كل قارة، منذ بدء الخلق إلى قيام الساعة. ما نعرف وما لا نعرف، إنما يقوم بقيام الله عليه، ولو شاء تركه لأصبحنا ولما وجدنا وقتا نفكر فيه بأننا فنينا، لأننا سنكون فنينا فعلا.(٢)

إن الأرض التى تسير عليها بقدميك لا تمسك نفسها تحتك، فهى لا تشعر بك، ثم هى لا تصنع شيئا من الحبوب والفواكه التى تغلها، فأنى لها الخلق والإتقان، وهى جامدة لا تحس ولا تعلم؟

إن الإمداد الإلهى وحده هو الذى قام ويقوم بما ترى، قياما لا تتوهم معه غفلة ولا تفريط ولا فتور، وإلا لهلكنا واختل كل شىء.

الفارق بين وجودنا ووجود الله، أن الله تبارك وتعالى وجوده واجب له من ذاته. أما نحن فليس لنا من ذواتنا شىء قط، إن منحنا نعمة الوجود بقينا ما بقيت معارة لنا، وإلا اختفينا فلم يمسكنا شىء.(٣)

٤- ليس كمثله شىء: فمخالفة الذات الإلهية لغيرها من المحدثات ظاهرة، والبداهة تقتضى بأن بين المخلوق والخالق أمدا بعيدا، وأن الخالق لا يشبه شيئا من خلقه لا فى ذاته ولا فى صفاته. كما أسلفنا.

وقد وصف الله عز وجل نفسه بصفات كثيرة، من الصعب إدراك حقيقتها على النحو الذى ندرك به أمورنا المعتادة، بل هذا مستحيل. من أين للتافه أن يعرف كنهه العظيم؟ إن النملة لا تعرف حقيقة الإنسان، فحدود عالمها الذى تعيش فيه توقفها دون ذلك.

---

(١) سورة النحل الآية: ٦٠

(٢، ٣) عقيدة المسلم ص ٣٧، ٣٨

والطفل - فى المرحلة الأولى من عمره - لا يعرف ما هى الرجولة، ولا ما يصحبها من سعة عقل واستحكام وإدراك. بل إن الإنسان عاجز عن إدراك حقيقة الوجود المادى الذى يعيش فيه، فكيف يعرف ما وراءه من غيوب؟ إذا قيل: إن الله يسمع، فليس ذلك بأذن كآذاننا، أو يرى، فليس ذلك بعين كأعيننا، وإذا قيل: إنه بنى السماء، فليس على النحو المألوف من تكليف فَعَلَه واستحضار أدوات، وإذا قيل: يده فوق أيدينا، فليس الوصف لجارحة كأعضائنا.

والذى نوقن به ابتداء، أن صفات المحدثين وأحوالهم، لا يجوز أن تنسب إلى الله فهو - سبحانه وتعالى - غير مخلوقاته. وشأن الألوهية أسمى مما تتصور الأذهان الكليلة، والعقول القاصرة.

ومحاوله استكناه دلالة صفات الله، واستكشاف حقيقتها، لا تزيد عن قول القائل:-

نهاية إقدام العقول عقال ... وآخر سعى العالمين ضلال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعوا فيه قيل وقالوا

وكم من جبال قد علا شرفاتها ... رجال، فبادوا، والجبال جبال

ولا غرو فإن البحث عبث فيما لا يملك المرء وسائل الخوض فيه، وشأن الألوهية بالنسبة لنا عزيز المنال، والله أكبر من أن تحيط بعظمته عقولنا، أو تستوعب كمالاته أقدارنا، والفضل فيما ذكر لمذهب السلف، كما أنا عليه والحمد لله.[1]

٥- «الغنى المطلق»: الله سبحانه وتعالى واسع الغنى، وليست سعة غناه راجعة إلى أنه يملك هذا العالم بسماواته وأرضه، وما حوى من معادن نفيسة، وعناصر غالية.

ولا لأنه يملك عددا من الجن والإنس والملائكة، لا. لا، فالغنى الإلهى أبعد من ذلك وأمجد. إننا قد نعتبر الرجل غنيا لأنه يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، أو لأنه يحكم الألوف المؤلفة من الناس، فإذا فقد ذلك لم يصبح على شىء من الغنى، إذا انهارت الدعائم التى يقوم عليها.

(١) عقيدة المسلم ص ٣٨- ٤١ بتصرف

وقد يكون الملكوت الرهيب الذى نعرف أقله، ونجهل أكثره مظهرا للغنى الإلهى العظيم. لكن الله عز وجل يستطيع أن يفنى ذلك أجمع، ولا ينقص غناه المطلق شيئا ألبته. ويبقى قائما بنفسه مستغنيا عن خلقه، مستكملا نعوت قداسته، مستعليا فى أنوار جلالته. إن العرش فما دونه، صفر إلى جانب الذات العليا. وتسبيح العباد من بدء الخلق إلى قيام الساعة، أو لغو الفجار فى هذا الأمر الطويل، لا يضفى ولا ينتقص من عظمة الحق شيئا.

وقد جاء فى الحديث القدسى «يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا»[١]

المخلوقات جليلها ودقيقها يقوم بالله عز وجل، أما الله فقائم بنفسه، مستغن بذاته عما سواه[٢] ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[٣]

٦- «التوحيد المطلق» إذ ليس لهذا العالم إلا اله واحد، يخضع له بالقهر والجبروت كل ما سواه، ولا نجد أحدا من الشركاء المزعومين ترشحه حالته ليكون فى هذا الوجود شيئا طائلا. ومن الحماقة أن نظن فى بشر مهما علا شأنه أنه خلق كوكبا من الكواكب، ولماذا نذهب بعيدا؟ إن أحدهم لم يخلق ذبابة أو ما دونها، فكيف يعد إلها من يعجز عن أى خلق؟

بل إن جرثومة من الآف الجراثيم التى تكمن فى بطن ذبابة، لو سلبت أحدهم صحته ما قدر على ردها. فمن أين بعد ذلك ينسب إلى الألوهية؟

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[٤]

فشأن الألوهية أعز مما يهرف به الجهلة.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.
(٢) عقيدة المسلم ص ٥١-٥٢
(٣) سورة فاطر الآية: ١٥
(٤) سورة الحج الآيات: ٧٣ ، ٧٤

والحق أن الملك كله لله، وأن الآلهة الأخرى الموهومة ليست إلا خيالات عقول مريضة، وأسماء لا مدلول لها أبدا. وسنن الكون الماضية قاطعة بصدورها عن إله أحد، فرد صمد، ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[1]

وبعد الاستقراء التاريخى والاستعراض العقلى لمن نحلوا وصف الألوهية زورا، نجزم بأنه لا إله إلا الله، ونوقن بأنه لا شىء فى العالم يرقى عن مستوى العبودية الذليلة لهذا الإله الواحد القهار [2] ولقد وضحنا القول فى ذلك فى معنى الشهادة «بحمد الله»[3]

٧- «القدرة» : العالم وما فيه من سكون وحركة، أثر لقدرة الله سبحانه وتعالى ، وليست لشىء ما قدرة ذاتية يستمدها من طبيعته المجردة.

فإذا رأيت البذور تشق التربة وتنمو رويدا رويدا لتستوى على سوقها، فذلك بقدرة الله. وإذا رأيت الأمواج تلطم الشطآن رائحة غادية، لا تهدأ حتى تثور، فذلك بقدرة الله ، وإذا رأيت القاطرات أو الطائرات تنهب الفضاء ، وتطوى الأبعاد، وتحمل الأثقال، فذلك بقدرة الله. وإذا رأيت البشر يموج بعضهم فى بعض، وينفعلون بالحب والبغض، والفرح والحزن، وينطلقون عاملين، أو يهدأون نائمين، فذلك بقدرة الله.

وسواء شعرت أو لم تشعر فنبضات قلبك فى حنانيك، وسريان دمك فى عروقك، وكمون الحس فى أعصابك، وتجدد الحياة فى خلاياك، وانسكاب الإفرازات من غددك، ذلك كله بقدرة الله، ولا تحسبن شيئا فى الكون قادرا بنفسه، فكما أن القدرة أبدعته أولا من عدم، فقد أودعت فيه من أسرارها، وبينت فيه من آثارها، ما يدل عليها.

من ذلك كله نعلم أن الله قدير على كل شىء، وأنه قوى متين، وأنه لا يؤوده خلق ولا أمر ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[4]

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٦٣

(٢) عقيدة المسلم ص ٥٤- ٦٨ بتصرف

(٣) راجع مبحث «توحيد الله» بتوسع

(٤) سورة فاطر الآية: ٤٤

والقدرة فى مجالها الواسع لا يعيبها شىء البتة، وآثارها التى نشهدها تدل على طاقة لا تقف عند حدود. وليس معنى ذلك بداهة أن تخرج القدرة على منطقها، فيقال مثلا: إنها لا تستطيع قلب الحقائق، أو يقال: إن الله قادر على أن يخلق إلها مثله، كما قالته النصارى. أو كما قال الدكتور «ذكى مبارك» إن الله لا يستطيع إخراجى من ملكه، وإن الله لا يستطيع الجمع بين النقيضين، وقد كان فى ذلك سخيفا، ولعله كان «مسطولا» والجنون فنون.[١]

٨- «الإرادة» : والله سبحانه وتعالى فيما خلق وفيما يخلق، وفيما دبر ويدبر شئون العالم ، كان يصوغ الكائنات فى الأوضاع التى يريدها، ويضفى عليها الأوصاف التى يشاءها، ويبرزها فى الأوقات التى يختارها، لا يستكرهه أحد على شىء من ذلك كله.

وما ترى فى الأرض والسماء من تنوع فى الوجود، وتميز فى السمات هو مظهر الإرادة الحرة فى كافة تعلقاتها. فما أوجده الله فى هذا العصر كان من حقه الكامل أن يوجده فى الأيام الخالية. وما جعله الله كوكبا متألقا كان يستطيع جعله جندلا باردا.

وتوزيع الصفات والأحجام والأحوال فى أنحاء الكون العريض ليس إلا بالمشيئة العليا لله عز وجل، ولو أراد أن يخلق العالم الذى نعيش فيه على نحو آخر فى قوانينه وأنظمته وأحيائه وأشيائه كلها لفعل. إنك لترى انطلاق المشيئة دون أى عائق فى إخراجها الأصناف المختلفة من الأصل الواحد فالحقول المجاورة تختلف محصولاتها كما وكيفا، والبذور المتجانسة تتفاوت فروعها حلاوة وحموضة، ولونا ووزنا فى النبات، ولؤما ونبلا، وذكاء وبلادة فى الإنسان والحيوان ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٢]

---

(١) عقيدة المسلم ص ٨٦-٨٨ بتصرف

(٢) سورة الرعد الآية: ٤

وقديما استدل واحد من الائمة على عظمة الإرادة الإلهية- فى هذا المعنى - بورق الشجر، يتناوله النحل فيحوله شهدا، ويأكل منه دود القز فيحوله حريرا، وتأكل منه الشاة فتعطى سمنا ولبنا، وتأكل منه الغزالة فتعطينا مسكا، وتأكل منه أطيار أخرى فتحوله قذرا.

وإذا اتجهت الإرادة إلى شيء فيستحيل أن يتخلف أثرها ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾[1] وقال جل شأنه: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾[2]

فإرادة الله نافذة فى السماء والأرض لا راد لها ولا معقب عليها ﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾[3]

وللإرادة معنى يرتبط بمفهوم القضاء والقدر، يأتى فى حينه إن شاء الله تعالى.[4]

٩- «الحكمة»: وشمول الإرادة وعموم القدرة وكون الله سبحانه يفعل ما يريد، متى يريد، وكيف يريد، ليس معناه أن أمور الخلق والرزق، وشئون القبض والبسط، وحظوظ الرفعة والضعة، والإعزاز والإذلال، والنصر والهزيمة، أن هذه جميعا تصدر على طريقة الارتجال السريع، أو الخواطر السانحة، أو تتم اتفاقا وتقع مصادفات عارضة! كلا. كلا.

فإن الكون كله خاضع لشبكة دقيقة النسج من الأسباب والمسببات، والسنن الثابتة الخالدة، والقوانين المترابطة المتكاملة، لا تضطرب ولا تختلف، ولو أجمع البشر على مناقضتها.

فالنبات يتم نضجه بالإرادة والقدرة، ولكن مظهر الإرادة والقدرة - فيما نعرفه- من غرس وسقى وتعهد وزمان ومكان. والجنين يكتمل بشرا سويا بالإرادة والقدرة، ولكن اكتماله فى أطوار وأحوال لابد من توافرها، ويستحيل أن يولد بغيرها، وقول الله أنه ﴿ **فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾[5] لا يعنى أنه - بين عشية وضحاها - يقيم دولة ويهدم أخرى.

(١، ٥) سورة هود الآية: ١٠٧

(٢) سورة يس الآية: ٨٢

(٣) سورة القصص الآية: ٦٨

(٤) عقيدة المسلم ص ٨٨- ٩٠ بتصرف

فدون إقامة الممالك وقبل انهيارها توجد مقدمات طويلة تستغرق سنين أو عصور حتى تقع نتائجها اللازمة. وأصحاب العقول الضيقة والأفكار القاصرة يحسبون أن وصف الله عز وجل بأنه يفعل ما يشاء، معناه أن أحكامه فى عباده لا ضابط لها ولا رابط بينها.

ولعلهم يقيسون سعة السلطان الإلهى على ما عهدوه من تصرفات ذوى السلطة فيهم، أولئك الذين يخبطون خبط عشواء ويعبثون عبث الحمقى، تعالى الله عما يظن الجاهلون علوا كبيرا.

إن الأسباب والمسببات هى المفاتيح الملقاة بين أيدى البشر ليصلوا بإرادتها إلى ما وراءها من خير أو شر . وعموم المشيئة والقدرة مقيد بما شرع الله فى كونه، أو بين عباده من قوانين كونية أو قوانين شرعية.

كذلك ليس معنى أن الله يفعل ما يشاء، أنه يثيب العاصى، أو يعذب الطائع، أى أنه يجوز عليه الظلم ويقع منه الغبن!! وهذا جهل شنيع ، ونسبة ذلك إلى الله تكذيب لما قال فى كتابه العزيز ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾(١)

ثم إن هذه العدالة مردها إلى ما ينبغى لله من كمالات. بداهة. وليس مردها إلى أنه لو ظلم تعرض لعقاب أو سؤال، فذلك مستحيل. ومن أنى يحدث ذلك، وهو المنفرد فى الوجود بالألوهية، بين عبيد عنت له وجوههم، وذلت له رقابهم؟؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾(٢)

١٠- «الحياة» : مراتب الوجود تختلف رِفْعَةً وضِعَةً، فالجماد أنزل رتبة من النبات، والحيوان أعلى درجة من النبات، والوجود الإنسانى أرقى من أنواع الوجود الأخرى. واتصال الله سبحانه وتعالى بالحياة، معناه أن وجوده بلغ الغاية فى عظمته وآثاره، فهو حى ويعلم أنه حى، وهو يهب الوجود لغيره عن إدراك واختيار، ومن ثم فهو حى.

فدلائل الحياة الكاملة تنبثق من الذات العليا انبثاقا يتضاءل أمامه كل ما تعرف من صنوف الحياة ودرجاتها المختلفة.

---

(١) سورة الكهف الآية: ٤٩

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٢٨

أطلق لخيالك العنان، وتصور كل ما تنتجه الأيدى «الحية» من أعمال وما تنشئه العقول الحية من أفكار، وما تهتز به الأفئدة «الحية» من مشاعر، واجعل هذا الخيال يضم أشتات ذلك من مشارق الأرض ومغاربها، ويستجمع ما حدث فى الاعصار الخالية، وما يحدث اليوم، وما سوف يحدث غدا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. . .

إن مظاهر هذه الحياة المفعمة بالقوة والإنتاج لا تعد شيئا مذكورا بالنسبة إلى الحياة الإلهية الواسعة. بل هى أثر ضئيل من أعمال الحى الذى لا يموت، الحي الذى ينفخ من روحه فى الموات فيهتز، وفى الجماد فيتحرك. ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[1] ذلك هو ﴿ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾[2]

١١- «العلم» : الله تعالى عليم بكل شىء، لم يسبق معرفته جهل، ولا يعدو عليها نسيان، ولا يمكن أن تخالف الواقع. وعلمه محيط بالأمس واليوم والغد، بالظاهر والباطن، بالدنيا والآخرة، بالجليل والحقير، بالكبير والصغير، ما يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، يعلم عدد حبات الأمطار، وقطرات البحار، وذرات الرمال، وورقات الأشجار، ونسمات الهواء، وما فى الأغصان من ثمار، وحبات السنابل، والأبشار والأشعار، يعلم ما كان، وما يكون، وما هو كائن، وما لم يكن - لو كان - كيف كان يكون، والأحوال الشتى، والتغيرات الطارئة، والأوصاف المتغيرة، كل ذلك يستوعبه شعاع واحد من أشعة العلم التى لا تدرى عقولنا من كنهها إلا قليلا ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[3]

إن الإنسان قد يعرف شيئا عن حاضره، وقد يعرف طرفا من ماضيه ، وما وراء ذلك فهو بالنسبة إليه عماء، لكن الله وحده يحصى أعمالنا الماضية ساعة

(١) سورة الأنعام الآية: ٩٥
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٥٥
(٣) سورة الأنعام الآية: ٥٩

بساعة، ويسجل أحوال العالم الغابر دولة دولة، وحادثة حادثة. ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾(١)

إنه علم يشرف على كل شيء، فيجلى بواطنه وخوافيه، ويكشف بداياته ونهاياته، ويكتنه ذاته وصفاته. فالمشهود والغيب لديه سواء، والقريب والبعيد، والقاصى والدانى سواء ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾(٢)

والعلم الإلهى يشرف على كل شيء إشرافا تاما، ويهيمن على أطوار الموجودات هيمنة كاملة ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(٣)

وهذا العلم من خصائص الذات المقدسة. أما علم البشر فهو مقرر معروف ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٤) ا.هـ.(٥)

١٢- «السمع» : عن عائشة رضى الله عنها قالت: «الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة «خولة بنت ثعلبة» إلى الرسول ﷺ فى جانب البيت تحدثه، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(٦)

أجل! فما من كلام يدور بين الناس، أو حديث يتجاذبون أطرافه إلا سبق وقعه إلى سمع الرحمن، جل وعلا، قبل أى شيء!.

ولا تحسبن أن الله حين يسمع نجوى جماعة يشغله ذلك عن سماع قوم آخرين. كلا، فما يشغله شأن عن شأن، وما تغيب عنه همسة وسط الضجيج، ولا تشتبه عليه لغة على اختلاف الألسنة.

---

(١) سورة طه الآيات: ٥١-٥٢

(٢) سورة فصلت الآية: ٤٧

(٣) سورة الملك الآيات: ١٣، ١٤

(٤) سوة الإسراء الآية: ٨٥

(٥) عقيدة المسلم ص ٩٠-٩٥ بتصرف

(٦) سورة المجادلة الآية: ١ وأخرجه البخارى كتاب التوحيد باب (وكان الله سميعا بصيرا).

إنك - بالوسائل التى هُدِىَ اليها البشر - تجلس فى المشرق فتنتقل إليك محطات الإذاعة من المغرب، طاوية الأبعاد الشاسعة. فما أدرانا بما وراء ذلك من أسرار الكون؟. وما أيسر - فى منطق العقل - أن يشرف رب الكون بسمعه على كل حركة وسكنة فى الوجود، تنبعث من مصدرها القريب أو البعيد - وليس ثَمَّ قربٌ ولا بعدٌ بالنسبة إلى الله - فيعلم كنهها، ويسمع صوتها، ويبصر وضعها! إن ربك يسمع كل صوت، وهناك أصوات يسمعها ويحبها كما فى الحديث «ما أذن - ما استمع - الله لشىء، إذنه لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن! يجهر به»(١)

وكما يحب الله صوت الوحى تتلوه الألسنة، يكره أصوات الفحش والسوء ﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾(٢)

ولا تستكثر أن يقال لك : إن الله يسمع خفقان القلوب فى حنايا الخلق أجمعين. فما القلوب إلا أثر قدرته، شحنها بالحياة ثم دفعها، فهى تسير إلى أجل معلوم، فكيف لا يسمع أثر ما أوجد ؟.

١٣- «البصر» وكما أن الله يسمع كل شىء، فهو يشهد كل شىء ورؤيته تنظر فى أعماق الظلمات، فتستشف كوامنها. فما هو بحاجة إلى ضياء يبصر به الخفى، أو مكبر يعظم به الدقيق. وإذا كنت ثالث ثلاثة، فاعلم أن هناك رابعا يبصر ما تفعلون، ويسمع ما تقولون ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣)

سبحانه ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ (٤)

(١) متفق عليه (البخارى ٥٠٢٤، ومسلم ٧٩٢)، وأذن بمعنى استمع ، وتغنى بالقرآن أى جهر به.
(٢) سورة النساء الآية: ١٤٨
(٣) رة المجادلة الآية: ٧
(٤) سورة الكهف الآية: ٢٦

وعندما أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون، توجسا من طغيانه، وقالا: ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[1]

إنه معهما، ومع كل كائن من بدء الخلق إلى قيام الساعة، وما قبل ذلك، وما بعد ذلك، يسمع ويرى، وهو سبحانه قد ركب فى وجوهنا هذه العيون التى نقرأ بها ونكتب ونشهد بها ما نشاء، ولكن ما قيمة رؤيتنا إلى جانب الرؤية الإلهية المحيطة الشاملة.

لو أن كل ذى بصر انتظموا صفا يستغرق محيط الأرض، ثم اجتهدوا فى رؤية ما حولهم، ما أبصروا شيئا يذكر إلى جانب الرؤية الإلهية التى تستوعب جميع المدركات، من جميع الجهات، فى وقت واحد، سواء فيها المستخفى بالليل والسارب بالنهار، الخالى وحده، والبارز للناس: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[2]

والإحساس بهذه الحقيقة جزء من الدين بل هو قمته العليا «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[3]

وملاحظة العبد لله أساسها شعوره بأنه سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت، ومطلع على ما أسرت وأعلنت، وذلك وحده لب التقوى، وسر الإخلاص. سبحانه ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[4]

١٤- «الكلام»: وهو وسيلة للإبانة عما فى النفس من معارف ونصائح ورغبات، وتفهيم ذلك للآخرين. ولا شك أن الله سبحانه وتعالى مستحق لهذا الوصف. فقد عهد إلى ألوف من ملائكته بالقيام على شئون الإحياء والإماتة، فى أنحاء العالم العريض، كما عهد إلى ألوف وألوف منهم بشئون شتى لا ندرى منها إلا القليل.

---

(١) سورة طه الآيات: ٤٥ - ٤٦
(٢) سورة يونس الآية: ٦١
(٣) متفق عليه (البخارى ٥٠، ومسلم ٩).
(٤) سورة الأنعام الآية: ١٠٣

وهذا التسخير الدائم خاضع لأوامر الله التى يتكلم بها ، خلقا ورزقا، ورفعا وخفضا، ومحوا وإثباتا، وتقديرا وتدبيرا . . . الخ.

وما حفل به علم الله فوق الحصر ، وما يدل على هذا العلم - من كلمات لا نهاية لها - كذلك.

إن أحدنا - فى مباشرة أعماله المحدودة - يحتاج إلى قاموس من الألفاظ. فما ظنك برب العالمين، وهو يحكم ملكوته الواسع العظيم؟ ألا ترى أن كلامه من السعة والاستبحار على النحو الذى يقول الله تعالى فيه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(١)

بل كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢)

وكتب الله التى أنزلها على أنبيائه مظهر من مظاهر اتصافه جل شأنه بـ «الكلام» وقد ﴿كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾(٣)

وسوف يكلم كثيرا من عباده يوم القيامة. وأرسل الروح الأمين بختام الوحى إلى صاحب الرسالة العظمى. فكان القرآن الكلمة الأخيرة، فى هدايات الله لعباده ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٤)

أما حقيقة الكلام - كصفة الله - فلا نقصر فيها ولا نطيل، لأننا دون هذا المجال بكثير. بيد أننا نجزم بأن الكلام الإلهى ليس ألفاظا تصنعها الشفتان واللسان، وتضبطها الرئتان، والحنجرة والأسنان، فذاك شأن الإنسان، لا وصف الرحمن(٥) . سبحانه وتعالى له صفات الكمال، ومطلق الجلال، ماذا نقول، وماذا نسطر؟ سبحانك ربى سبحانك، ما أعظم شأنك، سبحانك ما عرفناك حق معرفتك، ولا عبدناك حق عبادتك، يا الله.

---

(١) سورة الكهف الآية: ١٠٩
(٢) سورة لقمان الآية: ٢٧
(٣) سورة النساء الآية: ١٦٤
(٤) سورة الأنعام الآية: ١١٥
(٥) عقيدة المسلم ص ٩٦ - ٩٨

وبعد، فهذا توضيح لأهم معالم التوحيد، التي لا ينبغى لمسلم أن يجهلها ولا يمكن له أن يستغن عن معرفتها، ولا أزعم أننى قد أتيت على كل مسائل التوحيد ومظاهره، فلو أردت التوسع فى ذلك لكتبت فيه مجلدات، حيث يمكن أن نتحدث عن توحيد الحاكمية، والولاء والبراء، وتوحيد الاتباع، وتوحيد المحبة، وغير ذلك، بشىء من التوسع فنخرج عن مقصود الكتاب الذى وضع له، وهو تبسيط أهم معالم العقيدة بما لا يسع المسلم جهله، والله الموفق لارب سواه.

النصف الثاني من كلمة التوحيد

(أشهد أن محمداً رسول الله)

من هو محمد ﷺ

أدلة نبوته

ختمه للنبوات

عبوديته وأفضليته

الشهادة الثانية، أو النصف الثانى من كلمة التوحيد
«وأشهد أن محمداً رسول الله»

هذه هى الشهادة الثانية، المتممة للشهادة الأولى، والنصف الثانى من كلمة التوحيد، المكمل للنصف الأول، وللنصف الثانى من الأهمية ما للأول و الشهادة الثانية من المكانة ما للأولى، ولذلك لا يصح إيمان، ولا يقبل إسلام ما لم تكن هذه الشهادة، ويتم هذا النصف الثانى، فلو أن إنسانا قال : أنا أشهد بأن لا إله إلا الله، فأنا بذلك مؤمن، ولكن لا أشهد ان محمداً رسول الله، فليس بمؤمن البتة، بل هذا هو الكفر الصراح البواح..

إذ لا سبيل إلى الإيمان إلا بالشهادة الثانية مع الأولى، ولا صحة للإسلام إلا بالنصف الثانى مع الأول، فلو زعم إنسان أنه على التوحيد بشهادة أن لا إله إلا الله فهو زعم باطل، ومغالطة واضحة، وكفر صريح..

وهذه الشهادة يجب أن تكون بالقلب مع اللسان، وأن تكون اعتقادا وعملا «أشهد» شهادة قلبية مبنية على رؤية إيمانية قلبية بأن هناك ألف دليل ودليل على صدق محمد ﷺ فى رسالته، وعلى صحة دعواه وأنه مرسل من عند الله، ذلك أن العقل يقبل ذلك ، والشرع يؤيده، ولا سبيل لإنكاره، كما سنعرف ذلك.

«وأشهد» شهادة باللسان، بعد إيمان القلب، يعلن عن الاعتراف الذى آمن به، ويقر بذلك علانية، فهو إقرار واعتراف واضح لا لبس فيه.. وهذه الشهادة أو تلك، أى بالقلب واللسان، شرط صحة فى الإيمان ، كما فى الشهادة الأولى، لا تقبل الثانية ولا الأولى إلا بوجودها وتمامهما..

«وأشهد» شهادة بالجوارح تؤكد إيمان القلب، وتبرهن على صدق الاعتراف باللسان، وذلك بالعمل بما ورد فى سنة النبى ﷺ ، وتصديق ما جاء عنه ﷺ.. واتباع السنة بغير زيادة ولا نقصان، ولا تحريف ولا تبديل، ولا إنكار ولا استهتار، بل مع التسليم الكامل والرضى التام، وعدم الضيق والحرج من هذه السنة. ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في

أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(١)

دون حرية للنفس، واختيار في السنة، يفعل هذه ولا يفعل تلك، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾(٢)

مع العلم الكامل أن البعد عن السنة يورث الفتنة، ومخالفتها توقع في العذاب الأليم كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٣)

«أن» أن الناصبة، وهى للتوكيد حتى تكون الشهادة يقينية مؤكدة، لا شك فيها، ولا ريب يعتريها، بل هى بكل صدق ويقين .

«محمداً رسول الله ﷺ»

من هو محمد ﷺ ؟

«هو» محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن كعب بن مرة بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن معد بن عدنان، من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، هذا نسبه ﷺ .

أما نشأته، فقد وُلِدَ ﷺ ، بدار أبى يوسف، ولدته أمه «آمنة بنت وهب بن زهرة بن عبد مناف بن قصى بن كلاب»، ولدته صبيحة يوم الاثنين، الثانى عشر من ربيع الأول، عام الفيل، الموافق لأغسطس عام ٥٧٠ ميلادية، ومات والده «عبد الله» وهو حمل فى بطن أمه، وكفله جده عبد المطلب، وماتت والدته آمنة، وهو ابن ست سنين، وحضنته «أم أيمن» جارية أبيه، ومات جده عبد المطلب فكفله عمه «أبو طالب»(٤) ثم نشأ ﷺ نشأة الخير والطهر والشرف والكرامة، وضيء الطفولة، نقى الصبا، طهور الشباب، فلم يشب نقاء صباه ريبة، ولم تهتف بقدس

---

(١) سورة النساء الآية: ٦٥
(٢) سورة الأحزاب الآية: ٣٦
(٣) سورة النور الآية: ٦٣
(٤) عقيدة المؤمن ص ٢٧٣ بتصرف

شبابه نزغة هوى، ولا نزعة صبوة، فكانت دنياه كلها معبداً يطيب أصائله وعشاياه وأسحاره بذكر الله وحده ، ونعلم أنه جَدَّ فى الحياة راعى غنم، ثم تاجراً، فكان فى حياته المثل الأعلى فى الجد القوىّ الصالح، والأمانة التى تعتصم بالتقوى والحكمة الحكيمة في كل ما يصرف به شئون دنياه، والرعاية التى تقدس الحق والواجب لكل ما حمل من أمانة، وأنه كان فى أطوار حياته الكامل فى الأدب والخلق، وحكمة العقل، وسمو العاطفة، ونباغة الفكر، وقوة الإرادة، ومضاء العزيمة، وجلال الشرف، وعزة الكرامة، ونبل المروءة، وكرم الإيثار والنجدة، وسماحة النفس. . فلم يغمر قلبه إلا حب الله، ولم تنزع به الإرادة إلا إلى الخير، ولا العاطفة إلا إلى السمو، ولا الفكر إلا فيما ينال به رضاء الله، جواداً مسامحًا فى سخائه وبره، محسنًا كل الإحسان فى كل ما أنعم الله به عليه، فلم يغضب إلا للحق، ولم يجبن إلا عن الذنب، ولم يطمع إلا فيما هو عند الله ثم اصطفاه ربه خاتمًا للنبيين، فجاهد فى الله حق جهاده، وبلغ كل ما نزل إليه من ربه، وشهد الله له بذلك. . ثم قبضه الله إليه بعد أن صارت كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فصلوات الله وسلامه عليه . .[1]

هذا قبس نستهدى به من حياة محمد ﷺ ، وإن كان اختصارا مخلاً؛ ولكنه مقدمة للحديث عن نبوة ورسالة النبى ﷺ .

«رسول الله»

لقد عاش ﷺ حياته - كما ذكرنا - يتمتع بأفضل الأخلاق، وأطيب الشمائل، فلم يؤثر عليه ما يخل بمكارم الأخلاق قط، فلم يأت - ولا مرة - ما كان يأتيه بنو قومه أبدا، فلم يسجد لصنم، ولم يشرب خمراً، ولم يلعب قمارا ولا ميسرا، ولم يستقسم بزلم ولم يظلم أحدا فى عرض ولا مال ولا دم. لقد كان بشهادة أعدائه وخصومه مثاليا فى أخلاقه. . وناهيك بإجماع قريش على إضفاء لقب الأمين عليه، وهذا اللقب الذى لم يظفر به أحد فى ديارها أبدا، لقد كان ﷺ أمينا فى سره وفى علنه، أمينا فى قوله وفى عمله، أمينا فى غيبه ومشهده، أمينا فى كل شىء، وعلى كل شىء. . حتى بلغ سن الأربعين من عمره - كما

(١) هذه هى الصوفية ص ٩٤ - ٩٦

هى سنة الله فى الأنبياء - نُبِىءَ محمد ﷺ إذ جاءه الحق، وهو بغار حراء - بعد أن كان قد حُبِبَ إليه الخلاء فيه مدة شهر رمضان - فجاءه جبريل وهو به، فضمه إلى صدره وأرسله ثلاثا، وقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارىء، وفى الرابعة قال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(١)

فذهب بها ﷺ إلى خديجة - زوجه الكريمة - ترجف بوادره وهو خائف على نفسه، فَهَدَّأَتْ - رضى الله عنها - من روعه، وسكَّنَتْ من اضطراب نفسه، وهى تقول له: كلا، والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ - الضعيف - وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق. وانطلقت به رضى الله عنها إلى ورقة بن نوفل - ابن عمها - وكان امرءاً قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب بالعبرانية، فيكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيراً قد عمِيَ، فقالت له خديجة: يا ابن العم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخى ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى، يا ليتنى فيها جذعاً، يا ليتنى أكون حيا، إذ يخرجك قومك، فقال النبى ﷺ: أو مخرجى هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى، وبعد فترة - فتر فيها الوحى - تبدى له جبريل عليه السلام فى صورته الملائكية، وقد سد الأفق، وله ستمائة جناح، ثم أخذ يدنو منه ويتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله ما أوحى. ونزل عليه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾(٢) فأرسل بها ﷺ.

وبدأت الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله وكتابه ولقائه، وتوحيده تعالى فى عبادته، بدأها فردية، وتلقى هو ومن آمن به صنوفاً من الأذى، وأنواعاً من الاضطهاد، مما اضطر بعض أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة، ثم إلى المدينة النبوية(٣)، كما حوصر هو وأسرته الشريفة، والمؤمنون من بنى هاشم، حوصروا

---

(١) سورة العلق الآيات: ١ - ٥

(٢) سورة المدثر الآيات: ١-٥، والحديث متفق عليه (البخاري ٣، ومسلم ١٦٠)

(٣) متفق عليه (البخارى ٤٢٣٠ ومسلم ٢٥٠٢).

فى شعب أبى طالب ثلاث سنوات، جاعوا فيها جوعًا أكلوا معه ورق الشجر، مع كامل الأسف..

وفى هذه الأثناء توفيت أم المؤمنين خديجة، زوجه المفضلة - رضى الله عنها- كما توفى عمه أبو طالب الذى لم يأل جهدًا يدافع عن رسول الله ﷺ ويحميه من كيد أعدائه له ، فكان ذلك العام يدعى عام الحزن - كما قيل.

وفى نهاية السنة العاشرة من بعثته ﷺ، ومطلع الحادية عشرة، عرج به ﷺ إلى الملكوت الأعلى حتى بلغ سدرة المنتهى عند جنة المأوى، وتجاوزها إلى مقام أسمى، سمع عنده صريف الأقلام، وناجاه ربه وناداه، وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس. .[١] وفى هذه الأثناء عقد ﷺ اتفاقية مع بعض رجالات الأوس والخزرج، تنص على أن يحمى أولئك الرجال من يهاجر إليهم من المؤمنين مما يحمون به أنفسهم وأموالهم، وأن لهم عند الله - تعالى - الجنة، وسميت هذه الاتفاقية بيعة العقبة الأولى، وتمت عندها أخرى مثلها، فسميت بيعة العقبة الثانية،[٢] وهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة بعد أن كثر بها الإسلام والمسلمون، وكانت قبل ذلك تسمى «يثرب» فصارت بحلول النبى فيها تسمى «المدينة النبوية» والعامة تسميها «المدينة المنورة» وفيها شرعت كل الأحكام والقوانين الجنائية والمدنية، وبها الدولة الإسلامية الأولى فى تاريخ الإسلام، ومن المدينة انطلق المسلمون ينشرون راية العدل والحق فى ربوع الأرض، ويخرجون الناس من ظلمات الكفر إلى أنوار الإيمان، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور السلطان إلى عدل الإسلام - كما قال ربعى بن عامر، لكسرى ملك الفرس، أو لرستم قائد جيشه.

ولم يُقْبَضْ رسول الله ﷺ حتى انتظم الإسلام كامل شبه جزيرة العرب، وحتى تم التشريع الإسلامي أوفر وأقوى ما يكون، ونزل فى ذلك قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[٣]

---

(١) متفق عليه (البخارى ٣٤٩ ، ومسلم ١٦٣).
(٢) متفق عليه (البخارى ١٨ ، ومسلم ١٧٠٩).
(٣) سورة المائدة الآية: ٣

وقبض رسول الله ﷺ يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، بعد مضى عشر سنوات وشهرين وبعض الليالى على هجرته إلى المدينة، والتى كانت مبدأ التاريخ الاسلامى، ولم يلتحق بالرفيق الأعلى حتى لم يترك خيرا قط إلا دل أمة الإسلام عليه، ولا شرا إلا حذرها منه. . .

فصلوات الله عليه إلى يوم أن نسعد برؤيته وشفاعته. .

هذه نظرة سريعة، ألقيناها - متبركين بها - على تاريخ محمد رسول الله ﷺ بمناسبة الحديث عن نبوته، فكانت مثل ترجمة قصيرة، نقدمها بين يدى بحث دلائل نبوته، وعموم رسالته، وتقرير أن سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة رهن ذلك ومتوقفة عليه.[١]

• مؤهلاته للنبوة - كأدلة عقلية:

الذى ينبغى أن يعلم هنا أن النبوة لا تأتى عن طريق الكسب والاجتهاد أبدا فلو انقطع المرء إلى العبادة كلية، وتخلى عن سائر الحظوظ النفسية، وعن كل الرغبات، والشهوات، وسائر متع الحياة ولذائذها لم يؤهله ذلك لأن يكون نبيا أو رسولا بحال من الأحوال.

إن النبوة هبة خاصة، يختص بها الله واهبها من أهله لها من عباده المؤمنين، بيد أن الله يهيىء لها بإعداد خاص عبدا من عباده، فيحفظه من التلوث النفسى، والضلال العقلى، والفساد الخلقى، والانحراف الفطرى، ويضفى عليه من الكمالات النفسية، والعقلية، والخلقية ما يؤهله به لمقام النبوة الشريف، ومن المؤهلات للنبوة وتلقى الوحى الإلهى:

(١) المثالية:

ونعنى بالمثالية ذلك الكمال البشرى الذى يحوزه المرء المرشح لمقام النبوة، والذى لا يسمو إليه سواه من المرشحين لها من سائر الناس، ولقد حاز النبى محمد ﷺ كل ألوان المثالية، وأنواع الكمال البشرى، وبدا فيه ذلك واضحا، حتى لم يشاركه فيه غيره، أو يدانيه فيه سواه، سواء من الجانب الخلقى الذاتى، أو فى

---

(١) عقيدة المؤمن ص ٢٧٤ - ٢٧٩ بتصرف

الجانب الخُلقى النفسانى، إن أصحاب السير وجميع من كتب فى السيرة المحمدية مجمعون على أن محمد بن عبد الله، النبى الأمى كان أكمل الناس ذاتا، وأجملهم وجها، وأحسنهم قدراً واعتدالا، حتى بلغ من الحسن والجمال كل مبلغ، وفاق كل وصف، وإن شئت فاقرأ فى ذلك وصف البراء له، وقول أنس فيه، ووصف هند بن أبى هالة عن حليته، وقول «أم معبد» ساعة أن مر بها أثناء هجرته، وقل مع عائشة رضى الله عنها، وحسان رضى الله عنه.

خلقت مبرءا من كل عيب — كأنك خلقت كما تشاء
فأجمل منك لم ترَ قط عينى — وأفضل منك لم تلد النساء

وإن كانت هذه إشارة عن الجانب الخَلقى الذاتى لرسول الله ﷺ، وهو محض عطاء الله وهبته، ولا كسب فيه للإنسان، وقد أعطى منه ﷺ ما لم يعط غيره، حتى كان فى جماله الذاتى مثلا عاليا لا يسام فيه ولا يطاول أبدا.

فإنه فى الجانب الخُلقى النفسانى قد بلغ شأنا عظيما، وشأوا كبيرا - ومبلغا فاق كل وصف، سواء كان فى رجاحة عقل، أو فى شجاعة، أو فى سياسة، أو فى رحمة، أو فى كرم، أو فى عفو، وحلم، أو فى عدل.. الخ.

حتى صار مضرب المثل فى ذلك كله، والناظر فى سيرته العطرة ﷺ يدرك ذلك جيدا، ولو بنظرة سريعة.[1]

اقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[2]

ماذا أقول فى مثالية النبى ﷺ، وقد عرف ذلك القاصى والدانى، وشهد به العدو قبل الصديق، وكيف لا، وقد كان ﷺ وسلم قرآنا يمشى بين الناس[3] واقعا حيا، وتطبيقا عمليا، فلماذا لا يكون كذلك.

(٢) شرف النسب:

بما أن عامل الوراثة له خصائصه وصفاته التى لا تنكر، وأنها تنتقل - بهذه

---

(١) راجع بتوسع: اللؤلؤ والمرجان، والبداية والنهاية، وسيرة ابن هشام، وفقه السيرة، وعقيدة المؤمن.
(٢) سورة القلم الآية: ٤
(٣) أخرجه مسلم بمعناه ٧٤٦ .

السنة الإلهية - من الأصل الوالد إلى الفرع المولود، ومن هنا كان الأنبياء يبعثون فى أشراف أقوامهم، والمراد من الشرف بالمعنى العام الترفع عن الدنايا الخلقية، والتنزه عما يخل بالمروءات، ويهبط بالقيم البشرية، من كل سلوك شائن منحرف، تكرهه الطباع البشرية السليمة، وتشمئز منه النفوس الكريمة..

وأن من ينظر بإنصاف فى النسب النبوى الشريف يجده بحق أشرف نسب وأطيبه ، وأطهره، وأزكاه، إنه لم يعرف التاريخ البشرى نسبا كان أوضح وأنصع، ولا أطيب ولا أطهر من نسب النبى ﷺ ، إذ كانت قريش بلا منازع ولا مدافع هى أشرف القبائل العربية ، وبنو هاشم كانوا أشرف بيوت قريش، أيضا بلا منازع، والأنبياء يبعثون دائما فى أشراف أقوامهم، هذه كلمة قالها «هرقل» ملك الروم وعظيمها [1] . ولنستمع إلى رسول الله ﷺ نفسه وهو يقرر هذه الحقيقة، فيقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم» [2] فكان ﷺ خيارا من خيار. [3]

(٣) عامل الزمن:

إن المراد من عامل الزمن هو وجود مقتضيات فى الزمن المعين، تحتم بعثة نبى، وإرسال رسول، وتقتضيه، ومن ذلك وجود فراغ روحى تسبب عنه فساد اجتماعى كبير، فأصبحت الحال تتطلب نبيا مصلحا، يرد للحياة اعتبارها، وللإنسان قيمته، وذلك كالفراغ الذى كان قبل إرسال موسى وأخيه هارون عليهما السلام، وكذلك كان قبل نبوة عيسى عليه السلام، وكالذى كان قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام،ورسالته.. بل كان واضحا فى تلك الفترة أكثر من غيرها، إذ كان الجميع يتطلعون إلى تلك النبوة، ويحسون بقربها، بحيث تطلع كثير من أهل الكتاب لها، بل صرحوا بقربها وجاهروا به ، وانتظروه.. لذا بادر الكثير منهم بالإيمان بنبوة محمد ﷺ ورسالته، ولم يترددوا فى ذلك بمجرد ظهورها،

---

(١) متفق عليه (البخارى ٧ ، ومسلم ١٧٧٣).

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٧٦ .

(٣) عقيدة المؤمن: ص ٢٦٠ ، ٢٩٢ بتصرف

وذلك كالنجاشى من النصارى، وعبد الله بن سلام من اليهود وغيرهما من أحبار اليهود ورهبان النصارى، ذلك لما شاهدوا من الفساد العام الذى انتظم العالم بأسره، وبخاصة جزيرة العرب، وبلاد الروم وفارس، وهى تمثل العالم الإنسانى تقريبا فى ذلك الوقت.

ومجمل القول أن وجود فساد عام فى الأرض من شأنه أن تتطلع معه النفوس إلى مصلح يصلح الله به البلاد والعباد، وذلك لما غرز الله تعالى فى الفطر البشرية من الشعور بالرحمة الإلهية وقربها كلما عم الشر، وعظم الفساد، شعور كشعور العطشان بالحاجة إلى الماء، وتطلعه اليه، وأن الحال الذى كان يعيشه العالم يومئذ، قبل بعثة النبى ﷺ ، ظلاما دامسا، وشرا مستشريا، وفسادا طاغيا، وهى حال تدعو بل تصرح بذى نبوة إلهية، ورسالة ربانية، يصلح الله به، وعلى يديه فساد البلاد والعباد، حتى كان المؤهل لهذه النبوة هو محمد بن عبد الله ﷺ[1].

فهذه مؤهلات النبوة كلها قد توفرت لمحمد رسول الله ﷺ ، وبصورة لا أكبر منها ولا أوضح، فهل يصح فى العقول نفى نبوته، أو جحود رسالته؟ اللهم لا ، إلا أن يكون ذلك من جاهل متعصب، أو من مغرض ذى طمع فاسد، يجاحد ويعاند..

وإن كان هذا غيضا من فيض، من مؤهلاته، ﷺ ، فتلك إشارات أخرى لصفاته ﷺ، فلقد عُرِفَ الأنبياءُ بصفات كمال تؤهلهم لحمل رسالتهم، لا تُفْقَدُ فى أحدهم أبدا، إذ هى واجبة لكل من يحمل رسالة الله تعالى إلى عباده، وهى - على سبيل الإجمال - كل كمال بشرى يليق بهؤلاء الصفوة من البشر، ومنها على سبيل التفصيل:

(١) الصدق: صدق النية، والإرادة، صدق القول والعمل، بحيث يستحيل أن يتصف المؤهل للنبوة بضد الصدق وهو الكذب والنفاق أو الإهمال واللامبالاة، والمتبع لسير الأنبياء يعرف هذه الحقيقة ويؤمن بها، والذى ينظرها فى حياة النبى ﷺ يراها واضحة جلية، يعرفها القاصى والدانى، ويؤمن بها العدو قبل الصديق.

---

(١) عقيدة المومن ص ٢٦٠ ، ٢٦١، ٢٧٩، ٢٨٠ بتصرف.

(٢) الأمانة:

الأمانة فى كل شىء، فى القول والعمل، فى الحكم والقضاء، فى الحديث والنقل، فى الرواية والتبليغ، فى السر والعلن معا، إذ يستحيل أن يتصفوا بضدها وهى الخيانة، بحال من الأحوال، فلا خيانة فيهم أبدا، ولو فى أقل الأشياء وأتفهها، ومتى وجد شىء من الخيانة، فلا نبوة ولا أهلية لها أبدا.

والناظر فى حياة النبى ﷺ يجد أن المشركين فى مكة أطلقوا عليه منذ صغر سنه ونعومة أظافره «الصادق. الأمين» .. ﷺ، لقد بلغ من الأمانة مبلغا مع أعدائه لم يقل عن أمانته مع أصحابه وأتباعه ﷺ.

(٣) التبليغ:

والمراد منه أن يبلغ الرسول كل ما أمر بتبليغه، فلا يُخفِى منه شيئا، ولا يكتمه بحال من الأحوال، فلا تحمله رغبة ولا رهبة على أن يكتم بعضا مما أوحيَ إليه، وأمرَ بإبلاغه إلى الناس، والكتمان للوحى الإلهى يتعذر على المرسلين، ويستحيل فى حقهم، ولا يتأتى لهم، لأن الله تعالى أهَّلهم للبلاغ عنه ما أراده لعباده من الهدى والخير، فمتى وجد الكتمان بطلت النبوة وانتفت الرسالة، ولذلك كان النبى ﷺ مضرب المثل فى التبليغ عن ربه، مهما كانت الظروف والأحوال - مبلغا العتاب له قبل الثناء عليه - ممتثلا قول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾[1]

(٤) الفطنة:

إن الفطنة ليست الفهم والذكاء فحسب، بل هى مع ذلك، رقة الشعور وصفاء الذهن، ورهافة الحس وصدقه، وسرعة البداهة، كانت واضحة جلية فى النبى محمد ﷺ .. على حد قول حسان بن ثابت فيه:

لو لم يكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهته تأتيك بالخبر

إذن، الفطنة من المؤهلات لتلقى الوحى، والأمانة عليه، فالغباء، وبلادة الحس، وبطء الإدراك، تتنافى مع مقام النبوة وشرف التلقى عن الله تعالى.

---

(١) سورة المائدة الآية: ٦٧

كان هذا عن الصفات بعد المؤهلات، والبقية تأتى من الأدلة إن شاء الله تعالى.(١)

(أ) النبى محمد ﷺ فى الكتب السابقة:

لقد ورد ذكر النبي ﷺ في التوراة والإنجيل، كما ذكر ربنا عز وجل: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾(٢)

ومن ذلك ما جاء فى التوراة - فى سفر التثنية- «جاء الرب من سيناء، وأشرق لنا من ساعير، واستعلن من جبال فاران، ومعه ألوف الأطهار»(٣)

فهذه شهادة صريحة من التوراة واضحة لمحمد ﷺ بنبوته ورسالته، إذ معنى هذا اللفظ: أن الله تعالى ناجى موسى وأوحى إليه بسيناء، وأرسل عيسى وأوحى إليه بساعير وهى من أرض الجبل المقدس، وبعث محمدا ﷺ رسولا معلنا «لا إله إلا الله» مستعلنا بها من مكة الواقعة بين جبال فاران، كجبل أبى قبيس وحراء وغيرهما من جبال مكة المحيطة بها..

هذا وقد جاء فى التوراة نصوص كثيرة ذُكِرَ فيها النبى محمد ﷺ..(٤)

وعن الإنجيل جاءت نصوص كثيرة تحدثنا عن النبى محمد ﷺ، على الرغم من تحريفه كالتوراة، ومن ذلك قول عيسى عليه السلام «إن كنتم تحبونى فاحفظوا وصاياى، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزيا «فارقليط» آخر، ليمكث معكم إلى الأبد»(٥)

فالفارقليط، ترجمته، محمد أو أحمد، وبقاؤه معهم إلى الأبد هو بقاء دينه وكتابه وسنته، إذ هى محفوظة بحفظ الله، وباقية ببقاء هذه الحياة، وهذا معنى إلى الأبد في قوله «يبقى معكم إلى الأبد».. وكذلك «لكنى أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن أنطلق، لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم المعزى «الفار قليط» ولكن إن ذهبت أرسلته إليكم»(٦)

«فالفار قليط» هو محمد ﷺ، ولو لم يذهب عيسى عليه السلام برفع الله

---

(١) عقيدة المومن - ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ بتصرف
(٢) سورة الأعراف الآية: ١٥٧
(٣) سفر التثنية، اصحاح ٣٣
(٤) راجع بتوسع: محمد ﷺ فى التوارة والانجيل والقرآن، ابراهيم خليل
(٥) انجيل يوحنا، إصحاح ١٤
(٦) انجيل يوحنا، إصحاح ١٦

تعالى له ، لما بعث محمد ﷺ إذ بعثة النبى محمد ﷺ كانت على فترة من الرسل، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١)

وأيضا: و «الفارقليط» روح القدس الذى يرسله الأب، باسمى هو يعلمكم كل شىء، وهو يذكركم بكل ما قلته لكم.(٢)

فالفارقليط روح القدس هو محمد ﷺ الذى أرسله الله إلى الناس كافة، ومن بينهم اليهود والنصارى، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(٣)

فجاء فى هذه الآية القرآنية لفظ الرسول معرفا بالألف واللام، وهى وإن دلت على تفخيم الرسول وتعظيمه فى كماله ، فإنها دالة على العهدية، فهى إشارة إلى ما فى الكتابين، «التوراة والإنجيل»، من البشارة بالرسول محمد ﷺ، كما ذكرنا ونذكر.(٤)

(ب) شهادة علماء أهل الكتاب:

كما قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(٥)

فقد وبخ الله العرب الكافرين على عدم إيمانهم برسالة محمد ﷺ مع وجود آية عظيمة تدل على صدق نبوته، وثبوت رسالته، وهى معرفة علماء بنى إسرائيل وشهادتهم له بأنه نبى الله، وما جاء به هو من عند الله. كما قال تعالى أيضا:

---

(١) سورة المائدة الآية: ١٩ (٢) انجيل يوحنا، إصحاح ١٤

(٣) سورة النساء الآية: ١٧٠

(٤) راجع بتوسع: إظهار الحق، (محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل والقرآن» ورسالتنا «التعصب والتسامح فى اليهودية والمسيحية والإسلامية»

(٥) سورة الشعراء الآية: ١٩٧

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾(١)

فقد أخبر الله تعالى فى هذه الآية، أن الذين أوتوا الكتاب - التوراة والإنجيل- يعرفون نبوة محمد ﷺ، وصدقه فيها معرفة مثل معرفتهم لأولادهم، كما أخبر أن فريقاً كبيرا منهم يكتمون الحق بعد معرفتهم له، ولذا لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ، بعد معرفتهم لها تمام المعرفة. ونكتفى بذكر شهادة عبد الله بن سلام رضى الله عنه، عن غيرها من شهادات كثير من علماء اليهود وأنصارهم. فقد روى البخارى فى صحيحه، عن أنس بن مالك «أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأتاه، فقال: إنى أسألك عن ثلاث، لا يعلمهن إلا نبى، قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أى شىء ينزع الولد إلى أبيه؟ فقال ﷺ: أخبرنى بهن آنفا جبريل، قال عبد الله بن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه فى الولد، فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها. قال عبد الله بن سلام: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، إن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم بهتونى عندك. فجاءت اليهود ودخل «عبد الله» البيت، فقال رسول الله ﷺ: أى رجل فيكم «عبد الله بن سلام»؟ قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا، فقال رسول الله ﷺ: أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه..»(٢)

وبعد، فإن شهادة عبد الله بن سلام هذه تعد من أكبر الشهادات، بعد شهادة الله ورسوله ﷺ لمحمد بالنبوة والرسالة، ولذا لم نذكر بعدها من شهادات علماء اليهود شهادة غيرها.. قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ

(١) سورة البقرة الآيات: ١٤٦، ١٤٧

(٢) أخرجه البخارى ٣٣٢٩.

وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾(١)

أما علماء النصارى فإن لهم من الشهادات برسالة محمد ﷺ ونبوته، ما لا يسعه المقام، لذا فإنا نكتفى من كل ذلك بشهادة عظيمة، أقرها القرآن، وسجلها فى صفحاته، ألا وهى: شهادة الملك الصالح «أصحمة النجاشى» إذ جاء فيه وفيمن آمن معه، قول الله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٢)

فقد أجمع علماء التفسير والأخبار والسير على أن هذه الآيات نزلت فى النجاشى وأصحابه المؤمنين، فقولهم: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ ، قولهم هذا يعد شهادة عظيمة بالإسلام ونبيه، وكتابه، وأمته، ولنستمع إلى شهادة النجاشى- رحمه الله تعالى- من خلال رده على كتاب رسول الله ﷺ ، الذى رده، وهو فى دار ملكه، وحاضرة بلاده، إذ جاء فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله، من النجاشى الأصحم بن أبحر، سلام عليك يا نبى الله من الله ورحمة الله وبركاته، لا إلا إلا الله هو الذى هدانى إلى الإسلام، فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ماذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقرينا ابن عمك «جعفر» وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت

---

(١) سورة الأحقاف الآية: ١٠ (٢) سورة المائدة الآيات: ٨٢- ٨٥

على يديه لله رب العالمين وبعثت إليك يا نبى الله بأريحا بن الأصحم بن أبحر، فإنى لا أملك إلا نفسى وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله.»[١]

(جـ) شهادة بلايين من المسلمين:

إن إيمان بلايين البلايين من المسلمين الذين شهدوا لمحمد ﷺ بنبوته ورسالته وآمنوا به حق الايمان، واتبعوا ما جاء به من الحق والهدى، وجاهدوا دونه، وبينهم العلماء، والحكماء، والصلحاء الصادقون الذين يفوق عددهم الحصر، ويتعذر الإحاطة بهم علما، لهو من أعظم الشهادات، وأقواها وأكثرها إقناعا للعقول، وجلبا للطمأنينة والسكون فى نفوس المؤمنين بنبوة محمد ورسالته ﷺ.[٢]

(د) شهادة الحق عز وجل وملائكته:

إن شهادة الله عز وجل وملائكته للنبى ﷺ بالنبوة والرسالة لشهادة مغنية عن كل شهادة، قال تعالى: ﴿ **لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا** ﴾[٣]

ولولا كزازة النفوس ورعونتها - أى قبحها وحمقها - وظلمات الجهل بالله تعالى التى تغشى كثيرا من قلوب الناس لما ذكرنا مع شهادة الله تعالى لمحمد ﷺ بالرسالة شهادة أبدا، ولكن نظرا لما ذكرنا أوردنا تلك الشهادات السابقة، وقفينا عليها بشهادة الله تعالى لتكون مسك الختام - التى لا يردها عاقل أبدا..

وشهادة الله تعالى تنقسم إلى قسمين: شهادة أخبار وشهادة معجزات.. فشهادة الأخبار أى أخباره تعالى فى كتابه عن وحيه، واصطفائه لرسوله وإرساله ونصرته إياه، وشهادة المعجزات هى ما أظهره الله تعالى على يد نبيه من خوارق العادات، إذ كل خارقة تقول بلسان حالها عن الله تعالى: صدق محمد عبدى ورسولى فيما أخبر عنى من أنى أرسلته وهو رسولى..

---

(١) البداية و النهاية جـ٣ ص٨٤: وجاء فى سنن أبى داود أن النجاشى قال: أشهد أنه رسول الله ﷺ وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم.

(٢) عقيدة المؤمن ص ٢٩٤ - ٢٩٩ بتصرف

(٣) سورة النساء الآية: ١٦٦

* ومن شهادة الأخبار، وما يلي:

قوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾(١)

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾(٢)

كما قال: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾(٣)

وكذلك: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾(٤)

أيضاً: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾(٥)

وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾(٦)

وقال عز من قائل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ﴾(٧)

ومن شهادة المعجزات ما يلي:

(١) نزول القرآن الكريم عليه وحيا، أوحاه الله تعالى إليه، فإنه أكبر معجزة عرفها الوجود البشرى، إذ العادة قاضية بأن أميا لم يقرأ ولم يكتب ولم يجلس بين يدى أستاذ، أو مرب ومعلم قط، قاضية باستحالة تكلمه بالعلوم والمعارف، ومعرفته لها، وتفوقه فيها فضلا عن أن يأتى بما لم يأت به غيره من كل معاصريه، وممن يأتى بعدهم إلى انقراض الحياة ونهاية الكون.. فالقرآن الكريم قد حوى أعظم تشريع، واشتمل على قدر من العلوم الإلهية، وعلى أثبت الحقائق العلمية، كنظام الزوجية والقوانين الكونية كما تعرض لبدء الخليقة وذكر من قصص الماضين وأخبار السابقين الشئ العجيب، وأخبر بمغيبات عديدة، فكانت كما أخبر حرفيا، وبلا زيادة أو نقصان..

---

(١) سورة الفتح الآية: ٢٩

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٥٨

(٣) سورة البقرة الآية: ١١٩

(٤) سورة النساء الآية: ١٦٣

(٥) سورة الأحزاب الآيات: ٤٥، ٤٦

(٦) سورة المائدة الآية: ٦٧

(٧) سورة النساء الآية: ١٧٠

هذا الكتاب يأتى به أمى يتحدى كل الخلق على الإتيان بمثله، أو بعشر سور من مثل سوره، أو سورة واحدة[1] فتعجز البشرية ومعها الجن كلهم وتطأطئ رأسها وتسكت عن المعارضة لأكبر معجزة أوتيها محمد ﷺ لتدل على صدق نبوته وثبوت رسالته، عرف هذا - فداه أبى وأمى - حين قال : «ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطِىَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحى إلىَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».[2]

وهذه صورة التحدى قائمة إلى يوم القيامة تحويها آية واحدة من سورة البقرة هى قول تعالى : ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾[3]

فقوله تعالى: «ولن تفعلوا» أى الإتيان بسورة قرآنية من أمى مثل محمد ﷺ فى أميته، ولا من غيره كذلك، هذا التحدى وهو نفس الإتيان بسورة من أمى مثل محمد ﷺ فى أمته وقد مضى عليه الآن ما يزيد على الألف والأربعمائة سنة، ولا يؤمل أبدا أن يأتى أحد، مهما كان، فيبطله بأن يأتى بسورة قرآنية ولو كانت كأقصر سورة، هيهات هيهات، إذ الله عز وجل يقول: «ولن تفعلوا» فما لم يكن هذا القرآن هو كتاب الله تعالى، وأنه نزل على رسول الله ﷺ ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾[4]

فمن صاحب هذا الكتاب إذا لم يكن محمد ﷺ نبيا ورسولا ؟؟ هذا وليس القرآن الكريم هو المعجزة الوحيدة للنبى ﷺ ، وإن كان أعظمها وأخلدها، فهو المعجزة المعنوية الباقية إلى يوم الدين، وهناك معجزات حسية أخرى للنبى ﷺ ، شأنه فى ذلك شأن بقية الأنبياء- عليهم السلام، فضلا عما فضل به عنهم، ومنها:

---

(١) راجع الآيات التى جاءت فى هذا التحدى.

(٢) متفق عليه (البخارى ٤٩٨١ ، ومسلم ١٥٢).

(٣) سورة البقرة الآيات ٢٣ ، ٢٤ .

(٤) سورة الشعراء الآيات: ١٩٢- ١٩٥

(٢) الإسراء به ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم العروج به إلى السماء السابعة حيث سدرة المنتهى عند جنة المأوى، فبلغ مستوى سمع فيه صريف الأقلام، وناداه ربه وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس.[١]

(٣) انشقاق القمر له ﷺ ، حين طلبت قريش ذلك استدلالاً على نبوته ﷺ فانشق القمر، وكان فلقتين على جبل أبى قبيس، وأهل مكة كلهم يشاهدون ويعجبون وأثبتت هذه الحادثة فى القرآن بقول الله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾[٢]

(٤) تسليم الشجر والحجر عليه، على مرأى من الناس ومسمع، وعشرات المرات.[٣]

(٥) تسبيح الطعام بين يديه ﷺ وأصحابه يسمعون، وهم عدد كبير من خيار البشر.[٤]

(٦) حنين الجذع إليه ﷺ ونطقه، وسماع مئات الرجال الأخيار له، وعدم سكوته إلى أن أتاه الرسول وهدهده كما تهدهد الأم طفلها، فسكت.[٥]

(٧) رده - ﷺ - عين قتادة حيث خرجت حتى تدلت على وجنته بسبب ضربة أصابته يوم أحد، فردها ﷺ ومسح عليها فكانت أحسن منها قبل إصابتها.[٦]

(٨) فيضان الماء من بين أصابعه بالحديبية، ثم سقى وروى جيشا كاملا قوامه ألف وأربعمائة رجل وامرأة.[٧]

(٩) تكثير الطعام يوم الخندق، حتى أطعم - بصاع من شعير وجَدْيٍ صغير - جيشا كاملا، تعداده ألف رجل أو يزيدون.[٨]

---

(١) انظر أحاديث الإسراء والمعراج فى البخارى ومسلم

(٢) سورة القمر الآية : ١ ، والحديث فى الصحيحين (البخارى ٣٦٣٦ ، ومسلم ٢٨٠٠).

(٣) أخرجه مسلم ٢٢٧٧ .

(٤) أخرجه البخارى ٣٥٧٩ .

(٥) أخرجه البخارى ٣٥٨٣ .

(٦) سيرة بن هشام

(٧) أخرجه البخارى ٣٥٧٧ .

(٨) متفق عليه (البخاري٤١٠٢ ، ومسلم ٢٠٣٩)

(١٠) إخباره بالمغيبات الكثيرة، فكانت كما أخبر، وذكره علامات الساعة، فكانت كما ذكر، وهى - ولا شك- أنها من الكثرة بمكان [1] ونذكر منها على سبيل المثال:

قوله ﷺ - فى الحسن بن على رضى الله عنه - «إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[2] فكان كما أخبر، وقوله: - فى «عمار بن ياسر»، وهو يحمل اللَّبِنَ لبناء المسجد - «تقتلك الفئة الباغية».[3] فكان كما قال، فقد قتل عمار فى حرب «على ومعاوية» قتله جيش الشام وفيهم البغاة من قتلة عثمان من السبئيين.

وقوله ﷺ : سيكون فى آخر أمتى رجال يركبون على السروج كأشباه الرحال، ينزلون بها على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات، على رؤسهن البخت العجاف، العنوهن فإنهن معلونات»[4]

فما هذه المركوبات - يا ترى - التى أخبر أنها سيركبها رجال من أمته؟ إنها كسروج الفرس وليست بفرس، وإنها لتشبه رَحْلَ البعير ولكن ليست على البعير، إنها قطعا السيارة بنت القرن التاسع عشر الميلادى، فهل كانت البشرية تحلم يومئذ بالسيارة التى تقطع مئات الأميال فى بضع ساعات، حاملة الركاب وأمتعتهم؟ والجواب: لا ، ولكن الوحى المحمدى أخبر بقدر ما يمكن أن يفهمه السامعون يومئذ، وانتظر المؤمنون حتى يتم هذا الخبر، وتمضى الأجيال جيلا بعد جيل، إلى القرن الثالث عشر الهجرى حيث ظهر ما أخبر به ﷺ، وركب الناس على السروج كأشباه الرحال، ونزلوا بها على أبواب المساجد..

ثم، هل عرفت الدنيا يوم أخبر الرسول ، بـ «المينى جيب» وهل يعقل أن امرأة مؤمنة تمشى فى الشوارع بين المسلمين وهى كاشفة عن فخذيها، وكل جسمها ما عدا بطنها وظهرها إلى ركبتيها؟ وهل عرفت النساء - كل النساء - كفكفة

---

(٢) أخرجه البخارى ٢٧٠٤

(١) راجع: نهاية الفتن والملاحم لابن كثير

(٣) أخرجه مسلم ٢٩١٦ .

(٤) أخرجه أحمد ٧٠٨٣ ، وابن حبان فى صحيحه ٥٧٥٣ ، والحاكم فى المستدرك ٨٣٤٦ ، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الألباني في صحيح الترغيب: حسن.

الشعر على الرأس حتى يكون كذروة البعير الهزيل، فى غير القرن العشرين؟ وهل يعقل أن امرأة مسلمة تفعل بشعرها هكذا، وتخرج بارزة فى الشوارع والطرقات، والجواب لا ، ولكن ما أخبر به محمد ﷺ قد تحقق وهو من الغيب فى أعماق المجهول، فكان ذلك آية أن محمدا رسول الله ﷺ وآله وصحبه والمؤمنين به، الناهجين نهجه، المستقيمين على صراطه المستقيم إلى يوم الدين.[١]

(١) عقيدة المؤمن - ص ٢٩٩ - ٣٠٥ بتصرف

النبى محمد ﷺ
خاتم النبيين

إن الله تعالى قد ختم سائر النبوات بآخر نبوة، وهى نبوة محمد ﷺ ، فلم يبق من مطمع لأحد فى أن يدعى النبوة، أو يؤتاها بعد نبوة محمد النبى الأمى أبدا، ومن جهل هذه الحقيقة، أو تجاهلها تضليلا وخداعا وادعى النبوة فقد كذب على الله، وأعظم الفرية عليه، وكَذَّبه فى خلقه، ولم يلبث طويلا حتى يفتضح شر فضيحة، ويلعن بين الناس، كما حصل لعدد من الدجالين الكذابين، مثل «مسيلمة الكذاب»، فى الأولين، و«أحمد مرزا غلام» فى الآخرين، عليهما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.. وذلك لأن الله تعالى قد أخبر بختم النبوات بنبوة محمد ﷺ فى قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾(١) ولا يحق لواحد أن يقول: محمد ﷺ خاتم النبيين، وأنا خاتم المرسلين، كما زعمه بعض الدجالين الكذابين، ذلك لأن من ختمت به النبوة ختمت به - من باب أولى - الرسالة، إذ كل رسول نبى، وليس كل نبى رسولا، فإذا أغلق الباب من أصله، فكيف بالدخول إلى فرعه، فالنبوة أصل والرسالة مبنية عليه..

فخاتم الأنبياء والرسل قطعا هو النبى ﷺ ، كما ذُكِرَ فى الآية السابقة، ولقوله ﷺ : «إن مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» ..(٢) وقوله ﷺ: «إن لى أسماءً ، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب الذى ليس بعده أحد» ..(٣) هذا وقد أخبرنا ﷺ عن وجود من يزعم النبوة، ومجىء كذابين من

---

(١) سورة الأحزاب الآية: ٤٠

(٢) متفق عليه (البخارى ٣٥٣٥ ، ومسلم ٢٢٨٦).

(٣) متفق عليه، واللفظ لمسلم (البخارى ٣٥٣٢ ، ومسلم ٢٣٥٤).

بعده، فقال: «إنه سيكون فـى أمتى كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبى، وأنا خاتم النبيين ، لا نبى بعدى».(١)

ومن أقوى الأدلة، وأعظم البـراهين على ختم نبـوة محمـد ﷺ وسلم لسائر النبـوات، أن يمضى الآن مـا يزيد على ألف وأربعـمائة سنة عـلى الإعلان بختم النبوات بنبوته ﷺ ، ولم تأت نبوة حق، ولا نبى صـدق، فى كل هذه الحقبة من الزمن الطويلة، فى حين أنَه كان قبل نبوة محـمد ﷺ تظهر النبوات فى كل عصر ومصر، وقد يوجـد العدد من الأنبياء فى الأمة الواحدة، والبلـد الواحد، كما هو معلوم فى التاريخ البشرى، وفى جانبه الدينى بالخصوص.

فالواجب على كل إنسان فى هذا الوجود البـشرى أن يؤمن بهذا النبى، ويتبع ما جاء به من الحق والـهدى، وذلك لأمر الله تعالى بالإيمان به وباتبـاع ما جاء به فى مثل قوله تعالى: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ﴾(٢) ولتخصيص الرب تبارك وتـعالى رحمـته، وهى الفـوز بالجنة بعد النجـاة من النار بمن آمن به واتبعه فـيما جاء به ﷺ ، قـال تعالى: ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٣)

ا.هـ.(٤)

---

(١) أخرجه أحمد ٢٢٤٤٨، أبو داود ٤٢٥٢، وابن ماجه ٣٩٥٢، وغيرهم. وقال الالباني في صحيح الجامع (١٧٧٣): صحيح.

(٢) سورة التغابن الآية: ٨

(٣) سورة الأعراف الآيات: ١٥٦ ، ١٥٧

(٤) عقيدة المؤمن ص ٣٠٦ ، ٣٠٩ بتصرف

مكانة النبى ﷺ وأفضليته

لقد أرسل الله عز وجل الأنبياء والرسل، وجعل بينهم أفضلية، ولهم درجات، كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ (١) ولقد جعل الله عز وجل الدرجة العليا لنبيه وحبيبه محمد ﷺ ، فهو ﷺ أفضل الخلق، وحبيب الحق، وسيد ولد آدم، وإمام الأولين والآخرين، وسيد المتقين، وحامل لواء الشفاعة يوم الدين.

ولقد ذكر الله عز وجل مكانة النبى ﷺ فى القرآن الكريم إذ جعله خاتم الأنبياء، وذكره أولهم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾(٣) كما أن الله عز وجل أخذ الميثاق على كل الأنبياء والرسل الإيمان بالنبى محمد ﷺ فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾(٤) وغير ذلك من الآيات التى تدل على فضل النبى ﷺ وعلو درجته.

فإذا نظرنا فى سنة النبى ﷺ ، وجدنا رسول الله ﷺ يتحدث بنعمة الله عز وجل عليه، فقال فيما قال: أنا سيد الأولين والآخرين يوم القيامة».. ثم ذكر حديث الشفاعة(٥) وقوله ﷺ «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، وأول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأول من يحرك حلق الجنة، وقد جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى..» (٦)

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٣

(٢) سورة النساء الآية: ١٦٣

(٣) سورة الأحزاب الآية: ٧

(٤) سورة آل عمران الآية: ٨١

(٥) متفق عليه (تقدم).

(٦) أخرجه البخارى بمعناه ٤٣٨ .

وأحاديث أخرى كثيرة، وردت فى فضل النبى ﷺ ، وفى فضل أمته، وعلو درجته، وعظيم منزلته، على كل البشر، بل وهداة البشر وهم الأنبياء، وكذلك سائر المخلوقات.[1]

ومع ذلك كله، فهو ﷺ عبد من عباد الله، وبشر من خلق الله، لا يمكن أن يكون إلها أو ابن اله أو شريكا مع الله، كما زعمت ذلك النصارى فى نبيهم، ولا يمكن أن يتخلى عن بشريته وعبوديته لله عز وجل.

عبودية النبى محمد ﷺ وبشريته

إننا نعتقد أفضلية النبى ﷺ ، وعلو درجته، وعظم مكانته، ولكن ذلك لا يخرجه عن صفة العبودية لله عز وجل، إذ هى الشرف ذاته، والفضل نفسه، ولذلك فالله عز وجل يصف رسوله بأشرف الصفات، وهو العبودية، فى أشرف المقامات وأخلدها ذكرا، وأجلها أثرا وغاية، فيقول تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[2]

يصفه ربه بالعبودية الصرفة الخالصة وحدها فى تلك الليلة التى استشرف فيها قمة السمو الأعظم، وتألقت أمجاده الخوالد الذكريات، العبودية، حتى فى تلك الليلة التى وقف فيها دون عرش ربه الأعظم، يقتبس من نور الله وهداه، فما بالك به فى كل أصائل عمره وعشاياه؟ ويصفه ربه بالعبودية فى مقام الدعوة إليه ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾[3] فتدبر إضافة «عبد» إلى «الله» ليغمر يقين الحق قلبك.

ويصفه سبحانه بالعبودية فى مقام هو الفيصل الحق الأكبر بين كون محمد دعيا وكونه نبيا، وذلك هو مقام التحدى بالمعجزة العظمى، معجزة القرآن، ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾[4] وكذلك لما نزل على

(١) راجع ذلك بتوسع فى الصحيحين وغيرهما
(٢) سورة الإسراء الآية: ١
(٣) سورة الجن الآية: ١٩
(٤) سورة البقرة الآية: ٢٣

النبى ﷺ القــرآن: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾[١] والرسول نفسه يضع لنا على الطريق بصمات حق ومنارات هدى، حتى لا نحيــد فنهلك، ويرشدنـا إلى الحق حتى لا نزيغ عنـه، فـيقـول ﷺ «لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عـبد، فقولوا: عبد الله ورسـوله»[٢] تدبر ما ذكرتك به من آيات الله، وحـديث الرسول ﷺ، لتؤمن أن محمدا ﷺ لم يبلغ ما بلغ من عظمة وكمال وسمو إلا بإخلاص الدين لله وحده، والعبودية الكاملة لله عز وجل، وأنه كان بشرا يوحى إليه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[٣] وقوله سبـحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[٤] فنفى البشرية عن النبى ﷺ بزعم النورانية، ضلال مبين، وبعـد عن الدين. . إننا لا ننكر نورانيـة للنبى ﷺ لا تـتـضاد مع بشـريته، فـهى نورانية معنوية، نورانية إيمان وعلم وقرآن، وليس من نور الله، لأن هذا كفر، فيه تجسيم للذات الإلهية، ورفـع للنبى ﷺ إلى درجة البنوة أو الألوهية، وليست من نور الملائكة، لأن النبى ﷺ بشر وليس بملك، ولم يرسل الله عز وجل نبيا ملكا، ولأنه ﷺ أفـضل من الملائكة، وعلى رأسـهم «جـبريل» عليـه السلام، وليـست نورانية حسـية، كما زعمت المتـصوفة، إذ هذا ليس فيه أفـضلية، ولا دليل عليه، وفيه من الهراء والكذب ما فيـه. . فنورانية النبى ﷺ ، كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[٥] ا.هـ.[٦]

---

(١) سورة الكهف الآية: ١

(٢) أخرجه البخارى ٣٤٤٥ .

(٣) سورة الاسراء الآية: ٩٣

(٤) سورة الكهف الآية: ١١٠

(٥) سورة الأحزاب الآيات: ٤٥، ٤٦

(٦) انظر بتوسع فى كتاب «شبهات المتصوفة».

حقيقة الإيمان

الجزء الثاني

طبعة مزيدة ومحققة ومخرجة الأحاديث
على كتب العلامة الشيخ الألباني

تأليف
أبو حفص
أ . د . عمر بن عبد العزيز قريشي
كلية الدعوة الإسلامية
جامعة الأزهر

دار

الإيمان بالملائكة

- كيف نؤمن بالملائكة
- وجوب الإيمان بالملائكة
- من هم الملائكة
- خلق الملائكة
- تفاضل الملائكة
- أعمال الملائكة
- صفات الملائكة
- عصمة الملائكة

كتابات في الحياة

- كتابات في مواقف سلبية
- كتابات في الحياة بالعموم
- كتابات مع نفسي
- كتابات تعليقية
- كتابات في الصداقة
- كتابات في العداء
- كتابات النفس
- كتابات عامة

الركن الثاني

الإيمان بالملائكة

مقدمة

كيف نؤمن بالملائكة وهم من الغيب؟

لقد عاب الكفار والملحدون على أهل الإيمان أن يؤمنوا بالغيب، ورموهم بالسفه والجهالة لأنهم يعتقدون بما لا يرون أو يسمعون أو يحسون أو يلمسون أو يتذوقون أو يشمون يعني بما لا يقع تحت حواسهم الخمس التي هي السمع والبصر واللمس والشم والذوق، ونسارع بالرد على هؤلاء ونقول: إن الكون كله ينقسم إلى غيب وشهادة، فالغيب ما غاب عن الموجودات من أعين الناظرين، وإن كانت حقيقة مسلمًا بها.

والشهادة: خلاف الغيب، وهي كل ما كان من الموجودات يقع تحت حواس الإنسان.

وبذلك فإن الإنسان ـ بحكم طبيعة الحياة ـ مقدر له الإيمان بالغيب، ومفروض عليه، لا يستطيع التخلص منه بحال، اللهم إلا إذا سفه نفسه، وأراد التخلي عن كرامته الآدمية، وعن شرفه الإنساني، ليصبح بعد ذلك حيوانًا هابطًا، لا خير فيه، أو آلة لا وعي لها ولا إدراك.

وذلك لأن الإنسان كائن متحيز، متى وجد في مكان استحال عليه أن يوجد في مكان آخر مع بقائه في مكانه الذي هو فيه، ومن هنا ستصبح سائر الأمكنة التي تخلو منه ببعده عنها غيبًا له وليست بشهادة عنده ولابد له أن يؤمن بها، وما فيها من أشياء ـ جواهر وأعراض ـ متى وجدت آثار تدل على ذلك أو أخبار صادقة تنبئ به فهو يؤمن بالأشياء عن طريق أخبار صادقة أو آثار دالة،

ولا ينحصر إيمانه بالأشياء فيما يقع تحت حواسه، خاصة وأن حواس الإنسان التي يحصل بها العلم محدودة القوة، محصورة الإدراك في مجال معين لا تتعداه، فسمعه مقيد في السماع بالأصوات العالية، فإذا انخفضت إلى درجة معينة تعذر عليه أن يسمع، وبصره مقيد برؤية الأجسام الكبيرة، فإذا صغرت ودقت أو بلغت حدًا معينًا من الصغر والدقة عجز عن رؤيتها، ولمسه كذلك، فإنه يحس بالأجسام الكثيفة، فإذا خفت انقطع إحساسه بها، وشمه لا يدرك إلا عن قرب، وتذوقه أقرب منه.

وحتى عقله فإنه يكل عن إدراك أشياء معقولة، ويعيا عن تصورها تمامًا، ومن هنا كان لابد للإنسان من الإيمان والتصديق بأشياء لم يشاهدها ولم يحس بها بأية حاسة، ولم يدرك حتى تصورها بعقله، ولا خيار له في ذلك إذا أراد أن يقيم لكرامته وزنًا، ولقيمته البشرية قدرًا من الاحترام والتقدير.

وكيف ننكرهذه الحقيقة، ونحن نرى أن الإنسان يعيش في بلد ما، ولم يخرج منه أبدًا وهو يؤمن بعشرات البلاد، ويصدق بوجودها، وهو لم يرها ولم ير من رآها قط.

كما نرى إنسانًا آخر لم ير الفيل طول حياته، وهو يؤمن بوجود هذا الحيوان الذى لم يره، ولم ير من رآه أبدًا. ونرى ثالثًا يؤمن بالجاذبية إيمانًا جازمًا، ومن المعلوم أن الجاذبية مما لا يرى ولا يشاهد أبدًا، ونجد رابعًا وُلِدَ ولم يعرف والده لموته قبل ولادته، وهو يؤمن بأن له والدًا ولا ينكر ذلك بحال، ولذا كان من المضحكات أن يدعى إنسان أنه لا يؤمن بالغيب أو أنه يستطيع أن يعيش في هذه الحياة بدون أن يؤمن بالغيب.

إن الإنسان يكتسب علمه بالموجودات عن طريق حواسه، نعم، ولكن لا سبيل له إلى معرفة الغيب إلا عن طريق آخر، هو السماع به، أو مشاهدة آثاره الدالة عليه، فالمرء إذا أخبره أحد أن فلانًا مات، أو سافر، أو قدم من سفر، وكان بعيدًا عنه لا تمكنه رؤيته حصل له العلم بحاله من موت أو سفر أو قدوم منه، حصل له بواسطة الخبر الذي تلقاه عن غيره من عقلاء الناس.

والمرء قد يمر بأرض فيجد بها سيولاً تجري، وشعابًا طافحة بالماء فيعلم فوراً أن مطراً قد نزل فبلل الأرض، وإن لم يشاهد نزوله، ولم يخبره بنزوله أحد، وإنما حصل له علم به بواسطة الأثر الذي دل عليه، وهو سيلان الأودية وامتلاء الشعاب بالماء مع عدم وجودها فيها قبل ذلك، وقد يمر الإنسان بمكان ما فيشم روائح طيبة فيعلم أن هناك عطاراً، أو أشجاراً من ذوات الروائح الطيبة، وإن لم ير ذلك بعينه ولم يخبره به أحد من الناس.

وهكذا يؤمن الإنسان بالغيب، ويحصل فيه على اليقين الكامل بواسطة خبر الثقات، أو آثار الأشياء التى آمن بها، وصدق بوجودها لدلالة آثارها عليها.

ومن هنا كان الإيمان بوجود الملائكة أمراً معقولاً، ومطلبًا سهلاً ميسوراً، فالملائكة وإن كانوا غيبا، فقد دل على وجودهم الدليل الذي ثبتت به كل الموجودات الغيبية عند الإنسان والذي هو خبر الثقات، وآثار الموجودات.

ونزيد هذه الحقيقة توضيحًا، فنقول:

أليس الإنسان العاقل يخبره ذو صدق بحدوث كذا أو كذا من الممكنات فيصدقه في خبره، ويعتقد صحة ما أخبره به؟

أليس الإنسان العاقل يسمع صوتًا بعيداً عنه لم ير مصدره فيؤمن بذي الصوت، ويصدق بوجوده كأنه رآه وشاهده؟

أليس الإنسان العاقل يجد كرسيًا قد وضع في غرفة فيعلم أن هناك أحداً قد وضع هذا الكرسي وأعده للجلوس عليه وإن لم ير من فعل ذلك؟

أليس الإنسان العاقل إذا رأى كتابًا يعلم فوراً أن هناك أحداً أملى هذا الكتاب، وأن آلة قد طبعته ولا يشك في هذا ولا يتردد أبداً؟

وحصول هذه اليقينيات له كانت كلها عن طريق الخبر أو الأثر، وهما الدليل العقلي للإيمان بكل الغيوب.

ولهذا سوف نتكلم عن الملائكة بملء الفم، ونقرر أن وجودهم يقيني، وحقيقة ثابتة لا يقوى عاقل على إبطالها أو نفيها.

وأما الذين كفروا بربهم وتنكروا لعقولهم، وهبطوا من سماء كرامة آدميتهم، فأصبحوا لا يؤمنون بشيء حتى وجودهم، فإنا لا نقيم لهم وزنًا، آمنوا أو كفروا، صدقوا أو كذبوا.

وهذا هو دليل وجود الملائكة عليهم السلام، وهو الدليل الذي قدمنا أنه بواسطته آمن العقلاء، بكل غيب تعذر أن يكون من قسم الشهادة، والدليل كما سبق أن عرفناه يتكون من عنصرين: الأول الأخبار، والثاني: الآثار(١).

أولاً: الأخبار:

(أ) وهي إخبار رب العالمين، خالق الملائكة، وخالق الجن والناس أجمعين، ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ** ﴾ [الملك: ١٤].

بلى يعلم ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا** ﴾ [النساء: ٨٧].

لا أحد وكفى بما يخبر به الله تعالى دليلاً، إذ الخالق أعلم بما خلق.

ومن إخباره تعالى، قوله: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٣].

فقد تضمن هذا الخبر وجود الملائكة ومخاطبة الله تعالى لهم ومخاطبتهم له سبحانه وتعالى، وهو دليل قاطع على وجود الملائكة، وأنهم عالم مستقل له كيانه وصفاته.

وقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٣٤].

ففي هذا الخبر أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، وأنهم سجدوا إلا إبليس أبى، وهل يؤمر ويمتثل غير موجود؟

وقوله تعالى: ﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ [النساء: ١٧٢].

---

(١) عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ص١٨٢ - ١٨٦ بتصرف، ط مكتبة الكليات الأزهرية.

ففي هذا الخبر أن الملائكة المقربين لا يستنكفون عن عبادة الله ولا يستكبرون، وهل يستنكف ويتكبر غير موجود؟

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩].

وفي هذا الخبر ينكر الله تعالى، ويعيب على المشركين دعواهم أن الملائكة إناث حيث قالوا ما ليس لهم به علم، فهل يعقل أن يعاب أو ينكر على غير موجود؟ وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

ففي هذا الخبر أن كثيراً من الملائكة لا تغني شفاعتهم عن أحد شيئًا، وهل يشفع أو لا يشفع غير موجود؟

وأخيراً فهل هذه الأخبار الإلهية عن الملائكة وهي كثيرة جداً - كما سنذكر - وكلها تتحدث عن صفاتهم، وأحوالهم وعباداتهم وأعمالهم لا تدل على وجود الملائكة، دلالة تكسب اليقين، اللهم بلى.

(ب) إخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام وتحدثهم عنهم، ووصفهم لهم، وتلقيهم الوحي بواسطتهم وهي كثيرة فلنكتف منها بما تواتر عن خاتم أولئك الرسل وإمامهم محمد ﷺ فقد صح عنه ﷺ قوله: «لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة»(١). وقوله: «إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»(٢)، وقوله: «إن لله في الأرض ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام»(٣)، وقال: «إذا أمَّن الإمام فأمنوا، فإن الملائكة تؤمن، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»(٤).

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٢٢٥ - ومسلم ٢١٠٦.

(٢) أخرجه مسلم ٥٦٤.

(٣) أخرجه أحمد ٣٦٦٦ - والنسائي ١٢٨٢ - والدارمي ٢٧٧٤ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (٢١٧٤): صحيح.

(٤) متفق عليه أخرجه البخاري ٧٨٠ - ومسلم ٤١٠.

كما أخبر ﷺ وتحدث عن ملك الموت وأعوانه، وعن الروح وعن ملكي القبر وعن الحفظة، والكرام الكاتبين، وعن رضوان(*) خازن الجنان، وعن مالك خازن النيران وغيرهم من الملائكة في أحاديث متواترة صحيحة - سنذكر طرفًا منها إن شاء الله - فكيف يسوغ عقلاً، أو يصح منطقًا وذوقًا أن تبلغ الإنسان هذه الأخبار الإلهية والنبوية، وهي أصح أخبار في الوجود، ولا يؤمن بالملائكة ولا يصدق بوجودهم. . اللهم لا؟(١).

ثانيا: الآثار:

آثار الملائكة الدالة عليهم دلالة قطعية كثيرة جداً، نكتفي بطرف منها فنقول: هذا القرآن، كتاب الله بين أيدينا، بسوره العديدة، وآياته الكثيرة، وعلومه، ومعارفه، وإعجازه، أثر من آثار الملائكة، إذ تلقاه المنزل عليه ﷺ بواسطة ولم يكن من الله مباشرة، فما هي الواسطة؟ إنها جبريل كما أخبر بذلك مرسله، ومنزله في قوله: ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

وهذا ملك الموت الذي يتخطفنا يوميًا فيأخذ أرواحنا، وينهى بأخذها حياتنا، ويفصلها عن أجسادنا، فتعدم الحياة، فهل يشترط للتصديق به رؤيتنا له؟ وآثار فعله ظاهرة فينا لا تنكر؟ اللهم لا.

ولو سألنا خالقنا وقلنا: من يتوفانا؟ لكان الجواب: ﴿ **قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** ﴾ [السجدة: ١١].

ثم إن كلاً من جبريل وملك الموت عليهما السلام قد رؤيا عيانًا غير مرة، وهما من أعاظم الملائكة، فجبريل قد دخل المسجد وعشرات المصلين حاضرون، فانتهى إلى النبي ﷺ وهو جالس، فجلس إليه وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وأخذ يسأل رسول الله ﷺ وهو يجيبه، فسأله عن الإيمان، وعن الإسلام والإحسان وأشراط الساعة، وكان ساعتئذ في صورة رجل(٢).

(*) لم يرد في اسمه خبر صحيح.

(١) عقيدة المؤمن ص١٨٦ - ١٨٨.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٥٠ - ومسلم ٩.

كما أن ملك الموت قد تواترت الأخبار برؤيته عند دنوه من المريض لقبض روحه، فكم من مريض تحدث بذلك، وأخبر به قبل وفاته بفترة زمنية ثم يموت.

وبعد، فإنه لم يبق لنا حاجة إلى سرد المزيد من الأدلة على وجود الملائكة، فلذا نشرع الآن في تقرير كون الإيمان بالملائكة واجب، بل هو ركن من أركان الإيمان.

وجوب الإيمان بالملائكة

يجب الإيمان بالملائكة، لأن هذا هو الركن الثاني من أركان الإيمان، كما قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

هذا الركن الركين والأصل المكين لابد فيه من معرفة تامة.

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

ففي هذه الآيات المباركات يرشدنا القرآن الكريم إلى أن الإيمان بالملائكة أصل للإيمان بوحي الله ورسله، لأن وحي الله تعالى يصل إلى النبي عن طريق ملك من الملائكة، وهو جبريل أمين الوحي. فإذا جحد شخص وجود الملائكة فقد جحد إنزال الكتب الإلهية، وجحد رسالة الرسل، ولذلك قدم القرآن الكريم ذكر الإيمان بالملائكة على ذكر الإيمان بالكتب الإلهية وبالرسل. ومن أنكر وجود الملائكة على الصفة التي بينها القرآن، فهو كافر، إذ قال الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وهكذا أوضح القرآن وجوب الإيمان بالملائكة بهذين الأسلوبين: إثباته الإيمان لمن آمن بهم في آية البقرة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ ونفيه الإيمان عمن كفر بهم في هذه الآية من سورة النساء.

وقال ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب السنن، حينما سئل عن الإيمان، قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره..**» الحديث[١]. وبهذا كان الإيمان بالملائكة ركنا من أركان الإيمان، لا يتم الإيمان إلا به، وكان من شك فيه أو حاول التشكيك كاذبًا كافرًا، لاحظ له في الإسلام ولا مقام له بين المسلمين، لتكذيبه لله ورسوله والمؤمنين، ولإنكاره لقضايا العقول، ومسلماتها البديهية[٢].

فمن هم الملائكة؟

الملائكة لغة: جمع ملأك، نقلت حركة الهمزة فيه إلى الساكن قبله، ثم حذفت الألف تخفيفًا، فصارت ملكًا، وهو مشتق من كلمة «الألوكة» التي هي الرسالة، والجمع ملائك وملائكة[٣].

واصطلاحًا: هم خلق من خلق الله عز وجل، خلقهم الله عز وجل من نور وجبلهم على الخير، وعصمهم من الشر، وفطرهم على عبادته وتسبيحه، مع الخوف منه وتقديسه وهم من العظمة بمكان، ولا يعلم عددهم إلا الواحد الديان.

خلق الملائكة

أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»[٤].

ولم يبين لنا الرسول ﷺ أي نور هذا الذي خلقوا منه، ولذلك فإننا لا نستطيع أن نخوض في هذا الأمر لمزيد من التحديد لأنه غيب لم يرد فيه ما

---

(١) صحيح تقدم.
(٢) عقيدة المؤمن - أبو بكر الجزائري - ص١٨٩ - ١٩٠ بتصرف.
(٣) لسان العرب جـ٦ ص٤٢٦٩ ط. دار المعارف.
(٤) أخرجه مسلم ٢٩٩٦.

يوضحه أكثر من هذا الحديث. قال ابن حجر في الفتح، وذكر في «ربيع الأبرار» عن سعيد بن المسيب قال: «الملائكة ليسوا ذكوراً ولا إناثا، ولا يأكلون ولا يشربون، ولا يتناكحون ولا يتوالدون، ولا ينامون، ولا يتعبون، فهم مطهرون من الشهوات الحيوانية، ومبرءون عن الميول النفسية، ومنزهون عن الأعراض البشرية[١]. وقد سمى الله تعالى الملائكة: عباداً، وشرفهم بالإضافة إلى اسمه الرحمن، وبين أن الذين يظنون أنهم اناثًا، ليسوا على حق، لأنهم لا علم لهم بذلك فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

وعاب سبحانه من وصفهم بالأنوثة، وسلب عنهم صفة الإيمان، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم: ٢٧].

وكانت بعض قبائل العرب تزعم أن الملائكة بنات الله: يعبدونها طمعًا في شفاعتهم لهم، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨ - ٢٠].

تفاضل الملائكة

الملائكة يتفاضلون في القرب من الله تعالى، وعلو المنزلة، كما هي سنته تعالى في الأنبياء والبشر، أو هم أكبر تفاضلاً.

وأفضلهم «جبريل» عليه السلام لأنه إمام الملائكة ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت عليهم السلام، ثم الملائكة المقربون لقوله تعالى: ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء: ١٧٢].

---

(١) فتح الباري لشرح صحيح البخاري ج١٣ ص٢٣ بتصرف ط الكليات الأزهرية.

ثم حملة العرش، لقوله تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٧].

ثم الذين يلونهم، والذين يلونهم.

أعمال الملائكة

الملائكة أعظم جنود الله سبحانه وتعالى، وقد سخرهم الله عز وجل في كثير من الأعمال، وقد أناط الله عز وجل بهم أعمالاً كثيرة جداً، ومتنوعة إلى حد كبير، وبالرجوع إلى القرآن الكريم والنظر في السنة النبوية الشريفة نجد بياناً لوظائف الملائكة وأعمالهم التي أناطها الله تعالى بهم عبادة له وطاعة. وإليك أهمها، أو ما استطعنا الوقوف عليه:

(١) الموكل بالوحي من الله تعالى إلى رسله عليهم الصلاة والسلام، وهو الروح الأمين، جبريل عليه السلام كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

كما سماه الله تعالى «روح القدس» في قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢].

كما وصفه الله كذلك بالكرم، والقوة، وأنه مكين عند الله، ومطاع في السموات، وأمين على الرسالات، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ﴾ [النجم: ١ - ٧].

وفي قوله جل وعلا: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

كما صح عن النبي ﷺ أنه أخبر أن جبريل عليه السلام رافقه في أعظم رحلة تمت في الوجود. وهي إسراء النبي ﷺ ومعراجه حتى بلغ معه سدرة المنتهى بالملكوت الأعلى.

(٢) ومنهم الموكل بالقطر [المطر] وتصاريفه إلى حيث أمره الله تعالى، وموكل كذلك بأمر النبات وهو «ميكائيل» عليه السلام، وهو ذو مكانة عليه، ومنزلة رفيعة وشرف عند ربه عز وجل أيضًا، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه، ويصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الله تعالى.

وفي حديث ابن عباس ـ عند الطبراني ـ أنه ﷺ قال لجبريل: **«على أي شيء ميكائيل؟»** قال: **«على النبات والقطر»**(١) وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال لجبريل عيه السلام **«مالي لم أر ميكائيل ضاحكًا قط؟»** فقال عليه السلام: **«ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار»**(٢)، عياذًا بالله منها.

(٣) ومنهم الموكل بالصور، وهو إسرافيل عليه السلام ينفخ فيه ثلاث نفخات بأمر ربه عز وجل، الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة القيام لرب الأرض والسماء. أخرج الإمام أحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له»** قالوا: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: **«قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»**(٣).

وهؤلاء الثلاثة الكرام «جبريل وميكائيل وإسرافيل» رؤساء الملائكة، وكان النبي ﷺ يجمع بينهم في دعائه **«اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»**(٤).

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٢٠٦١ - وأبو الشيخ في العظمة ٣٠- والبيهقي في الشعب ١٥٧ وحسن إسناده السيوطي في الدر المنثور. قلت: في إسناده ابن أبي ليلى وهو سيء الحفظ جداً.

(٢) أخرجه أحمد ٣٣٦٧ . والآجري في الشريعة، وقال الألباني في الصحيحة (٢٥١١): حسن لغيره.

(٣) أخرجه أحمد ٣٠١٠ - والترمذي ٢٤٣١ - وابن حبان في صحيحه ٨٢٣، وقال الألباني في صحيح الجامع (٤٥٩٢): صحيح.

(٤) أخرجه مسلم ٧٧٠.

(٤) ومنهم الموكل بقبض الأرواح، وهو ملك الموت كما سماه القرآن: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

وقيل يسمى بـ «عزرائيل» وهو مأخوذ عن أهل الكتاب، أو بعض الآثار، وله أعوان من الملائكة لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

وهم صنفان: ملائكة رحمة وملائكة عذاب.

قال تعالى في شأن المؤمنين: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

وأيضا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال تعالى في حق الكافرين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وقال تعالى في شأن المنافقين: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

وقد جاء في الأحاديث الصحيحة أن أعوانه يأتون العبد بحسب عمله، إن كان محسنًا ففي أحسن هيئة وأجمل صورة بأعظم بشارة، وإن كان مسيئًا ففي أشنع هيئة وأفظع منظر بأغلظ وعيد، ثم يسوقون الروح حتى إذا بلغت الحلقوم قبضها ملك الموت فلا يدعونها في يده، بل يضعونها في أكفان وحنوط يليق بها.

(٥) ومنهم ملائكة يعرجون بأرواح العباد بعد الموت، لحديث مسلم «إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان فيصعدا بها..» الحديث(١).

(٦) ومنهم ملائكة لسؤال العباد في القبور، وهما «منكر ونكير» يسألان العبد عن ربه ودينه ونبيه، فيقولان له: من ربك؟ ما دينك؟ ومن نبيك؟ لحديث

---

(١) اخرجه مسلم ٢٨٧٢.

الترمذي وهو حسن الإسناد، وأصله في الصحاح، وفيه «إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما «المنكر» وللآخر «نكير» فيقولان: «ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين ثم ينور له فيه، ثم يقال له: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب الناس إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقًا، قال: «سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله، لا أدري، فيقولان: قد علمنا أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذبًا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»(١).

هذا وقد ورد حديث يجمع هذه الأعمال «قبض الروح والعروج بها، والبشارة أو النذارة مع سؤال القبر» عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يُلحَدْ [لم يدفن بعد]، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير، وفي يده ﷺ عود ينكت به في الأرض، ثم رفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر، قالها مرتين أو ثلاثًا، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، بيض الثياب، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط [رائحة] من حنوط الجنة، فيجلسون منه مد البصر، ثم يأتيه ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول: يا أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من فِيِّ السقاء [فم القربة] فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في ذلك الكفن، وذلك الحنوط ولها رائحة طيبة كأطيب رائحة طيبة وجدت على ظهر الأرض، فتقول الملائكة: روح من هذه؟ فيقولون: روح فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، ثم يصعدون إلى السماء، فيستفتحون،

(١) أخرجه الترمذي ١٠٧١، وقال الألباني في صحيح الجامع (٧٢٤) : حسن.

يفتح لهم، فما زال يشيعه من كل سماء مقربوها حتى يصل إلى السماء السابعة، ثم ينادى من قِبَل الله عز وجل، أن اكتبوا كتاب عبدي في عليين، ثم أعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه إلى جسده، فيأتيه الملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: وما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ومن نبيك؟ فيقول: محمد ﷺ فيقولان: وما علمك؟ فيقول: جاء بالقرآن فآمنا به وصدقناه، فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي فألبسوه من الجنة، وأفرشوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، فيأتيه من ريحها وروحها ما شاء، ثم يفسح له في قبره مد بصره، ثم يأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الرائحة، يقول: أبشر بالذي يسرك، فهذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يجئ بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

ثم قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل عليه ملائكة من السماء سود الوجوه، سود الثياب، معهم المسوح من جهنم، فيجلسون منه مد البصر، ثم يأتيه ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول: يا أيتها النفس الخبيثة: أخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول [أي كما تخرج الحرير من الشوك مثلا] فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ولها رائحة نتنة كأخبث رائحة نتنة وجدت على ظهر الأرض، فتقول الملائكة: روح من هذه الخبيثة؟ فيقولون: روح فلان بن فلان بأخبث أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، ثم يصعدون إلى السماء، فيستفتحون فلا يفتح لهم، ثم قرأ ﷺ ﴿**لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**﴾.

قال: ثم ينادي منادٍ من السماء: أن اكتبوا كتاب عبدي في سجين، ثم أعيدوه إلى الأرض قال: فتهوى روحه، ثم قرأ ﷺ: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [الحج: ٣١].

قال: ثم تعاد روحه إلى جسده، فيأتيه الملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ومن نبيك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: وما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي فألبسوه من النار وأفرشوه من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من ريحها وسمومها، ثم يضيق عليه في قبره حتى تختلف أضلاعه، ثم يأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، خبيث الرائحة يقول له: أبشر بالذي يسوؤك، فهذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يجئ بالشر؟ فيقول: أنا عملك السيء، فيقول: رب لا تقم الساعة»(١).

(٧) ومنهم ملائكة «خزنة الجنة» ورئيسهم «رضوان» عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣].

ومعهم «خدم الجنة» وهم ملائكة لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

(٨) ومنهم «زبانية جهنم» وهم تسعة عشر ملكًا، وكلهم الله تعالى بالنار، فهم خزانها يعذبون فيها أهلها، قال تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [المدثر: ٢٦ - ٣١].

ورئيس هؤلاء الخزنة يدعى «مالك» كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

ولهم أعوان أيضًا كما جاء في الحديث «**يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام، كل زمام في يد سبعين ألف ملك يجرونها**»(٢). كما وصفهم الله

---

(١) أخرجه أحمد ١٨٥٧ ـ وأبو داود ٤٧٥٣ ـ وعبد الرزاق في المصنف ٦٧٣٧، وقال الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦): صحيح.

(٢) أخرجه مسلم ٢٨٤٢.

تعالى بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

(٩) ومنهم الملك الموكل بالرحم لحديث البخاري ومسلم واللفظ له «**إن الله عز وجل قد وكل بالرحم ملكًا فيقول أي ربي نطفة، أي ربي علقة، أي ربي مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقًا قال: قال الملك أي ربي ذكر أو أنثى؟ شقي أو سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه**»[١].

(١٠) ومنهم الكرام الكاتبون، وعملهم كتابة أعمال البشر وإحصاؤها عليهم فعلى يمين كل مكلف ملك يكتب صالح أعماله، وعن يساره ملك يكتب سيئات عمله، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

وقال سبحانه: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٧ - ١٨].

صفتان للملكين، فرقيب يرقبه وعتيد حاضر عنده لا يغيب، وملك الحسنات أمير على ملك السيئات.

وفي الحديث «**إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ أو المسيء، فإن ندم واستغفر منها ألقاها، وإلا كتبت واحدة**»[٢].

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٣١٨ - ومسلم ٢٦٤٦.

(٢) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين ٥٢٦، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب ٧٠٤٩ وغيرهم وخرجه الألباني في الصحيحة ١٢٠٩.

وقد أمرنا أن نكرمهم وأن نستحي منهم، كما قال ﷺ: «**أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند حالتين: الجنابة والغائط، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم حائط أو ببعيره، أو ليستره أخوه**»(١).

(١١) ومنهم الموكل بحفظ العبد في حله وارتحاله، وفي نومه ويقظته وفي كل حالاته وهم المعقبات، قال الله تعالى: ﴿**سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**﴾ [الرعد: ١٠، ١١].

جاء في تفسيرها: أي بأمر الله. وقال تعالى: ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً**﴾ [الأنعام: ٦١].

كما قال سبحانه: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ**﴾ [الانفطار: ١٠].

كذلك ﴿**قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ**﴾ [الأنبياء: ٤٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: والمعقبات من الله هم الملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه، وقال مجاهد: «**ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما من شيء يأتيه إلا قال له الملك وراءك إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه**»(٢).

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ**﴾.

أي بدل الرحمن. يمتن سبحانه وتعالى بنعمته على عبيده وحفظه لهم بالليل والنهار وكلائته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام(٣).

وقال ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله وهو أعلم بهم**

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير، وبنحوه البزار من حديث ابن عباس وإسناده صحيح.
(٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٠٣ بتصرف.
(٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٧٩ ط مكتبة التراث الإسلامي.

فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون»(١).

(١٢) ومنهم الملك الموكل بالجبال وقد ثبت ذكره في حديث خروج النبي ﷺ إلى «بني عبد ياليل» وعودته، وفيه قول جبريل له ﷺ «إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوه عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم عليّ، فقال يا محمد ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين..» الحديث(٢).

(١٣) ومنهم حملة العرش، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ...﴾ [غافر: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

قال ابن عباس: ثمانية صنوف من الملائكة، وقيل: هم في الدنيا أربعة، ويوم القيامة ثمانية، وقد ذكر ذلك في حديث الصور الطويل، وفيه قال رسول الله ﷺ: «فأرجع فأقف مع الناس، فبينما نحن وقوف إذ سمعنا من السماء حساً شديداً فهالنا، فينزل أهل السماء الدنيا بمثلي من في الأرض من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم وقلنا لهم: أفيكم ربنا؟ قالوا: لا، وهو آت، ثم ينزل أهل السماء الثانية بمثلي من نزل من الملائكة وبمثلي من فيها من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم وقلنا لهم: أفيكم ربنا؟ فيقولون: لا وهو آت، ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف، حتى ينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة، فيحمل عرشه يومئذ ثمانية، وهم اليوم أربعة، أقدامهم في تخوم الأرض السفلي والأرض والسموات إلى حجزهم والعرش على مناكبهم، لهم زجل في تسبيحهم، يقولون: سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق، سبوح قدوس قدوس،

(١) أخرجه البخاري ٥٥٥.
(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٢٣١ - ومسلم ١٧٩٥.

سبحان ربنا الأعلى، رب الملائكة والروح، سبحان ربنا الأعلى الذي يميت الخلائق ولا يموت»(١).

(١٤) ومنهم قسم يسمون «الكروبيين» وهم سادة الملائكة المقربين، وهم أقرب الملائكة إلى حملة العرش، وكلمة «الكروبيين» من مادة «الكرب» بمعنى الحزن، لشدة خوفهم من الله جل جلاله وخشيتهم إياه، وقيل إن الكلمة مأخوذة من لفظة «الكرب» بمعنى القرب أو القوة، وذلك لقوتهم وصبرهم على العبادة(٢).

(١٥) ومنهم زوار البيت المعمور، الذي أقسم الله تعالى به في كتابه ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور: ٤].

وثبت ذلك في حديث المعراج، وهو بيت في السماء السابعة بحيال الكعبة في الأرض لو سقط لوقع عليها، حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم، يعني لا تعود نوبتهم لكثرتهم، والحديث بألفاظه في الصحيحين(٣).

(١٦) ومنهم ملائكة الدعاء وعملهم الذي وكلوا به أن العبد إذا دعا بدعوة لأخيه المؤمن وهو غائب قال الملك «آمين ولك بمثل ذلك» ولحديث مسلم: «**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل**»(٤).

(١٧) ومنهم ملائكة في الأرض يبلغون سلام أمة محمد وصلاتها على نبيها ﷺ، لحديث أحمد: قال ﷺ: «**إن لله في الأرض ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام**»(٥).

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد، والدارمي في الرد على الجهمية، والطبري في التفسير وغيرهم؛ وقال الألباني في الضعيفة (٥٣٢٢): منكر موقوف.

(٢) عالم الملائكة للشيخ عبد الحميد كشك ص٢١ ط المختار الإسلامي.

(٣) معارج القبول، بشرح سلم الوصول ص٧٣.

(٤) أخرجه مسلم ٢٧٣٣.

(٥) صحيح تقدم.

(١٨) ومنهم ملائكة سياحون يتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله عز وجل تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، يسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم بهم منهم: ما يقول عبادي؟ قالوا: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك. .» الحديث[١] ولقوله ﷺ: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**»[٢].

(١٩) ومنهم ملائكة صفوف لا يفترون، وقيام لا يركعون، وركع وسجد لا يرفعون، ومنهم غير ذلك ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [المدثر: ٣١].

وروى الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطت[٣] السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرشات، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل**»[٤]، وفي رواية «**إنه ليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد**».

وقال ﷺ أيضًا: «**ما في السماء الدنيا موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم وذلك قول الملائكة: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾** [الصافات: ١٦٤ - ١٦٦][٥].

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٦٤٠٨ - ومسلم ٢٦٨٩.

(٢) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٣) أطت: الأطيط: صوت الرحل الذي يوضع فيه ظهر البعير، أي أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت.

(٤) أخرجه أحمد ٢١٥٥٥ - والترمذي ٢٣١٢ - وابن ماجه ٤١٩٠ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤٩): حسن.

(٥) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة من حديث عائشة وقال ابن كثير في تفسيره: هذا مرفوع غريب جداً، وقال الألباني في الصحيحة (١٠٥٩): صحيح.

وقال ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ فقلنا يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصفوف الأول ويتراصون في الصف»(١) أ. هـ. (٢).

(٢٠) هذا وإذا تتبعنا الآثار الواردة في أعمال الملائكة ملاحظين الآيات القرآنية الدالة على الملائكة وأعمالهم مثل قوله تعالى:

«والصافات، والزاجرات، فالتاليات، والنازعات، والناشطات، فالمدبرات، فالمقسمات».

لقلنا في صدق: إن الكون كله علويه وسفليه قد أنيط أمر تدبيره بالملائكة وذلك بإذن ربهم تعالى(٣).

ومعنى «الصافات»: أي الملائكة تقف صفوفا عند ربها.

«الزاجرات»: أي أنها تزجر السحاب، وقال الربيع بن أنس: ما زجر الله عنه في القرآن.

«التاليات ذكراً»: أي أنهم يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس كقوله: «فالملقيات ذكراً».

«النازعات»: أي الملائكة حين تنزع أرواح بني آدم فتأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها.

«الناشطات»: أي من تأخذ روحه بسهولة من المؤمنين وكأنما حلته من نشاط.

«المدبرات»: أي تدبر الأمر من السماء إلى الأرض بأمر ربها عز وجل(٤).

---

(١) أخرجه مسلم ٤٣٠.

(٢) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي ج٢ ص٦٤ - ٧٤ بتصرف.

(٣) عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ص١٩٢ - ١٩٧ بتصرف.

(٤) ابن كثير ج٤، ص٤٦٦ بتصرف.

«المقسمات»: أي التي تقسم الأرزاق والأمطار بين العباد، وكل ملك مخصص بأمر[١].

بعض صفات الملائكة

وهذه الصفات قد استوحيناها من خلال الأخبار الصادقة التي هي الدليل الشرعي من القرآن والسنة وقد تحصلنا على عدد كبير من صفات الملائكة وأحوالهم، نثبته هنا في بحثنا عن الملائكة كجزء من عقيدة المؤمن تقريراً وتأكيداً فنقول:

(١) إن من صفات الملائكة «الحياء»:

إن الملائكة تستحي استحياء يليق بحالها، إذ قد صح أن النبي ﷺ قال: **«ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟»**[٢] يعني بذلك الرجل «عثمان بن عفان» رضي الله عنه، ففي هذا الخبر الصادق الصحيح دليل على صفة الحياء، فالحياء خير كله، ونحن أحق بالحياء من الملائكة، فيجب علينا أن نستحي منهم، وأن نكرمهم بألا يروننا على معصية تغضب الله عز وجل.

(٢) ومن صفاتهم «تأذيهم من المكروه»:

إن الملائكة تتأذى من المكروه كما يتأذى منه الإنسان، للحديث **«من أكل من الثوم، والبصل والكراث فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»**[٣]، وللحديث أيضاً **«إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة»**[٤] فعدم دخولهم البيت الذي فيه كلب أو صورة كراهية منهم لهما، دليل على تأذيهم من هذا المكروه، والمعني بالملائكة هنا هم ملائكة الرحمة، لأن الكتبة والحفظة لا يدعون الإنسان، والمعني بالكلب كل كلب عدا كلب صيد أو حراسة، والمعني

---

(١) صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني ج٣ ص٢٥١ بتصرف ط. دار القرآن الكريم - بيروت.

(٢) أخرجه مسلم ٢٤٠١.

(٣) أخرجه مسلم ٥٦٤.

(٤) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٢٢٥ - ومسلم ٢١٠٦.

بالصورة، كل صورة نهى عنها الشرع مجسمة أو معلقة أو عارية أو نحو ذلك ولا يستثنى منها إلا ما كان للضرورة، أو كان صورة ممتهنة.

وأين هذا مما عليه بيوت المسلمين في زماننا هذا، فالكلاب تربى للزينة والفاحشة، والصور تعلق على الجدران، وفي كل مكان، عارية وغير عارية، ومجسمة وغير مجسمة فيا ليت المسلمين يفيقون من غفلتهم ويعودون إلى ربهم.

(٣) ومن صفاتهم «طاعتهم لله تعالى وخوفهم منه سبحانه»:

إن الملائكة مطيعون لله تعالى لا يعصونه بحال من الأحوال، وذلك لقوله تعالى: ﴿**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦].

وقوله تعالى: ﴿**عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧].

ومع كثرة طاعتهم لله فما أشد خوفهم من الله، فقد أثبت القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [النحل: ٤٩].

كما قال: ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٨].

(٤) ومن صفات الملائكة «عظم خلقهم»:

للملائكة أحجام كبيرة تفوق أحجام المخلوقات الأخرى التي اعتدنا رؤيتها، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦].

وروى الإمام مسلم من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح»[1] وروى أن النبي ﷺ قال: «**أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة**

---

(١) أخرجه مسلم ١٧٤.

العرش، رجلاه في الأرض السفلي، وعلى قرنه العرش، وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام، يقول أي الملك: سبحانك حيث كنت»[١].

وهم متفاوتون في الحجم، فليسوا متساوين، إذ أن منهم من له جناحان، ومن له ثلاثة ومن له أربعة حتى إن جبريل عليه السلام له ستمائة جناح[٢].

قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

فبين سبحانه أن للملائكة أجنحة، بعضهم له جناحان، ومنهم من له ثلاثة ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء والمعراج، وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب[٣]، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾.

قال السدي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء، قال القرطبي: وهو قول أكثر المفسرين.

«جمالهم» ومع عظم خلقهم، فقد خلقهم الله سبحانه علي صورة جميلة كريمة كما قال سبحانه في حق جبريل أمين الوحي: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۞ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [النجم: ٥].

قال ابن عباس: «ذو مرة» أي منظر حسن[٤]. وقد تقرر عند الناس وصف الملائكة بالجمال، كما تقرر عندهم وصف الشياطين بالقبح، ولذلك تراهم يشبهون الجميل من البشر بالملك، انظر ما قالته النسوة في حق يوسف الصديق عندما

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦٥٠٣، وقال الألباني في صحيح الجامع (٨٥٣): صحيح.
(٢) عالم الملائكة ص٧.
(٣) أخرجه أحمد ٣٨٦٢ ـ والطبراني في الكبير ٩٠٥٤، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن، وأصله في الصحيح.
(٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٤٧.

رأينه: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١].

(٥) ومن صفات الملائكة «كثرة عددهم، بحيث لا يعلمهم إلا الله».

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١].

فالملائكة خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم، وإذا أردت أن تعلم كثرتهم فاسمع هذا الحديث، قال ﷺ: «**أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربعة أصابع إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد**»(١).

أو قوله ﷺ: «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك**»(٢) فعلى ذلك فإن الذين يأتون بجهنم يوم القيامة أربعة آلاف وتسعمائة مليون ملك. أو قوله ﷺ في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: «**.. ثم رفع بي إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه آخر ما عليهم**»(٣) يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، وقال العوفي عن ابن عباس: هو بيت حذاء العرش تعمره الملائكة يصلي فيه كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة ثم لا يعودون إليه وكذا قال عكرمة ومجاهد وغير واحد من السلف(٤). فإذا أضيف إلى هؤلاء ما ذكر عن خَدَمَة الجنة، وما لكل واحد من أهلها من الملائكة، وكذلك الملائكة الموكلون بأعمالهم والحفظة وغيرهم من السياحين في الأرض يتلمسون مجالس الذكر والملائكة الصآفون في السموات المسبحون بحمد رب الكائنات.

فماذا عن عددهم؟ لا يبقى إلا أن تسبح بعظمة الله عز وجل، وتخر له ساجداً.

---

(١) حسن تقدم.

(٢) صحيح تقدم.

(٣) صحيح تقدم.

(٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٣٩ بتصرف.

(٦) ومن صفاتهم أيضًا «تشكيل الملائكة»:

فالملائكة تتشكل بغير صورها الحقيقية فيما تشاء من الصور الحسنة، وتتراءى لبعض الصفوة المختارة من عباد الله، وكثيراً ما ظهرت الملائكة في هيئة رجال على مستوى ملحوظ من جمال الصورة وإشراق الوجه، وحسن الهندام، إلا أن هذه الأجساد التي تتشكل فيها، لا يخرجها عن طبيعتها الأصلية التي فطرها الله عليها. فعندما تتشكل مثلا بالأجسام الإنسانية لا تسري عليها طبيعة البشر، فلا تأكل ولا تشرب، كما بين الله عز وجل ذلك في قصة الملائكة مع «خليله إبراهيم عليه السلام» وكذلك مع «لوط عليه السلام» وما حدث أيضًا في قصة «مريم» وقد تمثل جبريل عليه السلام لها بشراً سويًا، وكذلك مجيء «جبريل عليه السلام» للنبي محمد ﷺ مرات في صورة «دحية بن خليفة الكلبي» أحد أصحاب النبي ﷺ، كان جميل الصورة، ومرة في صورة أعرابي أخذ يسأل النبي ﷺ، وغير ذلك.

وأحيانا تتمثل الملائكة في صورة بشر عادية وتلقى بعض الناس لإخبارهم بما يسرهم ويشرح صدورهم لحسن صنيعهم، وحميد أفعالهم وكريم خلالهم أو لأجل اختبارهم كما في حديث الذين ابتلاهم الله من بني إسرائيل، وغيره[١].

(٧) ومن صفات الملائكة «أنهم ينصرون دين الله ويقاتلون مع رسول الله ﷺ» وقد أثبت القرآن الكريم هذا في غير موضع، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣ - ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

---

(١) عالم الملائكة ص٢٤ ـ ٢٨ بتصرف.

وقد تكرر نزول الملائكة للقتال مع المسلمين ولنصرة دين رب العالمين أكثر من مرة، ومن ذلك:

١ ـ غزوة بدر، كما ذكرته الآيات في سورة آل عمران والأنفال، وقد نزلت الملائكة أفواجًا إذ أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف.

وفي الحديث عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه، وكان أبوه من أهل بدر، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» قال جبريل: «وكذلك من شهد بدراً من الملائكة»(١).

٢ ـ في غزوة الأحزاب كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩ - ١١].

فقوله تعالى: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بني فلان إليَّ، فيجتمعون إليه فيقول: النجاء النجاء، لما ألقى الله عز وجل في قلوبهم من الرعب»(٢).

٣ ـ ضد يهود بني قريظة، كما ثبت في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال: قد وضعت السلاح، والله ما وضعناه، فاخرج إليهم، قال: فإلى أين؟ قال ها هنا، وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ»(٣).

٤ ـ وفي غزوة حنين، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا

(١) أخرجه البخاري ٣٩٩٢.
(٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧ بتصرف.
(٣) أخرجه البخاري ٤١١٧.

رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٦].

وأخرج ابن جرير الطبري من حديث عبد الرحمن مولى ابن برثن أنه قال: حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين، قال: «لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة، قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: شاهت الوجوه، ارجعوا، قال: فانهزمنا وركبوا أكتافنا، فكانت إياها» يعني الملائكة(١).

(٨) ومن صفات الملائكة «حضورهم الأعمال الصالحة، وتنزلهم لها وصلاتهم على أصحابها».

١ - وذلك مثل طاعة الله عز وجل في ليلة القدر، كما تحدث القرآن عن ذلك: ﴿**تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ**﴾ [القدر: ٤ - ٥].

وقال أنس: «إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كبكبة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى»(٢).

٢ - قراءة القرآن وذكر الله تعالى، كما نزلت الملائكة لقراءة «أسيد بن حضير» القرآن، وقال له النبي ﷺ بعد أن أخبره: «**تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم**»(٣) وقوله ﷺ «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده..» الحديث(٤) وقوله ﷺ: «**إن لله تبارك وتعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا**

---

(١) أخرجه مسدد في مسنده، وابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم في التفسير وغيرهم.
(٢) أخرجه البيهقي في الشعب ٣٧١٧ وفي إسناده أصرم بن حوشب وهو متروك الحديث.
(٣) أخرجه البخاري ٥٠١٨.
(٤) صحيح تقدم.

وجدوا قومًا يذكرون الله تعالى تنادوا هلموا إلى حاجتكم قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا..» الحديث(١).

٣ - تعليم الناس الخير، قال ﷺ: «إن الله وملائكته، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير» وفي رواية أخرى «وإن العالم ليستغفر له من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء»(٢).

٤ - طالب العلم النافع: كما قال ﷺ: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يطلب، وإن العالم يستغفر له من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(٣).

٥ - المشي إلى المساجد والمكث فيها: كما قال ﷺ: «إن الملائكة تصلي على الذي يأتي المسجد، فتقول: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ما لم يؤذ فيه، ما لم يحدث فيه»(٤)، وورد بنحوه مطولاً.

٦ - الصلاة في الصف الأول: كما قال ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول»(٥).

٧ - التبكير إلى الجمعة: كما قال ﷺ: «إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر»(٦).

---

(١) صحيح تقدم.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٦٨٥، والطبراني ٧٩١٢، وقال الألباني في صحيح الجامع (٤٢١٣): صحيح.

(٣) أخرجه أحمد ٢١٧٦٣ - والترمذي ٢٦٨٢ - وأبو داود ٣٦٤١ - وابن ماجه ٢٢٣ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٧): صحيح.

(٤) أخرجه مسلم ٦٤٩.

(٥) أخرجه أحمد ١٨٦٤٤ - وأبو داود ٦٦٤ - وابن ماجه ٩٩٧، وقال الألباني في صحيح الجامع (١٨٣٩): صحيح.

(٦) متفق عليه أخرجه البخاري ٨٨١ - ومسلم ٨٥٠.

٨ ـ صلاة الفجر والعصر في المسجد جماعة: قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم، كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون»(١).

٩ ـ السحور: كما قال ﷺ: «السحور أكله بركة، فلا تدعوه ولو أن يجرع أحدكم جرعة من ماء، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين»(٢).

١٠ ـ التصدق والإنفاق في وجوه الخير: كما قال ﷺ: «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم اعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم اعط ممسكًا تلفًا»(٣).

١١ ـ الحج والوقوف بعرفة: كما قال ﷺ: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟...»(٤).

١٢ ـ الاستشهاد في سبيل الله: فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما قتل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي، وينهونني، والنبي ﷺ لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي ﷺ: «تبكين أو لا تبكين، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه»(٥).

١٣ ـ الصلاة على النبي ﷺ: كما قال صلوات ربي وسلامه عليه: «ما من عبد يصلي عليَّ إلا صلت عليه الملائكة، ما دام يصلي عليَّ، فليقل العبد من ذلك أو ليكثر»(٦).

---

(١) صحيح تقدم.
(٢) أخرجه أحمد ١١١٠١، وقال الألباني في صحيح الجامع (٣٦٨٣): حسن.
(٣) متفق عليه أخرجه البخاري ١٤٤٢ ـ ومسلم ١٠١٠.
(٤) أخرجه مسلم ١٣٤٨.
(٥) متفق عليه أخرجه البخاري ١٢٤٤ ـ ومسلم ٢٤٧١.
(٦) أخرجه أحمد ١٥٧٢٧ ـ وابن ماجه ٩٠٧ ـ والطبراني في الأوسط ١٦٥٤ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (٥٧٤٤): حسن.

١٤ ـ عيادة المريض: قال ﷺ: «ما من مسلم يعود مسلمًا غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن عاده عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وكان له خريف في الجنة»(١).

١٥ ـ زيارة الإخوان: كما قال ﷺ: «إن رجلاً زار أخًا له في قرية، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هل لك من نعمة تربها: قال: لا، غير أني أحببته في الله، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»(٢).

١٦ ـ الدعاء للمؤمنين بظهر الغيب: كما قال ﷺ: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل»(٣).

١٧ ـ النوم على وضوء: قال رسول الله ﷺ: «من بات طاهرًا بات في شعاره «فراشه» ملك، فلا يستيقظ إلا قال الملك: اللهم اغفر لعبدك فلان فإنه بات طاهرًا»(٤).

(٩) ومن صفات الملائكة كذلك: «حبهم لمن يحب ربهم، ودعاؤهم للمؤمنين»:

إن الملائكة تحب حبًا يليق بحالهم، وحسب ذواتهم، فقد دل الدليل الشرعي على أنهم يحبون، ففي الحديث الصحيح «إن الله تعالى إذا أحب عبدًا، نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله قد أحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الأرض»(٥).

---

(١) أخرجه الترمذي ٩٦٩. وقال الألباني في صحيح الجامع (٥٧٦٧): صحيح.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٦٧.

(٣) أخرجه مسلم ٢٧٣٣.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٥١، والبيهقي في الشعب ٢٧٨٠ وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن لغيره.

(٥) متفق عليه أخرجه البخاري ٧٤٨٥ ـ ومسلم ٢٦٣٧.

وإن الملائكة ليدعون ربهم ويسألونه للمؤمنين: كما قال الله تعالى عليهم: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ - ٩].

(١٠) ومن صفات الملائكة: «أنهم يلعنون من لعنه الله تعالى»:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

فمن هؤلاء الذين تلعنهم الملائكة بلعنة الله لهم؟

أولا: الكفرة: قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٦ - ٨٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

ثانيا: الذين يحولون دون تنفيذ شرع الله، كما قال ﷺ: «**من قتل عمداً فقود يديه، فمن حال بينه وبينه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»[١].

فالذي يحول دون تنفيذ حكم الله في قتل القاتل عمداً بالجاه أو المال.. فعليه هذه اللعنة فكيف بالذي يحول دون تنفيذ الشريعة كلها؟؟

ثالثا: الذين يؤون محدثًا: من الذين تلعنهم الملائكة، كما يلعنهم الله، الذين يحدثون في دين الله بالخروج على أحكامه والاعتداء على تشريعه، أو

(١) أخرجه أبو داود ٤٥٩١ - والنسائي ٤٧٩٠ - وابن ماجه ٢٦٣٥ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (٦٤٥٠): صحيح.

يؤون من يفعل ذلك ويحمونه كما في الحديث الصحيح: «**المدينة حرام ما بين عائر إلى كذا من أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»(١).

رابعًا: لعنهم الذي يسب أصحاب النبي ﷺ، كما في الحديث «**من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»(٢).

خامسًا: لعن الملائكة المرأة التي لا تستجيب لزوجها، قال ﷺ: «**إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع**» وفي رواية أخرى «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه، فأبت أن تجيء لعنتها الملائكة حتى تصبح»، وفي رواية ثالثة «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت، فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح**»(٣).

سادسًا: لعن الملائكة المرأة التي تخرج بدون إذن زوجها، لما روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت امرأة أتت إلى النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله، ما حق الزوج على زوجته؟ قال: «**حقه عليها أن لا تخرج من بيتها إلا بإذنه فإن فعلت لعنها الله وملائكة الرحمة وملائكة الغضب حتى تتوب أو ترجع**»(٤).

سابعًا: لعنهم الذي يشير إلى أخيه بحديدة، كما قال ﷺ: «**من أشار إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه، وإن كان أخاه لأبيه وأمه**»(٥).

---

(١) متفق عليه البخاري ١٨٧٠ - ومسلم ١٣٧٠.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١٢٧٠٩، وقال الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٥): حسن.

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٢٣٧ - ومسلم ١٤٣٦.

(٤) أخرجه الطيالسي ١٩٥١ - وعبد بن حميد ٨١٣ - والبيهقي في الكبرى ١٤٤٩٠ وفي إسناده ليث بن أبي سليم. قال الحافظ في التقريب: صدوق، اختلط أخيرًا، ولم يتميز حديثه فترك.

(٥) أخرجه مسلم ٢٦١٦.

عصمة الملائكة

خلق الله عز وجل الملائكة، وجبلهم على طاعته، وعصمهم من معصيته، كما وصفهم الله تعالى: ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

وكذا قال الله عنهم: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وكما قال عنهم: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

وهم أيضًا: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

ومع ذلك رأينا من يقول بعدم عصمة الملائكة لشبهات وقرت في أذهانهم، أخذوها من كتاب الله فكان ذلك هو الحق الذي أريد به باطل، ومن ذلك فهمهم لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فزعموا أن ذلك من قبيل الاعتراض على الله، ونسوا أن الاعتراض على الله ليس مجرد معصية فقط، وإنما ذلك هو الكفر البواح الذي وقع فيه إبليس عليه لعنة الله.

كما قالوا بعدم عصمة الملائكة بزعم أن إبليس كان من الملائكة، وأنه لم يمتثل للأمر الإلهي بل اعترض على حكم الله، وقاس بعقله الفاسد بينه وبين آدم وقال ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

كما استدلوا ـ ثالثًا ـ على عدم عصمة الملائكة، بقصة «هاروت وماروت» كما ذكرت الإسرائيليات، وبعض الروايات، والأكاذيب والخرافات، مما لا يستحق ذكره، فهذا كل ما في جعبتهم، فنقول وبالله التوفيق: إن عصمة الملائكة ثابتة بالقرآن والسنة وعليه إجماع الأمة، وأن كل ما ذكرت من شبهات إنما هي من نسج

الخيال، أو الجهل والخبال، فأما عن قصة الملائكة مع آدم، كما حكته الآيات الكريمات ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

فهل قولهم هذا فيه سب لآدم وذريته، ومدح وتزكية لنفوسهم واعتراض على حكم ربهم؟؟ لا وألف لا.

ولعل الحكمة من إخبار الله عز وجل للملائكة عن هذا المخلوق وذريته ما سيكون بينه وبينهم من صلة، فقد أمروا بعد خلقه بتكريمه وتعظيمه بالسجود له، امتحانًا لطاعتهم، وقدر الله سبحانه أن يكون منهم الحفظة والكتبة وملائكة الوحي، والمطر والنبات والعذاب والموت.. وكلها متعلقة بحياة البشر ومقاديرهم ومصائرهم.

ولم يكن جواب الملائكة على هذا الإخبار الإلهي بخلق آدم من قبيل الاعتراض مطلقًا، وإنما كانت حكمة هذا الخلق الجديد خافية عليهم فأرادوا معرفتها، لماذا يخلق الله خلقًا غيرهم؟ وهل بدر منهم تقصير أو قصور في مهمتهم، لذلك أراد الله أن يخلق غيرهم؟ فكان سؤالهم واستفسارهم. وكونهم وصفوا الإنسان بالفساد في الأرض وسفك الدماء، قبل أن يوجد، لأن الله أعلمهم بذلك ولأنهم أدركوا أنه ما دام هذا المخلوق سيكون من طين ويعيش في الأرض فلابد أن تكون له طبيعة قابلة للخير والشر، وحينئذ لابد أن يقع التنازع والصراع بين ذريته، فيحصل الفساد وتسفك الدماء.

وحين أدرك الملائكة خصائص هذا المخلوق وعرفوا ما زوده الله به من الاستعداد للمعرفة والتزود من العلم سجدوا سجود تحية وتكريم امتثالاً لأمر الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

ومن هنا ينتقل بنا الكلام إلى الشبهة الثانية القائلة بعدم عصمة الملائكة لأن إبليس - وهو من الملائكة - لم يمتثل لأمر الله واعترض على حكمه فاستحق بذلك

الغواية والطرد من رحمة الله ومن جنته، كما حكته الآيات في غير موضع في القرآن.

نقول: إن من زعم أن إبليس كان من الملائكة فقد أبعد النزع، وأخطأ الفهم وضل الطريق وذلك لأن الله عز وجل فصل في القضية بآية كريمة في سورة الكهف فقال: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٠].

فهل بعد هذا الحق الناصع، والوضوح القاطع، يقول أحد بأن إبليس من الملائكة، أو يردد تلك الإسرائيليات بأن إبليس كان طاووس الملائكة، وأعلم الملائكة، وأعبد الملائكة، ونحو ذلك، كيف؟ وقد اختلف عنهم خَلْقًا وخُلُقًا، وبداية ونهاية، وحياة ومصيراً!

أي وجه للشبه بين إبليس والملائكة؟ وهم مخلوقون من نور، وقد خلق من نار، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهو قد فسق عن أمر ربه، واعترض على حكم خالقه، وهم لا يتزوجون ولا يتناسلون، وهو له أزواج وذرية على شاكلته أعداء لله رب العالمين، وهم الذين لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، وهو الذي أبى واستكبر وكان من الكافرين، وهم الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وهو الذي لا يفتر ولا يتوانى في إضلال خلق الله بعد ما أقسم بعزة الله على إغواء الخلق أجمعين، إلا من لا يستطيع الوصول إليه من المخلصين، وهو الذي لا يدع وسيلة ولا بابًا إلى إغوائهم إلا سلكه إليهم ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦ - ١٧].

فكل هذه فروق بين الملائكة وإبليس، تحول دون أن يكون إبليس من الملائكة طرفة عين، فضلاً عما حكم الله عز وجل به عليه من مصير.

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٨].

لكن يبقى هنا استفسار: ما وجه الحكمة في استثناء إبليس من السجود مع الملائكة؟ نقول وبالله التوفيق: أولاً: هذا الاستثناء منقطع، كما يقول أهل اللغة، يقال: جاء القوم إلا حماراً، وأكلت التفاح إلا برتقالة، وهنا يقال: سجد الملائكة إلا إبليس.

كذلك يقال: صدر الأمر للملائكة بالسجود لآدم، وإبليس كان معهم - ولم يكن منهم، كما علمت - فبحكم معيته للملائكة، وهو فرد بين أمم الملائكة، كان عليه أن يسجد، ولكنه أبى، لأنه خانه أصله الناري، وطبعه الفاسد، إذ قاس وقارن، فضل وهلك، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وأما عن آخر ما في جعبتهم من شبهات حول عدم عصمة الملائكة، فهي قصة هاروت وماروت التي حكاها الله في سورة البقرة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٠١ - ١٠٢].

فقد أورد كثير من المفسرين عند تفسير هذه الآية الكريمة روايات كثيرة، وقصص عجيبة، كلها من خرافات بني إسرائيل، وأكاذيبهم التي لا يشهد لها عقل ولا نقل، ولا شرع، ولم يقف بعض رواة هذا القصص الخرافي الباطل عند روايته عن بعض الصحابة والتابعين ولكنهم أوغلوا في باب الإثم والتجني الفاضح فألصقوا هذا الزور إلى النبي ﷺ، ورفعوه إليه، سبحانك ربي هذا بهتان عظيم.

وقد حكم بوضع هذه القصة علماء كثيرون منهم الإمام أبو الفرج بن الجوزي، وابن كثير، والقاضي عياض، وغيرهم. ونص الشهاب العراقي على أن من اعتقد في هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما، فهو كافر بالله العظيم.

وقال الإمام القاضي عياض في «الشفا»: وما ذكر أهل الأخبار ونقله المفسرون في قصة هاروت وماروت، لم يرد فيه شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ، وليس هو شيء يؤخذ بالقياس[١]. وقال الحافظ عماد الدين بن كثير: المرفوع من هذه القصة موضوع، وأما ما ليس مرفوعًا فمنشؤه روايات إسرائيلية، أخذت عن كعب وغيره، ألحقها زنادقة أهل الكتاب بالإسلام[٢]. وكذا ردها المحققون من المفسرين الذين مهروا في معرفة أصول الدين وأبت عقولهم أن تقبل هذه الخرافات كالإمام الرازي وأبي حيان وأبي السعود والألوسي وغيرهم.

ثم هذه من ناحية العقل غير مسلمة، فالملائكة معصومون عن مثل هذه الكبائر التي لا تصدر من عربيد، وقد أخبر الله عنهم بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. كما ورد في بعض الروايات ـ التي ذكرها بعض المفسرين ـ رد لكلام الله، ففي رواية: أن الله قال لهما لو ابتليتكما بما ابتليت به بني آدم لعصيتماني، فقالا: لو فعلت بنا يا رب ما عصيناك؟ ورد كلام الله كفر، ننزه عنه من له علم بالله وصفاته، فضلا عن الملائكة، ثم كيف ترفع الفاجرة إلى السماء وتصير كوكبًا مضيئًا، وما النجم الذي يزعمون أنه «الزهرة» وزعموا أنه كان امرأة، فمسخت إلا في مكانه من يوم أن خلق الله السموات والأرض.

وهذه الخرافات التي لا يشهد بها نقل صحيح ولا عقل سليم هي كذلك مخالفة لما صار عند العلماء المحدثين أمرًا يقينيًا. ولست أدري ما الداعي لكل هذه الأكاذيب، والآية الكريمة نفت كل ما زعموه من أصله، في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾.

و[ما] نافية وليست موصولة، يعني: لم ينزل الله علم السحر على الملكين، قاله ابن كثير ورجحه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لم ينزل الله السحر، وعن الربيع بن أنس قال: ما أنزل الله عليهما السحر.

---

(١) عالم الملائكة ص٣٠ بتصرف.

(٢) ابن كثير ج١ ص١٤١.

قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فيكون قوله ببابل من المؤخر الذي معناه المقدم، قال فإن قال لنا قائل: كيف وجه تقديم ذلك؟ قيل وجه تقديمه أن يقال [واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان، وما أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فيكون معنيًا بالملكين: جبريل وميكائيل عليهما السلام، لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه محمدًا ﷺ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس وردا عليهم]. هذا لفظه بحروفه(١).

ونقول أيضًا: وحتى على اعتبار أن [ما] موصولة، بمعنى [الذي]:

فيكون المراد بما أنزل هو: علم السحر الذي نزل ليعلماه الناس حتى يحذروا منه، فالسبب في نزولهما هو: تعليم الناس أبوابًا من السحر، حتى يعلم الناس الفرق بين السحر والنبوة، وأن سليمان لم يكن ساحرًا، وكانا في غاية الاحتياط، فما كان يعلمان أحدًا شيئًا من السحر حتى يحذراه، ويقولا له: إنما نحن فتنة أي بلاء واختبار، فلا تكفر بتعلمه والعمل به، وأما تعلمه للحذر منه، وليعلم الفرق بينه وبين النبوة والمعجزة، فهذا لا شيء فيه، بل هو أمر مطلوب، مرغوب فيه إذا دعت الضرورة إليه ولكن الناس ما كانوا يأخذون بالنصيحة، بل كانوا يفرقون به بين المرء وزوجه وذلك بإذن الله ومشيئته. وقد دلت الآية: على أن تعلم السحر لتحذير الناس من الوقوع فيه والعمل به مباح، ولا إثم فيه، وأيضًا تعلمه لإزالة الاشتباه بينه وبين المعجزة والنبوة مباح ولا إثم فيه، وإنما الحرام والإثم في تعلمه

(١) انظر ابن كثير ج١ ص١٣٧.

أو تعليمه للعمل به، فهو مثل ما قيل: عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه، ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه.

والخلاصة: على القارئ أن يحذر من هذه الإسرائيليات، سواء وجدها في كتاب تفسير أو تاريخ أو مواعظ أو أدب[1]، وأن يكون على يقين من عصمة الملائكة، كعصمة الأنبياء. كما يجب على المؤمن أن يعلم أن الملائكة عباد الله اختارهم واصطفاهم ولهم مكانة عند ربهم، والمؤمن الذي يعبد الله ويتبع رضوانه لا مناص له من أن يتولى الملائكة بالحب والتوقير، وأن يستحي منهم ويكرمهم ويتجنب كل ما من شأنه أن يسيء إليهم ويؤذيهم، وأعظم ما تؤذى به الملائكة الذنوب والمعاصي والكفر والشرك، ولذا فإن أعظم ما يهدى للملائكة ويرضيهم أن يخلص المرء دينه لربه ويتجنب كل ما يغضبه.

ولذا فإن الملائكة لا تدخل الأماكن التي يعصى فيها الله تعالى، أو التي يوجد فيها ما يكرهه الله ويبغضه كالأنصاب والتماثيل والصور، ولا تقرب من تلبس بمعصية كالسكران. كما أن البيت الذي يتلى فيه القرآن يتسع بأهله ويكثر خيره وتحضره الملائكة وتخرج منه الشياطين، وإن البيت الذي لا يتلى فيه كتاب الله عز وجل يضيق بأهله ويقل خيره وتخرج منه الملائكة وتحضره الشياطين. وكذلك يؤذيهم - كما علمت - كل ما يتأذى منه بنو آدم من الرائحة الكريهة، والأقذار والأوساخ. وبالجملة، فعلى المؤمن أن يكون تقيًا نقيًا، أواهًا منيبًا، ذاكرًا شاكرًا، حتى يفوز بصحبة الملائكة الأبرار[2].

* * *

(١) عالم الملائكة ص٣٢ - ٣٣.

(٢) عالم الملائكة الابرار للشيخ عمر سليمان الاشقر، بتصرف.

الإيمان بالكتب

- ما هي الكتب.
- حقيقة الإيمان بالكتب.
- كيف نؤمن بالكتب.
- أدلة وجوب الإيمان بالكتب.
- ما عرف من الكتب وما لم يعرف.
- ما يجب إجمالاً وتفصيلاً.
- ما هي منزلة القرآن الكريم بين الكتب.
- كيف ننتفع بالقرآن.
- هل القرآن مخلوق.

الركن الثالث:

الإيمان بالكتب

من أركان الإيمان ومن عقيدة المؤمن «الإيمان بالكتب»، فما هي الكتب التي يؤمن بها، ما معناها وما هي ماهية الإيمان بها، وما دليلها، وما منزلة القرآن الكريم بينها؟

فنقول وبالله التوفيق:

أولاً: تعريف الكتب:

الكتب جمع كتاب، والكتاب: مصدر كتب يكتب كَتْبًا وكتابًا وكتابة، إذا جمع الحروف، وألف بينها، فكانت كلمات ذات معان خاصة، ثم كون من تلك الكلمات ذات المعاني جملاً مفيدة، تسمى كلامًا.

فالكتاب إذًا هو ما حوى كلامًا مفيدًا، ذا أغراض متعددة، وكتب الله تعالى التي يجب الإيمان بها: هي الصحف التي حوت كلام الله عز وجل الذي أوحاه إلى رسله عليهم السلام فكونت كتبًا، أو بقيت صحفًا لم تجمع، ولم يتكون منها كتاب خاص.

فالصحف كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام. والكتب كالتوراة والزبور والإنجيل. والقرآن العظيم.

حقيقة الإيمان بالكتب:

إن معنى الإيمان بالكتب الإلهية الذي هو جزء من عقيدة المؤمن، التصديق الجازم بما أوحى الله تعالى من كلامه الخاص إلى من اصطفى من رسله عليهم السلام، فجمع ودون فكان صحفًا مطهرة وكتبًا قيمة. فما عرف منها آمن به المؤمن تفصيلاً، وما لم يعرف آمن به إجمالاً.

على أي دليل آمن المؤمن بالكتب؟

إن المؤمن لم يكن في حاجة إلى أدلة عقلية ولا حسية سمعية ليؤمن بالكتب الإلهية بعد أن آمن بالله وملائكته إيمانًا راسخًا، لا تزعزعه أعاصير الشك، ولا تعصف به عواصف الأوهام مهما كانت عنيفة قوية لأنه يبنى دائمًا أسس معتقده على العلم والمعرفة، ويتحاشى دومًا أن يؤمن إيمان التقليد والتبعية، فلذا سنذكره هنا بأصل كل الأدلة وأم البراهين ليقيم اعتقاده بالكتب عليهما، كما أقام ويقيم كل معتقداته عليهما إذ هما الدليلان اللذان لا يسقطان، والبرهانان اللذان لا يغلبان، وهما دليلا الأثر والخبر اللذان ثبت بهما كل غيب وآمن به كل عقلاء البشر.

فمن دليل الأثر:

نكتفي بأثر واحد وهو «القرآن الكريم» الكتاب الذي دل وجوده دلالة قوية قطعية على وجود مُنَزِّله، وعلى علمه وقدرته، وحكمته، ورحمته، ودل على نبوة من أنزل عليه وعلى رسالته، وعلمه وحكمته وفضله، وشرفه، وكماله، كما دل بالتالي على ذات نفسه، بأنه كتاب الله، ووحيه، وتنزيله، كما قرر نزول كتب الله السابقة النزول عليه، حيث ذكر صحف إبراهيم، وتوراة موسى وزابور داود، وإنجيل عيسى عليهم السلام، وذكر طرفًا مما جاء فيها من أخبار وأحكام، كما قرر أن لله كتبًا أخرى لم يكن اليوم بيد الناس منها شيء.

وبعد: فأي أثر من الآثار الدالة على غيرها دل دلالة القرآن الكريم على نفسه وعلى غيره من كتب الله تعالى؟ إن من يصغى إلى صوت العقل ويستمع إلى شهادة الفطرة ويحكم شواهد الوجدان البشري، ويرضى بحكمها، لا يسعه أبدًا غير الإيمان بالله ربًا، وبمحمد ﷺ رسولاً وبالقرآن إمامًا وحكمًا، وبالإسلام شرعًا ودينًا. كل ذلك لدلالة القرآن العظيمة التي لا أرى ما هو أعظم منها في باب الدلالات على اختلافها وتنوعها، إذ القرآن ـ وهو كتاب معجز ـ قد حوى علومًا ومعارف لم يتأت للبشر أفرادًا وجماعات وأممًا وشعوبًا الإتيان بمثله حتى ولو أضيف إليهم العالم الثاني «الجن» والتحدي ما زال قائمًا في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِن

اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وإن دلالة القرآن على ما ذكرنا دلالة عقلية منطقية، لا ترد بحال، وبرهان عقلي لا يغلب بآخر وأن كل من أراد أن ينفي عن القرآن دلالته العظيمة على ما ذكرنا إنما أراد أن يتورط في إثبات مستحيلات قضت كل العقول باستحالة إثباتها وهي:

* وجود كلام بدون متكلم - وجود علم بدون عالم - وجود رسالة بدون رسول - وجود نبوة بدون نبي ولا منبئ - وجود دلالة بدون دليل - وجود أثر بدون مؤثر.

هذه ستة مستحيلات كلها يقول بها من يركب رأسه ويحاول أن ينكر دلالة القرآن على ما ذكرناه آنفًا، وهل يليق بعاقل أن يرتكب هذه الحماقات ويقول بتجويز هذه المستحيلات الستة؟ اللهم لا.

ودليل الخبر:

ما الذي نورده من الأخبار وهي متكاثرة متواترة؟

إن العاقل الحيي من الناس ليخجل إذا أراد أن يدلل على وجود البدهيات العقلية، والضرورات الكونية، أرأيت لو قام أحد في وسط جمع حاشد من الناس، يدلل لهم في حماس على وجود الشمس والقمر والأرض والسماء، أو على حاجة العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام، أو المريض إلى الدواء، والخائف إلى الأمان، فكيف يكون حاله من الغرابة والعجب؟!

إذًا فإن حال من نصَّب نفسه للناس يدلل لهم على أن الله تعالى قد أنزل كتبًا، أوحاها إلى رسله بعد أن قرأ الناس تلك الكتب، وعملوا بها، وانتفعوا بهديها، ورفعتهم إلى المستوى اللائق بهم من الكمال البشري ومنذ آلاف السنين لأعجب من حال الأول والله المستعان.

ومع هذا فسوف نورد أخبارًا هي أصدق أخبار تلقاها الإنسان منذ أن كان: هي أخبار الله تعالى الخلاق العليم، ومن أصدق من الله حديثًا؟

يقول تعالى في تقرير إنزاله الكتاب على عبده ورسوله محمد ﷺ ليحكم بين الناس: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

ويقول في الامتنان على رسوله بما فضله وأنعم به عليه: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ويقول في الإخبار عن توحيده في ألوهيته، وبيان إفضاله وإنعامه على خلقه بإنزال الكتاب بالحق على رسوله مصدقًا لما بين يديه من الكتب التي سبقته وبإنزال التوراة والإنجيل والفرقان: ﴿الم ① اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ② نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ③ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ١ - ٤].

ويقول في تقرير وحيه إلى أنبيائه ورسله، وإتيانه داود زبوراً، وتكليمه موسى تكليمًا، وفي بيان الحكمة من إرسال الرسل: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ⑯③ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ⑯④ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥].

ونكتفي بهذا القدر من إخبار الله تعالى محيلين من أراد المزيد على كتاب الله «القرآن الكريم» فإن فيه أخبار الله تعالى المصرحة بوحيه وكتبه وبأسماء كتبه وأسماء رسله الذين أوحى إليهم، وأنزل كتبه عليهم، الأمر الذي لا يترك مجالاً لأدنى شك يمكن أن يوجد في نفس إنسان في شأن الكتب الإلهية، ووجوب الإيمان بها، والتصديق بما ورد فيها من أخبار وأحكام وشرائع وآداب[1].

---

(١) عقيدة المؤمن ص٢٣١ ـ ٢٣٥ بتصرف.

أدلة وجوب الإيمان بالكتب الإلهية، وكونه ركن من أركان الإيمان:

إن الإيمان بالكتب السماوية الإلهيـة واجب شرعي، لأن الله تعالى أمر به أمراً جازمًا لا يقتضي إلا طاعة الله تعالى فيه، وتحريم معصيته، إذ قال تعالى في الأمر بالإيمان بكتبه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

إن هذه الآية وحدها كافية في الدلالة على وجوب الإيمان بكتب الله تعالى عامة، وبالقرآن الكريم ـ كتاب الإسلام والمسلمين خاصة ـ وفي تحريم التكذيب بها، وعدم التصديق بكل ما جاء فيها مما هو وحي الله، وكلامه سبحانه وتعالى.
إن الإيمان بالكتب ليس واجبًا فحسب، بل هو أحد أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان عبد إلا باستكمالها بالإيمان بها كلها، وإنه ـ الإيمان بالكتب ـ للركن الثالث من تلك الأركان، التي هي بناء العقيدة الإسلامية، كما جاء ذلك في الكتاب والسنة، ففي الكتاب يقول تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ويقول سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن السنة، حديث مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والذي جاء فيه سؤال جبريل عليه السلام للرسول ﷺ عن الإيمان، وجواب الرسول ﷺ له بأنه: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره..**»(٣).

كما أن الإيمان بالكتب واجب عقلي فإنه يظهر للمتأمل من حيث حاجة العباد إليها وإقامة الحجة عليهم بها، فإن الرسول المبلغ عن الله شرائعه وأحكامه يحتاج

(٣) صحيح تقدم.

غالبًا في إثبات رسالته إلى كتاب من الله تقوم به الحجة له على تلك الأمة التي أرسل إليها حتى يؤمنوا به ويصدقوه، ويتبعوه، ويعملوا بما جاءهم به، والتشريع الإلهي نفسه يفتقر إلى كتاب يحويه ويتضمنه، ويثبت فيه، ليبقى - بعد وفاة الرسول الذي جاء - شرعًا محفوظًا، تعمل به الأجيال إلى المدى الذي حدد له بنسخه برسالة أخرى، أو ينسخ بعض ما جاء فيه كما حصل للتوراة والإنجيل، فقد نسخ الله تعالى بالإنجيل بعض أحكام التوراة، ونسخ بالقرآن الكريم الإنجيل والتوراة كليهما.

ولولا بقاء الكتاب بعد الرسول لضاع الدين الذي جاء به، أو ضاع الكثير، وحينئذ يقول الناس: بم نعبد الله، وكيف نعبده ولم يكن لدينا من شرائعه ما نعبده به؟ وتكون لهم الحجة على الله تعالى، وهذا ما لم يرده الله تعالى حيث صرح بنفسه في قوله: ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

ما عرف من الكتب الإلهية وما لم يعرف:

«إن المصدر الوحيد الذي يرجع إليه في معرفة الكتب الإلهية بالتفصيل هو القرآن الكريم وحده، إذ هو الكتاب المحفوظ حفظًا لا يتطرق إليه معه الزيادة، ولا النقص، ولا التحريف، ولا التغيير، أو التبديل، بحال من الأحوال، لأنه من ساعة نزول الآيات الأولى منه، أو السورة القصيرة أو الطويلة، ورجال متوفرون لكتابته في سطورهم، وحفظه في صدورهم، فلم يتم نزوله في خلال الثلاث والعشرين سنة من عهد النبوة المحمدية حتى حفظه عن ظهر قلب مئات الرجال الأذكياء الأمناء، ثم لم يمض غير زمن قصير حتى أصبح حفاظ القرآن الكريم غيبًا في الصدور، عشرات الآلاف من الرجال الأفاضل، والنساء الفضليات واستمر محفوظًا في الصدور ومدونًا في السطور، ترعاه دول وأمم وشعوب وحكومات، وتتوارث حفظه، ورعايته الأجيال جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا، وسوف يستمر القرآن محفوظًا بحفظ الله تعالى إلى قرب نهاية هذه الحياة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢].

وقد ذكر القرآن الكريم من الكتب السابقة: صحف إبراهيم، وصحف موسى، وثلاثة كتب هي: توراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى، عليهم السلام ذكرها في مواضع متفرقة منه: نذكر منها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٥].

والمراد من لفظ الكتاب في هذه الآية «التوراة» وقوله تعالى في الحديث عن اليهود: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ [المائدة: ٤٣ - ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ ﴾ [الحديد: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ [الأعلى: ١٨ - ١٩].

فقد جاء في هذه الآيات ذكر ثلاثة كتب إلهية مع كل من صحف إبراهيم وموسى، كما جاء في مواضع أخرى من القرآن ذكر بعض ما جاء فيها من أخبار، نحو قوله تعالى عن التوراة: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ... ﴾ [المائدة: ٤٥].

حيث ذكرت حكمًا من أحكام القصاص في الأطراف. ونحو قوله تعالى عن التوراة والإنجيل: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ [الفتح: ٢٩].

فقد نصت هذه الآية القرآنية على أن وصف الرسول محمد ﷺ ووصف أصحابه في كل من التوراة والإنجيل بنفس المعنى الذي حوته هذه الآية القرآنية الكريمة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٦ - ٤١].

فقد نصت هذه الآيات من القرآن الكريم على أن في صحف كل من إبراهيم وموسى: الإخبار بأن النفس المذنبة يوم القيامة لا يحمل عنها ذنبها غيرها، وأن الإنسان ليس له من نتائج العمل إلا ما عمله، وسعى فيه بنفسه، كما أن الإنسان سوف يعرف به، ويجزاه كاملاً غير منقوص. فهذه الكتب التي ذكرت في القرآن الكريم بأسمائها، وأسماء أصحابها الذين نزلت عليهم يؤمن بها المؤمن تفصيلاً كما ذكرت مفصلة، ويؤمن بباقي كتب الله تعالى التي لم تذكر في القرآن مفصلة، على سبيل الإجمال، حيث لم يرد في القرآن ذكر أسمائها ولا أسماء من نزلت عليهم، وإنما ذكرت مجملة كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وكما في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ...﴾ [البقرة: ٢١٣].

فقد جاء في هاتين الآيتين ذكر الكتب مجملاً فيؤمن بها المؤمن مجملا وإن لم يعرف أسماءها ولا أسماء من أنزلت عليهم»(١).

* وكذلك مما يجب الإيمان به، الإيمان بكل ما جاء في الكتب من الشرائع، وأنه كان واجبًا على الأمم الذين نزلت إليهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)

(١) عقيدة المؤمن ص ٢٢٥ - ٢٢٨ بتصرف.

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٤ - ٤٩].

* وأن جميعها يصدق بعضها بعضًا لا يكذبه، كما قال الله تعالى في الإنجيل: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال في القرآن: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

* وأن كل من كذب بشيء منها أو أبى عن الانقياد لها مع تعلق خطابه به يكفر بذلك، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

* وأن نسخ الكتب الأولى بعضها ببعض حق، كما نسخ بعض شرائع التوراة بالإنجيل، قال تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

إلى قوله تعالى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران: ٤٨ - ٥٠].

وكما نسخ كثير من شرائع التوراة والإنجيل بالقرآن، كما قال تعالى في وصف النبي محمد ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وأن نسخ القرآن بعض آياته ببعض حق، كما قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١].

والناسخ والمنسوخ في آيات مشهورات مذكورات في موضعها من كتب التفسير وغيرها.

وإنه لا يأتي كتاب بعده، ولا مغير ولا مبدل لشيء من شرائعه بعده، وأنه ليس لأحد الخروج عن شيء من أحكامه، وأن من كذب بشيء منه من الأمم الأولى فقد كذب بكتابه، كما أن من كذب بما أخبر عنه القرآن من الكتب فقد كذب به، وأن من اتبع غير سبيله ولم يقتف أثره ضل، قال تعالى: ﴿المص (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١ - ٣].

والإيمان إجمالا فيما أجمل، وتفصيلاً فيما فصل[١].

نعم يجب الإيمان بجميع الكتب التي أنزلها الله عز وجل إجمالاً وتفصيلاً، على نحو ما سبق.

• ولكن كيف نؤمن بهذه الكتب؟

نحن أمرنا أن نؤمن بما أنزل كما في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤].

---

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد للشيخ حافظ بن أحمد حكمي ج٢ ص٧٥ - ٧٧ بتصرف.

ولم نؤمر أن نؤمن بما بقي مما حرف وبدل. «نؤمن بما أنزل لا بما حرف وبدل».

* فنحن مثلاً إذ نؤمن بالتوراة التي نزلت على موسى، ونعلم أن ذلك من الإيمان، وقد أخبر الله أن فيها هدى ونوراً وأثنى عليها في كتابه الخاتم فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

إلا أن هذه التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام غير موجودة بالمرة، كما هو مُسلَّم من الجميع. أما التوراة المتداولة الآن فقد قام بكتابتها أكثر من كاتب، وفي أزمان مختلفة، وقد دخلها التحريف.

يقول المرحوم الأستاذ الكبير محمد فريد وجدي: «ومن أدلة التحريف الحسية أن التوراة المتداولة لدى النصارى تخالف التوراة المتداولة عند اليهود»(١). وقد أثبت القرآن هذا التحريف، ونعى على اليهود التغيير والتبديل الذي أدخلوه على التوراة فقال: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

فهم تجرأوا على كتاب الله، فحرفوه ليخفوا ما فيه من الحق، ونسوا قدراً مما ذكرهم الله به في التوراة، فالذي عندهم من التوراة الصحيحة هو بعضها فقط ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦].

وأول دليل على صحة نقد القرآن للتوراة المتداولة، أنها ليست كلها هي توراة موسى التي جعلها الله نوراً وهدى، ما جاء في التوراة من وصف الله بما لا يليق بجلاله وكماله، ففي سفر التكوين [٣: ٢٢] «وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفًا بالخير والشر» وفيه [٦: ٦] «فحزن الرب أنه عمل الإنسان وتأسف في قلبه».

فهل يعقل أن هذا من كلام الله، وهل يصح أن ينسب إليه الحزن والأسف على شيء عمله. وكذلك ما جاء فيها مما يمس شرف الأنبياء ويتنافى مع ما لهم

(١) راجع بتوسع كتابنا «تعصب اليهود».

من عصمة ومكانة رفيعة وخلق متين، فقالوا عن نوح إنه سكر وتعرى، وعن إبراهيم أنه كذاب، وأن لوطًا زنا بابنتيه وأنجب منهما، وأن داود قد خان قائده وزنا بزوجته ثم قتله، وعن سليمان أنه عبد الأصنام إرضاء لزوجته، وعن موسى أنه خان الرسالة، وأن هارون دعا الإسرائيليين إلى عبادة العجل.. الخ. فهل ثمة دليل على التحريف أقوى من هذا، لقد اضطر النقاد من مصلحي اليهود أنفسهم إلى الاعتراف بهذه الحقيقة وأن التوراة قد حرفت، وقد أورد مذهبهم «حاخام باريزا أجوليان ويل» في كتاب اليهودية(١).

* وكذلك نحن إذ نؤمن بالإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام وأنه هدى ونور، إلا أن الإنجيل قد لحقه ما لحق التوراة من التحريف، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٤، ١٥].

ويكفي لصحة التدليل على التحريف في الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى الآن، أنها أربعة اختيرت من نحو سبعين إنجيلاً أو أكثر، وهذه الأناجيل تناولت الكتابة عن سيرة سيدنا عيسى عليه السلام، ومؤلفوها معروفون وأسماؤهم مكتوبة عليها، وقد قرر نقاد المسيحيين أنفسهم أن عقائد الأناجيل هي رأي بولس دون سائر الحواريين ودون أقرب الأقربين إلى عيسى.

وقد وجد في مكتبة أمير من الأمراء في «باريس» نسخة من إنجيل «برنابا» وهو يخالف الأناجيل الأربعة مخالفة كبيرة، في أمور أساسية كقوله بالتوحيد، ورسالة عيسى، وعدم بنوته لله، وإنكار صلبه، والتصريح بالاسم الصريح في البشارة بالنبي محمد ﷺ، هذا والتناقض حتى بين الأناجيل المعترف بها واضح وضوح الشمس، ليس في السفر الواحد أو الإصحاح الواحد، بل وفي الصفحة الواحدة كذلك(٢).

---

(١) راجع بتوسع كتاب «إظهار الحق».

(٢) راجع بتوسع كتابنا التعصب الصليبي.

* وإذا كان الأمر كذلك فما معنى تصديق القرآن للكتب السابقة؟

أعني إذا كان التحريف في التوراة والإنجيل ثابتًا ثبوتًا حقيقيًا لا ريب فيه بنص القرآن من جهة، وبالأدلة الحسية من جهة أخرى، فما معنى أن القرآن جاء مصدقًا لما تقدم من الكتب الإلهية؟

معنى ذلك: أن القرآن جاء مؤيدًا للحق الذي ورد فيها، كما سبقت الإشارة إليه، من عبادة الله وحده والإيمان برسله، والتصديق بالجزاء، ورعاية الحق والعدل، والتخلق بالأخلاق الصالحة.

وهو في الوقت ذاته مهيمنًا عليها ومبينًا ما وقع فيها من أخطاء وأغلاط تحريف وتصحيف، وتغيير وتبديل.

وإذا انتفت هذه الأخطاء التي أدخلها رجال الدين على الكتب السماوية وزوروها على الناس باسم الله ظهر الحق واستبان والتقى القرآن مع التوراة والإنجيل ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [المائدة: ٦٨].

وإقامتها لا تحقق إلا بعد تطهيرها من الزيف[1].

مع الإيمان بكل ما أنزل من عند الله تعالى، وآخرها القرآن الكريم.

* * *

(١) العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص١٤٤ - ١٤٧ بتصرف.

ما هي منزلة القرآن الكريم بين كتب الله تعالى؟

إن مما لا شك فيه ـ لدى العقلاء والعلماء والفصحاء ـ أن للقرآن الكريم منزلة بين سائر الكتب الإلـهية التي تقـدمته في النزول، وقـد تتجلى هذه المنزلة العـالية للقرآن العظيم بإمعان النظر في النقاط التالية:

أولاً: كون القرآن ناسخًا لها لفظًا وحكمًا، فلا تقرأ للتعبد، ولا يعمل بما فيها من شرائع وأحكام، وذلك لما داخلها من تحريف، وما أصابها من تضييع ونسيان، ولأنها كانت شرائع خاصة ببني إسرائيل، أو موقوتة بزمن معين، في الوقت الذي أنزل القرآن الكريم ليكون كتـابًا للعالمين، قال تعالى: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ [الفرقان: ١].

ثـانيـًا: كونه مهيمنًا عليها، رقيبًا شهـيدًا، فما صححه منها وأقره فيها صح وقر، وما أبطله منها ونفاه لكونه دخيلاً علـيه ليس منها، بطل وانتفى كما جاء في قوله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾ [المائدة: ٤٨].

ثـالثـًا: لتعهد الله عز وجل بحفظه إلى أن يرفعه إليه، وليس ذلك لغير القرآن فقال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر: ٩].

كمـا قال: ﴿ **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢].

في حين أن الله عز وجل استحفظ الأمم السابقة على كـتبها، كما قال تعالى: ﴿ **بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ** ﴾ [المائدة: ٤٤].

ولكنهم لم يحافظوا عليهـا ولم يحفظوها، بل ضيعوها وحرفـوها كما سبق، أما القرآن فعلى مدى الزمان لم تستطع يد العـدوان أن تحرف فيه شيئًا لا بزيادة أو نقصان.

رابعًا: اشتماله على كل خير، وإرشاده لكل كمال، وهدايته إلى سعادة الدارين، كما أن فيه الرحمة بأتم معانيها، تلك التي تشمل الإنسان والجان والحيوان، والكافر والمؤمن، والحي والميت، وفيه الشفاء التام العام لجميع الأمراض العقلية والنفسية والقلبية، فيه الشفاء من الكفر والشرك والقلق والاضطراب، والحيرة والخوف والكبر والحسد والكسل والعجز والبخل والشح والظلم والخوف كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

خامسًا: فيه التبيان والبيان لكل شيء مما الإنسان في حاجة إليه مما تتوقف عليه سعادته دنيا وأخرى، وكذا الهداية الكاملة، والرحمة التامة، والبشرى بخيري الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

سادسًا: فيه النور الكاشف لجميع الظلمات القلبية والمبدد لسائر الجهالات النفسية، والمبين لسائر الحقائق والأسرار الكونية، كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النساء: ١٧٤].

وفيه الحق الإلهي الثابت في نفسه، المحقق المثبت لغيره من كل ما هو حق قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

كما قال سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨].

أي متلبسًا به، مشتملاً عليه، مؤيدًا له ومقررًا.

سابعًا: فيه الذكر الإلهي الذي تحيا عليه القلوب وتطيب بتلاوته الأرواح، وتزكو بالعمل به النفوس. ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وكذا الموعظة الداعية إلى اكتساب كل فضيلة، والزاجرة عن كل رذيلة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

نعم للمؤمنين[١].

ثامنًا: شموله لأصول الهداية البشرية وفروعها، واحتواؤه على أعظم منهج رباني يحقق السعادة في الدنيا والآخرة: «فالإيمان به يقتضي امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وتحليل حلاله، وتحريم حرامه، والاعتبار بأمثاله، والاتعاظ بقصصه، والعمل بمحكمه، والتسليم بمتشابهه، والوقوف عند حدوده، وتلاوته آناء الليل والنهار، والذب عنه لتحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، والنصيحة له ظاهراً وباطنًا بجميع معانيها»[٢].

ولم لا؟ وإن من يبتغي الحق ويريد الوصول إلى التعاليم الإلهية الصحيحة لا يجد أمامه غير القرآن الكريم فهو الكتاب الذي حفظت أصوله وسلمت تعاليمه، وتلقته الأمة عن محمد ﷺ عن جبريل، عن الله، الأمر الذي لم يتوفر لكتاب مثله وأنه الجامع لأسمى المبادئ وأقوم المناهج، وخير النظم، والحافل بكل ما يحتاج إليه البشر من حيث العقائد والعبادات، والآداب والمعاملات، والنظم وأنه الكفيل بخلق الفرد الكامل، والأسرة الفاضلة، والمجتمع الصالح، والحكومة العادلة، والكيان القوي الذي يقيم الحق والعدل ويرفع الظلم ويدفع العدوان، وأنه الوسيلة الوحيدة لتحقيق الخلافة ووراثة الأرض[٣].

قال تعالى: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [المائدة: ١٤ - ١٥].

تاسعًا: هذا القرآن هو الروح التي تتوقف عليه حياة الإنسان الفاضلة الكريمة، وأن الناس بدون أن تسري فيهم الروح القرآنية أموات حقًا لا ينتفعون بوجودهم ولا بحياتهم المادية، قال تعالى في هذا: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى: ٥٢].

---

(١) عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ص ٢٤٠ - ٢٤٥ بتصرف.

(٢) معارج القبول ج٢ ص٧٨ بتصرف.

(٣) العقائد الإسلامية ص١٤٧ - ١٤٨ بتصرف.

ولكن من الذي ينتفع بالقرآن بما فيه من خير وهدى ونور وبيان؟ إنهم من اتصفوا بهذه الصفات الأربع:

١ـ **الإسلام:** بأن يسلم المرء لله تعالى قلبه ووجهه، طالبًا رضاه، منفذًا لأوامره، متجنبًا نواهيه وما يسخطه الله من اعتقاد وقول وعمل: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ [النحل: ٨٩].

٢ـ **الإيمان:** بأن يؤمن المرء إيمانًا عامًا بكل ما جاء به الرسول ﷺ، ويؤمن إيمانًا خاصًا بما في القرآن من الهدى والخير، يحمله على تعرفه عليه ومدارسته والعمل بما فيه: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٥٧].

٣ـ **الإحسان:** بأن يحسن المرء في إيمانه وإسلامه، فيعيش يرقب الله تعالى في كل ما يأتي ويذر، وما يقدم وما يؤخر، يراقبه في طاعته كما يراقبه في معصيته ويراقبه في محابه فيأتيها، ومساخطه فيجتنبها.

﴿ **الم ۞ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۞ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ** ﴾ [لقمان: ١ - ٣].

٤ـ **التقوى:** بأن يتقي الله تعالى في أن يشرك به أو أن يعصيه، بترك ما أوجب عليه، أو انتدبه إليه، أو بفعل ما حرمه عليه، أو كرهه له.

قال تعالى: ﴿ **الم ۞ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة: ٢١].

● **وكلمة أخيرة:** إن من استكمل هذه الصفات، وحققها فقد استوجب كل ما في القرآن من خير وهدى، وتحقق له ذلك كاملاً، فحصل له الشفاء في صدره وبدنه، والرحمة في قلبه، والنور في بصيرته، والذكر والموعظة في قلبه والبيان في لسانه، والحق في حكمه، والبشرى في حياته وآخرته. وأما من لم يستكمل تلك الصفات فإنه لم ينتفع بما في القرآن من الهدى والخير، وليس ذلك عائدًا إلى أن القرآن نفد منه هداه وخيره اللذان كانا فيه، وإنما هو عائد إلى عدم أهلية المرء للاستفادة منه، وإن لذلك مثلاً نضربه: هو وجود مريض يوصف له دواء نافع، ويقدم له، ولم يكلف نفسه مشقة تناوله فيبقى الدواء في خزانته، ويبقى هو يعاني

من آلام مرضه إلى أن يكره على استعمال الدواء فيشربه، فيشفى من مرضه، أو لا يكرهه أحد على شربه واستعماله فيبقى يعاني من أسقامه وأوجاعه حتى يهلك بها ويموت.

فهل الذنب ذنب الدواء؟ والجواب: لا، إن الذنب ذنب المريض نفسه الذي لم يستعمل الدواء وهو بين يديه، فكان حاله كحال من قال:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ

والماء فوق ظهورها محمول

أ. هـ[1].

* * *

(١) عقيدة المؤمن ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ بتصرف.

مبحث: هل القرآن مخلوق؟

قال صاحب العقيدة الطحاوية: «ولا نجادل في القرآن ونشهد أنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فعلمه سيد المرسلين، محمداً ﷺ، وهو كلام الله تعالى لا يساويه شيء من كلام المخلوقين، ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين».

فقوله: ولا نجادل في القرآن يحتمل أنَّه أراد: أنَّا لا نقول فيه كما قال أهل الزيغ واختلفوا وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، بل نقول: إنَّه كلام رب العالمين. . إلخ كلامه، يحتمل أنه أراد: أنَّا لا نجادل في القراءة الثابتة، بل نقرؤه بكل ما ثبت وصح وكل من المعنيين حق.

وقوله: ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين، تنبيه على أن من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين، فإن سلف الأمة كلهم متفقون على أن كلام الله بالحقيقة غير مخلوق، بل قوله: ولا نخالف جماعة المسلمين، مجرى على إطلاقه: أنا لا نخالف جماعة المسلمين في جميع ما اتفقوا عليه، فإن خلافهم زيغ وضلال وبدعة[1].

وبالجملة، فإن أهل السنة كلهم من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف متفقون على أن كلام الله غير مخلوق، ولكن بعد ذلك تنازع المتأخرون في أن كلام الله هل هو معنى واحد قائم بالذات، أو أنه حروف وأصوات تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلمًا، أو أنه لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وأن نوع الكلام قديم[2].

والذي تولى كبر هذه الفتنة «أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي» الذي كان وزيراً للمأمون، فبدأ في إشعال هذه الفتنة عام ٢١٨هـ فكتب باسم المأمون إلى العلماء ليقولوا بخلق القرآن تحت قهر السلطان، فأبى «أحمد بن حنبل» أن يخضع فحملوه

(١) العقيدة الطحاوية ص ٢٩٢ ـ ٢٩٤ بتصرف.

(٢) العقيدة الطحاوية ص ١٢٨.

مقيداً إلى المأمون، ومعه «محمد بن نوح» على بعير، فلما كان ببلاد الرحبة جاءهما رجل من الأعراب فقال لأحمد: «يا هذا، أنا وافد الناس، فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه، فتحمل أوزارهم إلى يوم القيامة» فلما اقترب من جيش الخليفة، جاء خادم وقال: يعز علي يا أبا عبد الله، أن المأمون قد سل سيفاً لم يسله من قبل ذلك، فجثى أحمد على ركبتيه ورمق بطرفه إلى السماء وقال: «سيدي غر حلمك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل» فجاءهم الصريخ بموت المأمون.. قال أحمد: ففرحنا.

وولي الخلافة المعتصم، فردوهما إلى بغداد، ومات محمد بن نوح في الطريق، ودخل أحمد بن حنبل السجن ببغداد ومكث به (٢٨) «ثمانية وعشرين شهراً» ثم خرج إلى الضرب بين يدي المعتصم، وأصر أحمد أن كلام الله غير مخلوق، ومن قال القرآن محدث فهو كافر.

وأصيب ابن أبي دؤاد بالفالج في جلده وفرح الكثير من الناس لمرضه. واستمرت محنة الإمام أحمد بن حنبل ١٤ «أربع عشرة سنة» وقد ثبته الله تعالى. وقد قال هلال بن العلاء: «لولا أن ثبت أحمد في الفتنة لكفر الناس» وقيل إن سبب الفتنة النصارى الذين كانوا في حاشية البيت الأموي، وعلى رأسهم يوحنا الدمشقي الذين كان يبث بين المسلمين أن القرآن ذكر أن عيسى ابن مريم كلمة الله ألقاها إلى مريم فتكون كلمته القديمة فيسألهم أكلمته قديمة أم لا؟

فإن قالوا: لا، فقد قالوا: إن كلامه مخلوق، وإن قالوا قديمة، ادعوا أن عيسى قديم، ولا شك أن ذلك تلبيس لأن معنى كلمة الله، أن الله خلقه بكلمة منه كما نص على ذلك في آيات أخرى لا أنه ذات الكلمة[1].

* * *

---

(١) القنديل في فقه الدليل لأبي المنذر عبد الحق بن عبد اللطيف ج١ ص ٤٦ - ٤٧ بتصرف.

الإيمان بالأنبياء والرسل

- ما معنى النبوة
- من هم الرسل
- مؤهلات الأنبياء
- صفات المرسلين
- معنى الإيمان بالرسل
- عصمة الأنبياء
- خاتم الأنبياء محمد ﷺ
- من ثمرات الإيمان بالرسل

الركن الرابع:

الإيمان بالأنبياء والرسل

ما معنى النبوة لغة وشرعاً:

النبوة لغة: اسم مشتق من نبا الشيء ينبو نبوة إذا ارتفع متجاوزاً غيره، ومنه قولهم: نبا السيف ينبو نبوة إذا ارتفع متجاوزاً مضرب الفارس، أو هي اسم مشتق من أنبأ فلان غيره ينبئه إنباء، إذا أخبره بخبر ذي شأن، ولهذا يقال النبوءة بالهمزة بعد الواو، وبها قرأ ورش عن نافع ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوءَةَ﴾ [الأنعام: ٨٩] وقرأ حفص عن عاصم النبوَّة بواو مشددة، ويمكن رد القراءة الأولى إلى هذه، وذلك بقلب الهمزة واواً، وإدغامها في الواو، وهو إعلال معروف عند النحاة.

والنبوة شرعاً: هي إعلام الله تعالى من اجتبى من الناس لرفعته، والإعلاء من شأنه، بإنبائه بالوحي الذي أراده له، أو له ولغيره[1].

والنبي: ذكر من بني آدم، أوحى الله تعالى إليه بأمرٍ، فإن أمر بتبليغه إلى الناس فهو نبي ورسول، وإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبي غير رسول، كذا قيل في أحد الفروق بين النبي والرسول، وقيل الرسول من له كتاب، والنبي من لا كتاب له، وقيل الرسول يأتي بشرع جديد، والنبي يكون على شريعة من قبله، وربما كان الرسول من جاء بشريعة ناسخة لما قبله كلية أو جزئية، والنبي ليس كذلك وقيل غير ذلك، وكلها فروق اجتهادية، ولكن يبقى هناك فارق بين النبي والرسول، كما فرق القرآن بينهما في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٨]، وبهذا يظهر الفرق بين كل من النبي والرسول، وبناء عليه، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.

(١) حاشية مصطلح الدين على العقائد ص ٣٦.

الرسل في التاريخ:

لم تخل أمة من الأمم، ولا زمان من الأزمنة من دعـوة نبي أو رسالة رسول، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وكذا قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

وكذلك: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦].

ولذلك فإن الرسل كانوا عـدداً كبيراً وجمًا غفيراً، لا يعلم عددهم إلا الله، غيـر أننا لا نستـطيع أن نجزم بعـدد معين، لا نزيد عليـه، ولا ننقص منه، وذلك لعدم ثبوتـه عن الوحي الإلهي، والخبر النبوي الصـحيح، ومعرفـة عددهم أمر لا ينبني عليه تكليف، فهو علم لا ينفع وجهل لا يضر.

ولكنا نوقن بأن الأنبـياء والرسل بدءوا بآدم أبي البشـر عليه السلام، كـما بدأ الرسل بنوح عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

وكما جاء في حديث الشفاعة الصحيح «فيأتون نوحًا فيقولون يا نوح أنت أول رسـل الله..»[1] هذا وعامة من ذكـر من الرسل في القرآن الكريم كانت ديارهم فيما يسمى جغرافيا بمنطقة الشرق الأوسط أو قارتي أفريقيا وآسيا. منها بعثوا وفيها عاشوا مع أقوامهم، وفيها ماتوا ودفنوا.

فمثلاً: إبراهيم عليه السلام بُعث بالعراق، وهاجر منها إلى أرض كنعان فتنقل بين الحجـاز والشام، وإسـماعـيل عليه السلام ولـد بالشام وعاش بمكـة المكرمة. وإسحـاق كان بالشام وكـذا يعقوب إلا أنه هاجـر إلى مصر، وكـذا يوسف عليه السلام الذي عـاش بمصر حـتى مات بها، ومـوسى وهارون عاشـا بمصر، وداود وسليمان في أرض المقدس، وعـيسى ولد في بيت لحم وعاش بأرض المقدس، ثم بعث خاتم الأنبـياء محـمد ﷺ بمكة التي ولد بها وعـاش فيهـا إلى أن هاجر إلى المدينة من أرض الحجاز إلى أن توفي بها، وبها قبره الشريف ﷺ[2].

---

(١) صحيح تقدم.

(٢) انظر بتوسع: عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ص ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٥ - ٢٦٩.

مؤهلات النبوة:

الذي ينبغي أن يعلم هنا أن النبوة لا تأتي عن طريق الكسب والاجتهاد أبدًا، فلو انقطع المرء إلى العبادة كلية، وتخلى عن سائر الحظوظ النفسية، وعن كل الرغبات والشهوات، وسائر متع الحياة ولذائذها لم يؤهله ذلك لأن يكون نبيًا أو رسولا بحال من الأحوال.

إن النبوة هبة خاصة، يختص بها الله واهبها من أهله لها من عباده المؤمنين، بيد أن الله يهيئ لها بإعداد خاص عبدًا من عباده، فيحفظه من التلوث النفسي، والضلال العقلي، والفساد الخلقي، والانحراف الفطري، ويضفي عليه الكمالات النفسية والعقلية والخلقية، ما يؤهله به لمقام النبوة الشريف.

ومن المؤهلات للنبوة وتلقى الوحي الإلهي:

أولا: المثالية:

ونعني بالمثالية ذلك الكمال البشري الذي يحوزه المرء المرشح لمقام النبوة، والذي لا يسمو إليه سواه من المرشحين لها من سائر الناس.

ثانيًا: شرف النسب:

إن عامل الوراثة ينتقل ـ حسب سنة الله الإلهية ـ من الأصل الوالد إلى الفرع المولود، ومن هنا كان الأنبياء يبعثون في أشراف أقوامهم، والمراد من الشرف بالمعنى العام: الترفع عن الدنايا الخلقية، والتنزه عما يُخلٍ بالمروءات، ويهبط بالقيم البشرية، من كل سلوك شائن منحرف، تكرهه الطباع البشرية السليمة وتشمئز منه النفوس الكريمة.

ثالثا: عامل الزمن:

إن المراد من عامل الزمن هو وجود مقتضيات في الزمن المعين، تحتم بعثة نبي، وإرسال رسول وتقتضيه، ومن ذلك وجود فراغ روحي تسبب عنه فساد اجتماعي كبير، أو فساد عام في الأرض تتطلع معه النفوس إلى مصلح يصلح الله به البلاد والعباد، وذلك لما غرز الله تعالى في الفطر البشرية من الشعور بالرحمة

الإلهية، وقربها كلما عم الشر وعظم الفساد، شعور كشعور العطشان بالحاجة إلى الماء وتطلعه إليه[١].

والناظر في هذه المؤهلات يراها وضحت في كل الأنبياء والرسل، لكنها كانت أكثر وضوحا وأسطع ضياء في النبي ﷺ، إذ اكتملت فيه بما لم تكتمل في نبي غيره أو رسول سواه صلوات ربي وسلامه عليه، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

صفات الأنبياء:

إن للمؤهلين لحمل رسالة الخالق إلى الخلق صفات كمال لا تفقد في أحدهم أبداً، إذ هي واجبة لكل من يحمل رسالة الله تعالى إلى عباده.

ومن تلك الصفات:

أولاً: الصدق:

صدق النية والإرادة، صدق القول، والعمل، بحيث يستحيل أن يتصف المؤهل للنبوة بضد الصدق، وهو الكذب والنفاق، أو الإهمال واللامبالاة، والمتتبع لسير الأنبياء يعرف هذه الحقيقة ويؤمن بها.

ثانياً: الأمانة:

الأمانة في كل شيء، في القول والعمل، في الحكم والقضاء، في الحديث والنقل، في الرواية والتبليغ، في السر والعلن معًا، إذ يستحيل أن يتصفوا بضدها وهي الخيانة بحال من الأحوال، فلا خيانة فيهم أبداً، ولو في أقل الأشياء وأتفهها، ومتى وجد شيء من الخيانة، فلا نبوة ولا أهلية لها أبداً.

ثالثاً: التبليغ:

والمراد منه أن يبلغ الرسول كل ما أمر بتبليغه، فلا يخفي منه شيئًا، ولا يكتمه بحال فلا تحمله رغبة ولا رهبة على أن يكتم بعضًا مما أوحي إليه، وأمر بإبلاغه إلى الناس، والكتمان للوحي الإلهي يتعذر على المرسلين، ويستحيل في حقهم

(١) عقيدة المؤمن ص ٢٥٩ ـ ٢٦١ بتصرف.

ولا يتأتى لهم، لأن الله تعالى أهلهم للبلاغ عنه ما أراده لعباده من الهدى والخير، فمتى وجد الكتمان بطلت النبوة، وانتفت الرسالة.

رابعاً: الفطنة:

إن الفطنة ليست الفهم والذكاء فحسب، بل هي مع ذلك: رقة الشعور وصفاء الذهن، ورهافة الحس، وصدقه وسرعة البداهة، على حد قول حسان بن ثابت في النبي ﷺ:

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

إن الفطنة من المؤهلات لتلقي الوحي، والأمانة عليه، وكذا التبليغ به، والصدق فيه، فالغباء، وبلادة الحس، وبطء الإدراك تتنافى مع مقام النبوة وشرف التلقي عن الله تعالى، كما يستحيل في حقهم الكذب والخيانة والكتمان[1].

هذا، وإن هذه الصفات التي توفرت في الأنبياء والمرسلين، لهي قد بلغت أوجها وكمالها في النبي محمد ﷺ، كما ستعلمه.

ما معنى الإيمان بالرسل؟

ومعنى الإيمان بالرسل هو التصديق الجازم أن الله تعالى بعث في كل أمة رسولاً، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والكفر بما يعبد من دونه، وأن جميعهم صادقون مصدقون، بارون راشدون كرام بررة أتقياء أمناء هداة مهتدون، وأنهم بلغوا جميع ما أرسلهم الله به، فلم يزيدوا فيه ولم ينقصوا منه، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين، وأنهم كلهم كانوا على الحق المبين، والهدى المستبين.

اتفقوا جميعًا في كلمة التوحيد وأصول الدين، وأما فروع الشرائع من الفرائض والحلال والحرام فقد تختلف، فيفرض على هؤلاء ما لا يفرض على هؤلاء، ويخفف على هؤلاء ما يشدد على أولئك، ويحرم على أمة ما يحل للأخرى، وبالعكس، لحكمة بالغة وغاية محمودة قضاها ربنا عز وجل، لاختلاف

---

(١) عقيدة المؤمن ص٢٦٢، ٢٦٣ بتصرف.

العقول والأفكار، وتنوع المدارك والأفهام، وتغاير الأزمنة والأمكنة، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾.

وما ذلك إلا ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

وكذا ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢].

وكذا الإيمان بهم يقتضي الإيمان بكل نبي ورسول، فالإيمان بجميعهم متلازم، من كفر بواحد منهم فقد كفر بالله تعالى، وبجميع الرسل عليهم السلام.

ولذلك وجب الإيمان بالأنبياء والرسل على الإجمال والتفصيل.

الإيمان بالرسل إجمالاً وتفصيلاً

أما إجمالاً: بأن يؤمن المرء بكل من نبأ الله من نبي، وبكل ما أرسل من رسول ممن عرف نبوتهم ورسالتهم وممن لم يعرف.

وذلك لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء: ١٣٦].

وكذا قوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٢].

فلهذه الآيات وغيرها يؤمن المؤمن برسل الله تعالى، ولا يفرق في الإيمان بهم، بين رسول ورسول منهم، كما فعل اليهود والنصارى، حيث آمن اليهود بأنبياء بني إسرائيل، وكفروا بعيسى ابن مريم ومحمد ﷺ، ولا كما آمن النصارى بكافة الأنبياء وكفروا بخاتمهم وإمامهم محمد ﷺ، وقد كفَّر الله تعالى وتوعد بالعذاب المهين من يؤمن ببعض الأنبياء ويكفر ببعض، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

وأما تفصيلاً: بأن يؤمن المرء بكل نبي ورسول عرف نبوته ورسالته عن طريق الوحي إيمانًا تفصيليًا فمن عرفهم عن طريق الوحي الإلهي بأسمائهم آمن بهم واحدًا واحدًا على التفصيل.

فيجب الإيمان بخمسة وعشرين نبيًا ورسولا، قد ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم وهم «آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط،

وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وشعيب، وأيوب، ويونس، وموسى وهارون، وإلياس واليسع، وذو الكفل، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

وقد ذكروا في القرآن الكريم، منهم ثمانية عشرة في آية ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٦].

وذكر السبعة الباقون مفرقين في عدة سور من القرآن الكريم وهم: آدم، وإدريس، وهود، وصالح، وشعيب، وذو الكفل، وخاتمهم محمد ﷺ.

ماهية الإيمان بالرسل

كما يجب علينا أن نؤمن بأن الله بعث رسله إلى الخلق لتبشيرهم وإنذارهم، تبشيرهم برضوان الله وثوابه وجنته إن آمنوا به وبرسله وأطاعوه، وإنذارهم من غضب الله وعقابه وناره إن كفروا به وعصوا رسله قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٨، ٤٩].

كما يجب علينا أن نؤمن بأن جميع هؤلاء الرسل بعثهم الله لتحقيق غرض أساسي واحد هو عبادة الله عز وجل وإقامة دينه وتوحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فقد قال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال أيضًا: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

كما يجب علينا أن نؤمن بأن كل رسول أرسله الله أدى أمانته وبلغ رسالته على الوجه الأكمل وبينها بيانًا واضحًا شافيًا كافيًا.

ويجب علينا طاعتهم، وعدم مخالفتهم، لأن ذلك من طاعة الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال أيضًا: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤].

ويجب علينا أن نعتقد بأنهم أكمل الخلق علمًا وعملاً، وأصدقهم، وأكملهم أخلاقًا، وأن الله سبحانه خصهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحد، وأنه عصمهم ونزههم عن الكذب والخيانة والكتمان والتقصير في التبليغ، وعن الكبائر كلها والصغائر، وقد تقع منهم زلات أو عثرات بسيطة بالنسبة إلى ما هم عليه من علو المقامات كما وقع لآدم عليه السلام في أكله من الشجرة على وجه النسيان، ولكنهم لا يقرون عليها بل يوفقون للتوبة منها[1].

كما يجب علينا أن نؤمن بأن رسل الله جميعًا كانوا رجالاً من البشر، فلم يكونوا من الملائكة ولم يبعث الله أنثى، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ [الأنبياء: ٧].

ونؤمن أن الله سبحانه لم يخصهم بطبائع أخرى غير الطبائع البشرية، وإنما اختارهم سبحانه من الرجال الذين يأكلون ويشربون، ويمشون في الأسواق وينامون، ويجلسون، ويضحكون، ولهم أزواج وذرية، ويتعرضون للأذى، وتمتد إليهم أيدي الظلمة وينالهم الاضطهاد، وأنهم يموتون، وقد يقتلون بغير حق، وأنهم يتألمون، ويصيبهم المرض وسائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية بين الخلق، وقد دل على ذلك كثير من النصوص، منها قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

(١) انظر مبحث «عصمة الأنبياء».

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [المائدة: ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [الرعد: ٣٨].

وقد قال رسول الله ﷺ: «ولكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء»(١).

وكان ﷺ «يمرض ويتألم، وكان يصيبه الحر والبرد والجوع والعطش، والغضب والضجر والتعب، ونحو ذلك مما لا نقص عليه فيه»(٢).

ونؤمن أنهم لا يملكون شيئا من خصائص الألوهية، فلا يتصرفون في الكون، ولا يملكون النفع أو الضر، ولا يؤثرون في إرادة الله تعالى، ولا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه. قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال أيضًا: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وإنما خصهم الله عز وجل بمؤهلات من المزايا والفضائل والأخلاق تؤهلهم لتلقي الوحي والاضطلاع بأعباء الرسالة ليكونوا قدوة للناس وأسوة، يقتدى بهم في أمور الدين والدنيا، فيجب علينا أن نؤمن بأن رسل الله معصومون عن أية نقيصة تقدح في دينهم وطاعتهم لله جل وعلا، أو في مقدرتهم على تبليغ الرسالة

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٥٠٦٣ ـ ومسلم ١٤٠١.

(٢) راجع سيرة النبي ﷺ، و«الشمائل النبوية» للترمذي، و«الوفا بأحوال المصطفى» لابن الجوزي، وغيرها.

التي حملوها، فقد قال سبحانه في حقهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠].

فهم قد كملهم الله سبحانه في الأمانة والصدق والفطانة والتبليغ وغيرها من الأخلاق التي لابد منها للقيام بالحمل الذي حملهم الله إياه، وبالمسئولية التي أناطها بهم، وقد شهد الله تعالى لهم بالصدق، فقال عز شأنه عن إسماعيل عليه السلام: - مثلا - ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

وقال عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

إلى غير ذلك من الآيات الربانية التي شهدت لهم بالصدق والهدى.

ويجب علينا أن نؤمن بأن الله سبحانه أيدهم بالمعجزات الباهرات والآيات الظاهرات الدالة على صدقهم فيما جاءوا به من عند ربهم تبارك وتعالى، والمعجزات هي ما يجريه الله على أيدي رسله وأنبيائه من خوارق العادات التي يتحدون بها العباد، فنؤمن بكل ما ذكر في القرآن الكريم منها، وبما وردت فيه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ وهذا القدر من المزايا يتساوى فيه جميع من اصطفى الله من الرسل، ونؤمن مع هذه المماثلة أن الله فضل بعضهم على بعض، لقوله عز من قائل: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وينبغي أن نعتقد أن أفضل الرسل هم أولو العزم منهم، وهم «نوح وإبراهيم، وموسى وعيسى ومحمد ﷺ»، كما ذكرهم الله عز وجل في آيتين: فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وأيضا: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ونؤمن أن أفضلهم وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا محمد بن عبد الله ﷺ، وقد فسر بعض السلف قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾.

بأنه سيدنا محمد ﷺ وفي ذلك أحاديث صحيحة منها: ما صح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع**»[1] وغيره من الأحاديث التي تدل بوضوح على أن محمداً بن عبد الله ﷺ هو أفضل الخلق كلهم، فهو عبده المصطفى ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى، وأنه خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء، وسيد المرسلين، وحبيب رب العالمين، وكل دعوى النبوة بعده فغي وهوى وضلال مبين»[2].

وسنفصل القول عنه فيما بعد إن شاء الله تعالى[3]، أ. هـ[4].

* * *

(١) صحيح تقدم.

(٢) العقيدة الطحاوية.

(٣) مبحث النبي محمد ﷺ.

(٤) راجع بتوسع: معارج القبول ج٢ ص٧٨ ـ ٨٢، والإيمان أركانه حقيقته، د. محمد نعيم ياسين ص٣٨ ـ ٤٤، والثمرات الزكية في العقائد السلفية ص١٨١ ـ ١٩١.

مبحث في «عصمة الأنبياء»

الرسل اصطفاهم الله واختارهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣].

ونزههم عن السيئات وعصمهم من المعاصي، صغيرها وكبيرها ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ [آ عمران: ١٦١].

وحلاهم بالأخلاق العظيمة من الصدق والأمانة، والتفاني في الحق، وأداء الواجب فمنهم الصديق: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم: ٤١].

ومنهم من اصطنعه الله لنفسه ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩].

﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ [طه: ٤١].

ومنهم من هو بعين الله ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨].

ومنهم من اجتباه الله وعلمه ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٦].

وبعد أن ذكر الله جملة من الأنبياء في سورة مريم قال: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [امريم: ٥٨].

وهم وإن تفاوتوا في الفضل إلا أنهم بلغوا الغاية من السمو الروحي والصلة بالله ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وهكذا نجد النصوص الكثيرة الواردة في القرآن بشأن الأنبياء والرسل تضفي عليهم من الطهر والنزاهة والقداسة ما يجعل منهم النموذج الحي والصورة المثلى للكمال الإنساني.

ومثل هؤلاء لا يمكن إلا أن يكونوا معصومين من التورط في الإثم ومنزهين عن الوقوع في المعاصي فلا يتركون واجبًا، ولا يفعلون محرمًا، ولا يتصفون إلا بالأخلاق العظيمة التي تجعل منهم القدوة الحسنة، والمثل الأعلى الذي يتجه إليه الناس وهم يحاولون الوصول إلى كمالهم المقرر لهم، والله سبحانه وتعالى هو الذي تولى تأديبهم وتهذيبهم وتربيتهم وتعليمهم، حتى كانوا قممًا شامخةً وأهلاً للاصطفاء والاجتباء ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠].

كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وكذلك: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فهذه الآيات أدلة بينة على مدى الكمال الإنساني الذي أفاضه الله على أنبيائه ورسله، ولو لم يكونوا كذلك لسقطت هيبتهم في القلوب، ولصغر شأنهم في أعين الناس، وبذلك تضيع الثقة فيهم، فلا ينقاد لهم أحد. وتذهب الحكمة من إرسالهم ليكونوا قادة الخلق إلى الحق، بل لو فعلوا شيئًا مما يتنافى مع الكمال الإنساني بأن يتركوا واجبًا، أو يفعلوا محرمًا، أو يرتكبوا ما يتنافى مع الخلق الكريم لكانوا قدوةً سيئةً ولم يكونوا مثلاً عليا ومنارات هدى»(١).

شبهات أثيرت حول عصمة الأنبياء:

حاول بعض المغرضين الذين أرادوا تشويه صورة أفضل المخلوقات وهم الأنبياء والرسل - أن يستغلوا بعض آيات القرآن الكريم التي يوهم ظاهرها أن الأنبياء ارتكبوا ما يتنافى مع عصمتهم ويشوه صورتهم، مما يتيح للغير أن يفعل هذه

(١) العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص١٥٧ - ١٥٩.

الأشياء بحجة أن الأنبياء قد فعلوها، وليس الأمر كذلك. إذ ليست هذه الآيات على ظاهرها، أو كما يتبادر إلى الذهن، ويتجلى ذلك فيما نذكره بالنسبة لما نسب لكل نبي فيما يلي:

(١) آدم عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿ **وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ** ﴾ [طه: ١٢١].

فظاهر هذه الآية بأن آدم عصى ربه وغوى بمخالفة أمر الله واستجابته لدعوة الشيطان، وأن ذلك كان زلة وقع فيها ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ** ﴾ [البقرة: ٣٦].

ولكن إذا أمعنا النظر رأينا أن هذه المعصية إنما وقعت من آدم نسيانًا منه لعهد الله ولم يصدر عنه هذا الفعل عن إرادة وقصد، والله سبحانه لا يؤاخذ على الخطأ ولا على النسيان، لأن ذلك تكليف بما لا يطاق، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، والأصل في هذه القاعدة قول الله سبحانه: ﴿ **وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ** ﴾ [الأحزاب: ٥].

وقوله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والدليل على أن ما وقع من آدم كان نسيانًا وعن غير عمد، قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** ﴾ [طه: ١١٥].

أي أن آدم نسي عهد الله الذي وصاه به حين ارتكب ما نهاه عنه من الأكل من الشجرة، ولم يجد له عزما على فعل ما نهى عنه، وحيث لم يوجد العزم على المعصية، فلا توجد المؤاخذة.

وإنما اعتبر القرآن ذلك النسيان عصيانًا نظرًا لمقام آدم الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته، وعلمه الأسماء كلها، والذي شأنه هكذا يجب أن يكون يقظًا كأقوى ما تكون اليقظة بحيث لا ينسى وصاية الله له وعهده إليه، فهذا من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين. هذا فضلاً عن أنها كانت صغيرة وقعت منه قبل أن يجتبيه الله للنبوة.

(٢) نوح عليه السلام:

أما نوح عليه السلام فما وقع منه أنه سأل الله عن هلاك ابنه مع من هلكوا في الطوفان، مع وعد الله بنجاته ونجاة أهله. فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [مريم: ٤٥ - ٤٧].

فلم يكن لنوح عليه السلام علم بأن نسب ابنه إليه قد انتفى بكفره وإعراضه عن دعوة الله فسأل الله كيف هلك مع الوعد بنجاة أهله، وابنه من أهله، فعلمه الله أن الصلة الدينية والنسب الروحي أقوى من صلة الدم، فإذا انقطعت هذه الصلة ذهبت بصلة النسب والدم، فقال له معلماً إياه: «إنه ليس من أهلك» معللاً ذلك بأن عمله عمل غير صالح، وما دام ذلك كذلك فليس هناك صلة نسبية وبذلك ينتفي نسبه من أبيه، فلا يكون من أهله الذين وعدوا بالنجاة.

وكان على نوح عليه السلام وهو الأب الثاني للبشر الذي بذل حياته لله ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو إلى الله ويجاهد في سبيله، كان عليه أن يفطن لهذا المعنى وأن يدركه، فلما لم يتنبه إليه، وغلبت عليه عاطفة الأبوة، اعتبر ذلك نقصاً بالنسبة لمقامه الرفيع ومنزلته الكبرى التي حباه الله بها.. ومن ثم فقد لجأ إلى الله أن يغفر له هذه العثرة التي لم يقصد إليها، ولم يكن له علم بها فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾. أ. هـ[١]

(٣) إبراهيم عليه السلام:

إذ جاء في دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

(١) العقائد الإسلامية ص ١٦٠ - ١٦٢ بتصرف.

ونحن لا نعرف لإبراهيم خطيئة، والذي نعلمه أن الله قد اتخذه خليلاً واصطفى عليه من صفات الكمال ما هو خليق به، كما قال: ﴿ولَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

كذلك قال عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢].

وطلبه من الله أن يغفر له خطيئته ليست خطيئة بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن، وإنما هي ما يستشعره في نفسه من قصور في تفانيه في الله، وأداء رسالته، نظراً لمكانته السامية ومنزلته الرفيعة(١).

وأما ما ورد بشأن كذبات إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وكذلك ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩].

وفي قوله عن زوجه «سارة» قولي: إنك أختي.

كما جاء في حديث البخاري عن أبي هريرة قال: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات اثنتان منهن في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾.

وقال: بينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه وسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال أختي، فأتى سارة، فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني.. الحديث»(٢).

ورواه الإمام أحمد - مختصراً - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله حين دعى إلى آلهتهم فقال: "إني سقيم" وقوله "بل فعله كبيرهم هذا" وقوله لسارة: "إنها أختي"»(٣).**

---

(١) العقائد الإسلامية سيد سابق ص (١٦٢، ١٦٣).

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٣٥٨ - ومسلم ٢٣٧١.

(٣) أخرجه أحمد ٩٢٣٠. وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

والحق أن هذا ليس من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله - حاشا وكلا، ولما - وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني، كما جاء في الحديث «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب»[١] وكما جاء في الحديث أيضا «كلمات إبراهيم عليه السلام الثلاث التي قال، ما منها كلمة إلا ماحل بها عن دين الله تعالى. الحديث»[٢] أي دافع بها عن دين الله، فقول إبراهيم عليه السلام «بل فعله كبيرهم هذا» إنما عرض لهم في القول حتى يقول: «فاسألوهم إن كانوا ينطقون» وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات فيقيم عليهم الحجة: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤ - ٦٧].

إن إبراهيم عليه السلام لما سأله قومه «أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم» شعر بأن الفرصة قد سنحت له ليبلغ مأربه وليصل إلى الحقيقة التي أراد أن يقروا بها فبأسلوب حكيم يجيبهم على سؤالهم بأن محطم الأصنام هو كبيرهم، وأن الشاهد على فعله هو بقية الأصنام وتابع قوله «فاسألوهم إن كانوا ينطقون» فقد غضب الصنم الكبير من أن تعبدوا هذه الأصنام الصغيرة، وهو أكبر منها فكسرها.

وبلا وعي ولا تفكير ينزلق القوم في هذا المنزلق الذي دفعهم إليه إبراهيم فيقول بعضهم لبعض أنتم الظالمون بعبادة معبودات لا تستطيع النطق، وأنتم الظالمون باتهام إبراهيم ولكن الحقيقة تصدمهم بعد ذلك فإذا بهم يطرقون برؤوسهم من الخجل ثم يعودون إلى مجادلة إبراهيم قائلين: إنك تعلم أن هذه الأصنام لا تقدر أن تنطق فكيف تطلب منا أن نسألها؟ حينئذ برزت حجة إبراهيم مدوية مجلجلة تقرع آذانهم وتفحم ألسنتهم بهذا الجواب البليغ: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٨٥٧ - وابن أبي شيبة في المصنف ٢٦٠٩٦ - والطبراني في الكبير ٢٠١ وغيرهم، وقال الألباني في الضعيفة (١٠٩٤): ضعيف.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم - وأبو يعلى في مسنده ١٠٤٠، وقال حسين أسد: إسناده ضعيف.

اللَّه ما لا ينفعكُمْ شيئًا ولا يضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ ولِما تعْبُدُون مِن دُونِ اللَّهِ أفلا تعقلون ﴾ [الأنبياء: ٦٦ - ٦٧].

هذا والكذب هو الإخبار عن شيء على غير ما هو عليه في الواقع مع اعتقاد المخبر أن ما قاله غير مطابق للواقع قاصداً بذلك خديعة السامع. ولم يكن كلام إبراهيم بهذا المعنى، بل فيه من التهكم والسخرية ما فيه.

كذلك قوله تعالى: ﴿ فَنظر نظْرةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فقال إنِّي سقِيمٌ ﴾.

عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة.

وقد يكون على الحقيقة أي أنا سقيم من عبادتكم غير الله، أو أنه كان به سقم خفيف أو أنه كان سقيم الباطن والضمير، قلق الخاطر لأفعالهم.

وأما قوله: هي أختي عن زوجه، فهي أخته في دين الله. وقد قال لها «إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك» يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك، وقد أفصحت بعض الروايات بذلك «فقولي إنك أختي فإنك أختي في دين الله»، وقد تكون أخته حقيقة قبل أن يحرم الزواج بالأخوات، كما يحتمل أن تكون ابنة عمه وإطلاق الأخت على بنت العم سائغ لا تنكره اللغة.

وعلى ذلك لم يحصل من إبراهيم كذب ولا صورة كذب[1].

وزعم قوم أن إبراهيم عليه السلام شك في أن الله قادر على أن يحيي الموتى، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ وإذْ قال إبْراهِيمُ ربِّ أرِنِي كيْف تُحْيِي الْموْتىٰ قال أولمْ تُؤْمِن قال بلىٰ ولٰكِن لِّيطْمئِنَّ قلْبِي قال فخُذْ أرْبعةً مِّن الطَّيْرِ فصُرْهُنَّ إليْك ثُمَّ اجْعلْ علىٰ كُلِّ جبلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يأْتِينك سعْيًا واعْلمْ أنَّ اللَّه عزِيزٌ حكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

(١) راجع قصص الأنبياء لابن كثير ص١٣٠ - ١٣٤، ومع الأنبياء في القرآن الكريم عفيفي عبد الفتاح طبارة ص١١٢ - ١١٥.

وليس الأمر كما زعموا وحاشا لخليل الرحمن أن يقع في الشك.

وإنما كان إبراهيم عليه السلام محبًا للاستطلاع، شغوفًا بأن يرى الشيء الذي يقع عنده موقع الغرابة، وقد علم أن الله سيحيي الموتى ويبعثهم ليوم لا ريب فيه، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته فأحب أن يرى ميتًا عاد حيًا، ليترقى بذلك من علم اليقين إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال: «رب أرني كيف تحيي الموتى» إنه يسأل عن الكيفية ولم يقل: رب هل أنت تحيي الموتى؟!(١).

والحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾»**(٢).

فليس المراد هاهنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف. ذلك أنه لم يشك النبي ﷺ ولا إبراهيم في أن الله قادر على أن يحيي الموتى وإنما شكا في أنه هل يجيبهما إلى ما سألا.

وليس في قوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم، لكن فيه نفي الشك عنهما، يقول: إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، فإبراهيم أولى بأن لا يشك، وقال ذلك على سبيل التواضع وهضم النفس.

وفيه الإعلام أن المسألة من إبراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة الشك ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال(٣).

وزعم قوم كذلك بأن إبراهيم عليه السلام تظاهر بالشرك مع عبدة الكواكب في قوله عنها «هذا ربي» في الآيات الكريمة: **﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾**.

---

(١) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص١٢٨ بتصرف.
(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٣٧٢- ومسلم ١٥١
(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣١٥ بتصرف..

وذلك إلى قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٨٣].

ونسارع فنقول: حاشا لنبي أن يشك فضلاً عن أن يشرك أو يتظاهر بالشرك ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

والأمر باختصار: إن إبراهيم عليه السلام اتجه إلى طريقة أخرى من طرق الدعوة في محاجة قومه وتزييف دينهم، فأتى بها على سبيل التدرج في الإلزام، أو المحاورة والمداراة حتى يثبت لهم عدم صلاحية آلهتهم التي يعبدونها، ثم يصل بهم إلى الحق والحقيقة.

لقد استطاع عليه السلام أن يبين لهم أولاً عدم صلاحية الكواكب التي تطلع وتأفل، وتغيب عن هذا العالم والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية، بل هو الدائم الباقي بلا زوال. لا إله إلا هو ولا رب سواه[1] وكيف يكون هذا من فعل إبراهيم، وربنا عز وجل يقول في أول الأمر ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾.

وفي نهاية الأمر: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾.

وليست حجة إبراهيم وهو الذي قال الله عنه: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١].

كذلك قال الله عنه: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣].

وقال: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ج١ ص١٢١ بتصرفه.

(٤) يوسف عليه السلام:

في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾.

إذ شرَّقَ فيها الناس وغرَّبوا، وقالوا فيها بالإسرائيليات، والكذب والبهتان حتى زعموا أن يوسف الصديق عليه السلام جلس منها كما يجلس الرجل من أهله بعد أن حل إزاره وأراد أن يواقعها لوما أدركه برهان ربه!! أقول: وليس في الآية ما يدل أدنى دلالة على أن يوسف عليه السلام هم بالفاحشة، وذلك من وجوه:

١ ـ أن المقصود بالهم هنا الهم بالضرب والأذى، وذلك أن امرأة العزيز راودته عن نفسه فغلقت الأبواب ودعته إلى نفسها، فاستعصم وأبى، وقال: ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣].

وإزاء هذا الاستعصام والتأبي والترفع عن التسفل، همت امرأة العزيز بضربه وإلحاق الأذى به، بعد أن عجزت عن إغرائه بكل وسيلة، فهم هو بأن يعاملها بالمثل دفاعًا عن نفسه لولا أن رأى أن ذلك لا يليق بأمثاله من أصحاب النفوس الكبيرة، ولا سيما أن هذا البيت آواه وأكرمه، فضلاً عن أنها سيدته التي تبنته، وأنها زوجة رجل عظيم في أمة عظيمة.

فلولا أن رأى ذلك كله، وهو صاحب شعور نبيل وعاطفة جياشة، لقابلها بالمثل، ولآذاها بالضرب المبرح، ولكنه كذلك لا يرضى بالاستكانة ويقف ذليلاً يتلقى الضربات من امرأة أصابها جنون الشهوة الحيوانية ـ وهو من هو ـ فآثر أن يفر منها تفاديًا من الحرج الذي تعرض له، ولكنها أبت إلا أن تتابعه لتثأر لنفسها منه ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ [يوسف: ٢٥].

فكان في ذلك خلاصه.. فهذا معنى.

٢ ـ وقيل المراد بهم بها خطرات حديث النفس الذي تركه لله فانقلب في حقه حسنة، كما في الحديث يقول الله تعالى: **«إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها**

حسنة فإنما تركها من أجلي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها»(١) وليس الهم كالعزم، وليس العزم كالفعل.

٣ـ أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا: أي ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها، كقولك: قد كنت هلكت لولا أن تداركته. وقوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

وقد اختلف النحويون في تقديم الجواب، ورأينا أنه إذا دار الأمر بين أن يكون جوابًا محذوفًا وبين أن يكون متقدمًا عليها، فلا شك أن التقديم أولى من الحذف.

فَهَمَّه عليه السلام امتنع لوجود البرهان عنده وهو حرصه على الطاعة واستمساكه بآداب آبائه وأخلاقهم الزكية الطاهرة وأن قوله (وهم بها) لا يصلح جوابًا لأن (لولا) لها الصدارة، ولأن (لولا) حرف امتناع لوجود، امتنع الهم لوجود البرهان، كما امتنع إبداء أم موسى ما في نفسها على ابنها لوجود «ربطنا على قلبها». والجواب محذوف تقدم دليله على لولا.

٤ـ وكيف يقع الهم من يوسف عليه السلام وهو النبي المعصوم، فيجب أن ننظر عمن نتكلم. وكيف يقال: هَمَّ يوسف عليه السلام وقد شهد الله تعالى ببراءته بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وشهد الشيطان ببراءته بقوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

وشهد ببراءته الشاهد من أهل امرأة العزيز إذ قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٦-٢٩].

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٧٥٠١ ـ ومسلم ١٢٨.

وشهد ببراءته النسوة اللاتي قطعن أيديهن بقولهن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١].

وشهدت ببراءته زوجة العزيز بقولها: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

وشهد لنفسه: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وقال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦].

وشهد له الملك بعد معرفة الحقيقة فقال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

فالذي يريد أن يتهم يوسف بالهم عليه أن يختار أن يكون من حزب الله أو من حزب الشيطان وكلاهما شهد ببراءة يوسف، فلا مفر له من الإقرار بالحق على أي حال وهو براءة يوسف عليه السلام[1].

(٥) موسى عليه السلام:

إذ قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥ - ١٦].

والشبهة تمثلت في أن موسى عليه السلام قتل نفساً بغير حق.

والجواب على ذلك:

١ ـ أن موسى لم يقتل، وإنما أراد أن يفض النزاع، فوكز المعتدي وكزة كانت القاضية عليه، فندم على فعلته وعدها من عمل الشيطان واستغفر ربه عما ارتكب

---

(١) انظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم ص (١٦١ ، ١٦٢)، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، أحمد السيد الكومي، محمد أحمد القاسم ص١٣٨ ـ ١٤٠، قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار ص١٥٨ ـ ١٦١، العقيدة الإسلامية ص١٦٣ ـ ١٦٤.

وتضرع إليه أن يتوب عليه وألا يجعله مساعداً للمجرمين، فغفر له وتاب عليه.

* والوكز في اللغة هو الضرب بجمع الكف، فقد وكزه موسى ولم يرد قتله، هذا مع العلم بأن موسى لم يكن نبيًا ولا رسولاً حين وكز خصمه. فهو من جنس القتل الخطأ.

٢ ـ أن الذي قتله موسى لم يكن مؤمنًا بل كان كافراً مشركًا بالله العظيم ولكفره كان مستحقًا للقتل.

(٦) داود عليه السلام:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ** ﴾ [ص: ٢١ـ٢٥].

وهذه القصة ليس فيها ما يدل على أن داود عليه السلام قد عصى ربه بارتكاب ما ينافي العصمة وكل ما يمكن أن يقال في هذا: إنه قضى بين الخصمين بعد أن سمع من أحدهما وقبل أن يسمع من الآخر، والتعجيل بالحكم قبل الاستماع إلى الطرفين يعتبر في نظر القضاء مخالفة، ولا سيما إذا كان القاضي نبيًا كداود عليه السلام، ممن أوتوا الحكمة وفصل الخطاب.

ويمكن أن يقال أيضًا إنه خاف من تسور الخصمين المحراب ودخولهما عليه بغتة وهو بين يدي الله، خاف أن يقتلاه كما كانت عادة بني إسرائيل من قتلهم الأنبياء، فكان هذا الخوف وهو في المحراب وماثل بين يدي الله، مما لا يليق بمكانته وعظيم قدرته وحسن صلته بالله، مالك ناصية كل شيء.

وسواء أكان ما ينسب إلى داود عليه السلام من العجلة في الحكم أو من الخوف من القتل، فقد ظن أنه مختبر بما وقع له، فاستغفر ربه، وخر راكعًا منيبًا إلى الله راجعًا إليه.

ولا يمكن أن تتضمن القصة التي ذكرت في القرآن معنى آخر وراء ذلك مما ينتقص من قدر نبي عظيم.

وما ذكر من أن المقصود بالنعجة هي المرأة، وأن داود اغتصب زوجة أحد قواده بحيلة احتالها عليه، فهو من الإسرائيليات المكذوبة، ومن الدخيل الذي يتنافى مع عظمة الرسالة، وكمال النبوة وشرف الدعوة التي انتدب الله لها خيار خلقه وصفوة عباده[1].

(٧) سليمان عليه السلام:

يقول الله سبحانه وتعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** ﴾ [ص: ٣٤، ٣٥].

والشهبة مأخوذة من الإسرائيليات التي تزعم أن سليمان عليه السلام نزع خاتمه الذي أخذه الشيطان وتمثل به وأخذ يحكم الناس على أنه سليمان، حتى مكنه الله عز وجل منه، فتاب وأناب.

والحق يقال: إن هذا كله أكاذيب وتلفيقات وإسرائيليات، إذ كيف يجوز للشيطان أن يتمثل برسول الله «سيلمان عليه السلام»، فأي ثقة بالشرائع تبقى بعد هذا، وكيف يسلط الله الشيطان على نساء نبيه سليمان، وهو أكرم على الله من ذلك؟

وأي ملك أو نبوة يتوقف أمرها على خاتم يدومان بدوامه، ويزولان بزواله؟ وما عهدنا في التاريخ البشري شيئًا من ذلك.

---

(١) العقائد الإسلامية ص (١٦٥، ١٦٦)، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ص (١٤١، ١٤٣،

وإذا كان خاتم سليمان عليه السلام بهذه المثابة، فكيف يغفل الله شأنه في كتابه الشاهد على الكتب السماوية ولم يذكره بكلمة؟ وهل غَيَّرَ الله سبحانه خلقة سليمان في لحظة حتى أنكرته أعرف الناس به وهي زوجه؟

الحق أن نسج القصة مهلهل لا يصمد أمام النقد وأن آثار الكذب والاختلاق بادية عليها. وأما التفسير الصحيح لمعنى الفتنة في الآية الكريمة، كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: قال: «قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تحمل كل امرأة فارسًا يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه ـ يعني قرينه من الملائكة ـ قل: إن شاء الله، فلم يقل؛ ولم تحمل واحدة منهن شيئًا، إلا واحدة جاءت بولد ساقط إحدى شقيه، فقال النبي ﷺ: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله أجمعين»(١).

فهذا هو المتعين في تفسير الآية، وخير ما يفسر به كلام الله هو ما صح عن رسول الله، وقد بينت بعض الروايات: أن الترك كان نسيانًا، والمراد بصاحبه: الملك كما جاء في بعضها(٢).

(٨) محمد ﷺ:

وقد جاء في القرآن الكريم:

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ [محمد: ١٩].

وكذلك: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح: ١ ـ ٣].

وظاهر الآية الأولى يوهم بأن للرسول ﷺ ذنبًا، وأن عليه أن يستغفر الله.

وظاهر الآية الثانية يفيد بأن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٤٢٤ ـ ومسلم ١٦٥٤.

(٢) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير د. محمد أبو شهبة (ص٣٧٧ ـ ٣٨٥) بتصرف.

والمعروف من سيرة رسول الله ﷺ أنه معصوم قبل البعثة وبعدها، فقد عصمه الله من عبث الطفولة ولهو الشباب، فلم يله كما كان يلهو غيره، لأنه أعد لحمل رسالة الهدى والنور، وقد أشار إلى هذا فيما حدث به عن نفسه، فقال: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمني الله برسالته، قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة، لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب، فقال: أفعل فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة، سمعت عزفًا، فقلت: ما هذا؟ فقالوا عرس فلان بفلانة، فجلست أسمع، فضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا حر الشمس فعدت إلى صاحبي، فسألني فأخبرته، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابني مثل أول ليلة، ثم ما هممت بسوء»(١).

وكذلك كان صلوات الله وسلامه عليه، مدة حياته لا يخطر السوء على قلبه، وإذا كان ذلك كذلك فما معنى الذنب الذي أمر أن يستغفر منه، والذي قد غفر له ما تقدم منه وما تأخر؟ مما لا جدال فيه أن الرسول ﷺ كانت تصدر عنه بعض التصرفات التي لم يوح إليه شيء بخصوصها، بل كان أمرها متروكًا إلى اجتهاده الخاص، فكان في بعض الأحيان يؤديه اجتهاده إلى ما هو حسن متجاوزًا ما هو أحسن منه، فاعتبر وقوفه عند الرأي الحسن وعدم إصابته ما هو أحسن منه ذنبًا بالنسبة إليه وبالإضافة إلى مكانته من العلم والعقل والفقه.

وقد ذكر القرآن أمثلة لذلك:

(أ) فمنها اجتهاده في أسرى بدر، وقبوله الفداء، وقد عتب الله عليه عتبًا أبكاه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٨].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٦٢٧٢ - والحاكم في المستدرك ٧٦١٩ - والطبري في تاريخه وغيرهم، وضعفه الألباني في تخريجه لكتاب فقه السيرة للغزالي.

أي لولا أن كتاب الله وحكمه سبق بعدم مؤاخذة المجتهد على اجتهاده لعاقبكم بالعذاب العظيم على قبول الفداء وعدم الإثخان في الأرض.

ولما نزلت هذه الآية بكى رسول الله ﷺ وبكى معه أبو بكر بكاءً شديداً، وقال: «**لو نزل عذاب من السماء ما نجا غير عمر**»(١) ففي هذه الحادثة لم يكن من الرسول إلا الاجتهاد في قضية لم يوح إليه فيها بشيء ولم يخطئ في حكمه فيها، لأن الرسول ﷺ لا يقر على خطأ وإنما عدل عما هو أحسن إلى ما هو حسن(٢).

(ب) ومنها: أنه قبل أعذار المتخلفين عن الغزو دون تمحيص هذه الأعذار، ليتبين له من هو صادق ممن هو كاذب، قال تعالى: ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ**﴾ [التوبة: ٤٣].

فهذه ليست ذنبًا في ذاتها، ولكنه اجتهاد من النبي ﷺ ولا تعدو إلا تكون من باب خلاف الأولى في أمر لا نص فيه، وقد كان من باب التدبير في الحرب.

وأما قوله: «**عفا الله عنك**» فليس عن ذنب صدر منه، وإنما هو التلطف من الله في الخطاب مع حبيبه ﷺ وهذا كما لو قلت: أنت يرحمك الله، واسمع كلامي غفر الله لك، وإن لم يكن هناك ذنب البتة(٣).

(جـ) ومن ذلك: عتاب الله له في إخفائه أمر زواجه بزينب بنت جحش بعد طلاق «متبناه» زيد بن حارثة لها - وكان الله قد أمره بذلك - ليبطل تقليداً من تقاليد الجاهلية، إذ كانت هذه التقاليد تقضي بتحريم زواج زوجة الابن المتبنى مثل تحريم الزواج بزوجة الابن من النسب، فكان الرسول ﷺ يجد حرجاً مثل أي إنسان عندما يتحرج من مخالفة التقاليد والخروج على العادات.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير، وإسناده ضعيف للانقطاع حيث يرويه محمد بن إسحاق وهو من صغار التابعين عن النبي ﷺ.

(٢) العقائد الإسلامية ص (١٦٧ - ١٦٩).

(٣) التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ص (١٦٠ - ١٦١).

وقد رفع الله عنه الحرج بعد العتب اليسير: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٧ - ٣٨].

وقد نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب ـ عمة رسول الله ﷺ ـ وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجها «زيد بن حارثة» مولاه، فكرهت ذلك، ثم رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها إياه، ثم أعلم الله ـ عز وجل ـ نبيه بعد، أنها من أزواجه، فكان يستحي أن يأمر بطلاقها، وكان لا يزال بين زيد وزينب ما يكون بين الناس، فأمره رسول الله أن يمسك عليه زوجه، وأن يتقي الله، وكان يخشى أن يعيب عليه الناس، ويقولوا: تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبنى زيداً، وهذا هو السبب الصحيح[١].

وما قيل غير ذلك فهو محض اختلاق، كما زعمته الإسرائيليات بأن النبي ﷺ رأى زينب وهي نائمة، شبه عارية، فوقع حبها في قلبه، وتمناها، ولكنه أخفى ذلك عن الناس، ويأتيه زيد، يشكو أمر زوجته، فيقول له: أمسك عليك زوجك واتق الله، في الوقت الذي كان يخفي حبها، مع أن الله سيظهره، وأن لو فارقها زيد تزوجها.

فكل هذا من الكذب الصراح والباطل الواضح، إذ كيف يليق هذا بنبي؟ وهو الذي كان يرى «زينب» وهي شابة، وربيت على عينيه، وهو الذي زوجها لمولاه «زيد» وكرر الطلب حتى استجيب له، فكيف يقال: فلما شاهدها وقع حبها في قلبه؟!! ولو كان ﷺ صاحب رغبة لأشبعها في ميعة الصبا، وشرخ الشباب أيام أن كان الغيد الكواعب من بنات الأشراف تشرئب أعناقهن إلى أن يكن حليلات له..[٢].

---

(١) أخرجه البخاري مختصراً (٧٤٢٠) وأخرج القصة كاملة الطبري وابن أبي حاتم في التفسير.

(٢) انظر بتوسع الإسرائيليات في التفسير ص (٤٥٥ ـ ٤٦٣).

(د) ومما يدخل في هذا النطاق: قول الله سبحانه: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ④ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس: ١ - ١٠].

فهذا عتبٌ من الله لرسوله حين طمع في إسلام بعض صناديد قريش، فأقبل عليهم يدعوهم إلى الله، وهم ينصتون له، ويقبلون عليه.

وفي هذه الأثناء حضر عبد الله بن أم مكتوم، وأخذ يقاطع الرسول ﷺ، ويقول له: علمني مما علمك الله، ويكرر ذلك، فكان الرسول ﷺ يضيق بهذه المقاطعة، ويعبس من الضيق مع أن الرجل أعمى لا يبصر هذا العبوس، ومع ذلك عاتبه الله فيه، فكان كلما لقيه بعد يقول له: أهلاً بمن عاتبني فيه ربي[1].

(هـ) ومن هذا ما روي أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، قرأ قول الله سبحانه: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ⑲ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠].

تلك الغرانيق[2] العلا وإن شفاعتهن لترتجى.

فهذا كذب محض وافتراء أحقر من أن يناقش، وليس فيه صلة بين هذه الأكذوبة وبين قول الله سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٢].

فإن الآية تقرر أنه ما من نبي ولا رسول تمنى هداية قومه، واستجابتهم لدعوته إلا جاء الشيطان واضعًا أمامه العقبات وميئسًا له من الوصول إلى الهدف الذي يستهدفه إلا أن الله سبحانه يعجل بإزالة ما يلقي الشيطان من وسوسة تيئسه ويحيي في نفسه الأمل والرجاء.

---

(١) العقائد الإسلامية (١٦٩ - ١٧٠) بتصرف.

(٢) الغرانيق: جمع غرنوق: وهو اسم لطائر مائي أسود أو أبيض، ومن معانيه: الشاب الأبيض الجميل، ويطلق على غير ذلك. «راجع قاموس معجم ياقوت».

وفي ذلك تمحيص لأهل الحق، وفتنة لضعاف الإيمان، فالذين أوتوا العلم يعلمون أنه الحق من ربهم، وتخبت له قلوبهم.

كما يقال: كيف يجوز أن يلقي الشيطان هذه الكلمات التي فيها مدح للأوثان، وقد جاءت السورة بذمها وأنكرت على عابديها، وجعلتها أسماء لا مسمى لها، وما التمسك بها إلا أوهام وظنون، فلو أن القصة صحيحة لما كان هناك تناسب بين ما قبلها وما بعدها ولكان النظم مفككًا، والكلام متخاذلاً، وكيف يقع مدح بين ذمين؟ بل كيف يجوز هذا ممن كمل عقله على كل العقول؟، وكيف يكون للشيطان على الرسول سبيل أو سلطان؟ وهو مخالف لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

وأي شخص أحق بهذه العبودية من الأنبياء، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

فكيف بالنبي ﷺ؟ فأي بشر أصدق إيمانًا وأقوى توكلاً من رسول الله؟! وقد صدق الشيطان ذلك كما حكاه الله تعالى عنه بقوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

بفتح اللام وكسرها، ومن أحق من الأنبياء بالاصطفاء أو من أشد إخلاصًا منهم؟ وكيف، وقد كان للرسول ﷺ شيطان فأسلم، فصار لا يأمره إلا بخير؟!!(١) وكيف يصح أن يزيد الرسول ﷺ في القرآن عمدًا ما ليس منه، وكذا سهوًا إن كان مغايرًا؟ وكيف يتفق هذا مع التوحيد الذي جاء به؟ ومع العصمة التي عصمه الله بها؟. وهل امتدح رسول الله ﷺ الأصنام في الجاهلية حتى يمتدحها في الإسلام؟ أو ذكرها بخير أبدًا؟ وكيف وهو الكفر البواح؟!!

ولو صح ذلك لذهبت الثقة بالأنبياء، ولوجد المارقون سبيلاً للتشكيك في الدين!! وكيف يستدل بأحاديث لم يصل واحد منها إلى درجة الصحة في مثل هذا الأمر الذي هو جد خطير؟ وكيف لا، ولم يتفق حديث مع الآخر في عرض

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨١٤.

القصة، وقد جاءت مهلهلة متداعية، لا يثبت منها شيء أمام البحث والتحقيق هذا ولم يثبت عن العرب أنهم وصفوا آلهتهم بالغرانيق لا في نظمهم ولا في خطبهم، ولم ينقل عن أحد: أن ذلك الوصف كان جاريًا على ألسنتهم. بل وما ذكر في اللغة من معانيها «الغرانيق» لا يلائم معنى الإلهية والأصنام، حتى يطلق عليها في فصيح الكلام الذي يعرض على أمراء الفصاحة والبيان، ولا يجوز أن يكون هذا من قبيل المجاز، بتشبيه الأصنام والآلهة بالغرانيق، لأن الذوق العربي يأبى ذلك.

فالقصة لم تصح عقلاً ولا نقلاً، ولا من وجه من الوجوه(١).

هذا هو ما نسب إلى رسل الله وأنبيائه، وهو لم يخرج عن كونه هنات هينات، لا تصل لدرجة المعصية ولا تتنافى مع العصمة ولا تنقص من أقدارهم السامية، أو تنال من مكانتهم العالية ومنزلتهم الرفيعة.

ولذلك وجب الإيمان بعصمة الأنبياء والرسل، مخالفين بذلك اليهود والنصارى الذين أبوا إلا أن يجرحوا كثيرًا من الأنبياء والرسل، وينسبوا إليهم ما نزههم الله عنه وصانهم منه، كما ورد في كتبهم المحرفة، وهي تنسب الشرك والكبائر لهؤلاء الأنبياء والرسل، فاعجب!!

والخلاصة: وجوب الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام.

فالإيمان بالرسل ضروري لا يتوقف على نظر ولا استدلال بالنسبة إلى المؤمنين بالله تعالى، لأن الله تعالى هو الذي نبأهم وأرسلهم وأخبر عنهم، وأمر بالإيمان بهم وتصديقهم، والإيمان بالله تعالى مستلزم للإيمان بكل ما أمر الله بالإيمان به، من الملائكة والكتب والرسل والبعث والجزاء، والقضاء والقدر، وبكل غيب أمر الله تعالى بالإيمان به، فيكفي المؤمن دليلاً أن يبلغه خبر الله، وأمره بالإيمان بالرسل، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

---

(١) راجع بتوسع الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (ص ٤٤٢ - ٤٥٤).

ومن ثم فنحن نؤمن بجميع الأنبياء والرسل إجمالاً وتفصيلاً، كما قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٦].

فوجب الإيمان بجميعهم تفصيلاً فيما فصل، وإجمالاً فيما أجمل[1] كما وجب الإيمان بأفضليتهم على سائر الخلق والاعتقاد بعصمتهم، على نحو ما ذكر.

هذا ونظراً لنسخ جميع شرائع الرسل عليهم السلام بشريعة خاتمهم محمد ﷺ، فإنه لم يبق هناك ما يلزم المؤمن إزاء أولئك الرسل سوى الإيمان بهم واعتقاد عصمتهم وكمالهم ووجوب تعظيمهم واحترامهم.

ولهذا نكتفي بما سبق من البحث في اعتقاد المؤمن بالرسل عليهم السلام لنخص بالبحث «النبي الخاتم» صاحب الشريعة المتممة لسائر الشرائع، والعامة لكل الناس، والذي يجب محبته على سائر الخلق، وإتباعه دون سائر الأنبياء، واتباع شريعته دون سائر الشرائع، مع الإيمان به، ونصرته ونصرة شريعته، كما أخذ الله العهد والميثاق على الأنبياء والرسل بذلك.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١].

ذلكم هو النبي الأمي، محمد رسول الله ﷺ، فمن هو محمد ﷺ.

---

(١) عقيدة المؤمن (ص ٢٧٠ - ٢٧٢) بتصرف.

النبي محمد ﷺ

ويجب علينا أن نؤمن بأن محـمداً بن عبد الله ﷺ نبي الله ورسـوله، وعبده وصفيه، اصطفاه الله تعالى من خير القبائل وأفضل البيوت، وجعله أعظمَ ولد آدم سيد الخلق أجمعين.

كمـا قال ﷺ: **«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعـيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**(١).

كما قال ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم ولا فخر»**(٢) وكذلك قال: **«أنا سيد الأولين والآخرين ولا فخر»**(٣).

فهـذه الأحاديث وغيـرها تدل بوضوح على أن مـحمداً بن عـبد الله ﷺ هو أفضل الخلق كلهم.

ثم اصطفاه ربه خـاتمًا للنبيين، فجاهد في الله حق جـهاده، وبلغ ما أنزل الله من ربه وشهد الله له بـذلك فوجب أن نؤمن بأنه خاتم الأنبيـاء، لما ورد في كتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ.

فأما القرآن، فقد قـال سبحانه وتعالى: ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وأما السنة فقد قال ﷺ: **«مثلي ومثل الأنبياء من قـبلي كمثل رجل بنى بنيانًا فـأحسنه وأجـمله إلا مـوضع لبنة في زاوية من زواياه فجـعل الناس يطوفـون به، ويعـجبـون له، ويقـولـون: هلا وضـعت هذه اللبنة قـال: فـأنا الـلبنة، وأنا خـاتم النبيين»**(٤).

---

(١) أخرجه مسلم ٢٢٧٦.
(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٤٧١٢ ـ ومسلم ١٩٤.
(٣) تقدم في الذي قبله.
(٤) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٥٣٥ ـ ومسلم ٢٢٨٦.

وقال أيضًا: «أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»(١).

ونعتقد اعتقادًا جازمًا أنه لا نبوة بعده ﷺ وأن كل من ادعاها بعده فهو كذاب، وقد قال رسول الله ﷺ: «إنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي»(٢) كما نعتقد أنه ﷺ قد اكتملت فيه صفات الأنبياء واتضحت فيه مؤهلات النبوة، فضلاً عن ذكره في الكتب السابقة، وشهادات كثير من علماء اليهود والنصارى بنبوته»(٣).

كذلك يجب أن نؤمن بأنه عليه الصلاة والسلام إمام المتقين: الذي يقتدى به في الخير كله، وأنه وحده الجدير بالاقتداء والتأسي به دون غيره، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

كما قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

كما نؤمن أنه عليه الصلاة والسلام حبيب الرحمن، وأن له أعلى مراتب محبة الله عز وجل وهي الخلة فقد قال رسول الله ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلاً»(٤).

كما يجب أن نعتقد أنه مبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى بالحق والهدى، فقد حكى الله سبحانه في القرآن قول الجن: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٥٣٢ ـ ومسلم ٢٣٥٤.

(٢) أخرجه أحمد ٢٢٤٤٨ ـ وأبو داود ٤٢٥٢ ـ وابن ماجه ٣٩٥٢ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (١٧٧٣): صحيح.

(٣) راجع بتوسع، فصل «وأشهد أن محمدًا رسول الله» جـ١ من حقيقة الإيمان.

(٤) أخرجه مسلم ٢٣٨٣.

كما قال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقال ﷺ: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»(١) ويجب علينا أن نقدم محبته على الوالد والولد والنفس.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(٢).

وعن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال عمر: لأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»(٣).

كذلك يجب علينا أن نؤمن بأن الله عز وجل قد أيده بالمعجزات الدالة بيقين على صدقه ﷺ في كل ما جاء به، وأن القرآن العظيم معجزته الباهرة، تحدى به العالمين، فعجزوا عن الإتيان بمثله، أو بمثل بعض منه، ولو بسورة واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

ونؤمن بأن الله عز وجل أيده بالمعجزات الحسية، المذكورة في الأحاديث الصحيحة، مثل: انشقاق القمر وتسليم الحجر عليه، وحنين الجذع إليه، وتسبيح

---

(١) أخرجه مسلم ٥٢٣.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ١٥ - ومسلم ٤٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٦٣٢.

الطعام بين يديه، ونبوع الماء من بين أصابعه، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل، وشهادة الشاة المشوية أمامه، وإظلال السحاب له قبل مبعثه، وما كان من حال أبي جهل وصخرته حين أراد أن يضربها على رأسه، وما كان من شاة أم معبد حين مسح بيده المباركة على ضرعها، ورميه التراب في وجوه المشركين يوم بدر، وإصابتهم به، وإخباره بالمغيبات التي وقعت كما أخبر عليه الصلاة والسلام، واستجابة الله سبحانه لدعائه، وعصمته من القتل، وغير ذلك مما ألفت فيه الكتب، وصنفت فيه المصنفات الواسعة(١).

وقد ورد في معجزاته الحسية أخبار كثيرة، بعضها متواتر، وكثير منها مشهور وهي في مجموعها تفيد العلم اليقيني بوقوع تلك المعجزات أولاً، وصدق هذا الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

كما نؤمن أن الله سبحانه قد أيده بالحجج البالغة، والأدلة الظاهرة، الماثلة في ذاته وصفاته وأخلاقه، فنؤمن أن الله عز وجل حباه خلقة وصورة، يحكم المتفرس فيها بأنها دالة على نبوته، وصدقه عليه الصلاة والسلام، وما أحسن قول «حسان بن ثابت» رضي الله عنه:

لو لم يكن فيه آيات مبينة　　　كانت بديهته تأتيك بالخبر

ونؤمن بأن الله سبحانه وتعالى حباه أخلاق القرآن كلها، مما يدل على صدقه وتأييد الله له، فما سمع أحد منه كذبًا لا في أمور الدين، ولا في أمور الدنيا، لا قبل البعثة ولا بعدها، ولو صدر عنه شيء من ذلك مرة واحدة لاجتهد أعداؤه في نشره وإظهاره، وما فعل فعلاً قبيحًا أو منفرًا، لا قبل النبوة ولا بعدها، وما فر عن أحد من أعدائه مهما عظم الخوف واشتد الأمر مثل يوم أحد ويوم الأحزاب وكان عظيم الرحمة والشفقة بأمته حتى خاطبه ربه تبارك وتعالى بالتخفيف من ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨].

(١) راجع بتوسع: كتب السيرة والحديث، وباب علامات النبوة وباب معجزات الرسول ﷺ من صحيح البخاري، وكتاب «دلائل النبوة» للإمام أبي نعيم الأصبهاني صاحب حلية الأولياء، وكتاب أعلام النبوة لأبي الحسن الماوردي، وكتاب «دلائل النبوة» للبيهقي، وكتاب «الوفا بأحوال المصطفى» لابن الجوزي.

وقال أيضًا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وكان في أعظم درجات الكرم والسخاء، وكان زاهدًا في الدنيا، قانعًا باليسير منها، لا يدخر شيئًا، وكان في غاية الفصاحة، وأعطي جوامع الكلم، وكان حليمًا صفوحًا، لا يغضب إلا لله تعالى، متواضعًا للمؤمنين، عابدًا لله، مجاهدًا في سبيله متوكلاً عليه، وقد ظل عليه صلوات الله وسلامه على صفاته وأخلاقه الربانية من أول عمره إلى آخره، ما غيّر ولا بدل وهذا ما أشار إليه تعالى في قوله ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

والمتكلف لا يمكنه الثبات على ذلك طوال عمره.

وقد كان في هذه الخصال وغيرها من الأخلاق الكريمة، في كل واحدة منها في الغاية القصوى من الكمال، ولا يتفق ذلك لأحد من الخلق، غير أولئك الذين عصمهم الله تعالى، فكان اجتماع هذه الصفات والأخلاق له عليه الصلاة والسلام من أعظم دلائل نبوته.

ولهذا فإنا نجد كثيرًا من العقلاء قد حكموا بصدقه عليه الصلاة والسلام، لما يعرفونه من أخلاقه، وصدقه، وسيرته العطرة، فهذه خديجة رضي الله عنها، لما كانت تعلم من النبي ﷺ أنه الصادق الأمين، فعندما أخبرها بما لقيه من الوحي، وقال لها: «إني قد خشيت على نفسي» قالت: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[1] وكذلك هرقل ملك الروم، فإن النبي ﷺ، لما كتب إليه كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام، طلب من كان في بلاده من العرب، وكان أبو سفيان في طائفة من قريش في تجارة إلى بلاد الشام، فاستدعاهم هرقل إلى مجلسه، وحوله عظماء الروم، ودعا بترجمانه، وشرع يسألهم عن أحوال النبي ﷺ، فيصل بعدما سمع منهم إلى نتيجة قاطعة وهي: أن ما سمع من أحوال محمد ﷺ وصفاته وسيرته فيهم لتدل على صدقه فيما جاء به، وأنه نبي مرسل[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٣.

(٢) الإيمان، أركانه حقيقته، د/ محمد نعيم ياسين ص٤٤ ـ ٥١ بتصرف.

ومن المفيد في هذا المقام أن نثبت هذا الحوار الذي دار بين هرقل، وأبي سفيان، كما نقله البخاري في صحيحه، لما فيه من العظة والعبرة، والحجج البالغة والبراهين القاطعة، والأدلة الساطعة على صدق النبي محمد ﷺ والأخلاق العظيمة، ومعجزاته الباهرة، فعن عبد الله بن عباس أخبر أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام، في المدة ـ يعني صلح الحديبية ـ التي كان رسول الله ﷺ هادن فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه.

فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبًا.

فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه ـ فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبًا لكذبت عنه ـ ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟

قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

قلت: لا.

فقال: فهل كان من آبائه من ملك؟

قلت: لا.

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟

قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟

قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟

قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال أبو سفيان: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة.

قال هرقل: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟

قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

قال: ماذا يأمركم؟

قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت: رجل يتأسى بقول من قبله، وسألتك: هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا: قلت: لو كان من آبائه ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك: أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك: هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك: بم يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين،

وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه»(١).

كذلك نقول ـ لنزيد الأمر توضيحًا من هو محمد ﷺ؟

«هو» محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن كعب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن معد بن عدنان، من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، هذا نسبه ﷺ.

أما نشأته، فقد وُلِدَ ﷺ، بدار أبي يوسف، ولدته أمه «آمنة بنت وهب بن زهرة بن عبد مناف بن قصي بن كلاب»، ولدته صبيحة يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول، ـ على الراجح ـ عام الفيل، الموافق لأغسطس عام ٥٧٠ ميلادية، ومات والده «عبد الله» وهو حمل في بطن أمه، وكفله جده عبد المطلب، وماتت والدته «آمنة» وهو ابن ست سنين وحضنته «أم أيمن» جارية أبيه، ومات جده، «عبد المطلب» فكفله عمه «أبو طالب»(٢).

ثم نشأ ﷺ نشأة الخير والطهر والشرف والكرامة، وضيء الطفولة، نقي الصبا، طهور الشباب، فلم يشب نقاء صباه ريبة، ولم تهتف بقدس شبابه نزغة هوى، ولا نزعة صبوة، فكانت دنياه كلها معبداً يطيب أصائله وعشاياه وأسحاره بذكر الله وحده، ونعلم أنه جَدَّ في الحياة راعي غنم، ثم تاجرًا، فكان في حياته المثل الأعلى في الجد القوي الصالح، والأمانة التي تعتصم بالتقوى، والحكمة الحكيمة في كل ما يصرف به شئون دنياه، والرعاية التي تقدس الحق والواجب لكل ما حمل من أمانة، وأنه كان في أطوار حياته الكامل في الأدب والخلق، وحكمة العقل، وسمو العاطفة، ونباغة الفكر، وقوة الإرادة، ومضاء العزيمة، وجلال الشرف، وعزة الكرامة، ونبل المروءة، وكرم الإيثار والنجدة، وسماحة

(١) أخرجه البخاري ٧.
(٢) عقيدة المؤمن ص٢٧٣ بتصرف.

النفس... فلم يغمر قلبه إلا حب الله، ولم تنزع به الإرادة إلا إلى الخير، ولا العاطفة إلا إلى السمو، ولا الفكر إلا فيما ينال به رضاء الله، جوادًا مسامحًا في سخائه وبره، محسنًا كل الإحسان في كل ما أنعم الله به عليه، فلم يغضب إلا للحق، ولم يجبن إلا عن الذنب، ولم يطمع إلا فيما هو عند الله ثم اصطفاه ربه خاتمًا للنبيين، فجاهد في الله حق جهاده، وبلغ كل ما نزل إليه من ربه، وشهد الله له بذلك.. ثم قبضه الله إليه بعد أن صارت كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فصلوات الله وسلامه عليه..[1].

هذا قبس نستهدي به من حياة محمد ﷺ، وإن كان اختصاراً مخلاً؛ ولكنه مقدمة للحديث عن نبوة ورسالة النبي ﷺ.

«رسول الله»

لقد عاش ﷺ حياته - كما ذكرنا - يتمتع بأفضل الأخلاق، وأطيب الشمائل، فلم يؤثر عليه ما يخل بمكارم الأخلاق قط، فلم يأت - ولا مرة - ما كان يأتيه بنو قومه أبدًا، فلم يسجد لصنم، ولم يشرب خمرًا، ولم يلعب قمارًا ولا ميسرًا، ولم يستقسم بزلم ولم يظلم أحدًا في عرض ولا مال ولا دم. لقد كان بشهادة أعدائه وخصومه مثاليًا في أخلاقه.. وناهيك بإجماع قريش على إضفاء لقب الأمين عليه، وهذا اللقب الذي لم يظفر به أحد في ديارها أبدًا، لقد كان ﷺ أمينًا في سره وفي علنه، أمينًا في قوله وفي عمله، أمينًا في غيبه ومشهده، أمينًا في كل شيء، وعلى كل شيء.. حتى بلغ سن الأربعين من عمره - كما هي سنة الله في الأنبياء - نُبِيءَ محمد ﷺ إذ جاءه الحق، وهو بغار حراء - بعد أن كان قد حُبِبَ إليه الخلاء فيه مدة شهر رمضان - فجاءه جبريل وهو به، فضمه إلى صدره وأرسله ثلاثًا، وقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، وفي الرابعة قال: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق: ١ - ٥].

(١) هذه هي الصوفية ص ٩٤ - ٩٦

فذهب بها ﷺ إلى خديجة ـ زوجة الكريم ـ ترجف بوادره وهو خائف على نفسه، فَهدَّأتْ ـ رضي الله عنها ـ من روعه، وسكَّنَتْ من اضطراب نفسه، وهي تقول له: كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ ـ الضعيف ـ وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.. وانطلقت به رضي الله عنها إلى ورقة بن نوفل ـ ابن عمها ـ وكان امرءًا قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب بالعبرانية، فيكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن العم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، يا ليتني أكون حيًّا، إذ يخرجك قومك، فقال النبي ﷺ: أومخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا.

ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي، وبعد فترة ـ فتر فيها الوحي ـ تبدى له جبريل عليه السلام في صورته الملائكية، وقد سد الأفق، وله ستمائة جناح، ثم أخذ يدنو منه ويتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه ما أوحى. ونزل عليه قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**﴾ [المدثر: ١ ـ ٥] فأرسل بها ﷺ.

وبدأت الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله وكتابه ولقائه، وتوحيده تعالى في عبادته، بدأها فردية، وتلقى هو ومن آمن به صنوفًا من الأذى، وأنواعًا من الاضطهاد، مما اضطر بعض أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة، ثم إلى المدينة النبوية، كما حوصر هو وأسرته الشريفة، والمؤمنون من بني هاشم، حوصروا في شعب أبي طالب ثلاث سنوات، جاعوا فيها جوعًا أكلوا معه ورق الشجر، مع كامل الأسف..[(١)].

وفي هذه الأثناء توفيت أم المؤمنين خديجة، زوجه المفضلة ـ رضي الله عنها ـ كما توفي عمه أبو طالب الذي لم يأل جهدًا يدافع عن رسول الله ﷺ ويحميه من

---

(١) راجع الحديث في البخاري ٤٢٣٠ ومسلم ٢٥٠٢ .

كيد أعدائه له، فكان ذلك العام يدعى عام الحزن ـ كما قيل.

وفي نهاية السنة العاشرة من بعثته ﷺ، ومطلع الحادية عشرة، عرج به ﷺ إلى الملكوت الأعلى حتى بلغ سدرة المنتهى عند جنة المأوى، وتجاوزها إلى مقام سمي، سمع عنده صريف الأقلام، وناجاه ربه وناداه، وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس. (١).

وفي هذه الأثناء عقد ﷺ اتفاقية مع بعض رجالات الأوس والخزرج، تنص على أن يحمي أولئك الرجال من يهاجر إليهم من المؤمنين مما يحمون به أنفسهم وأموالهم، وأن لهم عند الله تعالى الجنة، وسميت هذه الاتفاقية بيعة العقبة الأولى، وتمت عندها أخرى مثلها، فسميت بيعة العقبة الثانية(٢).

وهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة بعد أن كثر بها الإسلام والمسلمون، وكانت قبل ذلك تسمى «يثرب» فصارت بحلول النبي فيها تسمى «المدينة النبوية» والعامة تسميها «المدينة المنورة» وفيها شرعت كل الأحكام والقوانين الجنائية والمدنية، وبها الدولة الإسلامية الأولى في تاريخ الإسلام، ومن المدينة انطلق المسلمون ينشرون راية العدل والحق في ربوع الأرض، ويخرجون الناس من ظلمات الكفر إلى أنوار الإيمان، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور السلطان إلى عدل الإسلام ـ كما قال ربعي بن عامر، لكسرى ملك الفرس، أو لرستم قائد جيشه.

ولم يُقْبَض رسول الله ﷺ حتى انتظم الإسلام كامل شبه جزيرة العرب، وحتى تم التشريع الإسلامي أوفر وأقوى ما يكون، ونزل في ذلك قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقبض رسول الله ﷺ يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، بعد مضي عشر

(١) متفق عليه (البخاري ٣٤٩ ومسلم ١٦٣).
(٢) متفق عليه (البخاري ١٨ ومسلم ١٧٠٩).

سنوات وشهرين وبعض الليالي على هجرته إلى المدينة، والتي كانت مبدأ التاريخ الإسلامي، ولم يلتحق بالرفيق الأعلى حتى لم يترك خيراً قط إلا دل أمة الإسلام عليه، ولا شرا إلا حذرها منه...

فصلوات الله عليه إلى يوم أن نسعد برؤيته وشفاعته..

هذه نظرة سريعة، ألقيناها ـ متبركين بها ـ على تاريخ محمد رسول الله ﷺ بمناسبة الحديث عن نبوته، فكانت مثل ترجمة قصيرة، نقدمها بين يدي بحث دلائل نبوته، وعموم رسالته، وتقرير أن سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة رهن ذلك ومتوقفة عليه[١].

مؤهلاته للنبوة ـ كأدلة عقلية:

الذي ينبغي أن يعلم هنا أن النبوة لا تأتي عن طريق الكسب والاجتهاد أبداً فلو انقطع المرء إلى العبادة كلية، وتخلى عن سائر الحظوظ النفسية، وعن كل الرغبات، والشهوات، وسائر متع الحياة ولذائذها لم يؤهله ذلك لأن يكون نبيا أو رسولا بحال من الأحوال.

إن النبوة هبة خاصة، يختص بها الله واهبها من أهله لها من عباده المؤمنين، بيد أن الله يهيئ لها بإعداد خاص عبداً من عباده، فيحفظه من التلوث النفسي، والضلال العقلي، والفساد الخلقي، والانحراف الفطري، ويضفي عليه من الكمالات النفسية، والعقلية، والخلقية، ما يؤهله به لمقام النبوة الشريف، ومن المؤهلات للنبوة وتلقي الوحي الإلهي:

(١) المثالية:

ونعني بالمثالية ذلك الكمال البشري الذي يحوزه المرء المرشح لمقام النبوة، والذي لا يسمو إليه سواه من المرشحين لها من سائر الناس، ولقد حاز النبي محمد ﷺ كل ألوان المثالية، وأنواع الكمال البشري، وبدا فيه ذلك واضحًا، حتى لم يشاركه فيه غيره، أو يدانيه فيه سواه، سواء من الجانب الخلقي الذاتي، أو في

---

(١) عقيدة المؤمن ص ٢٧٤ - ٢٧٩ بتصرف

الجانب الخُلقي النفساني، إن أصحاب السير وجميع كتب في السيرة المحمدية مجمعون على أن محمداً بن عبد الله، النبي الأمي كان أكمل الناس ذاتًا، وأجملهم وجهًا، وأحسنهم قدًا واعتدالاً، حتى بلغ من الحسن والجمال كل مبلغ، وفاق كل وصف، وإن شئت فاقرأ في ذلك وصف البراد له، وقول أنس فيه، ووصف هند بن أبي هالة عن حليته، وقول «أم معبد» ساعة أن مر بها أثناء هجرته، وقل مع عائشة رضي الله عنها، وحسان رضي الله عنه.

خلقت مبرءاً من كل عيب　　كأنك خلقت كما تشاء

فأجمل منك لم ترقط عيني　　وأفضل منك لم تلد النساء

وإن كانت هذه إشارة عن الجانب الخلقي الذاتي لرسول الله ﷺ، وهو محض عطاء الله وهبته، ولا كسب فيه للإنسان، وقد أعطى منه ﷺ ما لم يعط غيره، حتى كان في جماله الذاتي مثلا عاليا لا يسامى فيه ولا يطاول أبداً.

فإنه في الجانب الخُلقي النفساني قد بلغ شأنا عظيما، وشأوا كبيرا - ومبلغا فاق كل وصف، سواء كان في رجاحة عقل، أو في شجاعة، أو في سياسة، أو في رحمة، أو في كرم، أو في عفو، وحلم، أو في عدل.. إلخ.

حتى صار مضرب المثل في ذلك كله، والناظر في سيرته العطرة ﷺ يدرك ذلك جيداً، ولو بنظرة سريعة[1].

اقرأ قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ماذا أقول في مثالية النبي ﷺ وقد عرف ذلك القاصي والداني، وشهد به العدو قبل الصديق، وكيف لا، وقد كان ﷺ قرآنًا يمشي بين الناس[2] واقعًا حيا وتطبيقًا عمليًا، فلماذا لا يكون كذلك.

(٢) شرف النسب:

(١) راجع بتوسع: اللؤلؤ والمرجان، والبداية والنهاية، وسيرة ابن هشام، وفقه السيرة، وعقيدة المؤمن.

(٢) أخرجه مسلم بمعناه ٧٤٦.

بما أن عامل الوراثة له خصائصه وصفاته التي لا تنكر، وأنها تنتقل - بهذه السنة الإلهية - من الأصل الوالد إلى الفرع المولود، ومن هنا كان الأنبياء يبعثون في أشراف أقوامهم، والمراد من الشرف بالمعنى العام الترفع عن الدنايا الخليقة، والتنزع عما يخل بالمروءات، ويهبط بالقيم البشرية، من كل سلوك شائن منحرف، تكرهه الطباع البشرية السليمة، وتشمئز منه النفوس الكريمة..

وأن من ينظر بإنصاف في النسب النبوي الشريف يجده بحق أشرف نسب وأطيبه، وأطهره، وأزكاه، إنه لم يعرف التاريخ البشري نسبا كان أوضح وأنصع، ولا أطيب ولا أطهر من نسب النبي ﷺ، إذ كانت قريش بلا منازع ولا مدافع هي أشرف القبائل العربية، وبنو هاشم كانوا أشرف بيوت قريش، أيضا بلا منازع، والأنبياء يبعثون دائما في أشراف أقوامهم، هذه كلمة قالها «هرقل» ملك الروم وعظيمها (١) . ولنستمع إلى رسول الله ﷺ نفسه وهو يقرر هذه الحقيقة، فيقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم » (٢) فكان ﷺ وسلم خيارا من خيار من خيار. (٣)

(٣) عامل الزمن:

إن المراد من عامل الزمن هو وجود مقتضيات في الزمن المعين، تحتم بعثة نبي، وإرسال رسول، وتقتضيه، ومن ذلك وجود فراغ روحي تسبب عنه فساد اجتماعي كبير، فأصبحت الحال تتطلب نبيا مصلحا، يرد للحياة اعتبارها، وللإنسان قيمته، وذلك كالفراغ الذي كان قبل إرسال موسى وأخيه هارون عليهما السلام، وكذلك كان قبل نبوة عيسى عليه السلام، وكالذي كان قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام، ورسالته.. بل كان واضحا في تلك الفترة أكثر من غيرها، إذ كان الجميع يتطلعون إلى تلك النبوة، ويحسون بقربها، بحيث تطلع كثير من

---

(١) متفق عليه (البخارى ٧، ومسلم ١٧٧٣).

(٢) اخرجه مسلم ٢٢٧٦ .

(٣) عقيدة المؤمن: ص ٢٦٠ ، ٢٩٢ بتصرف

أهل الكتاب لهـا، بل صرحوا بقـربها وجاهروا به، وانتظروه. لذا بادر الكثير منهم بالإيمان بنبوة مـحمد ﷺ ورسـالته، ولم يترددوا في ذلك بمجـرد ظهورها، وذلك كالنجاشي من النصارى، وعبد الله بن سلام من اليـهود وغيرهما من أحبار اليـهود ورهبـان النصارى، ذلك لما شـاهدوا من الفسـاد العام الذي انتظم العـالم بأسره، وبخاصـة جزيرة العرب، وبلاد الروم وفارس، وهي تمثل الـعالم الإنساني تقريبا في ذلك الوقت.

ومجمل القول أن وجود فساد عام في الأرض من شأنه أن تتطلع معه النفوس إلى مصلح يصلح الله به البلاد والعباد، وذلك لما غرز الله تعالى في الفطر البشرية من الشعور بالرحمة الإلهية وقربها كلمـا عم الشر، وعظم الفساد، شعور كشعور العطشان بالحاجة إلى الماء، وتطلعه اليه، وأن الحال الذي كان يعيشه العالم يومئذ، قبل بعثـة النبي ﷺ، ظلاما دامسا، وشرا مـستشريا، وفسادا طاغـيا، وهي حال تدعو بل تصرح بذي نبوة إلهيـة، ورسالة ربانية، يصلح الله به، وعلى يديه فساد البلاد والعباد، حتى كان المؤهل لهذه النبوة هو محمد بن عبد الله ﷺ(١).

فهذه مؤهلات النبوة كلها قد توفرت لمحمد رسول الله ﷺ، وبصورة لا أكبر منها ولا أوضح، فهل يصح في العقول نفي نبـوته، أو جحود رسالته؟ اللهم لا، إلا أن يكون ذلك من جاهل مـتعصب، أو من مـغرض ذي طمع فاسد، يجـحد ويعاند..

وإن كان هذا غـيضا من فـيض، من مؤهلاته، ﷺ، فتلك إشـارات أخرى لصفاته ﷺ، فلقد عُرِفَ الأنبياءُ بصفـات كمال تؤهلهم لحمل رسالتهم، لا تُفْقَدُ في أحدهم أبدا، إذ هي واجبة لكل من يحمـل رسالة الله تعالى إلى عباده، وهي - على سبيل الإجمـال - كل كمال بشري يليق بهؤلاء الصفـوة من البشر، ومنها على سبيل التفصيل:

---

(١) عقيدة المؤمن ص ٢٦٠، ٢٦١، ٢٧٩، ٢٨٠ بتصرف.

(١) صدق النية، والإرادة، صدق القول والعمل، بحيث يستحيل أن يتصف المؤهل للنبوة بضد الصدق وهو الكذب والنفاق أو الإهمال واللامبالاة، والمتتبع لسير الأنبياء يعرف هذه الحقيقة ويؤمن بها، والذي ينظرها في حياة النبي ﷺ يراها واضحة جلية، يعرفها القاصي والداني، ويؤمن بها العدو قبل الصديق.

(٢) الأمانة:

الأمانة في كل شيء، في القول والعمل، في الحكم والقضاء، في الحديث والنقل، في الرواية والتبليغ، في السر والعلن معا، إذ يستحيل أن يتصفوا بضدها وهي الخيانة، بحال من الأحوال، فلا خيانة فيهم أبدا، ولو في أقل الأشياء وأتفهها، ومتى وجد شيء من الخيانة، فلا نبوة ولا أهلية لها أبدا.

والناظر في حياة النبي ﷺ يجد أن المشركين في مكة أطلقوا عليه منذ صغر سنه ونعومة أظافره «الصادق. الأمين» .. ﷺ، لقد بلغ من الأمانة مبلغا مع أعدائه لم يقل عن أمانته مع أصحابه وأتباعه ﷺ.

(٣) التبليغ:

والمراد منه أن يبلغ الرسول كل ما أمر بتبليغه، فلا يُخفِي منه شيئا، ولا يكتمه بحال من الأحوال، فلا تحمله رغبة ولا رهبة على أن يكتم بعضا مما أُوحي إليه، وأُمر بإبلاغه إلى الناس، والكتمان للوحي الإلهي يتعذر على المرسلين، ويستحيل في حقهم، ولا يتأتى لهم، لأن الله تعالى أهَّلهم للبلاغ عنه ما أراده لعباده من الهدى والخير، فمتى وجد الكتمان بطلت النبوة وانتفت الرسالة، ولذلك كان النبي ﷺ مضرب المثل في التبليغ عن ربه، مهما كانت الظروف والأحوال - مبلغا العتاب له قبل الثناء عليه، ممتثلا قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

(٤) الفطنة:

إن الفطنة ليست الفهم والذكاء فحسب، بل هي مع ذلك، رقة الشعور وصفاء الذهن، ورهافة الحس وصدقه، وسرعة البداهة، كانت واضحة جلية في النبي محمد ﷺ .. على حد قول حسان بن ثابت فيه:

لو لم يكن فيه آيات مبينة   كانت بديهته تأتيك بالخبر

إذن، الفطنة من المؤهلات لتلقي الوحي، والأمانة عليه، فالغباء، وبلادة الحس، وبطء الإدراك، تتنافى مع مقام النبوة وشرف التلقي عن الله تعالى.

كان هذا عن الصفات بعد المؤهلات، والبقية تأتي من الأدلة إن شاء الله تعالى.[١]

(أ) النبي محمد ﷺ في الكتب السابقة:

لقد ورد ذكر النبي ﷺ في التوراة والإنجيل، كما ذكر ربنا عز وجل: ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومن ذلك ما جاء في التوراة - في سفر التثنية- «جاء الرب من سيناء، وأشرق لنا من ساعير، واستعلن من جبال فاران، ومعه ألوف الأطهار»[٢]

فهذه شهادة صريحة من التوراة واضحة لمحمد ﷺ بنبوته ورسالته، إذ معنى هذا اللفظ: أن الله تعالى ناجى موسى وأوحى إليه بسيناء، وأرسل عيسى وأوحى إليه بساعير وهي من أرض الجبل المقدس، وبعث محمدا ﷺ رسولا معلنا «لا إله إلا الله» مستعلنا بها من مكة الواقعة بين جبال فاران، كجبل أبي قبيس وحراء وغيرهما من جبال مكة المحيطة بها..

هذا وقد جاء في التوراة نصوص كثيرة ذُكِرَ فيها النبي محمد ﷺ ..[٣]

وعن الإنجيل جاءت نصوص كثيرة تحدثنا عن النبي محمد ﷺ، على الرغم من تحريفه كالتوراة، ومن ذلك قول عيسى عليه السلام «إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزيا «فار قليط» آخر، ليمكث معكم إلى الأبد»[٤]

---

(١) عقيدة المومن - ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ بتصرف.
(٢) سفر التثنية، اصحاح ٣٣
(٣) راجع بتوسع: محمد ﷺ فى التوارة والإنجيل والقرآن، ابراهيم خليل.
(٤) إنجيل يوحنا، إصحاح ١٤ .

فالفار قليط، ترجمته، محمد أو أحمد، وبقاؤه معهم إلى الأبد هو بقاء دينه وكتابه وسنته، إذ هي محفوظة بحفظ الله، وباقية ببقاء هذه الحياة، وهذا معنى إلى الأبد في قوله «يبقى معكم إلى الأبد».. وكذلك «لكني أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن أنطلق، لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم المعزى «الفار قليط» ولكن إن ذهبت أرسلته إليكم»(١)

«فالفارقليط» هو محمد ﷺ، ولو لم يذهب عيسى عليه السلام برفع الله تعالى له، لما بعث محمد ﷺ إذ بعثة النبي محمد ﷺ كانت على فترة من الرسل، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩].

وأيضا: و «الفارقليط» روح القدس الذي يرسله الأب، باسمي هو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم بكل ما قلته لكم.(٢)

فالفارقليط روح القدس هو محمد ﷺ الذي أرسله الله إلى الناس كافة، ومن بينهم اليهود والنصارى، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٠].

فجاء في هذه الآية القرآنية لفظ الرسول معرفا بالألف واللام، وهي وإن دلت على تفخيم الرسول وتعظيمه في كماله، فإنها دالة على العهدية، فهي إشارة إلى ما في الكتابين، «التوراة والإنجيل»، من البشارة بالرسول محمد ﷺ، كما ذكرنا ونذكر.(٣)

---

(١) انجيل يوحنا، إصحاح ١٦ .

(٢) انجيل يوحنا، إصحاح ١٤ .

(٣) راجع بتوسع: إظهار الحق، (محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل والقرآن» ورسالتنا «التسامح والتعصب بين اليهودية والمسيحية والإسلام»

(ب) شهادة علماء أهل الكتاب:

كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

فقد وبخ الله العرب الكافرين على عدم إيمانهم برسالة محمد ﷺ مع وجود آية عظيمة تدل على صدق نبوته، وثبوت رسالته، وهي معرفة علماء بني إسرائيل وشهادتهم له بأنه نبي الله، وما جاء به هو من عند الله. كما قال تعالى أيضا: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٦، ١٤٧].

فقد أخبر الله تعالى في هذه الآية، أن الذين أوتوا الكتاب - التوراة والإنجيل- يعرفون نبوة محمد ﷺ، وصدقه فيها معرفة مثل معرفتهم لأولادهم، كما أخبر أن فريقا كبيرا منهم يكتمون الحق بعد معرفتهم له، ولذا لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ، بعد معرفتهم لها تمام المعرفة.. ونكتفي بذكر شهادة عبد الله بن سلام رضي الله عنه، عن غيرها من شهادات كثير من علماء اليهود وأحبارهم. فقد روى البخاري في صحيحه، من حديث أنس بن مالك «أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأتاه، فقال: إني أسألك عن ثلاث، لا يعلمهن إلا نبي، قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه؟ فقال ﷺ: أخبرني بهن آنفا جبريل، قال عبد الله بن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد، فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها. قال عبد الله بن سلام: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك. فجاءت اليهود ودخل «عبد الله» البيت، فقال رسول الله ﷺ: أي رجل فيكم «عبد الله بن سلام»؟ قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا، فقال رسول الله ﷺ: أفرأيتم إن أسلم عبد

الله؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، فقالوا: أشرنا وابن شرنا ووقعوا فيه..»(١)

وبعد، فإن شهادة عبد الله بن سلام هذه تعد من أكبر الشهادات، بعد شهادة الله ورسوله ﷺ لمحمد بالنبوة والرسالة، ولذا لم نذكر بعدها من شهادات علماء اليهود شهادة غيرها.. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٠].

أما علماء النصارى فإن لهم من الشهادات برسالة محمد ﷺ ونبوته، ما لا يسعه المقام، لذا فإنا نكتفي من كل ذلك بشهادة عظيمة، أقرها القرآن، وسجلها في صفحاته، ألا وهى: شهادة الملك الصالح «أصحمة النجاشي» إذ جاء فيه وفيمن آمن معه، قول الله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٥].

فقد أجمع علماء التفسير والأخبار والسير على أن هذه الآيات نزلت في النجاشي وأصحابه المؤمنين، فقولهم: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾، قولهم هذا يعد شهادة عظيمة بالإسلام ونبيه، وكتابه، وأمته، ولنستمع إلى شهادة النجاشي - رحمه الله تعالى - من خلال رده على كتاب رسول الله ﷺ، الذي رده، وهو في دار ملكه،

---

(١) أخرجه البخاري ٣٣٢٩.

وحاضرة بلاده، إذ جاء فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله، من النجاشي الأصحم بن أبحر، سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته، لا إلا إلا الله هو الذي هداني إلى الإسلام، فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ماذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقرينا ابن عمك «جعفر» وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وبعثت إليك يا نبي الله بأريحا بن الأصحم بن أبحر، فإنى لا أملك إلا نفسى وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله.»(١)

(جـ) شهادة بلايين من المسلمين:

إن إيمان بلايين البلايين من المسلمين الذين شهدوا لمحمد ﷺ بنبوته ورسالته وآمنوا به حق الإيمان، واتبعوا ما جاء به من الحق والهدى، وجاهدوا دونه، وبينهم العلماء، والحكماء، والصلحاء الصادقون الذين يفوق عددهم الحصر، ويتعذر الإحاطة بهم علما، لهو من أعظم الشهادات، وأقواها وأكثرها إقناعا للعقول، وجلبا للطمأنينة والسكون في نفوس المؤمنين بنبوة محمد ورسالته ﷺ .(٢)

(د) شهادة الحق عز وجل وملائكته:

إن شهادة الله عز وجل وملائكته للنبي ﷺ بالنبوة والرسالة لشهادة مغنية عن كل شهادة، قال تعالى : ﴿ **لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً** ﴾ [النساء: ١٦٦].

ولولا كزازة النفوس ورعونتها - أى قبحها وحمقها - وظلمات الجهل بالله تعالى التى تغشى كثيرا من قلوب الناس لما ذكرنا مع شهادة الله تعالى لمحمد ﷺ بالرسالة شهادة أبدا، ولكن نظرا لما ذكرنا أوردنا تلك الشهادات السابقة، وقفينا عليها بشهادة الله تعالى لتكون مسك الختام - التى لا يردها عاقل أبدا.

---

(١) البداية و النهاية جـ٣ ص٨٤: وجاء فى سنن أبى داود أن النجاشي قال : أشهد أنه رسول الله ﷺ وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم.

(٢) عقيدة المؤمن ص ٢٩٤ - ٢٩٩ بتصرف.

وشهادة الله تعالى تنقسم إلى قسمين: شهادة أخبار وشهادة معجزات. فشهادة الأخبار أى أخباره تعالى في كتابه عن وحيه، واصطفائه لرسوله وإرساله ونصرته إياه، وشهادة المعجزات هي ما أظهره الله تعالى على يد نبيه من خوارق العادات، إذ كل خارقة تقول بلسان حالها عن الله تعالى: صدق محمد عبدي ورسولي فيما أخبر عني من أني أرسلته وهو رسولي..

* ومن شهادة الأخبار، وما يلى:

قوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

كما قال: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [البقرة: ١١٩].

وكذلك: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ [النساء: ١٦٣].

أيضاً: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ [النساء: ١٧٠].

ومن شهادة المعجزات ما يلي:

(١) نزول القرآن الكريم عليه وحيا، أوحاه الله تعالى إليه، فإنه أكبر معجزة عرفها الوجود البشري، إذ العادة قاضية بأن أميا لم يقرأ ولم يكتب ولم يجلس بين يدي أستاذ، أو مرب ومعلم قط، قاضية باستحالة تكلمه بالعلوم والمعارف، ومعرفته لها، وتفوقه فيها فضلا عن أن يأتي بما لم يأت به غيره من كل معاصريه،

ومن يأتي بعدهم إلى انقراض الحياة ونهاية الكون . . فالقرآن الكريم قد حوى أعظم تشريع، واشتمل على قدر من العلوم الإلهية، وعلى أثبت الحقائق العلمية، كنظام الزوجية والقوانين الكونية كما تعرض لبدء الخليقة وذكر من قصص الماضين وأخبار السابقين الشيء العجيب، وأخبر بمغيبات عديدة، فكانت كما أخبر حرفيا، وبلا زيادة أو نقصان. .

هذا الكتاب يأتي به أمي يتحدى كل الخلق على الإتيان بمثله، أو بعشر سور من مثل سوره، أو سورة واحدة[1] فتعجز البشرية ومعها الجن كلهم وتطأطىء رأسها وتسكت عن المعارضة لأكبر معجزة أوتيها محمد ﷺ لتدل على صدق نبوته وثبوت رسالته، عرف هذا - فداه أبى وأمي - حين قال: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[2].

وهذه صورة التحدى قائمة إلى يوم القيامة تحويها آية واحدة من سورة البقرة هي قول تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

فقوله تعالى: «ولن تفعلوا» أى الإتيان بسورة قرآنية من أمى مثل محمد ﷺ في أميته، ولا من غيره كذلك، هذا التحدى وهو نفس الإتيان بسورة من أمى مثل محمد ﷺ في أميته وقد مضى عليه الآن ما يزيد على الألف والأربعمائة سنة، ولا يؤمل أبدا أن يأتى أحد، مهما كان، فيبطله بأن يأتى بسورة قرآنية ولو كانت كأقصر سورة، هيهات هيهات، إذ الله عز وجل يقول: «ولن تفعلوا» فما لم يكن هذا القرآن هو كتاب الله تعالى، وأنه نزل على رسول الله ﷺ ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

---

(١) راجع الآيات التى جاءت فى هذا التحدي
(٢) متفق عليه (البخارى ٤٩٨١، ومسلم ١٥٢).

فمن صاحب هذا الكتاب إذا لم يكن محمد ﷺ نبيا ورسولا ؟؟ هذا وليس القرآن الكريم هو المعجزة الوحيدة للنبي ﷺ، وإن كان أعظمها وأخلدها، فهو المعجزة المعنوية الباقية إلى يوم الدين، وهناك معجزات حسية أخرى للنبي ﷺ، شأنه في ذلك شأن بقية الأنبياء- عليهم السلام، فضلا عما فضل به عنهم، ومنها:

(٢) الإسراء به ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم العروج به إلى السماء السابعة حيث سدرة المنتهى عند جنة المأوى، فبلغ مستوى سمع فيه صريف الأقلام، وناداه ربه وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس.[١]

(٣) انشقاق القمر له ﷺ، حين طلبت قريش ذلك استدلالاً على نبوته ﷺ فانشق القمر، وكان فلقتين على جبل أبى قبيس، وأهل مكة كلهم يشاهدون ويعجبون وأثبتت هذه الحادثة في القرآن بقول الله تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ﴾ [الأحقاف: ١٠].

(٤) تسليم الشجر والحجر عليه، على مرأى من الناس ومسمع، وعشرات المرات.[٣]

(٥) تسبيح الطعام بين يديه ﷺ وأصحابه يسمعون، وهم عدد كبير من خيار البشر.[٤]

(٦) حنين الجذع إليه ﷺ ونطقه، وسماع مئات الرجال الأخيار له، وعدم سكوته إلى أن أتاه الرسول وهدهده كما تهدهد الأم طفلها، فسكت.[٥]

(٧) رده - ﷺ - عين أبي قتادة حيث خرجت حتى تدلت على وجنته بسبب ضربة أصابته يوم أحد، فردها ﷺ ومسح عليها فكانت أحسن منها قبل إصابتها.[٦]

---

(١) انظر أحاديث الاسراء والمعراج فى البخارى ومسلم

(٢) سورة القمر الآية : ١ ، والحديث فى الصحيحين (البخارى ٣٦٣٦ ومسلم، ٢٨٠٠).

(٣) أخرجه مسلم ٢٢٧٧ .

(٤) أخرجه البخارى ٣٥٧٩ .

(٥) أخرجه البخارى ٣٥٨٣ .

(٦) سيرة ابن هشام

(٨) فيضان الماء من بين أصابعه بالحديبيـة، ثم سقى وروى جيشا كاملا قوامه ألف وأربعمائة رجل وامرأة.[١]

(٩) تكثير الطعام يوم الخندق، حتى أطعم - بصاع من شعير وجَدْيٍ صغير - جيشا كاملا، تعداده ألف رجل أو يزيدون.[٢]

(١٠) إخباره بالمغيبـات الكثيرة، فكانت كما أخبر، وذكـره علامات الساعة، فكانت كما ذكـر، وهي - ولا شك- أنها من الكثرة بمكان[٣] ونذكر منـها على سبيل المثال:

قوله ﷺ - في الحسن بن على رضى الله عنه - «**إن ابني هذا سيـد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عـظيمتين من المسلمين**»[٤] فكان كما أخـبر، وقوله:- في «عمار بن ياسر»، وهو يحمل اللَّبِنَ لبناء المسجد - «**تقتلك الفئة الباغية**».[٥] فكان كما قال، فقـد قتل عمار في حرب «على ومعاوية» قتله جـيش الشام وفيهم البغاة من قتلة عثمان من السبئيين.

وقـوله ﷺ : «**سيكون في آخـر أمتى رجال يركـبون على السروج كأشباه الرحال، ينزلون بها على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات، على رؤسهن البخت العجاف، العنوهن فإنهن معلونات**»[٦]

فما هذه المركوبات - يا ترى - التى أخـبر أنها سيركبها رجـال من أمته؟ إنها كسروج الفرس وليست بفرس، وإنها لتشبـه رَحْلَ البعير ولكن ليست على البعير، إنها قطعا السيارة بنت القرن التاسع عشـر الميلادى، فهل كانت البشرية تحلم يومئذ بالسيـارة التى تقطع مئات الأميـال في بضع ساعات، حـاملة الركاب وأمتعـتهم؟

---

(١) أخرجه البخارى ٣٥٧٧ .

(٢) متفق عليه (البخاري ٣٥٧٨ ـ ومسلم ٢٠٤٠).

(٣) راجع: نهاية الفتن والملاحم لابن كثير، وعلامات الساعة في هذا الكتاب.

(٤) أخرجه البخارى ٢٧٠٤

(٥) أخرجه مسلم ٢٩١٦ .

(٦) أخرجه أحمـد ٧٠٨٣ ـوابن حبان فى صحيحه ٥٧٥٣ ـ والحاكم فى المستدرك ٨٣٤٦ . وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الألباني: حسن.

والجواب: لا ، ولكن الوحى المحمدى أخبر بقدر ما يمكن أن يفهمه السامعون يومئذ، وانتظر المؤمنون حتى يتم هذا الخبر، وتمضى الأجيال جيلا بعد جيل، إلى القرن الثالث عشر الهجرى حيث ظهر ما أخبر به ﷺ، وركب الناس على السروج كأشباه الرحال، ونزلوا بها على أبواب المساجد..

ثم، هل عرفت الدنيا يوم أخبر الرسول ، بـ «المينى جيب» وهل يعقل أن امرأة مؤمنة تمشى في الشوارع بين المسلمين وهي كاشفة عن فخذيها، وكل جسمها ما عدا بطنها وظهرها إلى ركبتيها؟ وهل عرفت النساء - كل النساء - كفكفة الشعر على الرأس حتى يكون كذروة البعير الهزيل، في غير القرن العشرين؟ وهل يعقل أن امرأة مسلمة تفعل بشعرها هكذا، وتخرج بارزة في الشوارع والطرقات، والجواب لا ، ولكن ما أخبر به محمد ﷺ قد تحقق وهو من الغيب في أعماق المجهول، فكان ذلك آية أن محمدا رسول الله ﷺ وآله وصحبه والمؤمنين به، الناهجين نهجه، المستقيمين على صراطه المستقيم إلى يوم الدين.[١]

(١) عقيدة المؤمن - ص ٢٩٩ - ٣٠٥ بتصرف

النبي محمد ﷺ
خاتم النبيين

إن الله تعالى قد ختم سائر النبوات بآخر نبوة، وهي نبوة محمد ﷺ ، فلم يبق من مطمع لأحد في أن يدعى النبوة، أو يؤتاها بعد نبوة محمد النبي الأمى أبدا، ومن جهل هذه الحقيقة، أو تجاهلها تضليلا وخداعا وادعى النبوة فقد كذب على الله، وأعظم الفرية عليه، وكَذَّبه في قوله، وكَذَبَ على خلقه، ولم يلبث طويلا حتى يفتضح شر فضيحة، ويلعن بين الناس، كما حصل لعدد من الدجالين الكذابين، مثل «مسيلمة الكذاب»، في الأولين، و«أحمد مرزا غلام» في الآخرين، عليهما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين..

وذلك لأن الله تعالى قد أخبر بختم النبوات بنبوة محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٤٠]. ولا يحق لواحد أن يقول: محمد ﷺ خاتم النبيين، وأنا خاتم المرسلين، كما زعمه بعض الدجالين الكذابين، ذلك لأن من ختمت به النبوة ختمت به - من باب أولى - الرسالة، إذ كل رسول نبى، وليس كل نبي رسولا، فإذا أغلق الباب من أصله، فكيف بالدخول إلى فرعه، فالنبوة أصل والرسالة مبنية عليه..

فخاتم الأنبياء والرسل قطعا هو النبي محمد ﷺ ، كما ذُكِرَ في الآية السابقة، ولقوله ﷺ : «**إن مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**» ..[1] وقوله ﷺ: «**إن لى أسماءً، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب الذي ليس بعده**

أحـد» . (١) هذا وقد أخبرنا ﷺ عن وجود من يزعم النبوة، ومجيء كذابين من بعده، فقال: «**إنه سيكون في أمتى كـذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبى، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدى**» . (٢)

ومن أقوى الأدلة، وأعظم البراهين على ختم نبوة محمد ﷺ لسائر النبوات، أن يمضى الآن ما يزيد على ألف وأربعمائة سنة على الإعـلان بختم النبوات بنبوته ﷺ ، ولم تأت نبوة حق، ولا نبي صدق، في كل هذه الحقبة من الزمن الطويلة، في حين أنه كان قبل نبوة محمد ﷺ تظهـر النبوات في كل عصر ومـصر، وقد يوجد العـدد من الأنبيـاء في الأمة الواحدة، والبلد الواحـد، كمـا هو معلوم في التاريخ البشرى، وفي جانبه الدينى بالخصوص.

فالواجب على كل إنسان في هذا الوجود البـشرى أن يؤمن بهذا النبى، ويتبع ما جاء به من الحق والـهدى، وذلك لأمر الله تعالى بالإيمان به وباتبـاع ما جاء به في مـثل قـولـه تعـالى: ﴿ **فَـآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا** ﴾ [التغابن: ٨]. ولتخصيص الرب تبارك وتعالى رحمته، وهي الفوز بالجنة بعد النجاة من النار بمن آمن به واتبعه فيـما جاء به ﷺ ، قال تعالى: ﴿ **وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الأعـراف: ١٥٦، ١٥٧]. ا.هـ. (٣)

---

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم (البخارى ٣٥٣٢، ومسلم ٢٣٥٤).

(٢) أخرجه أحمد ٢٢٤٤٨ وأبو داود ٤٢٥٢ وابن ماجه ٣٩٥٢ وغيرهم. وقال الألباني: صحيح.

(٣) عقيدة المؤمن ص ٣٠٦ ، ٣٠٩ بتصرف

مكانة النبي ﷺ وأفضليته

لقد أرسل الله عز وجل الأنبياء والرسل، وجعل بينهم أفضلية، ولهم درجات، كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ولقد جعل الله عز وجل الدرجة العليا لنبيه وحبيبه محمد ﷺ، فهو ﷺ أفضل الخلق، وحبيب الحق، وسيد ولد آدم، وإمام الأولين والآخرين، وسيد المتقين، وحامل لواء الشفاعة يوم الدين.

ولقد ذكر الله عز وجل مكانة النبي ﷺ في القرآن الكريم إذ جعله خاتم الأنبياء، وذكره أولهم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ [النساء: ١٦٣] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧] كما أن الله عز وجل أخذ الميثاق على كل الأنبياء والرسل الإيمان بالنبي محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١]. وغير ذلك من الآيات التي تدل على فضل النبي ﷺ وعلو درجته.

فإذا نظرنا في سنة النبي ﷺ، وجدنا رسول الله ﷺ يتحدث بنعمة الله عز وجل - عليه، فقال فيما قال: **«أنا سيد الأولين والآخرين يوم القيامة»**.. ثم ذكر حديث الشفاعة(١) وقوله ﷺ **«أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، وأول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأول من يحرك حلق الجنة، وقد جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى..»** (٢)

---

(١) متفق عليه (تقدم).

(٢) رواه البخارى بمعناه ٤٣٨ .

وأحاديث أخرى كثيرة، وردت في فضل النبي ﷺ، وفي فضل أمته، وعلو درجته، وعظيم منزلته، على كل البشر، بل وهداة البشر وهم الأنبياء، وكذلك سائر المخلوقات.(١)

ومع ذلك كله، فهو ﷺ عبد من عباد الله، وبشر من خلق الله، لا يمكن أن يكون إلها أو ابن إله أو شريكا مع الله، كما زعمت ذلك النصارى في نبيهم، ولا يمكن أن يتخلى عن بشريته وعبوديته لله عز وجل.

عبودية النبي محمد ﷺ وبشريته

إننا نعتقد أفضلية النبي ﷺ، وعلو درجته، وعظم مكانته، ولكن ذلك لا يخرجه عن صفة العبودية لله عز وجل، إذ هي الشرف ذاته، والفضل نفسه، ولذلك فالله عز وجل يصف رسوله بأشرف الصفات، وهو العبودية، في أشرف المقامات وأخلدها ذكرا، وأجلها أثرا وغاية، فيقول تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الإسراء: ١].

يصفه ربه بالعبودية الصرفة الخالصة وحدها في تلك الليلة التى استشرف فيها قمة السمو الأعظم، وتألقت أمجاده الخوالد الذكريات، العبودية، حتى في تلك الليلة التى وقف فيها دون عرش ربه الأعظم، يقتبس من نور الله وهداه، فما بالك به في كل أصائل عمره وعشاياه؟ ويصفه ربه بالعبودية في مقام الدعوة إليه ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا** ﴾ [الجن: ١٩]. فتدبر إضافة «عبد» إلى «الله» ليغمر يقين الحق قلبك.

ويصفه سبحانه بالعبودية في مقام هو الفيصل الحق الأكبر بين كون محمد دعيا وكونه نبيا، وذلك هو مقام التحدى بالمعجزة العظمى، معجزة القرآن، ﴿ **وَإِن**

---

(١) راجع ذلك بتوسع فى الصحيحين وغيرهما.

كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣] وكذلك لما نزل على النبي ﷺ القرآن: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾ [الكهف: ١]. والرسول نفسه يضع لنا على الطريق بصمات حق ومنارات هدى، حتى لا نحيد فنهلك، ويرشدنا إلى الحق حتى لا نزيغ عنه، فيقول ﷺ: «**لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[1] تدبر ما ذكرتك به من آيات الله، وحديث الرسول ﷺ، لتؤمن أن محمدا ﷺ لم يبلغ ما بلغ من عظمة وكمال وسمو إلا بإخلاص الدين لله وحده، والعبودية الكاملة لله عز وجل، وأنه كان بشرا يوحى إليه، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣] وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠] فنفي البشرية عن النبي ﷺ بزعم النورانية، ضلال مبين، وبعد عن الدين. . إننا لا ننكر نورانية للنبي ﷺ لا تتضاد مع بشريته، فهي نورانية معنوية، نورانية إيمان وعلم وقرآن، وليس من نور الله، لأن هذا كفر، فيه تجسيم للذات الإلهية، ورفع للنبي ﷺ إلى درجة البنوة أو الألوهية، وليست من نور الملائكة، لأن النبى ﷺ بشر وليس بملك، ولم يرسل الله عز وجل نبيا ملكا، ولأنه ﷺ أفضل من الملائكة، وعلى رأسهم «جبريل» عليه السلام، وليست نورانية حسية، كما زعمت المتصوفة، إذ هذا ليس فيه أفضلية، ولا دليل عليه، وفيه من الهراء والكذب ما فيه. . فنورانية النبي ﷺ، كما قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]. ا.هـ.[2]

ومع ما ورد في فضل النبي ﷺ، وعلو درجته، وعظيم منزلته على كل البشر بل وهداة البشر وهم الأنبياء، وكذا سائر المخلوقات، فإنه مع ذلك كله هو عبد من عباد الله، وبشر من خلق الله، ليس إلهًا ولا ابن إله، ولا شريكًا مع الله «كما زعمت النصارى في نبيهم».

(١) أخرجه البخارى ٣٤٤٥ .

(٢) انظر بتوسع فى كتاب «شبهات المتصوفة».

ولم يتخل عن بشريته وعبوديته لله عز وجل، لأن ذلك هو الشرف ذاته، والفضل نفسه، ولأن نفي البشرية عن النبي ﷺ - ولو بزعم النورانية - ضلال مبين، وبعد عن الدين، ونورانيته المعنوية لا تنكر، فهو السراج المنير ﷺ، ولكن لا يجوز الغلو في مدحه ﷺ وهو القائل: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله**»(١).

تدبر ما ذكرتك به من آيات الله وحديث الرسول ﷺ لتؤمن بأن محمداً ﷺ لم يبلغ ما بلغ من عظمة وكمال وسمو إلا بإخلاص الدين لله وحده، والعبودية الكاملة لله عز وجل وأنه كان بشراً يوحى إليه، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً**﴾ [الإسراء: ٩٣]. أ. هـ

ومن ثمرات الإيمان بالرسل (صلى الله عليهم وسلم أجمعين):

أولاً: العلم برحمة الله تعالى وعنايته بعباده حيث أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى صراط الله تعالى ويبينوا لهم كيف يعبدون الله، لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك.

ثانياً: شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى.

ثالثاً: محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم والثناء عليهم بما يليق بهم، لأنهم رسل الله تعالى ولأنهم قاموا بعبادته وتبليغ رسالته والنصح لعباده(٢).

* * *

---

(١) صحيح تقدم.

(٢) الثمرات الزكية في العقائد السلفية (ص١٩١)، ورسائل في العقيدة لابن عثيمين (ص٢٧).

الإيمان باليوم الآخر

- معنى الإيمان باليوم الآخر
- أسماء اليوم الآخر
- الأدلة على البعث بعد الموت
- علامات الساعة «الصغرى والكبرى»
- زلزلة الساعة
- يوم البعث
- الوقوف على أرض المحشر
- العرض على الله
- حساب الخلائق
- أخذ الصحف ـ ميزان الأعمال ـ المرور على الصراط
- نهاية المطاف المستقر الأخير
- نعيم أهل الجنة ـ عذاب أهل النار

... يسأل عن شخصه ... لله عز وجل، لأن ...

والتفضيل بنفسه، ولا غير البشرية عن النبي ﷺ، ولو ...

عنه، ويبعد عن الدين، ونورانيته البشرية لا تنكر، أبو ...

لا يجوز الغلو في مدحه ﷺ، وهو القائل: «لا تطروني كما ...

المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»(١).

... ما لا ترك به من ...

لم يبلغ ما بلغ من عظمة وكمال ...

الكاملة لله عز وجل وأنه كان بشرًا يوحى إليه، كما قال تعالى:

﴿هل كنت إلا بشرًا رسولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

ومن ثمرات الإيمان بالرسل (صلى الله عليهم وسلم):

أولًا: العلم برحمة الله تعالى وعنايته بعباده حيث أرسل

إليهم ... الله تعالى ...

بشرية ...

ثانيًا: شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى.

ثالثًا: محبة الرسل ...

... الله تعالى ...

الركن الخامس:

«الإيمان باليوم الآخر»

* تعريف: ما المراد باليوم الآخر؟

إن المراد باليوم الآخر أمران:

الأول: فناء هذه العوالم كلها، وانتهاء هذه الحياة بكاملها.

والثاني: إقبال الحياة الآخرة وابتداؤها.

فدل لفظ «اليوم الآخر» على آخر يوم من أيام هذه الحياة، أو على اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية، إذ هو يوم واحد لا ثاني له فيها البتة.

والإيمان باليوم الآخر مقتضٍ للتصديق بأخبار الله تعالى بفناء هذه الحياة الدنيا، وبما يسبقه من أمارات وعلامات، وما يتم فيه من أهوال، مع اختلاف الأحوال، لأهل الجنة وأهل النار، كما هو مقتضٍ كذلك لتصديق الله تعالى في أخباره عن الحياة الآخرة، وما فيها من نعيم وعذاب، وما يجري فيها من أمور عظام كبعث الخلائق، وحشرهم، وحسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم الإرادية الاختيارية التي قاموا بها في هذه الحياة الدنيا.

• أسماء اليوم الآخر في القرآن الكريم:

١ - **«اليوم الآخر»**: وإن كان أشهر الأسماء لهذا اليوم المقابل للدنيا، كما قال تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فإن له أسماء أخرى كثيرة كلها ذكرت في القرآن الكريم، ومنها:

٢ - **الآخرة**: وهي مرادفة لليوم الآخر، كما أنها مقابلة للدار الدنيا، ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

٣ - يوم القيامة: لأنه اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين.

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ١].

٤ـ يوم الدين: لأنه اليوم الذي يدان فيه الناس، أي يحاسبون.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧].

٥ـ يوم البعث: إذ يبعث الناس من قبورهم، ويخرجون من الأجداث سراعًا: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

كما قال سبحانه أيضًا: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

٦ـ يوم الحشر: إذ يحشر الناس جميعًا ولا يتخلف منهم أحد: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ [فصلت: ١٩].

وكذلك: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

٧ـ يوم النشور: إذ هناك ينشر كل شيء، وتبلى السرائر: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

٨ـ يوم الجمع: لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩].

٩ـ يوم التغابن: لأن أهل الجنة يغبنون أهل النار، ولا غبن أعظم من دخول النار: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

١٠ـ اليوم المشهود: أي العظيم الذي تحضره الملائكة، ويجتمع فيه الرسل، وتحشر الخلائق بأسرهم: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

١١ـ اليوم العظيم: لأنه عظيم الأهوال، كثير الفزع، جليل الخطب، من خسر فيه أدخل نارًا حامية: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦].

١٢ـ اليوم المعلوم: الموقوت بوقت محدد عند الله، هو سبحانه يعلمه، ولا يعلمه غيره، ولا يتقدم ولا يتأخر، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

١٣ـ **اليوم الحق**: أي الكائن لا محالة ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ [النبأ: ٣٩]، وكل شيء فيه حق، وبالحق ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠].

١٤ـ **يوم الواقعة**: لتحقق هذا اليوم ووجوده، لا يصرفه صارف، ولا يدفعه دافع: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ١-٣].

١٥ـ **يوم الحاقة**: لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد ﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٣].

١٦ـ **يوم القارعة**: لأنها تقرع آذان الناس قرعًا شديدًا ﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١ - ٣].

١٧ـ **يوم الطامة**: لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع، فهي داهية كما قال تعالى: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

وهي طامة كبرى كما أخبر ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤].

١٨ـ **يوم الصاخة**: لأنها تصخ أسماع الناس، أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣].

١٩ـ **يوم الغاشية**: لأنها تغشي الناس وتعمهم ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١].

٢٠ـ **يوم الزلزلة**: أي تحركت من أسفلها، ورجت رجا شديداً ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ [الزلزلة: ١ - ٣].

٢١ـ **يوم الفصل**: الذي يفصل الله عز وجل فيه بين الخلائق بالحق ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٢ - ١٥].

٢٢ـ **يوم الحساب**: الذي يحاسب الناس فيه على أعمالهم ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

٢٣ ـ يوم الجزاء : الذي يجازى الناس فيه على أعمالهم، إن خيراً أو شراً ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فيجزي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧].

٢٤ ـ يوم الحسرة : أي على الكافرين من أهل الجحيم، ومن فرط في طاعة رب العالمين ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ [مريم: ٣٩].

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾[الزمر: ٥٦].

٢٥ ـ يوم الخروج : أي خروج الناس من قبورهم ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ [ق: ٤٢].

٢٦ ـ يوم العرض : إذ يعرض جميع الناس على الله العزيز الغفور، ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨].

٢٧ ـ يوم الآزفة : أي التي اقتربت ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ [غافر: ١٨].

وكذلك ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ [النجم: ٥٧].

٢٨ ـ يوم التناد : إذ تنادى الناس بعضهم على بعض ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ [غافر: ٣٢].

٢٩ ـ يوم التلاق : أي يلتقي فيه جميع الناس من لدن آدم إلى آخر ولده، كما يلتقون بالخالق جل وعلا، ويلقى كل إنسان فيه ما عمل ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ [غافر: ١٥].

٣٠ ـ يوم الساعة : أي الساعة التي يعلمها الله، ولا علم لأحد بها ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

٣١ ـ يوم المعاد : أي الموعد الذي حدده الله، فلا يخلفه ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ٩].

٣٢ـ يوم العدل : الذي لا ظلم فيه لأحد، ويرجع الحق فيه لكل مظلوم ﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧].

٣٣ـ يوم الرحمة : الذي ادخر الله عز وجل له من رحمته تسعة وتسعين جزءاً ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩].

٣٤ـ يوم العذاب : الذي أعد الله فيه من العذاب للكافرين والظالمين والمجرمين مالا يعلمه أحد سواه ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠].

٣٥ـ يوم المغفرة : أي للمؤمنين من أهل النعيم، ومن عمل للقاء رب العالمين: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

٣٦ـ يوم الشفاعة : إذ الله يملكها وحده ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

ثم يأذن الله عز وجل بالشفاعة للشفعاء ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٣٧ـ يوم الوعيد : كما أنه يوم يتحقق فيه وعد الله للمؤمنين، يتحقق وعيده على الكافرين ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠].

٣٨ـ يوم الفرار : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

٣٩ـ وهو أمر الله : أي الحق الواقع لا محالة ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

٤٠ـ وهو دار القرار : أي المستقر الأخير، والقرار فيه إما جنة وإما نار ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

٤١ـ يوم الفتح : ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [السجدة: ٢٩].

٤٢ـ يوم الخلود: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٤، ٣٥].

إمكان الفناء: هل الفناء ممكن؟

والجواب: نعم الفناء ممكن، لأن العالم ليس أزليًا أبديًا، وما لم يكن أزليًا فهو حادث، وما كان حادثًا فالفناء من صفاته اللازمة له، التي لا تنفك عنه بحال، وطروء الفناء على الحادثات مشاهد في هذه الحياة لا يحتاج إلى دليل.

إنه قد ثبت بالبراهين العقلية والمادية معًا حدوث العالم، إن التغير الجاري والمستمر على العوالم دال على حدوثها، وإن حدوثها دال على فنائها، كما أن قانون الطاقة المتاحة ـ وهي نظرية علمية في غاية الصحة ـ قد أثبتت حدوث العالم، وبالتالي قد أثبتت وجود الله تعالى الأزلي، الموجد لكل موجود، وكما أثبتت حدوث العالم أثبتت إمكان فنائه أيضًا، إذ حقيقة هذا القانون العلمي الهائل هي أن الحرارة تنتقل دائمًا من وجود حراري إلى آخر غير حراري، واستمرار هذه العملية سيترتب عليها أن تتساوى حرارة جميع الموجودات، وحينئذ لا تبقى أية طاقة مفيدة للحياة والعمل، فتنتهي العمليات الكيمياوية الطبيعية، وعندها تنتهي الحياة تلقائيًا، وبهذا بطلت أزلية العالم أي قدمه اللاابتدائي، إذ لو كان أزليًا لفقد طاقته منذ زمان بعيد، وانتهت بذلك الحياة.

وثبت أيضًا إمكان فنائه اللازم له، والذي هو في طريقه إليه، لأن عملية انتقال الطاقة من الأجسام الحرارية إلى خلافها مستمرة، ولابد أن يأتي عليها يوم تتساوى فيه حرارة جميع الأجسام، وعندها تتوقف العمليات الكيماوية الطبيعية، وتنتهي الحياة، ويعم الفناء هذا الكون كله.

ودليل آخر: أن العالم كل له أجزاء، ونحن نشاهد الفناء يجري في أجزائه باستمرار، فالإنسان كالحيوان كالنبات كلها تفنى أمامنا، وتحت سمعنا وبصرنا، ونفقد وجودها باستمرار ودون انقطاع، وهي قطعًا أجزاء من هذا العالم، كما أننا نرى الزلزال من الفينة إلى الفينة يدمر مدنًا وقرىً كبيرةً، ويغير معالم الأرض في كثير من البلاد في العالم، فظاهرة الفناء هذه لأجزاء العالم على فناء العالم كله، إذ ما أمكن الفناء في أجزائه أمكن فناءه كله.

وبناء على هذا فاليوم الآخر ممكن الوقوع، وهو مرتقب جدًا، وننتظر أنباءه، وهو اليوم الذي لا يأتي بعده يوم من أيام هذه الحياة، وذلك لخراب العالم وفنائه.

إمكان المعاد: هل المعاد ممكن؟

ولم لا يكون ممكنًا وإثباته لا يوجب أي تناقض عقلي أبدًا، وكل مالا يوجب تصور وقوعه تناقضًا عقليًا فهو من قبيل الجائز الإمكان.

وهل تصور وقوع الحياة بعد فنائها كما كانت وأفضل مما كانت يوجب تناقضًا عقليًا؟ وإذا كان الجواب: لا، أبدًا. فالمعاد إذًا ـ وهو بعث الخلائق أحياء بعد فنائهم الذي طرأ على حياتهم الأولى ـ ممكن وجائز.

وشيء آخر وهو إذا كان المعاد غير مستحيل ولا واجب، إذ المستحيل ما أوجب تصور وقوعه تناقضًا عقليًا لتصور وقوع الشيء موجودًا وغير موجود. والواجب ما أوجب عدم تصور وقوعه تناقضًا عقليا كتصور وجود مصنوع بدون صانع، أو مخلوق بدون خالق، أو معلول بدون علته، فهو أي المعاد إذًا ممكن جائز، وهكذا ثبت بالقياس العقلي، والبرهان المنطقي، إمكان البعث وجواز وقوعه وإليك الدليل.

لقد استدل القرآن الكريم على إمكانية البعث بعدة طرق، ومن عدة جهات، منها: أن هذا البعث وقع في الدنيا حقيقة، وهذا يشبه وقوعه في الآخرة، كما أقام الأدلة على إمكان البعث ووقوعه مما يوجب إثباته مع وجوب الإيمان به، وكذا بالرد على منكري البعث وتفنيد شبههم الباطلة.

وإليك تفصيل هذه الجهات:

أولاً: وقوع بعث في الدنيا من بعد موت، وإحياء من بعد إماتة، وقد تكرر ذلك في القرآن الكريم في سبعة مواضع:

١ ـ الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦].

٢- **الموضع الثاني**: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢، ٧٣].

٣- **الموضع الثالث**: في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

٤- **الموضع الرابع**: في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

٥- **الموضع الخامس**: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

٦- **الموضع السادس**: في قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

٧- **الموضع السابع**: في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ٩ - ١٢].

إلى أن يقول سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: ٢١].

اختصرت هذه المواضع في القرآن، ولك أن تراجع تفسير الآيات في مواضعها في كتب التفسير.

ثانيًا : أدلة القرآن الكريم على إمكانية البعث ووقوعه بالعقل مع النقل، وذلك في المواضع الآتية :

١ - قياس الإعادة على البدء : فالذي خلق أول مرة قادر على أن يعيد خلقه أيضًا مرة أخرى، بل الإعادة أهون عليه من الخلق الأول كما قال تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ [ق: ١٥]. وقال أيضًا : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وكذا : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ولكن الإعادة أهون من البداية هذا في حق الخلق، أما في حق الخالق جل وعلا فكل شيء أمامه هين، لأن أمره بين الكاف والنون ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠].

ولذلك قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧].

كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وهذا قياس جلي واضح، لا يحتاج إلى دليل يثبته، فهناك خلق قد أنشئ من تراب لا حياة فيه، فالذي يوجد الحياة من تراب وجدت فيه الحياة من قبل، ليس بأعجب من الإيجاد من تراب - بادئ ذي بدء - لا عهد له بالحياة.

كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن

يَتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥ - ٧].

٢ - قياس الإعادة على إيجاد النار من الشجر الأخضر، فإن إيجاد النار في الشجر الأخضر الذي يقطر ماء، يناسب الحياة التي تجري في الإنسان والحرارة التي تسري في دمه وروحه، والقادر على هذا هو ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ**﴾ [يس: ٨٠].

٣ - قياس قدرته على الإعادة، على قدرته على خلق السموات والأرض بطريق الأولى، فإن خلق الإنسان بالنسبة لخلق السموات والأرض يسير في قدرة الله تعالى، وذلك من أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على خلق الإنسان مرة أخرى وإعادته إلى حياة أتم وأكمل. إن خلقه بالنسبة لخلقهم يسير فلم تستبعدون القدرة على الإعادة؟ قال تعالى: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [غافر: ٥٧].

كما قال: ﴿**أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ**﴾ [يس: ٨١].

٤ - قياس الإعادة بعد الموت باليقظة بعد النوم، فالبعث ما هو إلا حياة جاءت عقب موت جاء بعد الحياة الدنيا: وكذلك الإنسان ينام ثم يستيقظ بعد النوم، فالحياة شبيهة باليقظة. والموت شبيه بالنوم، والعكس صحيح، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام: ٦٠].

كما قال تعالى: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الزمر: ٤٢].

ومعناه: أن الله تعالى يتوفى الأنفس عند الموت وعند النوم، إلا أنه يمسك الأنفس التي قضى عليها الموت ويرسل النائمة إلى وقت ضربه لموتها، فالأنفس التي يتوفاها هي التي نامت، وما ماتت عند منامها، وأما التي قضى عليها الموت فيمسكها ولا يردها إلى البدن، والأنفس التي يتوفاها عند النوم يردها إلى البدن حين اليقظة، وتبقى إلى أجل مسمى وهو وقت الموت.

إن النفس في وقت الموت ينقطع تعلقها عن ظاهر البدن وباطنه، وأما في وقت النوم فإنه ينقطع تعلقها به في ظاهره من بعض الوجوه، ولا تنقطع عن باطن البدن، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد، إلا أن النوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه، وهما يشتركان في كون كل منهما توفيًا للنفس، ثم يمتاز أحدهما عن الآخر بخواص معينة، في صفات معينة، ومثل هذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم، ولذلك ختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

٥- قياس قدرته على الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها: انظر إلى الأرض الميتة عندما ترمي فيها البذر، ثم ينزل عليها الغيث، أو تسقى بالماء تراها قد اهتزت وأخذت زخرفها وازينت وأخرجت الزرع البهيج والفواكه اللذيذة وأنواع الرياحين والزهور الجميلة، مع النخل الباسقات، وحب الحصيد كذلك، فمن جعل فيها مادة الحياة بعد الممات، قادر على أن يخلق من تراب الأرض بشرًا سويًا حيًا، وإن اختلفت الحياة وصورتها في كلا الجانبين، فقد قاس سبحانه خلق الإنسان وإعادته مرة أخرى، على خلق النبات وإحيائه من الموات، وفي ذلك عبرة لمن أراد أن يتعظ أو يتدبر، قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥ - ٧].

كما قال سبحانه: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا

فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق: ٧ - ١١].

وقال سبحانه: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩].

أي من الدلائل على تفرد الله بالعبادة وتوحده في صفاته العليا، حال الأرض حين خلوها عن المطر والنبات، فإذا أنزلنا عليها الماء تحركت بالنبات وانتفخت ثم ظهر منها النبات أول ظهوره، ثم تصدعت عنه، إن القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها، والله على كل شيء قدير.

٦ـ قياس الإعادة على الخلاف القائم في البعث بطريق قياس الخلف؛

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٨، ٣٩].

إن هذا الاختلاف القائم بين الخلائق، مع اختلاف الطرق الموصلة إليه، لابد فيه من الوصول إلى الحقيقة، ومعرفة الحق من الباطل، والإيمان من الكفر، وذلك أمر لابد منه في حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا، فهناك يرتفع الخلاف، ويستبين الحق، وندرك جيداً أن أهل الإيمان والتوحيد هم على الحق وقد كانوا صادقين، وأن أهل الكفر والشرك كانوا على باطل، و﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ الله أكبر.

٧ـ الاستدلال باختلاف سلوك الناس في هذه الحياة بالخير والشر،

والصلاح والفساد على وجود حياة أخرى يجزى فيها كل عامل بما عمل من خير وشر، لعدم استكمال المجازاة في هذه الحياة، قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٤].

وهذه التكاليف الشرعية التي أمر الله عز وجل بها فمن الناس من قام بها خير قيام، ومن الناس من لم يبال بها أو يعطيها شيئا من الاهتمام، وهذا وذاك لا يستويان في الجزاء أمام الملك العلام كما قال رب الأنام: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ١، ٢].

كما قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وكذلك قال: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦].

كما اختلف الناس كذلك فيما بينهم، وتفاوتوا تفاوتًا كبيرًا في أرزاقهم، وآجالهم، وأعمالهم، وفي سعادتهم وشقائهم، فمنهم الظالم الغشوم، ومنهم المظلوم المهضوم، ومنهم الصحيح السليم، ومنهم المريض السقيم، ومنهم الغني الثري، ومنهم الفقير الشقي، ومنهم العزيز، ومنهم الذليل، ومنهم المحسن ومنهم المسيء، إلى غير ذلك، فليس من الحكمة ولا من العدل أو الرحمة أن يسوى بين هؤلاء أجمعين، ومن ثم اقتضت حكمته سبحانه أن يكون البعث لتلقي الجزاء والأجور ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١].

ثالثا: تفنيد القرآن الكريم لمنكري البعث والرد عليهم: إذ أنكر الكفار ـ أو كثير منهم ـ البعث، وقالوا: إن الجسم مركب من مواد مجتمعة، فإذا تفرقت تحلل الجسم ولا يمكن إعادته مرة أخرى، وكيف يعيد الله هذه الأجزاء بعدما تفتتت وصارت ترابًا وعظامًا نخرة؟، وكيف يجعلها خلقًا آخر؟

وهم قد قاسوا الغائب على الشاهد، وظنوا أنه إذا لم يكن في إمكانهم هم إعادة الحياة للميت، فليس في مقدور الله تعالى أن يعيده مرة أخرى كذلك.

وكذبوا، فقد ذكر القرآن هذه الشبهة ورد عليها بالأدلة القاطعة لينتفع بها من شاء الله له النفع والنجاة، قال سبحانه: ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا

وعظامًا أئنا لمبعوثون (٤٧) أو آباؤنا الأولون (٤٨) قل إن الأولين والآخرين (٤٩) لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ [الواقعة: ٤٧ - ٥٠].

ثم يقول: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ [الواقعة: ٦٢].

كما قال سبحانه: ﴿فقال الكافرون هذا شيء عجيب (٢) أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد﴾ [ق: ٢، ٣].

إلى أن يقول: ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾ [ق: ١٥].

فهذه الآيات الكريمة وغيرها تثبت بالدليل القاطع أن الإنسان له حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا، ينشأ فيها خلقًا جديدًا، وأن قدرة الله سبحانه وتعالى أوسع بكثير مما قالوه، لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، بل إن عقولهم نفسها مخلوقة على نمط واحد بديع، حيث كانت فيها قوة الفكر والتدبر، فهي تدل على قدرة الصانع سبحانه وتعالى.

وفي تفسير سورة يس عند قوله تعالى: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم (٧٨) قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم (٧٩) الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون (٨٠) أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم﴾ [يس: ٧٨-٨١].

قال الفخر الرازي: بدأ أولاً بإبطال استبعاد المنكرين للحشر بقوله ﴿ونسي خلقه﴾ «ونسي خلقه» من أنَّا خلقناه من تراب، ومن نطفة متشابهة الأجزاء، ثم جعلنا لهم الأعضاء المختلفة الصور والقوام، وأودعناهم النطق والعقل اللذين بهما استحقوا الإكرام، فلمَ يستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محل كانا فيه، مع خلق الناطق العاقل من نطفة لم تكن محل حياة أصلاً؟

ثم استبعادهم المعاد للتفرق والتفتت، دفع سبحانه هذا الاستبعاد من جهة ما في المعيد من القدرة والعلم، فقال ﴿وضرب لنا مثلاً﴾.

أي جعل قدرتنا كقدرتهم ونسي خلقه العجيب، وبداه الغريب، وأما من استبعد الإعادة لأنه بعد العدم لم يبق الإنسان شيئًا، فقد رد عليهم بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

فكما خلقه ولم يكن شيئًا مذكوراً، كذلك يعيده وإن لم يبق شيئًا مذكوراً.

* وأما من تفرقت أجزاؤه في مشارق الأرض ومغاربها، وصار بعضه في بطون السباع وبعضه في بطون السمك، أو أن إنسانًا أكل آخر وصارت أجزاء المأكول في أجزاء الآكل، فإن أعيد فأجزاء المأكول إما أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه، وإما أن تعاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء، فقد رد سبحانه على هذه الشبهة بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

ذلك لأن في الآكل أجزاء أصلية، وأجزاء فضلية، وفي المأكول كذلك، فإذا أكل إنسان إنسانًا صار الأصلي من أجزاء المأكول فضليًا من أجزاء الآكل، والأجزاء الأصلية للآكل هي ما كان له قبل الأكل، والله يعلم الأصلي من الفضلي، فيجمع الأجزاء الأصلية للآكل وينفخ فيه روحه، ويجمع الأجزاء الأصلية للمأكول، وينفخ فيه روحه، وكذلك الجميع يجمع أجزاءهم المتفرقة في البقاع المتعددة، بحكمته الشاملة، وقدرته الكاملة.

* كذلك الإنسان يموت فتأكله الأرض، وتختلط ذرات جسده بذرات التراب بعد أن صار الجسد ترابًا كذلك، وآخر يموت فيحرق ثم يذرى في الماء أو الهواء فكيف يعرف، وكيف يجمع؟

يجيب الله عز وجل على هذه الشبهة فيقول: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤].

وفي السنة المطهرة، «حكى النبي ﷺ حال رجل مات فأمر أولاده بحرقه وتذريته في البر والبحر، ظنًا منه أن الله لا يقدر على جمعه، ففعلوا كما أوصى، ولكن الله أمر البر أن يجمع ما فيه، والبحر أن يجمع ما فيه، ثم أوقفه الله بين

يديه، وسأله ـ وهو أعلم ـ أي عبدي: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: خشيتك يا رب وأنت أعلم، فغفر الله تعالى له»(١).

* ثم عاد سبحانه وتعالى إلى تقرير دفع استبعادهم وإبطال شبههم فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا﴾.

فإن الإنسان له جسم يحس به، وروح تسري فيه، وهي كحرارة تجري فيه، فإن استبعدتم وجود ذلك فيه فلا تستبعدوه، فإن النار في الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب، فالله قادر على بعثكم بعد الموت، وإن استبعدتم خلق جسم. فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه، فإن الله خلق السموات والأرض، ثم أشار إلى القدرة الكاملة والعلم الشامل المحيط بكل شيء، بقوله ﴿وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾.

وأكد بيانه بقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

حيث قالوا: لا يقدر أحد على مثل هذا، قياسًا للغائب على الشاهد، فأظهر فساد تمثيلهم وتشبيههم، فقال: في الشاهد يكون الخلق بالآلات البدنية والانتقالات المكانية، ولا يقع إلا في الأزمنة الممتدة، والله سبحانه يخلق بكلمة «كن» فيكون، فكيف تضربون له المثل بالأدنى، وله المثل الأعلى في السموات والأرض»(٢). أ. هـ.

والخلاصة: أن البعث حقيقة يجب التسليم بها، كما يجب الإيمان بها إيمانًا حقًا، لا ريب فيه، كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

وكذلك قال عز وجل: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

فذلك من المسلمات التي يوقن بها المسلم، والتي يشعر بها كل أفراد البشر في جميع العصور والدهور، وسواء منهم المتحضرون أو المتبدون، فهو شعور الجميع،

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٤٧٨ ـ ومسلم ٢٧٥٦.

(٢) تفسير الفخر الرازي «بتصرف».

المفطور في الإنسان، وهو كشعور الإنسان بالحاجة إلى الطعام والشراب الذي دل بوجوده وعمومه على وجود غذاء للإنسان لجوعه، وماء لعطشه.

وكذلك ما تأكد لدى الناس اليوم من مناجاة الأرواح، ومخاطبتها، ورؤيتها دال على أن وراء هذه الحياة المادية حياة أخرى روحية وجسمانية.

* وأيضًا: رؤى الناس المتعددة التي واكبت الحياة الإنسانية ولم يخل منها زمان ولا مكان، هذه الرؤى لأموات الناس في المنام، والحديث معهم، ومعرفة أحوالهم وسؤالهم، وإخبار الأموات من رآهم في منامه بأمور غيبية فتكون طبق ما أخبروا به دلالة قطعية على الحياة الثانية، وتلك أدلة عقلية أخرى من بعد الأدلة الشرعية التي ذكرناها.

وآخر الأدلة وأعظمها على البعث والجزاء، والحياة الآخرة: أخبار الله تعالى، وأخبار رسوله ﷺ، إن من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا يجد داعيًا للشك، ولا مثارًا للجدل والنزاع في ثبوت المعاد، وكل ما يتم فيه من حساب وجزاء، إذ أخبار الله تعالى كلها صدق وحق، فقد أخبر تعالى بآلاف الأخبار فلم تكن إلا وفق ما أخبر، كما أخبر رسوله ﷺ بآلاف الأخبار فلم يتخلف منها خبر واحد عن مدلوله، فكيف يعقل إذًا أن يخبر الله تعالى ويخبر رسوله بمئات الأخبار عن ثبوت الحياة الثانية، وعن كل ما يجري فيها من بعث، وحساب، وجزاء، ثم لا يصح شيء من ذلك ولا يثبت، اللهم إن هذا باطل لا يصح، ومحال لا يقبل ولا يعقل، إن حتمية الفناء، ووجود معاد كامل، وحياة أفضل تحوي نعيمًا للمحسنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وجحيمًا للمسيئين الذين أشركوا وعملوا السيئات، مما أخبر الله تعالى به وقرره في كل كتبه، وعلى ألسنة جميع رسله، فالشك فيه ضرب من المرض العقلي، والهبوط الشخصي، والعياذ بالله تعالى من ذلك.

وبعد: فإن هذه الجولة السريعة في آيات البعث في القرآن الكريم، قد أكدت أن الحياة الآخرة ما هي إلا من هذا النوع من الحياة، وأن البعث إنما هو بالروح والجسد جميعًا، وفي ذلك أبلغ رد على من ينكره، ويلقي الشبه الواهية أمام تلك الحقائق الإلهية.

واقرأ معي قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٤ - ٢٦].

وبجانب هذا، فإن الأعضاء سوف تشهد على صاحبها يوم القيامة، حيث ينطقها الله بقدرته القادرة، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٤، ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت: ١٩ - ٢١].

ثم كيف يصح في العقل ألا يعاقب جسد في النار قاسمك لذائذ الحياة؟

وكيف لا يثاب جسد في الجنة شاركك البعد عن الشهوات المحرمة؟

ومن لطائف هذا البحث، أن بعض الفلاسفة المنكرين للبعث، جاء لواحد من العلماء وسأله: إنك تؤمن بالبعث بعد الموت، وتقول: إن الجسد يعاد مرة أخرى بعد أن يبلى، فما هو الذي يترتب على هذه العقيدة؟ إني أرى أن البعث أو عدمه لا يترتب عليه فائدة، فقال له العالم: إن كان هناك بعث فقد نجوت أنا، وهلكت أنت، وإن لم يكن هناك بعث فقد نجونا جميعًا.

وأنشد آخر:

قال المنجم والطبيب كلاهما ... لا تبعث الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر ... أو صح قولي فالخسار عليكما

أ. هـ[1]

---

(١) انظر بتوسع: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ص١٠٤ - ١٢١، وعقيدة المؤمن ص٣١١ - ٣١٩ والنهاية في الفتن والملاحم لابن كثير جـ١ ص٢٥٦ - ٢٦٤.

الحكمة من المعاد:

إن الحكمة من المعاد الأخروي الذي هو بعث الخلائق بعد موتهم وفنائهم أحياء كما كانوا يوم بدأ الله تعالى خلقهم، هو مجازاة المكلفين منهم، بحسب كسبهم الإرادي الاختياري الذي كسبوه في هذه الدنيا، لأن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فالناس يعيشون في هذه الحياة الدنيا ـ كما ذكرنا ـ متفاوتين تفاوتًا كبيرًا في أرزاقهم، وآجالهم، وأعمالهم، وفي سعادتهم، وشقائهم، فمنهم الظالم الغشوم، ومنهم المظلوم المهضوم، ومنهم الصحيح السليم، ومنهم المريض السقيم، ومنهم الغني الثري، ومنهم الفقير الشقي. ومنهم العزيز، ومنهم الذليل، ومنهم المحسن، ومنهم المسيء، إلى غير هذا من التفاوت والاختلاف، فلو أنهم يموتون بانقضاء آجالهم، ولا يبعثون، لكان ذلك منافيًا للحكمة، مجانبًا للعدل والرحمة، ومن هنا قضى الله تبارك وتعالى بالبعث والجزاء، وحكم بهما فهما كائنان لا محالة، فقد أمر رسوله محمدًا ﷺ أن يقسم عليهما، في قوله سبحانه: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

وكذلك الناس يختلفون في هذه الحياة الدنيا ما بين مؤمن وكافر، ومسلم ومشرك، ومن يعبد الله، ومن يعبد غيره، ومن يتبع الرسول ﷺ، ومن يكفر به، ومن يعتقد أن عيسى عبد الله ورسوله، ومن يزعم أنه إله أو ابن إله، أو ثالث ثلاثة، وغير ذلك، والكل يزعم أنه على حق وعلى صواب، فمتى يستبين له الحق؟ إنه يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٣٨ - ٤٠].

• وجوب الإيمان باليوم الآخر:

إن الإيمان باليوم الآخر هو عبارة عن التصديق الجازم بانقلاب هائل يتم في الكون، ويكون انتهاء هذه الحياة الدنيا بكاملها، وابتداء حياة أخرى وهي الدار الآخرة بكل ما فيها من حقائق مدهشة، من بعث الخلائق وحشرهم، وحسابهم ومجازاتهم.

هذا الإيمان ليس واجبًا فحسب، بل هو أحد أركان الإيمان الستة، عليها تبنى عقيدة المؤمن، فلا تتم إذًا عقيدته إلا به، ولا تصح إلا عليه، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ولأهمية هذا المعتقد في حياة المؤمن ولآثاره الكبرى في استقامة الفرد وصلاحه عنى القرآن الكريم به عناية لا تقل عن العناية بالإيمان بالله سبحانه وتعالى، فقد ذكره في عشرات السور منه، وفي مئات الآيات، مرة بوصفه، والحديث عنه، ومرة بتقريره، وتأكيد مجيئه، ومرة بتعليق الاستقامة على الإيمان به. ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢].

ومرة بإثبات الهداية والفلاح للموقنين به. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤، ٥].

ومما يؤكد أهمية هذا المعتقد، ويجعله كالصمام لحياة الاستقامة والطهر والخير هو ذكره مقرونًا بالإيمان بالله تعالى، وذلك لقوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وكقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

في عدة آيات من كتاب الله تعالى.

فدلت هذه العناية القرآنية بهذين الركنين من أركان الإيمان على أنهما قوام حياة الروح، وعليهما مدار استقامة المرء في هذه الحياة، وأن الإيمان بدونهما ليس شيئًا، وأن من عدمهما فقد عدم كل خير، وأن من افتقدهما فقد افتقد كل عناصر الخير والفضيلة في نفسه وأصبح من شر البرية.

وبالجملة فإن معتقد الإيمان بالله واليوم الآخر هو رأس كل عقيدة، وأساس كل إيمان، وعليه مدار استقامة الإنسان، وصلاح خلقه، وطهارة روحه، وبدونه فالإنسان مخلوق لا خير فيه لا لنفسه، ولا لغيره، وهو شر كله، لا يؤمن جانبه، ولا يطمأن إليه، ولا تسكن النفوس عنده، وذلك لما انعدم عنده من أصول الخير، وينابيع الفضيلة والكمال البشري[1].

* * *

(١) عقيدة المؤمن ص ٣٢٠ - ٣٢٢ بتصرف.

أشراط الساعة «علاماتها»

إن لكل كائن حي كالإنسان والحيوان، أو نامٍ كالأشجار والنباتات، علامات تظهر له دنو أجله وقرب ساعة هلاكه.

فالإنسان يشيب ويهرم، ويمرض ويضعف، ويكون ذلك علامة دنو أجله، وقرب ساعة موته، والحيوان في غالب أحواله كالإنسان يعتريه الهرم والضعف وينتابه المرض فتخور قواه، وتنحل بنيته ويهلك. والنبات كالزرع مثلا يصفر وييبس، ثم يذوي ويسقط ويبيد. هذه أجزاء من الكون يسبق هلاكها وفناءها علامات تؤذن بقرب ذلك، والكون وهو كل، له (حتمًا) علامات تدل على قرب فنائه، ووقت دماره وخرابه. وقد جاء الوحي الإلهي بذكر تلك العلامات وبيانها ونبهت الرسل عليها. ولفتت النظر إليها تحذيراً وتعليماً.

ففي القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ**﴾ [محمد: ١٨].

فما هي أشراطها؟ أو علاماتها؟

للساعة علامات جاءت مع قرب نهاية الزمان، وابتدأت منذ حين، وهذه تعرف بالعلامات الصغرى، وعلامات أخرى تأتي على مقربة من الساعة، لها خطورتها وعظمها مع تواليها غالبًا، وهذه تعرف بالعلامات الكبرى.

أولاً: العلامات الصغرى:

(أ) ما ظهر منها:

١ ـ بعثة النبي محمد ﷺ، التي ختم الله تعالى بها سائر النبوات، فلا نبي بعده، وهذا إيذان بقرب نهاية الحياة حيث لم تتطلب الفترة المتبقية من عمر الحياة لقصر زمنها تجديد التشريع ببعثة أنبياء آخرين، ولذا قال رسول الله ﷺ في الصحيحين: «**بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار إلى أصبعيه السبابة والوسطى، وقرن بينهما**»(١).

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٦٥٠٣ ـ ومسلم ٢٩٥٠.

٢ ـ انشقاق القمر، آية له عليه الصلاة والسلام، وقد كان شرطًا من أشراط الساعة، لأن الله تعالى ذكره مقرونًا بالإخبار باقتراب الساعة، فقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ١ - ٣].

وقد انشق القمر فعلاً على عهد النبي ﷺ، حيث طلبت منه قريش آية تدل على نبوته فدعا الله فانشق القمر فلقتين على جبل أبي قبيس، على مرأى من أهل مكة وهم ينظرون إليه[١].

٣ ـ موت النبي ﷺ، وقد عدها ﷺ من علامات الساعة؛ في حديثه «**ست من أشراط الساعة: موتي** ....» وذكر الحديث.

٤ ـ تحديد الرسول مدة الخلافة من بعده بثلاثين سنة، ثم تحولها إلى مُلْكٍ عضوض قال ﷺ: «**الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكًا**»[٢] وقد كان ذلك على يد أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وتمامها وختامها بستة أشهر وليها الحسن بن علي بعد أبيه، وعند تمام الثلاثين نزل عن الأمر لمعاوية بن أبي سفيان وقد قال ﷺ ـ والحسن بن عليّ إلى جانبه على المنبر ـ : «**ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**» وهكذا وقع سواء[٣].

وقد قال ﷺ: «**إنه ستكون فيكم النبوة ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة راشدة على منهاج النبوة ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عضوضًا ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها**

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٦٣٦ ـ ومسلم ٢٨٠٠.
(٢) أخرجه أحمد ٢١٩٧٨ ـ والترمذي ٢٢٢٦ ـ وأبو داود ٤٦٤٦ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (٥٦٥٢): صحيح.
(٣) أخرجه البخاري ٣٦٢٩.

الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة راشدة على منهاج النبوة، ثم سكت ﷺ»(١) وقد كان من ذلك ما شاء الله ولم تبق إلا الخلافة.

٥ - قوله ﷺ في الصحيحين: «**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، وتكون بينهما مقتلة عظيمة، دعواهما واحدة**»(٢) والمراد بالفئتين: علي ومن معه، ومعاوية ومن معه رضي الله عنهم أجمعين، والمقتلة العظيمة كانت بصفين.

٦ - قوله ﷺ في رواية مسلم: «**لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج، قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: القتل القتل**»(٣) وهذه قتلى الحروب لا يعدون بالعشرات ولا بالمئات، بل بالألوف وعشرات الألوف ومئاتها، والملايين أيضاً، في حين أن قتلى حروب الإسلام الأولى التي كانت على عهد رسول الله ﷺ والتي دامت زهاء عشر سنوات، لم تتجاوز ألفين وخمسمائة قتيل حسب إحصائية وثيقة ذكرها غير واحد.

٧ - قوله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى**»(٤) وقد ظهرت النار في المدينة واستمرت شهراً، عام أربع وخمسين وستمائة من الهجرة، في يوم الجمعة خامس جمادى الآخرة. كما وصفها ﷺ، فقد شاهد الناس على ضوئها أعناق الإبل بالبصرة وهم في أرض الحجاز(٥).

٨ - ذكر إخباره ﷺ بالغيوب المستقبلة حتى قيام الساعة، متمثلة في فرقة تقع ومعاصي ترتكب، وبلاء يحل، وجهل يظهر، وأمور تحدث، وموازين تقلب ومعايير تعكس.. إلخ ومنه قوله ﷺ: «**إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء، قيل: ومن الغرباء، قال: النزاع من القبائل**»(٦).

---

(١) أخرجه أحمد ١٨٤٣٠ - والبيهقي في دلائل النبوة، وقال الألباني في الصحيحة (٥): صحيح.
(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٦٠٩ - ومسلم ١٥٧.
(٣) أخرجه مسلم ١٥٧.
(٤) متفق عليه أخرجه البخاري ٧١١٨ - ومسلم ٢٩٠٢.
(٥) النهاية في الفتن والملاحم جـ١ ص٢٦.
(٦) أخرجه أحمد ٣٧٨٤ - وابن ماجه ٣٩٨٨ - والدارمي ٢٧٥٥ وغيرهم، وقال الألباني في الصحيحة (٢٦٩): صحيح دون قوله: قيل: ومن الغرباء..

وقوله ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قيل من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[1].

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**نعم**»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «**نعم وفيه دخن**»، قلت: وما دخنه؟ فقال: «**قوم يهدون بغير هديي يعرَف منهم ويُنكر**»، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها**»، قلت: يا رسول الله. صفهم لنا، قال: «**هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا**»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»، قلت: فإن لم يكن لهم إمام ولا جماعة، قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**»[2].

وقوله ﷺ: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها**»[3].

وقوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**» أو «**وهم على ذلك**»[4].

وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بموت العلماء حتى إنه إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**»[5].

---

(١) أخرجه أحمد ٨٣٧٧ ـ وأبو داود ٤٥٩٦ ـ والترمذي ٢٦٤٠ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (١٠٨٣): صحيح.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٦٠٦ ـ ومسلم ١٨٤٧.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٢٩١ ـ والطبراني في الأوسط ٦٥٢٧ ـ والحاكم في المستدرك ٨٥٩٢، وقال الألباني في صحيح الجامع (١٨٧٤): صحيح.

(٤) متفق عليه أخرجه البخاري ٧١ ـ ومسلم ١٠٣٧.

(٥) متفق عليه أخرجه البخاري ١٠٠ ـ ومسلم ٢٦٧٣.

وقوله ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويفشو الزنا، وتشرب الخمر، ويذهب الرجال، وتبقى النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد»(١). وكلها علامات قد ظهرت، عدا الأخيرة، وهي أن يكون لخمسين امرأة قيم واحد أو رجل واحد يقوم على أمرهن، فلم يصل بعد إلى ذلك.

وقوله ﷺ: «يا معشر المهاجرين: خمس خصال إذا ابتليتم بهن ونزلن بكم - وأعوذ بالله أن تدركوهن - لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله وسخروا بما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»(٢).

وقال ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما بعد، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا»(٣).

وقوله ﷺ: «إذا اتخذ الفيء دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً، وتعلم العلم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته وعق أمه، وأدنى صديقه وأقصى أباه، وظهرت الأصوات في المساجد، وساد القبيلة فاسقهم، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرجل مخافة شره، وظهرت القينات والمعازف، وشربت الخمور، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلة وخسفاً ومسخاً وقذفاً،

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٨١ - ومسلم ٢٦٧١.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤٠١٩ - والطبراني في الأوسط ٤٦٧١ - ومسند الشاميين ١٥٥٨ - والبيهقي في الشعب ٣٣١٤ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح لغيره.

(٣) أخرجه مسلم ٢١٢٨.

وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع»(١). وكلها قد ظهرت عدا المسخ والقذف.

وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح، فلما صلى صلاته ناداه رجل: متى الساعة؟ فزجره رسول الله ﷺ وانتهره، وقال: اسكت حتى إذا أسفر رفع طرفه إلى السماء، فقال: تبارك رافعها ومدبرها، ثم رمى ببصره إلى الأرض فقال: تبارك داحيها وخالقها، ثم قال: أين السائل عن الساعة؟ فجثا الرجل على ركبتيه، فقال: أنا - بأبي أنت وأمي - سألتك، فقال: «**ذلك عند حيف الأئمة، وتصديق النجوم، وتكذيب بالقدر، وحتى تتخذ الأمانة مغنمًا، والصدقة مغرمًا، والفاحشة زيادة، فعند ذلك هلك قومك**»(٢).

وقوله ﷺ: «**في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، فقال رجل من المسلمين: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: إذا ظهرت القيان والمعازف وشربت الخمور**»(٣).

وقد وقع الخسف، وظهرت بوادر المسخ، وبقي القذف، حيث يقذف قوم بالحجارة، كما قذف قوم لوط.

وقوله ﷺ: «**بادروا بالموت، إمرة السفهاء، وكثرة الشرط، وبيع الحكم، واستخفاف الذمم، وقطيعة الرحم، ووجود فئة يتخذون القرآن مزامير يقدمونه للناس يلهونهم به وإن كانوا أقل منهم فقهًا**»(٤).

وقوله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد**»(٥).

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٢١١. وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢٨٧): ضعيف.

(٢) أخرجه البزار ٥٠٧. وفي إسناده يونس بن أرقم. قال البخاري: كوفي معروف الحديث كان يتشيع.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٢١٢ وقال الألباني في صحيح الجامع (٤٢٧٣): صحيح.

(٤) أخرجه أحمد ١٦٠٨٣ - وابن أبي شيبة في المصنف ٣٧٧٣٦، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٥) أخرجه أحمد ١٢٤٠٢ - وأبو داود ٤٤٩ - والنسائي ٦٨٩ - وابن ماجه ٧٣٩ وغيرهم. وقال الألباني في صحيح الجامع: صحيح.

وعن أسامة بن زيد قال: أشرف النبي ﷺ على أطم من أطام المدينة، فقال: «هل ترون ما أرى؟ قالوا: لا، قال: فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع المطر»(١).

كما قال ﷺ: «يتقارب الزمان، وينقص العلم، ويبقى الشح، وتظهر الفتن ويكثر الهرج، قالوا: يا رسول الله إيما هو؟ قال: القتل القتل»(٢).

وقوله ﷺ: «لا يأتي على الناس زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم»(٣).

وقوله ﷺ: «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من يشرف لها تستشرفه، فمن وجد فيها ملجأ أو معاذاً فليعذ به»(٤).

وقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه»(٥).

وحصار يقع لأهل العراق، وفي الحديث «لا تقوم الساعة حتى يحاصر العراق، قيل: ممن؟ قال: من الروم، وتحاصر الشام قيل: ممن قال: من العجم. وقد وقع حصار العراق وفي الطريق إلى حصار الشام، ولعله الذى وقع لإخواننا فى فلسطين.

وقوله ﷺ: «منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مديها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم» شهد ذلك لحم أبي هريرة ودمه(٦).

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ١٨٧٨ ـ ومسلم ٢٨٨٥.
(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٧٠٦١ ـ ومسلم ١٥٧.
(٣) أخرجه البخاري ٧٠٦٨.
(٤) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٦٠١ ـ ومسلم ٢٨٨٦.
(٥) متفق عليه أخرجه البخاري ٧١١٥ ـ ومسلم ١٥٧.
(٦) أخرجه مسلم ٢٨٩٦.

وقوله ﷺ لثوبان: «كيف أنت - يا ثوبان - إذا تداعت عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها؟ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أمن قلة بنا؟ قال: لا بل أنتم يومئذ كثير، ولكن يلقى في قلوبكم الوهن، قال: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال»(١).

ومن علامات الساعة قوله ﷺ أيضًا: «لا تقوم الساعة حتى لا يأمن الرجل جليسه»(٢) وكذلك: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان»(٣).

وأيضًا: «إذا رأيتم أمتي تهاب الظالم أن تقول له: إنك ظالم، فقد تودع منهم»(٤).

وكذلك: «حين يفيض المال فيكم حتى إن الرجل ليعطى عشرة آلاف، يظل يسخطها»(٥).

وقوله ﷺ: «إن بين يدي الساعة كذابين، منهم صاحب اليمامة، وصاحب صنعاء العبسي، ومنهم صاحب حمير، ومنهم الدجال وهو أعظمهم فتنة»(٦).

وكذلك قال: «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين، كل يزعم أنه رسول الله»(٧) وفي رواية: «وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم الأنبياء لا نبي بعدي»(٨).

---

(١) أخرجه أحمد ٨٦٩٨. وقال شعيب الأرنؤوط حسن لغيره وإسناده ضعيف. وقد صح من طرق أخرى عن ثوبان.

(٢) أخرجه أحمد ٤٢٨٦ - وعبد الرزاق في المصنف ٢٠٧٢٧ - والحاكم في المستدرك ٥٣٩٧ وصحح إسناده ووافقه الذهبي، وقال الألباني: وهو كما قالا. الصحيحة ٣٢٥٤.

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري ٥٠ - ومسلم ٩.

(٤) أخرجه أحمد ٦٦٢١ - والبزار ٢٣٧٥ - والحاكم في المستدرك ٧٠٣٦ وغيرهم. وقال الألباني: في ضعيف الجامع (٥٠١): ضعيف.

(٥) أخرجه أحمد ٦٦٢٣. وقال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره.

(٦) أخرجه ابن حبان في صحيحه. وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.

(٧) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٦٠٩ - ومسلم ١٥٧.

(٨) صحيح تقدم.

وقوله ﷺ: «إن في أمتي لنيفًا وسبعين داعيًا كلهم داع إلى النار لو أشاء لأنبأتكم بأسمائهم وقبائلهم»(١).

وقال ﷺ: «إن أمام الدجال سنين خَدَّاعة، يُكَذَّبُ فيها الصادق، ويُصَدَّقُ فيها الكاذب، فَيُخَوَّنُ فيها الأمين، ويُؤْتَمَنُ فيها الخائن، ويتكلم فيها الرويبضة، قيل: وما الرويبضة؟ قال: الفويسق يتكلم في أمر العامة»(٢).

وقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع»(٣). اللكع «اللئيم».

وقوله ﷺ لمن سأله عن الساعة، فقال: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: وكيف إضاعتها؟ قال ﷺ: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»(٤).

وأيضًا: «لا تقوم الساعة حتى يسود كل قبيلة أراذلها»(٥).

وقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان، فتكون السنة كالشهر والجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كاحتراق السعفة»(٦) والسعفة: الخوصة.

وقال ﷺ: «إن من علامات الساعة أن تعزب «تغيب» العقول، وتنقص الأحلام»(٧).

---

(١) أخرجه أبو يعلي في مسنده ١ /٥٧. وقال حسين أسد: إسناده ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد ١٣٣٢٢. وفي إسناده محمد بن إسحاق وهو مدلس وقد عنعنه.

(٣) أخرجه أحمد ٢٣٣٥١ ـ والترمذي ٢٢٠٩، وقال الألباني في صحيح الجامع (٧٤٣١): صحيح

(٤) أخرجه البخاري ٥٩.

(٥) أخرجه البزار في مسنده ١٤٣٤ ـ والطبراني في الكبير ٩٧٧١ ـ والأوسط ٤٨٦١ وقال الألباني في ضعيف الجامع (٤٧٧٩): ضعيف جدًا.

(٦) أخرجه أحمد ١٠٩٥٦ ـ وابن حبان في صحيحه ٦٨٤٢ ـ وأبو يعلي في مسنده ٦٦٨٠، وقال الألباني في كتابه قصة المسيح الدجال: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٧) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين ١٩٦٠. وفي إسناده عافية بن أيوب، قال أبو زرعة الرازي: مصري ليس به بأس.

وقوله ﷺ: «إن بين يدي الساعة: تسليم الخاصة، وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، وظهور الجهل»(١).

وقال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريعته من أهل الأرض فيبقى فيها عجاجة «رعاع» لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «أمتي هذه أمة مرحومة، ليس عليها عذاب في الآخرة، عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل»(٣).

وقال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر، وحتى تقاتلوا الترك، صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الأنوف، وكأن وجوههم المجان المطرقة، وتجدون خير الناس أشدهم كراهة لهذا الأمر حتى يدخل فيه، والناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، وليأتين على أحدكم زمان لأن يراني أحب إليه من أن يكون له مثل أهله وماله»(٤).

هذا والترك قد قاتلهم الصحابة فهزموهم وغنموهم وسبوا نساءهم وأبناءهم، ويحتمل وقوع ذلك مرة ثانية بين يدي الساعة.

وقوله ﷺ: «من أشراط الساعة أن يتدافع أهل المسجد للإمامة فلا يجدوا إمامًا يصلي بهم»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد ٣٨٧٠ - والبخاري في الأدب المفرد ١٠٤٩ - والحاكم في المستدرك ٧٠٤٣. وقال الألباني في الصحيحة (٦٤٧): صحيح.

(٢) أخرجه أحمد ٦٩٦٤ وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات رجال الشيخين إلا أن فيه عنعنة الحسن وهو البصري.

(٣) أخرجه أحمد ١٩٦٩٣ - وأبو داود ٤٢٧٨ - وأبو يعلى في مسنده ٧٢٧٧ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (١٣٩٦): صحيح.

(٤) متفق عليه أخرجه البخاري ٢٩٢٨ - ومسلم ٢٩١٢.

ذلف الأنوف: قصرها وصغرها المجان: جمع مجن وهو الترس والمطرقة: من طرق.

(٥) أخرجه أبو داود ٥٨١ - وابن ماجه ٩٨٢. وقال الألباني: ضعيف.

وقال ﷺ: «كيف بكم وزمان أوشك أن يأتي يغربل الناس فيه غربلة، والناس قد مرجت عهودهم واختلفوا فكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه. قالوا: كيف بنا يا رسول الله؟ قال: تأخذون بما تعرفون، وتدعون ما تنكرون، تقبلون على أمر خاصتكم وتذرون أمر عامتكم»[١].

ويقول ﷺ: «سيكون في آخر أمتي رجال يركبون على السروج كأشباه الرحال، ينزلون بها على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات، على رؤوسهن البخت العجاف. إلعنوهن فإنهن ملعونات»[٢].

ويقول ﷺ: «ليكونن قوم من أمتي يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف»[٣].

ويقول ﷺ: «إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق، فليس لهم عند الله إلا النار»[٤].

وعن النبي ﷺ أنه قال: «يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا، قال: قيل له: الناس كلهم قال: من لم يأكله منهم ناله من غباره»[٥].

وقال ﷺ: «سيأتي على الناس زمان لا يبالي المرء فيه أمن حل أخذ المال أم من حرام»[٦]. ومثل هذا من المحن والفتن مما يعد من علامات الساعة الصغرى، وقد ظهر ما ذكرناه، وتبقى علامات أخرى.

---

(١) أخرجه أحمد ٧٠٦٣ ـ وأبو داود ٤٣٤٢ ـ وابن ماجه ٣٩٥٧ ـ وقال الألباني: صحيح.

(٢) أخرجه أحمد ٧٠٨٣ ـ وابن حبان في صحيحه ٥٧٥٣ ـ والطبراني في الأوسط ٩٣٣١ ـ والصغير ١١٢٥ وغيرهم. وخرجه الألباني في الصحيحة (٢٦٨٣).

(٣) أخرجه البخاري ٥٥٩٠.

(٤) أخرجه البخاري ٣١١٨.

(٥) أخرجه أحمد ١٠٤١٥ ـ وأبو داود ٣٣٣١ ـ والنسائي ٤٤٥٥ ـ وابن ماجه ٢٢٧٨ وغيرهم وقال الألباني في ضعيف الجامع (٤٨٦٤): ضعيف.

(٦) أخرجه البخاري ٢٠٨٣.

(ب) علامات صغرى منها ما ظهر، ومنها ما لم يظهر بعد:

* قوله ﷺ : «بادروا بالأعمال؛ فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا، ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»(١).

وقد أخذت هذه العلامة في الظهور، ووقع لعدد كثير من الناس ما حمله هذا الخبر النبوي الصادق، سيما مع انتشار التنصير، ونشاط الرافضة، وغير ذلك.

* وقوله ﷺ : «ستفتحون من بعدي رومية والقسطنطينية»، فسئل ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً: فقال ﷺ: «مدينة هرقل أولاً»، يعني القسطنطينية(٢).

هذا وقد فتحت القسطنطينية على يد «محمد الفاتح» سنة ١٤٥٣م، وقد بقي فتح رومية التي هي روما الفاتيكان، وقد ذكر أن «القسطنطينية» ستفتح مرة ثانية.

* وقوله ﷺ : «ست من أشراط الساعة: موتي، وفتح بيت المقدس، وموت يأخذ في الناس كقصاص الغنم، وفتنة يدخل حريمها بيت كل مسلم، وأن يعطى الرجل ألف دينار فيسخطها ،وأن يغدر الروم فيسيرون بثمانين بندًا، تحت كل بند «لواء» اثنا عشر ألفًا»(٣).

وقد تحقق منه قوله ﷺ : موتي كما ذكرناه في العلامة الثالثة من علامات الساعة، كما تحقق فتح بيت المقدس، لأول مرة على يد «عمر بن الخطاب» ويبقى أن يفتح مرة ثانية، كما تحقق كذلك أن يعطى الرجل ألف دينار فيسخطها، وكذا الموت الذي أخذ فى الناس كقعاص الغنم وقد وقع في صورة الطاعون الذي انتشر في عمواس والشام، وأما الفتنة التي دخل حريمها بيت كل مسلم، فلا نرى فتنة أشد من وسائل الإعلام التي وصلت كل بيت، وفعلت في الناس ما لم يفعله شيء آخر، ويبقى منها: غدر الروم وإن كان بدت بوادره عن طريق اجتماع أعداء

---

(١) أخرجه مسلم ١١٨.

(٢) أخرجه أحمد ١١٤٥ - والدارمي ٤٨٦ - وابن أبي شيبة في المصنف ١٩٤٦٣ وغيرهم، وقال الألباني في الصحيحة (٤): صححه الحاكم ووافقه الذهبي وهو كما قالا.

(٣) أخرجه أحمد ٢٢٠٤٥ - والطبراني في الكبير ٢٤٤، وقال الألباني في صحيح الجامع (٣٦٠٨): صحيح.

الإسلام في حربهم ضد العراق، وكذا قواعدهم العسكرية التي انتشرت في بلاد المسلمين.

* وقوله ﷺ : «**ستكون فتنة صماء بكماء عمياء، من أشرف لها استشرفت له، وقع اللسان فيها أشد من وقع السيف**»(١). ولعله المراد بها الحرب الإعلامية، بكل صورها.

وقد كان منها ما شاء الله، وبقي فيها ما هو أشد.

وفي رواية قال ﷺ : «**إنه ستكون فتنة، وستصيب العرب، قتلاها في النار، وقع اللسان فيها أشد من وقع السيف**»(٢). وقد وقع من ذلك ما رأينا، والبقية آتية.

* وقوله ﷺ : «**لن تقوم الساعة حتى تصير أرض الحجاز مروجًا وأنهارًا**»(٣).

وقد تحقق منه الجزء الأول، فأرض الحجاز الآن ـ وقد كانت واديا غير ذي زرع ـ صارت بها مروج، أي مراعي وزروع وثمار وبقيت جزئية «الأنهار» التي تجري فيها لم تتحقق بعد، وهي في طريقها، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ.

وقد توقع العلماء بعد «تسونامي» جنوب شرق آسيا، تغير الجو، بحيث تعود أرض الجزيرة كثيرة الأمطار فتخضر وتكثر فيها الأنهار كما كانت أيام عاد وثمود.

* وقوله ﷺ : «**لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتتل الناس عليه، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم: لعلي أكون أنا الذي أنجو**»(٤). وهذه وإن كانت لم تظهر بعد، لكن الأقمار الصناعية قد

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٢٦٤ ـ والطبراني في الأوسط ٨٧١٧، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٣٢٥٧): ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد ٦٩٨٠ ـ وأبو داود ٤٢٦٥ ـ وابن ماجه ٣٩٦٧. وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢٤٧٥): ضعيف.

(٣) أخرجه مسلم ١٥٧.

(٤) أخرجه مسلم ٢٨٩٤.

اكتشفت هذا الجبل، وعثروا على بعض ذراته الذهبية، وهم ينتظرون انحسار الفرات ليتحقق لهم الحصول على الذهب. ومن يدري؟ لماذا جاء الأمريكان والإنجليز وغيرهم إلى العراق؟

* وقوله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان، يسوق الناس بعصاه»**[(١)].

وهذه العلامة لم تظهر بعد أيضًا يحتمل أن يكون هذا الرجل هو ذا السويقتين ويحتمل أن يكون غيره.

* وقوله ﷺ: **«إن الناس دخلوا في دين الله أفواجًا، وسيخرجون منه أفواجًا»**[(٢)].

وهو وإن كان على ظاهره لم يتحقق بعد، لكن من ينظر إلى حال الكثير من المسلمين وقد ارتكبوا الشرك، ووقعوا في الكفر، وفعلوا كل خصال النفاق ومظاهر الردة، ونال منهم التنصير، أو دخلوا في المذاهب الكافرة كالشيعة والعلمانية والماسونية، يرى أنه قد تحقق، ولكن ربما هناك ما هو أشد من ذلك، فيما يأتي من الزمان أو يكون بصورة مباشرة، والله أعلم.

كقوله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة»**[(٣)].

وذو الخلصة: صنم كانت تعبده دوس في الجاهلية بتبالة.

وهذه العلامة يرى بعض العلماء أنها قد ظهرت في أرض الجزيرة العربية، قبيل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إذ عبدت الأشجار والأحجار وانتشر ذلك في شتى بلاد العالم الإسلامي فذبحت الذبائح، وأوقدت الشموع، ونذرت النذور للمزارات والأضرحة والقبور، بصورة عجيبة وعلى مرأى ومسمع من كثير من علماء المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٧١١٧ ـ ومسلم ٢٩١٠.

(٢) أخرجه أحمد ١٤٧٣٧. وقال الألباني في ضعيف الجامع: ضعيف.

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري ٧١١٦ ـ ومسلم ٢٩٠٦.

كما يمكن أن تكون هذه العلامة لم تتحقق بحرفيتها بعد وإن ذلك سيكون.

كما قال ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها، وإني أعطيت الكنزين الأحمر والأبيض «الذهب والفضة»، وإني سألت ربي أن لا يهلكوا بسنة عامة، ولا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم «كناية عن الإذلال والمهانة» وإن ربي عز وجل قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاءاً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم. ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها ـ أو قال: من بأقطارها ـ حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً، وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وضع في أمتي السيف لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان، وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كل يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله عز وجل»[1].

وقد وقع من ذلك ما وقع عدا عن قوله: «ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان» فهذا لم نره قد وقع اللهم إلا ما وقع من تنصير بعض القبائل بالجملة في بعض بلدان أفريقيا وآسيا.

* وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا قعوداً عند رسول الله ﷺ فذكر الفتن فأكثر من ذكرها حتى ذكر فتنة الأحلاس[2]، فقال قائل: يا رسول الله وما فتنة الأحلاس؟ قال: هي حَرَبٌ وهَرَبٌ[3]، ثم فتنة السراء[4] دخلها[5] أو دخنها

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨٨٩.

(٢) الحلس: الذي يلي ظهر البعير تحت القتب، وهو يعني الملازمة.

(٣) بالفتح، أي سلب المال والأهل.

(٤) السراء: النعمة التي تسر الناس من وفرة المال والعافية.

(٥) الدخل: الغش والعيب والفساد.

من تحت قدمي رجل من أهل بيتي يزعم أنه مني، وليس مني إنما أوليائي المتقون، ثم يصطلح الناس على رجل كورك على ضلع، ثم فتنة الدهيماء[١]، لا تدع أحداً من هذه الأمة إلا لطمته، حتى إذا قيل انقضت عادت، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً حتى يصير الناس إلى فسطاطين[٢] فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، فإذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من يومه أو من غده»[٣].

وقد تحقق جل هذا الحديث، ووقع أكثر ما فيه من فتن، وقد بقيت منه «فتنة الدهماء» والتي أطلت برأسها مع الحروب الصليبية المعلنة وكذا ما ذكر بعدها.

* وقال ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت»**[٤].

وهي علامة لم تقع، وربما تأخر زمانها، فارتبط بهدم الكعبة.

* وقوله ﷺ: **«يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة، ويسلبها حليها ويجردها من كسوتها، ولكأني أنظر إليه أصيلعًا أفيدعًا يضرب عليها بمساحيه ومعوله»**[٥].

ولكن هذه العلامة لا تكون إلا في نهاية الزمان، بعد أن يحج عيسى عليه السلام بيت الله الحرام.

* وقوله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس وحتى يكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ويخبره فخذه بما يحدث أهله بعده»**[٦].

---

(١) تصغير دهماء، وهي الداهية.

(٢) الفسطاط: الجماعة من الناس.

(٣) أخرجه أحمد ٦١٦٨ - وأبو داود ٤٢٤٢ - وأبو نعيم في الحلية وغيرهم. وقال الألباني في صحيح الجامع (٤١٩٤): صحيح.

(٤) أخرجه البخاري ١٥٩٣.

(٥) أخرجه أحمد ٧٠٥٣ وقال شعيب الأرنؤوط: بعضه مرفوع صحيح وبعضه يروى موقوفا ومرفوعًا والموقوف أصح.

(٦) أخرجه أحمد ١١٨٠٩ - والترمذي ٢١٨١ - وعبد بن حميد ٨٧٧ وغيرهم وقال الألباني في صحيح الجامع (٧٠٨٣): صحيح.

وهذه العلامة لعلة يراد بها ما يحمله الناس من هواتف مثل شراك النعل، أو «لاسلكي» مثل السوط أو العصا، فيعرف أخبار أهله مهما كان بعيدا عنهم، وربما وقع ما لم يكن في الحسبان فيتحدث شراك النعل ويتكلم السوط أو العصا والله أعلم.

* وقوله ﷺ: **«تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة حتى يأتي الرجل القوم فيقول: من صعق قبلكم الغداة؟ فيقولون: صعق فلان وفلان»**(١).

وهذه لم تظهر فينا بعد، وإن كانت تحدث صواعق مع الأعاصير في البلدان.

* وقال ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تمطر السماء مطراً، لا تكن منه بيوت المدر، ولا تكن منه بيوت الشعر»**(٢) ولعل هذه العلامة بعد هلاك يأجوج ومأجوج، كما ذكر في الحديث عنهم.

* وقال ﷺ: **«لا يذهب الليل والنهار حتى يملك رجل من الموالي يقال له جهجاه»**(٣). وهذا لم نعرفه وقع بعد أيضاً.

* وقوله ﷺ: **«ليبلغن هذا الأمر «أي الإسلام» ما بلغ الليل والنهار. ولايترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وأهله، وذلاً يذل الله به الكفر وأهله»**(٤).

وهذه بشارة قد أظلنا زمانها، ولعل الله يقر أعيننا بنصرة دينه وانتشاره في ربوع الأرض.

* وقوله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيختبئ اليهود خلف الشجر والحجر فينطق الشجر والحجر فيقول: يا مسلم، يا عبد الله، تعال ورائي يهودي فاقتله إلا شجر الغرقد فإنه من غرس اليهود»**(٥).

---

(١) أخرجه أحمد ١١٦٣٨. والحاكم في المستدرك ٨٣٧٣. وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح.
(٢) أخرجه أحمد ٧٥٥٤ ـ وابن حبان في صحيحه ٦٧٧٠ وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح.
(٣) أخرجه مسلم ٢٩١١.
(٤) أخرجه أحمد ١٦٩٩٨ ـ والطبراني في مسند الشاميين ٩٥١ ـ والحاكم في المستدرك ٨٣٢٦ وغيرهم وخرجه الألباني في الصحيحة (٣).
(٥) أخرجه مسلم ٢٩٢٢.

ولعل هذه العلامة تتأخر بعض الشيء، حتى يخرج آخر اليهود مع الدجال، فتكون تلك العلامة وبها تكون نهاية اليهود في الأرض.

* وقوله ﷺ: «**تصالحون الروم صلحًا آمنًا، وتقهرون أنتم وهم عدواً من ورائهم، فتسلمون وتغنمون، ثم تنزلون بمرج ذي تلول فيقوم الرجل من الروم فيرفع الصليب، ويقول الأغلب الصليب، فيقوم إليه رجل من المسلمين فيقتله، فعند ذلك تغدر الروم وتكون الملاحم فيجمعون لكم فيأتونكم في ثمانين غاية، مع كل غاية عشرة آلاف**»(١).

ويراد بالروم ما نسميهم الآن بالأوروبيين والأمريكان والغاية هي الراية أو الكتيبة والوحدة العسكرية، وقد أرسوا قواعدهم عندنا لذلك وقد أتوا، أو بدأ مجيئهم كمقدمات لتلك العلامة التي أظلنا زمانها.

* وفي الحديث أيضًا: «هاجت ريح حمراء بالكوفة فجاء رجل فنادى عبد الله بن مسعود قائلاً: جاءت الساعة، وكان عبد الله متكئًا فجلس، فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث ولا يفرح بغنيمة قال: وما ذاك؟ قال: ثم قال بيده هكذا - أي أشار بها لي - ونحاها نحو الشام، وقال: عدو يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام، قلت: «الروم تعني؟ قال: نعم ويكون عند ذاكم القتال ردة شديدة، قال: فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيبقى هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون ثم يبقى هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل فيبقى هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان اليوم الرابع نهد «نهض وتصدى» إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل الله الدائرة عليهم فيقتتلون مقتلة إما قال: لا ندري مثلها، وإما قال: لا يرى مثلها، حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلفهم حتى يخر ميتًا،

---

(١) أخرجه أحمد ١٦٨٧٢ - وابن ماجه ٤٠٨٩ - وابن حبان في صحيحه ٦٦٧٥. وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (٣٦١٢): صحيح.

فيتعاد بنو الأب كانوا مائة فلا يجدونه بقى منهم إلا الرجل الواحد فبأي غنيمة يفرح، أو أي ميراث يقاسم. قال: فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك قال فجاءهم الصريخ «المستنجد المستصرخ» أن الدجال قد خلفهم في ذراريهم فيرفضون ما في أيديهم ويقبلون فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ**»[1].

وهذه علامة لم تقع بعد، وإن ظهرت بوادرها باجتماع الروم وإعلان حرب صليبية قادمة وطويلة المدى.

وبين يدي العلامات الكبرى، وأيام المهدي وقبل خروج الدجال تقع معارك عظيمة منها فتح القسطنطينية، وحصار في بلاد الشام وحرب تقع في سوريا «بالأعماق ودابق، وعمران بيت المقدس، وخراب يثرب وأمور عظام أخرى، سنشير إليها مع ذكر المسيح الدجال.

(١) أخرجه مسلم ٢٨٩٩.

فصل

ومن العلامات التي لم تظهر بعد

«ظهور المهدي»

من هو المهدي؟

هو أحد الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، يكون في آخر الزمان، وآخر الأئمة الاثنى عشر، وليس هو بالمنتظر الذي تزعم الروافض وترتجي ظهوره من سرداب في سامراء، فإن ذاك ما لا حقيقة له ولا عين ولا أثر، فليس هو الذي تزعمه الشيعة، وليس بالذي يزعم لنفسه أنه المهدي يطالب الناس ببيعته جبرا[١].

والمهدي: اسمه «محمد بن عبد الله» من ولد فاطمة، من آل البيت، يحكم الناس سنين عددًا، يملأ الأرض عدلاً وقسطًا، وفي عهده يكثر الخير ويفيض المال.

هذا وأحاديث المهدي - التي أمكن الوقوف عليها - خمسون حديثًا، فيها الصحيح، والحسن، والضعيف المنجبر، أو غير المنجبر. وهي بكثرتها تفيد التواتر المعنوي، وحديثنا هنا عن المهدي ينحصر في الصحيح[٢] - بإذن الله تعالى -.

ومن ذلك:

* قوله ﷺ: **«المهدي مني، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلمًا، يملك سبع سنين»**[٣].

* وقال ﷺ: **«يخرج في آخر أمتي المهدي، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويعطي المال صحاحًا، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعًا أو ثمانيًا يعني حججًا»**[٤].

---

(١) نهاية الفتن والملاحم لابن كثير جـ١ ص٤٩ بتصرف.

(٢) المهدي المنتظر لأبي الفضيل عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري ص٥ بتصرف.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٢٨٥ - والطبراني في الأوسط. وقال الألباني في صحيح الجامع (٦٧٣٦): حسن.

(٤) أخرجه الحاكم ٨٦٧٣. وخرجه الألباني في الصحيحة (٧١١).

* وقال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يملك رجل من أهل بيتي، أقنى، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت قبله ظلمًا، يملك سبع سنين**»(١).

* وقال ﷺ: «**يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده**»(٢).

* وقال: «**يخرج رجل من أمتي يقول بسنتي، ينزل الله عز وجل له القطر من السماء، وتخرج الأرض بركتها، وتملأ الأرض منه قسطًا وعدلاً، كما ملئت جورًا وظلمًا، يعمل على هذه الأمة سبع سنين، وينزل بيت المقدس**»(٣).

* وقال صلوات الله وسلامه عليه: «**لو لم يبق من الدنيا إلا يوم - قال زائدة - لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجل مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي - زاد في حديث فطر - يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجورًا**»(٤).

وفي رواية: «**لا تذهب أو لا تنقضي الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي**»(٥).

وفي رواية: «**يخرج رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي، وخُلقه خُلقي فيملؤها قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجورًا**»(٦).

* وقال ﷺ: «**المهدي من عترتي، من ولد فاطمة**»(٧) وفي رواية «**المهدي من ولد فاطمة**».

---

(١) أخرجه أحمد ١١١٤٦. وابن حبان في صحيحه ٦٨٢٦. وقال شعيب الأرنؤوط: سنده حسن.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩١٣ - ٢٩١٤.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط ١٠٧٥. قال الهيثمي في المجمع: وفيه من لم أعرفهم.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٢٨٢ - وقال الألباني: في صحيح الجامع (٥٣٠٤): صحيح.

(٥) أخرجه أحمد ٣٥٧٣ - والترمذي ٢٢٣٠ - وأبو داود ٤٢٨٢، وقال الألباني في صحيح الجامع (٧٢٧٥): صحيح.

(٦) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٦٨٢٥ - والطبراني في الكبير ١٠٢٢٩، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

(٧) أخرجه أبو داود ٤٢٨٤ - وابن ماجه ٤٠٨٦. والحاكم في المستدرك ٨٦٧٢ والطبراني في الكبير ٥٦٦. وقال الألباني في صحيح الجامع (٦٧٣٤): صحيح.

* وعن أم سلمة قالت: سمعت النبي ﷺ: «يذكر المهدي فقال: نعم، هو حق، وهو من بني فاطمة»(١).

قال ﷺ: «يكون اختلاف عند موت خليفة، فيخرج رجل من أهل المدينة هاربًا إلى مكة، فيأتيه ناس من أهل مكة، فيخرجونه وهو كاره، فيبايعونه بين الركن والمقام، ويبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه بين الركن والمقام، ثم ينشأ رجل من قريش، أخواله كلب، فيبعث إليهم بعثًا فيظهرون عليهم، وذلك بعث كلب، والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب، فيقسم المال، ويعمل في الناس بسنة نبيهم ﷺ، ويلقي الإسلام بجرانه إلى الأرض، فيلبث سبع سنين، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون»(٢).

* وقال ﷺ: «يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثوًا، لا يعده عدًا، قال - يعني جابر بن عبد الله - قلت لأبي نضرة وأبي العلاء: أتريان أنه «عمر بن عبد العزيز»؟ قالا: لا»(٣).

وفي رواية: «يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده»(٤).

* وقال ﷺ: «ينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: تعال صل بنا، فيقول: لا وإن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله لهذه الأمة»(٥) وفي رواية: «لا تزال طائفة من أمتي تقاتل على الحق، حتى ينزل عيسى ابن مريم عند طلوع الفجر ببيت المقدس، ينزل على المهدي، فيقال: تقدم يا نبي الله فصل بنا، فيقول: هذه الأمة أمراء بعضهم على بعض»(٦).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٨٦٧١.

(٢) أخرجه أحمد ٢٦٧٣١ - وأبو داود ٤٢٨٦ - والطبراني في الكبير ٩٣١ - والأوسط ١١٥٣ وغيرهم وقال الألباني في ضعيف الجامع (٦٤٣٩): ضعيف.

(٣) أخرجه مسلم ٢٩١٣.

(٤) أخرجه مسلم ٢٩١٣ - ٢٩١٤.

(٥) أخرجه مسلم ١٥٦.

(٦) أخرجه أبو عمرو الداني في سننه والحارث بن أبي أسامة في مسنده، وقال السيوطي في العرف الوردي: وهذا إسناد جيد.

* وعن عائشة رضي الله عنها قالت: عبث رسول الله ﷺ في منامه، فقلنا: يا رسول الله صنعت في منامك شيئًا لم تكن تفعله، فقال: **«العجب أن أناسًا من أمتي يؤمون البيت لرجل من قريش، قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم، فقلنا: يا رسول الله، إن الطريق قد يجمع الناس، قال: نعم، فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل، يهلكون مهلكًا واحدًا، ويصدرون مصادر شتى، يبعثهم الله على نياتهم»**(١).

* وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«أبشركم بالمهدي يبعث على اختلاف من الناس وزلازل، فيملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلمًا، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، يقسم المال صحاحًا، قال له رجل: ما صحاحًا؟ قال: بالسوية بين الناس، ويملأ الله قلوب أمة محمد ﷺ غناءً، ويسعهم عدله حتى يأمر مناديًا فينادي فيقول: من له في مال حاجة؟ فما يقوم من الناس إلا رجل واحد، فيقول: أنا، فيقول: ائت السدان، يعني الخازن، فقل له: إن المهدي يأمرك أن تعطيني مالاً، فيقول له: احث حتى إذا جعله في حجره وائتزره، ندم، فيقول: كنت أجشع أمة محمد ﷺ، أو عجز عني ما وسعهم قال: فيرده، فلا يقبل منه، فيقال له: إنا لا نأخذ شيئًا أعطيناه، فيكون كذلك سبع سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين، ثم لا خير في العيش بعده، أو قال: ثم لا خير في الحياة بعده»**(٢).

* وقال علي بن أبي طالب ـ وقد نظر إلى ابنه الحسن، فقال: **«إن ابني هذا سيد، كما سماه رسول الله ﷺ، وسيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم ﷺ يشبهه في الخُلُق ولا يشبهه في الخَلْق، يملأ الأرض عدلاً»**(٣).

* وعن عبد الله قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ اغرورقت عيناه وتغير لونه، قال: فقلت: ما نزال نرى في وجهك شيئًا نكرهه، فقال: **«إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريداً**

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨٨٤.

(٢) أخرجه أحمد ١١٣٤٤ وخرجه الألباني في الضعيفة (١٥٨٨).

(٣) أخرجه أبو داود ٤٢٩٠. وقال الألباني في مشكاة المصابيح: ضعيف.

وتطريداً، حتى يأتي قوم من قِبَل المشرق، معهم رايات سود، فيسألون الخبز فلا يعطونه، فيقاتلون فينصرون فيعطون ما سألوا، فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملأها قسطاً كما ملئت جوراً، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج»(١).

* كما قال ﷺ: «يقتل عند كنزكم ثلاثة، كلهم ابن خليفة لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قِبَل المشرق فيقاتلونكم قتالاً لم يقاتله قوم، ثم ذكر شيئًا لا أحفظه، قال: فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج خليفة الله المهدي»(٢).

* وعن أبي سعيد، قال رجل: والله ما يأتي علينا أمير إلا وهو شر من الماضي، قال أبو سعيد، فقلت: لولا شيء سمعته من رسول الله ﷺ لقلت مثل ما يقول، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أمرائكم أميراً يحثو المال حثواً ولا يعده، يأتيه الرجل فيسأله فيقول: خذ، فيبسط ثوبه، فيحثو فيه، وبسط رسول الله ﷺ ملحفة غليظة كانت عليه، يحكي صنع الرجل ثم جمع عليه أكتافها، قال: فيأخذه ثم ينطلق»(٣).

* هذا وقد أخرج نعيم بن حماد في كتاب الفتن بإسناد صحيح على شرط مسلم، من حديث علي رضي الله عنه أنه قال: الفتن أربع: فتنة السراء، وفتنة الضراء، وفتنة كذا وذكر معدن الذهب ـ لعله أراد جبل الذهب الذي يحسر عنه الفرات ـ، ثم يخرج رجل من عترة النبي ﷺ يصلح الله على يديه أمرهم»(٤).

* هذا.. وقد ذكر أيضاً في أخبار المهدي قوله: المهدي مولده بالمدينة أو هو من أهل المدينة، من أهل بيت النبي ﷺ، واسمه اسم النبي ﷺ ـ محمد أو أحمد

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٤٠٨٢ ـ والبزار ١٥٥٦ ـ وابن أبي شيبة ٣٧٧٢٧. وقال الألباني: ضعيف.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤٠٨٤ ـ والحاكم في المستدرك ٨٤٣٢. وقال الألباني: في ضعيف الجامع (٦٤٣٤): ضعيف ـ والكنز هو كنز الكعبة.

(٣) أخرجه أحمد ١١٩٥٩. وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

(٤) أخرجه نعيم بن حماد في الفتن. وقال السيوطي في العرف الوردي: سند صحيح على شرط مسلم وفي كلامه نظر فإن ابن لهيعة إنما أخرج له مسلم مقرونا بغيره وعبد الله بن زرير ليس من رجال مسلم.

- ومهاجره بيت المقدس، كث اللحية، أكحل العينين، براق الثنايا، في وجهه خال، في كتفه علامة النبي، يخرج براية النبي ﷺ من مرط معلمة سوداء مربعة، لم تنشر منذ توفي رسول الله ﷺ، ولا تنشر حتى يخرج المهدي، يمده الله بثلاثة آلاف من الملائكة، يضربون وجوه من خالفهم وأدبارهم، يبعث وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين.

وفي زمانه يحج الناس ويقفون بعرفات، وهم على غير إمام، فبينما هم نزول بمنى، إذ أخذهم كالكَلَب «داء للكلب معروف» فثارت القبائل بعضهم إلى بعض، فاقتتلوا حتى تسيل العقبة دمًا فيفزعون إلى خيرهم فيأتونه، وهو ملصق وجهه إلى الكعبة يبكي، كأني أنظر إلى دموعه، فيقولون: هلم إلينا فلنبايعك، فيقول: ويحكم كم من عهد نقضتموه، وكم من دم سفكتموه، فيبايع كرهًا، فإن أدركتموه فبايعوه، فإنه المهدي في الأرض، والمهدي في السماء، وهو الذي يؤم عيسى ابن مريم عليه السلام.

يبايعه أول ما يبايعه سبعة من علماء الأمة من أفق شتى، اجتمعوا على غير ميعاد لمبايعة المهدي فيبايعونه وهو كاره لذلك، يفر منهم أكثر من مرة حتى يقولون له: إثمنا عليك، ودماؤنا في عنقك، إن لم تمد يدك نبايعك، فيجلس بين الركن والمقام، فيمد يده فيبايع له، فيلقى الله محبته في صدور الناس، فيصير مع قوم أسد بالنهار، ورهبان بالليل.

ثم تخرج رايات سود لبني العباس، ثم تخرج من خراسان أخرى سود، قلانسهم سود، وثيابهم بيض، على مقدمتهم رجل يقال له: شعيب بن صالح من تميم، يهزمون أصحاب السفياني حتى ينزل ببيت المقدس، يوطئ للمهدي سلطانه ويمد إليه ثلاثمائة من الشام، يكون بين خروجه وبين أن يسلم الأمر للمهدي اثنان وسبعون شهرًا»(١).

وهناك آثار عن الصحابة والتابعين وأتباعهم، رأينا أن نتركها استغناء عنها بما ذكرنا.

(١) أخرجه نعيم بن حماد في كتاب الفتن، بتصرف، ولعل هذا مأخوذ من مجموع أحاديث عن المهدي، ولا أستطيع الجزم بصحة كل ما قاله.

وبعد هذا العرض نقول:

فموجز علامات الساعة الصغرى هي:

(أ) ما ظهر منها:

١ ـ بعثة النبي ﷺ.
٢ ـ انشقاق القمر.
٣ ـ موت النبي ﷺ.
٤ ـ الخلافة ثلاثون عامًا.
٥ اقتتال فئتين من الصحابة.
٦ ـ كثرة القتل.
٧ ـ افتتاح المسجد الأقصى.
٨ ـ خروج نار من أرض الحجاز.
٩ ـ غربة الإسلام.
١٠ ـ فرقة الأمة.
١١ ـ البعد عن الهدي.
١٢ ـ الدعوة إلى الضلال.
١٣ ـ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
١٤ ـ جعل المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا.
١٥ ـ تجديد أمر الدين على رأس كل مائة سنة.
١٦ ـ ظهور طائفة بالحق إلى يوم الدين.
١٧ ـ رفع العلم، أو ندرته.
١٨ ـ ظهور الجهل وفشوه.
١٩ ـ فشو الزنا وكثرته.
٢٠ ـ تسمية الخمر بغير اسمه.
٢١ ـ كثرة النساء على الرجال.
٢٢ ـ قوامة النساء على الرجال.
٢٣ ـ كثرة الطاعون والأمراض.
٢٤ ـ انتشار المجاعة وشدة المؤونة.
٢٥ ـ جور السلطان.
٢٦ ـ قيادة السفيه، وزعامة الأراذل.
٢٧ ـ تولي الرويبضة الفاسق أمر الناس.
٢٨ ـ تعذيب أهل الإيمان بالسياط.
٢٩ ـ خروج النساء كاسيات عاريات.
٣٠ ـ منع زكاة الأموال.
٣١ ـ نقص المكيال والميزان.
٣٢ ـ نقض عهد الله وعهد رسوله.
٣٤ ـ شدة البأس بين المسلمين.
٣٥ ـ احتلال العدو لأرضنا.
٣٦ ـ انتهاك الكفار لعرضنا.
٣٧ ـ أخذ اليهود لبعض ما في أيدينا.
٣٨ ـ سلب بعض مقدساتنا.

٣٩ ـ إذا اتخذ الفيء «الخير» دولاً.
٤٠ ـ وجعل الزكاة مغرما ودينا ثقيلا.
٤٢ ـ تعلم العلم لغير الدين.
٤٣ ـ طاعة الرجل لامرأته مع عقوق أمه.
٤٤ ـ قرب الصديق مع البعد عن الأب.
٤٥ ـ كثرة الأصوات في المساجد وارتفاعها.
٤٦ ـ إكرام الرجل مخافة شره.
٤٧ ـ كثرة المغنيات والراقصات.
٤٨ ـ انتشار الغناء والمعازف.
٤٩ ـ سب السلف الصالح.
٥٠ ـ ظهور الريح الحمراء.
٥١ ـ كثرة الزلازل.
٥٢ ـ كثرة الخسف.
٥٣ ـ التصديق بالنجوم.
٥٤ ـ التكذيب بالقدر.
٥٥ ـ كثرة الشُّرَط.
٥٦ ـ بيع الحكم.
٥٧ ـ استخفاف الذمم.
٥٨ ـ قطيعة الرحم.
٥٩ ـ اتخاذ القرآن مزامير للتلهي والتطريب.
٦٠ ـ كثرة القراء، وقلة الفقهاء.
٦١ ـ زخرفة المساجد والتباهي بها.
٦٢ ـ تزيين المحاريب وزخرفتها.
٦٣ ـ تزيين المصاحف وكثرتها.
٦٤ ـ كثرة الفتن كوقع المطر.
٦٥ ـ تقارب الزمان ومحو بركته.
٦٦ ـ كثرة الشح والبخل.
٦٧ ـ انتشار الشر وزيادته عما كان قبله.
٦٨ ـ أن يحسد الحي الميت لكثرة الفتن.
٦٩ ـ فتح العراق، ومجيء خير منها ثم تمنعه.
٧٠ ـ فتح الشام ومجيء خير منها ثم تمنعه.
٧١ ـ فتح مصر ومجيء خير منها للحجاز ثم تمنعه.
٧٢ ـ تداعي الأمم على المسلمين.
٧٣ ـ كثرة المسلمين مع الوهن والضعف.
٧٤ ـ انتشار حب الدنيا وخوف الموت.
٧٥ ـ كراهية القتال، وترك الجهاد.
٧٦ ـ لا يأمن الرجل جليسه.
٧٧ ـ انقلاب الأمور وانعكاس المعايير.
٧٨ ـ أن تلد الأمة ربتها.
٧٩ ـ تطاول الحفاة العراة في البنيان.
٨٠ ـ كثرة المال حتى يسخط الرجل العشرة آلاف.

٨١ ـ وجـود من يدعي الـنبـوة حـتى الثلاثين.
٨٢ ـ وجود دعاة إلى النار.
٨٣ ـ تكذيـب الصـادق، وتصـديق الكاذب.
٨٤ ـ خيانة الأمين، وائتمان الخائن.
٨٥ ـ سادة الدنيا هم اللئام واللكع.
٨٦ ـ إذا وسد الأمر إلى غير أهله.
٨٧ ـ غياب العقول ونقص الأحلام.
٨٨ ـ تسليم الخاصة.
٨٩ ـ فـشو الـتجارة حـتى تعين المرأة زوجها.
٩٠ ـ كثرة شهادة الزور.
٩١ ـ كتمان شهادة الحق.
٩٢ ـ رفع الشريعة من أهل الأرض.
٩٣ ـ كثـرة الرعاع الذيـن يتبعـون كل ناعق.
٩٤ ـ قتال الترك.
٩٥ ـ لا يوجد من يتقدم للإمامة واحد من الجمع الكثير.
٩٦ ـ إذا ضاعت الأمانة.
٩٧ ـ إذا مـرجت العـهـود، وخلفت الوعود.
٩٨ ـ فتح القسطنطينية الأول.
٩٩ ـ انتشار الزراعة في أرض الحجاز.
١٠٠ ـ بيع الدين بعَرضٍ من الدنيا.
١٠١ ـ اختلاط الحرام بالحلال.
١٠٢ ـ من لم يصب بنار الربا أصيب بدخانه وشرره.
١٠٣ ـ اسـتـحـلال الزنا، والـغنا، والخنا.
١٠٤ ـ استحـلال الذهب، والحـرير للرجال.
١٠٥ ـ فصل الدين عن الدولة.
١٠٦ ـ ظهـور السـيـارات والقطارات والطائرات، وأجهزة الاتصالات.
١٠٧ ـ وجود أشباه الرجال.
١٠٨ ـ أكل أموال الناس بالباطل.
١٠٩ ـ عودة الحياة لبدأيتها.
١١٠ ـ الحـروب بالسـيـوف والخيـول، كما في الأحاديث.
١١١ ـ اسـتـيلاء الحـرام على أمـوال الخلق.
١١٢ ـ إماتة الصلاة.
١١٣ ـ طلب الدنيا بعمل الآخرة.
١١٤ ـ ذهاب الخشوع.
١١٥ ـ حصار العراق.

ما لم يظهر منها بعد :

١ ـ فتح رومية «روما».
٢ ـ غدر الروم وقتالهم تحت ثمانين راية في كل راية اثنا عشر ألفًا.
٣ ـ فتح بيت المقدس، مرة ثانية.
٤ ـ فتح القسطنطينية مرة ثانية.
٥ ـ حصار الشام.
٦ ـ فتنة تصيب العرب، قتلاها في النار. منها ما وقع.
٧ ـ وجود أنهار في أرض الحجاز.
٨ ـ انحسار الفرات عن جبل من ذهب وتكون عنده مقتلة عظيمة.
٩ ـ خروج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه.
١٠ ـ تخريب الكعبة على يد ذي السويقتين. وهذه متأخرة.
١١ ـ خروج الناس من الدين أفواجًا. ومنها ما وقع.
١٢ ـ عودة مظاهر الوثنية في هذه الأمة.
١٣ ـ ثم انتشار الإسلام وبلوغه كل الأرض.
١٤ ـ كثرة الحروب بين يدي الساعة.
١٥ ـ فتنة الدهيماء التي تعم.
١٦ ـ كثرة الصواعق عند اقتراب الساعة.
١٧ ـ مقاتلة اليهود حتى ينطق الشجر والحجر. وهذه تكون مع خروج الدجال.
١٨ ـ عدم حج بيت الله الحرام. وهذه متأخرة.
١٩ ـ كثرة القذف بالحجارة.
٢٠ ـ وجود المسخ في الناس قردة وخنازير.
٢١ ـ ظهور المهدي، ما بين الصغرى والكبرى.

ثانيًا: علامات الساعة الكبرى

وهي العلامات التي تسبق زلزلة الساعة، ويعجب لها الناس، كما تتوالى في أغلبها وأهمها، وهي على الترتيب الآتي: ـ

١ ـ خروج المسيح الدجال، وتقع معه علامة قتال اليهود ونطق الحجر والشجر.

٢ ـ نزول عيسى ابن مريم، يتوافق مع وجود المهدي، والدجال، وهو يقتل الدجال.

٣ ـ خروج يأجوج ومأجوج، وبعده ينزل المطر الغزير من السماء.

٤ ـ نزول دخان من السماء، وهذه لم يثبت زمانها على وجه التحديد.

٥ ـ طلوع الشمس من مغربها، وهي أول مظاهر التغير الكوني، وتتابع العلامات.

٦ ـ خروج الدابة على الناس ضحى، وذلك إثر طلوع الشمس من مغربها.

٧ ـ محو القرآن من الصدور والسطور، ويتوافق معه علامة هدم الكعبة أيضا.

٨ ـ مجيء ريح طيبة تقبض أرواح المؤمنين، وبعدها يتهارج الناس تهارج الحمر ويصل عدد النساء إلى الرجال ٥٠ امرأة مقابل رجل واحد.

٩، ١٠، ١١ ـ ثلاثة خسوف عظيمة، بالمشرق والمغرب، وجزيرة العرب.

١٢ ـ خروج نار من أرض المشرق تسوق الناس إلى أرض المحشر.

وقد ورد جل هذه العلامات في حديث واحد للنبي ﷺ. عن حذيفة بن أسيد أن رسول الله ﷺ قال: «**لن تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف، خسفًا بالمغرب، وخسفًا بالمشرق، وخسفًا بجزيرة**

العرب، ونارا تخرج من قعر عدن تسوق النـاس أو تحشر الناس، تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا»[١].

وأما علامـة محو القرآن، فـقد وردت في قوله ﷺ: «**يدرس الإسـلام كما يدرس وشي الثـوب حـتى لا يدرى مـا صـيام؟ ولا صـلاة ولا نسك ولا صـدقـة ويسـري على كـتـاب الله في ليلة فـلا يبقـى في الأرض منه آية وتبـقى طوائف من الناس...**»[٢].

أما علامة الريح الطيبة، فقد قال ﷺ في الحديث: «... **إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم...**»[٣].

وقال أيـضًا: «**لا تقوم الساعـة إلا على شرار الناس**»[٤] وكـذلك: «**لا تقـوم الساعة حتى لا يقال في الأرض لا إله إلا الله**»[٥] وفي رواية «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله**»[٦].

وأما تفـصيل القول في هذه العلامـات، فهو على النحو التـالي: نقول وبالله تعالى التوفيق:

أولاً: خروج المسيح الدجال:

(أ) أمور تسبق الدجال:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعـمـاق أو بدابق**[٧] **فيـخرج إليهم جيش من المدينة من خـيار أهل**

(١) أخرجه مسلم ٢٩٠١.
(٢) أخرجـه ابن ماجه ٤٠٤٩ ـ والحـاكم في المستدرك ٨٤٦٠ ـ والبـيهقي في الشـعب ٢٠٢٨ وقال الألباني في صحيح الجامع (٨٠٧٧): صحيح.
(٣) أخرجه مسلم ٢٩٣٧.
(٤) أخرجه مسلم ٢٩٤٩.
(٥) أخرجه أحمد ١٣٨٦٠ ـ والحاكم في المستـدرك ٨٥١٢. وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٦) أخرجه مسلم ١٤٨.
(٧) الأعماق ودابق موضعان في بلاد سوريا قرب حلب.

الأرض - وهو جيش المهدي - يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلث هم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث لا يفتنون أبداً، فيفتحون قسطنطينية، فبينما يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: أن المسيح قد خلفكم في أهليكم فيخرجون وذاك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج، فبينما يعدون للقتال ويسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة فنزل عيسى ابن مريم فأمهم - أي القتال -، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لا نذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده - أي بيد المسيح - فيريهم دمه في حربته»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟ - يعني القسطنطينية - قالوا: نعم يا رسول الله، قال: لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفًا من بني إسحاق - وفيه بشارة عظيمة بإسلام الروم - فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم، وإنما قالوا: «لا إله إلا الله والله أكبر» فيسقط أحد جانبيها - قال ثور: ولا أعلمه إلا قال الذي في البحر - ثم يقولوا الثانية: «لا إله إلا الله والله أكبر» فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة: «لا إله إلا الله، والله أكبر» فيفرج لهم فيدخلون فيغنمون فبينما هم يقسمون الغنائم إذ جاءهم الصريخ، فقال: إن الدجال قد خرج فيتركون كل شيء ويرجعون»[(٢)].

وقال ﷺ: «تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله»[(٣)].

وقال ﷺ: «عمران بيت المقدس خراب يثرب - بخروج المهدي منها -، وخروج الملحمة - بحروب الشام - فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج

(١) أخرجه مسلم ٢٨٩٧.
(٢) أخرجه مسلم ٢٩١٩.
(٣) أخرجه مسلم ٢٩٠٠.

الدجال، قال: ثم ضرب بيده على فخذ الذي حدثه أو منكبه، ثم قال: «إن هذا لحق مثل ما إنك هاهنا، أو كما أنك قاعد»(١).

وقام ﷺ خطيبًا فتكلم عن مسيلمة، قال: «أما بعد، ففي بيان هذا الرجل الذي قد أكثرتم فيه، إنه كذاب من ثلاثين كذابًا يخرجون بين يدي الساعة، وإنه ليس بلد إلا يبلغها رعب المسيح»(٢). أي الدجال، غير أنه لا يدخل مكة ولا المدينة.

وقوله ﷺ كما سبق: «إن أمام الدجال سنين خداعة، يُكذَّب فيها الصادق ويُصدَّق فيها الكاذب، ويخون فيها الأمين، ويؤتمن الخائن، ويتكلم فيها الرويبضة، قيل: وما الرويبضة؟ قال: الفويسق يتكلم في أمر العامة»(٣).

(ب) من هو المسيح الدجال؟

هو رجل من بني آدم، خلقه الله تعالى ليكون محنة للناس في آخر الزمان ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

حتى حذر منه «نوح» عليه السلام ثم يؤذن له في الخروج بين يدي الساعة في آخر الزمان، بعد فتح المسلمين مدينة الروم المسماة بقسطنطينية، فيكون بدء ظهوره من أصبهان من حارة منها يقال لها «اليهودية» ببلاد خراسان وينصره من أهلها سبعون ألف يهودي، عليهم الأسلحة والتيجان، وكذلك ينصره سبعون ألفًا من التتار، وخلق من أهل خراسان، فيظهر أولاً في صورة ملك من الملوك الجبابرة، ثم يدعي النبوة، ثم يدعي الربوبية فيتبعه على ذلك الجهلة من بني آدم، والطغام من الرعاع والعوام، ويخالفه ويرد عليه من هدى الله من عباده الصالحين وحزب الله المتقين.

---

(١) أخرجه أحمد ٢٢١٧٤ ـ وأبو داود ٤٢٩٤. وقال الألباني في صحيح الجامع (٤٠٩٦): صحيح.

(٢) أخرجه أحمد ٢٠٤٤٤ ـ وابن حبان في صحيحه ٦٦٥٢ ـ والحاكم في المستدرك ٨٦٢٤ ـ وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد ١٣٣٢٢. وقال الألباني في الصحيحة (٢٢٥٣): صحيح.

يأخذ البلاد بلداً بلداً وحصناً حصناً وإقليماً إقليماً، ولا يبقى بلد من البلاد إلا وطئه بخيله ورجله غير مكة والمدينة، ومدة مقامه في الأرض أربعون يوماً، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيام الناس هذه، ومعدل ذلك سنة وشهران ونصف شهر، هذا وصفته أنه رجل عظيم الخلقة، قبيح المنظر أعور العين، مكتوب على جبينه «كافر».

وقد خلق الله تعالى على يديه خوارق كثيرة، يضل بها من يشاء من خلقه ويثبت معها المؤمنون، فيزدادون بها إيماناً مع إيمانهم، وهدى إلى هداهم.

ويكون نزول «عيسى ابن مريم» مسيح الهدى - في أيام المسيح الدجال - مسيح الضلالة - على المنارة الشرقية بدمشق، فيجتمع عليه المؤمنون، ويلتف به عباد الله المتقون، فيسير بهم المسيح عيسى ابن مريم، قاصداً نحو الدجال، وقد توجه نحو بيت المقدس فيدركهم عند عقبة «أفيق» فينهزم منه الدجال، فيلحقه عند مدينة «باب لد» - مطار إسرائيل الدولي الآن - فيقتله بحربته، وهو داخل إليها ويقول: إن لي فيك ضربة لن تفوتني، وإذا واجه الدجال ينماع «يذوب» كما يذوب الملح في الماء فيتداركه، فيقتله بالحربة بباب لد فتكون وفاته هناك، لعنه الله[1] كما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح من غير وجه، كما سنذكره إن شاء الله.

(جـ) أول أمر الدجال:

أخرج الإمام مسلم من حديث فاطمة بنت قيس أنها قالت: «.. سمعت المنادي - منادي رسول الله ﷺ - ينادي الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد فصليت مع رسول الله ﷺ فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: ليلزم كل إنسان مصلاه، ثم قال: أتدرون لم جمعتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن لأن تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً فجاء فبايع وأسلم وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال. حدثني أنه ركب البحر في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام، فلعب بهم الموج

(١) نهاية الفتن والملاحم لابن كثير جـ١ ص١٧٢ - ١٧٤ بتصرف.

شهراً في البحر، ثم أرسلوا إلى جزيرة في البحر حيث تغرب الشمس فجلسوا في أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة فلقيهم شيء أهلب، كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر فقالوا: ويلك ما أنت؟ قالت: أنا الجساسة، قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل بالدير فإنه إلى خبركم بالأشواق، قال: فلما سمت لنا رجلاً فرقنا منها أن تكون شيطانة، قال: فانطلقنا سراعًا حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقًا، وأشده وثاقًا، مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، قلنا: ويلك، ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية، فصادفنا البحر حين اغتلم «هاج» فلعب بنا الموج شهراً ثم أرفأنا «ألجأنا» إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها، فدخلنا الجزيرة فلقينا دابة أهلب كثيرة الشعر، ما ندري ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقلنا ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة، قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق فأقبلنا إليك سراعًا وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة.

فقال: أخبروني عن نخل بِيسان؟ ـ بين الأردن وسوريا وفلسطين، تحت سوريا على الحدود مع الأردن ـ فقلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها هل يثمر؟ قلنا له: نعم، قال: أما إنه يوشك أن لا يثمر.

قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية؟ قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء، قال: إن ماءها يوشك أن يذهب.

قال: أخبروني عن عين زُغَر؟ ـ بجوار نخل بيسان ـ قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها، قال: يوشك أن تجف.

قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب: قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم، قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه، قال: قال لهم: قد كان ذاك؟ قلنا: نعم، قال: أما إنه خير لهم أن يطيعوه، وإني مخبركم عني، إني أنا المسيح، وإني

يوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطيبة فهما محرمتان علي كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة أو إحداهما استقبلني ملك بيده السيف صلتًا «صقيلاً ماضيًا» يصدني عنها وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها.

قال: قال رسول الله ﷺ - وطعن بمخصرته في المنبر - هذه طيبة - يعني المدينة، ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟ فقال الناس: نعم، قال: إنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة، ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق، وأومأ بيده إلى المشرق.

قالت: فحفظت هذا من رسول الله ﷺ(١).

(د) صفة الدجال:

عن عبد الله بن عمر قال: قام رسول الله ﷺ في الناس، فأثنى على الله بما هو له أهل، ثم ذكر الدجال فقال: **«إني لأنذركموه، ما من نبي إلا وقد أنذر قومه، لقد أنذره نوح قومه، ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه، تعلموا أنه أعور، وإن الله ليس بأعور»**(٢).

كما قال ﷺ عنه: **«إنه مكتوب بين عينيه «كافر» يقرؤه من كره عمله، أو يقرؤه كل مؤمن، وقال: تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت»**(٣).

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال بين ظهراني الناس فقال: **«إن الله ليس بأعور، ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية»**(٤).

وقال ﷺ: **«ما من نبي إلا قد أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر»**(٥).

---

(١) أخرجه مسلم ٢٩٤٢.
(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٠٥٧ - ومسلم ١٦٩.
(٣) أخرجه مسلم ١٦٩.
(٤) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٤٣٩، ومسلم ١٦٩.
(٥) متفق عليه أخرجه البخاري ٧٤٠٨ - ومسلم ٢٩٣٣.

وقال ﷺ: «الدجال ممسوح العين، مكتوب بين عينيه كافر، ثم تهجاها: كافر، يقرؤه كل مسلم»(١).

وقال ﷺ: «لأنا أعلم بما مع الدجال منه، معه نهران يجريان، أحدهما رأي العين ماء أبيض والآخر رأي العين نار تأجج، فإما أدركن أحدكم فليأت الذي رآه ناراً، وليغمض ثم ليطأطئ رأسه فيشرب فإنه ماء بارد، وإن الدجال ممسوح العين عليها ظفرة غليظة، مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب»(٢).

وقال ﷺ: «ألا أخبركم عن الدجال حديثًا ما حدثه نبي قومه، إنه أعور، وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار، فالتي يقول إنها الجنة هي النار، وأني أنذرتكم به كما أنذر به نوح قومه»(٣).

(هـ) خروج الدجال:

قال ﷺ: «يخرج الدجال في خفة من الدين، وإدبار من العلم، وله أربعون ليلة يسيحها في الأرض، اليوم منها كالسنة، واليوم منها كالشهر واليوم منها كالجمعة، ثم سائر أيامه كأيامكم هذه، وله حمار يركبه عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعًا فيقول للناس: أنا ربكم، وهو أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كَفَرَ (بهجاء) يقرؤه كل مؤمن كاتب، أو غير كاتب، يرد كل ماء ومنهل إلا المدينة ومكة، حرمهما الله عليه، وقامت الملائكة بأبوابهما، ومعه جبال من خبز، والناس في جهد إلا من اتبعه، ومعه نهران، أنا أعلم بهما منه، نهر يقول له: الجنة، ونهر يقول له: النار، فمن أدخل الذي يسميه الجنة فهي النار، ومن أدخل الذي يسميه النار فهي الجنة، قال: وسمعت معه شياطين تكلم الناس، ومعه فتنة عظيمة، يأمر السماء فتمطر فيما يرى الناس - أي بتخيل السحر -، ويقتل نفسًا ثم يحييها فيما يرى الناس - بالسحر أيضا - ويقول للناس: هل يفعل مثل هذا إلا الرب؟

(١) أخرجه مسلم ٢٩٣٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٣٤.

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٣٣٨ - ومسلم ٢٩٣٦.

قال: فيفد المسلمون إلى جبل الدخان بالشام فيأتيهم فيحاصرهم فيشدد حصارهم ويجهدهم جهداً شديداً، ثم ينزل عيسى ابن مريم فينا من السَّحر، فيقول: يا أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الخبيث، فيقولون: هذا رجل حي فينطلقون فإذا هم بعيسى ابن مريم فتقام الصلاة فيقال له. تقدم يا روح الله فيقول: ليتقدم إمامكم ليصلي بكم - فيصلي بهم المهدي، كما في رواية أبي نعيم وأبي عمرو الداني في سننه، وفي رواية البخاري كيف بكم إذا نزل فيكم عيسى ابن مريم وإمامكم منكم - فإذا صلوا صلاة الصبح خرجوا إليه قال: فحين يراه الكذاب، ينماث «يذوب» كما ينماث الملح في الماء فيمشي إليه فيقتله، حتى إن الشجرة والحجر ينادي يا روح الله هذا يهودي، فلا يترك ممن كان يتبعه أحداً إلا قتله»(١).

وعن أبي أمامة الباهلي قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فكان أكثر خطبته حديثًا حدثناه عن الدجال وحذرناه، فكان من قوله أن قال: «إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال، وإن الله لم يبعث نبيًا إلا حذر من الدجال، وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة، فإن يخرج وأنا بين أظهركم فأنا حجيج لكل مسلم، وإن يخرج من بعدي فكلٌ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، وإنه يخرج من خلة بين الشام والعراق فيعيث يمينًا وشمالاً، يا عباد الله أيها الناس فاثبتوا، وإني سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبي قبلي، إنه يبدأ فيقول: أنا نبي، ولا نبي بعدي، ثم يثني فيقول: أنا ربكم، ولا ترون ربكم حتى تموتوا. وإنه أعور، وإن ربكم عز وجل ليس بأعور، وإنه مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن، كاتب وغير كاتب، وإن من فتنته أن معه جنة ونارًا، فناره جنة، وجنته نار، فمن ابتلى بناره فليستغث بالله، وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه بردًا وسلامًا كما كانت النار على إبراهيم، وإن من فتنته أن يقول لأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك، أتشهد أني

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٢٠٨٢٧ - والحاكم في المستدرك ٨٦١٢ وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: على شرط مسلم.

ربك؟ فيقول له: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه فيقولان: يا بني اتبعه فإنه ربك. وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فيقتلها، ينشرها بالمنشار ثم يلقيها شقتين، ثم يقول: انظروا إلى عبدي فإني أبتعثه الآن، ثم يزعم أن له ربًا غيري، فيبعثه الله، فيقول له الخبيث: من ربك؟ فيقول: ربي الله، وأنت عدو الله الدجال، والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك مني اليوم.

ثم قال ﷺ: ذاك الرجل أرفع أمتي درجة في الجنة.

قال: ومن فتنته أن يأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت، وإن من فتنته أن يمر بالحي فيكذبونه فلا تبقى لهم سائمة إلا هلكت، وإن من فتنته أن يمر بالحي فيصدقونه فيأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت، حتى تروح عليهم مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه وأمده خواصر، وأدره ضروعًا، وإنه لا يبقى من الأرض شيئًا إلا وطئه وظهر عليه إلا مكة والمدينة، فإنه لا يأتيهما من نقب من نقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلتة، حتى ينزل عند الطريب الأحمر عند منقطع السبخة، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه فينقى الخبث منها كما ينقى الكير خبث الحديد، ويدعى ذلك اليوم يوم الخلاص.

فقالت أم شريك ابنة أبي العسكر: يا رسول الله، فأين العرب يومئذ؟ قال: هم قليل، وجلهم ببيت المقدس، وإمامهم رجل صالح فبينما إمامهم قد تقدم فصلى الصبح، إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم، فرجع ذلك الإمام يمشي القهقري، ليتقدم بهم عيسى يصلي، فيضع عيسى عليه السلام يده بين كتفيه، فيقول له: تقدم فصل فإنها لك أقيمت، فيصلي بهم إمامهم، فإذا انصرف قال عيسى: أقيموا الباب فيفتح ووراءه الدجال معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلى وساج، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، وينطلق هاربًا، ويقول عيسى: إن لي فيك ضربة لن تسبقني بها، فيدركه عند باب الدار الشرقي فيقتله، فيهزم الله اليهود فلا يبقى شيء بها خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله الشيء

لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة - إلا الغرقدة فإنها من شجرهم لا تنطق - إلا قال: يا عبد الله المسلم، هذا يهودي فتعال فاقتله..» الحديث بتمامه(١).

وقال ﷺ: «**يخرج الدجال من يهودية أصبهان معه سبعون ألفًا من اليهود عليهم التيجان**»(٢).

وقال ﷺ: «**إن الدجال يخرج في أرض بالمشرق يقال لها خراسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة**»(٣).

وقال ﷺ: «**ينزل الدجال في هذه السبخة فيكون أكثر من يخرج إليه من النساء حتى إن الرجل ليرجع إلى زوجه وإلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطًا مخافة أن تخرج إليه فيسلط الله المسلمين عليه، فيقتلونه ويقتلون شيعته حتى إن اليهودي ليختبئ تحت الشجرة والحجر، فيقول الحجر والشجرة للمسلمين: هذا يهودي تحتي فاقتله**»(٤).

(و) لماذا لم يذكر الدجال صراحة في القرآن الكريم ؟

ولعل سائلاً يسأل: ما الحكمة في أن الدجال - مع كثرة شره وفجوره، وانتشار أمره، وشدة خطره، وعظيم فتنته، ودعواه الربوبية، وهو في ذلك ظاهر الكذب والافتراء، وقد حذر منه جميع الأنبياء - لم يذكر في القرآن ويحذر منه ويصرح باسمه وينوه بكذبه وعناده؟

والجواب من وجوه :

أحدها : أنه قد أشير إلى ذكره في قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا** ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٤٠٧٧ - وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ١٢٤٩. وقال الألباني في صحيح الجامع (٧٨٧٥): صحيح.

(٢) أخرجه أحمد ١٣٣٦٨ - وأبو يعلى في مسنده ٣٦٣٩. وقال حسين أسد: إسناده ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد ١٢ - والترمذي ٢٢٣٧ - وابن ماجه ٤٠٧٢. وقال الألباني في صحيح الجامع (١٦٠٧): صحيح.

(٤) أخرجه أحمد ٥٣٥٣ - والطبراني في الكبير ١٣١٩٧. وقال الألباني في كتابه قصة المسيح الدجال: إسناده حسن لولا عنعنة محمد بن إسحاق.

جاء في تفسيرها ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها**»(١).

الثاني: أن عيسى ابن مريم ينزل من السماء الدنيا فيقتل الدجال، كما تقدم وكما سيأتي وقد ذكر في القرآن نزوله في قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً**﴾ [النساء: ١٥٩].

وقد قررنا في التفسير أن الضمير في قوله «قبل موته» عائد على عيسى، أي سينزل إلى الأرض ويؤمن به أهل الكتاب الذين اختلفوا فيه اختلافًا متباينًا، فمن مدعي الإلهية كالنصارى، ومن قائل فيه قولاً عظيمًا وهو أنه ولد ريبة وهم اليهود، فإذا نزل قبل يوم القيامة تحقق كل من الفريقين كذب نفسه فيما يدعيه فيه من الافتراء.

وعلى هذا فيكون ذكر نزول عيسى ابن مريم، إشارة إلى ذكر المسيح الدجال مسيح الضلال، وهو ضد مسيح الهدى، ومن عادة العرب أنها تكتفي بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر، كما هو مقرر في موضعه.

الثالث: أنه لم يذكر بصريح اسمه في القرآن احتقاراً له حيث يدعي الإلهية، وهو ليس ينافس حالة جلال الرب وعظمته وكبريائه وتنزيهه عن النقص، فكان أمره عند الرب أحقر من أن يذكر، وأصغر وأقصر من أن يحكى عن أمر دعواه ويحذر، ولكن انتصر الرسل بجناب الرب عز وجل فكشفوا لأممهم عن أمره، وحذروهم مما معه من الفتن المضلة والخوارق المضمحلة، فاكتفى بإخبار الأنبياء وتواتر ذلك عن سيد ولد آدم إمام الأتقياء، عن أن يذكر أمره الحقير بالنسبة إلى جلال الله في القرآن العظيم، ووكل بيان أمره إلى كل نبي كريم.

فإن قلت: فقد ذكر فرعون في القرآن، وقد ادعى ما ادعاه من الكذب والبهتان حيث قال: ﴿**فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾ [القصص: ٣٨].

---

(١) أخرجه مسلم ١٥٨.

والجواب: أن أمر فرعون قد انقضى وتبين كذبه لكل مؤمن وعاقل، وهذا أمر سيأتي وكائن فيما يستقبل فتنة واختباراً للعباد فترك ذكره في القرآن احتقاراً له وامتحاناً به، إذ الأمر في كذبه أظهر من أن ينبه عليه ويحذر منه - وقد يترك الشيء لوضوحه، فترك الله ذكره والنص عليه لما يعلم تعالى من عباده المؤمنين أن مثل هذا لا يهديهم ولا يزيدهم إلا إيماناً وتسليماً لله ورسوله وتصديقاً بالحق ورداً للباطل»(١).

(ز) ذكر ما يعصم من الدجال :

١ - الاستعاذة المخلصة بالله تعصم من فتنة الدجال: كما جاء في الأحاديث الصحاح من غير وجه أن الرسول ﷺ كان يتعوذ من فتنة الدجال في الصلاة، وأنه أمر أمته بذلك أيضاً فقال ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن فتنة القبر ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال**»(٢).

٢ - حفظ عشر آيات من آخر سورة الكهف حفظاً عملياً يعصم من فتنة الدجال. كما قال ﷺ: «**من حفظ عشر آيات من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال**»(٣).

ذكر في بعض الروايات «**أنها من أول سورة الكهف**»(٤) وذكر في بعضها «**أنها من خواتيم سورة الكهف**»(٥).

٣ - سكن المدينة ومكة المشرفتين تعصم من فتنة الدجال: كما قال ﷺ: «**على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال**»(٦) وقد ثبت في الصحيح «**أنه لا يدخل مكة ولا المدينة تمنعه الملائكة**»(٧) لأنهما حرمان آمنان منه(٨).

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ج١ ص١٦٦ - ١٦٩ بتصرف.

(٢) أخرجه مسلم ٥٨٨.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٤٢٣ وقال الألباني في صحيح الجامع (٦٢٠١): صحيح.

(٤) أخرجه مسلم ٨٠٩.

(٥) صحيح تقدم.

(٦) متفق عليه أخرجه البخاري ١٨٨٠ - ومسلم ١٣٧٩.

(٧) متفق عليه أخرجه البخاري ١٨٨١ - ومسلم ٢٩٤٣.

(٨) نهاية الفتن والملاحم ج١ ص١٦٩ - ١٧٢ بتصرف.

ثانيًا: نزول عيسى ابن مريم:

(أ) ما الدليل على نزول عيسى ابن مريم؟

أولاً: قول الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٧ - ١٥٩].

قال ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس قال: قبل موت عيسى ابن مريم، وهذا إسناد صحيح.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٥٧ - ٦١].

وقد جاء في تفسير «وإنه لعلم للساعة» أنه عيسى يكون علامة من علامات الساعة بنزوله قبل موته وفي قراءة «وإنه لَعَلَم للساعة» ولا دلالة لهذا المعنى إلا بنزول عيسى عليه السلام.

ثالثًا: ما رواه البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خير من الدنيا وما فيها.

ثم يقول أبو هريرة: «واقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾»(١).

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٤٤٨ ـ ومسلم ١٥٥.

وفي رواية قال ﷺ: «يوشك أن يكون فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً، يقتل الدجال، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ويفيض المال، وتكون السجدة الواحدة لرب العالمين خيراً من الدنيا وما فيها»، قال أبو هريرة: «واقرءوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ موت عيسى ابن مريم، ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات»(١).

رابعًا: روى البخاري من حديث أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل فيكم عيسى ابن مريم وإمامكم منكم»(٢). وهذا الإمام هو المهدي.

خامسًا: قال ﷺ: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم، لأنه لم يكن بيني وبينه نبي وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، إنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران (مصبوغان) كأن رأسه يقطر ماء وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله في زمانه الأمم كلها إلا الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمنة على الأرض، حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون»(٣).

وقال ﷺ: «ليمكثن عيسى ابن مريم بالروحاء فيقومن منها بالحج أو بالعمرة أو ثنتيهما جميعًا»(٤).

وقال ﷺ: «ينزل ابن مريم إمامًا عادلاً، وحكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب،

---

(١) أخرجه ابن مردويه ـ وأبو عبد الله الدقاق في رؤية الله تعالى.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٤٤٩ ـ ومسلم ١٥٥.

(٣) أخرجه أحمد ٩٢٥٩ ـ وعبد الرزاق في المصنف ٢٠٨٤٥ ـ وابن أبي شيبة في المصنف ٣٧٥٢٦ ـ وابن حبان في صحيحه ٦٨١٤ وغيرهم، وقال الألباني في الصحيحة (٢١٨٢): . وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

(٤) أخرجه مسلم ١٢٥٢.

ويقتل الخنزير، ويرجع السلم، ويتخذ السيوف مناجل، ويذهب جمة كل ذات جمة، وينزل من السماء رزقها، وتخرج من الأرض بركتها، حتى يلعب الصبي بالثعبان ولا يضره، وترعى الغنم والذئب ولا يضرها، ويرعى الأسد والبقرة ولا يضرها»(١).

(ب) هل مات عيسى عليه السلام أو رفع حيًا إلى السماء؟

قال أبو مالك : قول الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾.

ذلك عند نزول عيسى ابن مريم، وإنه الآن حي عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعين. رواه ابن جرير.

وروى ابن أبي حاتم عنه أن رجلا سأل الحسن عن قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾.

فقال قبل موت عيسى، إن الله رفع إليه عيسى، وهو باعثه قبل يوم القيامة مقامًا يؤمن به البر والفاجر.

وهكذا قال قتادة بن دعامة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد، وهو ثابت في الصحيحين عن أبي هريرة.

والمقصود من السياق الإخبار بحياته الآن في السماء، وليس كما يزعمه أهل الكتاب الجهلة أنهم صلبوه، بل رفعه الله إليه، ثم ينزل من السماء قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة مما سبق ومما سيأتي أيضًا.

وقد روى عن ابن عباس وغيره أنه أعاد الضمير في قوله «قبل موته».

على أهل الكتاب، وذلك لو صح لكان منافيًا لهذا، ولكن الصحيح من

---

(١) أخرجه أحمد ١٠٢٦٦. وقال ابن كثير في النهاية: تفرد به أحمد وإسناده جيد قوي صالح. وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح وهذا إسناد محتمل التحسين.

(٢) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير جـ١ ص١٨٣ بتصرف.

المعنى والإسناد ما ذكرناه وقد قررناه بما فيه كفاية، ولله الحمد والمنة»(٢).

(ج) متى ينزل وكيف وأين؟

أما متى ينزل؟ فبعد خروج الدجال.

وكيف ينزل؟ على أجنحة ملكين في ثوبين مصبوغين.

وأين ينزل؟ عند المنارة البيضاء شرقي دمشق.

وإليك الدليل: حديث لرسول الله ﷺ تحدث فيه عن الدجال ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج عن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع «أى حقر من شأنه وعظم من أمر فتنته» حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال ما شأنكم؟ قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل امرئ مسلم، إنه شاب قطط «شعره مجعد» عينه طافية، إني أشبهه بعبد العزي بن قطن، من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج في خلة بين الشام والعراق، فعاث يمينًا وعاث شمالا، يا عباد الله فاثبتوا، قلنا يا رسول الله: وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يومًا، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم، قلنا يا رسول الله: فذلك اليوم الذي كسنة أتكفنا فيه صلاة يوم؟ قال: لا، اقدروا له قدره، قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرًا، وأسبغه ضروعًا، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون قوله فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم من أموالهم شيء، ويمر بالخربة فيقول: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل «جماعات النحل»، ثم يدعو رجلاً ممتلئًا شبابًا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين «قطعتين» رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل يتهلل وجهه وهو يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن

مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق في مهرودتين «ثوبين مصبوغين» واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، ولا يحل «لا يمكن» لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لُدٍّ «قرب المقدس» فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قومًا قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم عن درجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله تعالى إلى عيسى إني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان «لا قدرة» لأحد بقتالهم، فحرز «ضم» عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة الطبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحضر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار، لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله إليهم النغف «دود يكون في أنوف الإبل والغنم» في رقابهم فيصبحون فرسى «قتلى» كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون موضع شبر إلا ملأه زهمهم «نتن رائحتهم الكريهة» ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرًا لا يكُنُّ منه «لا يمتنع منه» بيت مدر ولا وبر فيغسل الله الأرض حتى يتركها كالزلقة «المرآة»، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة «الجماعة» من الرمانة، ويستظلون بقحفها «مقعر قشرة الرمانة»، ويبارك في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام «الجماعة الكثيرة» من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر «يرتكبون الفاحشة على ملأ من الناس بلا استحياء فعل الحمر» فعليهم تقوم الساعة»(١).

وفي الحديث أيضًا عن ابن مسعود في اجتماع الأنبياء يعني «محمد وإبراهيم

---

(١) أخرجه مسلم ٢٩٣٧.

وموسى وعيسى» عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام وتذاكرهم أمر الساعة وردهم إلى عيسى، وقوله: «أما حينها فلا يعلم به إلا الله، وفيما عهد إلى ربي أن الدجال خارج ومعه قضيبان، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص، قال فيهلكه الله إذا رآني حتى إن الحجر والشجر ليقول: يا مسلم إن تحتي كافراً، فتعال فاقتله، قال: فيهلكهم الله، ويرجع الناس إلى أوطانهم، قال: فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطؤون بلادهم، لا يمرون على شيء إلا أهلكوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس يشكونهم، فأدعو الله عليهم فيهلكهم الله ويميتهم حتى تمتلئ الأرض من نتن ريحهم، وينزل الله المطر فيجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر، ففيما عهد إلى ربي أن ذاك إذا كان كذلك، فإن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلاً أو نهاراً»(١).

ثالثاً: خروج يأجوج ومأجوج:

(أ) ما الدليل على خروج يأجوج ومأجوج؟

قال تعالى في قصة ذي القرنين: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٢ - ٩٩].

وقد ذكر في التفسير في قصة ذي القرنين وخبر بنائه للسد من حديد ونحاس بين جبلين فصار ردماً واحداً، وقال: هذا رحمة من ربي أن يحجز به بين هؤلاء

---

(١) أخرجه أحمد ٣٥٥٦ ـ والحاكم في المستدرك ٣٤٤٨، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: صحيح، وقال الألباني في الضعيفة (٤٣١٨): ضعيف بهذا الإسناد.

القوم المفسدين في الأرض وبين الناس، فإذا جاء وعد ربي أي الوقت الذي قدر انهدامه فيه جعله دكًا أي مساويًا للأرض وكان وعد ربي حقًا أي وهذا شيء لابد من كونه، وتركنا بعضهم يموج في بعض، يعني بذلك يوم انهدامه حين يخرجون على الناس فيمرحون فيهم وينسلون، أي يسرعون المشي من كل حدب، ثم يكون النفخ في الصور للفزع قريبًا من ذلك الوقت، كما قال في الآية الأخرى(١).

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦ - ٩٧].

ومن السنة ثبت في الصحيحين من حديث زينب بنت جحش: أن رسول الله ﷺ نام عندها ثم استيقظ محمراً وجهه، وهو يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**»، وحلق بين أصبعين، وفي رواية: «**وعقد سبعين أو تسعين**»، قالت: قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»(٢).

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كانوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدًا، فيعودون إليه كأشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا، حتى إذا كانوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: اغدوا فستحفرون غدًا إن شاء الله ويستثنى** «يقول إن شاء الله» **فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون** «يجففون الماء» **ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيبعث الله عليهم نغفًا** «نوع من الدود» **في أقفائهم فيقتلهم بها، قال رسول الله** ﷺ: **والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكرًا** «تسمن وتمتلئ» **من**

(١) تفسير ابن كثير جـ٣.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٧١٣٥ ـ ومسلم ٢٨٨٠.

(٣) أخرجه أحمد ١٠٦٤٠ ـ وابن ماجه ٤٠٨٠. وقال الألباني في الصحيحة (١٧٣٥): صحيح.

كما قال ﷺ : «تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون كما قال الله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾.

فيخش «ينطلق خائفًا» الناس، وينحازون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، فيضربون ويشربون مياه الأرض حتى إن بعضهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان هاهنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أخذ في حصن أو مدينة، قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء، قال ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليهم مخضبة دماء للبلاء والفتنة، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عليهم داء في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقه فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه «يبيعها» فينظر ما فعل هذا العدو؟ قال: فيتجرد «يبرز» رجل منهم محتسبًا نفسه قد أوطنها «حملها» على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض فينادي: يا معشر المسلمين ألا أبشروا إن الله قد كفاكم عدوكم ،فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم، فما يكون لها مرعى إلا لحومهم فتشكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته»(١).

وقال ﷺ : «سيوقد الناس من قسي يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترستهم سبع سنين»(٢).

• • •

(١) أخرجه أحمد ١١٤٧٩ ـ وابن ماجه ٤٠٧٩ ـ وابن حبان في صحيحه ٦٨٣، وقال الألباني في صحيح الجامع (٢٩٧٣): حسن.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤٠٧٦ ـ وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ١٤٩٥، وقال الألباني في صحيح الجامع (٣٦٧٣): صحيح.

رابعًا: نزول الدخان من السماء:

الذي يكون قبل يوم القيامة. وهو الذي قال تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٠ - ١٦].

وكما قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات، وذكر الدخان**» «الحديث»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**إن ربكم أنذركم ثلاثًا: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال**»(٢).

وعن علي رضي الله عنه قال: «لم تمض آية الدخان بعد، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام، وتنفخ الكافر حتى ينفد» هذا وقد وردت آثار عن الصحابة والتابعين تتوافق مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي تدل دلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾.

أي بين واضح يراه كل أحد، وليس كما رأى ابن مسعود أنه الجوع والجهد الذي أصاب قريشًا وأهل مكة بعد دعاء النبي ﷺ عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان، وفي رواية، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد.

---

(١) صحيح تقدم.
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣٤٤٠. وفي إسناده محمد بن إسماعيل بن عياش لم يسمع من أبيه، قال أبو حاتم الرازي: لم يسمع من أبيه شيئًا حملوه على أن يحدث عنه فحدث.

فليس الخيال كالدخان المبين الواضح.

وقوله تعالى: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾.

أي يتغشاهم ويعمهم، ولو كان أمرًا خياليًا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ وقوله تعالى: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٣، ١٤].

أو يقول بعضهم لبعض ذلك.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم[١].

خامسا: طلوع الشمس من المغرب:

«لا تنفع توبة التائب بعد طلوع الشمس من مغربها».

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «**يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا إيمانها قال: طلوع الشمس من مغربها**»[٢].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل**»[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ ص١٣٨ - ١٤٠ بتصرف.

(٢) أخرجه أحمد ١١٢٨٤ - وعبد بن حميد ٩٠٢. وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري ٤٦٣٦ - ومسلم ١٥٧.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، ودابة الأرض»**(١).

وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت؟ قلت: لا، قال إنها تنتهي فتسجد تحت العرش ثم تستأذن فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا»**(٢).

وقال ﷺ: **«إن أول الآيات طلوع الشمس، وخروج الدابة ضحى، فأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبًا»**(٣).

قال عبد الله بن عمرو: وأظن أولاهما خروجًا: طلوع الشمس من مغربها وذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع فأذن لها في الرجوع، حتى إذا أذن الله أن تطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل وأتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع فلا يرد عليها شيء، ثم تستأذن في الرجوع فلا يرد عليها شيء، حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب، وعرفت أنه وإن أذن لها في الرجوع لم تدرك المشرق قالت: رب ما أبعد المشرق من لي بالناس؟ حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت في الرجوع، فيقال لها: ارجعي من مكانك فاطلعي فطلعت على الناس من مغربها، ثم تلا عبد الله هذه الآية: **﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾**»(٤).

وقوله في الحديث: **«إن أول الآيت خروجًا طلوع الشمس...»** الحديث. فالمراد بالآيات هنا الآيات التي ليست مألوفة، وهي مخالفة للعادات المستقرة،

---

(١) أخرجه مسلم ١٥٨.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٣١٩٩ ـ ومسلم ١٥٩.

(٣) أخرجه مسلم ١١٨.

(٤) أخرجه أحمد ٦٨٨١ ـ وعبد بن حميد ٣٢٦ ـ وابن أبي شيبة في المصنف ٣٧٢٨٨ وغيرهم، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

فالدابة التي تكلم الناس، وتُعَيِّنُ الكافر منهم من المؤمن، وطلوع الشمس من مغربها متقدم على الدابة، وذلك محتمل ومناسب والله أعلم(١).

هذا، ولا يزال في المسلمين من يقوم الليل عابدًا حتى تطلع الشمس من مغربها! كما ورد ذلك في الأحاديث، ومن ذلك:

عن عبد الله بن أبي أوفى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليأتين على الناس ليلة تعدل ثلاث ليال من لياليكم هذه، فإذا كان ذلك عرفها المتنفلون، يقوم أحدهم فيقرأ حزبه، ثم ينام ثم يقوم فيقرأ حزبه ثم ينام، فبينما هم كذلك، صاح الناس بعضهم في بعض، فقالوا: ما هذا؟ فيفزعون إلى المساجد، فإذا هم بالشمس قد طلعت حتى صارت في وسط السماء رجعت وطلعت من مطلعها، قال فحينئذ لا ينفع نفسًا إيمانها**»(٢).

وعن حذيفة قال: سألت النبي ﷺ ما آية طلوع الشمس من مغربها قال: «**تطول تلك الليلة حتى تكون قدر ليلتين فيتنبه الذين كانوا يصلون فيها، يعملون كما كانوا يعملون قبلها، والنجوم لا ترى قد باتت مكانها، يرقدون ثم يقومون فيصلون، ثم يرقدون ثم يقومون فيصلون، ثم يرقدون ثم يقومون يتطاول الليل فيفزع الناس، ولا يصبحون فبينما هم ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها إذ طلعت من مغربها، فإذا رآها الناس آمنوا ولا ينفعهم إيمانهم**»(٣).

وعن عبد الله بن مسعود أنه قال ذات يوم لجلسائه: أرأيتم قول الله:

﴿ **تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ** ﴾ [الكهف: ٨٦].

ماذا يعني بها. قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**إنها إذا غربت سجدت له وسبحته وعظمته، ثم كانت تحت العرش، فإذا حضرها طلوعها سجدت له وسبحته وعظمته، ثم استأذنت، فإذا كان اليوم الذي تحبس فيه سجدت له وسبحته وعظمته، ثم استأذنته فيقال لها: تأني فتحبس قدر ليلتين، قال: ويفزع المتهجدون**

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم جـ١ ص٢١٨ بتصرف.

(٢) أخرجه عبد بن حميد والحافظ أبو بكر بن مردويه في التفسير. وقال ابن كثير: هذا حديث غريب من هذا الوجه وليس هو في شيء من الكتب الستة.

(٣) أخرجه ابن مردويه في تفسيره. وقال ابن كثير: وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه.

ويـنادي الرجل تلك الليلة جـاره يا فـلان ما شـأننا الليلة؟ لقد نمت حتى شبعت، وصليت حتى أعييت؟ ثم يقال لها: اطلعي من حيث غربت، فذلك يوم لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل»[١].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الهجرة خصلتان: إحداهما أن تهجر الشر، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع ما تقبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من الغرب، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه، وكفى الناس العمل»**[٢].

وعن صفوان بن عسال قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله فتح بابًا قبل المغرب، عرضه سبعون أو أربعون ذراعًا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس»**[٣].

فهذه الأحاديث المتواترة مع الآية الكريمة دليل على أن من أحدث إيمانًا أو توبة بعد طلوع الشمس من مغربها لا يقبل منه وإنما كان كذلك ـ والله أعلم ـ لأن ذلك من أكبر أشراط الساعة وعلاماتها الدالة على اقترابها ودنوها، فعومل ذلك الوقت معاملة يوم القيامة[٤].

واستئناسا بالعلم، أثبت العلم التجريبي إمكانية طلوع الشمس من مغربها، وذلك عن طريق تباطؤ سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس فتجبر الأرض في لحظة من لحظاتها المستقبلية على تغيير اتجاه دورانها فتطلع الشمس من مغربها، فمن أخبر محمداً ﷺ بهذا، ونبأه به، يقول لك «نبأني العليم الخبير».

* * *

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في البعث والنشور. قلت في إسناده ابن أبي ليلى وهو سيئ الحفظ جداً.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب ٧٢١٥. وقال ابن كثير في تفسيره: هذا الحديث حسن الإسناد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة.

(٣) أخرجه أحمد ١٨١٢٠ ـ والترمذي ٣٥٣٥. وقال الألباني في صحيح الترمذي: حسن الإسناد.

(٤) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير جـ١ ص٢١٩ ـ ٢٢٢ بتصرف.

سادسًا: خروج الدابة من الأرض تكلم الناس:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢].

قال ابن كثير: «هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق يخرج الله لهم دابة من الأرض، قيل من مكة، وقيل من غيرها، فتكلم الناس على ذلك، كما قال ابن عباس والحسن وقتادة، ويروى عن علي رضي الله عنه: تكلمهم كلامًا أي تخاطبهم مخاطبة، وقال عطاء الخرساني: تكلمهم فتقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، ويروى هذا عن علي واختاره ابن جرير، وفي هذا القول نظر لا يخفى، والله أعلم.

وقال ابن عباس في رواية تجرحهم، وعنه رواية قال: كلاً تفعل، يعني هذا وهذا، وهو قول حسن ولا منافاة وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة فلنذكر منها ما تيسر والله المستعان[(١)].

* ففي حديث مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال ستا: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، وخويصة أحدكم**»[(٢)] والخويصة تصغير خاصة.

والمراد بخاصة أحدكم الموت الخاص لكل إنسان لأنه يخص من وقع به.

أما أمر العامة فالمراد به قيام الساعة لأنه يشمل الأحياء جميعًا فلا يترك فيهم مخلوقًا.

* وروى أبو داود الطيالسى عن حذيفة بن أسيد الغفاري أبي شريحة وأما جرير فقال عن عبد الله بن عبيد عن رجل من آل عبد الله بن مسعود، وحديث طلحة أتم وأحسن، قال ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال: «لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خرجة من أقصى البادية، ولا يدخل ذكرها القرية يعني مكة ثم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٣ ص٣٧٤، ٣٧٥ بتصرف.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٤٧.

تكمن زمنا طويلاً ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك فيعلو ذكرها في أهل البادية، ويدخل ذكرها القرية يعني مكة.

قال رسول الله ﷺ: «ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها، المسجد الحرام، لم يرعهم إلا وهي ترغو «تصوت وتضج» بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس عنها شتىً ومعًا، وبقيت عصابة المؤمنين، وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلتها مثل الكوكب الدري، وولت في الأرض، لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب، حتى إن الرجل ليتعوذ فتأتيه من خلفه فتقول: يا فلان الآن تصلي؟ فيقبل عليها فتسمه في وجهه، ثم تنطلق، ويشترك الناس في الأموال ويصطحبون في الأمصار، يعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن ليقول: يا كافر اقضني حقي، وحتى إن الكافر ليقول يا مؤمن اقضني حقي»(١).

* * *

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي ١٠٦٩ - والحاكم في المستدرك ٨٤٩١. وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

سابعًا: محو القرآن من الأرض:

روى ابن ماجه من حديث حذيفة بن اليمان أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدرس الإسلام كما يدرس «يذهب أثره» وشى الثوب «أعلام الثوب» حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة ويسري النسيان على الكتاب في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة «لا إله إلا الله» فنحن نقولها» رواه ابن ماجة، وزاد الحاكم: قال صلة بن زفر لحذيفة: ما تغني عنهم وهم لا يدرون ما صيام ولا صدقة..

ـ فأعرض عنه حذيفة، ثم رددها عليه ثلاثًا، كل ذلك يعرض عنه حذيفة ـ ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال يا صلة: تنجيهم من النار «ثلاثًا»[(١)].

وهذا دال على أن العلم يرفع من الناس في آخر الزمان حتى إن القرآن يسري عليه النسيان في المصاحف والصدور، ويبقى الناس بلا علم، وإنما الشيخ الكبير والعجوز المسنة يخبران بأنهم أدركوا الناس وهم يقولون: «لا إله إلا الله» فهم يقولونها على وجه التقرب إلى الله عز وجل، فهي نافعة لهم وإن لم يكن عندهم من العمل الصالح والعلم النافع غيرها[(٢)].

* * *

(١) أخرجه ابن ماجه ٤٠٤٩ ـ والحاكم في المستدرك ٨٤٦٠ ـ والبيهقي في الشعب ٢٠٢٨. وقال الألباني في صحيح الجامع (٨٠٧٧): صحيح.

(٢) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير جـ١ ص٤١ بتصرف.

ثامنًا: مجيء ريح طيبة تقبض أرواح المؤمنين:

* أخرج الإمام مسلم، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين يومًا أو أربعين شهرًا أو أربعين عامًا فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه، قال: سمعته من رسول الله ﷺ قال: فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا فيتمثلهم - يستولي عليهم - الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌ رزقهم، حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يبقى أحد إلا أصغى ليتًا «صفحة عنقه» ورفع ليتًا، قال: وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله «يجصصه»، قال فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله - أو قال: ينزل الله مطرًا كأنه الطل أو الظل - شك من نعمان الراوي - فينبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه مرة أخرى، فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم «وقفوهم إنهم مسئولون» ثم يقال: أخرجوا بعث النار فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون، قال: وذلك يوم يجعل الولدان شيبًا ويوم يكشف عن ساق «كناية عن الشدة»[(١)].

وفي الحديث عن يأجوج ومأجوج السابق وفيه «**فبينما هم على ذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة تحت آباطهم فيقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة**»[(٢)].

* وعن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى**»، فقلت: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله

---

(١) أخرجه مسلم ٢٩٤٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٣٧.

قـوله ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾.

أن ذلك تام. فقال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحًا طيبة يتوفى بها كل من كـان في قلبه مثقال حبـة خردل من إيمان فيبقى من لا خـير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم»(١).

* * *

العلامة التاسعة والعاشرة والحادية عشر:

ثلاثة خسوف:

١ ـ خسف بالمشرق.

٢ ـ خسف بالمغرب.

٣ ـ خسف بجزيرة العرب.

وهي أعظم الخسوف، كـما جاء ذلك في حديث حذيفة بن أسـيد الذي سبق ذكره.

* * *

(١) أخرجه مسلم ٢٩٠٧.

آخر العلامات الكبرى هو أول أشراط الساعة وقيامها، ومقدمات الحشر:

نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب.

كما جاء في الحديث عن أنس أن عبد الله بن سلام سأل رسول الله ﷺ: ما أول أشراط الساعة؟ فقال: «**نار تحشر الناس من المشرق إلي المغرب**»(١).

وفي رواية: «**نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس أو تحشرهم تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا**»(٢).

ثم عليهم تقوم الساعة، كما قال ﷺ: «**تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم، والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم، والرجل يلوط "يجصص" حوضه فما يصدر حتى تقوم**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري ٣٣٢٩.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٠١.

(٣) أخرجه مسلم ٢٩٥٤.

بداية الانقلاب الحقيقي، بزوال الدنيا وإقبال الآخرة

إذا أذن الله عز وجل بانقـراض الكون، وانتهاء هذه الحيـاة الأولى، أمر ملكًا يدعى «إسرافـيل» أن ينفخ في الصور نفخة واحـدة للفناء، فيكون ذلك أول شيء يطرق أسماع أهل الدنيـا بعد وقوع أشراط الساعة، فإذا سـمع الناس تلك النفخة فزعوا، فيـنظرون، فلا يبقى أحد من أهل الأرض إلا أصغى ليتًـا ورفع ليتًا - أي رفع صفحة عنقه وأمال الأخـرى - يستمع هذا الأمر العظيم، الذي قد هال الناس وأزعجهم عما كانوا فيه من أمر الدنيا، وشغلهم بها، وفي وقوع هذا الأمر العظيم قال الله تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ** ﴾ [النمل: ٨٧].

وتطول نفخة الفـزع هذه، فيصاب الكون كله بخلخلة عنيفـة، فتنحل بها كل الروابط التي كانت تـربط بين أجزاء الكون، فتـرتج الأرض رجًا عنيفًـا، وتتزلزل زلزالاً مروعًا، وتندك مع جبالها دكًا، فتصـير هباءً منبثًا، وتصاب السماء بانفطار عظيم، فتـتناثر الكواكب، وتنكدر الشمس، ويـذهب ضوءها، وتنصهـر الأجرام السماوية بجمـيع مجراتها، فإذا هي كالنحاس المذاب تمامًا، بل وتسـجر البحار إذا أضرمت نيرانًا، وإذا العالم كله قد صار خـرابًا وبخارًا، فما حال الإنسان المسكين أمـام ذلك الهول العظيم، إنه لا شيء، إنـه يطير، ويجـري هنا وهناك كالفـراش المبثوث، بلا روية ولا تفكير، ولكن سرعان ما يتلاشى ويزول.

اسمع قول الله تعالى يصور لنا تلك الأحداث العظام، والأهوال الجسام: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾ [الحج: ١، ٢].

ويقول سبحانه: ﴿ **الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ** ﴾ [القارعة: ١-٥].

ويقول جل شأنه : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ﴾ [الزلزلة: ١ - ٢].

وقال عز وجل : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴾ [الواقعة: ١ - ٦].

كما قال الله أيضًا : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير: ١ - ٦].

وقال جل وعلا: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار: ١ - ٤].

وقال عز وجل: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق: ١ - ٤].

وقال جل وعز: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝٩ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ [المعارج: ٨ - ١٤].

كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٨].

كما قال: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبأ: ١٨ - ٢٠].

وقال أيضًا: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ [النازعات: ٦ - ٩].

- وتطول تلك النفخة، بأمر الله تعالى، حتى يصعق من في السموات ومن في الأرض، إلا من شاء الله كما قال تعالى: ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الزمر: ٦٨].

فإذا تساءلت: ما هو الصور؟ فنجيبك إنما هو القرن أو البوق أو الناقور.

روى الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ** ﴾ [المدثر: ٨]. قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ؟**».

قال أصحاب محمد: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال: قولوا: «**حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا**»(١). وأما عن عظَمه، فكما روي «إن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض، خلق الصور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه، شاخصًا إلى العرش ببصره، ينتظر متى يؤمر؟ قال: قلت يا رسول الله ما الصور؟ قال: قرن، قال: كيف هو؟ قال: عظيم، قال: والذي بعثني بالحق إن عظم دائرة فيه لعرض السموات والأرض، ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله، ويأمره تعالى فيمدها ويطيلها ولا يفتر، وهي التي يقول الله فيها ﴿ **وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ** ﴾ [ص: ١٥].

فتسير الجبال سير السحاب فتكون سرابًا، وترتج الأرض بأهلها رجًا، فتكون كالسفينة في البحر، تضربها الأمواج، تكفأ بأهلها كالقنديل المعلق بالعرش، ترجه الرياح، ألا وهو الذي يقول الله تعالى فيه: ﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ** ﴾.

فتميد الأرض بأهلها، وتذهل المراضع، وتضع كل الحوامل، وتشيب الولدان، ويطير الناس هاربين من الفزع، فتلقاهم الملائكة فتضرب وجوههم

---

(١) أخرجه أحمد ٣ ـ ١١٠٥٣ ـ والترمذي ٢٤٣١ ـ وعبد بن حميد ٨٨٦ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (٤٥٩٢): صحيح.

فيرجعون، ثم يولون مدبرين، ما لهم من الله من عاصم، ينادي بعضهم بعضاً، وذلك قوله تعالى: ﴿**إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ**﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣].

فبينما هم على ذلك، إذ تصدعت الأرض بصدعين، من قطر إلى قطر، فرأوا أمراً عظيماً، لم يروا مثله، وأخذهم لذلك من الكرب والهول ما الله به عليم، نظروا في السماء فإذا هي كالمهل، ثم انشقت السماء، فانتثرت نجومها، وخسفت شمسها وقمرها، فإذا تساءلت: من الذين استثناهم الله تعالى: ﴿**إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ**﴾؟

قلنا: هم الأموات: إذ الأموات لا يعلمون بشيء من ذلك، إذ الفزع يصل إلى الأحياء.

والشهداء: لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، فوقاهم الله فزع ذلك اليوم، وآمنهم منه، لأنه عذاب الله، يبعثه على شرار خلقه، فيمكثون في ذلك العذاب ما شاء الله، حتى يأمر إسرافيل بنفخة الصعق، فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله من الملائكة.

كما جاء في الخبر[١]. أن الله تعالى يأمر إسرافيل فينفخ نفخة الصعق، فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، فإذا هم خامدون، جاء ملك الموت إلى الجبار، فيقول: يا رب مات أهل السموات والأرض إلا من شئت، فيقول الله، وهو أعلم بمن بقي، فمن بقي؟ فيقول: يا رب بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت حملة عرشك، وبقي جبريل وميكائيل، وبقيت أنا، فيقول الله، ليمت جبريل وميكائيل، فينطق الله العرش فيقول: يا رب يموت جبريل وميكائيل؟ فيقول اسكت، فإني كتبت الموت على كل من كان تحت عرشي، فيموتان، ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار عز وجل، فيقول: يا رب قد مات جبريل وميكائيل، وبقيت أنا وحملة العرش، فيقول الله، فليمت حملة عرشي، فيموتون، ويأمر الله

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده - وابن جرير الطبري في التفسير - وأبو الشيخ في العظمة وغيرهم. وقال الطبراني: هذا حديث مشهور وهو غريب جداً ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة وفي بعض ألفاظه نكارة.

العرش فيقبض الصور من إسرافيل، ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار، فيقول: يا رب قد مات حملة عرشك، فيقول وهو أعلم بمن بقي: فمن بقي؟ فيقول: يا رب بقيت أنت الحي الذي لا يموت، وبقيت أنا، فيقول الله: أنت خلق من خلقي، خلقتك لما رأيت، فمت، فيموت، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، كان آخرًا كما كان أولاً. طوى السموات والأرض كطي السجل للكتب، ثم دحاها ثم لفها ثلاث مرات. وذلك قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقوله: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الزمر: ٦٧].

ثم يقول أنا الجبار ثلاثًا: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم هتف بصوته: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، فلا يجيبه أحد فيقول لنفسه: لله الواحد القهار، وذلك قوله تعالى: ﴿**لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾ [غافر: ١٦].

ثم يبدل الأرض غير الأرض والسموات، فيبسطها ويسطحها، ويمدها مد الأديم العكاظي، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، وذلك قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ**﴾ [إبراهيم: ٤٨].

ثم يزجر الله الخلق زجرة، فإذا هم في مثل ما كانوا فيه في الأولى، من كان في بطنها كان في بطنها، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها، وذلك قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ**﴾ [النازعات: ١٣، ١٤].

ثم يأمر الله تعالى السماء أن تمطر فتمطر أربعين يومًا، حتى يكون الماء فوقهم اثني عشر ذراعًا، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت، فتنبت كنبات البقل، مما تبقى من الأجساد، إذ يفنى كل شيء إلا عَجْبَ الذنب، ومنه ينبتون، حتى إذا تكاملت أجسادهم، فكانت كما كانت، قال الله: ليحيى جبريل وميكائيل، فيحييان، ثم يدعو الله بالأرواح، فيؤتى بها؛ تتوهج أرواح المسلمين نورًا، والأخرى ظلمة، فيقبضها جميعًا، ثم يلقيها في الصور، ثم يأمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث،

فينفخ نفخة البعث، فتخرج الأرواح كأنها النحل، قد ملأت ما بين السماء والأرض، فيقول الله: وعزتي وجلالي، ليرجعن كل روح إلى جسده، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد، فتدخل في الخياشيم ثم تمشي في الأجساد مشي السم في اللديغ، ثم تنشق الأرض عنهم، فيخرجون منها سراعًا إلى ربهم ينسلون. وذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر: ٦ - ٨].

وقوله سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣، ٤٤].

وقوله جل وعلا: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٥١ - ٥٣].

هذا وأول من تنشق عنه الأرض هو سيد الخلق، وحبيب الحق، إذ يقول ﷺ: «.. **فأكون أول من تنشق عنه الأرض**»(١).

وبانتهاء الكلام عما بين النفختين «الصعق والقيام» لعلك تتساءل: كم كان بينهما؟ فإن النبي ﷺ يجيب على هذا السؤال، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «**بين النفختين أربعون**» قالوا يا أبا هريرة: أربعون يومًا؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أبيت، قالوا أربعون سنة، قال: أبيت.. قال: ثم ينزل من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، قال: وليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظمًا واحدًا، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٢٤١٢ - ومسلم ٢٣٧٤.

القيامة»[1] فعدم جزم أبي هريرة - راوي الحديث - شك منه، غير أنه ورد في رواية أخرى مفسراً، بلفظ «أربعون سنة» قاله النووي في شرحه على مسلم.

وإذا كانت السماء ستمطر أربعين يومًا، فيستبعد أن تكون هذه المدة أربعين يومًا، والراجح أنها أربعون سنة، ولكن لا يدرى، أهي بأيامنا هذه أم بأيام الله تعالى؟ . . والله تعالى أعلم.

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٤٨١٤ ـ ومسلم ٢٩٥٥.

يوم البعث، والوقوف على أرض المحشر

مضى بنا الكلام إلى نفخة البعث، وخروج الناس من قبورهم، سراعًا ينسلون إلى ربهم، وهم إذ يخرجون من القبور فإنهم يحشرون إلى ساحة واحدة تدعى عرصات يوم القيامة، وذلك لفصل القضاء والحكم بينهم، ومجازاتهم فيحشرون حفاة، عراة، غلفًا أو غرلاً، أي غير مختونين، وذلك كما في الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وكما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ولقول النبي ﷺ - في الحديث الذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها - «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً، قلت: يا رسول الله: النساء والرجال جميعا، ينظر بعضهم إلى بعض، قال ﷺ: «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض»(١).

وفي رواية: «يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً»، فقالت عائشة يا رسول الله: فكيف بالعورات؟ فقال: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه»(٢).

ولكن هذا لا يمنع من أن يكسى بعضهم كما في الحديث عن جابر رضي الله عنه قال: «إن المؤذنين والملبين يخرجون يوم القيامة، يؤذن المؤذن، ويلبي الملبي، وأول من يكسى من حلل الجنة إبراهيم ثم محمد ثم النبيون ثم المؤذنون» وذكر تمامه(٣).

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٦٥٢٧ - ومسلم ٢٨٥٩.

(٢) أخرجه أحمد ٢٤٦٣٢ - والنسائي ٢٠٨٣ - والطبراني في مسند الشاميين ١٧٤٧ وغيرهم - وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح رجاله ثقات.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، وقال الألباني في ضعيف الجامع (١٧٦٦): ضعيف جداً.

وفي الحديث أيضًا: «**أول من يكسى إبراهيم، يقول الله، اكسوا خليلي، فيؤتى بريطتين - الثوب اللين الرقيق - بيضاوين فيلبسهما، ثم يقعد مستقبل العرش، ثم أوتي بكسوتي فألبسها، فأقوم عن يمينه قيامًا لا يقومه أحد غيري، يغبطني فيه الأولون والآخرون**»(١).

* هذا ويحشر الناس أصنافًا ثلاثة: من يمشي، ومن يركب، ومن يزحف:

قال ﷺ: «**يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنف مشاة، وصنف ركبان، وصنف على وجوههم، قالوا يا رسول الله، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: إن الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك**»(٢).

وفي القرآن الكريم: ﴿**وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا**﴾ [الإسراء: ٩٧، ٩٨].

وقال تعالى: ﴿**يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا**﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦].

وقال ﷺ: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار**»(٣).

ثم ماذا؟ يقف الناس على أرض المحشر، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، يخففه الله عز وجل على من يشاء حتى يصل إلى مقدار ركعتين يركعهما المسلم في دنياه، كما في الحديث «**والذي نفسي بيده إنه ليخف على المؤمن، حتى**

---

(١) أخرجه أحمد ٣٧٨٧ - والطبراني في الكبير ١٠٠١٧ - والحاكم في المستدرك ٣٣٨٥ وغيرهم وفي إسناده عثمان بن عمير ضعفه الحافظ في التقريب.

(٢) أخرجه أحمد ٨٦٣٢ - والترمذي ٣١٤٢ - وإسحاق بن راهويه في مسنده ١٢٩. وقال الألباني في ضعيف الجامع (٦٤١٧): ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد ٦٦٧٧ - والترمذي ٢٤٩٢ - والبخاري في الأدب المفرد ٥٥٧ وغيرهم. وقال الألباني في صحيح الجامع (٨٠٤٠): حسن.

يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»[١]، يقفون موقفًا واحدًا، صفًا واحدًا، لا ينظر إليهم مقدار سبعين عامًا، ولا يقضي بينهم، فيكون حتى ينقطع عنهم الدمع، ثم يبكون دمًا، ويعرقون حتى يبلغ ذلك منهم مبلغًا، وذلك كما في الحديث «**إن الشمس تدنو من العباد يوم القيامة، فتكون منهم على مسافة ميل، فعند ذلك يعرقون بحسب الأعمال**»[٢] وفي رواية «**إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين**» قال سليم: لا أدري أي الميلين؟ أمسافة الأرض؟ أم الميل الذي تكحل به العين؟ قال: فتغمرهم الشمس فيكونون في العرق بقدر أعمالهم، فمنهم من يأخذه العرق إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا، قال: فرأيت رسول الله ﷺ يشير بيده إلى فيه، قال: «**يلجمه إلجامًا**»[٣].

هذا - وفي تلك الأثناء العصيبة، نرى أناسًا منعمين، مستظلين بظل الله يوم القيامة كما في الصحيح عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله، وفي رواية: إلا ظل عرشه: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، واثنان تحابا في الله، اجتمعا على ذلك، وتفرقا على ذلك، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»[٤].

وهذا الوقت العصيب يسمع الناس هذا النداء - كما جاء في الحديث: «**ينادي الله عز وجل على آدم فيقول: يا آدم: ابعث بعث النار، قال: يا رب: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، قال:**

---

(١) أخرجه أحمد ١١٧٣٥ - وابن حبان في صحيحه ٧٣٣٤. وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب: ضعيف.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد ٢٢٢٤٠ - والطبراني في مسند الشاميين ١٩٩٣ - والمعجم الكبير ٧٧٧٩. وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.

(٣) أخرجه مسلم ٢٨٦٤.

(٤) متفق عليه أخرجه البخاري ٦٦٠ - ومسلم ١٠٣١.

فأبلس الصحابة، ما ترى لأحدهم سن ضاحكة، فلما رأى ذلك قال: اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده، إنكم لمع خليقتين، ما كانتا في شيء قط إلا كثرتاه، يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بني آدم ومن بني إبليس، قال: فسرى عنهم، ثم قال: اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده، ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، والرقمة في ذراع الدابة»(١).

ومع هذا كله نرى جهنم وقد برزت، وزمجرت، وتغيظت وزفرت، وأرسلت بشررها كأنه القصر في العظَم، والجِمَال الصُفر في التتابع، وخرج منها عنق له ثلاثة رؤوس يقول: وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبمن أشرك مع الله إلهًا آخر، وبمن لم يؤمن بيوم الحساب.

كما قال تعالى: ﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٢٩ - ٣٤].

فهناك تجثو الأمم على الركب، كما قال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٨].

ويشيب الولدان، كما قال عز وجل: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ [المزمل: ١٧].

ولما يطول موقفهم، ويعظم كربهم، يقول بعضهم لبعض، ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تستشفعون إلى ربكم، فيبحثون عن الشفعاء. فيأتون آدم عليه السلام، ونوحًا عليه السلام، وإبراهيم عليه السلام، وموسى عليه السلام، وعيسى عليه السلام، فيعتذرون، ويقولون: نفسي نفسي، إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبل مثله، ولن يغضب بعد مثله، حتى انتهوا إلى خاتم الأنبياء وإمام المرسلين، محمد ﷺ، الذي يقول: أنا لها، أنا لها، فيأتي ربه فيخر ساجدًا تحت العرش، ويلهمه ربه تعالى محامد يحمده بها، فلا يزال كذلك

(١) أخرجه أحمد ١٩٩١٥ ـ والترمذي ٣١٦٩ ـ والطيالسي ٨٣٥ وغيرهم، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين.

حتى يقول له الله تعالى: يا محمد: إرفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع، فيرفع رأسه، ويسأل ربه تعالى الشفاعة العظمى، والمقام المحمود ﴿ **عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ [الإسراء: ٧٩].

فتكون الشفاعة العظمى بفصل القضاء أولاً[١].

وهو المقام الذي يقومه رسول الله ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

ثم تكون شفاعته ﷺ لأمته، وهو يقول: يا رب أمتي، فيقال له: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب حتى يقال له: أخرج من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان[٢].

ويجري بعد ذلك القضاء مجراه.

فبعد أن يسأل محمد ﷺ ربه الشفاعة، يقول: يا رب وعدتني الشفاعة، فشفعني في خلقك، فاقض بينهم، فيقول: شفعتك، أنا آتيكم، فأقضي بينكم.

وقد جاء في الخبر: أن النبي ﷺ بعد ذلك، يعود فيقف مع الناس، ينتظرون فصل القضاء، فإذا بالناس يسمعون حساً شديداً من السماء، فإذا هم ملائكة السماء الدنيا وعددهم مثل من في الأرض من الجن والإنس، حتى إذا دنوا من الأرض، أشرقت الأرض بنورهم، وأخذوا مصافهم، وسألهم الناس: أفيكم ربنا؟ قالوا: لا، وهو آت، ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف حتى ينزل الجبار تبارك وتعالى في ظلل من الغمام والملائكة، ويحمل عرش ربك يومئذ ثمانية، وهم اليوم أربعة، أقدامهم على تخوم الأرض السفلي، والأرض والسموات إلى حجزهم، والعرش على مناكبهم، ولهم زجل من تسبيحهم يقولون: سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت.

---

(١) راجع أحاديث الشفاعة بتمامها في فصل الشفاعة في الجزء الأول.

(٢) صحيح تقدم.

وذلك قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢١-٢٣].

وقوله سبحانه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

كما قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٦٩، ٧٠].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥، ٢٦].

ثم يضع الله عز وجل كرسيه حيث شاء من أرضه ـ يعني بذلك كرسي فصل القضاء، وهو بخلاف الكرسي المذكور في حديث النبي ﷺ: «ما السموات السبع، والأرضون السبع، وما فيهن وما بينهن، وما الكرسي، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وما الكرسي في العرش إلا كتلك الحلقة بتلك الفلاة، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل»(١).

ثم يهتف بصوته فيقول: (يا معشر الجن والإنس، إني قد أنصت لكم من يوم خلقتكم إلى يومكم هذا، أسمع قولكم، وأرى أعمالكم، فأنصتوا إلي، فإنما هي أعمالكم وصحفكم، تقرأ عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه).

ثم يبدأ ربنا فصل القضاء بين خلقه إلا الثقلين ـ الإنس والجن ـ فيقضي بين الوحوش والبهائم، حتى إنه ليقتص للجماء من القرناء، فإذا فرغ الله من ذلك، فلم تبق تبعة عند واحدة لأخرى، قال الله لها: كوني ترابًا، فعند ذلك يقول

---

(١) صحيح تقدم.

الكافر: يا ليتني كنت ترابًا، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨ - ٤٠].

ثم يقضي الله بين العباد، فيكون أول ما يقضي فيه الدماء، فيأتي كل قتيل في سبيل الله، ويأمر الله من قتل فيحمل رأسه تشخب أوداجه، فيقول: يا رب فيم قتلني هذا؟ فيقول الله تعالى ـ وهو أعلم ـ فيم قتلته؟ فيقول: قتلته يا رب لتكون العزة لك، فيقول الله: صدقت، فيجعل الله وجهه مثل نور السموات، ثم تسبقه الملائكة إلى الجنة، ثم يأتي كل من كان يقتل على غير ذلك، ويأمر من قتل فيحمل رأسه تشخب أوداجه، فيقول يا رب فيم قتلني هذا؟ فيقول الله ـ وهو أعلم ـ فيم قتلته؟ فيقول: يا رب قتلته لتكون العزة لي. فيقول الله: تعست، ثم ما تبقى نفس قتلها قاتل إلا قتل بها، ولا مظلمة إلا أخذ بها، وكان في مشيئة الله إن شاء عذبه، وإن شاء رحمه، ثم يقضي الله بين من بقي من خلقه، حتى لا تبقى مظلمة لأحد عند أحد إلا أخذها الله للمظلوم من الظالم، حتى إنه ليكلف شائب اللبن بالماء أن يخلص اللبن من الماء.

﴿ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ [غافر: ١٧].

فإذا فرغ الله من ذلك، نادى مناد يسمع الخلائق كلهم، فقال: ليلحق كل قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله، فلا يبقى أحد عبد من دون الله شيئًا إلا مثلت له الهيئة بين يديه، فيجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عزير، ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى، فيتبع هذا اليهود ويتبع هذا النصارى، ثم قادتهم آلهتهم إلى النار.

وذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ١٠٠].

فلما قال المشركون: إذن عزير سيدخل النار، وعيسى سيدخل النار - فرد الله عليهم بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣].

فيزج بهؤلاء إلى النار، وهم يقدمهم آلهتهم وأئمتهم مثل فرعون ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ [هود: ٩٨].

وأعتقد أن هؤلاء هم الذين لا يحاسبون ولا يسألون ولا يقام لهم وزن، كما قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ [الكهف: ١٠٥، ١٠٦].

وقال عنهم: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩].

* ثم ماذا، ثم يبقى خلق كثير، هم المؤمنون، وفيهم المنافقون، والعصاة والمرتدون ونحوهم فيقال: يا أيها الناس ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم، وما كنتم تعبدون، فيقولون: والله ما لنا إلا الله، ما كنا نعبد غيره، فينصرف عنهم الله، فيمكث ما شاء الله أن يمكث، ثم يأتيهم فيقول: يا أيها الناس: ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون، فيقولون: والله ما لنا إلا الله، وما كنا نعبد غيره، فيكشف عن ساقه، ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون به أنه ربهم، فيخرون سجداً على وجوههم، ويخر كل منافق على قفاه، ويجعل الله أصلابهم كصياصي البقر، ثم يأذن الله لهم فيرفعون رؤوسهم.

وذلك قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣].

* ثم يفصل الله عز وجل بين المؤمنين - الذين صار لهم نور عظيم - وبين المنافقين، الذين أظلم عليهم، فليس لهم من الضياء إلا كالشمعة الخافتة على إبهام أحدهم ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ [البقرة: ٢٠].

فإذا بهم ينادون أهل الإيمان أصحاب النور، ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

بماذا ينادونهم ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٣ - ١٥].

* ثم يعرض الناس على ربهم ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك»، فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧، ٨].

فقال: «إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب»(٢).

هذا وأول من يعرضون على الله تعالى الأنبياء.

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٧٥١٢ ـ ومسلم ١٠١٦.
(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٦٥٣٧ ـ ومسلم ٢٨٧٦.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦، ٧].

كما يشملهم ـ مع غيرهم ـ قول الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢].

وكما يعرض الأنبياء على الله، تعرض الملائكة وكذلك الأمم، ثم تشهد أمة النبي محمد ﷺ للأنبياء، وعلى الأمم، وقد جاء في الخبر[1] «إذا جمع الله عباده يوم القيامة، كان أول ما يدعى إسرافيل، فيقول له ربه: ما فعلت في عهدي؟ هل بلغت عهدي؟ فيقول: نعم قد بلغت، فيخلى عن إسرافيل، ويقال لجبريل: هل بلغت عهدي؟ فيقول: نعم قد بلغت الرسل: فيقول الله عز وجل لهم: هل بلغكم جبريل عهدي؟ فيقولون: نعم، فيخلى عن جبريل، ويقال: للرسل: ما فعلتم بعهدي؟ فيقولون: بلغنا أممنا، فتدعى الأمم، فيقال لهم: هل بلغكم الرسل عهدي؟ فيقولون: بلغونا، فمنهم المكذب ومنهم المصدق، وإنا لنا عليهم شهداء يشهدون أن قد بلغنا مع شهادتك، فيقول: من يشهد لكم؟ فيقولون: أمة محمد، فتدعى أمة محمد، فيقول الله تعالى لهم: أتشهدون أن رسلي هؤلاء قد بلغوا عهدي إلى من أرسلوا إليهم؟ فيقولون: نعم يا ربنا شهدنا أن قد بلغوا، فتقول تلك الأمم: كيف يشهد علينا من لم يدركنا؟ فيقول لهم الرب: كيف تشهدون على من لم تدركوا؟ فيقولون: ربنا بعثت إلينا رسولاً، وأنزلت إلينا عهدك وكتابك، وقصصت علينا أنهم قد بلغوا، فشهدنا بما عهدت إلينا، فيقول الرب: صدقوا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال ابن أرقم: فبلغني أنه يشهد أمة أحمد إلا من كان في قلبه إحنة.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد ـ وابن جرير الطبري في التفسير ـ وفي إسناده رشدين بن سعد وهو ضعيف.

وقال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة، فيقول له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه، فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، قال: فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، وذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

قال: والوسط: العدل، قال رسول الله ﷺ: «فتدعون، فتشهدون له بالبلاغ وأشهد عليكم»(١).

وقال ﷺ: «يجيء النبي يوم القيامة، ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، وأكثر من ذلك، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته، فيدعى محمد، فيقال له: هل بلغ هذا قومه؟ فيقول: نعم، ثم تدعى أمة محمد ﷺ فيقال لهم: هل بلغ هذا أمته؟ فيقولون: نعم، فيقال لم: ومن أعلمكم فيقولون: جاءنا محمد نبيًا، وأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، قال: فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

قال: يقول: عدلاً، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً»(٢).

وقد ذكر النبي ﷺ «تشريف إبراهيم عليه السلام يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وأنه أول الخلائق يكسى يوم القيامة»(٣).

وذكر موسى عليه السلام، وذكر شرفه وجلالته يوم القيامة، وكثرة أتباعه وانتشار أمته.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٣٣٩.

(٢) أخرجه أحمد ١١٥٧٥ ـ والنسائي في الكبرى ١١٠٠٧ ـ وابن ماجه ٤٢٨٤، وقال الألباني في صحيح الجامع (٨٠٣٣): صحيح.

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري ٤٦٢٥ ـ ومسلم ٢٨٦٠.

هذا، ومن الأنبياء الذين سيعرضون على الله عز وجل، ويتكلم الرب عز وجل معهم يوم القيامة «عيسى عليه السلام» قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٩].

وهذا السؤال من الله تعالى لعيسى ابن مريم، مع علمه تعالى أنه لم يقل شيئًا من ذلك، إنما على سبيل التقريع والتوبيخ لمن اعتقد فيه ذلك من ضُلاَّل النصارى وجهلة أهل الكتاب، فبرأ إلى الله تعالى من هذه المقالة.

كما تتبرأ الملائكة ممن اعتقد فيهم شيئًا من الإلهية، حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

وكذلك يتبرأ الشركاء من المشركين، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٢٨ - ٣٠].

وأما مقام الرسول محمد ﷺ عند الله يوم القيامة، فلا يدانيه مقام، ولا يساويه أحد، إذ يحصل له من التشريفات ما يغبطه كل الخلائق من العالمين، من الأولين والآخرين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وقد

تقدم ما ورد في المقام المحمود من الأحاديث والآثار، وأنه أول من يسجد بين يدي الله يوم القيامة، وأول من يشفع فيشفع، وأول من يكسى بعد الخليل، إذ يكسى الخليل ريطتين بيضاوين، ويكسى محمد ﷺ حلتين خضراوين، ويجلس الخليل بين يدي العرش، ومحمد ﷺ عن يمين العرش، فيقول: يا رب إن هذا ـ ويشير إلى جبريل ـ أخبرني عنك أنك أرسلته إليّ، فيقول الله عز وجل: صدق جبريل».

ثم يكون كلام الله تعالى مع الناس ومخاطبته لهم، وتذكيرهم بنعمه عليهم، وبمعصيتهم له، كما ثبت في الصحيحين، أن رسول الله ﷺ قال: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان**»، فيلقى الرجل، فيقول له: ألم أكرمك؟ ألم أزوجك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل؟ وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، فيقول: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فاليوم أنساك كما نسيتني»[1] وهذا فيه صراحة عظيمة في تكلم الله تعالى ومخاطبته لعبده الكافر، وهو لا يتنافى مع قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ٧٧].

فالمراد من هذا أنه لا يكلمهم ولا ينظر إليهم كلامًا ونظرًا يرحمهم به، كما أنهم عن ربهم يومئذ محجوبون بقوله تعالى: ﴿ **كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ** ﴾ [المطففين: ١٥].

وفي الصحيحين أيضًا، أن رسول الله ﷺ قال: «**يدني الله العبد يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه، ثم يقرره بذنوبه، فيقول: عملت في يوم كذا، كذا وكذا؟ وفي يوم كذا، كذا وكذا؟ فيقول: نعم يا رب، حتى إذا ظن أنه قد هلك، قال الله تعالى: إني سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»[2] وهناك آخر، يكذب بين يدي الله تعالى، كما روى مسلم وغيره، من حديث أنس بن مالك أنه قال:

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٧٥١٢ ـ ومسلم ١٠١٦.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٤٦٨٥ ـ ومسلم ٢٧٦٨.

كنا مع رسول الله ﷺ فضحك، وقال: هل تدرون مم أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: يقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول الله: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم الله على فيه، ويقول لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول بعداً لكنّ وسحقًا، فعنكن كنت أناضل»(١).

وذلك قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

ويقول عز وجل: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٤، ٢٥].

وكذلك قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٠ـ٢٤].

(١) أخرجه مسلم ٢٩٦٩.

أخذ الصحف أو الكتب

ثم يمضي الناس في عرصات يوم القيامة لمراحل الحساب، فينتظرون تطاير الصحف كما قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٤].

ورحم الله الحسن البصري إذ قال: لقد أنصفك يا ابن آدم من جعلك حسيب نفسك. فتتطاير الصحف، فيعطى الناس كتبهم، إما بأيمانهم أو بشمائلهم ومن وراء ظهورهم كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٦ - ١٥].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ [الحاقة: ١٨ - ٣٧].

والكل سيقرأ كتابه - سواء أكان أميًا أم متعلمًا - وسيجد فيه كل شيء ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣].

وكما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فيسعد المؤمن بعمله الصالح، ويبيض وجهه وهو يقرأ حسناته، ويسوء الكافر والفاجر عمله الطالح، ويسود وجهه وهو يقرأ سيئاته، وذلك قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧].

وصدق من قال:

مثل وقوفك يوم العرض عريانًا … مستوحشًا قلق الأحشاء حيرانًا
واقرأ كتابك يا عبدي على مهلٍ … فهل ترى فيه حرفًا غير ما كانا
لما قرأت ولم تنكر قراءته … إقرار من عرف الأشياء عرفانا
نادى الجليل خذوه يا ملائكتي … وامضوا بعبد عصى للنار عطشانا
المشركون غداً في النار يلتهبوا … والمؤمنون لدار الخلد سكانا

ميزان الأعمال

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ثم يتقدم الناس لميزان أعمالهم، وهم عند الميزان صنفان ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣].

كما قال ربنا أيضًا: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

فيا سعادة من ثقلت موازينه، ويا شقاوة من خفت موازينه. قال تعالى: ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [القارعة: ٧ - ١١].

أي يهوى على أم رأسه في نار جهنم، والعياذ بالله.

قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب، كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لنفس الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها، فيكون الجزاء بحسبهما. قال: وقوله: «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة» يحتمل أن يكون ثم موازين متعددة توزن فيها الأعمال، ويحتمل أن يكون المراد الموزونات، فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة، والله سبحانه وتعالى أعلم» ونقل أيضًا: أن الميزان له كفتان عظيمتان، لو وضعت السموات والأرض في واحدة لوسعتهما، فأما كفة الحسنات فنور، وأما كفة السيئات فظلمة، وهو منصوب بين يدي العرش، وعن يمينه الجنة، وكفة النور من ناحيتها - وعن يساره جهنم - وكفة الظلمة من ناحيتها.

واختلف في الشيء الموزون، هل هي الأعمال - وهي لا جرم لها - فكيف توزن؟ قال ابن عباس: إن الله يخلق الأعراض أجسامًا، فتوزن، قيل: وقد يوزن العامل نفسه.

والصحيح أنه توزن كتب الأعمال[١].

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أثقل شيء يوضع في الميزان خلق حسن»[٢].

وقد ورد: أن أبا بكر رضي الله عنه لما حضرته الوفاة، أرسل إلى عمر، فقال: إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان إذا وضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً. وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل في الدنيا، وخفته عليهم، وحق لميزان إذا وضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً»[٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾.

ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة خردل أو يرجح»[٤].

وهناك من تستوي حسناتهم بسيئاتهم كأهل الأعراف، فيبحثون عن حسنة، فلا يجدونها ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

---

(١) قاله القرطبي في التذكرة (٣٧٢ - ٣٧٣) بتصرف.

(٢) أخرجه الترمذي. وقال الألباني في صحيح الجامع (٥٦٣٢): صحيح.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد ٩١٤ - وهناد في الزهد ٤٩٦ - وابن أبي شيبة في المصنف ٣٤٤٣٣ وغيرهم. أرسله زبيد اليامي عن أبي بكر الصديق.

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير، وفي إسناده أبو بكر الهذلي متروك الحديث.

فينتظرون رحمة الله عز وجل، ثم شفاعة النبي ﷺ.

فوجب الإيمان بما أخبر به الله عز وجل ورسوله ﷺ من أن أعمال العباد توزن يوم القيامة بميزان الحق والعدل، الذي يزن بالخردلة، وأنه ميزان حقيقي، وله كفتان.

ورحم الله ابن القيم إذ قال في الشافية الكافية «النونية»:

أفما تصدق أن أعمال العباد ... تحط يوم العرض في الميزان
وكذلك تثقل تارة وتخف أخرى ... ذاك في القرآن ذو تبيان
وله لسان كفتان تقيمه ... والكفتان إليه ناظرتان
ما ذاك أمراً معنويًا بل هو ... المحسوس حقًا عند ذي الإيمان

وقال آخر:

تذكر يوم تأتي الله فرداً ... وقد نصبت موازين القضاء
وهتكت الستور عن المعاصي ... وجاء الذنب فكشف الغطاء

* * *

مبحث حول «الحوض»

لقد وردت أحاديث مشهورة ومتعددة من طرق مأثورة كثيرة متضافرة، عن الحوض المحمدي «نسأل الله عز وجل أن يسقينا منه شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبدًا».

ومن ذلك، ما رواه أُبيٌّ بن كعب أن رسول الله ﷺ ذكر الحوض، فقال أبي ابن كعب: يا رسول الله ما الحوض؟ فقال: **«والذي نفسي بيده إن شرابه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحًا من المسك، وآنيته أكثر عددًا من النجوم، لا يشرب منه إنسان فيظمأ أبدًا، ولا يصرف عنه إنسان فيروى أبدًا»**(١).

وقال ﷺ: **«إن قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء»**(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رسول الله ﷺ رأسه مبتسمًا، فقالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ. **«إنه أنزلت علي آنفًا سورة»**، فقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر..» حتى ختمها، ثم قال: **«هل تدرون ما الكوثر؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يختلج العبد منهم، فأقول: يا رب، إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»**(٣).

وفي لفظ آخر **«هو نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير، هو حوضي ترد عليه أمتي يوم القيامة»** وقال ﷺ: **«أنا فرط لكم على الحوض، وإن بُعد ما بين طرفيه كما بين**

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة. وقال الألباني في ظلال الجنة: إسناده موضوع إلا أن الحديث صحيح.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٦٥٨٠ - ومسلم ٢٣٠٣.

(٣) أخرجه مسلم ٤٠٠.

صنعاء وأيلة، كأن الأباريق فيها النجوم»(١) والفرط هو الذي يتقدم القوم إلى الماء، يهيئ الدلاء والرشاء، والرسول ﷺ فرط أمته وسابقهم ومتقدمهم إلى الحوض.

وفي الحديث أيضًا: «**الحوض مسيرة شهر، وزواياه سواء يعني عرضه مثل طوله، وكيزانه «أكوابه» مثل نجوم السماء، أطيب ريحًا من المسك، وأشد بياضًا من اللبن، من شرب منه لم يظمأ بعده أبدًا**»(٢).

وهذا الحوض يشرب منه أتباع النبي ﷺ، المتمسكون بسنته، ويحرم منه أهل الأهواء والبدع، ومن غيروا وبدلوا، ونكصوا على أعقابهم، وارتدوا عن دينهم كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**بينما أنا قائم - أي على الحوض - إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم، خرج رجل من بيني وبينهم، فقال لهم: هلم، قلت: إلى أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم، قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقري، ثم إذا زمرة أخرى حتى إذا عرفتهم، خرج رجل بيني وبينهم، فقال هلم، قلت: إلى أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم، قال: إنهم ارتدوا على أدبارهم، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم**»(٣) أي المتروك من الإبل ليلاً ونهاراً بدون راع.

وكيف يعرفهم ﷺ؟ قال ﷺ: «**إن حوضي أبعد من أيلة إلى عدن، هو أشد بياضًا من الثلج وأحلى من العسل باللبن، ولآنيته أكثر من عدد النجوم، وإني لأصد الناس عنه، كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه، قالوا: يا رسول الله أتعرفنا يومئذ؟ قال: نعم، لكم سيما ليست لأحد من الأمم تردون على غراً محجلين من أثر الوضوء**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم ٢٣٠٥.
(٢) اخرجه أحمد ١٥١٦١. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٣) اخرجه البخاري ٦٥٨٧.
(٤) اخرجه مسلم ٢٤٧.

أحاديث أخرى عن الحوض:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما نزلت «إنا أعطيناك الكوثر» قال لنا رسول الله ﷺ: «هو نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، يجري على الدر والياقوت، تربته أطيب ريحًا من المسك، وطعمه أحلى من العسل، وماؤه أشد بياضًا من الثلج»(١).

وقال ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه فلا يظمأ أبداً»(٢).

وقال ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن رجال منكم، ثم يحتجزون دوني، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»(٣).

وعن عثمان بن مظعون، عن النبي ﷺ أنه قال: «يا عثمان: لا ترغب عن سنتي: فإنه من رغب عن سنتي ثم مات قبل أن يتوب، ضربت الملائكة وجهه عن حوضي يوم القيامة»(٤).

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله خرج يومًا فصلى على أهل أُحد صلاته على الميت ثم انصرف، ثم انصرف إلى المنبر، فقال: «إني فرط لكم على الحوض، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»(٥).

وعن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله: ما آنية الحوض؟ قال: «والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة لا المصحية، من

---

(١) أخرجه أحمد ٥٣٥٥ ـ والترمذي ٣٣٦١ ـ وابن ماجه ٤٣٣٤. وقال الألباني في صحيح الجامع (٤٦١٥): صحيح.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٦٥٧٩ ـ ومسلم ٢٢٩٢.

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري ٦٥٧٦ ـ ومسلم ٢٢٩٧.

(٤) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول. وفي إسناده إدريس بن صبيح الأودي وهو مجهول.

(٥) متفق عليه أخرجه البخاري ٦٥٩٠ ـ ومسلم ٢٢٩٦.

آنية الجنة، يشخب (يسيل) فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله، ما بين عمان إلى أيلة، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل»(١).

وعن أسماء بنت أبي بكر، قالت، قال النبي ﷺ: **«إني على الحوض، حتى أنظر من يرد علي منكم، وسيؤخذ أناس دوني، فأقول: يا رب. مني ومن أمتي، فيقال: هل شعرت بما عملوا بعدك؟ والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم»**(٢) فكان ابن أبي مليكة يقول: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا. أو نفتن عن ديننا.

فيتلخص من مجموع هذه الأحاديث المتواترة صفة هذا الحوض العظيم، والمورد الكريم، من شراب الجنة، من نهر الكوثر، الذي هو أشد بياضًا من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحًا من المسك، وهو في غاية الإشباع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر، وإنه ينبت في حال من المسك، ورضراض من اللؤلؤ، فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء، لا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

وهذا الحوض يحرم من الشرب منه أهل الأهواء والبدع، والردة والعياذ بالله.

ومما سبق يتبين أن الحوض قبل الصراط، لأن الذين يمنعون من الحوض لا يمكن أن يكونوا قد اجتازوا الصراط لأن الذي جاوز الصراط لا يكون إلا ناجيًا مسلمًا، فمثل هذا لا يحجب عن الحوض، فالحوض قبل الصراط، والله أعلم، ولكن اختلف: هل يكون الشرب من الحوض قبل الميزان أم بعده، أم من قبل ذلك، إذ يقوم الناس من قبورهم عطاشا، فكل ذلك محتمل، لأنه لم يأت دليل قطعي بتحديد وقت ورود الناس للشرب من الحوض، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٣٠٠.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٦٥٩٣ ـ ومسلم ٢٢٩٣.

«الصراط»

ثم ينتهي الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف، إلى الظلمة التي دون الصراط، وهي على جسر جهنم، كما في حديث ثوبان: أن رسول الله سئل: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال: «**هم في الظلمة دون الجسر**»[(١)].

فما الصراط؟ قال النبي ﷺ: «**الصراط كحد الشعرة، وكحد السيف، وإن الملائكة تحجز المؤمنين والمؤمنات، وإن جبريل عليه السلام يحجزني، وإني لأقول: يا رب سلم سلم، فالزالون والزالات يومئذ كثير**»[(٢)].

وهذا الصراط قد مد على متن جهنم، ولا سبيل إلى الجنة إلا بالمرور على الصراط. قال تعالى: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا**﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

وعن عبيد بن عمير أنه كان يقول: أيها الناس، إنه جسر مجسور، أعلاه دحض مزلة، والملائكة على جنبات الجسر يقولون: رب سلم، قال: وإن الصراط مثل السيف على جسر جهنم، وإن عليه كلاليب وحسكًا، والذي نفسي بيده، إنه ليؤخذ بالكُلاب الواحد أكثر من ربيعة ومضر».

وعن سعيد بن أبي هلال، قال: «**بلغنا أن الصراط يوم القيامة وهو على الجسر يكون على بعض الناس أدق من الشعر، وعلى بعض الناس مثل الوادي الواسع**»[(٣)].

وعن عبد الله بن مسعود، في تفسير قول الله تعالى: «وإن منكم إلا واردها» قال: قال النبي ﷺ: «**يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم**»[(٤)] وعنه ـ

---

(١) أخرجه مسلم ٣١٥.
(٢) أخرجه البيهقي، في شعب الإيمان ٣٦٧، وقال: هذا إسناد ضعيف.
(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد ـ وابن أبي الدنيا في الأولياء، والبيهقي في الشعب وفي إسناده رشدين بن سعد وهو ضعيف.
(٤) أخرجه أحمد ٤١٤١ ـ والترمذي ٣١٥٩ ـ والدارمي ٢٨١٠. وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح.

رضي الله عنه ـ قال: «يرد الناس جميعًا الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر كمر البرق، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل، ومنهم من يمر كأجاويد الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل، حتى إن آخرهم مرًا، رجل نوره على موضع إبهامي قدميه، ثم يتكفأ به الصراط، والصراط دحضٌ مزلة، عليه حسك كحسك القتاد، حافتاه عليهما ملائكة، معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس»[1].

وقال ﷺ في معرض حديثه عن الشفاعة العظمى «... **فيأتون محمداً ﷺ فيقوم فيؤذن له، وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يمينًا وشمالاً، فيمر أولكم كالبرق، قال: قلت: بأبي وأمي، أي شيء كمر البرق؟ قال: ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين، ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، وشد الرحال تجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم، سلم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفًا، قال: وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة، مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكدوس في النار**»[2] وفي الحديث أيضًا: أن النبي ﷺ قال: «**يضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوة الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم. وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله عز وجل تخطف الناس بأعمالهم**»[3] وقد قال بعض الوعاظ ـ فيما حكاه القرطبي، في التذكرة: «توهم نفسك يا أخي إذا سرت على الصراط، ونظرت إلى جهنم تحتك سوداء مدلهمة، وقد تلظى سعيرها، وعلا لهيبها، وأنت تمشي أحيانًا، وتزحف أحيانًا أخرى، ثم أنشد:

أبت نفسي تتوب فما احتيالي إذا برز العباد لذي الجلال؟

---

(١) أخرجه الترمذي ٣١٦٠. وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح موقوف وهو في حكم الرفع.

(٢) أخرجه مسلم ١٩٥.

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري ٨٠٦ ـ ومسلم ١٨٢.

وقاموا من قبورهـــم حيـــارى بـأوزار كأمثـــال الجبـــال
وقد نصب الصراط لكي يجـوزوا فمنهم من يكـب على الشمـال
ومنهـــم مـــن يسير لدار عـــدن تلقـــاه العرايـس بالغـــوالي
يقـــول له المهيمـــن : يا وليي غفرت لك الذنـوب فلا تبـالي

القنطرة

هل هناك قنطرة بعد الصراط؟

ثبت في صحيح البخاري من حديث قتادة عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا خلص المؤمنون من الصراط، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا، أذن لهم بدخول الجنة، فلأحدهم أهدى إلى منزله في الجنة من منزله الذي كان في الدنيا**»(١).

فبعد أن يجتاز المؤمنون الصراط بسلام، وأمان من الوقوع في النار يوقفون على تلك القنطرة، بين الجنة والنار، لتهذيبهم وتطهيرهم من كل ما كان بينهم من عداوات أو شحناء، أو حقوق لبعضهم على بعض ثم يؤذن لهم بدخول الجنة بعد ذلك، وقد طهرت نفوسهم، وزكت أرواحهم، إذ لا يحق لأحد أن يدخل الجنة وفي نفسه من أخيه شيء، كما قال تعالى: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا**﴾ [الحجر: ٤٧].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٤٠.

مشاهد تراها يوم القيامة

روى الإمام أحمد، من حديث أبي هريرة أنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ يومًا، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره، ثم قال: «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، فيقول يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك من الله شيئًا، قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة، فيقول: يا رسول الله أغثني فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد أبلغتك»(١).

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وفي الصحيحين «من ظلم قيد شبر من الأرض طُوِّقَهُ من سبع أرضين»(٢).

ومما تراه، كما جاء في الصحيحين «من صور صورة في الدنيا كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ»(٣) وفي رواية: «يعذبون، يقال: أحيوا ما خلقتم».

وفي الصحيح: «من تحلم بحلم لم يره، كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعرتين وليس يفعل»(٤) وكذلك ترى حال مانع الزكاة كما وصفه رسول الله ﷺ بقوله: «ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه، إلا جعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم،

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٠٧٣ - ومسلم ١٨٣١.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٢٤٥٣ - ومسلم ١٦١٢.

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري ٢٢٢٥ - ومسلم ٢١١٠.

(٤) أخرجه البخاري ٧٠٤٢.

فتكوى به جبهته، وجنباه، وظهره، حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار».

وذكر بقية الحديث في مانع زكاة الغنم والإبل أنه «يبطح لها بقاع قرقر، تطؤه بأخفافها، وأظلافها، وتنطحه بقرونها، كلما مرت عليه أخراها عيدت عليه أولاها، حتى يقضي بين العباد، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»(١).

ومما تراه من مظاهر رحمة الله تعالى يوم القيامة:

ما رواه الإمام أحمد، من حديث عبد الله بن عمرو أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول الله له: أتنكر من هذا شيئًا؟ ظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يارب، فيقول الملك: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أخبروه، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تُظلَم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، قال: فتطيش السجلات، وتثقل البطاقة، «ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم» أو «ولا يثقل مع اسم الله شيء»(٢).

ومما تراه أنك ترى الظالمين مشفقين مما هو واقع بهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٤٤].

ومما تراه أنه «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»(٣) وقال ﷺ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة كأمثال الذر في

---

(١) أخرجه مسلم ٩٨٧.

(٢) أخرجه أحمد ٦٩٩٤ - والترمذي ٢٦٣٩ - وابن حبان في صحيحه ٢٢٥ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (١٧٧٦): صحيح.

(٣) أخرجه مسلم ٢٩.

صور الرجال، يغشاهم الذل في كل مكان، يسحبون إلى سجن في جهنم يسمى «بولس» تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال»[١].

روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: فما عملت فيها، قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال: إنك عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد. فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار»[٢] المراءون هم أول الناس يقضى عليهم يوم القيامة، المراءون الذين لم يبتغوا بأعمالهم وجه الله، صلوا ليراهم الناس، وتصدقوا ليمدحهم الناس، وحجوا ليحصلوا لقب «الحاج فلان» وتعلموا العلم ليقال: ما أعلمه، وقرأوا القرآن ليقال، أقرأ الناس فلان. هؤلاء وإن خفي أمرهم على العباد، فإنه لا يخفى على رب العباد الذي «يعلم السر وأخفى».

وكذلك «إن أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من عمله الصلاة، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء، قال الرب تبارك وتعالى: «انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد ٦٦٧٧ ـ والبخاري في الأدب المفرد ٥٥٧ ـ والترمذي ٢٤٩٢ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (٨٠٤٠): حسن.

(٢) أخرجه مسلم ١٩٠٥.

(٣) أخرجه أحمد ٩٤٩٠ ـ وأبو داود ٨٦٤ ـ والنسائي ٤٦٥ ـ والترمذي ٤١٣ ـ وابن ماجه ١٤٢٥. وغيرهم. وقال الألباني في صحيح الجامع (٢٥٧١ ـ ٢٥٧٤): صحيح.

هذا، والجمع بين حديث «أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة» وحديث «أول ما يقضى فيه يوم القيامة الدماء» بأن الأول فيما يتعلق بحقوق الرب عز وجل، وأما الثاني فإنما هو فيما يتعلق بحقوق العباد بعضهم البعض.

وسترى أناسًا مفلسين يوم القيامة مع كثرة أعمالهم.

ومن هنا قال ﷺ يومًا لأصحابه: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «**إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه ثم طرح في النار**»[1].

ومن الظلم عدم العدل بين الزوجات، وقد جاء في الحديث: «**من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وشقه مائل**»[2] ومن الظلم حرمان الإناث خاصة من الميراث والتركة «**من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين**»[3] فبادر «**من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه**»[4].

ومن مشاهد القيامة ما رواه أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ "يغمس" في النار صبغة، ثم قال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط**»[5].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٨١.

(٢) أخرجه أحمد ٧٩٢٣ ـ وأبو داود ٢١٣٣ ـ والنسائي ٣٩٤٢ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (٦٥١٥): صحيح.

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري ٢٤٥٣ ـ ومسلم ١٦١٢.

(٤) أخرجه البخاري ٢٤٤٩.

(٥) أخرجه مسلم ٢٨٠٧.

وعنه أن النبي ﷺ قال: «يؤتى بالرجل من أهل الجنة، فيقول له: يا ابن آدم، كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي رب خير منزل، فيقول: سل وتمن، فيقول: ما أسأل وأتمنى إلا أن تردني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرات، لما يرى من فضل الشهادة.

ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي رب شر منزل، فيقول له: أتفتدي منه بطلاع «بقدر» الأرض ذهبًا؟ فيقول: أي رب نعم، فيقول: كذبت قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل، فيرد إلى النار»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رؤسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»(٢).

وتلك أعمال تنجي صاحبها من أهوال يوم القيامة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»(٣) وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن في مسجد المدينة، فقال: «إني رأيت البارحة عجبًا، رأيت رجلاً من أمتي جاءه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد عنه، ورأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم، ورأيت رجلاً من

---

(١) أخرجه أحمد ١٣١٨٥ - والنسائي ٣١٦٠ - وأبو يعلى في مسنده ٣٤٩٧ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (٧٩٩٦): صحيح.

(٢) أخرجه مسلم ٢١٢٨.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

أمتي يلهث عطشًا كلما ورد حوضًا منع منه فجاءه صيامه فسقاه وأرواه، ورأيت رجلاً من أمتي والنبيون قعود حلقًا حلقًا كلما دنا لحلقه طردوه، فجاء اغتساله من الجنابة فأخذ بيده وأقعده بجانبي، رأيت رجلاً من أمتي من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة فهو متحير فيها، فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه في النور، ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم، فقالت يا معشر المؤمنين: كلموه، فكلموه، ورأيت رجلاً من أمتي يتقي شرر النار ووهجها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت سترًا على وجهه وظلاً على رأسه. ورأيت رجلاً من أمتي قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من بين أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة، ورأيت رجلاً من أمتي جاثيًا على ركبتيه بينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله، ورأيت رجلاً من أمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله تعالى فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه، ورأيت رجلاً من أمتي قد خف ميزانه فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه، ورأيت رجلاً من أمتي قائمًا على شفير جهنم فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى، ورأيت رجلاً من أمتي هوى في النار فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار، ورأيت رجلاً من أمتي قائمًا على الصراط يرعد كما ترعد السعفة فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رعده ومضى، ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة، فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة»(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسرًا فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال: قال الله عز وجل: أنا أحق بذلك منك تجاوزوا عن عبدي»(٢).

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول - والطبراني في الأحاديث الطوال ٣٩. وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٨٦): ضعيف.

(٢) أخرجه مسلم ١٥٦١.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»(١).

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٦٦٠ - ومسلم ١٠٣١.

نظرة على أرض المحشر

هل خلت أرض المحشر من أهلها؟

لقد رحل عنها الكثير. ممن ثقلت موازينهم، ودخلوا الجنة، أو من خفت موازينهم ودخلوا النار، لكنها لم تخل بعد، ذلك أن قومًا استوت موازينهم أو تساوت، فلم تثقل الحسنات، ولا السيئات، فأوقفوا على جبل بين الجنة والنار يقال له الأعراف، فإذا نظروا إلى أهل الجنة سلموا عليهم وهنئوهم، وطمعوا أن يدخلوا الجنة مثلهم، وإذا أريد لهم أن ينظروا إلى أهل النار استعاذوا بالله منها ومن أهلها، ودعوا ربهم ألا يكونوا مع القوم الظالمين.

وذلك قول الله تعالى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٦ - ٤٧].

فعن حذيفة رضي الله عنه قال: أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار، وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، فبينما هم كذلك إذ اطلع عليهم ربك، قال: قوموا ادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم»[(١)].

وإذا نظرت إلى أرض المحشر مرة أخرى، ربما وجدت أناسًا قصرت بهم أعمالهم عن دخول الجنة، فهؤلاء قوم لهم سيئات، ماتوا عليها، ولم يتوبوا منها، وآخرون لهم كبائر، استوجبت دخولهم النار، ولكن هؤلاء وأولئك، أراد الله عز وجل أن يدخلهم في رحمته بمشيئته.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٢٤٧، وقال: هذا حديث صحيح وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

فيأذن الله عز وجل فيهم بالشفعاء، فيشفع النبي ﷺ، ومن بعده، كما قال ﷺ: «**لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة، فهي نائلة - إن شاء الله - من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا**»(١).

فإذا خلت أرض المحشر من أهلها أذن الله عز وجل للشفعاء أن يخرجوا عصاة الأمة - الذين ماتوا على التوحيد - من النار.

كما جاء في الحديث: «.. **فيقول الله تعالى: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه**» ويحرم الله صورهم على النار، فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه، وإلى أنصاف ساقيه فيخرجون من عرفوا ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا. ثم يعودون، فيقول، اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا.

قال أبو سعيد: «فإن لم تصدقوني، فاقرؤوا ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا**﴾ [النساء: ٤٠].

«فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من النار فيخرج أقوامًا قد امتحشوا «احترقوا». فيلقون في نهر بأفواه الجنة، يقال له ماء الحياة، فينبتون في حافتيه، كما تنبت الحبة في حميل السيل «ما يجيء به السيل من طين وغيره» قد رأيتموها إلى جانب الصخرة، وإلى جانب الشجرة، فما كان إلى الشمس منها كان أخضر، وما كان منها إلى الظل كان أبيض، فيخرجون كأنهم اللؤلؤ، فيجعل في رقابهم الخواتيم، فيدخلون الجنة، فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمن، أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه، فيقال لهم: لكم ما رأيتم ومثله معه»(٢).

---

(١) صحيح تقدم.

(٢) صحيح تقدم.

وقد جاء في أحاديث الشفاعة أيضًا: «... فأوتى فأقول: أنا لها فأنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي، فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن، يلهمنيه الله، ثم أخر له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: أمتي أمتي، فيقال: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر ساجدًا فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعطه واشفع تشفع، فأقول: أمتي أمتي، فيقال: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدًا فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فأقول يا رب أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل. ثم أرجع إلى ربي في الرابعة فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط واشفع تشفع، فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، قال: ليس ذلك لك - أو إليك - ولكني وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبروتي لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله»(١).

حال آخر رجل يخرج من النار ويدخل الجنة:

وفي الحديث أيضًا: «.. حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله، أمر الملائكة أن يخرجوهم فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتحشوا فيصب عليهم ماء يقال له ماء الحياة، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار، فيقول: يا رب قد قشبني ريحها «أي آذاني وأهلكني» وأحرقني ذكاؤها «أي لهبها وشدة وهجها» فاصرف وجهي عن النار، فلا يزال يدعو الله، فيقول: لعلك إن أعطيتك

(١) صحيح تقدم وراجع أحاديث الشفاعة بتوسع.

أن تسألني غيره، فيقول: لا، وعزتك لا أسألك غيره، فيصرف وجهه عن النار، ثم يقول بعد ذلك: يا رب قربني إلى باب الجنة، فيقول: اليس قد زعمت أن لا تسألني غيره؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك، فلا يزال يدعو، فيقول: لعلي إن أعطيتك ذلك تسألني غيره، فيقول: لا وعزتك، لا أسألك غيره، فيعطي الله ما شاء من عهد وميثاق أن لا يسأله غيره فيقربه إلى باب الجنة. فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت ثم قال: رب أدخلني الجنة ثم يقول: أوليس قد زعمت أن لا تسألني غيره؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك، فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها، فإذا دخل فيها، قيل: تمن من كذا، فيتمنى، ثم يقال له: تمن من كذا، فيتمنى حتى تنقطع به الأماني، فيقول: هذا لك ومثله معه.

قال أبو هريرة: وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً، قال عطاء: و«أبو سعيد» جالس مع أبو هريرة لا يغير عليه شيئًا من حديثه حتى انتهى إلى قوله: «هذا لك ومثله معه» قال أبو سعيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«هذا لك وعشرة أمثاله؟»** قال أبو هريرة: حفظت. «مثله معه»(١).

وبهذا تخلو أرض المحشر من أهلها، وكذلك يخرج من النار من ليس يخلد فيها، فيكون من بقي بها سيخلد فيها، ومن أدخل الجنة سيخلد فيها ولذلك عقب تلك المشاهد كلها، والعرصات هذه جميعًا، تكون الكلمة الفاصلة، إذ يؤتى بالموت على صورة كبش أملح فيذبح، كما جاء في الحديث، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم يناد مناد: يا أهل الجنة: لا موت، ويا أهل النار: لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم»**(٢).

وفي رواية عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء يوم القيامة بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين**

---

(١) صحيح تقدم.
(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٦٥٤٨ - ومسلم ٢٨٥٠.

الجنة والنار، فيقال يـا أهل الجنة: هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون ويـنظرون، فيقولون: نعم هذا الموت، قال ثم يقال: يا أهل النار: هل تعرفـون هذا؟ فيشرئبون وينظرون، فيقولون: نـعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيـذبح، قال: ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت فـيها، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] وأشار بيده إلى الدنيا»(١).

وعن أبي سعيد الخدري أيضًا قال - يرفعه إلى رسول الله ﷺ: «إذا كـان يوم القيامـة أتى بالموت كالكبش الأملح، فيوقف بين الجنة والنار فـيذبح وهم ينظرون، فلو أن أحـداً مـات فـرحًا لمات أهل الجنة، ولو أن أحـداً مـات حـزنًا لمات أهل النار»(٢).

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٤٧٣٠ - ومسلم ٢٨٤٩.

(٢) أخرجـه التـرمذي ٢٥٥٨ - وأبو نعـيم في الحلية، وقـال الألباني في ضـعيف الجـامع (٦٥٩): ضعيف.

أهل الجنة ينادون على أهل النار
وأهل النار ينادون على أهل الجنة

قص علينا القرآن الكريم في بعض مشاهد يوم القيامة أن أهل الجنة ينظرون على أهل النار، ويتم التخاطب بينهم، وأن أهل الجنة سيضحكون على أهل النار، وذلك من تحقيق العدل الذي قاله الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٦].

ولذلك نرى القرآن الكريم حكى لنا مشهدًا فرديًا، وآخر جماعيًا.

أما المشهد الفردي فهو قصة رجل مؤمن كان يحاور رجلاً ملحدًا في الدنيا، ينكر البعث بعد الموت، والمؤمن يدعوه إلى الإيمان، ويأبى الكافر إلا أن يدعوه إلى الدخول معه في كفره، فلما فاز المؤمن بالجنة وتذكر قرينه الكافر فأراد أن يعرف أين هو، فقال: - يحكي لأهل الجنة - ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥١ - ٦٨].

وأما المشهد الجماعي فقد بين ربنا عز وجل أن أهل الجنة ينادون على أهل النار، فقال: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٤ - ٤٥].

وإذا كان أهل الجنة لهم الحق في النداء على أهل النار وسؤالهم أو السخرية منهم، فلماذا ينادي أهل النار على أهل الجنة، يقول الله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٠ - ٥١].

نهاية المطاف، والمستقر الأخير

«دار السلام أو دار البوار»

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالجنة والنار، وأنهما حق لا ريب فيه ولا شك، وأن الله عز وجل قد أعد الجنة للمتقين، وأعد النار للغاوين، فالجنة دار أولياء الله، والنار دار أعداء الله.

وقد أخبر الله عز وجل عنهما بأسلوب الماضي «أعدت» فلابد من اعتقاد وجودهما الآن. كما يجب الإيمان بدوامهما وبقائهما بإبقاء الله لهما، وأنهما لا تفنيان أبدًا، ولا يفنى من فيهما، فكل من دخلهما ينطبق عليه «خالدين فيها أبدًا»، ولكن هذا لا ينطبق على عصاة الموحدين الذين تمسهم النار بقدر جنايتهم، ويدخلونها، ثم يخرجون منها برحمة الله تعالى، ثم بشفاعة الشافعين ـ على نحو ما أسلفنا.

وأن نعيم الجنة وعذاب النار يكون بالروح والجسد معًا، وأنه يشتمل على مطاعم ومشارب، وملبس يختلف ذلك بين أهل الجنة وأهل النار، ويزيد أهل الجنة في النعيم أمر التمتع بالنساء والطرب، وركوب الخيل، والزيارات الكريمة واللقاءات الحبيبة، على نحو ما سنبين إن شاء الله.

وعند الكلام عن الجنة والنار يحار المسلم، هل يتكلم عن الجنة أولاً ثم النار أم العكس من ذلك، لكني أرى أن الله عز وجل إذا تكلم عن الجنة أردف الحديث عنها بالنار أو العكس منه، جمعًا بين الترغيب والترهيب، ولذلك سأحاول ـ في كتابي هذا ـ أن أبتكر طريقة جديدة في الحديث عن الجنة والنار معًا، على سبيل المقارنة والموازنة، وليكون على طريقة القرآن الكريم الذي يقرن في الحديث بينهما في مثل قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: ١٣، ١٤].

وفي مثل قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٤، ٢٥].

وكذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٧ - ١٠].

فنقول: وبالله تعالى التوفيق:

الجنة في الأصل: البستان من النخل أو الشجر، وهي مأخوذة من جنَّ إذا ستر، وسميت بذلك، لأن نخيلها الباسقات وأشجارها المورقة تلتف أغصانها بعضها ببعض، فتكون كالظلة تستر ما تحتها، والمقصود بالجنة هنا: الدار التي أعدها الله للمتقين جزاء لهم على إيمانهم الصادق وعملهم الصالح.

وإذا كان الله تعالى يكافئ الأبرار بالنعيم، فإنه يجازي الفجار بالجحيم، عقابًا لهم على ما اقترفوا من كبائر الإثم والفواحش والجحيم، هذه هي دار العذاب.

أسماء الجنة والنار

أولاً: أسماء الجنة:

١ ـ الجنة : لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

٢ ـ المأوى : لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١].

٣ ـ عدن : لقوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البينة: ٨].

٤ ـ الفردوس : لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

٥ ـ النعيم : لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ [لقمان: ٨].

٦ ـ المقام الأمين : لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١].

٧ ـ دار المقامة : لقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥].

٨ ـ دار السلام : لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

٩ ـ دار الخلد : لقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [البينة: ٨].

١٠ ـ دار الحيوان : لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

أي دار الحياة الحقيقية الباقية.

١١ - مقعد صدق: لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

ثانيًا: أسماء النار:

١ - النار: لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

٢ - جنهم: لقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٩].

٣ - الجحيم: لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: ٨٦].

٤ - السعير: لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

٥ - الحطمة: لقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٤ - ٧].

٦ - الهاوية: لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٨، ١١].

٧ - لظى: لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ [المعارج: ١٥ - ١٨].

٨ - سقر: لقوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٢٦ - ٣٠].

٩ - دار البوار: لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

أبواب الجنة ودرجاتها، وأبواب النار ودركاتها

للجنة ثمانية أبواب، وثماني درجات، قال تعالى: ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ [ص: ٥٠].

وقال: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقال ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم رفع بصره إلى السماء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»[(١)] وقال ﷺ: «في الجنة ثمانية أبواب. باب منها يسمى الريان، لا يدخل منه إلا الصائمون»[(٢)] وفي حديث الشفاعة «فيقول الله: يا محمد: أدخل من لا حساب عليه من أمتك الجنة من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس في بقية الأبواب، والذي نفسي بيده، إن بين المصراعين من مصاريع الجنة أو ما بين عضادتي الباب كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى»[(٣)].

وقد قيل إن أبواب الجنة تسمى بباب التوبة، وباب الصلاة، وباب الصوم، وباب الزكاة، وباب الصدقة، وباب الجهاد، وباب الريان، وباب الحج والعمرة كما في الحديث «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها، وللجنة ثمانية أبواب ـ فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الزكاة دعى من باب الزكاة، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان» فقال أبو بكر: يا رسول الله: ما على امرئ يدعى من أيها شاء من ضرورة، فهل يدعى أحد منها كلها، قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٣٤.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ١٨٩٦ ـ ومسلم ١١٥٢.

(٣) صحيح تقدم.

(٤) متفق عليه أخرجه البخاري ١٨٩٧ ـ ومسلم ١٠٢٧.

وأما أبواب النار فهي سبعة، ودركاتها كذلك، قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤].

وهي أبواب مؤصدة، أي مطبقة ومغلقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٨، ٩].

وحولها سرادق وهو سور عظيم محيط بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

أما دركاتها فهي - كما ذكر - جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية وعصاة هذه الأمة في أعلى دركاتها، والمنافقون في أسفلها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وفي الحديث: «**إن للجنة ثمانية أبواب، ولجهنم سبعة أبواب، وبعضها أفضل من بعض**»(٦) أي يرجى لأهل التوحيد منهم ما لا يرجى لغيرهم.

هذا ودرجات الجنة تذهب علواً، ودركات النار تذهب سفولاً. هذا وفي جهنم أودية وجبال، لورود الوحي بذلك، ومنها:

الغي كما في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

الآثام كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

الويل: كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]. وكذا: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ﴾ [إبراهيم: ٢].

وقيل الويل بمعنى العذاب وضد النجاة.

ومن جبالها: «الصَّعود»، كما في قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧] وهو جبل يصعد فيه الكافر سبعين خريفًا ويهوي فيه كذلك، وقيل بمعنى المشقة

---

(٦) أخرجه أحمد ١٧٦٩٣ - والطيالسي في مسنده ١٢٦٧ - والطبراني في الكبير ٣١٠ وغيرهم. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن.

من العذاب، وكذلك قيل عن «الحمـوم» كما في قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٣، ٤٤].

أنه جبل في جـهنم يستغيث إلى ظله أهل النار. ومـا روي عن جب الحزن، وسـجن بولس، ووادي لملم، وكـذلك وادي هبـهب، فالله أعلم بـصحـة ذلك، وعافانا الله من ذلك.

دخول المؤمنين الجنة، والكافرين النار

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦].

قال علي: «والله ما على أرجلهم يحشرون، ولا يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم تر الخلائق مثلها. عليها رحائل من ذهب، ليركبوا عليها حتى يضربوا أبواب الجنة».

كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧١ - ٧٤].

ويقول ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، أول زمرة من أمتي تدخل الجنة سبعون ألفًا لا حساب عليهم، صورة كل رجل منهم على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد ضوء كوكب في السماء، ثم هم بعد ذلك منازل»(١).

وقال ﷺ: «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفًا، أو سبعمائة ألف ـ شك في إحداهما ـ متماسكين، آخذًا بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، وجوههم على ضوء القمر ليلة البدر»(٢) وفي رواية: «أعطيت سبعين ألفًا

---

(١) أخرجه أحمد ١٠/١٢٦ ـ وإسحاق بن راهويه في مسنده ٢٩١ ـ وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح وهذا إسناد ضعيف زياد المخزومي مجهول.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٦٥٥٤ ـ ومسلم ٢١٩.

يدخلون الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي عز وجل، فزادني مع كل واحد سبعين ألفًا»(١).

وقال ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون فيها، ولا يتغوطون فيها، وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم من الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ سوقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم، ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشية»(٢).

وفي رواية: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على صورة أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون، أمشاطهم - ما يسرح به - الذهب، ورشحهم المسك، مجامرهم الأُلوَّة - العود الذي يتبخر به - وأزواجهم الحور العين، وأخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم، ستون ذراعًا».

وأما عن سنهم وهيئتهم، فيقول ﷺ: «يدخل أهل الجنة جردا - ليس على بدنهم شعر - مردًا - لا شعر على وجوههم - بيضًا، جعادًا - خفافًا لينين مجتمعين - مكحلين، أبناء ثلاث وثلاثين، على خلق آدم، ستون ذراعًا في عرض سبع أذرع»(٣).

وفي رواية: «يدخل أهل الجنة الجنة، على طول آدم، ستين ذراعًا بذراع الملك، على حسن يوسف، وعلى ميلاد عيسى، ثلاث وثلاثين سنة، وعلى لسان محمد، جردًا، مردًا، مكحلين»(٤).

وأما الكافرون وأهل النار عمومًا، ما إن تراهم من مكان بعيد حتى سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

---

(١) أخرجه أحمد ٢٢. وقال الألباني في صحيح الجامع (١٠٥٧): صحيح.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٢٤٥ - ومسلم ٢٨٣٤.

(٣) أخرجه أحمد ٢٢١٥٩ - والترمذي ٢٥٤٥ - والطبراني في الكبير ١١٨. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح لغيره.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا، والمقدسي في صفة الجنة وفي إسناده رواد بن الجراح. قال الحافظ في التقريب: صدوق، اختلط بأخرة فترك.

ويدفعون إليها دفعًا عنيفًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ⑬ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ⑭ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ⑮ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣ - ١٦].

وإليك طرف من عذابها:

ذكر جهنم، وشدة حرها، وشدة سوادها وبُعد عمقها، وشدة عذابها

(أ) شدة حرها:

قال تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٨ - ١١].

وقال جل شأنه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ١ - ٥].

وقوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤].

أي حار، قد تناهى حره وبلغ الغاية في ذلك.

وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية، فقال: إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً**»(١).

وفي رواية أحمد «**ناركم هذه التي يوقدها بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءاً من حر جهنم، قالوا: والله إن كانت لكافية، قال: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها**»(٢).

(ب) شدة سوادها:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة**»(٣).

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٢٦٥ ـ ومسلم ٢٨٤٣.

(٢) أخرجه أحمد ٨١١١. وقال الألباني في صحيح الجامع (٦٧٤٢): صحيح.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٥٩١ ـ وابن ماجه ٤٣٢٠. وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢١٢٥): ضعيف.

وفي رواية عن أنس قال: تلا رسول الله ﷺ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقال: «**أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى اسودت، فهي سوداء فلا يضئ لهبها**»(١).

(ج) بُعد عمقها:

قال رسول الله ﷺ: «**لو أن حجراً قذف به في جهنم، لهوى سبعين خريفًا قبل أن يبلغ قعرها**»(٢).

وعن أبي هريرة قال: كنا عند رسول الله ﷺ يومًا: فسمعنا وجبة، فقال ﷺ «**أتدرون ما هذا؟**» قلنا الله ورسوله أعلم قال: «**هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفًا والآن انتهى إلى قعرها**»(٣) وعن عتبة بن غزوان، أنه قال في خطبة: «**إن الحجر يلقى من شفير جهنم، فيهوى فيها سبعين عامًا، لا يدرك لها قعراً، والله لتملأن. أفعجبتم؟**» وقد ذكر لنا: «**إن ما بين مصراعين من أبواب الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام**»(٤).

(د) سعتها:

كما حدث ﷺ عن سعة جهنم، فقال: «**أتدرون ما سعة جهنم؟ فقلنا: لا، فقال: أجل والله ما تدرون، إن ما بين شحمة أذن أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفًا**»(٥).

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب ٧٩٩، وأبو بكر بن مردويه في التفسير. وفي إسناده الكديمي محمد بن يونس وهو ضعيف.

(٢) أخرجه أبو يعلي ٧٢٤٣ ـ وابن حبان في صحيحه ٧٤٦٨ وغيرهما. وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.

(٣) أخرجه مسلم ٢٨٤٤.

(٤) أخرجه مسلم ٢٩٦٧.

(٥) أخرجه أحمد ٢٤٩٠٠ ـ والحاكم في المستدرك ٢٩٩٩. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح موقوف.

وجاء في الحديث «يجاء بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»(١).

(هـ) شدة عذابها:

قال ﷺ: «إن أدنى أهل النار عذابًا ينتعل بنعلين من نار، يغلي دماغه من حرارة نعليه»(٢).

وفي رواية: «أهون أهل النار عذابًا رجل في رجليه نعلان، يغلي منهما دماغه»(٣).

ومن هؤلاء «أبو طالب» الذي ذكر عند النبي ﷺ فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح يبلغ كعبه، تغلي منه أم دماغه»(٤).

وجاء الحديث برواية أخرى: «أهون أهل النار عذابًا أبو طالب، ينتعل بنعلين يغلي منهما دماغه»(٥).

وفي الحديث أيضًا: «إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان، يغلي منهما دماغه، كما يغلي المرجل بالقمقم»(٦).

(و) حرها وبردها:

قال ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها، فقالت: رب أكل بعضي بعضًا، فنفسني فأذن لها في كل عام بنفسين، فأشد ما تجدون من البرد من زمهرير جهنم، وأشد ما تجدون من الحر من حر جهنم»(٧).

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨٤٢.

(٢) أخرجه مسلم ٢١١.

(٣) أخرجه أحمد ١١١١٥ - وعبد بن حميد في مسنده ٨٧٥. وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٤) أخرجه البخاري ٦٥٦٤.

(٥) أخرجه مسلم ٢١٢.

(٦) متفق عليه أخرجه البخاري ٦٥٦٢ - ومسلم ٢١٣.

(٧) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٢٦٠ - ومسلم ٦١٧.

وفي رواية: «اشتكت النار إلى ربها، فقالت: أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين، نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما يكون الحر من فيح جهنم»(١).

وإن الكافر ليعذب ببردها كما يعذب بِحَرِّها، أو أن حرها أهون عنده من زمهريرها.

ومما يؤثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول في خطبه: «أكثروا ذكر النار، فإن حرها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامعها حديد».

(ز) شررها:

قال تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٢٩ - ٣٤].

وعن ابن مسعود قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾.

أما إنه ليس مثل الشجر والجبل، ولكن مثل المدائن والحصون»(٢).

وقال النبي ﷺ: «لو أن شررة بالمشرق، لوجد حرها بالمغرب»(٣).

(ح) عظم خلق أهلها:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

قال ﷺ: «يعظم أهل النار في النار، حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعًا، وإن ضرسه مثل أحد»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد ٧٢٤٦ - وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ٩١٢. وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب: ضعيف موقوف.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط ٣٦٨١. وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب: ضعيف جدًا.

(٤) أخرجه أحمد ٤٨٠٠ - والطبراني في الكبير ١٣٤٨٢ - والأوسط ٢٤١٠. وقال الألباني في ضعيف الجامع (١٨٣٩): ضعيف.

وفي الحديث : «ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام، للراكب المسرع»(١).

(ط) مقامعها وأغلالها :

قال تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ [الحج: ١٩].

وفي الحديث : «لو أن مقمعًا من حديد من مقامع أهل النار، وضع في الأرض، فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض»(٢) وكذا روي «لو ضرب بمقمع من حديد الجبل، فتته فعاد غباراً».

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال في أهل النار: «إن الحميم ليصب على رأس أحدهم، فينفذ من الجمجمة، حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه، ثم يمرق من قدميه»(٣).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ [الإنسان: ٤].

وقال: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [المزمل: ١٢، ١٣].

كما قال جل شأنه: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧٠ - ٧٢].

وقال سبحانه: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٤].

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٦٥٥١ ـ ومسلم ٢٨٥٢.
(٢) أخرجه أحمد ١١٢٥١ ـ وأبو يعلي في مسنده ١٣٨٨ ـ والحاكم في المستدرك ٨٧٧٣. وقال الألباني في ضعيف الجامع (٤٨٠٩): ضعيف.
(٣) أخرجه أحمد ٨٨٥١ ـ والترمذي ٢٥٨٢ ـ والحاكم ٣٤٥٨. وقال الألباني في ضعيف الجامع (١٤٣٣) ضعيف.

وقد روي - بأسانيد جياد - عن كثير من السلف: أن هذه السلسلة تدخل في فم الكافر، وتخرج من دبره، فينظم فيها كما تنظم السمسمة في الخيط، والخرزة في السلك».

(ى) حياتها وعقاربها :

ما دامت جهنم - أجارنا الله تعالى منها - هي دار العذاب، وعالم الشقاء، فالعذاب فيها أنواع متنوعة وصنوف مصنفة، مما لم تره عين، ولم تسمعه أذن، ولذلك فلا يستغرب أبدًا وجود حيات فيها ناهشة، وعقارب لادغة، يعذب بها أهل النار، لتكون عذابًا فوق العذاب كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ**﴾ [النحل: ٨٨].

وقد فسر زيادة العذاب بأنها عقارب تلسعهم، وحيات تنهشهم، عقارب كالبغال، وحيات كالجمال[(١)] وفي الحديث: «**إن في النار حيات كأمثال أعناق البخت - الإبل الخراسانية - تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفًا وإن في النار عقارب كأمثال البغال الموكفة - الضخمة - تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها - ألمها - أربعين سنة**»[(٢)].

(١) تفسير ابن جرير الطبري ص١٦٠.

(٢) أخرجه أحمد ١٧٧٤٩ - وابن حبان في صحيحه ٧٤٧١ - والحاكم في المستدرك ٨٧٥٤ وغيرهم. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن.

ذكر الجنة، سعتها، وطيب ريحها وقصورها، وتفاضل أهلها

(أ) سعتها :

ما أوسع دار المتقين، إن عرضها كعرض السموات والأرض، كما قال ربنا عز وجل: ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وربما يقول قائل: هذا عرضها، فأين طولها؟ كما سأل هذا السؤال «هرقل» من قبل فأجابه النبي ﷺ: «**سبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار، وأين النهار إذا جاء الليل**»(١).

(ب) طيب ريحها :

ما أطيب ريح الجنة، وإن ريحها ليشم من مسيرة خمسمائة عام، كما قال ﷺ: «**وريحها يو[redacted] من مسيرة خمسمائة عام**»(٢) وفي رواية «**إن ريحها ليوجد من مسيرة مائة عام**»(٣).

(ج) قصورها :

إن في الجنة قصوراً ليعجز الإنسان عن وصفها، وعن التعبير عنها، ولم لا؟ وربنا عز وجل يقول: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا** ﴾ [الإنسان: ٢٠ - ٢٢].

---

(١) أخرجه أحمد ١٥٦٩٣ - وأبو يعلى في مسنده ١٥٩٧ - والحاكم في المستدرك ١٠٣. وقال شعيب الأرنؤوط: حديث غريب وإسناده ضعيف.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٢٦١١. وقال الألباني في صحيح الجامع (٥٩٨٨): صحيح.

(٣) أخرجه أحمد ٢٠٣٣٠ - والطبراني في الكبير ٤٧٣. وقال شعيب الأرنؤوط، حديث صحيح وهذا إسناد قوي.

وها هو النبي ﷺ وهو يتحدث عن آخر رجل يدخل الجنة، فيقول: يقول «يا رب ألحقني بالناس، فينطلق يَرمُلُ في الجنة حتى إذا دنا من الناس رفع له قصر، من درة، فيخر ساجداً، فيقال له: ارفع رأسك مالك؟ فيقول: رأيت ربي، فيقال له: ارفع رأسك، إنما هو منزل من منازلك، ثم يلقى رجلاً فيتهيأ للسجود له، فيقال له: مه. فيقول: رأيت أنك ملك من الملائكة، فيقول له: إنما أنا خازن من خزانك، وعبد من عبيدك، فينطلق أمامه حتى يفتح له القصر، وهو درة مجوفة سقائفها، وأبوابها، وأغلاقها، ومفاتيحها منها، تستقبله جوهرة خضراء مبطنة، كل جوهرة تفضي إلى جوهرة على غير لون الأخرى، في كل جوهرة سرر، وأزواج، ووصائف أدناهن حوراء عيناء، عليها سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء حللها، كبدها مرآته، وكبده مرآتها، إذا أعرض عنها إعراضة ازدادت في عينيه سبعين ضعفًا، فيقال له: أشرف. فيشرف، فيقال له: ملكك مسيرة مائة عام ينفذه بصرك»(١).

(د) أرضها :

ما تظن - أخي القارئ في أرض الجنة؟ هل هي من تراب أبيض أو أحمر؟ وهل حصباؤها من حجارة ملونة؟ وهل جدران مبانيها من لبن في غاية الحسن والجمال؟ كلا، إنها أفضل من ذلك، بل لا وجه للمقارنة، يقول الصادق المصدوق ﷺ: **«إنها لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها «طينها» المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، ومن يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد، ولا يموت، ولا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم»**(٢).

وقال ﷺ عن جنة عدن: **«خلق الله جنة عدن بيده، لبنة من درة بيضاء، ولبنة من ياقوته حمراء، ولبنة من زبرجدة خضراء، وملاطها المسك، وحشيشها**

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٩٧٦٣ - والحاكم في المستدرك ٨٧٥١. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح.

(٢) أخرجه أحمد ٨٠٣٠ - والترمذي ٢٥٢٦ - وابن حبان في صحيحه ٧٣٨٧ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (٣١١٦): صحيح.

الزعفران، حصباؤها اللؤلؤ، ترابها العنبر، ثم قال لها انطقي قالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾»(١).

(هـ) خيامها:

في الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ولأصحابها فيها كل ما يدعون ويطلبون، من كل ضروب السعادة وصنوف النعيم، ولذلك لا يستنكر أن يكون فيها خيام، إذ في الخيام متسع ولذلك قال ربنا عز وجل: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] والسؤال هو ما شكل تلك الخيام؟ وما نوعها، وما مدى حسنها وجمالها، يجيبك على هذا النبي المعصوم فيقول عليه الصلاة والسلام: «**إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ـ في السماء ـ ستون ميلاً، وعرضها ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا**»(٢).

(و) أسواقها:

وفي الجنة أسواق، لأنها بها سرور وحبور ومتعة، وليس بمستغرب أن تتوق نفس المؤمن في الجنة إلى دخول سوق من الأسواق، وخاصة الذين تعودوا الضرب في الأسواق، فيقول ﷺ: «**إن في الجنة لسوقًا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنًا وجمالاً، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالاً، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالاً**»(٣).

(ز) أنهارها:

هذا وفي الجنة أنهار، سبحان من خلقها، إنها أنهار عظيمة تجري بقدرة الله عز وجل من تحت أهل الجنة، بلا خد ولا حد، لا يختلط لبنها بعسلها،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا، وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب: ضعيف جدًا.
(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٢٤٣ ـ ومسلم ٢٨٣٨.
(٣) أخرجه مسلم ٢٨٣٣.

ولا بخمرها أو مائها، إنها أنهـار أربعة، كما قال ربنا عز وجل: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد: ١٥].

ومع هذه الأنهار العظيمة، نهر الكوثر، ومـا أدراك ما الكوثر؟ إن الله سبحانه وتعالى خص به نبـينا محمدًا ﷺ وأمتـه، وهو أعظم أنهار الجنة وأحسنهـا، كما وصفه ﷺ فـقال «**بينما أنا أسيـر في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قـباب الدر المجوف، فقلت مـا هذا يا جبريل؟ قـال: هو الكوثر الذي أعطاك ربك، قال: فـضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر**»(١).

(ح) أشجارها :

ما أعظم أشجار الجنة: يقول النبي ﷺ: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مـائة عام لا يقطعها، واقـرءوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾** [الواقعة: ٣٠-٣٤]»(٢).

ويحـدث «ابن عبـاس» رضي الله عنهمـا ـ عن هذا الظل، فـيقـول: «الظل الممدود» شجرة في الجنـة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد فـي ظلها مائة عام في كل نواحيهـا، فيخرج أهل الجنة، أهل الغـرف وغيرهم، فيتـحدثون في ظلها فيشتهي بعـضهم ويذكر لهو الدنيا، فيرسل الله تعالى ريحـًا من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهـو كان في الدنيا»(٣) ويقول: نخل الجنة جزعهـا من زمرد خضر، وكربها ذهب أحمر، وسعفها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم وحللهم، وثمرها أمثال القـلال والدلاء، أشد بياضًا مـن اللبن وأحلى من العسل، وألين من الزبد، ليس فيها عجم»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٨١.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٢٥٢ ـ ومسلم ٢٨٢٦.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مـردويه في التفسير. وقال الألباني في ضعـيف الترغيب والترهيب: ضعيف موقوف.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٧٧٦. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح.

وصدق ربنا عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء: ٥٧].

(ط) خيلها:

في الجنة خيل، يركبها أهل الجنة.

يقول عبد الرحمن بن ساعدة رضي الله عنه: كنت رجلاً أحب الخيل، فقلت: يا رسول الله هل في الجنة خيل؟

فقال: إن أدخلك الله الجنة ـ يا عبد الرحمن ـ كان لك فيها فرس من الياقوت له جناحان يطير بك حيث شئت»(١).

ويقول ﷺ: «**إن في الجنة لشجرة يخرج من أعلاها حلل، ومن أسفلها خيل من ذهب مسرجة ملجمة من در وياقوت، لا تروث ولا تبول، لها أجنحة خطوها مد البصر، فيركبها أهل الجنة، فتطير بهم حيث شاءوا**»(٢).

(ي) وأما عن تفاوت درجاتهم وتفاضل ما بينهم:

فذلك أمر لا يقدره إلا الله تعالى، وذلك يكون بحسب كمال إيمانهم، وكثرة صالح أعمالهم.

هذا وقد ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين**»(٣).

كما قال ﷺ: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه وسط**

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٤٠٧٥. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن لغيره.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا، وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب: ضعيف.
(٣) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٢٥٦ ـ ومسلم ٢٨٣١.

الجنة «أي أفضلها»، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر - أو تنفجر - أنهار الجنة»(١).

وفي رواية: «الجنة - مائة درجة، ما بين كل درجتين مسيرة مائة عام»(٢).

وقد روي: «إن أدنى أهل الجنة منزلة، الذي ينظر إلى جناته ونعيمه، وخدمه، وسرره، من مسيرة ألف سنة، وإن أكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية»(٣) ثم تلا هذه الآية.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] وله شاهد في الصحيحين.

وقد سبق الكلام عن أدنى أهل الجنة منزلة.

وصدق ربنا إذ يقول: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

وكذلك قال سبحانه: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وبين جزاء عباد الرحمن بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

وقال ﷺ: «إن في الجنة لغرفًا ترى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها، فقيل لرسول الله: لمن هي؟ قال: لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»(٤).

ومن الحديث عن الجنة، إلى الحديث عن النار، ما هو طعام أهل النار وشرابهم؟

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٩٠.

(٢) أخرجه أحمد ٢٢٧٤٧. وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٣) أخرجه أحمد ٥٣١٧ - والترمذي ٢٥٥٣ - وعبد بن حميد ٨١٩. وقال الألباني في ضعيف الجامع (١٣٨٢): ضعيف.

(٤) أخرجه أحمد ١٣٣٧ - والترمذي ٢٥٢٧ - وابن خزيمة في صحيحه ٢١٣٦ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (٢١٢٣): حسن.

طعام أهل النار وشرابهم

هل لأهل النار من طعام؟ وهل حياتهم تمكنهم من أن يأكلوا ويشربوا؟

نعم، إن لأهل النار مطاعم كثيرة ومشارب، إذ الطعام والشراب من لوازم الحياة، وأهل النار أحياء فيها لا يموتون، إذ لو ماتوا لاستراحوا من العناء والعذاب، ولكنهم لا يموتون كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦].

ويتمنون الموت فلا يجدونه، ويسألونه فلا يستجاب لهم: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقال تعالى عن الفرد فيها: ﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ [فاطر: ٣٦].

وكذلك قال عن جماعتهم: ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [الأعلى: ١٢، ١٣].

ولذلك فهم يأكلون ويشربون، كذا يلبسون، ويفرشون.

فما هو طعامهم؟

١ - الزقوم:

هو ثمر يخرج من شجرة تنبت في أصل الجحيم، مذاقه مرٌّ شديد المرارة، يغص في الحلق فلا يسوغ إلا بالماء الحميم، ومن خواصه أنه يغلي في البطن غليان الماء فهو شبيه بالجير الذي إن صب عليه الماء فار وغلا، قال تعالى - في بيانه: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

وفي الحديث عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

فقال: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا، لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟»(١).

٢- الغسلين:

وهو ما تجمع من عصارة أهل النار من قيح، وصديد، وعرق، وما يخرج من فروج الزناة، وما يسيل من لعاب شاربي الخمور، والمغتابين، والكذابين، وقائلي الباطل، وشاهدي الزور. وقد ورد ذكر الغسلين في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٣٥-٣٧].

والمراد من الخاطئين هنا الذين كسبوا السيئات فأحاطت بهم خطاياهم فدخلوا النار بذلك، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

٣- الضريع:

وهو نبات مر، نتن، به شوك، ينشب في الحلق، يسيغه الأكل بالحميم، فيسبب له إسهالاً فظيعاً، فلذا هو لا يسمن آكله، ولا يغنيه من جوع، أو لأنه يقف في الحلوق لا يخرج، ولا يستساغ كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦، ٧].

وهذا الضريع أمر من الصبر، وأشد حراً من النار، لا يدخل البطن، ولا يرتفع إلى الفم، فيبقى بين ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢، ١٣].

---

(١) أخرجه أحمد ٢٧٣٥ - والترمذي ٢٥٨٥ - والنسائي في الكبرى ١١٠٧٠ وغيرهم. وقال الألباني في صحيح الجامع (٥٢٥٠): صحيح.

٤ـ الغسّاق:

وهو نتن بحيث لو أن دلواً أريق منه لأنتن أهل الدنيا، قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٤-٢٦].

وأظنه من الشراب، وليس من الطعام، والله أعلم.

وأما شرابهم:

الشراب لازم لكل ذي كبد رطبة، وأهل النار ذوو أكباد، فلابد لهم من ماء يشربون، كما لابد لهم من طعام يأكلون، إذ الأكل والشرب ضروريان لبقاء الحياة، واستمرارها، وقد قدر لأهل النار البقاء فيها، فلذا هم يأكلون ويشربون، ولم يكن الأكل والشرب ليدفع عنهم غائلة الجوع والعطش، ولكن ليزيد في محنتهم وطول عذابهم، وقد سبق بيان بعض مآكلهم، وهذا بيان بعض مشاربهم.

١ـ الحميم:

وهو ماء حار يجري من عين آنية، أي أن درجة حرارة الماء قد انتهت إلى ما لا مزيد عليه أبداً، ومن خواصه أنه يصهر به ما في بطونهم، ويقطع أمعاءهم، قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٢ - ٥].

وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

كما قال: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٢].

٢ـ ماء الصديد:

وهو ماء كدر، يحوي كميات من الصديد، يغص به شاربه حتى لا يكاد يسيغه، يعاني شاربه منه آلاماً لا يعلم مداها إلا الله تعالى، كما قال سبحانه:

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم: ١٥ - ١٧].

ومع ذلك يشربه فيشوي وجهه، ويوقع فروة رأسه ويقطع أمعاءه، ويخرج من دبره.

٣ـ ماء المهل:

وهو ماء ثخين حار حتى لكأنه النحاس المذاب، بحيث إذا أدناه أحدهم من فمه ليشربه، شوت حرارته جلدة وجهه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

٤ـ ماء نهر الغوطة:

وهو ماء يتجمع مما يسيل من فروج الزواني من النساء، كما قال النبي ﷺ **«ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر، ومن مات مدمن الخمر سقاه الله ـ جل وعلا ـ من نهر الغوطة، قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: نهر يجري من فروج المومسات يؤذي أهل النار ريح فروجهن»**(١).

هذا، وننهي الكلام على مطاعم أهل النار ومشاربهم بحديث تفصيلي رواه الترمذي موقوفًا على أبي الدرداء رضي الله عنه ـ حيث يقول: «يلقى على أهل النار الجوع، فيعدل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون، فيغاثون بطعام من ضريع، لا يسمن ولا يغني من جوع، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة، فيتذكرون أنهم يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب، فيستغيثون بالشراب، فيدفع إليهم بكلاليب من الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم، فيقولون: ادعوا خزنة جهنم، فيقولون: ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟ قالوا: بلى، قالوا: فادعوا، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال، قال:

---

(١) أخرجه أحمد ١٩٥٨٧ ـ وابن حبان في صحيحه ٥٣٤٦ ـ وأبو يعلى في مسنده ٧٢٤٨ وغيرهم. وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢٥٩٨): ضعيف.

فيقولون: ادعوا مالكًا: فيقــولون: يا مالك ليقض علينا ربك: قال: إنكم ماكثون» قــال الأعمش: نبـئت أن بين دعائهم وبـين إجابة مـالك إياهم ألف عام، قـال: فيـقولون: ادعــو ربكم، فلا أحد خـير من ربكم، فـيقـولون: «ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قومًا ضـالين. ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون» قال فـيجيبهم: «اخسـئوا فـيهـا ولا تكلمون» قـال: فعند ذلك يئـسوا من كل خيـر، وعند ذلك يأخذون في الزفير، والحسرة والويل»(١).

وبعـد أن ذكرنا طرفًـا من طعام أهل النار وشـرابهم، ننتقل إلى الحـديث عن طعام أهل الجنة وشرابهم.

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٥٨٦ ـ وابن أبي شيبـة في المصنف ٣٤١٢٩. وقال الألباني في ضعيف الجامع (٦٤٤٤): ضعيف.

طعام أهل الجنة وشرابهم

لقد ضل قوم من الفلاسفة والنصارى، زعموا أن نعيم الجنة روحاني بحت، لا شيء فيه من النعيم للجسم بالمرة، وهذا المعتقد خطأ محض، وباطل لاشك في بطلانه عند من يعرف عن الله تعالى، وعن رسله عليهم السلام، وذلك لأن الأرواح التي يراد لها النعيم لا يتم لها التنعم الحقيقي إلا إذا كانت حالَّةً في أجسام تلائمها، وتستقر فيها وتقوم بها، ولأن الله قادر على ذلك، كما هو في الدنيا، كذلك في الآخرة بصورة أجل وأكرم، ولتفضيل الآخرة على الدنيا حتمًا، ومن هنا كان من غير المعقول أن يكون النعيم في الدنيا جثمانيًا وروحيًا، وفي الآخرة روحيًا فقط، وإذا كان العقل يحتم ذلك فإننا ندعمه بالأدلة السمعية الدينية الشرعية التي هي أخبار الله تعالى، وأخبار رسوله ﷺ.

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧] والنبي عليه الصلاة والسلام.

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤].

فربنا سبحانه وتعالى يخبر بما سينعم به على عباده المسلمين الذين آمنوا وكانوا يتقون، فيقول وهو أصدق القائلين: ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨ - ٧٣].

وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة: ١٧ - ٢١].

ويقول الرسول الكريم عليه الصلاة وأزكى التسليم: «أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون ولا يتغوطون. قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس»(١).

ويقول: «إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة لمن يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم، مع كل خادم صحفتان واحدة من ذهب والأخرى من فضة، في كل واحدة لون ليس في الأخرى مثله، يأكل من آخرها مثل ما يأكل من أولها، يجد لآخرها من الطيب واللذة ما يجد لأولها، ثم يكون ذلك ريح المسك الأذفر، لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يمتخطون»(٢).

وصدق ربنا إذ يقول: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان: ٥، ٦].

وكذا قال: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ [الإنسان: ١٥ - ١٨].

يا عبد الله: إنك لتنظر إلى الطير فتشتهيه، فيخر بين يديك مشويًا.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨٣٥.
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ٧٦٧٤ - وأبو نعيم في الحلية، وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب: ضعيف.

وقال سبحانه: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٥ - ٢٨].

هذا ومما يأكله أهل الجنة ما ورد عن عبد الله بن سلام أنه سأل رسول الله ﷺ لما قدم المدينة عن أشياء منها: «**وما أول شيء يأكله أهل الجنة؟ فقال: زيادة كبد الحوت**»(١).

وفي رواية: أن يهوديًا سأل رسول الله ﷺ قال: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «**زيادة كبد حوت**» قال فما غذاؤهم على أثرها؟ قال: «**ينحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها**»، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «**من عين تسمى سلسبيلا**». قال: صدقت(٢).

ومن شرابهم: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ [المطففين: ٢٥].

قال ابن مسعود: الرحيق: الخمر، مختوم: يجدون عاقبتها ريح المسك.

وعن ابن عباس: «ومزاجه من تسنيم» قال: هو أشرف شراب أهل الجنة، يشربه المقربون صرفًا ويمزج لأهل اليمين.

وقد وصف الله عز وجل خمر الجنة بصفات جميلة حسنة، ليست في خمور الدنيا، فذكر أنها أنهار جارية كما قال تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: ١٢].

وكما قال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

فهذه الخمرة أنهار جارية، مستمدة من بحار كبار هناك، ومن عيون تنبع من تحت كثبان المسك، ومما يشاء الله عز وجل، وليست كخمر الدنيا في كراهة المطعم، وسوء الفعل في العقل، ومغص البطن، وصداع الرأس، بل هي لذة

---

(٦) اخرجه البخاري ٣٣٢٩.

(١) اخرجه مسلم ٣١٥.

للشاربين، حسنة المنظر، طيبة الطعم. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٥ - ٤٧].

«لا فيها غول» وهو وجع البطن «ولا هم عنها ينزفون» أي لا تذهب عقولهم.

وإنما المقصود من الخمر إنما هو الشدة المطربة، وهي حالة البهجة التي يحصل بها السرور للنفس، وهذا حاصل في خمر الجنة، فأما إذهاب العقل، بحيث يبقى شاربها كالحيوان أو الجماد، فهذا نقص، إنما ينشأ من خمر الدنيا، فأما خمر الجنة فلا تحدث هذا، إنما يحصل عنها السرور والابتهاج. ولهذا قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٧ - ١٩].

أي لا يورث لهم صداعًا في رؤوسهم، ولا تنزف عقولهم. وفي الجنة أكواب: وهي الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم.

وأباريق: بخلافها من الوجهين.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣٤] الكأس هو القدح فيه الشراب، «دهاقا» أي ملأى مترعة ليس فيها نقص. ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٣٥]. أي لا يصدر عنهم في شرابهم شيء من اللغو، وهو الكلام الساقط التافه ولا تكذيب. كما قال: ﴿لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]، وكذا قال: ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١].

وأيضًا: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

يطوف بها الخدم والغلمان: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩].

من جمالهم وكثرتهم.

وقال ﷺ: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»(١).

وكما عرفت شيئًا عن طعام أهل الجنة وشرابهم وكذا أهل النار، فماذا عن لباسهم وفراشهم.

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٥٤٢٦ ـ ومسلم ٢٠٦٧.

لباس أهل النار وفراشهم

هل لأهل النار لباس؟ وكيف تبقى عليهم؟ وهل لهم فراش وغطاء؟

نعم، إن لأهل النار لباسًا وفراشًا وغطاءً، كما ذكر ذلك القرآن الكريم.

فما هو لباسهم؟

١ ـ ثياب من نار: قال تعالى: ﴿**فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ**﴾ [الحج: ١٩].

وكان إبراهيم التيمي إذا تلا هذه الآية يقول: سبحان من خلق من النار ثيابا.

٢ ـ سرابيل من قطران: قال تعالى: ﴿**وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ**﴾ [إبراهيم: ٤٩، ٥٠].

وعن ابن عباس قال: في قوله «قطران» هو النحاس المذاب.

وفي الحديث: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها تأتي يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**»(٣) قيل: وقد اختير لهم القطران لأنه خبيث الرائحة، قبيح اللون، شديد الاشتعال.

وما هو فراشهم وغطاءهم؟

حكى القرآن الكريم أن لأهل النار فراشًا، يسميه مهادًا وما هو بالمهاد، فالمهاد شيء لين، ولكنه سمي بذلك تهكمًا، وغطاءً يسميه «غواش».

قال تعالى: ﴿**لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ**﴾ [الأعراف: ٤١].

فالمهاد هو الفراش، والغواش هي اللحف.

كما قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا**﴾ [الإسراء: ٨].

قال الحسن: فراشًا ومهادًا، وقال قتادة، محبسًا حصروا فيها.

---

(٣) اخرجه مسلم ٩٣٤.

وعن الحسن أنه كان إذا ذكر أهل النار قال في وصفهم: قد حذيت لهم نعال من نار، وسرابيل من قطران، وطعامهم من نار، وشرابهم من نار، وفرش من نار، ولحف من نار، ومساكن من نار، في شر دار، وأسوأ عذاب في الأجساد، أكلاً أكلاً، وصهراً صهراً، وحطماً حطماً.

وقال وهب بن منبه: أما أهل النار الذين هم أهلها فهم في النار لا يهدؤون ولا ينامون ولا يموتون، ويمشون على النار، ويجلسون على النار، ويشربون من صديد أهل النار، ويأكلون من زقوم النار، فرشهم ولحفهم النار، وقمصهم نار وقطران، وتغشى وجوههم النار، وجميع أهل النار في سلاسل بأيدي الخزنة أطرافها يجذبون مقبلين ومدبرين، فيسيل صديدهم إلى حفر في النار، فذلك شرابهم. قال: ثم بكى «وهب» حتى سقط مغشيًا عليه، وغلب «بكر بن خنيس» عند روايته هذا الحديث البكاء حتى قام فلم يقدر أن يتكلم، وبكى «محمد بن جعفر» بكاءً شديداً.

كما قال تعالى: ﴿ **لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ** ﴾ [الزمر: ١٦].

فهذا لباس أهل النار وفراشهم ـ أعاذنا الله منه ـ فما لباس أهل الجنة وفراشهم؟

لباس أهل الجنة وفراشهم

إن نعيم أهل الجنة ليس مقصوراً على المطاعم والمشارب، بل يتعداه إلى لبس الحلل، والتحلي بالحلي، والجلوس على الأرائك، والتمتع بالنساء والطرب، وركوب الخيل، والزيارات الكريمة واللقاءات الحبيبة.

١ ـ ما هو لباسهم:

يقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ** ﴾ [الحج: ٢٣، ٢٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا** ﴾ [الكهف: ٣١].

كما قال جل وعلا: ﴿ **عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا** ﴾ [الإنسان: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ** ﴾ [فاطر: ٣٣].

وقال ﷺ: «**تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**»(١) وقال الحسن البصري: الحلة في الجنة على الرجال أحسن منها على النساء.

فأهل الجنة مسورون بالذهب والفضة مكللون بالدر، وعليهم أكاليل در، وياقوت، وعليهم تاج كتاج الملوك، شباب، جرد، مكحلون.

وقال ﷺ: «**من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٠.

(٢) أخرجه أحمد ٩٢٦٨ ـ وإسحاق بن راهويه في مسنده ٣٦. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح.

٢ـ ما هي أسرتهم وفرشهم؟

يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٠ - ١٦].

كما قال سبحانه: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان: ١٢ - ١٤].

وكذا قال ربنا: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

قال ابن مسعود: بطائنها من استبرق، فكيف بظواهرها. أو قال: إذا كانت البطائن من استبرق فما بالك بالظهائر؟

وكذلك بين ربنا حال هذه الأسرة، كما أنها موضونة ومبطنة، كذلك هي «مرفوعة» ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣].

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٥، ١٦].

والنمارق هي الوسائد والمساند مصفوفة ها هنا، وها هنا في كل مكان في الجنة، والزرابي: البسط المفروشة.

ومن خصائص تلك الأسرة أيضا ما ورد: «**إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض فيسير سرير ذا إلى سرير ذا وسرير ذا إلى سرير ذا حتى يلتقيا فيتكئ ذا ويتكئ ذا فيتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا فيقول: يا أخي تذكر يوم كذا في دار الدنيا في مجلس كذا؟ فدعونا الله عز وجل فغفر لنا**»[١].

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة ـ وأبو نعيم في الحلية ـ والبيهقي في البعث والنشور. وقال الألباني في ضعيف الجامع (٣٥٩): ضعيف.

وعلى تلك الأسرة يكون التمتع بالنساء «بالحور العين».

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨، ٤٩].

كما قال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٢ - ٢٤].

كذلك قال الله عز وجل: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٤ - ٤٠].

أي أنشأهن الله بعد الكبر والعجز والضعف في الدنيا، فصرن في الجنة شبابًا طريًا أبكارًا عربًا أي متحببات إلى بعولتهن، أترابًا في مثل أعمارهم، لأصحاب اليمين.

ويقول ﷺ: «**لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحًا، ولأضاءت ما بينهما، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها**»(١).

كما قال ﷺ: «**لو امرأة من نساء أهل الجنة أشرفت لملأت الأرض ريح مسك، ولذهب ضوء الشمس والقمر**»(٢).

«**على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ سوقهما من وراء لحومهما وحللهما، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء**»(٣)، «**وإن عليهن التيجان، وإن أدنى لؤلؤة منها لتضئ ما بين المشرق والمغرب**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٦٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٥٥١٢. وقال الألباني في ضعيف الجامع (٤٨٠١): ضعيف.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ١٠٣٢١ - والبزار في مسنده ١٨٥٥. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح لغيره.

(٤) أخرجه أحمد ١١٧٣٣ - والترمذي ٢٥٦٤ - وأبو يعلى في مسنده ١٣٨٦ وغيرهم، وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب: ضعيف.

وهؤلاء الحور، كما قال العزيز الغفور: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٥٦ - ٦٠].

وهن كما قال الله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٠ - ٧٨].

والعبقري هي عتاق البسط أو أجودها وخيارها وحسانها.

وقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

أي من الحيض والنفاس، والبول، والغائط والبزاق والمخاط، لا يصدر منهن شيء من ذلك، وكذلك طهرت أخلاقهن وأنفاسهن وألفاظهن ولباسهن وسجيتهن.

* ومع هذا كله تغني الحور العين بغناء لم تسمع الخلائق بمثله.

يقول ﷺ: **«إن في الجنة لمجتمعًا للحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات، فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له»**(١).

وكذلك ورد: «إن في الجنة نهراً طول الجنة، حافتاه العذارى قيام متقابلات، يغنين بأحسن أصوات يسمعها الخلائق، حتى ما يرون أن في الجنة لذة مثلها، قيل لأبي هريرة: ما ذاك الغناء؟ قال: إن شاء الله التسبيح والتحميد والتقديس والثناء على الله عز وجل»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد ١٣٤٢ - والترمذي ٢٥٦٣ - وأبو يعلى في مسنده ٤٢٩ وغيرهم وقال الألباني في ضعيف الجامع (١٨٩٨): ضعيف.

(٢) أخرجه البيهقي، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح موقوف.

قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤].

* هذا ومع وجود الأسرة في الجنة، والفرش، لكن أهل الجنة لا ينامون لئلا يشتغلوا بالنوم عن الملاذ والحياة الهنية، وطيب العيش، ولذلك ورد أن رسول الله ﷺ قال: «**النوم أخو الموت، وإن أهل الجنة لا ينامون**»(١).

وبعد ـ أخي المسلم الكريم ـ كما ذكرنا هذا الذي ذكرناه عن أهل الجنة وأهل النار، فإننا نجمل صوراً من العذاب، أو ألواناً من النعيم، قد ذكرت في القرآن الكريم، وفي السنة المطهرة فيما يأتي:

---

(١) أخرجه البزار ـ والطبراني في الأوسط ٩١٩ ـ وأبو نعيم في الحلية وغيرهم. وقال الهيثمي في المجمع: رجال البزار رجال الصحيح، وصحح إسناده السيوطي في الدر المنثور.

صور من عذاب أهل النار

١ - عذاب أهل النار بالتوبيخ والتقريع والتأنيب:

ما إن تستقر تلك الجماعات الهالكة، والزمر الخاسرة في جهنم بعد أن ألقوا فيها مهانين، حقيرين، ذليلين، حتى ينزل بهم عذاب نفساني أليم، مهين، ذلك هو عذاب التوبيخ واللوم والتقريع، والتأنيب الذي يتلقونه من ملائكة العذاب الموكلين بهم، مثل قولهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨].

وكذلك: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٧١].

ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤].

﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

وكذلك ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

كل هذا التوبيخ والتقريع والتأنيب جاء بيانه في كتاب الله عز وجل، وما ذكرناه قليل من كثير.

وأما تلاومهم فحدث ولا حرج، ويكفينا أن نصغي إلى بعض الآيات القرآنية التي سجلت تلاومهم بأمانة وصدق، فنسمع خاشعين إلى قول رب العالمين - وهو يخبر عنهم - فيقول: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].

ويقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ

استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ﴿٣٢﴾ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣].

ويقول تعالى: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴿٢٧﴾ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴿٢٨﴾ قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ﴿٢٩﴾ وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين ﴿٣٠﴾ فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ﴿٣١﴾ فأغويناكم إنا كنا غاوين ﴿٣٢﴾ فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون﴾ [الصافات: ٢٧ - ٣٣].

ويقول سبحانه: ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب ﴿٥٥﴾ جهنم يصلونها فبئس المهاد ﴿٥٦﴾ هذا فليذوقوه حميم وغساق ﴿٥٧﴾ وآخر من شكله أزواج ﴿٥٨﴾ هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار ﴿٥٩﴾ قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ﴿٦٠﴾ قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار ﴿٦١﴾ وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ﴿٦٢﴾ أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار ﴿٦٣﴾ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ [ص: ٥٥ - ٦٤].

٢ ـ خطبة إبليس في أهل النار:

ومن أغرب ما يعرف عن أهل النار من أحوال في غاية العجب أن يخطب فيهم إبليس خطبة من أبلغ الخطب وأفصحها وأشدها أثراً ووقعاً في نفوس سامعيها ـ أقمأهم الله وإياه سواء الخاطب والمخطوب ـ فقد نصب لإبليس منبر من نار فيرقاه فيخطب أهل النار عليه، فيزيدهم في كربهم، وطول حزنهم، وشدة إبلاسهم، وذلك لما يكسبهم خطابه من الندامة الممضة، والحسرة القاتلة، وقد سجل القرآن الكريم هذه الخطبة الإبليسية، فنستمع إليها: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

٣- بكاء أهل النار وعويلهم:

إن العويل والبكاء من لوازم معاناة المخاوف والآلام، ومقاساة الشدائد والأهوال، ودار البوار وسكانها لا يبرحون يتجرعون الغصص، ويتذوقون من العذاب، حزنهم دائم، وعذابهم لا ينقطع ولا يخف، ومن هنا لا يستغرب منهم البكاء والعويل، ولا يستنكر عليهم الصياح والنواح، فهم يتضاغون فيها ويصطرخون، ويدعون بالويل والحسرة والثبور.

وهذا القرآن الكريم يقص علينا بالحق ما سوف به يدعون ويقولون: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾.

فترد الملائكة عليهم: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

وفي الحديث: «إن أهل النار يبكون حتى لو أجريت السفن في دموعهم لجرت، وإنهم ليبكون الدم، يعني مكان الدمع»(١).

ويأخذ أهل النار في النداء مع العويل ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

فيدعون مالكًا فيقولون: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

فينادون على الله عز وجل، فيقولون: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٨٧٩١. وقال الألباني في صحيح الجامع (٢٠٣٢): حسن.

فيجيبهم الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١٠٨].

فعند ذلك ينقطعون عن الكلام، فيزداد عليهم العذاب، لأنه كان لهم في الكلام متنفس، وقد منعوا منه، ثم يتصل عذابهم لا يفتر عنهم ساعة واحدة ولا لحظة ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وكذلك قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

٤ـ ومن أشد ألوان العذاب لأهل النار:

أنهم يحرمون من رؤية الله عز وجل، ويحجبون عنها، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦].

* وبعد أن عرفت صورة مجملة عن عذاب أهل النار، نختم حديثنا ببعض نعيم أهل الجنة، نسأل الله حسن الخاتمة، ونسأله الجنة وما يقربنا إليها من قول أو عمل، ونعوذ به من النار وما يقربنا إليها من قول أو عمل.

صور من نعيم أهل الجنة

١ ـ عند باب الجنة : ماذا عند باب الجنة؟

إن عند باب الجنة شجرة عظيمة ينبع من أصلها عينان، قد خصصت إحداهما لشراب الداخلين، وثانيتهما لتطهيرهم، فإذا شربوا من الأولى جرت في وجوههم نضرة النعيم، فلا يبأسون أبدًا، وإذا اغتسلوا من الثانية لم تشعث أشعارهم أبدًا، وفي القرآن الكريم مصداق هذا، قول الله تعالى: ﴿ **وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا** ﴾ [الإنسان: ٢١].

وفي الحديث، يقول الرسول ﷺ: «**وإذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عينان، فإذا شربوا من إحداها جرت في وجوههم نضرة النعيم، وإذا توضئوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبدًا**»(١).

* هذا، وإن ملائكة الرحمن لتستقبل وفود الرحمن عند دخولهم إلى دار السلام، وأول المستقبلين هو «رضوان(*)» خازن الجنان، ثم الملائكة الموكلون بنعيم الجنة وأهله، قال تعالى: ﴿ **وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

كما قال سبحانه: ﴿ **وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** ﴾ [الزمر: ٧٣].

وقال أيضًا: ﴿ **وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** ﴾ [٢٣، ٢٤].

فشتان شتان بين استقبال الملائكة لأهل الجنة، واستقبالهم لأهل النار.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا - والبيهقي - وعلي بن الجعد في مسنده. ضعف الألباني رفعه إلى النبي ﷺ وصححه موقوفًا على علي رضي الله عنه في ضعيف الترغيب والترهيب.

(*) لم يرد في اسمه خبر صحيح.

* هذا وفي الوقت الذي يتلاوم فيه أهل النار، يكون حال أهل الجنة، كما قال ربنا صاحب المنة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٨].

يلقي بعضهم التحية والسلام على بعض، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٩، ١٠].

فهذا سلام المؤمنين، ومن قبله سلام الملائكة، ولهم من قبل ذلك ومن بعد ذلك، وأفضل من ذلك ـ السلام من ربهم السلام ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٥ - ٥٨].

كما يلحق الله عز وجل الذرية بالآباء، وكذا الآباء بالذرية، من كان في درجة أدنى إلى من هو في درجة أعلى ولا يكون العكس منه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

٢ ـ إن الجنة فيها ـ بإخبار الله تعالى ـ ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وفيها من النعيم المقيم العظيم ما لم تره عين، أو تسمع به أذن، أو يخطر على قلب بشر، كما جاء ذلك في قول الله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨-٧٢].

ويقول النبي ﷺ ـ فيما يرويه عن رب العزة جل وعلا ـ: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[1].

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٢٤٤ ـ ومسلم ٢٨٢٤.

ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

٣ ـ هذا وثمار الجنة ـ نسأل الله تعالى أن يطعمنا منها بمنه وكرمه آمين ـ أنواع وألوان: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨].

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

وهو قريب في متناول اليد والفم ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

وكذلك: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

وهي لا تنقطع في فصل من الفصول، ولا تمتنع لسبب من الأسباب.

﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣].

كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

وصدق ربنا عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤١-٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠ - ٢٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الجنة من الدنيا إلا الأسماء».

وإذا كان السدر الذي في الدنيا وهو لا يثمر إلا ثمرة ضعيفة، وهو النبق، وشوكه كثير، والشجر الذي لا يراد منه في الدنيا إلا الظل، يكونان في الجنة في غاية من كثرة الثمار وحسنها، حتى إن الثمرة الواحدة منها تنفتق عن سبعين نوعاً من الطعوم والألوان. التي يشبه بعضها بعضاً، فما ظنك بثمار الأشجار التي تكون

في الدنيا حسنة الثمار كالتفاح، والنخل والعنب، وغير ذلك؟ وما ظنك بأنواع الرياحين والأزاهير؟ وبالجملة فإن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله من فضله[١].

٤ - وعن أعظم نعيم روحاني يتم لهم في دار السلام، كما جاء عن النبي ﷺ يقول: «**إذا سكن أهل الجنة الجنة أتاهم ملك فيقول لهم: إن الله تعالى يأمركم أن تزوروه، فيجتمعون، فيأمر الله تعالى داود عليه الصلاة والسلام، فيرفع صوته بالتسبيح والتهليل، ثم توضع مائدة الخلد، قيل يا رسول الله: وما مائدة الخلد؟ قال: زاوية من زواياها أوسع مما بين المشرق والمغرب، فيطعمون ثم يكسون، فيقولون: لم يبق إلا النظر إلى وجه ربنا عز وجل، فيتجلى لهم فيخرون سجداً، فيقال: لستم في دار عمل، إنما أنتم في دار جزاء**»[٢].

وصدق ربنا إذ يقول: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

ويقول ﷺ: «**بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب جل جلاله، قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه تعالى حتى يحتجب عنهم، وتبقى فيهم بركته ونوره**»[٣].

وصدق ربنا عز وجل: ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [يونس: ٢٦].

ويقول ﷺ: «**إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟**

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ج٢ ص٣١٠.

(٢) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في صفة الجنة. وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب: ضعيف جداً.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٨٤ - وأبو نعيم في الحلية، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢٣٦٣): ضعيف.

فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»(١).

وكما قال ربنا عز وجل: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٤].

وفي الصحيح: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على الصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»(٢).

وإن الأبرار الأخيار ليرون ربهم عز وجل وهم على أرائكهم وسررهم، كما يرى القمر في مثل هذه الأحوال، يرون الله تعالى أيضًا في المجمع الأعم الأشمل، وهو في مثل أيام الجمع، والتي تسمى بيوم المزيد. وإنما سميت بيوم المزيد، لأن أهل الجنة يزادون فيها، رؤية الله عز وجل، فيزدادون كرامة ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]. كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وعن صهيب أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة: إن لكم عند الله وعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم تثقل موازيننا، وتبيض وجوهنا، وتدخلنا الجنة، وتزحزحنا عن النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم»(٣).

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٦٥٤٩ ـ ومسلم ٢٨٢٩.
(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٥٥٤ ـ ومسلم ٦٣٣.
(٣) أخرجه أحمد ١٨٩٦١ ـ وابن ماجه ١٨٧ ـ والنسائي في الكبرى ١١٢٣٤ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (٥٢١): صحيح.

وخطب «أبو موسى الأشعري» خطبة على منبر البصرة، فقال: «إن الله يبعث يوم القيامة ملكًا إلى أهل الجنة، فيقول: يا أهل الجنة: هل أنجزكم الله ما وعدكم؟ فينظرون ويرون الحلي والحلل والأنهار والأزواج المطهرة، فيقولون: نعم، قد أنجزنا ما وعدنا، يقولون ذلك ثلاث مرات، فيقول: قد بقي شيء: إن الله يقول ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ ألا إن الحسنى الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله عز وجل»(١).

فهذه بعض صور من نعيم الجنة، فهلا من مشمر لها، ومستعد لدخولها؟

يقول ﷺ: «**ألا مشمر إلى الجنة، فإن الجنة لا خطر لها، وهي - وربّ الكعبة - نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة في مقام أبدا، في حبرة ونضرة في دور عالية سليمة بهية، قالوا يا رسول الله: نحن المشمرون لها، قال: قولوا: إن شاء الله**»(٢).

وصدق ربنا عز وجل وهو يدعونا إلى الجنة: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥].

ويرغبنا فيها: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

كذا قال: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد ٤١٩ - وابن جرير الطبري في تفسيره، وفي إسناده أبو بكر الهذلي متروك الحديث. وأخرجه ابن جرير من طريق آخر وفيه أبان بن أبي عياش وهو متروك.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤٣٣٢ - وابن حبان في صحيحه ٧٣٨١ - والطبراني في المسند الشاميين وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢١٨٠): ضعيف.

وقـال ﷺ : «**حفت الجنـة بالمكاره، وحفت النار بالشـهوات**»[١]. فـاللهم نسألك الجنة ونعوذ بك من النار.

هذا، فـما أعظم وصف الجنة، ومـا أطيب ريحهـا، ونورها، وبهاءهـا، وما أطيب فناءها، وما أحسن منظرها، ولكنها حفت بالمكاره وهي الأعمال الشاقة من فعل الخيـرات وترك المحرمات، وملذات الدنيا وشهواتـها ـ على النقيض من النار التي حفت بالشهـوات ـ هذا والكلام عن الجنة يمكن أن يطول، ويطول، فلا تتسع المجلدات لذكـره، ولكنهـا الإشارات التي تغني عن العـبـارات، والعبـارات التي اختصرت المطولات. فنسأل الله الجنة بفضله وجوده وكرمه، اللهم آمين.

فلمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

(١) أخرجه مسلم ٢٨٢٢.

الإيمان بالقضاء والقدر

- أعداء الإسلام يحاربون عقيدة القضاء والقدر
- معنى القضاء والقدر
- أنواع القضاء والقدر
- نزاع الناس حول القضاء والقدر
- مراتب القضاء والقدر
- وجوب الإيمان بالقضاء والقدر
- مسائل في القضاء والقدر
- حكمة الإيمان بالقضاء والقدر
- ثمرة الإيمان بالقضاء والقدر

الركن السادس:

«من أركان الإيمان»: الإيمان بالقضاء والقدر

تمهيد حول القضاء والقدر:

إنه ما تزال العقيدة الإسلامية منذ إحداثها في العالم ذلك الانقلاب العظيم وهزتها العنيفة لأركانه المتداعية، وخلخلتها للكيان البشري المهزوز.

منذ ذلك الانقلاب الهائل العظيم الذي أطاح بصروح الباطل، ودك عروش الشر والكفر والفساد ما تزال العقيدة الإسلامية تستهدف للطعن الشديد، وتتعرض للنقد القاسي المرير، من خصومها الألداء، وأعدائها الأشداء من يهود ونصارى، ومجوس وملحدين على حد سواء، علمًا منهم أن سر ذلك الانقلاب العظيم الذي وقع في الكون على أيدي أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم من التابعين المؤمنين المحسنين إنما كان في العقيدة الإسلامية.

فلهذا لم يبرح أولئك الخصوم يشككون فيها. ويطعنون حتى زلزلوها في نفوس أكثر المسلمين، ويومها فقط تسنى لهم أن يوقفوا تيارها، ويقطعوا أسلاك أنوارها، فتعود الظلمة إلى العالم الإنساني، وتصاب البشرية بنكسة كبيرة أدت بها إلى مهاوي الردى، وأسقطتها في جحيم لا يطاق.

وعقيدة «القضاء والقدر» هي أحد أجزاء العقيدة التي لقيت ضربات عنيفة، وتعرضت لطعن عنيف، وتشكيك سخيف، بصورة تدعو إلى العجب والاستغراب، حتى إنه لم تكد تذهب آثار شمس النور المحمدي مع البقية الباقية من أصحاب رسول الله ﷺ حتى ظهر في المسلمين مبدأ نفي القدر، والقول بالجبر، ومذهب الاعتزال والتشيع، ونجم الشر واستطار، وطرق كل الأقطار، وتعرضت الأمة الإسلامية بعقائدها، وبلادها، وكل وجودها إلى أعنف الهزات التي زلزلت كيانها، تتهاوى تحت ضربات الحانقين، وطعنات الناقمين.

ولما هوى ذلك النجم الذي أضاء المعمورة وغمر الحياة بالهدى والخير، قال الذين كفروا - تشفيًا من الإسلام، وإمعانًا في الإجرام - إن ما أصاب المسلمين من الإنهيار والسقوط، بعد التفكك والضعف الكبير، كانت نتيجة بعض العقائد عندهم، وخصوا بالذكر «عقيدة القضاء والقدر»، وكان ذلك منهم إفكًا مفترىً، وكذبًا مقلوبًا، مشوهًا للحقيقة.

إذ الواقع هو أن الذي أحل بالمسلمين ما أحل بهم من ضعف وهوان ودون، لم يكن نتيجة إيمانهم بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح المطلوب، وإنما كان نتيجة إيمانهم بالقضاء والقدر على الوجه الغير صحيح ولا المطلوب، وذلك بما دس فيها الأعداء، وما شوهوها به من تأويل باطل وتحريف سخيف قضى عليها، وأماتها في نفوسهم أوكاد.

وهذا من أشد ما يملأ النفس أسىً وحزنًا، إن أعداء الإسلام ما زالوا يفسدون عليهم عقائدهم، ويشككونهم فيها حتى تخلوا عنها، فضعفوا لذلك، وهانوا، ثم انبرى أولئك الأعداء يقولون: إن ضعف المسلمين كان من جراء عقائدهم التي يعيشون عليها معتقدينها، منفعلين بها، مستجيبين لها.

ومن المؤسف حقًا أن أكثر المسلمين ما زالوا إلى اليوم لم يعرفوا داءهم، ولا ما كادهم به أعداؤهم، إذ أننا نرى كثيرًا منهم يلوك بلسانه عقيدة القضاء والقدر، ويحتج بها مرة على فسقه، وتهربه من مسئولياته، ومرة يتجنى بها على الله تعالى ربه وخالقه ومدبر أمره، وميسره إلى ما خلقه له، فينسب إليه تعالى الظلم، ويعترض عليه في قضائه، وأقداره وعادل أحكامه.

ومن هنا فقد رأيت أن أعتني بهذا الجزء من عقيدة المؤمنين، أو الركن السادس من أركان الإيمان، مع توضيحه وتبسيطه قدر الإمكان، عسى أن ينفع الله به من يقرؤه أو يسمعه ممن هم في بلبلة فكر، واضطراب نفسي، أو مرض قلبي حول عقيدة القضاء والقدر فتنقطع بلبلة أفكارهم، ويزول اضطراب نفوسهم، وأمراض قلوبهم، فيؤمنون بالقضاء والقدر ويرضون، ويعملون بطاعة الله ورسوله، فينجون ويسعدون، والله الهادي إلى سواء السبيل(١).

---

(١) عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ص٤٠٣ - ٤٠٥ بتصرف.

أولاً: معنى القضاء والقدر:

الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان، وهو الركن السادس، فمن كفر بقدر الله خرج من دين الله عز وجل. هذا وقد اختلفت عبارات العلماء في تعريف القضاء والقدر فمنهم من جعلهما شيئًا واحداً، ومنهم من عرف القضاء تعريفًا يغاير القدر.

فقال: القضاء: إيجاد الله تعالى الأشياء حسب علمه وإرادته.

والقدر: علم الله تعالى بما تكون عليه المخلوقات في المستقبل.

وقد عكس بعضهم، فجعل تعريف القضاء السابق للقدر، وتعريف القدر للقضاء، والأمر محتمل، ومن عرفهما تعريفًا واحدًا، فقال: هو النظام المحكم الذي وضعه الله لهذا الوجود والقوانين العامة والسنن التي ربط بها الأسباب بمسبباتها»(١).

أقول: والكلام محتمل، لأن القضاء والقدر كلمتان مترادفتان، وبينهما عموم وخصوص، فإذا ذكر أحدهما دخل فيه الآخر ضمنا، ويكون بمعناه، وإذا اجتمعتا في نص واحد فلا شك أن يتغاير المعنى، فيصبح القضاء هو علم الله تعالى الأزلي السابق.

والقدر وقت تحققه ووقوعه مثلا، والله أعلم.

«هذا وقد قال الإمام أحمد عندما سئل عن القدر: هو قدرة الرحمن».

وقال ابن القيم في قصيدته الكافية الشافية:

فحقيقة القدر الذي حار الورى ... في شأنه هو قدرة الرحمن

واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد ... لما حكاه عن الرضى الرباني

والإيمان بالقدر إيمان بعلم الله القديم، وبمشيئته النافذة، وقدرته الشاملة»(٢)

---

(١) الإيمان أركانه ـ حقيقته، محمد نعيم ياسين ص٩٨ بتصرف.

(٢) الإيمان أركانه حقيقته ص٩٩ بتصرف.

وقال النووي: إن الله تعالى قدر الأشياء في القدم، وعلم سبحانه - أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة: فهي تقع حسب ما قدرها[١].

وقيل: القدر هو سر الله تعالى المكتوم الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، مكتوب في اللوح المحفوظ في الكتاب المكنون الذي لا يطلع عليه أحد، ونحن لا نعلم بما قدره الله لنا أو علينا، أو بما قدره الله تعالى في مخلوقاته إلا بعد وقوعه أو الخبر الصادق عنه[٢].

وخلاصة القول: هو علم الله تعالى الأزلي بكل ما أراد إيجاده من العوالم، والخلائق والأحداث والأشياء وتقدير ذلك الخلق، وكتابته في الذكر الذي هو اللوح المحفوظ، كما هو حين يقضي بوجوده في كميته وكيفيته، وصفته وزمانه، مكانه وأسبابه، ومقدماته، ونتائجه، بحيث لا يتأخر شيء من ذلك عن إبانه «وقته وزمانه» ولا يتقدم عما حدد له من زمان، ولا يتبدل في كميته بزيادة أو نقصان، ولا يتغير في هيئة ولا صفة بحال من الأحوال.

وذلك: لسعة علم الله تعالى، وعظيم قدرته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولربطه تعالى الوجود كله بقانون السنن الذي يحكم كل أجزاء الكون علويه وسفليه على حد سواء[٣].

ثانيًا: أنواع القضاء والقدر: نوعان

النوع الأول: القدر المسَّلم به أو القدر المبرم:

وهو القدر المرتبط بخلق الكون والنظام الذي ربط به والسنن التي تحكم كل أجزائه وما في ذلك من الدقة والإحكام ما يثير الدهشة والعجب، في الكون كله، علويه وسفليه، وسواء كان في الإنسان، أو الحيوان أو النبات أو الجمادات، أو ارتبط بالشمس أو القمر أو النجوم وسائر الكواكب، على مر هذه الحياة الطويلة،

---

(١) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص٨٣.

(٢) الإيمان أركانه حقيقته ص٩٩ بتصرف.

(٣) عقيدة المؤمن ص٤١٧ - ٤١٨ بتصرف.

والآفاق الواسعة إنما هو مربوط بسنن لا تتبدل، وبنظم لا تتغير تسير إلى غايات محددة لها، وكل ذلك إنما السر فيه هو القدر الإلهي والتقدير الأزلي، والعلم الشمولي، الذي هو القضاء والقدر، والذي لا يتم إيمان العبد إلا به. قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ١٩ - ٢١].

كما قال: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩].

وكذلك: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان: ٢].

وقال: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى: ١ - ٣] سبحان ربي الأعلى.

فهذا النوع من القدر سلم به العقلاء، وآمن به كل المؤمنين بالله تعالى، ولم ينكره أحد، أو يمارِ فيه آخر.

ومثل هذا النوع من القدر ما كان من خلق العالم، وما فيه من سنن، وكل ما يجري فيه من أحداث كالحياة والموت، والقحط والجدب، وما ينزل بالإنسان من مصائب لم يتسبب هو فيها، ولم يكن له قدرة بحال على دفعها، وذلك ككونه يولد جميلاً أو دميمًا، طويلاً أو قصيراً، وفي زمن كذا دون غيره من الأزمنة، وفي بلد كذا دون غيره من البلاد مثلاً.

وكذا تحديد رزقه، وتقدير أجله.

وهذا النوع من القدر كما يجب الإيمان به، يجب الرضى به والتسليم لله تعالى فيه، فإنه على وفق رضى الله تعالى، وبناء على مشيئته وحكمته وواقع على أساس تدبيره لملكه وخلقه وإنه ما من حادثة تحدث في الكون إلا ولله تعالى فيها حكمة عالية مقصودة، ومن هنا قبح بالمرء أن يتبرم من هذه الأحداث المقدرة له، كما جمل به أن يقابلها بكامل الرضى، ومطلق التسليم(١).

---

(١) عقيدة المؤمن ص٤١٧ - ٤٢٠ بتصرف.

النوع الثاني: القدر المختلف عليه، أو المعلق:

وهذا النوع من القدر ليس هو القدر العام الذي يشمل الكون كله وما يجري فيه من أحداث لا يد للإنسان فيها ولا قدرة له على دفعها أو تغييرها، إذ هي جارية على نظام السنن التي قال تعالى فيها: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٣].

وإنما هو القدر الخاص المتعلق بأفعال العباد، حسنها وسيئها، صالحها وفاسدها والمرتبط بقضية الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، والثواب والعقاب، وهذا النوع هو الذي اختلف عليه، وأثيرت حوله الشبهات، لمن لم يحسن فهمه، وأول ما ظهر القول فيه كان في حدود المائة الأولى من الهجرة، وأول من أظهره ودعا إليه، وقال به «غيلان الدمشقي» الذي قتله «هشام بن عبد الملك» لزندقته.

وهذا لا ينافي ما روي من أن القول بنفي القدر كان في أواخر أيام الصحابة رضي الله عنهم إذ ما قيل في تلك الأيام لم يعد كونه مجرد قول قاله فرد أو أفراد فأنكره عليهم من وجد من أصحاب رسول الله ﷺ كابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهم، حتى قضوا عليه، وأخمدوا نار فتنته إلى حين[1].

وصار الناس بعد ذلك ـ في هذا النوع من القدر ـ أصنافًا وفرقًا، منهم من ينكر ذلك القدر، أو من يؤمن به ويفهمه فهمًا خاطئًا.

وذلك على النحو التالي:

---

(١) عقيدة المؤمن ص٤٢١ ـ ٤٢٢ بتصرف.

نزاع الناس حول القضاء والقدر:

أولاً: «القدَرية»: هم أول من تكلموا في مسألة «القضاء والقدر» وأول من قال به «غيلان الدمشقي» فنفوا القدر المتعلق بأفعال العباد، وقالوا: لم تقض أزلاً، ولم تكتب في كتاب المقادير، أي اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء، وزعموا أن الله لم يعلمها قبل وجودها وقالوا قولتهم المشهورة: «لا قدر، والأمر أنف» أي نفوا القدر المتعلق بأفعال العباد، والأمر أنف أي مستأنف، لم يعلمه الله قبل وقوعه.

وقد أُخبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن هؤلاء النفر أو تلك الطائفة، فقال لمن أخبره بذلك: «إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم براء مني، والذي يحلف به «عبد الله بن عمر» لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفق في سبيل الله ما قُبل منه حتى يؤمن بالقدر.

ثم ذكر الحديث الذي سمعه من أبيه «عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ، إذ طلع علينا رجل.... الحديث»[1].

ومما زعمته تلك الطائفة أن العبد يخلق أفعاله بنفسه، وأن الله تعالى لا دخل له في ذلك ولا عمل، وأن أعمال العباد لم تقدر ولم يعلمها الله تعالى قبل وجودها.

وقالوا: كيف يفعل الله القبيح وهو ينهى عنه ويحرمه، وهذا هو أساس شبهتهم التي بنوا عليها مذهبهم في كون الله تعالى لم يخلق أفعال العباد ولم يقدرها لهم أو عليهم وإنما العبد وحده هو الخالق لأفعاله.

وأضافوا إلى شبهتهم هذه شبهة أخرى وهي قولهم: كيف يخلق الله أفعال العباد ثم يعاقبهم عليها؟» وأصبحوا بهذا يعرفون «بالقَدَرِيَّة» أي نفاة القدر، ولزمهم أن العبد ما دام يستقل بخلق أفعاله فقد أصبح ربًا يخلق ما أراد أن يخلق من الأفعال، وبطل بذلك التوحيد الذي هو أصل الدين وأساسه، ومن هنا سمو

(١) صحيح تقدم.

بمجوس هذه الأمة، لتعدد الخالقين بحسب مذهبهم في أن الإنسان خالق أفعاله بمقتضى قدرته وعلمه، لا بمقتضى قدرة الله وعلمه.

وكفروا بذلك لإنكارهم القدر الذي تضافرت نصوص الكتاب والسنة في إثباته بحيث يعد منكرها كافراً، لا مقام له بين المسلمين.

ولكن للعلم نقول: يبدو أن هذه الطائفة التي قالت بنفي القدر بهذا المعنى قد دحضت حجتها، وذهب باطلها، وانتهت نهائيًا من الوجود»(١).

ثانيًا: «الجبرية»:

وهم على العكس من القدرية نفاة القدر، وهم طائفة من المعتزلة، وأول من ظهر منهم «الجعد بن درهم» وكان قد تلقى مذهب الجبر من يهودي من يهود الشام، وتلقاه عنه «الجهم بن صفوان» رئيس الطائفة الجهمية، نفاة الصفات المعطلين.

وحقيقة مذهب الجبر: أن الإنسان لا يخلق أفعاله، ولا ينبغي أن تنسب إليه إلا على سبيل المجاز، فهي نسبة فعل لا نسبة إرادة واختيار، إذ هي أفعال الله تعالى أجراها على يد العبد بدون إرادة من العبد ولا اختيار.

ولازم هذه العقيدة أن العبد غير مؤاخذ على أفعاله، وأنه لا يعاب منه فعل، ولا يلام عليه ولو كان في غاية القبح والفساد، ومهما ارتكب من معاصي، أو اقترف من الذنوب وتجعله معذوراً أمام نفسه، حتى قال بعض ضحايا هذا المعتقد الخطير:

أصبحت منفعلاً لما يختار   منّي ففعلي كله طاعات

وأصبح كثير من الناس يتقاعسون عن العمل، ويقعدون عن كل خير، ويبررون ذلك بمثل قول شاعرهم:

جرى قلم القضاء بما يكون   فسيان التحرك والسكون
جنون بك أن تسعى لرزقك   ويُرزق في غيابته الجنين

---

(١) عقيدة المؤمن ص٤٢٢ ـ ٤٢٤ بتصرف.

فالعبد لا قدرة له ولا اختيار وإنما هو مسير لا مخير، كالريشة في مهب الريح، وكالشجرة تعصف بها الرياح، فهو مجبر على كل شيء، لا فرق بين فعل اختياري وآخر إجباري.

تلك خلاصة المذهب الجبري، وهو - كما ترى - أفسد وأشد شراً من سابقه الذي هو مذهب القدرية.

والذي ينبغي الإشارة إليه هنا هو أن عقيدة الجبر بالرغم من كونها أكثر ضرراً وفساداً من عقيدة نفي القدر، فقد ظلت ظاهرة في المسلمين، سارية فيهم وبدون إرادة منهم لها، ولا رغبة فيها، ولعل السبب يعود في ذلك إلى أن عقيدة الجبر هذه تلقي التبعة عن العبد فيما يرتكب من المعاصي أو يقترف من الذنوب، وكلما ضل العبد، أو سلك طريق الضلال فإنه يحتج بأن الله أراد له ذلك، وعند الطاعة تراه ينسب ذلك إلى نفسه وإلى فعله!!

فما هذا، أيجدر بالإنسان أن يكون عند الضلالة جبريًا، وعند الطاعة قدريًا؟ كلا، لا يليق بالإنسان ذلك، وكم قعد هذا المعتقد الخاطئ الفاسد بكثير من المسلمين عن العمل الجاد النافع، فضعفوا وهانوا، وأصيبوا بكل قاصمة للظهر، حتى أصبحوا مضرب المثل في العجز والكسل، والتخلف في ميادين العمل والإنتاج.

فلننظر كيف تحول مذهب الجبر إلى مذهب معطل قاتل، لا يقود أهله إلا إلى خسران الدنيا والآخرة، أرأيت لو أخذ الناس كلهم بهذا المذهب، ماذا كان يحدث للحياة؟ كانت تنتهي وكفى!![1].

ثالثا: الإبليسية: وهي فرقة حيرى مترددة، تنسب إلى إبليس

زعمت أنه مادام الله تبارك وتعالى قد نفى الظلم عن نفسه في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠].

---

(١) عقيدة المؤمن ص٤٢٥ - ٤٢٦ بتصرف.

وحرمه على نفسه وعلى عباده في قوله في الحديث القدسي: **«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا»**(١).

فكيف يجوز إذًا عقلاً أن يكتب على العبد أزلاً أعماله ليقوم بها حتمًا، ثم يؤاخذه عليها؟

بل ذهبوا إلى أكثر من هذا القول بشاعة وقبحًا فقالوا: ما دام الله تعالى قد علم مصير العبد، وقرره، حيث قدره بكتابته في كتاب المقادير العام «اللوح المحفوظ»، وأصبح العبد لا محالة صائرًا إليه شاء أم أبى، أحب أم كره، فكيف يؤمر العبد إذًا وينهى، ويطالب بفعل الطاعات، وترك المعاصي، والأمر قد بت فيه، وفرغ منه، إنما يؤمر وينهى من لم يحدد له مصير، وتقرر له نهاية، فمثل هذا يؤمر وينهى، ليتقرر مصيره بحسب استجابته لما أمر به ونهى عنه، وعدمها.

فهذا ملخص المذهب الثالث، وإنه ليبدو أن أصحابه مترددون بين إثبات القدر ونفيه، والقول بالجبر وعدمه.

ولزمهم في مذهبهم هذا ما أصبحوا به شرًا من إبليس، ألا وهو الاعتراض على الله تعالى، ونسبة الظلم إليه، وهو المنزه عن الظلم، البعيد عن كل نقص، سبحانه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

فسبحان الله: ماذا يفعل التضليل بالناس: وهذا شأن كل المذاهب الهدامة التي هبطت بالإنسان إلى منزلة الحيوان، وبالتأمل يظهر لنا أن جميع المذاهب الهدامة، المدمرة في العالم، كانت من صنع اليهود الحاقدين على البشرية، الناقمين عليها، ومن هنا فإني لا أشك أن مذهب الجبر كمذهب القدر، كهذا المذهب الإبليسي وكمذهب التشيع، وأكثر طرق التصوف، الكل طبخ في مطابخ اليهود وقدم طعامًا مسمومًا للمسلمين ليموتوا به، ويهلكوا عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله(٢).

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

(٢) عقيدة المؤمن ص٤٢٨ ـ ٤٣٠ بتصرف.

رابعًا: «أهل السنة والجماعة»

وهم الذين آمنوا فهداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه، لقد سلكوا في ذلك مسلكًا وسطًا، بعيدًا عن الغلو والتسيب، والإفراط والتفريط، فالقدرية قد جفوا، والجبرية قد غلوا، وهدى الله السلف الصالح لمعرفة الحق والصراط المستقيم، ووفقهم الله تعالى للتوفيق بين كون الإنسان فاعلاً لأفعاله، مريداً لها مختاراً فيها، مهيأ للثواب عليها إن كانت خيراً، وللعقاب عليها إن كانت شراً، وبين كون الله تعالى هو خالقه وخالق أفعاله خيرها وشرها، مع اعتقاد عدل الله وتنزيهه عن الظلم.

وقد قام هذا المذهب على الدليل الشرعي من القرآن والسنة.

آمن هؤلاء الموفقون بالقضاء والقدر، والعدل والإرادة، والمشيئة، والحكمة، ولم يصعب عليهم - كما صعب على غيرهم - التوفيق بين كون فعل العبد قد قدره الله تعالى، وكتبه عليه وسبق به علمه قبل التقدير والقضاء، وبين كون العبد فاعلاً لفعله، مريداً له مختاراً في فعله وفي تركه، يحاسب به، ويجزى عليه، ولا بين كون الله يقضي للعبد ما شاء من قضاء، ثم يأمره وينهاه، ويجزيه حسب عمله الذي قدر له، وكتبه له أو عليه.

فقالوا: إن الله تعالى لما قدر ما للعبد وما عليه من خير أو شر، وسعادة أو شقاء، قد قدره مربوطًا بأسبابه، فللخير أسبابه، وللشر أسبابه، كما قدر أن العبد يأتي تلك الأسباب ويعمل بها بمحض إرادته التي قدرها له، وحرية اختياره الذي قضى له به.

فلا يصل العبد إلى ما كتب عليه وقدر له من سعادة أو شقاء إلا بواسطة تلك الأسباب التي يفعلها غير مكره عليها، ولا مجبوراً على فعلها[1].

والإنسان يعرف الفرق بين ما يقع منه باختياره، وبين ما يقع منه باضطرار وإجبار، فالإنسان ينزل من السطح بالسلم نزولاً اختياريا فيعرف أنه مختار.

---

(١) عقيدة المؤمن ص٤٢٧، ٤٣١، ٤٣٢ بتصرف.

ولكنه يسقط هاويًا من السطح، ويعرف أنه ليس مختاراً في ذلك.

ويعرف الفرق بين الفعلين، وأن الثاني إجبار، والأول اختيار، وكل إنسان يعرف ذلك، وكذلك الإنسان يعرف أنه إذا أصيب بمرض كسلس البول مثلاً، فإن البول يخرج منه بغير اختياره، وإذا كان سليمًا من هذا المرض فإن البول يخرج منه باختياره، ويعرف الفرق بين هذا وذاك، ولا أحد ينكر الفرق بينهما.

وهكذا جميع ما يقع من العبد يعرف فيه الفرق بين ما يقع اختياراً أو بين ما يقع اضطراراً وإجباراً، بل إنَّ من رحمة الله عز وجل أن من الأفعال ما هو باختيار العبد ولكن لا يلحقه منه شيء كما في فعل الناسي والنائم، والمكره، لا اختيار له، ولا يؤاخذ بفعله(١).

والحجة في ذلك قول رسول الله ﷺ: «**إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله ربه الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله ربه النار**»(٢).

ودلالة هذا الحديث الصحيح ظاهرة في أن الله تعالى إذا كتب على العبد أزلاً السعادة أو الشقاء كتب له كذلك أنه يعمل بالأسباب التي تسعد أو تشقي لتتم السعادة أو الشقاء على أساس نظام الأسباب.

وكذلك مبني على علم الله، وحكمه وحكمته، وإرادته مع عدله ورحمته، واستحالة الظلم عليه فهو مقدر مقادير العباد، من أعمار وأرزاق، وسعادة وشقاء، قدر ذلك مع موجباته وأسبابه بحيث لا ينفك قدر مهما كان عن سببه إلا أن يشاء الله ـ كما هو الحال بالنسبة لسائر أجزاء الكون إذ الكل مربوط بنظام السنن محكوم بقوانينها من أكبر جرم إلى أصغره كخلية النواة.

---

(١) القضاء والقدر لابن العثيمين ص٨، ٩ بتصرف.

(٢) أخرجه أحمد ٣١١ ـ والترمذي ٣٠٧٥ ـ وأبو داود ٤٧٠٣ وغيرهم، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٣٥٢٥): ضعيف.

ويشهد لهذه الحقيقة مثل قول الرسول ﷺ:

«إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»(١).

وهذا الحديث الصحيح قد يفهمه البعض خطأ، ولكن لو علم أن كل ذلك مرتبط بأسبابه ما كان ليضل أو يفهم خطأ، فالإنسان مكتوب رزقه ولكن لابد من السعي عليه، فإن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، والإنسان مكتوب أجله، ولكنه عليه أن يحافظ عليه وأن يأخذ بأسباب النجاة، وكذلك هو مأمور بالعمل الصالح منهي عن العمل الطالح، وعليه أن يأخذ بأسباب السعادة والبعد عن أسباب الشقاء.

وفي قوله ﷺ: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع.. إلخ فهو مرتبط بأسبابه أيضًا، إذ لا ظلم عند الله **﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾** [فصلت: ٤٦]».

فالرجل يعمل العمل رياء، وهو في الظاهر يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وليس كذلك، ومثله الرجل يعمل بالطاعة ثم ينتوي المعصية، وكذلك من يعمل الطاعة في الظاهر، ويخفي المعصية، أو يرتكب المعاصي في خلوته، وكذا الرجل يعمل صالحًا ولكنه يظلم الناس فتؤخذ حسناته، ويطرح عليه من سيئاتهم، والرجل يجاهد ثم يجرح فيبادر بنفسه فينتحر ونحو ذلك وأما الصنف الثاني فهو رجل عصى ثم تاب، وكان كافرًا ثم آمن ثم مات ونحو ذلك(٢).

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٣٢٠٨ ـ ومسلم ٢٦٤٣.

(٢) انظر بتوسع كتابنا «تصحيح المفاهيم الخاطئة».

ثالثا: مراتب القضاء والقدر عند أهل السنة والجماعة

أربع مراتب:

المرتبة الأولى: العلم: وهي أن يؤمن الإنسان إيمانًا جازمًا بأن الله تعالى بكل شيء عليم، وأنه يعلم ما في السموات والأرض جملة وتفصيلاً سواء كان ذلك من فعله أو من فعل مخلوقاته، وأنه لا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء.

فهو يعلم عدد أوراق الأشجار، وحبات الرمال، وقطرات الأمطار، ومكاييل البحار، وأوزان الأنهار ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأنعام: ٥٩].

المرتبة الثانية: الكتابة: وهي أن الله تبارك وتعالى كتب عنده في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء وقد جمع الله تعالى بين هاتين المرتبتين في قوله سبحانه: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [الحج: ٧٠].

فبدأ سبحانه بالعلم، وقال إن ذلك في كتاب أي أنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما جاء به الحديث عن رسول الله ﷺ: «**إن أول ما خلق الله القلم قال له اكتب، قال رب ماذا أكتب؟ قال اكتب ما هو كائن، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**»[١].

ولهذا سئل النبي ﷺ عما نعمله أشيء مستقبل أم شيء قد قضي وفرغ منه؟ قال: إنه قد قضي وفرغ منه.

---

(١) أخرجه أحمد ٢٢٧٥٧ ـ والترمذي ٢١٥٥ ـ وأبو داود الطيالسي في مسنده وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (٢٠١٧): صحيح.

وقال أيضًا حين سئل: أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب الأول؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» فأمرهم النبي ﷺ بالعمل - فأنت - يا أخي - اعمل وأنت ميسر لما خلقت له - ثم تلا ﷺ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠](١).

المرتبة الثالثة: المشيئة: وهي أنَّ الله تبارك وتعالى شاء لكل موجود أن يوجد أو معدوم ألا يكون في السموات أو في الأرض، فما وجد موجود إلا بمشيئة الله تعالى، وما عدم معدوم إلا بمشيئة الله تعالى، وهذا ظاهر في القرآن الكريم، وقد أثبت الله تعالى مشيئته في فعله ومشيئته في فعل العباد، فقال الله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

كما قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

وكذلك: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فبين الله تعالى أن فعل الناس كائن بمشيئته، وأما فعله تعالى فكثير، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨].

إلى آيات كثيرة تثبت المشيئة في فعله تبارك وتعالى، فلا يتم الإيمان بالقدر إلا أن نؤمن بأن مشيئة الله عامة لكل موجود أو معدوم، فما من معدوم إلا وقد شاء الله تعالى عدمه، وما من موجود إلا وقد شاء الله تعالى وجوده، ولا يمكن أن يقع شيء في السموات ولا في الأرض إلا بمشيئة الله تعالى.

المرتبة الرابعة: الخلق: أي أن نؤمن بأنَّ الله تعالى خالق كل شيء، فما من موجود في السموات والأرض إلا الله خالقه، حتى الموت يخلقه الله تبارك

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٤٩٤٦ - ومسلم ٢٦٤٧.

وتعالى، وإن كان هو عدم الحياة، يقول الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢].

فكل شيء في السموات أو في الأرض فإن الله تعالى خالقه، لا خالق إلا الله تبارك وتعالى.

وكلنا يعلم أن ما يقع من فعله سبحانه وتعالى بأنه مخلوق له، فالسموات والأرض والجبال والأنهار والشمس والقمر والنجوم والرياح والإنسان والبهائم كلها مخلوقات لله، وكذلك ما يحدث لهذه المخلوقات من صفات وتقلبات، وأحوال كلها أيضًا مخلوقة لله عز وجل.

ولكن قد يشكل على الإنسان كيف يصح أن نقول في فعلنا وقولنا الاختياري إنه مخلوق لله عز وجل؟

فنقول: نعم يصح أن نقول ذلك. لأن فعلنا وقولنا ناتج عن أمرين:

أحدهما: القدرة، وثانيهما: الإرادة.

فإذا كان فعل العبد ناتجًا عن إرادته وقدرته، فإن الذي خلق هذه الإرادة وجعل قلب الإنسان قابلاً للإرادة هو الله عز وجل، وكذلك الذي خلق فيه القدرة هو الله عز وجل، ويخلق السبب التام الذي يتولد عنه المسبب.

نقول: إن خالق السبب التام خالق للمسبب أي أنه خالق المؤثر خالق للأثر، فوجه كونه تعالى خالقًا لفعل العبد أن نقول: إن فعل العبد وقوله ناتج عن أمرين هما: ـ الإرادة والقدرة.

فلولا الإرادة لم يفعل. ولولا القدرة لم يفعل، لأنه إذا أراد وهو عاجز لم يفعل لعجزه عن الفعل، وإذا كان قادرًا ولم يرد لم يكن الفعل، فإذا كان الفعل ناتجًا عن إرادة جازمة، وقدرة كاملة، فالذي خلق الإرادة الجازمة والقدرة الكاملة هو الله. وبهذه الطريقة عرفنا كيف يمكن أن نقول إن الله تعالى خالق لفعل العبد، وإلا فالعبد هو الفاعل في الحقيقة، فهو المتطهر وهو المصلي، وهو المزكي وهو الصائم وهو الحاج وهو المعتمر، وهو العاصي وهو المطيع، لكن هذه الأفعال كلها

كانت ووجدت بإرادة وقدرة مخلوقتين لله عز وجل، والأمر - ولله الحمد - واضح.

وهذه المراتب الأربع المتقدمة يجب أن تثبت لله عز وجل، وهذا لا ينافي أن يضاف الفعل إلى فاعله من ذوي الإرادة.

كما أننا نقول: النار تحرق، والذي خلق الإحراق فيها هو الله تعالى بلا شك فليست محرقة بطبيعتها، بل هي محرقة بكون الله تعالى جعلها محرقة، ولهذا لم تكن النار التي ألقي فيها إبراهيم محرقة، لأن الله قال لها: ﴿ **كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

فكانت بردًا وسلامًا على إبراهيم، فالنار بذاتها لا تحرق ولكن الله تعالى خلق فيها قوة الإحراق، وقوة الإحراق هي في مقابل فعل العباد، كإرادة العبد وقدرته، فبالإرادة والقدرة يكون الفعل، وبالمادة المحرقة في النار يكون الإحراق، فلا فرق بين هذا وهذا، ولكن العبد لما كان له إرادة وشعور واختيار وعمل صار الفعل ينسب إليه حقيقة وحكمًا، صار مؤاخذًا بالمخالفة معاقبًا عليها لأنه يفعل باختيار ويدع باختيار(١).

رابعًا: وجوب الإيمان بالقضاء والقدر:

يجب على كل مسلم أن يؤمن بعقيدة القضاء والقدر إيمانًا راسخًا لا يقبل الشك، بل إنه لا يصح إسلام امرئ ولا يقبل إيمانه إلا بيقينه الجازم بالقضاء والقدر، لأن عقيدة القضاء والقدر ركيزة من ركائز الإيمان الست.

وذلك لأن عقيدة القضاء والقدر قد دل عليها القرآن الكريم والسنة المطهرة فمن القرآن، يقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ [القمر: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا** ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

---

(١) القضاء والقدر لابن عثيمين ص١٩ - ٢٦ بتصرف، وانظر: الثمرات الزكية في العقائد السلفية ص٢٢٣ - ٢٣٨، ومعارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول للحافظ الحكمي ص٢٦٨ - ٢٨٤.

وقال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

وقال جل وعلا: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وقال عز وجل: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

وفي السنة: يقول ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك»(٢).

وقال ﷺ: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم، ثم قال: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»(٣).

وقال ﷺ: «لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ صحفتها ولتنكح، فإن لها ما قدر لها»(٤) وقال ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»(٥).

فالإيمان بالقدر جزء من عقيدة المؤمن، وركن من أركان الإيمان، وإنكاره أو التشكيك فيه، كفر بالله ورسوله، عياذاً بك اللهم.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٦٤.

(٢) أخرجه أحمد ٢١٦٥١ ـ وأبو داود ٤٦٩٩ ـ وابن ماجه ٧٧ وغيرهم، وقال الألباني في صحيح الجامع (٥٢٤٤): صحيح.

(٣) صحيح تقدم.

(٤) أخرجه البخاري ٦٦٠١.

(٥) صحيح تقدم.

وقال صاحب العقيدة الطحاوية: «... خلق الخلق بعلمه، وقدر لهم أقداراً، وضرب لهم آجالاً، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته، وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن، يهدي من يشاء، ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلاً، وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله، وهو متعال عن الأضداد والأنداد، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره، آمنّا بذلك كله، وأيقنا أن كلاً من عنده.

... وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار جملة واحدة، فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه.

وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه، وكل ميسر لما خلق له.

والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله.

وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، ولم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً، ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فمن سأل لِمَ فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين.

فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو مُنَوَّرٌ قلبه من أولياء الله تعالى، وهي درجة الراسخين في العلم، لأن العلم علمان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود، فإنكار العلم الموجود كفر، وادعاء العلم المفقود كفر، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود، وترك طلب العلم المفقود.

ونؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد رقم، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه، ليجعلوه كائنًا، لم يقدروا عليه جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه.

وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدر ذلك تقديرًا محكمًا مبرمًا ليس فيه ناقض ولا معقب، ولا مزيل، ولا مغير، ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سمواته وأرضه، وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾ [الأحزاب: ٣٨].

فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيمًا، وأحضر للنظر فيه قلبًا سقيمًا، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرًا كتيمًا، وعاد بما قال فيه أفاكًا أثيمًا.

. . . وأن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكل يعمل لما قد فرغ له وصائر إلى ما خلق له.

والخير والشر مقدران على العباد.

والاستطاعة التي يجب بها الفعل، من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به، فهي مع الفعل، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل، إليها يتعلق الخطاب، وهو كما قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وأفعال العباد خلق الله، وكسب العباد.

ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم، وهو تفسير «لا حول ولا قوة إلا بالله».

نقول: لا حيلة لأحد، ولا حركة ولا تحول لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله.

وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره، غلبت مشيئته المشيئات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها، يفعل ما يشاء، وهو غير ظالم أبدًا، تقدس عن كل سوء وحَيْن، وتنزه عن كل عيب وشَيْن.

﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ا . هـ[1].

---

(١) انظر: متن العقيدة الطحاوية للإمام أبي جعفر الطحاوي الحنفي، وكذا شرح العقيدة الطحاوية.

خامساً: مسائل في القضاء والقدر

١ ـ مسألة: هل الإنسان مسير أم مخير، مجبر أم مختار؟

وتنشأ المشكلة إذا قلت أنا مثلاً: لا أدري أفلان كريم أم بخيل؟

وذلك لأني رأيت له بعض التصرفات كان فيها كريمًا، وبعض التصرفات الأخرى كان فيها بخيلاً، فترددت في المسألة أهو كريم أم بخيل؟ لكن لو أن كل التصرفات التي أخذتها عليه «كرم» ما نشأ شق السؤال: أم هو بخيل؟ ولو كانت كل التصرفات «بخلاً» ما نشأ: أم هو كريم؟

على هذا النمط نشأ السؤال: الإنسان مسير أم مخير؟ لو كان في ظاهر الحياة أن الإنسان يرى نفسه مجبراً على كل أعماله لما نشأت فكرة: أهو مخير؟ ولو أنه مخير في كل أعماله لما نشأت فكرة: أهو مسير؟

إذًا فالإنسان يجد أفعالا كثيرة تحدث فيه بدون اختيار منه، فيرى أنه ما دام لم يوجد له اختيار فهو مسير فيها، وأشياء كثيرة تقع على حسب ما قدر واختار. كمن يريد أن يلبس ثوبًا لونه كذا، ويريد أن يأكل طعامًا شكله كذا، ويريد أن يتعلم في مدرسة كذا، ويريد أن يعمل كذا، فتقع الأمور كما يقرر أو قريبًا مما يقرر، إذًا فهنالك أمور للاختيار دخل فيها، وأمور ليس للاختيار دخل فيها، ومن هنا نشأت المشكلة، ولكن لا مشكلة إذا ما عرف ما هو الإنسان الذي نريد أن نعرف: مسير هو أم مخير؟

الإنسان أولاً: هو ذلك الكائن من الكائنات الموجودة في الأرض وليس الجنس الوحيد فيها، بل هناك أجناس أخرى تشاركه في الوجود.

ولكن بالاستقراء وجدنا أن الإنسان أرقى هذه الأجناس، وكل الأجناس في خدمته، وأقرب الأجناس إليه من جهة الدنو والمدركة بالحس هي الحيوانات، وتحت الحيوانات النباتات، وتحت النباتات الجماد، إذًا فالأجناس الموجودة: جمادات، ونباتات وحيوان وإنسان.

الجماد له حيز يشغله، والنبات ينمو ويتطور، والحيوان يحس ويتحرك، والإنسان يعقل ويفكر، فامتاز النبات عن الجماد - الذي له جرم وحيز - بأنه ينمو، وامتاز الحيوان عن النبات بأنه يحس ويتحرك، وامتاز الإنسان عن الحيوان بالفكر والعقل.

وما معنى الفكر في الإنسان. الفكر معناه المقياس الذي يختار بين البديلات (يفعل أو لا يفعل) والأمر الذي لا بديل فيه، لا عمل لعقلك فيه، وهنا يمكن أن تتضح معالم القضية.

فالإنسان على الرغم من كونه أعلى الأجناس. إلا أنه فيه من تلك الأجناس التي يعلو عليها، ففيه حيوانية، وفيه نباتية، وفيه جمادية، فما في الإنسان من قدر الجمادية، وما فيه من قدر النباتية، وما فيه من قدر الحيوانية، فهو مسير فيه كالجماد وكالنبات وكالحيوان، وإذا تصورنا أن إنسانًا يستطيع أن يرفع نفسه عن الأرض إلى أعلى فسوف يسقط بعد ذلك كقطعة الحجر. لأن قانون الجماد يتحكم فيه، وقانون الجاذبية يحكمه ويشده إلى أسفل، وأيضًا فهو ينمو، ولا دخل له في ذلك النمو، وليس له عمل فيه.

كذلك فهو يحس ويتحرك وليس له عمل في الإحساس ولا في الحركة ولا إدارة أجهزة جسمه. ولا دخل له فيها أبدًا، بل ولا يعرف كيف تدور الدورة الدموية ولا يعرف كيف تصنع الرئة فعلها، ولا الجهاز الهضمي ولا الجهاز التناسلي، ولا أي جهاز، لا يعرف الإنسان شيئًا من هذا، أو بمعنى آخر: هو لا إرادة له فيها ولا يصنعها، إذًا فما فيه من الحيوانية أيضًا فهو مسخر فيه كالحيوان تمامًا، ولا اختيار له في شيء، ومن رحمة الله أن جعلني مسيرًا في ذلك كله، فإن إدارة أجهزة جسمي كانت ستؤجل إلى أن يصير لي عقل، فأعرف كيف أشغل أجهزة الجسم، فمن رحمة الله أنه جعلني مسيرًا ولا عمل لي في هذه المسألة البتة. لأنها تؤدي مهمتها وأنا نائم، فإذا كان لي اختيار، فمن يديرها لي وأنا نائم؟

إذًا ما في الإنسان من جمادية ونباتية وحيوانية مسير كهذه الأجناس تمامًا ولا اختيار له في شيء.

وأما جانب التخيير فيه فهو فيما تميز به ـ والذي جعله إنسانًا ـ وهو العقل **والفكر.. وهي** المنطقة التي يعرض فيها الفعل على العقل، يفعل أو لا يفعل، فتلك هي المنطقة التي يوجد فيها الاختيار، وهي منطقة التكليف من الله.

ولذلك فإن فاقد هذه لا يكلف من الله، لماذا لا يكلف المجنون؟ لأنه فقد أداة الاختيار بين البديلات . . . والذي لم ينضج عقله بعد لم يكلف أيضًا، لأنه لم يكن أهلاً للحكم على الأشياء. إذًا فربط التكليف بالعقل وجودًا ونضجًا، يدل على أن مهمة التكليف هي في الأمر الاختياري الذي يجد الإنسان فيه بديلاً، يفعل، أو لا يفعل.

ولو أن الإنسان لم يكن مخيرًا، لاستوى أن يكلف المجنون وغير ناضج العقل، إذًا مادام قصر التكليف على العاقل. والعاقل الذي نضج عقله. أي الذي بلغ سن الرشد، فما دام التكليف منصبًا عليه، فيكون التكليف هو في منطقة الاختيار، ومنطقة الاختيار هذه هي التمييز، إذًا فالذي يقول: إن الإنسان على إطلاقه مسير، يكون مخطئًا، أو يقول: إن الإنسان على إطلاقه مخير يكون مخطئًا، بل هو مسير ومخير، على نحو ما بينا(١).

٢ـ مسألة: هل علم الله تعالى السابق يجبر العبد على الفعل؟

علمنا أن القضاء والقدر مبني على علم الله تعالى السابق الذي دون في اللوح المحفوظ. فهل هذا العلم يحمل معنى الإجبار، لأنه لا يتخلف؟

نقول: وبالله تعالى التوفيق: العلم ليس صفه جبر، إنما العلم صفة انكشاف فقط، تكشف الأشياء على ما هي عليه.

وأنا سأضرب مثلاً بسيطًا جدًا، لو جاءني زائر في البيت، وعندي خادم فأرسلته يحضر مشروبًا للضيف من البقال، فلما خرج أبطأ، فقلت لضيفي، هل تعرف لماذا أبطأ، قال: لا، قلت: ولكني أعرف، أكيد أنه لما نزل إلى الشارع التقى بولد آخر مستول عليه، وحينما يراه خارجًا لشراء حاجته، يأخذه ويلعب معه، ويأخذ منه النقود، أو تضيع منه، وهو خائف أن يأتي.

---

(١) القضاء والقدر للشيخ الشعراوي ص٤٣ ـ ٤٧ بتصرف.

هذا الكلام قد قلته وأنا في منزلي مع ضيفي، وبعد ذلك جاء الولد فسألناه ما الحكاية. فقال كما قلت أنا: هل يا ترى - عندما تكلمت أنا عن الولد وما يصنعه. وقلت إنه سيحصل منه كذا وكذا، أكنت قد أرسلت معه قوة لترغمه على فعل ما توقعته منه؟ أم هو في حاله؟ إذاً فكيف قلت أنا هذا الكلام عنه؟ قلته لأنني أعرف سوابقه مع أن معرفتي لسوابقه تكون للعلم فقط، ولكن ليس عندي قدرة ترغمه على تنفيذ ما أقول.

كذلك - ولله المثل الأعلى - علم الله سبحانه وتعالى أزلاً ما يكون من عبده المختار، فقال: سيكون من عبدي كذا وكذا، فهو كتب، لا ليلزم، ولكنه كتب لأنه عالم بما يكون من العبد، والفرق بين الصورتين، أن العلم في البشر قد يتخلف فيه شيء، من الجائز أنني أعرف أن هذا الولد صفته صحيحة، وسأحكم هذه الأحكام، ولكن يمكن أن يخرج هذه المرة. فتصدمه سيارة فينقل إلى المستشفى، ولا يحدث شيء مما قلته.

أقول: هذا خطأ في علمي أنا، لأني بشر، وعلمي قاصر.

لكن الحق لا خطأ عنده في علمه، لأنه علم إلهي شمولي، إذاً فالله كتب قديمًا لأنه علم ما يكون من عبده باختياره، فهو لا يكتب ليلزم، لأن العلم صفة انكشاف وليس صفة تأثير وإجبار كالقدرة[١].

وهذا مثل آخر: المدرس الذي يدخل الفصل، ويتفرس وجوه التلاميذ.

فيقول لتلميذ: أنت ستتفوق هذا العام، ويقول للثاني: وأنت ستنجح، ويقول للثالث: وأنت سترسب، ويمضي العام الدراسي بطوله، وكذا الامتحانات، وتظهر النتيجة، ويكون الأمر كما قال الأستاذ، فهل كان للأستاذ دخل في تلك النتيجة، أو هو أجبر واحداً منهم على ما يقول؟ كلا، ولكنها خبرة أو فراسة جعلته يقول ما قال.

ولله المثل الأعلى، كتب حسب علمه الشمولي، فالأمر كما علم وكتب.

---

(١) القضاء والقدر للشيخ الشعراوي ص ٦٠ ، ٦١ بتصرف.

وما وجه الغرابة في ذلك، والإنسان المخلوق المحكوم بقوانين القدر، التي لا يستطيع أن يخرج عنها بحال من الأحوال، لا ينكر عليه إذا أراد أن يبني منزلاً أن يرسم له صورة كاملة على ورقة صغيرة. ثم يأخذ في بنائه، فيخرجه - إن كان ذا قدرة وعلم كافيين - صورة طبق الأصل، فلا يختلف شيء مما قدره فيه، ولا يختلف فيه شيء عما رسمه له.

إذا كان الإنسان على ضعفه وعجزه لا يستغرب منه ذلك، بل يحمد عليه، ويثنى عليه به، فكيف يستغرب مثل ذلك من الله الخلاق العليم، ذي القوة المتين؟؟!!(١).

«إن العلم الإلهي يمتاز بالإحاطة التامة والشمول الكامل لأعمال الناس على مختلف القرون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥١، ٥٢].

ولكن كيف يتفق القول بحرية الإرادة والقول بأن أعمالنا لن تخرج عن دائرة العلم الإلهي المحيط الشامل؟

والجواب سهل: قف أمام مرآة مجلوة صافية، وأنت عابس الوجه، ومقطب الجبين، فماذا ترى؟ سترى صورتك كما هي عابسة مقطبة.

أي ذنب للمرآة في ذلك؟ إن مهمتها أن تصف وأن تكشف وهي قد صدقت فيما أثبتت لك، ولو كنت ضاحك الوجه لأثبتت لك على صفحتها خيالاً ضاحكًا لا شك فيه.

كذلك صفحات العلم الإلهي ومرائيه لا تتصل بالأعمال اتصال تصريف وتحريك، ولكنه اتصال انكشاف ووضوح، فهي تتبع العمل ولا يتبعها العمل.

غاية ما يمتاز به العلم، أنه لا يكشف الحاضر فقط، ولكنه يكشف كذلك الماضي والمستقبل. فيرى الأشياء على ما كانت عليه، وعلى ما ستكون عليه، كما يراها وهي كائنة، سواء بسواء»(٢).

---

(١) عقيدة المؤمن ص٤١٩ بتصرف.

(٢) عقيدة المسلم ص١٠٨ بتصرف.

٣ـ مسألة: هل القضاء والقدر يتنافى مع عدل الله؟ وهل العبد يخلق أفعاله بنفسه؟!

وحينما نتعرض لهذه المسألة فلابد أن نتناولها على أساس أن لله وصفين:

الوصف الأول: أنه هو الخالق وهو الفعال لكل شيء، هذه واحدة.

والوصف الثاني: أنه عدل، ولا ينبغي لأحد أن يأخذ صفة على حساب صفة.

فالذي يقول: إن الله هو الذي يفعل للإنسان كل شيء فهو يريد أن يحقق لله صفة الخلق لكل شيء، وبعد ذلك يحله عن صفة العدل، فما دام هو الذي فعل كل شيء، فلماذا يعذبني حينما أعصاه؟ فنجد مسألة العدل هذه ستنتهي.

وآخر يريد أن يحقق فكر العدل لله فنجده يجعل للإنسان فعل كل شيء.

ونحن نقول للاثنين: لا، فأنتما على خطأ، فلابد أن تأخذ كل صفة سبيلها. فهو خالق كل شيء، نعم ولكنه عدل أيضًا، وكلمة عدل تتطلب منا أن نفهم أن الله لم يكلفنا إلا بما خلقنا صالحين لفعله، وصالحين لعدم فعله، فيوجه لنا الوجهة، والأدلة صالحة أن تفعل . أو لا تفعل.

فأنا مثلاً حينما أرجح طريقًا على طريق، لا يقال: خلقت الفعل، وإنما وجهت الطاقة المخلوقة لله، بالعقل المخلوق لله، للمادة المخلوقة لله، فأنا ليس لي فعل، وإنما أنا وجهت الأدوات الفاعلة فقط، وما دمت أنا الذي وجهت، فالفعل ليس مني، وإنما التوجه فقط للفعل مني أنا، فإذا الإنسان المؤمن يقول: الله يفعل كل شيء، نعم هو يفعل كل شيء ولكنه مع ذلك عدل.

نأتي هنا ونقول: ما مهمة الرسل إذًا؟ إن مهمة الرسل هي أن ترسم منهج الله لتقول لك: افعل كذا، أو لا تفعل كذا، الله لا يقول لك: افعل كذا، ولا تفعل كذا، إلا إذا كان خلقك صالحًا لأن تفعل أو لا تفعل، فعندما يقول: افعل هذا فلابد أن يكون قد خلقني صالحًا لأن افعله أو لا أفعله، ولو كان قد خلقني صالحا لأن أفعل فقط لما قال لي: لا تفعل. ولو كان قد خلقني صالحًا مثلاً لئلا أفعل، لما

قال لي: افعل، فإذًا لابد أن يكون قد خلقني في هذا الأمر العقلي وأنا صالح لأن أفعل هذا، ولأن أفعل هذا[١].

٤ـ مسألة: هل القضاء والقدر يتنافى مع الأخذ بالأسباب؟

معلوم أن القضاء والقدر لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب، إذ الأخذ بالأسباب واجب، وتركها معصية، والاعتماد عليها شرك.

وعلى الإنسان أن يأخذ بالأسباب، التي توصله إلى النتائج، فهو يأخذ بالأسباب التي تنفعه، وتنأى به عما يضره، ويأخذ بالأسباب التي تهديه ولا تضله.

وإذا كان الله عز وجل قد قدر أجله فإنه يأخذ بأسباب النجاة والحياة، وإذا كان قدر رزقه، فهو يأخذ بأسبابه بالسعي عليه والضرب في الأرض، فإن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وإذا كان قد قدر عمله فهو مطالب أن يمتثل ما أمر به، وينتهي عما نهى عنه، وإذا كان قدر أزلاً سعادته أو شقاوته فإنه يجب عليه أن يأخذ بأسباب السعادة، ويتجنب مزالق الشقاء. وكل ميسر لما خلق له. فليس القدر إجبارا على أن نفعل، وإنما هو إخبار عن علم الله بكسب العبد وصدوره عن تقدير منه تعالى، وخلقه له، وعلمه سبحانه بما سيقع، من غير تأثير في إرادة لأن العلم صفة انكشاف لا صفة تأثير كما بيّنا. هذا ما ينبغي أن نفهمه عن القدر، وهو مقتضى فهم الرسول ﷺ وفهم أصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

وفي الحديث عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي عليه السلام ليلة فقال ألا تصليان؟ فقلت: يا رسول الله: إن أنفسنا بيد الله، إن شاء أن يبعثها بعثها، فانصرف رسول الله ﷺ ورجع وهو يضرب على فخذه ويقول: «**وكان الإنسان أكثر شيء جدلا**»[٢].

---

(١) القضاء والقدر للشعراوي ص٤٧ - ٤٩ بتصرف.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ١١٢٧ ـ ومسلم ٧٧٥.

وسرق أحد اللصوص، فلما حضر بين يدي عمر رضي الله عنه، سأله: لم سرقت فقال: قدر الله ذلك، فقال عمر رضي الله عنه: اضربوه ثلاثين سوطًا، ثم اقطعوا يده، فقيل له: ولم؟ فقال: يقطع لسرقته، ويضرب لكذبه على الله[1].

إن القدر لا يتخذ سبيلاً إلى التواكل، ولا ذريعة للمعاصي ولا طريقًا إلى القول بالجبر، وإنما يجب أن يتخذ سبيلاً إلى تحقيق الغايات الكبرى من جلائل الأعمال، إن القدر يرفع بالقدر، فيدفع قدر الجوع بقدر الأكل، وقدر الظمأ بقدر الري، وقدر المرض بقدر العلاج والصحة، وقدر الكسل بقدر النشاط والعمل.

ويذكر أن أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما فر من الطاعون: أتفر من قدر الله، قال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم؛ نفر من قدر الله إلى قدر الله[2].

أي يفر من قدر المرض والوباء إلى قدر الصحة والعافية، ثم ضرب له مثلا بالأرض الجدباء والأرض الخصبة، وأنه إذا انتقل من الأرض الجدباء إلى الأرض الخصبة لترعى فيها إبله، فإنه ينتقل من قدر إلى قدر.

لقد كان يمكن للرسول ﷺ وصحابته أن يستكينوا كما يستكين الضعفاء الواهنون معللين أنفسهم بالفهم المغلوط الذي يتعلل به الفاشلون، ولكنه جاء يكشف عن وجه الصواب فلم يهن ولم يضعف، واستعان بالقدر على تحقيق رسالته الكبرى، ملتزمًا سنة الله في نصره لعباده.

فقاوم الفقر بالعمل، وقاوم الجهل بالعلم، وقاوم المرض بالعلاج، وقاوم الكفر والمعاصي بالجهاد، وكان يستعيذ بالله من الهم والحزن، والعجز والكسل، وما غزواته المظفرة إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسب مشيئة الله وقدره. هذا هو القَدَرُ الذي ينبغي أن نعرفه عن القَدَرِ، وما وراء هذه المعرفة عنه

---

(١) رسائل في العقيدة والعقائد الإسلامية ص٨٥.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٥٧٢٩ ـ ومسلم ٢٢١٩.

فلا يحل لنا البحث فيه ولا التنازع في شأنه، فإن هذا من أسرار الله التي لا تحيط العقول بها، ولا تدركها الأفكار(١).

قال الخطابي: «قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه العبد على ما قدره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمون، وإنما معناه الأخبار عن تقديم علم الله سبحانه بما يكون من اكتسابات العبد، وصدورها عن تقدير منه تعالى وخلقه لها خيرها وشرها.

والقدر اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر»(٢).

فالله سبحانه وتعالى قدر المقادير وهيأ لها أسبابًا، وهو الحكيم بما نصبه من الأسباب في المعاش والمعاد، وقد يسر كلاً من خلقه لما خلق له في الدنيا والآخرة، فهو مهيأ له وميسر له، فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها، كان أشد اجتهاداً في فعلها والقيام بها أعظم منه في أسباب معاشه ومصالح دنياه من كون الحرث سببًا في وجود الزرع، والنكاح سببًا في وجود النسل، وكذلك العمل الصالح سببًا في دخول الجنة، والعمل السيء سببًا في دخول النار.

وقد فقه هذا كل الفقه من قال من الصحابة لما سمع أحاديث القدر: ما كنت بأشد اجتهاداً مني الآن.

وقال النبي ﷺ : «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل**»(٣).

وفي الحديث أن رجلا أتى النبي، فقال: أرأيت رقيّ نسترقيها، ودواء نتداوى به، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «**هي من قدر الله**»(٤).

---

(١) العقائد الإسلامية ص٨٥، ٨٦.

(٢) العقائد الإسلامية ص٨٤.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٦٤.

(٤) أخرجه أحمد ١٥٥١٠ ـ والترمذي ٢٠٦٥ ـ وابن ماجه ٣٤٣٧ وغيرهم، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي، وضعيف ابن ماجه.

يعني أن الله تبارك وتعالى قدر الخير والشر وأسباب كل منها(١).

٥- مسألة: الاحتجاج بالقدر:

معلوم أنه يحتج بالقدر في المصائب، لا في الذنوب والمعائب.

ولكن قومًا احتجوا بالقدر في المعاصي والذنوب، واستدلوا على ذلك بحديث «احتجاج آدم وموسى» كما في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال نبي الله ﷺ: احتج آدم وموسى. فقال موسى. يا آدم أنت أبو البشر الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد له ملائكته، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى الذي كلمك الله تكليمًا، وكتب لك التوراة، فبكم تجد فيها مكتوبا ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ قبل أن أخلق، قال: بأربعين سنة، قال فحج آدم موسى»(٢) وقد روي بطرق أخرى.

وقد ظن كثير من الناس أن آدم احتج بالقدر السابق على نفي الملام على الذنب.

قال ابن القيم رحمه الله ما ملخصه: رد هذا الحديث من لم يفهمه مع أن الحديث متفق على صحته، وأما من قال بصحته فقد اختلفوا في فهمه أو فهم حجة آدم التي حج بها موسى، فمنهم من قال: حجه لأنه أبوه، كما يحج الرجل ابنه، وهذا الكلام لا محصل فيه البتة.

ومنهم من قال: إنما حجه لأن الذنب كان في شريعة، واللوم في شريعة أخرى، وهذا من جنس ما قبله، ومنهم من قال: إنما حجه لأنه قد تاب من الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ولا يجوز لومه، وهذا وإن كان أقرب مما قبله، إلا أنه لا يصح، لأن آدم لم يذكره، ولأن موسى يعرف ذلك.

ومنهم من قال: إنما حجه لأنه لامه في غير دار التكليف، وهو فاسد من وجهين: عدم اعتراض آدم بقوله: لمتني في غير دار التكليف، ولأن الله يلوم العباد في غير دار التكليف.

---

(١) الثمرات الزكية في العقائد السلفية ٢٤٢، ٢٤٣ بتصرف، ومعارج القبول ص٢٩٧.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري ٦٦١٤ - ومسلم ٢٦٥٢.

ففي الحقيقة كل هذا باطل لم يصح، وفاسد لوجوه كذلك، وأسباب مختلفة، وأدلة قوية. ولنرجع إلى حديث احتجاج آدم وموسى: فنقول: موسى أعرف بالله وأسمائه وصفاته من أن يلوم على ذنب قد تاب منه فاعله فاجتباه ربه وهداه واصطفاه، وآدم أعرف بربه من أن يحتج بقضائه وقدره على معصيته، بل إنما لام موسى آدم على المصيبة التي نالت الذرية بخروجهم من الجنة ونزولهم إلى دار الابتلاء والمحنة بسبب خطيئة أبيهم، فذكر الخطيئة تنبيهًا على سبب المصيبة والمحنة التي نالت الذرية، ولهذا قال له: «أخرجتنا ونفسك من الجنة» وفي لفظ «خيبتنا» فاحتج آدم بالقدر على المصيبة، وقال: إن هذه المصيبة التي نالت الذرية بسبب خطيئة كانت مكتوبة بقدره قبل خلقه والقدر يحتج به في المصائب دون المعائب أي أتلومني على مصيبة قدرت علي وعليكم قبل خلقي بكذا وكذا سنة، وهذا جواب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1].

فآدم عليه السلام ما خلق ليعيش في الجنة، وإنما ليكون في الأرض خليفة يحكم بحكم الله، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ [البقرة: ٣٠].

وهذا الحديث لا يدل على شيء قط مما يفكر فيه المعتذرون بالقدر، فالحديث ورواياته الأخرى، يشير إلى أن موسى كان يريد تحميل آدم متاعب الإنسانية كلها، ويرجع شقاء أبنائه جميعًا إلى أكلته المشئومة من الشجرة، وقد دافع آدم عن نفسه بصدق.

فإن وجود الحياة البشرية لم يكن نتيجة طبيعية ولا عقلية لذنب آدم.

كان من الممكن جدًا أن يعاقب آدم على خطئه بأي عقاب آخر، كالتوبيخ أو الحرمان المؤقت أو غير ذلك، أما ترتيب وجود العالم الزاخر بآلامه وآماله على هذه المعصية فهذا قدر إلهي محض، لم يدر بخلد آدم، ولا يجوز أن يعاتب عليه، ومن هنا حج آدم موسى.

---

(١) نقلاً عن الثمرات الزكية ورسائل في العقيدة لابن عثيمين.

أما مسئولية آدم الخاصة عن ذنبه الذي استغفر الله منه، فلا صلة له بهذا الحديث.

إن خطيئة آدم ليست سببًا شرعيًا، ولا علة عقلية، لوجود العالم وانتشار الناس في القارات الكبرى يشقون ويكدحون.

ولما توهم موسى ذلك عاتبه آدم ورده إلى أن ذلك القضاء المكتوب، فلا يجوز لأي امرئ أن يحمل الأب الأول هذه الأوزار كلها.

إن آدم يعلم - من غير مراء - أنه أخطأ حين أكل من الشجرة. وقد اعترف بذلك عن صدق، وطلب من الله المغفرة فغفر له.

أما أنه مصدر ما وقعت فيه البشرية كلها من عناء فهذا ما أنكره - وهو محق - وجعله من شئون القدر الأعلى، واقتنع بذلك موسى كما رأيت.

ومن السخف أن نخطئ نحن ثم نسوق كلمة آدم عذرًا لنا على خطئنا.

إن الصورة التي يرسمها الجبريون للعالم لا ترمز إلا إلى الفوضى المطلقة والخلط الشائن(١).

إن آدم لم يظلم أولاده، بل إنما ولدوا بعد هبوطه من الجنة، وإنما أهبط آدم وحواء، ولم يكن معهما ولد. حتى يقال: إن ذنبهما تعدى إلى ولدهما، ثم بعد هبوطهما إلى الأرض جاءت الأولاد، فلم يكن آدم قد ظلم أولاده ظلمًا يستحقون به ملامه، وكونهم صاروا في الدنيا دون الجنة أمر كان مقدراً عليهم، لا يستحقون به لوم آدم، وذنب آدم كان قد تاب منه، قال الله تعالى: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

كما قال: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ٣٧].

فلم يبق مستحقًا الذم ولا العقاب. ولو كان الاحتجاج بالقدر نافعًا لمن أذنب، لما كان آدم تاب واستغفر. وأيضًا فلو كان الاحتجاج بالقدر نافعًا له، فلماذا أخرجه من الجنة وأهبطه إلى الأرض؟!

---

(١) عقيدة المسلم للغزالي ص١١٤، ١١٥ بتصرف.

فإن قيل: وهو قد تاب فلماذا بعد التوبة أهبط إلى الأرض؟ قيل: التوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله فيبتلي بعد التوبة لينظر دوام طاعته، وقال الله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩].

وإذا كان الله تعالى يبتلي العبد بالحسنات والسيئات، والسراء والضراء، فالتائب أحق بالابتلاء فهبوط آدم ابتلاء له[1].

٦- مسألة في الهداية والإضلال:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

وقال جلا وعلا: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

هذه الآيات الكريمة وما في معناها في القرآن الكريم من الآيات التي فهمها كثير من الناس فهمًا خاطئًا، واستغلق عليهم فهمها، وفسرها على غير وجهها المراد، أو معناها الصحيح. ولو أدرك أن الله عز وجل موصوف بالعدل المطلق، وأنه لا يظلم الناس شيئًا، ما كان يذهب بعيداً، ولو فهم أن الهداية والإضلال مرتبطان بأسبابهما ما فهم الآيات فهمًا خاطئًا، ولو علم أن العبد إذا أكره على شيء، فإنه لا تقع عليه عقوبة، ما كان ينسب إلى الله ظلمًا وزوراً، يزعم أن الله أضله ثم يعاقبه!!

ولو جمع هذه الآيات الكريمة، المرتبطة بقضية الهداية والضلال، وحمل فيها المطلق على المقيد، لاتضحت له معالم القضية، ولما ضل السبيل.

---

(١) الاحتجاج بالقدر، لابن تيمية ص١٩ ـ ٢٠ بتصرف.

إن الله عز وجل خلق الإنسان، وجعل فيه صلاحية للهداية والضلال، أو الإيمان والكفر، فهو مخلوق صالح لأن يكون شاكرًا، ومخلوق صالح لأن يكون كفورًا، وليس مخلوقًا على حالة تناقض الحالة الثانية ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣].

والنفس صالحة لأن تكون فاجرة، وصالحة لأن تكون تقية، هذه مخلوقيتها لله ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

إذًا فما دام الأمر للاثنتين، وأنت صالح أن تتجه لواحدة منهما، فكونك تميل إلى هذه الجهة أو لا تميل إلى هذه الجهة فهذا هو محل الحساب ومحل المؤاخذة.

ولذلك إذا رأيت آية مطلقة كقوله تعالى: ﴿ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ فلابد أن تحمل المطلق في القرآن على مقيده، فالهداية هنا التي هي بمعنى تذليل العقبات والحمل على طريق الخير لمن استمع لله وآمن به، وأقبل على منهجه، فالمعونه تأتي من الله لصاحب ذلك، ولذلك قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٧، ٢٨].

فمن أناب إلى الله تعالى ورجع إليه وأقبل عليه، فإنه يهديه، ويزيده هدى.

وإذا قرأت قوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾. فإنما هو الذي لا يؤمن بالله ولا يستمع منه ولا يُقْبِلُ على منهجه، فكيف يهديه، وكيف يعينه الله، وقد اختار طريق الكفر والضلال، ولذلك تحمل المطلق على المقيد، في هذه الآية، فتجد أن قوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ يفسره مجموع آيات في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ [غافر: ٧٤].

وقوله سبحانه: ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقوله عز وجل: ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦].

وكذلك في مثل قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وأيضًا في قول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقوله جل وعلا: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨].

كذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

لكن أن يحملك الله تعالى على شيء ثم يحاسبك عليه، فأين هذا من عدل الله؟!! والدليل على المراد في توافر حرية الاختيار أن المكره على شيء لا يعاقب عليه، وما معنى الإكراه، أن يحملك على ما لا تختار، ما دام يكرهك، أي يحملك على ما لا تختار فلا يتعلق عقاب، إذ الذي يفسد عليك الاختيار يرفع عنك العقوبة، فمعنى ذلك أن المكلف هنا من له الاختيار، بدليل أنه حين يأتي واحد ويكرهك على العمل فلا يكون عليك عقوبة.

فمعنى هذا أن الذي خلقك، وخلقك مختارًا، فلابد أن تكون مؤمنًا بكل ما يكون منه، فإذا تدخلت قوة لتكرهك على شيء وأنت تختار غيره، فيكون الحساب في هذه قد ارتفع عنك. أما المسألة الأخرى وهي مسائل الدنيا وغيرها، فإن مسائل الدنيا عادة نجد أن النفس مقبلة عليها بطبيعتها، لكن هناك المناهج التي تحدد حركة المؤمن في الحياة، لا يوجد أحد يحث على أمر دنياه أبدًا، كل الناس مقبلون على أمور دنياهم بالأسباب والوسائل، فالذي يتقن الأسباب مؤمنًا كان أم كافرًا، يأخذ خيرها، يقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

ويقول: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وعالم الأسباب في مسائل الدنيا مطروح أمام الخلق، فالذي يأخذ للشيء أسبابه ويتقن عمله يأخذ خيره مؤمنًا كان أو كافرًا، لكن لا يأخذ منهج الله إلا من

آمن بالله، فمنهج الله هذا مخصوص بالمؤمنين، إن الذي يريد أن يصل إلى شيء ما فإنه يأخذ بأسبابه، فالذي يريد النجاح يجتهد في المذاكرة، والذي يريد المال يذهب إلى العمل، والذي يحرص على منفعة لا يقول: أنتظر القدر!! فالطالب الحريص على الامتحان يستيقظ له مبكرًا، وما رأينا من بين آلاف الطلاب من تأخر عن امتحانه، لأنه أخذ بالأسباب.

ولكن رأينا الآلاف من الناس يتأخرون عن صلاة الفجر، ثم يقولون: قضاء وقدر!!

فلماذا تَدخلَ القدر هنا ولم يتدخل هناك؟!!

لماذا لم يتدخل القدر إلا في الأمور المطلوبة تكليفيًا، وفي أمور الدنيا ترتب تلك الأمور، هذا سؤال أثاره المسرفون على أنفسهم «مسير أم مخير».

ولذا الدليل على ذلك، أن المسألة ليس فيها تناقض عقلي، لأنه لو كان هناك تناقض عقلي لكانوا سيقولون: إذا كان الله كتب على الإنسان المعصية، فلماذا يعذبه؟

ولنا هنا أن نقول: إنه يأتي الشق الثاني، وإذا كان كتب عليه الطاعة، فلماذا يثيبه؟

لم نسمع السؤال الثاني أبدًا! كل سؤال يرد يقال فيه: إذا كان الله قد كتب عَليَّ المعصية فلماذا يعذبني؟ ولم نسأل أبدًا، وإذا كان كتب عليه الطاعة فلماذا يثيبه؟ لماذا؟!. لأن المسألة الأولى جاءت له بظلم - كما يرى - والثانية جاءت له بيسر، فهو يريد أن يوجد لنفسه منفذًا ليخلص منه.. من ذلك الغرم.

ولذلك نأتي ونقول: إن الحق سبحانه وتعالى ما دام قد خلق له عقلاً، وجعل العقل هو مطية التكليف، بحيث إذا لم يكن عاقلاً لا يكلف، وإذا أكره يسقط عنه التكليف، وإذا لم يكن عقله ناضجًا أيضًا فمعنى ذلك أن الاختيار الموجود فيه مشروط في إقباله على العمل، والاختيار لا يكون إلا مع قدرته على هذا العمل وقدرته على العمل الآخر. والعقوبة ليست على الفعل، بل على توجيه الفعل إلى

شيء أنت نهيت أن تفعله. ولا يقول العبد: ما دام الله قد كتب عليَّ، فماذا يكون عملي أنا؟

ويكون ردنا عليه: وما الذي أدراك، أطلعت الغيب أم اتخذت عند الرحمن عهداً؟!!

ومن أعلمك أنك مكتوب من أهل الشقاء والضلال؟ هل قال لك ذلك أحد؟ لم يقلها لك أحد، وقد يرد بأن يقول: حين أقبل على العمل السيء أفهم أنني من أهل الشقاء، فنقول له: وهل أنت تقبل على كل عمل شرير، فلا يوجد ناس مطبوعون على الخير المحض. وناس مطبوعون على الشر المحض ولكن الله كتب عليك أزلاً.. لماذا؟ لأن لله الخلق والقدرة والعلم، صفة العلم عند الله هي التي جعلت الحق سبحانه وتعالى كأنه يقول: أنا سأخلق عبدي فلان وسأخلقه مختاراً في بعض الأعمال، وغير مختار في بعضها الآخر، وغير المختار فيه لا دخل فيه للحساب، وسأدخل الحساب فيما له فيه اختيار، لكن عبدي أنا أعلم أنه سيختار كذا وكذا، لذلك كتب أزلاً لأنه علم، والله أعلم[1].

٧ـ مسألة: هل هناك تعارض بين قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وبين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فهو مرة نفى عنه بـ لا النافية «لا تهدي» ومرة أثبت له ذلك بلام التوكيد «إنك لتهدي» ولا يمكن أن يكون النفي والإثبات متعلقين بمعنى واحد في الهداية، بل الهداية هنا لها معنيان: هداية بمعنى الدلالة، وهداية بمعنى المعونة.

أما التي للرسول ﷺ فالهداية بمعنى الدلالة ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي تدل الناس وترشدهم على طريق الخير، يسلكونه أو لا يسلكونه، هذا موضوع آخر، يؤمنون به، أو لا يؤمنون به، هذا موضوع آخر، فالذي يؤمن به

(١) القضاء والقدر للشيخ الشعراوي ص٥٣ ـ ٦٠ بتصرف.

ويقبل على منهج الله فيه ويصدق الله فيه، يكون عمل الله في أن ييسر عليه الأمر ويعينه، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧].

إذًا فالهداية ترد بمعنيين، بمعنى الدلالة، وبمعنى الحمل على الخير، فالتي بمعنى الدلالة فالكل مشترك فيها، وأما الحمل على الخير، فالذي يقبل على الله مؤمنًا به، ومصدقًا لهداه يقول له ما دمت آمنت بي وصدقت بي وأقبلت بنفسك على منهجي، أعينك أنا على ذلك المنهج وأمكنك منه وأريك حلاوته، فيزيدهم هدى وتقوى. وأما الذي لا يقبل هداية الدلالة، فإن محمدًا ﷺ لا يستطيع أن يمنحه هداية المعونة، ولو كان أقرب الناس إليه، وأحب الخلق إليه ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ وذلك كالذي حدث مع عمه أبي طالب.

ومما يدل على هذا المعنى من الآيات، قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: ١٧].

فهديناهم أي دللناهم، «فاستحبوا العمى على الهدى» أي أنهم قالوا: لا نحن غير مؤمنين بأن هناك ربًا، وليس هناك من توجيه، فإذا كانوا غير مؤمنين بأن هناك ربًا، وبأن منه التوجيه فكيف يُمكِّنهم من الهداية؟. لا يُمكِّنهم، وإنما يُمكِّنُ من أقبل مؤمنًا به، مصدقًا له، إذًا فهداية الرسل تأتي بمعنى الدلالة، والدلالة أنك تهدي إنسانًا إلى شيء، أي تدله على طريق الخير، مثلاً هناك فرق بين هداية تدل، وهداية تعين وتحمل.

هداية تدل: هذا قدر مشترك حتى مع الكفار كما في الآية «وأما ثمود فهديناهم» على المعنى العام بعدها قال مباشرة «فاستحبوا العمى على الهدى» فكلمة «هديناهم» هنا ليست بمعنى حملناهم على أن يكونوا مهتدين، ولكن هديناهم هنا، أي دللناهم على الطريق الموصل للخير، فهل استمعوا أم لم يستمعوا؟ لم يستمعوا، إذًا فوردت الهداية في القرآن بمعنى الدلالة على الطريق الموصل للخير ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠].

وكذا: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣].

ووردت أيضًا بمعنى آخر وهو التمكين من فعل الخير والمعونة عليه كيف هذا؟ نقول مثلاً: ـ ولله المثل الأعلى ـ أنا أمضي في الطريق وأريد أن أذهب إلى مكان ما، وأنا لا أعرف الطريق الموصل إليه، فجاء جندي المرور، وقال لي: هذا هو الطريق المؤدي إلى المكان الذي تريد، فَدَلّني على الطريق بكلامه، إذا أنا انصعت له وشكرته، وبعد ذلك اتجهت لأسير فيه، فأجده يقول لي: اسمع، هذا الطريق فيه عقبة في مكان كذا، ويصح أن تعمل كذا، حتى تنتهي منه، أي يرشدني إلى شيء في الطريق، والثانية أنه قد يطلب مني أن يذهب معي حتى يخلصني من هذه العقبة، فإذًا هناك هدايتان، هداية دلت على الطريق فقط، وهداية أعانت على أن تسلك الطريق. أعان جندي المرور من؟ الذي انصاع له وآمن بمشورته في أن الطريق هو هذا، أما الذي لا يأتمر بأمره ويقول له: لا.. أنت لا تعرف الطريق، وماذا عرفت أنت عن الطريق، فالطريق ليس هناك، أيمكن لجندي المرور أن يعينه عملاً بأن يسير معه إلى أن يدله؟ بالطبع لا، كذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ الهداية بالنسبة لله، الله يهدي الجميع مؤمنًا وكافرًا، يهدي بمعنى يدل الجميع على طريق الخير، وبعد ذلك فالذي يؤمن به إلهًا ويستمع إليه بعد ذلك، يعينه ويسهل عليه المهمة، والمعونة لا تتأتى إلا من مقبل على عمل وبعد ذلك تعينه، أما غير المقبل على عمل فكيف تكون المعونة؟ فالمعونة لا تأتي لشخص لا يعمل، ثم تجعله يعمل، لا، ولكن المعونة أن تجد واحدًا مقبلاً على عمل، وبعد ذلك تعينه أنت على العمل[1].

٨ـ مسألة حول مشيئة الرب ومشيئة العبد:

قد يقال: إذا كان الله منح العبد الحرية والاختيار، فما معنى قوله تعالى: ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

---

(١) راجع القضاء والقدر، للشيخ محمد متولي الشعراوي ص٤٩ ـ ٥٢.

فنقول: معناها أن الإنسان لا يشاء شيئًا إلا إذا كان في حدود مشيئة الله وإرادته، فمشيئة البشر ليست مشيئة مستقلة عن مشيئة الله، والله قد شاء للإنسان أن يختار أحد الطريقين: طريق الهداية، أو طريق الضلالة.

فإذا اختار الطريق الأول ففي نطاق المشيئة الإلهية، وإذا اختار الطريق الثاني ففي نطاقها أيضًا، وكل الآيات التي جاءت على هذا النحو فمعناها لا يتعدى ما ذكرناه.

وقد أراد المشركون أن يحتجوا بمشيئة الله على شركهم، وأنه لو لم يشأ أن يكونوا مشركين لما كانوا كذلك، فأبطل الله حجتهم ودحضها بقوله: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

فالقرآن يرد على المشركين من وجهين:

الأول: أن الله أذاق الكافرين الأول بأسه، وأنزل بهم عقابه، فلو لم يكونوا مختارين للجرائم والمآثم والكفر والشرك لما عذبهم الله، لأن الله عدل لا يظلم مثقال ذرة.

الثاني: أنهم زعموا ذلك عن جهل بالله، وجهل بدينه، وأنهم ليس عندهم من علم يمكن أن يُستند عليه، ويُرجع إليه، وإنما كفرهم هذا تمرد على دينه وافتيات على الحق الذي أنزله على ألسنة الرسل.

وإذا كان الله قد عذب الأمم السابقة على كفرها، وإذا كان المشركون ليس لهم من حجة يحتجون بها، فقد تقرر أن دعوى المشركين دعوى ظنية لا تقوم عليها حجة ولا ينهض بها دليل، وبذلك قامت حجة الله البالغة على هؤلاء، ولو شاء الله لأجبرهم على الهداية، وإذًا فلن يكونوا حينئذ من البشر، لأن البشر فطر على الحرية والاختيار.

وقد عاتب الله عز وجل رسوله ﷺ أن يكون في دعوته معنى الإرغام أو الإلزام، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ومعناه، لو أراد أن يجبرهم على الإيمان، لآمن كل أهل الأرض بمجرد صدور كلمة التكوين منه سبحانه وتعالى، وهي «كن» ولكنه لم يفعل لأنه خيرهم، ولم يجبرهم، ولذلك قال له: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

ومثل المشيئة تكون الإرادة، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وكذا قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

فما أراد المخلوق شيئًا ولا شاءه إلا وقد أراده الخالق وشاء ذلك، وإلا لزم أن يكون المخلوق أقوى من الخالق، مستقلاً بالأمر عنه وهو محال عقلاً وشرعًا.

وبهذا تتأكد الحقيقة أن الرب غير العبد، وأن العبد غير الرب سبحانه وتعالى، ويتبع ذلك أن لا تكون للعبد مشيئة مستقلة عن مشيئة الرب، وسابقة لها، وأن لا يكون للعبد من حق أن يسأل الرب تبارك وتعالى، لم فعل كذا؟ أو لِمَ لَمْ يفعل كذا؟ قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

٩ـ مسألة: الأمر الإلهي أمران «أمر كوني، وأمر شرعي»:

فهذا أمر يجب التنبيه عليه، والتنبه له، وبمعرفته تزول إشكالات كثيرة تعرض لمن لم يحط به علمًا، وهو أن الله سبحانه وتعالى له الخلق والأمر، وأمره سبحانه وتعالى نوعان:

١ ـ أمر كوني قدري. ٢ ـ أمر ديني شرعي.

فمشيئته سبحانه وتعالى متعلقة بخلقه، وأمره الكوني، وكذلك تتعلق بما يحب وبما يكره، كله داخل تحت مشيئته، كما خلق إبليس وهو يبغضه، وخلق

الشياطين، والكفار، والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها، فمشيئته سبحانه شاملة لذلك كله.

وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الديني وشرعه الذي شرعه على ألسنة رسله، فما وجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني ولم تتعلق به مشيئته. وما وجد من الكفر والفسوق والعصيان تعلقت به مشيئته ولم يتعلق به محبته، ولا رضاه ولا أمره الديني، وما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته، فلفظ المشيئة كوني، ولفظ المحبة ديني شرعي. كما أن لفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة كونية فتكون هي المشيئة، وإرادة دينية فتكون هي المحبة، إذا عرفت هذا.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وقوله عز وجل: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

لا يناقض نصوص القدر والمشيئة العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره، فإن المحبة غير المشيئة، والأمر غير الخلق، ونظير هذا اللفظ الأمر فإنه نوعان: أمر تكوين، وأمر تشريع، والثاني قد يعصى ويخالف، بخلاف الأول.

فقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

أمر كوني لا يناقض قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨].

فالأول تكوين، والثاني تشريع.

هذا، وقد ذكر بعض العلماء أن في قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

أنه أمر تكوين.

وأوضح الشنقيطي - رحمه الله - في أضواء البيان: فساد هذا الرأي، لأن الله عز وجل لا يأمر بالفحشاء وإنما هو أمر تشريع، أي يأمرهم بطاعته وترك معاصيه فيخالفون أمره ويخرجون عن طاعته، ويرتكبون ما نهى الله عنه، فيستحقون بذلك العذاب[1].

---

(١) ... في العقائد السلفية. الشيخ أحمد فريد ص٢٤٩ ، ٢٥٠ بتصرف.

١٠ـ مسألة: الحسنة والسيئة:

الحسنة حسنتان : «حسنة كونية وحسنة شرعية».

والسيئة سيئتان : «سيئة كونية وسيئة شرعية».

فالحسنة الكونية بمعنى النعمة والعطاء، والخير والصحة والعافية، والنصر والعز والجاه، فهذه الحسنة من الله تعالى.

والسيئة الكونية بمعنى النقمة والابتلاء والشر، والنقص والمرض، والهزائم وما إلى ذلك فهذه من عند الله تعالى أيضًا، لأنه عز وجل هو الذي يبلو العباد، امتحانًا وانتقامًا حسب مقتضيات رحمته في تربية عباده، وتدبير شأنهم.

وكما قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال عز من قائل: ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧].

وأما الحسنة الشرعية بمعنى الطاعة وفعل الخيرات، فإنها تنسب إلى الله عز وجل لأنه هو الذي بها أمر، وهو الذي شرعها للعبد، وعلمه إياها، وأمره بفعلها، وأعانه عليها، ووعده بحسب المثوبة عليها، ترغيبًا له في فعلها.

وأما السيئة الشرعية التي هي بمعنى المعصية والمخالفة، فهذه السيئة لا تنسب إلا إلى العبد فاعلها، ولا تصح نسبتها إلى الله تعالى أبدًا، لأن الله تعالى لم يشرعها ولم يأمر بها ولم يرغب فيها، بل حرمها وتوعد عليها منفرًا منها، فكيف تصح نسبتها إلى الله تعالى؟ اللهم، لا.

ونحن نستطيع بذلك أن نفهم قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٨، ٧٩].

إذًا الحسنة الشرعية والسيئة الشرعية كما قال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

والحسنة الكونية والسيئـة الكونية كما قال عز وجل: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

ردًا على المنافقين الذين كانوا ينسبون الحسنة بمعنى النعمة إلى الله تعالى، وينسبون السيئة بمعنى النقمة والبلاء والشر إلى رسول الله ﷺ، فرد الله تعالى عليهم قولهم هذا وعابه عليهم ونسبهم إلى سوء الفهم وقلة الإدراك، وأخبر مقررًا أن كلاً من هذين النوعين من الحسنة والسيئة هما من عند الله تعالى، وبهذا زال ـ والحمد لله ـ الإشكال الذي كان يقف عنده كثير من المؤمنين حيارى يكادون أن يقولوا: إن بين الآيتين تناقضًا أو تعارضًا في حين أنه لا تناقض بينهما ولا تعارض ـ كما رأيت ـ وحاشا لكتاب الله تعالى أن يضرب بعضه بعضًا، تناقضًا أو تعارضًا، وكيف يكون ذلك، والله منزله وهو العزيز الحكيم؟ يقول: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۞ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

....

وأخيراً: حكمة الإيمان بالقدر

وحكمة ذلك: أن تنطلق قوى الإنسان وطاقاته لتعرف هذه السنن، ولتدرك هذه القوانين وتعمل بمقتضاها في البناء والتعمير، وفي استخراج كنوز الأرض والانتفاع بما أودع في الكون من خيرات.

وبذلك يكون الإيمان بالقدر قوة باعثة على النشاط والعمل والإيجابية في الحياة كما أن الإيمان بالقدر يربط الإنسان برب هذا الوجود، فيرفع من نفسه إلى معالي الأمور من الإباء والشجاعة والقوة من أجل إحقاق الحق، والقيام بالواجب.

والإيمان بالقدر يرى الإنسان أن كل شيء في الوجود إنما يسير وفق حكمة عليا فإذا مسه الضر فإنه لا يجزع، وإذا صادفه التوفيق والنجاح فإنه لا يفرح ولا يبطر وإذا برئ الإنسان من الجزع عند الإخفاق والفشل، ومن الفرح والبطر عند التوفيق والنجاح كان إنسانًا سويًا متزنًا، بالغًا منتهى السمو والرفعة، وهذا هو معنى قول الله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

وللرضا بهذا القضاء نتائج سارة وثمرات طيبة، ومن تلك النتائج السارة والثمرات الطيبة أنه يكسب صاحبه قوة الشكيمة، ومضاء العزيمة، إذ من اطمأنت نفسه إلى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، خلت جميع أعماله من الحيرة والتردد، وانتفى من حياته القلق والاضطراب، لأنه بمجرد ما يترجح لديه الإقدام على أمر ما أقدم عليه في غير ما خوف ولا هيبة ولا تردد، ومن هنا فإنه لا يحزن على ماض، ولا يغتم لحاضر، ولا يؤلمه هم المستقبل، وبذلك يكون أسعد الناس حالاً، وأطيبهم نفسًا، وأصلحهم بالاً، وأهدأهم خاطراً، ومنها أيضًا: أنه يكون من أشجع الناس عقلاً وقلبًا، وأكرمهم قولاً ونفسًا، إذ من عرف أن أجله محدود، ورزقه معدود، فلا الجبن يزيد في عمره، ولا الشح يزيد في رزقه، نافس في البطولات، وسابق في المكرمات.

ومما لا شك فيه أن هذه الصفات قد تجلت واضحة في هذه الأمة - أمة الإسلام - أيام كانت عقيدة القضاء والقدر واضحة في نفوسهم، قوية في قلوبهم، فقد فاقوا الناس شجاعة وكرمًا وصبراً وحلمًا، ومعرفة وعلمًا، الأمر الذي تمكنوا به من سيادة العالم وقيادته مدة من الزمن طويلة غير قصيرة.

ومن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر

الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب بحيث لا يعتمد على السبب نفسه، بل يعتمد بقلبه على الله عز وجل، ويعلم أن كل شيء بقدر الله عز وجل.

وكذلك أن لا يعجب المرء بنفسه عند حصول مراده، لأن حصوله على نعمة يكون من الله تعالى بما قدره من أسباب الخير والنجاح، وإعجابه بنفسه ينسيه شكر هذه النعمة.

ومنها: الطمأنينة والراحة النفسية بما يجري عليه من أقدار الله تعالى، وتهون على العبد المصائب لعلمه بأن ذلك من عند الله سبحانه، وما كان من عند الله سبحانه، فالرضى به والتسليم له، شأن كل عاقل، لأنه خالقه وموجده من العدم، فهو حقه وملكه يتصرف به كيف يشاء، كما يتصرف العباد في أملاكهم من غير حرج عليهم.

ولذلك قال ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»**(1).

ومنها: أن يعتقد العبد أن ما وصل إليه من الخير على أي صفة كان، وبيد من أجرى، فهو من الله عز وجل، فيحصل له بذلك من الحبور والسرور ما لا يقادر قدره، لما له من العظمة التي تضيق أذهان العباد عن تصورها، وتقصر عقولهم عن إدراك أدنى منازلها.

---

(1) أخرجه مسلم ٢٩٩٩.

وما أحسن ما قاله الحربي - رحمه الله - «من لم يؤمن بالقدر لم يتهنَّ بعيش» وهذا صحيح فما تعاظمت القلوب بالمصائب وضاقت بها الأنفس وخرجت بها الصدور إلا من ضعف الإيمان بالقدر»(١).

فاللهم ارحمنا برحمتك، فإن بنا من الضعف ما أنت أعلم به منا، ومن عدم الصبر على حوادث الزمان ما لا يخفى عليك، ومن عدم الثبات على المحن ما لديك حقيقته، ولكننا نسألك العافية التي أرشدتنا إلى سؤالها منك، كما نسألك الثبات والتثبيت على الحق، وعلى صراطك المستقيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * * *

(١) الثمرات الزكية في العقائد السلفية ص٢٥١ ، ٢٥٢ بتصرف.

الخاتمـــة

الحمد لله أولاً وآخراً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وآخر دعوانا أن الحـمد لله رب العـالمين، ﴿**قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فيلفرحوا هو خير مما يجـمعـون**﴾، ونصلي ونسلم على خير خلق الله أجمـعين، ورحمة الله للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد . .

فإنه من تيـسير الله عز وجل ورحـمته أننا قد وقـفنا على «ركائز الإيمان» التي يجب على كل مسلم مـعرفتهـا والاعتقـاد بها، والإلمام بمسائلها، والتـعرف على جوانبهـا، وقد حاولت جاهداً الإلمام بمحتوياتهـا مع التركيز على أهمها، بتـبسيط أسلوبها، وهذه الأركـان ـ كما ترى ـ قد تـناولت الركن الأول منها «الإيمان بالله» في الجزء الأول من «حقيقة الإيمان»، ثم تناولـت بقية الأركان في هذا الجزء الثاني من كتابنا «حقيقة الإيمان» بفضل الله عز وجل.

وصدق رسول الله ﷺ ـ وقد سـئل عن الإيمان ـ فقال: الإيمان: «**أن تـؤمـن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»(١).

وهذا الإيمان كالشجرة التي لابد لها من ثمرة.

* وثمرة الإيمان بالله تعـالى هي حبـه سبحانـه وتعالى وتعظيمـه وخشيـته، وطاعته بفـعل محابه وترك مكارهه، والاستقـامة على شريعته، والتـصديق بوعده ووعيده، وكذا بحب رسـول الله ﷺ وتعظيمه وطاعته والتأسي به، ومـتابعته ﷺ قال تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [الأنفال: ١].

* وثمـرة الإيمان بالملائكة هو الاعتـبار بطاعـتهم. لأنهم لا يـعصـون الله ما أمرهـم، ويفعلون ما يؤمرون، والاستحياء منهم، وإكرامهم، لعلم المرء بأن الكرام

(١) صحيح تقدم.

الكاتبين لا يفارقونه، وكذا هو وسيلة إلى معرفة عظمة الله تعالى فيهم، وقدرته عليهم، إذ يقول سبحانه: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠].

* وثمرة الإيمان بالكتب أنها الوسيلة إلى الإيمان بالله تعالى ومعرفة علمه وأسمائه، ووعده ووعيده، كما هي وسيلة إلى تصديق الرسل الذين أرسلوا بها، وأنزلت عليهم، وكذا وسيلة إلى معرفة شرائع الله تعالى، وجميع ما يحبه الله ويرضاه، أو يكرهه ويسخطه من المعتقدات والأقوال والأفعال، وإلى معرفة الغيب وأحوال الدار الآخرة.

* وثمرة الإيمان بالرسل وسيلة إلى معرفة تطبيق شرائع الله تعالى، وبيان كيفيات أداء عباداته، ووسيلة إلى محبة رسل الله الباعثة على طاعتهم والتأسي بهم، واتباعهم والتزام شرائعهم والاهتداء بهديهم، واتباع ما جاء به أفضلهم وخاتمهم محمد ﷺ.

* وثمرة الإيمان باليوم الآخر وسيلة إلى فعل الخيرات، وترك المنكرات، بما يوجد في النفس من الرغبة فيما عند الله من خيري الدنيا والآخرة، وبما يوجد لها من الخوف من عذاب الله، والرهبة من عقابه، وبما أعده الله للمؤمنين من النعيم، وللكافرين من الجحيم.

* والإيمان بالقدر وسيلة إلى ترك الحزن على ما فات، وعدم الخوف على ما هو آت، والرضى بما ينزل بالعبد من ابتلاءات، وترك الفرح والبطر والأشر بما يؤتى الإنسان من ملذات، كما هو وسيلة إلى الصبر والتحمل، والطمأنينة والسكون بكل ما قضى رب الأرض والسموات.

وبناء على ما سبق، فإنه يتبين بوضوح أن كل ركن من أركان الإيمان الستة، المكونة لعقيدة المؤمن، يثمر للمؤمن ثمرة خاصة، وأن هذه الثمرات هي وسيلة إلى غاية من أشرف الغايات وهي كمال الإنسان الذاتي والروحي، وسعادته في الدنيا والآخرة، إذ كل كمال للإنسان وسعادة له مردهما إلى طاعة الله ورسوله ﷺ، تلك الطاعة المزكية للتفس والمؤهلة للإنسان لدخول دار السلام.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾

[الشمس: ٩، ١٠].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

والحمد لله أولاً وآخراً، إن كنت قد أصبت فذلك الفضل من الله، وإن كانت الأخرى فذلك مني، وأستغفر الله ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وصلي الله وسلم وبارك على سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً.

مراجع الكتاب

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ الكتاب المقدس «الأناجيل الأربعة»

* كتب السنة :

٣ ـ صحيح البخاري. دار ابن كثير ـ بيروت. تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.

٤ ـ صحيح مسلم. دار إحياء التراث العربي ـ بيروت. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي

٥ ـ سنن أبي داود. دار الفكر ـ بيروت. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد.

٦ ـ سنن الترمذي. دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون.

٧ ـ سنن النسائي. مكتب المطبوعات الإسلامية ـ سوريا، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة.

٨ ـ سنن ابن ماجه. دار الفكر ـ بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي

٩ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل. مؤسسة قرطبة ـ القاهرة.

١٠ ـ سنن الدارمي. دار الكتاب العربي ـ بيروت، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي.

١١ ـ مستدرك الحاكم. دار الكتب العلمية ـ بيروت. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

١٢ ـ معاجم الطبراني. المعجم الكبير مكتبة العلوم والحكم تحقيق: حمدي بن عبد المجيد ، المعجم الأوسط ـ دار الحرمين ـ القاهرة ـ تحقيق: طارق عوض الله، عبد المحسن بن إبراهيم، الروض الداني ـ المعجم الصغير ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ تحقيق: محمد شكور.

١٣ ـ فتح الباري لشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ـ الكليات الأزهرية.

١٤ ـ شرح السنة للإمام البغوي ـ دار الكتب.

١٥ ـ صحيح الجامع للألباني. ضعيف الجامع للألباني. المكتب الإسلامي ـ بيروت.

١٦ ـ السلسلة الصحيحة للألباني. السلسلة الضعيفة للألباني ـ مكتبة المعارف ـ الرياض.
١٧ ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ الريان للتراث.
١٨ ـ الترغيب والترهيب للمنذري ـ شباب الأزهر.

* كتب في التفسير :
١٩ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ـ مكتبة التراث الإسلامي.
٢٠ ـ تفسير ابن جرير الطبري.
٢١ ـ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ـ دار إحياء التراث العربي.
٢٢ ـ صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ـ دار القرآن الكريم.

* كتب في السيرة :
٢٣ ـ السيرة النبوية لابن هشام ـ دار التراث العربي.
٢٤ ـ الشمائل النبوية للترمذي. مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت ـ تحقيق: سيد عباس الجليمي.
٢٥ ـ دلائل النبوة للبيهقي. الريان ـ القاهرة
٢٦ ـ دلائل النبوة لأبى الشيخ الأصبهاني. دار طيبة ـ الرياض ـ تحقيق: محمد محمود الحداد.
٢٧ ـ الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي.
٢٨ ـ قصص الأنبياء لابن كثير ـ دار الحديث.
٢٩ ـ قصص الأنبياء د/ عبد الوهاب النجار ـ دار التراث.
٣٠ ـ مع الأنبياء في القرآن الكريم، عفيفي عبد الفتاح طبارة ـ دار العلم للملايين.

* كتب في العقيدة :
٣١ ـ الإيمان أركانه حقيقته ـ د/ محمد نعيم ياسين ـ مكتبة السنة.
٣٢ ـ إظهار الحق للشيخ رحمت الله الهندي ـ دار التراث العربي.
٣٣ ـ أهوال القيامة كما يصورها القرآن والسنة ـ للشيخ عبد الله الكليبي ـ دار الكتب السلفية.

٣٤ ـ الاحتجاج بالقدر لابن تيمية ـ المكتبة السلفية.
٣٥ ـ التذكرة في أحوال الموتى والدار الآخرة، للقرطبي ـ المكتبة السلفية.
٣٦ ـ التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار لابن رجب الحنبلي ـ مكتبة الإيمان.
٣٧ ـ تعصب اليهود د/ عمر عبد العزيز.
٣٨ ـ التعصب الصليبي د/ عمر عبد العزيز
٣٩ ـ آيات مظلومة د/ عمر عبد العزيز
٤٠ ـ الثمرات الزكية في العقائد السلفية، الشيخ أحمد فريد ـ مكتبة التوعية الإسلامية.
٤١ ـ الجزاء «الجنة ، النار» نعمت صدقي ـ دار الاعتصام.
٤٢ ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم.
٤٣ ـ رحلة في رحاب اليوم الآخر، الشيخ عبد العظيم بن بدوي ـ التوعية الإسلامية.
٤٤ ـ رسائل في العقيدة/ لابن عثيمين.
٤٥ ـ شرح العقيدة الطحاوية، مجموعة من العلماء ـ شباب الأزهر.
٤٦ ـ عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ـ مكتبة الكليات الأزهرية.
٤٧ ـ عقيدة المسلم للشيخ الغزالي ـ دار الكتب الحديثة.
٤٨ ـ عالم الملائكة، للشيخ عبد الحميد كشك ـ المختار الإسلامي.
٤٩ ـ عالم الملائكة الأبرار، للشيخ عمر سليمان الأشقر.
٥٠ ـ العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ـ الفتح للإعلام العربي.
٥١ ـ القضاء والقدر للشيخ الشعراوي ـ دار الشروق.
٥٢ ـ القضاء والقدر لابن عثيمين.
٥٣ ـ القيامة رأي العين. الشيخ محمد محمود الصواف ـ دار الاعتصام.
٥٤ ـ مشاهد القيامة في القرآن ، للشيخ سيد قطب ـ دار المعارف.
٥٥ ـ المهدي المنتظر، أبي الفضيل عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري.

٥٦ ـ معارج القبول، بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول للشيخ حافظ أحمد الحكمي ـ مكتبة زهران.
٥٧ ـ النهاية في الفتن والملاحم لأبي الفداء الحافظ ابن كثير ـ دار التراث الإسلامي.
٥٨ ـ شبهات التكفير. د/ عمر بن عبد العزيز ـ التوعية الإسلامية.
٥٩ ـ الشفاعة ، لأبى الوفاء درويش ـ المكتبة السلفية.
٦٠ ـ الصلاة وحكم تاركها ، ابن القيم ـ المكتبة السلفية.
٦١ ـ ظاهرة الغلو في التكفير. د/ يوسف القرضاوي ـ دار الاعتصام.
٦٢ ـ العلم يدعو للإيمان. كريس موريسون ـ مكتبة النهضة المصرية.
٦٣ ـ فتح المجيد ، عبة الرحمن بن حسن آل الشيخ مكتبة الرياض الحديثة.
٦٤ ـ في ظلال العقيدة، مفهوم الأسماء والصفات، سعد ندا ـ بدون ذكر الطبعة.
٦٥ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ابن حزم الأندلسي السلام العالمية.
٦٦ ـ قاعدة جليلة في التوسل، ابن تيمية ـ المطبعة السلفية.
٦٧ ـ الكشاف، الزمخشري ـ مطبعة الحلبي.
٦٨ ـ للكون إله ، عبد العزيز كامل الشهابي ـ دار الاعتصام.
٦٩ ـ مجموعة التوحيد . ابن تيمية، محمد بن عبد الوهاب ـ دار الفكر.
٧٠ ـ مجموعة الفتاوى. ابن تيمية ـ دار الفكر.
٧١ ـ مدارج السالكين . ابن القيم ـ دار التراث العربى.
٧٢ ـ وجوة الله تعالى. د/ يوسف القرضاوي ـ مكتبة وهبة.
٧٣ ـ الله . عباس محمود العقاد ـ دار المعارف.
٧٤ ـ الله يتجلى في عصر العلم . نخبة من الأمريكان ـ دار الاتحاد العربي.
٧٥ ـ الإسلام . سعيد حوى ـ مكتبة وهبة.
٧٦ ـ الإيمان . ابن تيمية ـ مكتبة أنس بن مالك .
٧٧ ـ إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالي ـ مكتبة زهران.
٧٨ ـ اتحاف الأذكياء بجواز التوسل بالأنبياء والأولياء.
محمد صديق الغماري ـ دار مرجان للطباعة.

٧٩ ـ بيان للناس من الأزهر الشريف. مجموعة علماء ـ مطبعة الأزهر.
٨٠ ـ تحقيق كلمة الإخلاص. ابن رجب الحنبلي ـ دار الفتح.
٨١ ـ حقيقة التوحيد. د/ يوسف القرضاوي ـ مكتبة وهبة.
٨٢ ـ الحد الفاصل بين الإيمان والكفر ـ دار الاعتصام.
٨٣ ـ دعاة لاقضاة . حسن الهضيبي ـ دار الطباعة والنشر الإسلامية.
٨٤ ـ الولاء والبراء في الإسلام . محمد بن سعيد سالم ـ دار طيبة للنشر والتوزيع
٨٥ ـ رسالة العبودية. ابن تيمية ـ المكتبة السلفية.
٨٦ ـ شبهات وردود حول العقيدة الربانية. عبد الله ناصح علوان ـ دار السلام.
٨٧ ـ شبهات التصوف . د/ عمر بن عبد العزيز ـ دار الهدى
* كتب متنوعة :
٨٨ ـ لسان العرب لابن منظور ـ دار المعارف.
٨٩ ـ القنديل في فقه الدليل لأبي المنذر عبد الحق بن عبد اللطيف ـ مكتبة مكة.
٩٠ ـ الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ـ د/ محمد أبو شهبة.
٩١ ـ التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. د/ أحمد سيد الكومي ، د/ محمد أحمد القاسم.

الفهرس العام للجزء الأول

الصحفة	الموضـــــوع
٣	المقدمة
٧	مقدمات في العقيدة
١٩	مفاهيم يجب الوقوف عندها
٣٢	مفهوم الإيمان
٣٩	مفهوم الكفر
٤٩	بين الكفر والإيمان
٥١	كلمة التوحيد (فضلها - شروطها - معناها)
٦٢	نواقض الإيمان
٧٥	حكم تارك الصـلاة
٧٩	معنى لا إله إلا الله
٨١	الكفر بالطاغوت
٩١	الإيمان بالله
٩٣	وجود الله
١٠٠	أسباب الإلحاد
١٠٤	أدلة وجود الله تعالى
١٠٤	دليل الخلق والحدوث
١٠٩	شبهات الملاحدة
١١٦	دليل الإبداع والعناية
١٢٥	دليل النظام والحـركة

دليل الفطرة والأخلاق والتاريخ ١٣١
أدلة مبسطة لولدك الصغير ١٣٦
الأدلة الشرعية أو الدينية ١٣٧
توحيد الله ١٤٥
توحيد الربوبية ١٥١
توحيد الألوهية ١٥٦
العبادات القلبية ١٦١
العبادات البدنية ١٦٤
العبادات القولية ١٦٥
العبادات الفعلية ١٧٠
منافذ الشرك ١٧٧
الوسيلة أو التوسل ١٨٢
الوسائل المشروعة ١٨٥
الوسائل الممنوعة ١٩٤
شبهات المتوسلة ١٩٥
الاستشفاع أو الشفاعة ٢١٥
الشفاعة المنفية ٢١٨
الشفاعة المثبتة ٢٢٠
التبرك أو البركة ٢٢٩
الولاية ٢٣٤
الكرامة ٢٤٣
الفرق بين الكرامة وغيرها من أنواع السحر ٢٤٦
الفرق بين الولي الصادق والدعي الكاذب ٢٥٩
عقيدتنا في الأسماء والصفات هي عقيدة السلف الصالح ٢٦٣

منهج السلف الصالح في الأسماء والصفات ٢٦٥
إثبات الصفات الذاتية لله تعالى ٢٦٨
رثبات الصفات الفعلية لله تعالى ٢٧٣
العلو ٢٧٦
الاستواء ٢٧٩
المعية ٢٨٢
توحيد الذات والأسماء والصفات ٢٨٩
توحيد الذات ٢٨٩
توحيد الأسماء ٢٩٣
توحيد الصفات ٢٩٦
كمال الله (صفات الكمال الأعلى لله عز وجل) ٣٠٧
النصف الثاني من كلمة التوحيد (أشهد أن محمداً رسول الله) ... ٣٢٥
مؤهلاته للنبوة كأدلة عقلية ٣٣٢
النبي محمد ﷺ خاتم النبيين ٣٤٧

الفهرس العام للجزء الثاني

الموضـــــوع	الصحفة
١ ـ الإيمان بالملائكة	٣٥٥
٢ ـ أدلة وجـود الملائكة	٣٦٠
٣ ـ وجـوب الإيمان بالملائكة	٣٦٤
٤ ـ أعمـال الملائكة	٣٦٧
٥ ـ بعض صفات الملائكة	٣٧٩
٦ـ عصمة الملائكة	٣٩١
٧ ـ الإيمان بالكتب	٣٩٩
٨ ـ ماهي منزلة القرآن الكـريم بين كتب الله تعالى	٤١٤
٩ـ هل القرآن مخلوق	٤١٩
١٠ ـ الإيمان بالأنبيـاء والرسل	٤٢١
١١ ـ مؤهلات النبـوة	٤٢٥
١٢ ـ الإيمان بالرسل إجمالا وتفصيلاً	٤٢٩
١٣ ـ عصمة الأنبياء وما أثير حولها من شبهات	٤٣٥
١٤ـ النبي محمد ﷺ	٤٥٧
١٥ـ مؤهلاته للنبوة	٤٦٨
١٦ ـ النبي محمد ﷺ خاتم النبيين	٤٨٣
١٧ـ الإيمان باليوم الآخـر	٤٨٩
١٨ـ أسمـاء اليـوم الآخر	٤٩١
١٩ـ الأدلة على البعث بعد الموت	٤٩٧
٢٠ ـ أشراط الساعة (علامـاتها)	٥١٢
٢١ ـ العلامات الصغرى	٥١٢

٢٢ - ظهور المـهدي ٥٣١
٢٣ - العلامـات الكبري ٥٤١
٢٤ - بداية الانقلاب الحقيقى بزوال الدنيا وإقبال الآخرة ٥٧٣
٢٥ - يوم البعث والوقوف على أرض المحشر ٥٨٠
٢٦- أخذ الصـحف والكتب ٥٩٤
٢٧ - ميزان الأعمال ٥٩٦
٢٨ - الحوض ٥٩٩
٢٩ - الصراط ٦٠٣
٣٠ - القنطرة ٦٠٦
٣١ - مشاهدة تراها يوم القيامة ٦٠٧
٣٢- نظرة على أرض المحشر ٦١٤
٣٣ - نعيم أهل الجنـة وعذاب أهل النار ٦١٩
٣٤ - الإيمان بالقضـاء والقدر ٦٧١
٣٥ - أنواع القضاء والقدر ٦٧٦
٣٦ - مراتب القضاء والقدر ٦٨٦
٣٧ - مسائل في القضاء والقدر ٦٩٤
٣٨ - المراجع ٧٢٥
٣٩ - الفهارس ٧٣١

إسلاميك جرافيك للكمبيـوتر
٠١٠١٥٥٥٩٢٧